عبدالله القصيمي

العالم ليس عقلاً

الثوار والدعاة والقادة والفنانون
والمفكرون . قوم من المرضى
والمتعبين ، يعالجون آلامهم
بتطبيب الآخرين .

عبدالله القصيمي

العالم ليس عقلاً

الثوار والدعاة والقادة والفنانون والمفكرون . قوم من المرضى والمتعبين ، يعالجون آلامهم بتطبيب الآخرين .

– الطبعة الأولى سنة ١٩٦٣ –

دِفاع عن إيماني

ايماني بالله والأنبياء والأديان ليس موضوع خـلاف بيني وبين نفسي أو بيني وبين تفكيري . ولا ينبغي أن يكون موضوع خلاف بيني وبـين قرائي . ولو أردت من نفسي وعقـلي أن يشكا لما استطاعا ، ولو أرادا مني أن أشك لما استطعت . ولو أني نفيت ايماني بالقول لمـا صدقت أقوالي . فشعوري أقوى من كل أقوالي !

ماذا لو أن أي انسان قال انه لا يحب نفسه أو لا يحب الحياة، فهل نصدقه، أو هل يصدق هو كلامه ؟ هل يمكن أن ننفي أنفسنا أو احساسنا بها بالكلام ؟ ان الحقائق الكبيرة لا تسقطها الألفاظ ، كذلك الايمان بالله والأنبياء والأديان من الحقائق القوية التي لا يمكن أن تضعفها أو تشككك فيها الكلمات التي قد تجيء غامضة أو عاجزة أو حادة لأن فورة من الحماس قد أطلقتها .

ان ايمـاني يساوي : أنا موجود ، إذن أنا مؤمن — أنا أفكر ، إذن أنا مؤمن — أنا انسان ، إذن أنا مؤمن !

في كل مجتمع حقائق معينة أو ملامح لا تخفى . من هذه الحقائق أو الملامح في المجتمعـات العربية قوة الايمـان . لا يخشى على العربي أن يكفر — ان يطغى فيه التفكير الى أن يضعف الايمان أو يزيله أو حتى ينافسه . ان هـذا هو آخر

ما يمكن أن يخشى عليه . وانما يخشى عليه أن يبالغ في ايمانه حتى ينهزم تفكيره أو يتوارى ، وحتى يؤمن بالخرافة ويقاوم الاصلاح والعدالة والتطور باسم الخوف على الايمان والمحافظة عليه .

ولو أن عربياً ألف كتاباً ضخماً ينكر فيه الايمان ويطالب الناس فيه بوقاحة أو ضراعة أن يحكموا عليه بالزندقة وأن يصدقوا انه قد خرج من كل أبواب الايمان ، لما استطعت أن أصدق ذلك ولظللت مصراً على انه مؤمن — مؤمن بأعماق تاريخه وروحه ومزاجه وبيئته وتلافيف نفسه ، بل لاعتقدت ان هذا الكاتب وهذا الكتاب ظاهرة من ظواهر الايمان القوي ، وانها إثبات للشيء بأسلوب نفيه وهو أقوى أساليب الإثبات . ان هذا المؤلف لا يعني إلا ما يعنيه الطفل حينما يقول لأمه : لست أمي ! أو ما تعنيه الأم حينما تقول لوليدها : لست ولدي ! انه تعبير عن الاحتجاج المحب الحاني أو عن الحب العصبي أو عن التدلل والثقة المتبادلة . وهو لا يكون أبداً اسلوباً من أساليب الإنكار . ان أي عربي يحاول أن يقنعنا بأنه قد اصبح كافراً فلن يستطيع . انه لا يستطيع لأنه لن يستطيع أن يكفر ، لأن الكفر عملية شاقة معقدة وليس كلاماً ، انه موقف فكري ونفسي وأخلاقي . والكلام ليس موقفاً .

الانسان لا يكون مؤمناً قديساً اذا قال أنا مؤمن قديس ، ولا يكون كافراً رديئاً لو قال أنا كافر رديء . لا يكون بالنفي والإثبات ، لا يكون صادقاً أو فاضلاً أو عالماً اذا قال عن نفسه انه كذلك ، ولا يكون عكس هذا اذا قال العكس . الانسان كفضائل وكرذائل وجود لا كلام ، وهكذا جميع الحقائق .

*

سيجد القارىء في هذا الكتاب أمثال كلمات : إله ، آلهة ، دين ، أديان ، نبي ، أنبياء . وقد يشعر أحياناً انها كلمات لا تحمل الاحترام الواجب لهذه الأسماء ، أو ان فيها شيئاً من التهوين والمساس . لهذا ظننت اني ملزم بوضع تصحيح صغير لهذا الذي قد يعد لدى فريق من القراء التباساً .

اني لا يمكن ان اعني بالإله أو الآلهة إله الكون وخالقه وواهبنا الحياة

والعقل والنور والخيرات الجمة . وإنما أعني بذلك الطغاة أو الأصنام أو الأوهام أو النظم الاجتماعية المتأخرة الظالمة المنسوبة الى الإله . وكذلك أعني بالأنبياء والأديان حيثما جاءت في كلامي غير أديان الله وأنبيائه . هذا تصحيح أسجله على نفسي كاحتياط مبالغ فيه جداً .

ان ايماني لا حدود له ، ولشدة اطمئناني الى ايماني لم أخف عليه من بعض التعبيرات التي قد تجيء متبرمة غاضبة . لقد وثقت بقوة الإله والأديان والأنبياء في نفسي وفي نفوس الناس من حولي ، فلم أخف على الله ولا على الأنبياء والأديان من الألفاظ . ولو اني خفت هذا الخوف ، لاتهمت ايماني بالضعف والهوان . فالذين يخافون على ايمانهم من الكلام ، قوم لا يثقون بايمانهم . والعالم العربي يجب ان يثق بإيمانه ، لهذا يجب ألا يخاف من أي كلام . لقد وثقت بإيماني وديني ، ووجب ان أثق بقومي ، فكتبت هذا الكتاب .

انه لا يخشى على الايمان من الصدق مهما كان ، وانما يخشى عليه من النفاق والادعاء والحديث عنه بلا فضيلة سلوكية او نفسية . انه حينئذ لا يعني غير مقاومة فضائل الدين تحت شعار حماية الدين !

ان على القومية العربية ان تثبت قدرتها على التسامح والشجاعة امام كل الأفكار والصدمات — ان تثبت انها لا تخاف اي تحد . لقد تسامح العقل العربي امام تحديات أبي العلاء وابي نواس وبشار بن برد وابن رشد وابن خلدون وابن سينا واخوان الصفا وكثيرين غيرهم . فكان هذا التسامح تمجيداً للعقل العربي لا طعناً ، وقد تعصب وضاق بمفكرين ومتمردين آخرين في أوقات اخرى ، فأصبح ذلك طعناً فيه لا تمجيداً . ونحن نفاخر اليوم بتلك المعاملة المتسامحة ، ونخجل من تلك المعاملة المتعصبة ونحاول اخفاءها وإنكارها . ولن تطعن القومية العربية ومزاياها العقلية والثقافية بمثل اتهامها بمقاومة التفكير ومعاقبة الذين يفكرون بمنطق جديد أو يتكلمون بلغة جديدة . ان اي حاكم او زعيم او كاتب او داعية دين يرفض اطلاق الأفكار ويتحول الى إرهاب لأي مفكر عربي لهو عدو في ثياب صديق ، بل لهو عدو في ثياب عدو . انه غبي في ثياب غيور .

ولننظر الى الفروق الأخلاقية والدينية والحضارية بين بلد يمارس كل الحريات مثل بريطانيا مثلاً ، وبلد آخر يعاف كل الحريات مثل اسبانيا او البرتغال . وحينئذ لن يصعب علينا ان نختار مكاننا مع هؤلاء او مع هؤلاء .

*

في العالم العربي واحياناً في غيره يشاهد دائماً الحكام والزعماء ورجال الدين والكتّاب وكل الطوائف الأخرى من تجار وعمال وباعة وغيرهم يتحدون بسلوكهم كل الأديان والمثل والنظريات والعدالة وجميع القيم المتقرر احترامها بالعلن والديمومة دون ان يجبنوا أو ان يغضب عليهم المجتمع غضباً كافياً وعادلاً .

ولكن لا يوجد في مثل هذه المجتمعات من يتحدونها بالرأي والنظرية . وهل فخر لأي مجتمع ان يكون كل من فيه يتحدون اديانه وانبياءه وتعاليمه وقوانينه بكل ضروب الفحش والعصيان ، ثم لا يوجد من يتحدى جموده او حتى يخاطب جموده بالتفكير ، ولو وجد لما غفر له كما غفر ويغفر لجميع الملوثة اديانهم واخلاقهم بكل ما عرفت الأرض من تراب وظلام ووحشية ؟ هل اللصوص والفاسدون العصاة والطغاة وقاهرو الشعوب أجرأ على التحدي بالسلوك من اصحاب التفكير بالكلمة ؟ وهل البشر ضالون واغبياء الى ان يجمعوا على الخروج على الله بالمعصية ويرفضوا من تقواهم فهمه او حتى الخروج عليه بالرأي ؟ أليس الذي يجحد الله بعمله اشد كفراً من الذي يجحده برأيه ، كما ان من يقتل ولدك او يهدم بيتك اشد عدواناً عليك وتحدياً لك ممن ينقدك او ينكرك او حتى يلعنك ؟

اني لا اشك في الله كما قلت ولكني كذلك لا اشك في ان من يؤمن به ثم يلوث ايمانه بكل الآثام المعروفة وغير المعروفة هو اشد كفراً من انسان لا يؤمن ويتنزه عن هذه الآثام . ولو قلت غير هذا لكنت هاجياً للإله .

قصيدة بلا عروض

ان عدواً متوحشاً ضارياً ليغزو العالم اليوم ، يغتال كرامته وذكاءه وحريته وكبرياءه ويضعف فيه جميع التعبيرات الانسانية . ذلك هو الحكم الوطني المطلق المتعاظم القوة والبطش ، وما يعبىء من أجهزة دعائية ضخمة حديثة شديـدة التوتر والضجيج والبذاءة ، ومن اسلوب بوليسي حاد الفتك والتعصب والغرور والغباء والخوف والاذلال .

هل هذا العدو يزداد قوة ام ضعفاً ! هل هو تعبير عن حالة جديدة متغيرة ام عن ضرورات محتومة ثابتة ؟ هل هو تعبير عن تاريخ الانسان ام افتراء عليه ، هل تعاظم لأننا كنا صغاراً ام لأننا اصبحنا كباراً ، هل اصبح كذلك لأننا كنا نحكم من خارجنا ام لأننا اصبحنا نحكم انفسنا ؟

اني اشعر بالارهاق لأني لا أعرف هل هذا العدو يزداد قوة ام يزداد ضعفاً ، هل هو ضيف مسافر ام مواطن مقيم .

*

ليس الواقف في صف الثوار إلا انساناً لم يجد مكاناً ملائماً في الصف المقاوم للثورة ، وليس الواقف في الصف المقاوم للثورة إلا انساناً لم يجد مكانه الملائم في الصف الثائر . غير ان الملاءمة هي دائماً حالة لا نظرية .

*

ان جبين الأرض لأقرب الى شفتي الانسان من جبين اي نجم في السماء ، وان أقدام البشر لتجد القدرة على الهبوط الى اعماق الأرض اكثر مما تجد القدرة على الارتفاع الى هامة الشمس . ما اتعس حظ الانسان — ان إباءه وشرفه وذكاءه ومقاومته ليست اقوى من ضعفه وغبائه وضروراته واستعداده الدائم للسقوط. ان كل صاعد مستعد دائماً للهبوط . اني لا ألعن الانسان لسقوطه ولكني ارثي له . اني ارثي له مخطئاً وملوثاً كما ارثي له متألماً ومشوهاً وحزيناً . انه يخطىء ويسقط لأنه ضعيف لا لأنه شرير . ان الذي يسقط او ينحرف او يضل انما يفعل ذلك لعجز في تفكيره او في مقاومته الأخلاقية او لأنه واقع تحت ضغط ظروف اقوى منه . وهل يلعن من كان ضعيف البدن اذا اصابه المرض لأنه ضعيف البدن ، او من خضع للمرض لأنه مريض ، او من لم يفهم اصعب القوانين الرياضية لأنه ناقص الذكاء ؟ ان القاتل مظلوم ومجني عليه مهما بدا ظالماً جانياً ، انه مظلوم اكثر من القتيل . لقد ظلم ظلماً متعاقباً ، وقع تحت ظروف القتل فقتل فعوقب او كان خليقاً ان يعاقب . ان وقوعه في قبضة هذه الظروف ظلم أول ، وخضوعه لها ظلم ثان ، ومجازاته ظلم ثالث . ان الذكاء والعدل في حمايته من هذه السلسلة الشريرة ، لا في لعنه او عقابه اذا وقع فيها مظلوماً مقهوراً .

اني ارثي لكل البشر ، لكل الأحياء . انهم جميعاً مظلومون مقتولون حينما يبدون قاتلين ظالمين ! ان كل سبب هو نتيجة وكل قاتل هو مقتول وكل خالق هو مخلوق .

*

ان قوماً يرتبطون بمذهب او نظام او عهد فيدافعون عن جميع ما فيه ، يدافعون عن كل جنونه واخطائه ويلعقون كل حماقاته ونزواته بغبطة ، وان آخرين يقفون نفس الموقف بنفس الحماس والاصرار من مذهب او نظام او عهد آخر .

ان هؤلاء وهؤلاء ليسوا احراراً . انهم عملاء ، يرتبطون بالشيء او نقيضه

تحت الظروف أو المصلحة او الهوى او الحساب الدقيق او الحساب الخاطىء . ان العالم مملوء بالعملاء فهل يوجد فيه أحرار ؟ الأحرار هم الذين يرون ذنوب أربابهم بالمستوى الذي يرون به مزايا هـــذه الأرباب ، ويرون الأرباب الأخرى بالمستوى الذي يرون به أربابهم . فهل يوجد أحرار على هذا المستوى ؟

إن من يهجو طاغية وهو راكع تحت أقدام طاغية آخر لهو مادح للطغيان بأسلوبين ! قد يكون نقد الفساد في قوم إنمـــا يعني الدفاع عن الفساد في قوم آخرين . قد يكون الهجاء مدحاً ، قد نمدح قاتلاً أو شريراً بهجاء منافسيه . قد تذهب تقاوم أو تلعن عدواً للحرية وأنت مجند تحت أعتى علم للعبودية . قـــد تحسب أنك بذلك قد أصبحت حراً ، أصبحت من كبار الأحرار . قد تنـــام حينئذ على بساط واسع مريح من الرضا عن النفس . قد يكون تحطيمك لصنم ما تشييداً لصنم أعظم . قد يكون هذا هو قصدك . قد يكون البشر كلهم مثلك ، لا يحطمون كل الأصنام وإنما يتوزعون ، يتنقلون بين اصناف الأصنام بـــلا حرية ولا كرامة !

*

ليس في أعداء الإنسان ما هو أكثر وحشية من المجد . المجد أقوى أعـــداء نفسه . انه يفترسها في مواكب من العناق والابتسام والدوي .

ان المجد الباذخ يضعف الرؤية وكل وسائـــل الاتصال بالأشياء وبالآخرين ، ويضللها . أكبر عيوبه ضعف حواسه . انه لا يرى ولا يسمع سوى نفسه .

ان بريق النجوم وشموخها وكبرياءها ليختطف ذوي الأمجاد العالية ويرتفع بهم فوق هموم الأرض وغبارها وفوق ما فيها من آلام وأحزان وآهات ومظالم وجماهير ، ويشدهم بعيداً ، بعيداً ، فلا يسمعون إلا هتاف الكواكب وترحيبها بهم وغناءها لهم . كأنها عرائس من العوانس تزف نفسهـــا اليهم في صخب من الجنون والحب والتخلي عن الوقار والاحتشام ، وكأنهم وحدهم في هذا الكون

السعيد الهاتف بمقدمهم العظيم . كأن الكون كله بكل ما فيه قصيدة غزلية أبدعتها شاعرية الآلهة لتكون صلاة أبدية في تمجيد هؤلاء المؤمنين بمجد أنفسهم.

*

انه كلما طال الليل خفنا النور ، عاديناه ، حاربنا الشمس . ونحن ننسى بلا بكاء ما نفقده شيئاً فشيئاً . والذين يعيشون بلا نهار لن يبكوا الشمس إذا قتلها الطغاة ، اذا سرقها اللصوص !

*

اني أشعر بعطف شديد على الكلمة . جميع الناس يظلمونها ويشوهونها . انهم يصنعون منها أجمل النعوش لأقبح الجثث . يضعون كل أكاذيبهم وتشوهاتهم في توابيت مزخرفة من الكلمات والشعارات . ان الوحل يتكلم بلغة الزهر ، والارنب بلغه الأسد ، والليل بلغة النهار ، والدجال بلغة النبي ، والمهرج بلغة البطل. في كل عصر كان يعتدى على الكلمة ولكن عدوان هذا العصر عليها لا مثيل له في وحشيته وجنونه وأساليبه. الناس لا يعيشون الكلام وإنما يلبسونه. والحقيقة المتوارية وراء أية كلمة هي نفس الحقيقة المتوارية وراء كل كلمة . والذي يقول باسم الإله افعل لا يعني إلا ما يعنيه من قال باسم الشيطان افعل – كلاهما يفعل باسم ذاته في الواقع لا باسم الإله ولا باسم الشيطان – كلاهما يفعل بلا إله تحت اسم أي إله .

*

ان كل دموع البشر تنصب في عيوني وأحزانهم تتجمع في قلبي وآلامهم تأكل أعضائي . ليس لأني قديس بل لأني مصاب بمرض الحساسية .

اني أنقد الإنسان بقسوة لأني أتألم له لأنه ليس سعيداً كما أُريده ، اني أُريده فوق ما هو كائن . ليس لأني قديس بل لأني متألم .

اني اريد الابتسام والسرور لكل القلوب والوجوه فلا أجدهما فأثور وأنكر وأُعاتب الكون والحياة لأنهما لم يعطياه ما أُريده له .

اني أُحب الإنسان وأحترمه وأشترط له حيث يبدو اني أُهاجمه وأُحقره . اني أغضب من أجل الانسان . ليس لأني قديس بل لأني حزين .

اني أشفق على الحياة في كل الأحياء – في الإنسان ، في الوحش ، في الذبابة ، في جرثومة المرض التي تقتات بحياتي . ليس لأني قديس ، بل لأني كائن حي ، يتصور العذاب ويجربه ويعيشه .

اني لأحس بدموع البرغوث تتقاطر في عيني وأحزان الذئب تتكلم في أعصابي وهموم العدو تعيش في همومي . ليس لأني قديس ، بل لأني ضعيف .

إني ضعيف ، لهذا أُدرك بعمق آلام الإنسان وأخطاء الكون وغباء الحياة .

ما رأيت إنساناً يبكي الا أحسست ان الانسان الذي في داخلي يبكي ، وما رأيت حيواناً مفترساً يجوع إلا أحسست ان حياتي هي التي تجوع . اذا رأيت وجهاً حزيناً وجدت الحزن في أشعة الشمس وفي اريج الزهر وغناء الطير لأني قد وجدته في فكري ووجهي وكل مرئياتي . اني احزن اذا رأيت محزوناً ، واذا رأيت مسروراً فإنه يذكرني بالمحزونين وانهم الأكثرون . فأحزن امام الحزن واحزن امام السرور . اني أتعذب بكل آلام العالم . ليس لأني قديس ، بل لأني انسان .

اني انقد لأني أبكي وأتعذب ، لا لأني اكره او أُعادي . انقد الانسان لأني اريده أفضل ، وأنقد الكون لأنه لا يحترم منطق الانسان ؛ وأنقد الحياة لأني اعيشها بمعاناة – بتفاهة ، بلا شروط ، بلا اقتناع ، بلا نظرية .

اني ارى واشعر بالرغم مني . اني ارى الدمامة والألم بالرغم مني ، فأصيح واحزن بالرغم مني ، فأنقد بالرغم مني . ليت العالم والإنسان بلا دمامة ولا ألم

لئلا اكون ناقداً ، او ليتني لا ارى ما في العالم ولا ما في حيـاة الانسان من ألم ودمامة لئلا اكون حزيناً .

ان الحزن والبكاء هما انبل العواطف الانسانية امام طوابير العذاب والتفاهات التي لا نستطيـع لها علاجاً . ما أفظع ان تكون مبصراً وحساساً ثم لا تكون حزيناً ولا ناقداً ، وما أفظع ألا تكون مبصراً ولا حساساً . ان هــذا موقف تحت مستوى الأخلاق ، تحت مستوى الانسان . ان الانسان هو وحـده الذي الذي يبكي ويحزن وينقد ويفكر ويتعذب بالرؤية والتفكير والخيال .

دعوني أبكي ، فما أكثر الضاحكين في مواقف البكاء . دعوني احزن فما اكثر المبتهجين امام مواكب الأحزان . دعوني أنقد فما اكثر المعجبين بكل التفاهات. دعوني أعبر عن احد جانبي الحقيقة ، فمـا اكثر المعبرين عن الجانب الآخر . دعوني أذرف الدموع فما أكثر من يبكون بلا دموع . دعوني أنقد الكون فمـا أكثر المؤهلين لأخطائه .

دعوني أُزعجكم فإن جميع ذنوب العالم وآلامه تعـبر فوق أعصابي لتنصب في أفكاري . دعوني أحتج على نفسي باحتجاجي على الآخرين !

***

المشكلة الأبديّة

(عبقرية الانسان كلها لا تعني اكثر من تسديد
احتياجات وجوده، ووجوده لا يعني شيئاً.
فماذا تعني إذن عبقريته ؟)

مشكلة كل انسان انه ليس حراً في أن يقبل حياته أو يرفضها . انه لا يستطيع ان يتوقف عن الحياة حينما يصبح التوقف عنها شيئاً تفرضه الأخلاق والكرامة والعقل ، بل ولا يستطيع ان يريد هذا التوقف حتى ولا حينما تتحول الحياة الى عذاب لا يطاق ويأس لا أمل فيه . فالحياة لا تمارس على انها شروط ملائمة ولكن على انها التزام بلا شروط .

ان الناس جميعاً حتى اعظمهم كبرياء وعبقرية يستطيعون ببساطة، بل وبلذة احياناً ان يحيوا في مستوى الصراصير دون ان يستطيعوا رفض هذه الحياة أو إرادة رفضها . إذ لا يوجد حد أدنى ولا شروط معينة من أي نوع في سلوك أي انسان مهما كانت كبرياؤه او ذكاؤه ليرفض الحياة اذا جاءت دون ذلك .

والبشر لا يقبلون حياتهم او يرفضونها، ولكنهم يحيونها كما ان الحجر لا يقبل

وجوده او يرفضه ، ولكنه يوجـــد . إذ القبول كالرفض ، حالة من حالات الاختيار الحر . ونحن كما لا نستطيع ان نرفض الحياة ، كذلك لا نستطيـع أن نقبلها .

واذا سألنا : لماذا نحن – فلسنا نسأل سؤالاً للبحث عما يجب او للتنفيذ . وإنما سؤالنا اسلوب من اساليب السقوط والتحطم مثلما يحدث حينما تسقط صخرة فتتحطم محدثة صوتاً مسموعاً. ولهذا فإننا مهما سألنا وأنكرنا،فسنظل مستمرين في السير نخوض الأوحال والمذلات والعبث بهوان وجبرية كهوان الحجروجبريته.

ان تساؤلنا عن مغزى وجودنا ليس رفضاً للعبث أو للحقارة بل بكاء .

الانسان لا يحيا لأن الحياة شيء واجب أو مقدس ، ولكن لأنه لا يستطيع أن يموت . لا يحيا لأنه لا يؤمن بقيمة الحياة او لأنه يريد أن يجعل لهـــا قيمة ، وإنما يحيا مثلما يموت بالعجز والخوف والجبرية . لا يحيا الانسان بالاقتناع بـــل بالحتمية كما يحيا النبات وكما يسقط الحجر بقانون الجاذبية ! ليس في التزام الانسان بالحياة من معنى اكثر مما في التزام الحجر بالوجود .

كم أتعجب حين أرى الناس يسيرون يجنون دون أن يعلموا أو يسألوا الى أين المسير . هل السير وسيلة ؟ اذن ما الغاية ؟ هل هو غاية ؟ اذن ماذا يعـــني ولماذا يتوقف ؟ ماذا يعني أن أعيش اليوم لأعيش غداً ، لأعيش بعد غد ، لأكرر نفسي في عملية متشابهة لا تعني شيئاً ، لأنتهي النهاية العقيمة المحتومة . ولأنها عملية لا تعني شيئاً تنتهي كما بدأت ثم يبقى كل شيء في الكون كما هو ، قبل ان تكون وحينما كانت وبعد ألا تكون . ولو كانت تعني شيئاً لما توقفت ، ولو توقفت لكان توقفها خطأ كونياً وعلمياً ودينياً . وهل تجد الطبيعة في كلمة (ولد) معنى أفضل أو أذكى مما تجد في كلمة (مات) ؟

ما أقل ما سأل الانسان نفسه : اذا كان لحياتي معنى فلماذا أفنى ، واذا كان لفنائي معنى فلماذا أحيا ، واذا لم يكن لحياتي ولا لفنائي اي معنى فلماذا أحيــا

وأفنى ، مـا هو الشيء الذي يبرر بقائي ، وما الذي يستحق ان افرح به او يساوي فرحي ؟ بماذا ابرر بقائي امام نفسي تبريراً عقلياً او اخلاقياً ، وما الذي يجعل فرحي كإنسان اذا ظفرت به ، سلوكاً لائقاً محترماً ؟

انا اوجـد لكي اتحول الى مشكلة ، لكي يصبح كل نضالي مقاومة لهـذه المشكلة التي هي وجودي او حلاً لها او محاولة لحلها – أي انا اوجد لكي تصبح كل عبقريتي اسلوباً من اساليب المقاومة لوجودي . ان اعدائي جميعاً لا يساوون اكثر من وجودي . اذا صنعت الحضارة او الحب او الفكر او القوة او الـلذة والسرور ، فأنا انما اقاوم وجودي . ان وجودي كإنسان ورطة فيها كل معاني الصدفة ، وليس تميـيزاً فيه شيء من معاني التفضيل . ولهـذا فجميـع انواع نشاطي ليست الا مواجهة لهذه الورطة او علاجاً لها . اذن فكل اعمالي ليست الا مداواة لحالة يصنعها وجودي . ما اروعها حكمة - انا اوجد لكي اشغل بالتداوي من وجودي ! ما أعظم انتصاراتي . كل انتصاراتي ان اخفف بعض آلامي التي صنعها كوني موجوداً .

ان الحياة تشبه أن تضع قدميك في قيد ذي عقد كثيرة ليكون كل عملك واهتماماتك أن تحاول حل هذه العقد ، وكلما حللت عقدة لتقوم مكانها عقدة او عقد اخرى شعرت باللذة وبأنك قد انتصرت مع أنـه لا توجد لذة ولا انتصار وانما يوجد زوال ألم ، وزوال مضايقـة أي زوال وجود . فالـلذة والانتصار لا يعنيان غير زوال وجود ما ، ولهذا فهما دائماً مسبوقان بنقيضهما .

أنا حي . اذن أنا ملزم بتوزيع حياتي بكل الوسائل والاتجاهـات لأني لا أستطيع تجميدها داخل ذاتي او مواجهتهـا كما هي وحدي . ان الحياة مواجهة لشيء ليس من المستطاع العيش معه بسلام او استقرار او صداقـة ، فلا بد من تحويله الى تعبيرات لا هدف لها – لا بد من صرفه الى أية جهة خارج حدودي.

ان جميع ما نفعله ونفكر فيه ليس بحثـاً عن هدف او فكرة او قوة او

حضارة بـــل ولا حتى عن لذة ، وانمـــا هي عملية طرد وتحويل لهذا الوحش القادم الينا من الغابة الموحشة بلا غاية وبلا دعوة . ولهذا فليس شيء مما نفعله واجباً او نبـــلاً او بطولة ولكنه تعبير عن ورطة ، حتى الحب والابتسام والتضحية والذكاء هو تعبير فقط عن هذه الورطة . ونحن لا نفعل ما نفعله لأننا محتاجون اليه او لأننا نفهمه او نحترمه او نريده ، بل لأننا نتعالج به من أنفسنا ونحول اليه حياتنا لنشغلها به عنا . ان احتياجنا الى الشيء وارادتنا له لا يعنيان شيئاً ، غير التبرير للعمل الذي لا يعني شيئاً !

فالبشر في جميع حالاتهم لا يساوون أكثر من وجودهم ثم مقاومتهم لوجودهم بما يسمونه حضارة ونشاطاً متعدد الصور والأساليب . ولو لم يوجدوا لما احتاجوا ، أي لما قاوموا ، لأنهم لا يقاومون شيئاً غير وجودهم . فالمقاومة نتيجة الاحتياج والاحتياج نتيجة الوجود . ولكن الوجود من أجل ماذا ؟ أنا أُقاوم وأُحاول لأني موجود ولكن لماذا أنا موجود ؟

والأهداف والاحتياجات واللذات التي نعمل تحتهـــا ليست سوى الأسلحة التبريرية التي نؤديها هذه المقاومة . وما نحسبه مباهج لوجودنا لا يعني في الحقيقة غير تخلصنا من المتاعب والأزمات المترتبة على وجودنا . والإصرار على العمل ليس إحساساً بالمسؤولية بل بالورطة . وجود الكائن الحي لا يعني قبل أن يوجد شيئاً وبعد أن يوجد لا يعني غير أن يصبح احتياجاً فيه لا يعني أيضاً شيئاً .

هو لا يوجد لأنه رسالة كونية تنتظرها السماوات لتصنع منها نظامها وذكاءها بل يوجد ليكون مجرد محتاج ، مجرد موجود محكوم عليه بمـــا لا معنى له من الاحتياجـــات والالتزامات . ان عبقرية الانسان كلها لا تعني أكثر من تسديد احتياجات وجوده ، ووجوده لا يعني شيئاً . فماذا تعني عبقريته إذن ؟

إن أي إنسان لا يستطيع أن يكون فوق ذاته ، فوق آلامه واحتياجاته مهما طالبته الآداب العامة بأن يكون فوقها بل مهما حاول أن يكون كذلك . هو لا

يستطيع ان يعيش خارج ذاته ولا ان يساوي اكثر منها ، ولا يستطيع أيضاً ان يستغني عن حياته الخاصة او شهواته الخاصة احتراماً للحياة العامة وللشهوات العامة . انه ليرفع أضخم الشعارات والرايات فوق احقر الغايات والنيات . ولا يوجد اي فرق اخلاقي بين اصحاب اية شعارات متضادة . ليس في البشر من يستطيع ان يكون في إرادته او في سلوكه فوق كل الصغائر . جميع الناس يخضعون لقانون الجوع والألم والبكاء والخوف ، وجميعهم يركعون امام ظروفهم القاسية واحتياجاتهم غير المجيدة ، ويأكلون بشهية متفتحة جميع الأطعمة التي يأكل منها الذباب . ليس فيهم من يستطيع ان يترفع عن الانهيار والسقوط على الأرض لأن هذا الترفع رجولة محمودة ، ولا من يستطيع ان ينسى آلامه الخاصة فداء لآلام الكون او لآلام الانسانية كلها !

المشكلة اننا لا نستطيع ان نرى الأشياء الا من خلال ذواتنا ولا ان نتعامل معها الا بواسطة رغباتنا . والذوات والرغبات لا تصوغها او تحددها الأخلاق او الافكار بل يصوغها الوجود بكل ما فيه من وحشية وغباء . ليست افكارنا مسؤولة عن اخطائنا ، ولكن نحن المسؤولون عن اخطاء افكارنا .

ان رغباتنا هي التي تصنع اخلاقنا وافكارنا ، ولكن اخلاقنا وافكارنا لا تصنع رغباتنا . اننا بلا رغبات لا يمكن ان نعمل شيئاً ، ومع الرغبات لا يمكن ان نكون اخلاقيين فيما نعمل او نريد .

لكي نسلك سلوك الفضلاء لا بد ان نكون غير فضلاء . فالفضيلة لا تنتج عن فضيلة ! الفضيلة الخالصة ليست شيئاً بل لا توجد فضيلة وانما توجد تعبيرات فاضلة وابعد الناس عن الاحساس بالفضائل واحترامها هم اكثرهم اعطاءً لها !

نحن نحيا . اذن نحن فاقدون لحريتنا وشجاعتنا وشرفنا ، عاجزون عن التزام ما نتحدث عنه من عقائد ومُثل وموت في سبيل الكرامة .

نحن نحيا . اذن نحن فاقدون لكل القيم الأدبية التي نثمّن بها انفسنا . ان

وجود الانسان يعني حتماً سقوطه أخلاقياً ونفسياً . فالحياة خصم دائم للنزاهة ! ونحن نتحدث دائمـاً بمبالغة عن الشرف والكرامة . وكأننا نحاول بذلك ان نعوض عن فقدنا المحتوم للشرف والكرامة !

ان معنى كوننا احياء هو معنى كوننا ضعفاء ، واكثرنا قوة هو اكثرنا ضعفاً .

اي اننا بقدر مـا نكون اقوياء نكون محتاجين الى ان نضعف ونتطامن ونتلاشى امام الاحداث ، ومحتاجين الى ان نخرج عن المثل والنظريات التي نؤمن بها والى ان نفرط في الكرامة التي ننادي بالموت دفاعاً عنهـا . ان الأحداث تتحدى الاقوياء اكثر مما تتحدى الضعفاء . الضعفاء يمارسون الحياة أقل ، لهذا يتعرضون للتحديات بنسبة مساوية،وقد يمارسون حريتهم وكرامتهم بنسبة أعلى!

*

انا اشتهي ما تنكر ُمثلي لأني لا أستطيع الا ان أشتهي ، وابتكر ُمثلاً لا استطيع ولا اريـد الاستمساك بها لأني لا استطيع إلا ان أبتكر ، وأفعـل ما أحتقر وما أخجل منه لأني لا أستطيع إلا ان أفعل ، وأريده لأني لا استطيع ان اكرهه ، واحيـا لأني لا استطيع ان اموت ، واموت لأني لا استطيع ان احيـا ، واحزن لاني لا استطيع ان افرح ، وافرح لاني لا استطيع ان احزن ، واكره الناس لإني لا استطيع ان احبهم ، وأحبهم لأني لا أستطيع ان اكرههم ، وأُحابي نفسي اكثر مما استطيع ان احابي كل ما في الكون من قيم وحقائق واتساع مملوء بالشموس والخيال والخوف . أُحابي نفسي واتعصب لها ضد وجود الآخرين بلا منطق ، بلا اخلاق . اعبد شهواتي ولا أعبد سواها ثم اصعد اعلى المنابر لألعن أمثالي الذين يعبدون شهواتهم. لو كان لا بد من التضحية بذاتي او بالانسانية كلها لاخترت بلا تفكير التضحية بالانسانية .

ولكن لماذا اكون كذلك ؟ لأني لا استطيع ألا أكون !

ولماذا لا استطيع؟ لأني لا استطيع ان اختار نفسي ، لا استطيع ان اختار

بين الأنا واللاأنا ، وبين ان اكون وألا اكون . فإذا كنت فلن استطيع ولن اريد ألا اكون ، واذا لم اكن فلن استطيع ولن أريد ان اكون!

اذن فأنا لا اوجد ولا احيا على اي مثال - لا عقلي ولا فني ولا اخلاقي . انا اوجد وأحيا فقط . ولو وجدت او حييت على اي نموذج آخر أو لو لم اوجد او أحي على اي نحو لما غضب المنطق ولا المستويات الأخلاقية او الفنية ، كما لم يرض عن نفسه اي منطق او اي مستوى فني او اخلاقي لوجودي وحياتي على النحو المشهود . هكذا العالم ، وهكذا الكون كله .

ولو لم توجد جميع حضارات الانسان وعباقرته ، ولو لم توجد كذلك المجموعة الشمسية او اية مجموعة كونية اخرى لماتغيرت النظرية المنطقية اوالاخلاقية او الفنية المحكوم بها عليه ، ولو أضيف الى الكون ملايين الاكوان الاخرى امثاله لما تغير الحكم المنطقي اوالاخلاقي او الفني عليه ! اننا لا نحكم على الكون بالطيبة لأنه طيب بل لانه موجود . وأية صيغة في وجوده تساوي في حكمنا عليه كل صيغة اخرى !

والأشياء التي لا يتغير الحكم عليها مهما تغير وجودها او صفاتها ، لا يمكن ان تكون اخلاقية ولا معقولة ولا خاضعة لأي حكم . فالشيء الذي يكون معقولاً وطيباً في جميع حالاته لا يمكن ان يكون معقولاً او طيباً في اية حالة . اذ الوجود العقلي والاخلاقي ليس وجوداً فقط ، بل هو وجود خاص ، وجود على مستوى معين ، ليس كل وجود معقولا او اخلاقياً ، وإلا لبطل معنى الاخلاقية والمعقولية ! والذين يرون الكون معقولا وعظيماً هم يرونه كذلك في جميع احتمالاته . اذن هم في الحقيقة لا يرونه شيئاً . انهم كالذين يرون اي بناء عملاً هندسياً عظيماً كيفما كان .

ولو ان الانسان جاء في أحقر حشرة ثم استطاع ان يؤلف لنفسه منطقاً لرأى أنه في صورته هذه قد جاء موهوباً كل ما في الآلهة من قدرة ومن احتمالات عقلية

واخلاقية ، وان القدر قد اشرف بكل خبرته وعبقريته وتجاربه على اخراج هذا الكائن المحظوظ المدلل ليجيء في احسن تقويم . لقد خلقه في ليلة عرس ، بعد ان اكتملت فيه كل ادوات الخلق !

بل لو ان الإله نفسه جاء نقيض ما هو في تصورنا لما اختلف رأينا فيه . انه اذا وهب الموت او الحياة ، الفقر او الترف ، الصحة او المرض ، انزل علينا المطر او الصواعق ، عاقب المظلوم وحابى الظالم ، فعل الشيء ونقيضه . فهو في الحالتين بالغ أوج الكمال والعدل والحب والرحمة . اذن مهما اختلفت صورة الإله في اذهاننا او سلوكه معنا او في الكون فحكمنا عليه لن يتغير . اذن فالله نفسه ليس عقلاً ولا اخلاقاً في تصورنا . انه وجود بلا مستوى .

والعقل والاخلاق ليسا غير الانسان . فاذا قيل العالم او الكون ليس عقلاً ولا أخلاقاً كان المعنى أنه ليس انساناً . وهو حتماً ليس شيئاً آخر غير الانسان انه هو نفسه . انه القصة التي ليس لها مؤلف ولا نموذج ولا مقاييس نقدية ، والتي لم يقصد ان يكون لها قراء .

❋

ما اصغر الكون في حسابنا اذا كان لا يعني سوى حاجتنا اليه وتقويمنا له . وما اصغرنا اذا كنا لا نعني سوى وجودنا ، وأصغر وجودنا اذا لم يكن يعني سوى وجودنا .

ما اصغر كل موجود اذا كان لا يعني سوى كونه موجوداً . وما أسخف العبقرية التي لا تجد فرقاً بين ان تفعل الشيء ونقيضه والتي تمدح نفسها بكونها قاتلة بقدر ما تمدحها بكونها خالقة ، هذه العبقرية التي توجد عالماً لا يساوي ايجاده إلا ما يساويه إفناؤه !

ان معنى كل شيء هو في العجز عن التخلي عنه . فمعنى الكون هو في

عجزنا عن التخلي عنه وفي عجزه عن التخلي عن نفسه ، ومعنى وجودنا هو في عجزنا عن التخلي عن أنفسنا . ولو أننا أبصرنا الطابور من خارجه — طابور الحياة والطابور البشري يعاني رحلته المجهولة الأهداف ، تحدو له الأوهام المتكررة المتألهة لكان من المشكوك فيه ان نرغب في الانضمام اليه ، كما ان من المشكوك فيه ان تكون أصغر الكائنات الدنيا راغبة في الالتحاق بطوابيرنا حينما ترانا صفوفاً صفوفاً نصلي أو نتقاتل تحت أقدام الآلهة أو تحت رايات القادة والزعماء القتلة ، هاتفين بأناشيد العبادة أو بأناشيد المجد والحرب بحماس وإيمان فيهما كل معاني الجنون وتعبيراته !

ان قيمة أي شيء هي فقط في كونه هو نفسه ، وفي أنه لا يستطيع ان يكون شيئاً آخر غير نفسه ، شيئاً أفضل أو أردأ . فالقيمة هي دائماً نفس الضرورة — وجود الضرورة يعني وجود القيمة . ووجود الشيء هو نفس قانونه ونفس مزيته . كل شيء يقول انا موجود . اذن انا ذو قيمة ، انا قانون . يقولها الانسان كما يقولها الحجر والبرغوث .

نعم الانسان يتقدم ، أي تزداد معارفه وقوته وسرعة حركته في الكون وعمله في الطبيعة .

ولكن كل ذلك يظل بلا معنى . وسيبقى الانسان مهما تطور بلا معنى . انه في جميع حالاته ينتقل من ذاته الى ذاته أي من العبث الى العبث . والعبث يظل عبثاً مهما تعاظم واتسعت خطواته .

ان كل تقدم يبلغه الانسان لا يعني إلا الاستجابة لاحتياجاته أو لقدرية ذاتية فيه غير مفهومة . واحتياجاته لا معنى لها ، والاستجابة لما لا معنى له لا معنى لها . ان منطق التقدم هو نفس منطق التأخر ، والغاية منها ولها وحوافزهما وأهدافها ودلالتها والذاتية فيها واحدة .

ان تحول الشمعة الى شمس وتحول النملة الى فيل لا يعطيها معنى جديداً أو قيمة عقلية أو اخلاقية أو غائية جديدة ، وان تطور الانسان من كائن يعيش في ضمير الغابة الى انسان ذري كوني يركب الصواريخ الذرية الكونية ليتنقل بها في أرجاء الكون ويعيش فوق الكواكب ويقول للشيء كن فيكون لا يخرجه عن ان يبقى كائناً ذاتياً لا يعني غير وجوده الذاتي ويخضع لهذا الوجود ولاحتياجاته وأوهامه غير المفسرة أو الذكية في تعصب وحماقة وطفولة وغوغائية . ان العبقرية ليست سوى طفولة مثيرة متفوقة ! والعبقري في حوافزه وأهدافه وتعبيراته ليس سوى طفل عادي !

وحينما يبلغ الانسان مرحلة الكائن الخالد يكون المعنى ان العبث قد بلغ مرحلة الخلود .

والعبث الضخم الخالد لا يساوي في معناه العقلي أو الكوني أو الانساني فوق ما يساوي العبث الصغير الزائل .

✽

الناس في الغالب متفائلون ــ متفائلون بالقدرة والحاجة لا بالتفكير . وتعليم التشاؤم مثل تعليم التفاؤل كلاهما لا خطر منه ولا جدوى فيه لأن البشر لا يتشاءمون أو يتفاءلون بالتعليم . ولو بعث الله جميع الأنبياء متشائمين أو جميعهم متفائلين لما نقص أو زاد تشاؤم أو تفاؤل المؤمنين ــ أي لما زاد أو نقص تلاؤمهم أو تنافرهم مع الأشياء .

اذن لن يخشى من نبي متعَب يلهمه تعبه ان يدرك بالتفكير صدق التشاؤم وعمقه فيصنع من تعبه نبوة متشائمة معجزاتها المنطق القوي الأليم المنتزع من آلام الحياة ومظالمها وعبثها المثير . كما لن يفيد في تغيير الموقف وفي اعطاء الحياة غير ما تستطيع من التفاؤل والابتهاج نبي آخر مرح يحول مرحه الذاتي الى ديانة متفائلة يعلمها الناس . التشاؤم والتفاؤل ليسا ذكاء أو غباء أو نظرية أو اخلاقية او ضد

الاخلاقية ، وليسا انتصاراً أو انهزاماً ولا تجـارب سعيدة أو مريرة . بل هما عملية كيمائية عضوية تتحول الى بهجة أو كآبة لتتحول هذه البهجة أو الكآبة الى تفكير والى لعنات تارة وتارة الى غناء .

والذي يتحـدث بالتشاؤم أو التفاؤل لا يدعو الى أي منهما وانمـا يتحدث فقط عن نفسه . انه كالذي يضحك أو يبكي ، لا يقصد ولا يستطيع ان يعلم الآخرين الضحـك أو البكاء ، فهـو لا ينطوي على معنى النبي ولا على معنى الشيطان ! وكل صاحب رسالة ليس إلا ضاحكاً أو باكياً ـ أي ليس إلا معبراً عن نفسه ، والآخرون بالنسبة له مـا هم إلا أدوات التعبير ومجـاله ـ ليسوا إلا أدوات الضحك والبكاء .

وكل منطق في هذه الدنيا لا يستطيع ان يغـير من شعورنا نحو الأشياء ولا أن يضعف من استمساكنا بها .

وأنا هنا أريد أو أحاول ان أعطي الضمان أو الطمأنينة لمن قـد يخشون ان يفسد عليهم هـذا الذي أقوله استمساكهم بالعبث الذي يمارسون أو أن يضعف من اعجابهم غير الذكي ولا المتوقر بأنفسهم وبأربابهم وعبقرياتهم بل أو بأبنائهم وزوجاتهم وأثاث منازلهم وما يعج فيها من عناكب وحشرات . والاعجـاب حالة فيمن يقع منه الاعجاب لا قيمة فيمن يقع عليه الاعجاب ، حتى حينما توجد هذه القيمة ليست هي سبب الاعجاب .

ان استمساكي بهـذا الذي أراه أسخف العبث ، أو على الأقـل ارادتي له وخضوعي لأوامره لا يقل عن استمساك أو خضوع أو ارادة أقوى المؤمنين ايماناً بالمنطق والحكمة والرحمـة المبثوثة في هـذا الكون على مستوى كرم الآلهـة وقدرتهـا .

***

النقد احتجاج ، والاحتجاج رغبة محتجة لا رفض للرغبة . فالنقد نوع من الرغبة المشترطة . اذن فنقد الحياة والكون انما يعني في الغالب مزيداً من الرغبة فيهما والتلمس لهما بنوع من الاشتراط العقلي دون التزام سلوكي بهذا الاشتراط . فالناقد ليس كارهاً كرهاً مطلقاً ، بل راغب على قياس غير عادي . والناقـد لنفسه ليس إلا باحثاً عنها مريداً لهـا اكثر ، ولكنه يطالب لها بشروط ملائمة لم توجد .

ان الناقـدين لغباء الكون والحياة هم أكثر النـاس رؤية لهما واحساساً بهما وتطلعاً اليهما .

اما الراضون عن ذكاء النجوم وعن حكمتهـا العظيمة فلن يكونوا أول من يكتشفونها أو يسكنونها. والمؤمن بقيمة الصنم المصنوع من الحجر سيكون أقل جرأة على تدميره ليشيد بيته من حطامه ، والمعتقدون بالآله سيكونون أخوف من يجرؤون على النظر الى وجهه ـ أي سيكونون آخر من يعرفونه او يرونه .

•

هل الثورة عقاب للحضارة ؟

(الثائر انسان يحوّل طموحه ونقائصه
وهمومه الخاصة الى تعبيرات اجتماعية
حاقدة أي الى تطبيقات على الآخرين
بلا أية صداقة لهؤلاء الآخرين ..)

لكل عصر أوهام متوترة تتحول الى غباء وتعصب وخصومات وأحقاد ودماء، والى حدود بين البشر يتلاعنون من ورائها ويتراسلون عبرها بالتهديدات والتهم غير المهذبة ، وتصبح هذه الأوهام آلهة متوحشة تتقسم الشعوب وتمزقها ويضع كل شعب من هذه الشعوب جميع آماله في البحث عن النجاة والتقدم ، في أوهام معينة مختارة أو في واحد منها ، ويفسر بها كل اسباب تقدمه واسباب تخلفه ، ويرفض ان يفكر او يشك او يفهم او يتسامح ، ويظل يجرب اوهامه هذه الى ان تذبل وتضعف وتستشهد بين يديه بالتقادم او بالزحام والقتال مع اوهام اخرى لكي يتحول الى تجربة تلك الأوهام الاخرى بنفس الحماس والايمان ونفس البلادة .

وفي استعداد الانسان ان يستمر يجرب كل الأخطاء والآلام التي جربها بمرارة وغضب كل من جاءوا من قبل ثم ذهبوا ،يجربهابالصبر الذي يستمر يجرب به كل

عبث الحياة وغبائها دون ان يدرك خطأ التجربة وحقارتها وسخفها ، بل دون ان يرغب في ان يدرك ! وليس في استطاعة البشر ان يتجنبوا الخطأ او الألم الذي وقع فيه الأولون لأنه ليس في استطاعتهم الا يواجهوا ظروفاً وضرورات تجعلهم يخطئون ويتألمون كما واجه اولئك الأولون. والناس لا يخطئون او يتألمون لأنهم لم يروا من اخطأ او تألم او لأنهم أول من اخطأوا وتألموا ،بل لأنهم يواجهون ظروفاً تناقضهم .ولا يمكن تجنب الخطأ او الألم بالتقليد او بالتفكير ، كما لا يمكن تحديد اسبابها او معرفتها ، ولا يمكن كذلك ان نملك القدرة على التزام ما نعرف . ولهذا فان قراءة التاريخ لا تجدي في اتقاء الأخطاء والآلام او في معرفتها . وليست اخطاء او آلام من لم يقرأوا التاريخ أعظم من اخطاء وآلام من قرأوه . ولا يمكن ان يرى الانسان نفسه من خلال التاريخ او من خلال الآخرين ، وانما يرى العكس . ليس للتاريخ قوة اخلاقية او وعظية او عقلية . هو يعيش فينا ولكننا لا نتعلم منه . ولو كنا نستطيع ان نتعلم منه لتحولنا في سلوكنا وعواطفنا الى أجهزة علمية معصومة من الخطأ والألم والفساد .

ان البشر محتاجون دائماً الى ان يتوتروا ويعبروا عن توترهم تعبيراً عدوانياً متطرفاً ،لأن في الاعتدال والاتزان والمخالقة السمحة مايخنقهم ويعذبهم ويعتقلهم وما يسلبهم لذة النزق ولذة الحماقات المتحررة من قيود الاحتشام والذكاء والتهذيب . وقد كان الجنون في كل عصر هدفاً تعمل كل الأجهزة في المجتمع على تعميقه والاعلان عنه والتداوي به ، ولم يكن مرضاً يُهرب او يُستطب منه او يشعر بالعار منه . والأوهام المتوترة هي اجدى وسائل البشر لكي يعبروا عن انفسهم كما يشاءون بالمستوى الأخلاقي الذي يجعلهم يستجيبون لحاجتهم الى السفه والاعتداء بلا شعور بالاثم او النذالة . ان الاوهام هي افضل محلل للرغبات المحرمة التي تلح علينا بأن نكون سفهاء ومفترسين ، لتعمل هذه الرغبات بأسلوب قانوني ديني اخلاقي وطني . فالقتل والبذاءة باسم العقيدة او المذهب او الوطن او الدفاع عن العدل او الحرية هما قتل وبذاءة بالتوحش الذاتي والرغبة النفسية ، برراً تبريراً اخلاقياً واعتقادياً ، بل حوّلا الى عقيدة واخلاق !

وعلينا ان نلاحظ ان الاخلاص في مقاومة الأوهام نوع من الأوهام ! .

ويوجد اليوم وهم كبير تؤمن به مجتمعاتنا المتخلفة وتتحمس له وتعيشه روحياً. ذلك انها تعتقد بأن كل تخلف وعجز وفساد راسخ قديم قد عاش فيها مع التاريخ انما علاجه هو الثورة العسكرية وتغيير نظام الحكم ، اي انما علاجه الانتقال الى النظام الجمهوري . ان هذه المجتمعات تجمع كل اسباب تأخرها وآلامها في نظام حكمها . هي اذن تؤمن بالقوى السحرية .

حتى لقد قيل بأسلوب السخرية من هذا الوهم: ان افضل نصيحة ثمينة يمكن تقديمها لملوك هذه المنطقة هي ان يفعلوا شيئاً عجباً ولكنه سهل جداً وتافه كذلك . هي ان يتحولوا الى ضباط في الجيش يحملون رتباً عسكرية لكي يثوروا ضد انفسهم، يثوروا كضباط ضد انفسهم كملوك ويغيروا اسم نظام الحكم ويحملوا ألقاب ثوار !

حينئذ تحدث المعجزة بلا نبوة وبلا تدبير من الآلهة . إذ يظفرون برضا شعوبهم وحماسها ، ويقنعون بذلك هذه الشعوب انها قد اصبحت تعيش في ثورة تقدمية، واصبحت كذلك تحكم نفسها بنفسها لمصلحة نفسها بأوسع أساليب الحرية بعد ان كانت تحكم بالطغاة لمصلحة الطغاة بأفظع اساليب الطغيان ! .

لنفترض مثلاً ان في احدى البلاد العربية ملكاً اسمه حسين بن فاروق . على هذا الملك حينئذ حسين بن فاروق ان يتحول الى ضابط في جيشه يحمل رتبة عسكرية ولتكن رتبة لواء . ثم يعلن هذا الملك حسين بن فاروق باعتباره ضابطاً الثورة ضد نفسه باعتباره ملكاً ، فيسقط نفسه باعتبارين مختلفين ، أي يسقط اللواء حسين بن فاروق الملكَ حسين بن فاروق . ثم يحكم شعبه تحت شعار آخر كما يحكم الثوار العسكريون شعوبهم بأقسى أساليب القهر والحزم والإذلال باسم الحماية الحازمة للثورة من اعدائها الرجعيين والاستعماريين ، ويسخر جميع الأجهزة الدعائية للتحدث عن رذائل الملكية ورذائل كل حكم غير ثوري ، أي

عن رذائله هو حينما كان ملكاً او حينما كان حاكماً بلا ثورة ، وللتحدث كذلك عن فضائل الحكم العسكري الثوري الجمهوري ، أي عن فضائله هو بعد ان اصبح عسكرياً ثورياً جمهورياً !

وبهذا اللعب يحمي نفسه وعرشه من الخطر والحقد والكراهية ويصبح بطلاً من الأبطال، تهتف له كل المنابر والمحاريب، ويصلى له في السماء، ويوضع اسمه حيث كانت توضع اسماء الآلهة والأنبياء والقديسين ، ويستشفى به من كل جهل وألم وغباء ، وتتحول مظالمه وأخطاؤه وطغيانه الى عدالة وثورة ورحمة ! .

ولكن لكي تتم الصورة لا بد هنا من القسوة ومن القضاء على كل بقايا الحرية ومظاهر التسامح ، ومن الحديث الدائم بأسلوب لا وقار فيه عن بطولة الحاكم الثائر وعن عبقريته المعصومة ، ولا بد كذلك من الكذب الدائم بلا فن ، ومن الصياح بلا ذكاء ، ومن التداوي بالتطاول على الآخرين وشتمهم واتهامهم بكل فحش وعصبية وجلافة اخلاقية ، ولا بد ايضاً من الكبرياء والغرور والتفاهة وتعيير الشمس ببرودة جسمها، واحتقار كل عبقرية، ومن البصق بانفة وكبرياء على كل فضائل التاريخ وعلى كل عظيم وجد او لا يزال موجوداً .

لا بد من كل ذلك لكي نستطيع الاقتناع بأننا حقاً نعيش في عصر ثورة، فهذه الفضائل القبيحة هي العلامات الكبيرة على وجود الثورة والتقدم ومعاداة الفساد. انه لا ثورة بلا فحشاء مقرونة بالبلادة . فالذكاء والصدق والاعتدال واحترام الناس واحترام الشرف وفضيلة النفس ـ هذه المزايا هي الأعداء الخالدون لكل ثورة . فالثورة ليست إلا رجوعاً بالانسانية الى ما كان قبل ان تصنع مستوياتها العالية ـ مستوياتها العقلية والاخلاقية والحضارية . حتى ان الكثير من الثورات قد يعد محاولة للتخلص من بعض الحضارات . والثورات التي تلاحقت اخيراً في العالم العربي قد تكون نوعاً من الاصابة بعسر الهضم لحضارة اجنبية جاءت بتعبيراتها المختلفة فوق مستوياتنا التاريخية والنفسية لتفرض نفسها علينا بقسوة

وتعقيد . وقد يكون الثوار بعملية غير واعية يقصدون بثوراتهم ان يتخلصوا من هذا الضيف الاجنبي الذي هو الحضارة الغربية ـ أي ان يتخلصوا من بعض ما فيها . وقد تكون الثورات نوبات تصيب المجتمعات الضعيفة بلا قياس ولا هدف ولا حافز خارجي معلوم كما يحدث الموت والمرض والألم ، أو كما تحدث الولادة المشوهة . والفرق بين دعوة نقبلها ودعوة نرفضها قد يكون فرقاً لفظياً اسمياً فقط . فلبعض الكلمات والاسماء في بعض الاحيان رنين يحدث التوتر والحماس بدون ان تكون لها أية محتويات ليست لغيرها من الشعارات التي لا تثير لدينا أي حماس بل تثير في أنفسنا العداوة والاستنكار . والاعجاب بالنظام الجمهوري دون النظام الملكي، أو بالحكام الثوار دون الحكام الذين يجيئون بلا ثورة نوع من الاعجاب بالألفاظ .

والكلمات ليس لها في ذاتها دلالة وانما دلالتها هو ما يعنيه البشر بها . ولهذا فان الناس قد يعنون بالكلمة الواحدة الشيء ونقيضه. فالحرية قد يعنى بها أضرى صور الاستبداد ، والعدل قد يُعنى به أعلى درجات الظلم ، والله والدين قد يعنيان في سلوك المتحدثين عنهما وفي تصورهم الخروج على تعاليمهما وارتكاب جميع ما ينهيان عنه باسمهما ، والنظام الجمهوري قد يجمع كل ما في النظم الملكية وغير الملكية من كبرياء وفسوق وبلادة ورجعية . ورب رئيس ليس ملكاً هو اكثر ملكية من جميع الملوك في جميع العصور .

وقد يصبح أعتى الملوك قديساً متواضعاً عفيف القلب واليد واللسان اذا دخل في مسابقة اخلاقية مع بعض الرؤساء والحكام الذين هم ليسوا ملوكاً وثاروا ضد الملوك تحت شعار التخلص من طغيانهم ! ان نابليون وهتلر وموسوليني وستالين وفرانكو وسالازار لم يكن احد منهم ملكاً !

ان النظام الملكي في بعض البلاد المتحضرة هو نظام حديث مثالي في حداثته بينما النظام الجمهوري في كثير من البلاد ليس إلا نوعاً من القيصرية والكسروية

المتألهة المذلة القاتلة ، وهي من أبشع وأقدم أساليب الرجعية المنافية للقيم الحضارية .

لقد كان الانتقال من عهد الرئيس المطلق الى عهد الملك المقيد انتقالاً كبيراً من الهمجية الى الحضارة . وشيخ القبيلة لم يكن ملكاً ، لم يرث عرشاً ولا يورثه ولا يدعى بصاحب الجلالة . لقد كان رئيساً . فهل كان متحضراً .

ان الملكية بمعناها الحديث هي اكثر النظم تقدماً . اما القيصرية والكسروية فهما من أقدم النظم واكثرها رجعية . انهما رجوع الى عهد الاطلاق في الطغيان والى القوة بلا تقاليد او قوانين مكتوبة او محفوظة .

لست أدعو الى النظام الملكي . كلا وهذا شيء لا يخطر على بالي . وقد جربنا في بعض الملكيات افظع الحماقات والمظالم والغباء والفسوق والخيانة والسرقة ، كما جربنا كل ذلك من حكام ليسوا ملوكاً . ومع هذا فكم تبدو الموسولينية مثلاً أبهظ وأطغى وأعظم فسوقاً من الملكية في ايطاليا على مستوى يجعل المقارنة بينهما شيئاً ضد الاخلاقية . مع ان الموسولينية كانت معدودة ثورية مصلحة عظيمة .

ان نظام الحكم ليس هو الذي يصنع تقدمنا وتأخرنا .

هل يمكن ان يكون التقدم والتخلف مرتبطين بنظام دون نظام ؟ كيف ذلك ؟ هل كل نظام جمهوري لا بد ان يكون تقدمياً وصالحاً ، وكل نظام سواه لا بد ان يكون متأخراً وظالماً ؟ .

اذا كان هذا غير صحيح ـ وهو حتماً ليس صحيحاً ـ فكيف اذن يكون الانتقال من احد النظامين الى الآخر طريقاً الى التقدم والعدل المنشودين ؟ ام ان مجرد الانتقال من نظام الى نظام يصنع التغييرات المطلوبة ؟ لو كان الامر كذلك لأصبح الانتقال من النظام الجمهوري الى النظام الملكي موصلاً الى هذه الغاية !

ام ان مجرد الثورة ـ أية ثورة ـ ضد النظام الموجود سواء أكان جمهورياً أم ملكياً أم امبراطورياً أم إمامياً يحقق هذه النتيجة ؟ اذن فما أرخص التقدم والإبداع والعبقرية ! وحينئذ فأول الواجبات على كل مجتمع أن يشيد المعاهد لتعليم فن الثورات العسكرية وتغيير نظام الحكم . ومعنى هذا أن تتحول الثورة الى أساليب من أساليب العبادة تتكرر في اليوم والأسبوع والسنة ، وأن تكون اكثر الشعوب ثورات هي اكثرها رقياً !

أم ان التقدم والتأخر ، وكذا الفساد والاستقامة يوجدان في كل نظام . يوجد نظام امبراطوري عظيم وآخر رديء ، وكذلك الأنظمة الملكية والجمهورية فيها هذا وهذا . ان النظام في الحبشة وايران واليابان امبراطوري . وفي الشرق والغرب واوروبا وامريكا جمهوريات وملكيات . فهل جاءت النتيجة واحدة ؟ وهل لو تحولت بريطانيا أو السويد أو هولاندا الى النظام الجمهوري لتخلفت وفقدت الديمقراطية لتصبح مثل اسبانيا وبعض جمهوريات امريكا اللاتينية ، وهل لو تحولت هذه الجمهوريات الى ملكيات لأصبحت كبريطانيا أو هولاندا أو السويد في تقدمها ورخائها وديمقراطيتها ؟ لقد تحولت ايطاليا بعد الحرب الثانية من ملكية الى جمهورية وكذلك فعلت سواها . فهل حدث تغيير؟ والمانيا انتقلت من امبراطورية الى جمهورية ، وقد ظلت في الحالتين مبدعة عملاقة ، ولو انها تحولت الى ملكية لما تغيرت عبقريتها ! .

لقد تطورت وعظمت بلاد كثيرة بلا تغيير لنظام الحكم فيها وبلا ثورات عسكرية ، وقد تغير نظام الحكم في بلاد اخرى وتعاقبت فيها الثورات بدون ان تعظم أو تتطور . ان افضل نموذج للنوع الأول بريطانيا واليابان والولايات الأمريكية المتحدة وكثير من أقطار أوربا الغربية ، وان أفضل نموذج للنوع الثاني اسبانيا وبلاد الشرق الأوسط وبلاد امريكا الجنوبية !

لقد حدثت ثورة في بلد فأعقبها تقدم ، وحدثت ثورة في بلد آخر فلم يعقبها

تقدم، وحدث تقدم في بلاد اخرى بلا ثورة، ولم تحدث لا ثورة ولا تقدم غير عادي في بلدان كثيرة. ان آل عثمان لو ظلوا حتى اليوم يحكمون تركيا كملوك أو خلفاء لما تغيرت الصورة فيها.

اذن فحدوث التقدم ليس مرتبطاً بالثورة حتى ولو حدث بعدها، بل ان اكثر البلاد ثورات هي أبطؤها تقدماً، كما ان اكثرها تقدماً هي أقلها ثورات أو لا ثورات فيها. واذن فالثورات لا تعني شيئاً وانما هي اسلوب من أساليب الوصول الى الحكم بوسيلة عنيفة، أو هي شعار جديد لحالة غير جديدة. قد تكون الثورة نتيجة للتطور الاجتماعي أو الحضاري أو الفكري، غير انها لا تكون سبباً له. والثورة لا تحدث لأنها وسيلة للتقدم أو شرط فيه ولكن تحدث كما تحدث الأشياء السخيفة مثل الحزن والعداوة والسباب والحسد وأمثاله. تحدث بالانفعال لا بالفكرة!

قد نظن انه لولا الثورة الفرنسية والروسية لما بلغ البلدان ما بلغاه من تطور علمي وصناعي وديمقراطي واسع المدى. ولكن ألم تتقدم اليابان والولايات الأمريكية المتحدة وبريطانيا والمانيا وغيرها من الدول الحديثة تقدمها العظيم بدون ان تقع فيها ثورات من نوع الثورة الفرنسية أو الروسية التي غيرت نظاماً بنظام ومذهباً بمذهب. ان في اوربا اليوم أقطاراً هي أرقى وأكثر نضجاً من فرنسا مع انها لم تحدث فيها ثورة تشبه الثورة الفرنسية.

ان التغير الى الأحسن يرتبط بالعامل البشري وبالظروف والتحديات الداخلية والخارجية وبأسلوب الاستجابة لها. وهذه توجد بالثورة وبدون ثورة.

وكما انه قد يجيء بعد الثورة رجال تقدميون ومصلحون وأقوياء فكذلك قد يجيئون بلا ثورة، وكما انه قد يوجد طغاة ولصوص ورجعيون بلا ثورة فقد

يوجد أمثال هؤلاء بعد الثورة . والمجتمع، الذي لا يستطيع بغير ثورة ان يصنع رجالاً أذكياء ومصلحين وأقوياء وأحراراً، كيف يستطيع ان يصنعهم بالثورة؟ وهل السلاح أداة خلق للذكاء والعبقرية والنزاهة النفسية ؟ .

واذا كانت الثورة كل ثورة ـ لا تعني في خطوتها الاولى الا استبدال رجال برجال بالسلاح فكيف يعطي السلاح ضماناً او احتمالاً بان الذين يجيئون من طريقه سيكونون افضل او اقدر من الذين يجيئون بغيره . ان السلاح ليس جهازاً علمياً لمعرفة عباقرة الانسانية من اغبيائها، ولا ضميراً إلهياً يتحول صاحبه او مالكه الى نبل إله . ولو افترض السلاح اخلاقياً فان هذا الافتراض لا يضمن ان الذين يحكمون بعد الثورة سيكونون اخلاقيين او عباقرة . ذلك ان الذين يحملون السلاح ليسوا هم وحدهم الذين يحكمون، بل يحكم آخرون غيرهم يعرفون كيف يخدعون توتر السلاح وحاجته القوية الى المؤمنين والهتافين والمتوترين ، والى الذين لا يحملون اي قيد من قيود الشرف او الضمير . وكل ثورة تحتاج الى مزيد من النفاق والجبن والضعة الفكرية والاخلاقية . ولن يوجد الا احتمال واحد ، هو ان مستوى الاخلاق والتفكير يهبط بعد كل ثورة ! لا يمكن ان تكون ثورة بدون اصوات عالية . والاصوات العالية تستهلك حماس الانسان وطاقته وتفسد قدرته على الرؤية والتفكير والسلوك الحسن .

الثورة تريد من المجتمع ان يؤمن وينافق ويطيع ويموت بهتاف وغباء . ولا تريد من يكون ذكياً او ناقداً او نزيهاً او صادقاً او ابياً ، لان ذلك يفسد عليها حماسها وتصميمها ورضاها عن نفسها . واذا كانت حظوظ الذين يتقنون فن الخداع والملق واسقاط الضمير في كل زمان عظيمة ، فان حظوظهم في زمان الثورات تكون اعظم . والذين تلمع اسماؤهم في غير ثورة لاتقانهم هذا الفن الشرير يصبحون هم او نموذجهم اقدر الناس على اللمعان بعد الثورة ، لانهم قادرون على اخضاع فنهم لكل الظروف المختلفة ببراعة لا يقيدها او يضعفها شيء من الفضائل الانسانية .

لهذا كان المفروض دائماً ان الذي يستطيع ان يصعد في اي عهد من العهود لانه متسلق بارع فلا بد ان يستطيع الصعود بتفوق اكبر في عهد الثورات ما لم يمنع من ذلك مانع غير اخلاقي . اننا لا يمكن ان نشك في نوع الاخلاق التي يعيشها اي انسان يتألق في عهد اية ثورة ! اذا سمعنا عن انسان انه قد تقدم في مجتمع يحكمه ثوار لم نستطع ان نجهل انه انسان جريح الكرامة والشخصية ، يعيش بلا مستويات انسانية . ان الثورة وليمة لا يتصدرها الا ذوو الايدي والثياب والتعبيرات الملوثة !

ان عصر الثورات هو عصر الشخصيات المشوهة الخانعة والاخلاق الشاحبة والنفسيات الكئيبة المذعورة العدوانية .

ليست الثورة مطهراً اخلاقياً يطهر الرجال ويصوغ نفوسهم على المستوى المثالي المبرأ من جميع العيوب والنقائص والاهواء واسباب العجز . ان اية ثورة لا تستطيع ان تقتل الشيطان في نفس اي ثائر . كل ثائر سوف يظل انساناً فيه كل صغائر الانسان واضغانه وضعفه وانانيته . واكثر من هذا ان الثائر يكون في الاغلب متوتراً وسوقياً .وهذا يجعله محتاجاً الى المبالغة والكذب والبذاءة والصياح ومعاداة الوقار والسمت والرصانة بتفوق غير مألوف !

ان الثائر لا يمتاز باخلاقه ولا بعبقريته . واذن كيف يرتجى منه ان يحقق للمجتمع مستويات اخلاقية وابداعية لا يملكها هو - كيف يستطيع ان يحقق للمجتمع ما لا يستطيع المجتمع ان يحققه لنفسه ؟ والثورة - اي ثورة - لا تجيء بقطع غيار بشرية جديدة تركبها في المجتمع ليكون مجتمعاًمتفوقاً ، وانما تتعامل مع القطع الموجودة على احسن الفروض ، بل ان هذه القطع الموجودة هي التي تصنع الثورة وتعيشها . وليس من الممكن ان يستعمل الثوار هذه القطع استعمالاً افضل او ان يغيروها ، لان الثوار كما ذكر لا يمتازون بمستويات عقلية او اخلاقية

او انسانية ليست لسواهم . واذا امتاز اي ثائر بشيء من ذلك فليس امتيازه سبب ثورته ولا بسبب ثورته ، بل كما يمتاز غير الثوار باشياء كثيرة . والثورة لا تصنع امتيازاً ، ولكنها قد تستغل الامتياز الموجود .

والاسباب التي تجعل غير الثائر ضالاً او عاجزاً او رجعياً توجد ايضاً بالنسبة نفسها او بنسبة اصغر واحياناً بنسبة اكبر لتجعل الثائر كذلك او اردأ. والفرق بين حاكم يجيء باسلوب الثورة وحاكم يجيء بالاسلوب السلمي فرق في الوسائل لا في ارادة الخير والعدل ولا في القدرة عليهما ولا في الظروف المطلوبة المواتية ولا في العصمة من اشتهاء السوء والضلال . قد يختلف نوع الخطأ والفساد والشهوة التي يحتاج اليها ويمارسها هذا وهذا . قد تكون آثام الثائر غير آثام الحاكم بلا ثورة . وانه لمن المحتوم ان تكون آثام الثوار هي اكبر الآثام ، وان تكون حاجتهم الى خرق الناموس الاخلاقي والخروج على الفضائل المعروفة اقوى من حاجة الآخرين .

ان الثورة مثل أي عمل أو تصادم أو خصومة أو منافسة أو مقامرة في هذه الحياة ان لم تعمق ما في الأخلاق والنفوس من مرارة وضراوة وحقد وخوف وألم فانها لن تشفيها من ذلك .

ان الحكام بلا ثورة يمنحهم التاريخ والأسلوب الذي جاءوا به الى الحكم نوعاً من السماحة النفسية والفكرية والأخلاقية ومن التقاليد الرزينة ومن الصداقة للتاريخ . ومعنى هذا ان يكونوا أكثر استعداداً للحب والفهم والايمان بالحريات بلا مبالغة في الخوف من النقد أو من خلاف المخالفين !

أما الذين يجيئون الى الحكم بأسلوب ثوري فلا بد أن يصابوا بالتوتر والعصبية وشهوة الانتقام ،وأن يفقدوا الوقار والشعور بالأمان والثقة وحب الآخرين. إذ ليس بينهم وبين التاريخ معاملة أو تجربة أو صداقة سابقة تحمل ذكرى طيبة . لقد وثبوا على التاريخ بوسيلة هجومية عنيفة ، وتلاقوا معه بهذه الوسيلة بلا اتفاق

ولا قانون ولا شورى ولا تعارف سابق . وهذا يجعلهم حتماً قساة طغاة متوترين متوحشين ، يعادون كل فضائل اللين والحب والتواضع ، ولا يرون في النقد والخلاف إلا خيانة وتآمراً . فهم لا بد مضطرون الى الايمان بالدم والمعتقلات والمحاكمات والسجون والجاسوسية بأجهزتها الضخمة الرهيبة كأفضل علاج عبقري يلجأ اليه الأقوياء الذين يحتقرون التسامح ويرون في الخضوع للقوانين والأخلاق أبشع أساليب الضعف والغباء !

ان مذاق المجد الحديث ليهب ضراوة ونذالة اكثر مما يهب مذاق المجدالقديم ، وان القائد أو الحاكم الذي يخرج من صلب الشعب لأجرأ على الفتك به من الحاكم أو القائد الذي يهبط من فوق الشمس . والذين اعتادوا الشراب لا بد ان يكونوا أكثر اتزاناً وتعقلاً وتماسكاً أخلاقياً حينما يشربون من الذين يجربونه لأول مرة . وأخطر الكؤوس على العقل والأخلاق هي الكؤوس الأولى ، انها أقوى الكؤوس سحراً . المجد كالمشروبات الروحية ، أنبله وأعظمه قيمة ووقاراً أكثره تعتيقاً .

من المحتمل ان يتسع الرأي للقول بأن الثائر قد يكون مصلحاً أو قوياً أو ذكياً أو شجاعاً ، ولكن من اللغو القول بأنه قد يكون شريفاً أو صادقاً أو نظيفاً أو عادلاً أو متسامحاً أو صديقاً للحرية أو محباً لمن يثور من اجلهم أو على الأصح لمن يثور باسمهم من أجل نفسه ، أي لمن يثور عليهم باسم الثورة لهم ، أو يثور بهم معلناً عن الثورة من اجلهم . إذ ان كل ثائر لا يحس نحو المجتمع الذي يقول انه يثور من اجله إلا كما يحس الطفل العنيف نحو لعبه وحيواناته التي لا يريد بها إلا اجتلاب اللهو والمسرة الى نفسه وقتل الفراغ والتعبير عن المباهاة وتحويل الأشياء الخارجية الى موضوعات ذاتية والاستجابة لأصغر ما في النفس من نقائص وآلام وطفولة تعرض مشاعرها وأعضاءها الداخلية عرضاً دينياً بطولياً .

ان رغبة الثائر في الإذلال والانتقام لتحركه اكثر مما تحركه رغبته في الإصلاح والعدل . واذا قاوم الظلم والفساد ودعا الى حالة من المساواة فغرضه أن يذل الأقوياء لا ان يرتفع بالضعفاء . ليس همّ الثائر - أي ثائر - أن يهدم فساداً أو نظاماً ما ، بل ان يهدم قوماً ما . فحقد الثوار ليس مشحوذاً على النظم أو الأوضاع ولكن على الناس ، على الناس الذين يحبون ويكرهون ويحسدون ويصنعون الغيرة والمرارة بالعلاقات بينهم وبين الآخرين وبالمشاعر المتناقضة ، لا بنظمهم ولا بتصرفاتهم من حيث هي خير أو شر . والأقوياء يثيرون حقدنا وغيرتنا اكثر مما يثير الضعفاء شفقتنا وحبنا ، والحقد والغضب في تحريكها للبشر أقوى من الشفقة وحب الإحسان .

ان الثورة عملية ذاتية يؤديها الثائر ضد المجتمع أو مع المجتمع بلذة افتراسية كالعملية الجنسية ! وان الناس كما يسرقون ويقتلون ويحقدون بنية غير صالحة كذلك يثورون ! والثوار قوم كارهون لأنفسهم وظروفهم ومجتمعهم فيعبرون عن هذه الكراهة بأسلوب يدعونه ثورة . ولهذا فان اكثر الثوار ثورية لا بد ان يكونوا اكثر الناس كراهة وتنافراً مع أنفسهم ومع الآخرين ! والثائر هو حتماً اكثر توجساً وتوتراً وطموحاً وكبرياء وشعوراً بالذنب والخصومة والكراهية . فهل هذه تصلح الرجال أم تفسدهم ؟

واذا بدا أحياناً ان الثورات قد تغير أو تعطي بسرعة اكبر في بدء انتصارها فالسبب اذا حدث هذا ان القائمين بها يكونون في العادة متوترين ، أو لأنهم يريدون ان يبرروا وجودهم وان يعرضوا أنفسهم عرضاً قوياً مثيراً ، او لأنهم يجيئون في ظروف ملائمة ، أي انهم يجدون موجة عالية فيصعدون فوقها دون ان يصنعوها . والثوار في العادة يركزون أعمالهم في اشياء معينة على حساب اشياء اخرى يهملونها أو يفسدونها ، فيخدعون بذلك . مع انهم لو حوسبوا على مجموع ما يعملون لاختلفت النتيجة ، أي لظهر انهم يأخذون ولا يعطون ، او انهم نوع من الكفاف لا يغيرون الى ما هو أحسن ولا الى ما هو أسوأ .

ان المجتمعات المتألمة العاجزة هي اكثر المجتمعات حماساً للشعارات وايماناً بقوة السحر . هي فيها أقوى تأثيراً واقناعاً من الحقائق الصامتة . والشعار لدى كثير من الناس غاية في ذاته ، هو نوع من التدين . وهم يريدون ان يؤمنوا بمعجزات تعطيهم ما لا يستطيعون أو ما لا يريدون ان يفعلوه ، وتعفيهم من قسوة الارتباط بالقوانين وقسوة الايمان بالتلازم بين الأسباب والنتائج وما في ذلك من عذاب وطول انتظار ومن التزام شاق ومن بخل وبطء أليم ، فيذهبون يؤمنون بالأوهام السهلة المريحة وبالشعارات المدوية . وكم من الجرائم والحماقات قد اقترفت باسم شعار زائف ، وكم هتفت الجماهير المشدودة الأعصاب للغباء والكذب والطغيان والخداع في مواكب من الشعارات التي لا يعيها ولا يتقيد بها احد . ولا يوجد مجتمع يعيش بدون شعارات مهما خرج في حياته على كل شعار. إن البكاء باسم فكرة انما يعني الحاجة الى البكاء بلا فكرة . واذا كرهنا او لعنا قوماً لأنهم يخالفوننا في عقيدة أو وطن أو غير ذلك فنحن لا نفعل ذلك لهذا الخلاف بل لأننا محتاجون نفسياً الى ان نكره ونلعن !

والشعارات تحيا وتموت ، تقوى وتضعف وتتبدل بلا تبدل في الحقيقة . واقوى شعار يأتي يوم يموت فيه ليحل مكانه شعار جديد من غير تجديد في النيات او في السلوك. فقوة الشعارات وضعفها لا دلالة لهما على اخلاق المجتمع وخصائصه او على افكاره احياناً . ولا تمكن معرفة اخلاق او نظم او افكار اي مجتمع او اي انسان من شعاراته الا اذا امكنت معرفة ذلك من لون ثيابه او من لغته !

وقد كان المفروض دائماً ان الثوار يزيلون المجتمعات القديمة المتبلدة ليقيموا مكانها مجتمعات جديدة متحركة . اما غير الثوار فهم محافظون يدافعون عن كل قديم ويقاومون كل تغيير لأن التغيير يسحقهم او يسحق مصالحهم الظالمة . فالثورة اذن نقلة اجتماعية وانسانية هائلة ، بينما المجتمعات التي لا تثور جمود تاريخي ثقيل .

غير ان التخلي عن القديم لبناء الكائن الجديد لا يحدث طفرة ، لا يحدث بالحرب ابداً، وانما يحدث بالتفاعل المستمر . والتفاعل المستمر يحدث تحت جميع الظروف . وكل ما تصنعه الثورة ـ ابرع ثورة ـ ان تجيء الى ما قد وجد ، الى ما تجمع في خزائن التاريخ من فنون وعلوم وافكار وتجارب وتقدم صناعي واستعدادات نفسية ، فتنادي به او تستثمره على افضل الاحتمالات . ولكنها لا تبتكره ، واحياناً يحدث العكس ، اي قد تحاول الثورة تدمير ما هو موجود او افساده او تحريفه والانحراف به . وهذا معروف في كثير من الثورات القديمة والحديثة ! . ومن احتمالات كل ثورة ان تصنع حالة داخلية حادة .وهذه الحالة الحادة قد تعوق نمو المجتمع لانها تمتص طاقاته واهتماماته .

واية ثورة لا يمكن ان تكون اكبر او اعظم من العصر الذي تعيش فيه بل كل الثورات في احسن مستوياتها ليست سوى تعبير عن عصرها وتمثيل له .

ان اليمن مثلاً متخلف تخلفاً يقل ان يوجد له شبيه في هذا العصر . وقد نظن ان سبب تخلفه هو نظام الحكم فيه ، وانه لو حكمه حكام آخرون او لو كان يحكم حكماً جمهورياً لتغيّر الموقف . وهذا تفسير سهل لواقع صعب . ونحن نميل دائماً الى ان نفسر الاشياء الصعبة المعقدة تفسيرات سهلة بسيطة لان هذه التفسيرات تريحنا من التفكير ومن الاحساس بقسوة الحقائق كما هي !

ان تخلف اليمن راجع الى ان مزايا العصر الحديث المتحضر لم تقتحم عليه حدوده . لقد استطاع اليمن ان يبقى محصوراً في عزلته الكئيبة الموحشة مسترخياً على هوانه وآلامه يلعق اقدام اربابه الغبية الجائعة ، ويثني على عقائده التي تعلمه كيف يتألم ويتأخر بدون ان يتعلم الاحتجاج على نفسه . لقد ظل يعبد شقاءه ، وكانت مبالغته في عبادة الله وعبادة ائمته وحكامه نوعاً من المبالغة في عبادته لشقائه !

اما الآخرون من حول اليمن فقد تغيروا او فرض عليهم التغير لانهم

قد فرض عليهم ان يعيشوا على نحو ما في هذا العصر تحت ظروف لم يختاروها هم. لقد دخل العالم المتحضر عليهم بلادهم فتغيروا . ولم يكن ممكناً ان يتغيّر اليمن التغير المنشود ما لم تدخل عليه الحضارة الغربية ذاته . ومهما كان حكامه ونظام الحكم فيه فلا بد ان يظل في تخلفه ما لم يفرض عليه الخروج من عزلته او ما لم يسافر خارج نفسه ووراء تاريخه ليعيش في العصر الذي يحيط به فيتحدى كل ما فيه من هوان .

واذا تغيّر اليمن في المستقبل تغيراً طيباً فلن يكون السبب تغير الحكام او نظام الحكم ، بل تقبله للتأثيرات الحضارية الاجنبية المستوردة من الدنيا التي وهبت العالم الحديث كل عنده من تقدم وقوة ورخاء وحرية وكرامة وافهام جديدة ، او لأن هذه التأثيرات قد فرضت عليه فرضاً . ان الفرق بين احد البلاد العربية واي بلد عربي آخر يساوي الفرق بينهما في قبول التأثيرات الخارجية ورفضها ، او يساوي الفرق بينهما في الظروف التي جعلت تدخل هذه التأثيرات محتوماً في احد البلدين وغير محتوم في البلد الآخر. حتى الثراء الطبيعي لا قيمة له في البلدان العربية بدون هذه التأثيرات الخارجية . فليس الفرق بين البلاد العربية في التقدم والتأخر مساوياً للفرق بينها في الطبيعة ، بل مساو للفرق بينهما في الوجود الاجنبي .

ان نفس الثوار الأحرار والزعماء الوطنيين العرب الذين فعلوا شيئاً حمدوا عليه، ليسوا الا منحة طيبة سهلة جاء بها هذا التأثير الخارجي او الغزو الخارجي. فاعظم ثائر مصلح في العالم العربي قاوم النفوذ الاجنبي فاضعفه او قضى عليه وادخل بعض الاصلاحات الجديدة الحديثة لم يكن الا نتيجة صحيحة للأفكار والمذاهب والحريات والتغييرات والاشياء الأخرى الكثيرة التي جلبها هؤلاء الأجانب الغزاة المتحضرون معهم الى الأقطار العربية والى العالم كله .

ان اي بلد عربي قامت فيه ثورة عسكرية ناجحة تحمل معها شعارات تقدمية وملامح حضارية لم يكن من الممكن ان تقع فيه مثل هذه الثورة بكل

خصائصها الحديثة لولا وقوع هذا البـــلد في قبضة هؤلاء الغزاة . فهم الذين اوجدوا بلا قصد منهم ظروف هذه الثورة وافكارها وشعاراتها والقدرة عليها ، كما انهم هم الذين اعطوها صيغتها الانسانية . ولهـــذا فان هؤلاء الثوار الأحرار او من زعموا كذلك قد وجدوا في البلاد العربية التي حكمها الأجانب،او وجدوا على مستوى اعلى، او وجدوا في زمن متقدم . ولم يكن الأمر كذلك في البلدان الأخرى التي بقيت حرة مستقلة تعيش على تاريخها وعلى سخاء اربابها القدماء . وكل بلد عربي يسبق اليه الأجانب يتقدم على البلد العربي الذي يتأخرون عنه !

اذن فالثورة ضد الاستعمار او النفوذ الغربي ليست الا انعكاساً لنفس هـذا النفوذ او الاستعمار . فالوجود الغربي في العالم المتخلف جاء يحمل نقيض ما جاء له . لقد جاء بالثورة ضد اهدافه وحوافزه العدوانية وجاء بالانتصار عليها – لقد جاء ضد نفسه !

ان الغرب هو الذي طرد الغرب من مجالاته المغتصبة . لقد ثار ضد وجوده كمستعمر ومحتل ومتسلط ، وسقط تحت اقدام حضارته التي اعطتـه القدرة لكي ينتصر ويتكبر . لقد مات بتفوقه. والرصاصة التي نطلقها عليه والفكرة التي نجادله ونحاربه بها كلتاهما من هباته . كل الشعارات الطيبـة التي نرفعها في وجهه ونحتج بها عليه ليسلم ويعطي ما في يديه ويخرج فلا يجرؤ على اعلان رفضها او احتقارها او الخروج عليها هو الذي جاء بها وجعل لها هذه القوة العالمية . اننا نشكو من الغرب ونلعنه ونطرده بلغته واساليبه وشعاراته وبما اعطانا من سلاح وقيم وتحريضات انسانية . ان جميع الذين يحاربون الغرب انما يحاربونه بحضارته حتى الكتلة الشرقية لا تقاومه وتستقوي عليه الا بمـــا اعطاها من مذاهب ومبتكرات وتقدم صناعي وعلمي. لقد جاء الينا يحمل سلاحاً واطماعاً وكبرياء ، ويحمل علماً وافكاراً وشعارات واساليب جديدة في الحياة وفي كل شيء – لقد جاء يحمل حضارة مبتكرة قاهرة بافكارها وقوتها . فاخذنا عنه الأفكار والشعارات وبعض العلم وكثيراً من اساليب الحضارة والحياة ومعطياتها

واستعرنا منه كذلك بعض السلاح والقوة . وراح هو بلا تدبير منه وبلا قصد انساني منزه يقيد تصرفه ويضعف استبداده بما جاء به من مذاهب وفلسفات ونظم وتعقيدات وظروف جديدة ، واخذت قوته المتفوقة الغازية تـذل شيئاً فشيئاً امام نفسها وامام هذه المذاهب والفلسفات والنظم والتعقيدات والظروف الجديدة ، وتعاظمت التناقضات بين دوله وطبقاته وبين افكاره وقوته ! لقد تحدت حضارة الغرب قوته فانتصرت حضارته دون ان تضعف قوته !

من هذا الطريق جـاءت حريتنا وتقدمنا وجاءت الينا الأفكار والنظريات التي نحاجه ونحاربه بهـا ، وجاءت الروح الجديـدة والصيغة الدوليـة التي أجهزت عليه !

وقد نجرؤ الآن على ان نقول شكراً لهذا الغريب الذي جاء غازياً ناهبـاً فتحول منقذاً واهباً معلماً ، مع الاعتذار لما بقي فينا من عيوب نفسية وفكرية تجعلنا نهاب التحدث مع أنفسنا بصدق وتواضع !

ان العالم كله مدين بنهضته وحريته وحياته الحديثة لهؤلاء الذين جـاءوا اليه فاتحين فأصبحوا منقذين له من تاريخه الكئيب المتوقف عن الحياة . ان العالم كله مدين بحريتـه لهؤلاء الذين جاءوا ليسلبوه حريته ، ومدين برخائه لهؤلاء الذين جاءوا اليه ليسرقوه رخاءه !

لقد تعلمنا الثورة المتحضرة وتعلمنا القدرة عليها وجعلنا لها شعارات جديدة تقدمية ، وصرنا نفهم شيئاً من معـاني الحياة وقيمها ونحاول رفع مستوياتهـا المختلفة ونجعل لها تفسيراً دينياً مقدساً بسبب قدوم هؤلاء الغزاة الينا بما معهم من قيم واشياء رائعة . ما اكثر ما ارتفع مستوى الحياة بسببهم . ان مشروعات التصنيع وفكرة التصنيع الذي نفاخر به ليس إلا احدى عطاياهم .

ان النفط الذي نباهي به ونمن عليهم بوجوده في ارضنا ونزعم انهم ينهبونه

منا وانهم لا يستطيعون الحياة ولا الحضارة لولاه – ان هذا النفط الذي هو كل مجدنا ومصدر دلالنا على العالم لا يمكن ان تكون له فائدة لولا هؤلاء القوم ولولا حضارتهم حتى ولو كان أنهاراً أو بحاراً سائلة على وجـــه الارض . فالحضارة العلمية الصناعية التي خلقوها هي التي جعلته حاجـة من حاجات الانسان وهي التي استطاعت استخراجه وتسويقه واستهلاكه ودفع ثمنه وتحويله الى رخـــاء محلي وعالمي .

ما أصعب وأطول العمليـــة التي ابتدأت بجعل النفط حاجة وانتهت بجعله بضاعة معروضة في الأسواق للاستهلاك العالمي . ان هـذا السائل الثمين سوف يتحول الى خطر وخوف لنـــا لو كان أنهاراً جارية في أرضنا لو لم يبدع الغرب حضارته التي جعلته ضرورة وقوة محركة ورخاء دولياً .

انه حينئذ سوف يتحول الىحرائق وآلام أخرى دون ان نعرف ماذا نصنع به ولا كيف نتقيه !

ان كل ثائر عربي – كل ثائر بالأسلوب الحديث انما هو احدى نتائج التأثيرات الخارجية . فكل زعمائنا وثوارنا الذين يتحدثون بلغة الحضارة وشعاراتهـا هم صناعة أجنبية بكل صراخهم وتشنجاتهم ومذاهبهم المزعومـة ابتكاراً . واذا لعن هؤلاء الثوار والزعماء صانعيهم فكما نتصور صناعة تلعن صانعيها .

وعلى كل زعيم او ثائر عربي يهزه الاعجاب بنفسه لشعوره أنـــه اكثر من الزعماء والحكام الآخرين تقدماً واستجابة لما يسمى بحتمية التاريخ ، وايمانـــاً بالحضارة وروح العصر ، ولشعوره كذلك ان بلده أعظم رخاء وتطوراً من البلاد العربية الأخرى :

على مثل هذا الزعيم او الثائر الراضي عن عبقريته التي خصته بهـــا النجوم الطيبة ليكون اعظم عبقرية تتحدى جميع عظماء التاريخ ان يتواضع ويعلم ان

سبب هذا التفاوت او التفوق هو سبب خارجي ، وان يعلم انه لا فضل له على نفسه ولا فضل لتاريخه عليه !

***

لقد كان بعض ملوك المنطقة اكثر ديمقراطية ونزاهة في الحكم من ملوك المنطقة الآخرين بل ومن بعض رؤساء الجمهوريات فيها . وكانت بلاد هؤلاء الملوك أفضل في كل شيء من البلاد المجاورة التي كان نظام حكمها جمهورياً . ولو ظلت مصر والعراق ملكيتين بينما تحولت جميع الأقطار العربية الى النظام الجمهوري لبدا للناس جميعاً ان النظام الملكي أفضل من النظام الجمهوري !

ان من الفروق بين الملكيات في المنطقة وبين الجمهوريات ان الملكيات قد امكنت الثورة ضدها لأن قبضتها وطغيانها لم يكونا قاتلين تماماً . أما البلاد التي تحولت الى جمهوريات فقد اصبحت الحركة ضدها اكثر عسراً وأصعب منالاً لقدرتها على القتل ، ولاحكامها الخنق لوسائل التنفس والتعبير والاحتجاج والتألم ، ولتفوقها في عمليات الارهاب وتجريع الناس اكبر الجرعات من الألم والهوان ، وجعلهم يتقبلون كل ذلك بصبر يتحدى كل شجاعة وكرامة في الانسان . لقد قتل هؤلاء الرؤساء غير الملوك في شعوبهم كل معاني الغضب والاحتجاج والبحث عن الكرامة . وهذه مزية لا يستطيعها الملوك . ان البلاد الملكية المتأخرة لا يمكن ان يكون سبب تأخرها انها ملكية كما انها اذا كانت متقدمة لم يكن ممكناً ان يكون نظام حكمها هو سبب تقدمها ، واذا كانت جمهورية ومتأخرة لم يكن من الصواب ان يعد نظامها الجمهوري هو سبب تأخرها .

ان سبب التفاوت في العالم العربي راجع الى التفاوت في التأثير الخارجي . والفرق بين أي حاكمين عربيين يساوي الفرق بين بلديهما ، والفرق بين بلديهما يساوي الفرق بين هذين البلدين في طبيعة التأثيرات الأجنبية الواقعة عليهما

وقوتها . والفرق بين الزعماء والحكام في اختيـــار المذاهب والنظم ليس فرقاً انسانياً أو أخلاقياً ، بل فرق مصالح وأهواء وظروف . فكلهم يختار ما يرى انه يزيده قوة أو مجـداً أو رضاً عن نفسه أو استجابة لطموحها وأحقادهـا أو لضعفها ومخاوفها ، أو يختـار ما يظن انه يناسبه في تحـديه ومفاخرته لخصومه ومنافسيه . فاختيار النظام الملكي أو الجمهوري والديمقراطيـــة أو الدكتاتورية والرأسمالية أو الاشتراكية ليس بحثاً عن مصلحة الآخرين أو سعادتهم أو ارادتهم بل عن مصلحة الحاكم أو هواه أو ضرورته أو ظروفه أو تاريخه . كل الحكام والزعماء يختارون لأنفسهم وليس فيهم من يختارون لشعوبهم . فهم لا ينقسمون الى اصدقاء وأعداء ولا الى خبثاء وطيبين . ولكنهم جميعاً طراز واحـــد من البشر يتحولون الى شتى التعبيرات بحالة من الشبق والأنانية والقسوة تشبه الشبق الجنسي وأنانيته وقسوته !

إن عمل أي حـــاكم أو زعيم ليس إلا محاولة للتغذي بالآخرين وليس محاولة لإطعامهم ، كما أن الذي يؤدي علاقة جنسية لا يقصد أن يهب الإنسان الآخر اللذة على حساب نفسه ،بل أن يهب نفسه اللذة على حساب ذلك الإنسان الآخر . فالحاكم ، وكذا المتعاطي للعملية الجنسية ، ليس فدائياً بل باحث عن اللذة ومعتد على الآخرين لتحقيق لذته الخاصة التي هي في حوافزها وأخلاقها عدوان وافتراس مهما جاءت نتائجها . وحتى الفدائية ليست إلا بحثاً عن اللذة الخاصة .

* * *

إن الاعتقاد بأن الثورة العسكرية وتغيير نظام الحكم علاج صحيح للمجتمعات المتأخرة المظلومة يشبه الاعتقاد القديم القائل : بأن الرجوع الى الآلهة والأديان وإلى أخلاق الآباء شفاء من كل تخلف وخطيئة ومرض نفسي وأخلاقي .

ودل تاريخ الاعتقاد الطويل أن التجربة المثبتة لعكس ما تقول العقيدة لا تهدم العقيدة . ان العقائد تتحدى كل واقع . فالانسان وكذا المجتمع يظل يعتقد

عقيدة يظل الواقع الدائم ، بل يظل واقعه هو ينقضها ، ثم يظل مع ذلك مؤمناً بتلك العقيدة بينما يظل من جهة أُخرى خاضعاً لذلك الواقع بكل ما فيه من رذائل وسخف وتبذل . وهو لا يشعر انه يتناقض او لا يبالي بذلك . وكأن فيه عالمين لا علاقة بينهما ، فعالم الآ لهة والملائكة والقديسين فيه منفصل كل الانفصال عن عالم الأبالسة والطغاة والشهوات . وهما عالمان مثاليان في تعايشهما ، فلا يتصادمان او يتعاتبان او يعتدي احدهما على الآخر أو يعارض رغباته أو نزواته . فعلاقات الجوار بينهما لا مثيل لها في العالم . حتى ان كلاً منهما ليتعرى بكل ذاته ووقاحته أمام صاحبه بدون أي نقد أو خوف أو حياء أو احترام . ان العلاقة بين الآ لهة والشياطين في الانسان لا مثيل لها في المصالحة والتجاور والتسامح .

والواقع يعجز عن هدم العقيدة لأن العقيدة ليست وجوداً مادياً صلباً يهدمه وجود مادي آخر مناقض له ، وانما هي مثل الأشباح التي يقول عنها الخيـــال القديم انها تخترق الأشياء وتخترقها الأشياء فلا تتصادم بها لأنها لا تخضع لقانون الأشياء . والاعتقاد وانكار الاعتقاد ليسا بحثاً عن الخطـأ والصواب ولكنهما بحث عن الانسان الباحث عن نفسه خارج الخطأ والصواب وخارج الواقـــع . فالخطأ والصواب والواقع ليس هو الذي يريـــده الانسان أو يريحه أو يشوقه أو يملؤه بالحماس والنشاط والنشوة . ان الانسان هو دائماً اكبر من الواقع الذي هو جزء منه . وهذا من مآسيه وان بدا انه من مزاياه . وهو وحده الكائن الذي يظل يعتقد شيئاً يظل يفعل نقيضه وشيئاً يظل نقيضه يحدث دائماً . فليس العقل وحده هو العاجز عن اسقاط العقائد بل الحقائق المادية عاجزة كذلك . واذا سقطت عقيدة ما او ضعفت فهي لم تسقط او تضعف لا بالعقل ولا بالواقع المناقض لها . ان شعوري نحو الشيء لا يبطله المنطق ولا الواقع المضاد ، وانما يبطله شعور آخر . وكما ان الواقع والمنطق لم يصنعا العقائـد بل صنعها الانسان فكذلك هو هو الذي يهدمها دونهما .

ان في عزم الانسان الدائم الهرب من الواقع والمنطق والتحدي لهما ، وهو لا

يقبلها ابداً ، انهما خصماه ، وانما يخضع لهما اضطراراً لا اقتناعاً ولا احتراماً .

❋ ❋ ❋

يظن كثير من الناس ان الثورة الروسية هي اكبر الدلائل التاريخية على ان الثورات هي التي تطور الانسان وتنقله من الهوان والتأخر الى أعلى مستويات التقدم والحرية بسرعة تشبه المعجزة .

ولكن ما اعظم ما جاءت به الثورة الروسية او لماذا جاءت نتائجها عظيمة !؟ ان اكبر ما جاءت به هذه الثورة هو تقدمها العلمي ، هو اقتباسها للحضارة الغربية . وليست ميزتها في نظامها الاجتماعي ولا في اسقاط قياصرتها الطغاة . ان روسيا ليست عظيمة لأنها شيوعية ولكن لأنها علمية مبدعة. فلو كانت شيوعية ولم تكن علمية ولا مبدعة لما كانت شيئاً ،ولو كانت علمية مبدعة ولم تكن شيوعية لما ضعف قدرها. وقد كان من الممكن ان تصبح شيوعية متأخرة او تظل رأسمالية وتتقدم. انه لو لم تكن الحضارة الغربية موجودة قبل الثورة الروسية لما كان لهذه الثورة اي شأن لانها حينئذ لن تستطيع ابداعها . وقد كان من الممكن ان تصبح دولة قوية وعظيمة بدون ان تقوم فيها ثورة وبدون ان تأخذ بنظامها الاجتماعي الجديد، كما أصبحت اليابان والمانيا وامريكا وغيرها دولاً عظمى بدون ان تغير نظمها الاجتماعية . ولو أن الثورة الروسية وقعت منذ ثلاثمائة عام مثلاً لما زادت على أن تكون انقلاباً عقيماً لا يفعل أكثر من ان يلطخ ثياب التاريخ بالدماء .

واذا كان من المزعوم دائماً ان الثوار يدمرون القديم ، وان غيرهم يحافظون عليه فمن الصواب ان يقال ان الثوار وغيرهم هم جميعاً لا بد ان يرتبطوا بنظام ما وأن يقاتلوا من يحاولون الثورة ضده أو حتى اضعافه . وقد يصبح الثوار أعنف محافظة على نظامهم وقسوة على من يريدون تبديله أو التشكيك فيه . فالثائر وغير الثائر لكل منهما نظام يحميه ويتعصب له ويتحول الى طاغية قاتل في سبيل المحافظة عليه مع الفرق العظيم بينهما مع الفرق العظيم لمصلحة غير الثائر ! وقد نظلم غير الثائر ظلماً كبيراً

حينما نسوي بينه وبين الثائر في التعصب والجبروت والقسوة المذهبية . ان عقدة الثوار انهم أزالوا من قبلهم بالتآمر ، اذن لا بد ان يصابوا بعد انتصارهم بمرض الخوف والتوقي بحيث يصبح الجنون والاجرام من مزاياهم المفضلة !

الثورة تعني ان عهداً فيه منافذ واحتمالات للتسامح والضعف وبعض الحرية والافلات من البطش والانتقام قد زال ليجيء مكانه عهد مصمت فيه كل الرغبة والقدرة على القمع والضرب والانتصار والتباهي بالعار وإحراق الحريات تحت أعلى الشعارات دوياً ! .

معنى الثورة ان التاريخ ينوي أن يسلم نفسه لنوع من الصعلكة العقلية والنفسية والأخلاقية المتهيجة . الثوار دائماً يتحدثون عن نقيض ما يعطون . فهم يتحدثون عن الحرية والاستقامة وهم أقوى أعدائها ، وعن الصدق وليس في البشر من يعاقبون الصادق ومن يمارسون الكذب ويجزون الكاذبين مثلهم ، وعن مساوىء النفاق وهم أحسن من يزرعونه ويستثمرونه ويتعاملون عليه ، وعن الرخاء مع انهم يبتدعون جميع أسباب الافقار والأزمات والحرمان . ويتحدثون عن العدل والحب وهم يعنون بهما تخويف كل الطبقات وتسخيرها وقهرها وسوقها لمصلحة كبريائهم وأحلامهم ، ويعنون بهما كذلك ان يخضعوا جميع تصرفاتهم لانفعالات الرضا والغضب ولأغراض الطموح والخوف !

ولا يبدأ المجتمع أو الثائر يشفى من عيوبه وطغيانه إلا اذا بدأ يشفى من مشاعر الثورة ! فالثورة هي في جميع ظروفها بديل عن التقدم والنضج وشعور بالعجز عنها ، وليست طريقاً اليها أو بحثاً عنها . انها نوع من المشاتمة للآخرين . الثوار قوم يشاتمون أنفسهم ومجتمعهم بالسلاح ! ان كل ثورة تصبح رجعية بعد انتصارها كالنظام الذي ثارت عليه أو أشد رجعية .

الثورة — أية ثورة — قد تزيل قيوداً قديمة لتصنع مكانها قيوداً اخرى جديدة ، قد تهدم أصناماً متداعية لتشيد أصناماً فيها قوة واغراء وبريق — تسقط رجالا قد شاخوا ووهنوا وفقدوا القدرة على الافتراس والرغبة فيه ليأتي رجال هم أعظم جبروتاً وفتوة وقدرة على الافتراس ورغبة فيه — رجال فيهم

كل معاني الجوع التـــاريخي الباحث عن الطعام بأقوى شهية وأخبث وأشره معدة ! ان كل ثائر يتحول الى أقسى خصم للثورة والحرية بمجرد انتصـــاره . فالثورة هي ما قبل الثورة فقط .

ولم يحدث ان جاءت ثورة من الثورات لتكون أكثر تسامحاً وحباً وحرية أو أخف قيوداً مما كان قبلها ، بل لقد كانت جميع الثورات تجيء كالاحتجـاج على التسامح واللين الذي كان موجوداً . لهذا كانت دائماً تجيء أقوى بطشاً ومعاداة للحريات بحجة الدفـــاع عن الحريات . انه لمحتوم أن من يثورون باسم الحرية يصبحون اذا انتصروا أشد عداء للحرية من كل أعدائها القدماء . وقد يكون ذلك بلا تدبير أو رغبة منهم ، وقد يكونون كذلك بمستواهم النفسي الخـاص . ومهما كان الناس طيبين فكم هو غباء أن نلتمس الحرية لدى من قفزوا فوق التاريخ بالتآمر والسلاح . ان أشد الناس خوفاً من الحرية هم الذين انتصروا بالمؤامرات — هم الذين ارتفعوا على أكتاف التاريخ بالقفز عليه في الظلام !

الثوار لا يمكن أن يصنعوا الحرية ، انهم أبداً خصومها ، ولكن الحرية تحفر طريقها بلا تشريع ولا ثورة كما يحفر النهر مجراه بمواصلته السير في جوف الصخور والتراب ومقاومة الطبيعة . ان الحرية لا توجد بالإرادة أو الخطـــة أو الأمر ، ولكن بالتعامل مع الأشياء الصعبة والمختلفة !

فالحرية هي التعود على السير في طريق مسدود بالمتناقضات !

التغير أو التطور يفرض نفسه على الثوار وغير الثوار مهما قاوموا ذلـــك وكرهوه ، كما يفرض نفسه على كل وحدات الطبيعة . والناس يسيرون في الطريق مهما أنكروا السير فيه ـ يسيرون وانزعموا أو ظنوا انهم لا يسيرون أو أرادوا ألا يسيروا ، وهم كذلك يصنعون الحرية . ان أعظم ثورة تعد مبدعـــة ليست سوى اعلان عنيف عن قدوم التغيير أو ظروف التغيير ولكنها ليست تغييراً . انها اعلان عن حالة لا خلق لحالة . فالتغيير ليس عنفاً . ان العنف قد يلزم بالأخذ بتغيير قد وجد ولكنه لا يصنع تغييراً لم يوجد . بل ان الثورة هي استغـــلال لحالة موجودة أو لحالة ستوجد .

وهنا موضع الخديعة لأن بعض الثورات الكبرى تجيء في أوانهـا لتعبر عن هذه الحالة الموجودة ـ الموجودة حتماً حتى ولو جاءت ثورة لتمنعهـا ، فيقع في التصور ان هذا التغيير الذي حدث هو من إبداع هذه الثورة ، وانه لولاها لمـا حدث تغيير ، أو اذا احتيط في التعبير لما وقع هذا التغيير الكبير . ان التغيرات التي تقع في المجتمعات لا بـــد من وقوعها حتى ولو قامت جميع الثورات لمنع وقوعها . فالتغيير أو التقدم كائن منفصل عن الثورة – الثورة المؤيـدة والثورة المضادة . والثورة بنوعيها ليست حضارة ، والحضارة ليست ثورة . واذا كانت الثورة بحثاً عن الحضارة فانها بحث بوسيلة غير مناسبة بل مضادة .

انه لو قامت في اليابان منذ مائة عام ثورة عسكرية فأسقطت النظام الملكي وجاءت مكانه بنظام جمهوري، أو غيرت النظام الاجتماعي بنظام آخر لقال الناس ولقال كثير من المفكرين ان سبب نهضة اليابان هو ثورتها وتغيير نظام الحكم والنظام الاجتماعي فيها .

ولو أن فرنسا نابليون وفرنسا الحرب العالمية الأولى ، تحولت الى نظام ملكي تحت انقلاب عسكري لتصور الناس وكثير من أصحاب الفكر ان سبب ضعفها وتراخيها وهزائمها وانسحابها من الصف الأول الدولي بعد الحرب العالمية الثانيـة هو نظامها الملكي ، وانها لو ظلت جمهورية لظلت صاعدة قاهرة كما كانت في فترة من تاريخها . ولو أن كثيراً من هذه الجمهوريات المتخلفة الفاسدة كانت ملكيـات لجمعنا أسباب تخلفها وفسادها في نظام حكمها !

وهذا الربط بين نظام الحـكم وبين الأوضاع الاجتماعية يشبه ما كان الأولون يذهبون اليه حينما كانوا يربطون بـــين الظواهر الطبيعية والفلكية وبين موتهم وحياتهم ، هزائمهم وانتصاراتهم ، سعادتهم ونحسهم . فتغيير نظام الحـكم والثورة في تأثيرهما على تقدم الشعوب وتأخرها يساوي تأثير الظواهر الفلكية والطبيعية .

لقد كانت الثورات تقع دائمـاً في العصور الخوالي ولم تكن تصنع أي تقدم بل لقد كانت تصنع دمارا وشقاء ومظالم جديدة . لان الثورة كما ذكر غير مرة ليس في طبيعتها او اخلاقها ان تصنع التقدم ولكن قد تستفيد من التقدم الذي قد

وجد ان لم تحاول سحقه وتشويهه .

إن اي تغير او تقدم في هذا العالم لم تصنعه او تشارك في صنعه الثورات . فالتقدم كائن سلمي ، وهو لا يمكن ان يكون غير سلمي . وقد يبدو هذا الرأي غريباً او سخيفاً ، ولكنه مع ذلك هو اقوى صور الحقيقة . كيف ذلك !

ان الحضارة التي يعنى بها دائماً كل اساليب التقدم والتغير هي مجموعة الاختراعات والاكتشافات والتطور الصناعي والزراعي والفكري والعلمي والاخلاقي والقانوني ، وتزايد السكان ووفرة الانتاج والرخاء ونمو الحريات المتنوعة ، وكل فروع الفنون والآداب والمذاهب والفلسفات ، ثم قدرة الانسان على تصحيح معرفته لنفسه ولما حوله . وهذه كلها حدثت سلمياً ولا يمكن ان تحدث الا سلمياً ، لا يمكن ان تحدث بحرب او بثورة . ان استعمال السلاح ليس وسيلة من وسائل ابداع الحضارة، السلاح لا يخترع ولا يكتشف . لا يفعل ذلك في اي نوع من انواع المعرفة الانسانية ،وجميع الذين اخترعوا واكتشفوا لم يفعلوا وهم في الميدان يقاتلون في ثورة او في حرب .

واعود مرة اخري لاقول : ان الثورة كالحرب لا تصنعان الحضارة ولكنها قد تسرقانها او تستقويان وتتغذيان بها . ولهذا فان اية حرب او ثورة تقع في عصر متخلف غير متحضر لا تهب تحضراً ولا تقدماً بل ولا تشعر بالحاجة الى ذلك، وانما تهب آلاماً وتشويهات شاملة . وكم في التاريخ من امثال هذه الحروب والثورات العقيمة. ان الحرب لا تعالج شيئاً ولكنها تدمر شيئاً، وهكذا الثورة. فهما اي الحرب والثورة في عصور التأخر لا تجلبان غير الآلام ، اما في عصور الحضارات الكبيرة فانهما تعرضان نفسيهما عرضاً خادعاً مزورا بازياء واسلحة وعضلات ليست ازياءهما ولا عضلاتهما ولا اسلحتهما .

لو ان الانسان عاش منذ وجد بلا ثورات ولا حروب فهل نفترضه حينئذ اقل تحضراً ؟ ان القول بان الثورات حتمية او نافعة لإحداث التغييرات التقدمية يشبه القول بان الحروب تفعل نفس الشيء . وحينئذ تصبح الدعوة الى السلام والغاء الحروب جريمة يعاقب عليها ، ودعوة ضد الانسان وضد تقدمه ، وتصير

كذلك المناداة بالحرب عملاً انسانياً عظيما ! واذا كانت الحروب من حيث المبدأ لا خير فيها وضارة بحياة البشر وبحرياتهم ورخائهم فالثورات كذلك لانها حرب داخلية .

واذا كان لا يوجد من يهاب الدعوة الى تحريم الحرب والحكم عليها بانها ضد ذكاء الانسان وفضيلته ومصلحته فكذلك مطلوب الا يوجد من يهاب الدعوة الى تحريم الثورات والحكم عليها بمثل ما حكم به على الحروب !

لقد كانت الحروب والثورات في كل التاريخ عمليات امتصاص هائلة لطاقات الانسان وابداعه واشواقه ورخائه ، وكانت تشويهاً مستمراً لافكاره واخلاقه وعلاقاته ولفضائله النفسية . كانت دروساً جاهلة تعلم منها الانسان كيف يكره نفسه ويخافها ويعاديها — حاول ان يتعالج بها من امراضه فاذا هي تهبه المزيد من الامراض . ولكن كلا فالحرب والثورة ليستا بحثا عن علاج بل هرب من حالة !

ما اغلى الثمن الذي دفعه البشر والذي سوف يظلون يدفعونه في الخوف من الحرب والثورة وفي الاعداد لهما وفي تعاطيهما . ان احتمالات الثورة تصنع الاعداد لمقاومتها ومقاومة اي تقدم قد يحرض عليها او يوصل اليها ومقاومة من قد يصبحون ثواراً ، وان احتمالات الحرب تصنع كذلك الاعداد لحرب مضادة. وبهذا يخسر الانسان افضل واذكى جهوده بين الاعداد للثورة والحرب والاعداد لمقاومتها — بين محاولته فعل الشيء ومحاولته المقاومة لذلك الشيء في وقت واحد. ما اشد الضلال في ان نفعل التقدم والعدل بوسيلة بها نقاومها !

ولولا هذه العملية المتناقضة في ذات الانسان — في داخل أفكاره ومشاعره وطاقاته لتقدم في طريق مفتوح على مدى أوسع في تناسق وتعاون وشعور بالأمان أكثر بلا حاجة الى المؤامرات والمخاتلات والمخاوف والأحقاد الكبرى التي لا علاج لها إلا بالمزيد منها !

ان الايمان بالثورات العسكرية طفولة تاريخية مترسبة في بعض المجتمعات . وليس للثورة في مثل هذه المجتمعات من معنى أعمق من الاشتباك بين جماعاتها وأفرادها بالأيدي أو بالكلمات البذيئة أو بالعواطف السوداء، تعبيراً عن أقدم

وأصغر ما فيها من بقايا التاريخ . والناس في العـادة يتحمسون لأسلوب الثورة لا لمعنى الثورة، كما تعجبهم صيغة الكلمة لا قيمتها، ومعناها لا الالتزام بها .

والقول بأن الثورة علاج مشروع يوجد مشكلة . إذ هل كلما وجدت عيوب شرعت الثورة لعلاجها ؟ لو كان ذلك كذلك لاحتاجت كل ثورة الى ثورة مضادة لعلاج عيوبها التي لا مفر من وجودها . وهـذا يعني أن يستمر البشر في ثورات دائمة بلا فترات سلام .

أما اذا كانت عيوب الثورات تعالج بغير ثورة فهذا يعني أن عيوب غـير الثورة تعالج أيضاً بلا ثورة ، وهذا رفض لكل ثورة !

وما من ثورة إلا وتصبح بالتقادم غير ثورة ، فهل تشرع الثورة عليها. وغير الثورة كانت يوماً ما ثورة ، وهذا يقضي بتحريم كل ثورة لأن الثورة على الثورة لغو وزندقة !

إن كانت العيوب والأخطاء لا تعالج إلا بالثورة ضدالذين تحدث هذهالعيوب والأخطاء في عهدهم فالثورة إذن دائماً مطلوبة ضد كل انسان وكل عهد ، وأمـا إن كانت تعالج بغير ثورة فلماذا الثورة في أي ظروف من الظروف ؟!

ان أعظم ثائر في التاريخ كان يجب أن تصرعه إحـدى الثورات لو كانت الثورة علاجاً صحيحاً ومشروعاً لحسم الأخطاء والنقائص .

من الحقائق أو المخاطر المألوفة والمتكررة ان أقدر النـاس على التسلل الى أجهزة الثورة والسيطرة عليها والتوافق معها هم المنافقون والأوغاد والمتوترون والمرضى والهتافون بلا ايمـان ، والمؤمنون بلا أخلاق ، والمتعصبون بلا ذكاء والأذكياء بلا عقول ، والصارخون بلا قدرة ، والانسانيون بلا انسانيـة ، والأنبياء بلا سماء ولا جنة ولا قداسة . لأن الثورة كل ثورة هي التعبـير القوي عن هذه المزايا المتوحشة ! .

ولا يمكن أن يصنع الثورة أو يتناسق معها الانسانيون المعتـدلون ، أو الأصحاء في أخلاقهم وأجسامهم وتفكيرهم ومشاعرهم وأوضاعهم الاجتماعيـة والداخلية .

ان الثورة دائماً هي الصيغة الكئيبة للتعبير عن الألم والقسوة والتوتر والضياع والحقد والأنانية والهرب من النفس . ومهما افترضت الثورة مبدعة ونبيلة فانها في حوافزها ووسائلها ليست إلا سطواً وطموحاً شخصياً مسلحاً ! لو كان الذين قادوا الثورات يعيشون في ظروف ومستويات أفضل مما وجدوا لما ثاروا . لقد ثار بعضهم لأنه لم يكن متزوجاً وبعضهم لأنه لم يكن في زواجه وبيته سعيداً وبعضهم لأن وضعه الطبقي لم يكن مرضياً وبعضهم لأنه كان مريضاً او عصبياً ، فالثورة هي دائماً احتجاج على الذات يجيء في صورة الاحتجاج على المجتمع . والثائر يحاول أن يغير وضعه بحجة المحاولة لتغيير أوضاع الآخرين . انه يغار لنفسه وينتقم لها ثم يزعم انه انما يغار وينتقم للانسان المظلوم .

ما أشد ما يبدو الانسان صغيراً وذليلاً وغبياً حينما يبدو دائماً في جميع تاريخه خاضعاً واهباً نفسه للمرضى ولذوي العاهات والحاقدين والمغامرين والمتوترين، لكي يجربوا عليه أحقادهم وتوتراتهم وعاهاتهم المختلفة بالثورات العسكرية وبالتلاعب بالحكم وبالمذاهب تغييراً وتحريفاً ، ولكي يستشفوا من آلامهم الخاصة ومن جنون طموحهم ووحشيتهم المفترسة بالتعاقب على امتلاكه ، ينقلون امتلاكهم له من مالكين قبلهم كانوا هم قد نقلوا امتلاكهم له من آخرين قبلهم ايضاً — وهكذا . ثم يظل هذا الانسان يهتف لنفسه ولمجده بكبرياء ، ثم يعرج به غروره الى أعالي السماء لكي يتحدث الى الإله عن عبوديته له وحده بلا شريك .

كم هو عجيب هذا الانسان ! كيف يجرؤ على الذهاب الى المعابد ليتحدث الى الآلهة . انه لم يبق فيه شيء يمكن أن يقدمه اليها ! كيف يجسر على مخاطبتها زاعماً انه يساومها على نفسه ؟

ماذا في نفسه يمكن أن تقبل الآلهة بيعه لها أو اهداءه اليها ؟

لقد امتص الطغاة والثوار والمعلمون الأغبياء كل ما فيه من صدق وحرية وذكاء وطهارة ! ان الآلهة والأفكار الطيبة لم تستطع في أي وقت أن تدخل في منافسة على أي معنى أو فضيلة في الانسان مع اللصوص ! لقد مات الانسان في المعسكرات والمعابد والاستعراضات وفي المعتقلات وميادين الحرب والمشاحنات

تحت أقدام الأرباب الآكلين للحوم البشر .

***

يلاقي الثوار أحياناً ترحيبا واستجابة في المجتمعات . والتفسير لهذا ان الثوار هم في طبيعتهم متعذبون متوترون صارخون ، ينفثون حقـداً ووعيـداً وقسوة ولعنات لا وقار فيها . وهذا يهب عامة الناس المسرة والارتيـــاح لأنه يشبه التعويض عن آلامهم ومظالمهم التاريخية ، ويشبه الاحتجـاج على قسوة الطبيعة وعبثها وجهلها ، ويشبه كذلك العقاب والتهديد لها على ما فعلت بهم دون أن يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ! ان في سفه الثوار ما يعني التكفير عن ذنوب الحياة وأخطائها في تصور الجماعات !

فالثوار هم صيغة احتجـاج بذيء غبي توجهه السوق المتألمـــة المتأخرة الى الطبيعة ، ولكن السوق تخطىء فتوجهه الى الانسان ! قد تكون الثورة في بعض المجتمعـات تعويضاً أو بديلاً عن معالجة المشاكل وعن محاولة التقـدم الذي يصعب دفع ثمنه كما يحدث حينما نعجز عن فعل ما نريد فعله أو ما يجب أن نفعله إذ نحطم أطباق الطعام ، وقد نلعن أنفسنا ونضرب ابناءنا ! والانسان محكوم عليه أن يتحول الى تعبير ، إما بالهدم وإما بالبناء ، بالقوة أو بالضعف ، بالإبداع بلا ثورة أو بالفرار من الإبداع الى الثورة قد تكون الثورة كالعملية السرية للعجز عن العملية الطبيعية . قد تكون الثورة أسلوباً من أساليب البحث عن العنف ويكون الإعجاب بها إعجاباً بالعنف فقط .

ان احتمالاً كئيبـاً ليتبختر اليوم في الأفق الواسع فيرسم صوراً كبيرة من الذعر والخطر .

ذلك انه يخشى على العالم العربي أن يصاب بالمزيـــد من الثورات العسكرية المتلاحقة لتقوم بعمليـــات تخريب وتعويق وتصديع شاملة في جميع جبهـاته العديدة ، وأن يسترجع شهرته القديمة في حب المبارزة والتحطيم وأصالته في فن الفوضى واكتساب العـــداوات على مستوى العصر الحديث ومستوى أسلحته ووسائله الكثيرة القوية ، وأن يوهب المزيد من الايمان بهذه الثورات .

لقد جاءت الحضارة لتضع في يديه اجهزة تفجير قوية . فهل تضعها في يدي طفل او مجنون او همجي، ام في يدي رجل عاقل متحضر ؟

لقد اعطانا العصر الحديث الشعارات والادوات . فهل نستطيع التوفيق بين الاداة والشعار ؟ ان العجز عن التوفيق بينهما يعني الهلاك والفوضى .

وعملية الانسان الكبرى بل عملية الحياة كلها هي البحث عن الملاءمة والقدرة على هذه الملاءمة بين الذات والظروف او بين الشعارات والاحتياجات من جهة وبين الاشياء الخارجية من جهة اخرى ، اي بين الكائن الحي ومحيطه وبينه وبين نفسه . والفرق بين انسان وانسان او مجتمع ومجتمع يساوي الفرق بينهما في القدرة على هذه الملاءمة والعجز عنها . وتوجد دائماً حالة مثالية للملاءمة بين شيئين . والمشكلة هي معرفة هذه الحالة والقدرة عليها !

قد تتحول كل عبقرية العرب ومحاولاتهم للاصلاح والتغيير وآمالهم فيهما الى ثورات عسكرية ، وقد يظلون يرون ان السيف اصدق دائماً انباء من الكتب والعلم ومن كل العبقريات الانسانية الاخرى ، او انه العلاج من كل تخلف وفساد وظلم وجهل ، وقد يظلون يرون انهم كلما عجزوا عن التغيير العظيم وعن التلاؤم مع الاحتياجات الكبرى الجديدة فالمطلوب ان يقوموا بثورة عسكرية ليهربوا من عجزهم ويغطوه بالسلاح والضجيج والمحاكمات والاتهام للاخرين ،ولكي يظلوا زمناً طويلاً ينتظرون ان تتحول الشمس الى قرص كبير من الثلج ، ولكي يتحدثوا كل الوقت عن امجاد ثورتهم وعن بركتها التي ستحول القمر السخيف القاحل الى نوع ممتاز من الطعام الرخيص للجماهير الطيبة المؤمنة بثورتها وبقادتها المعصومين من الطموح والغرور وحب الذات ومن الخضوع للاوثان النفسية التي لا تبلغ اعلى مستوياتها في التوحش والقوة الا في حياة الثوار والزعماء المنزهين !

يوجد احتمال كبير كئيب بان العالم العربي قد تخلص او قد يتخلص نهائياً من الملوك التقليديين الضعفاء ليقع في قبضة افواج متتابعة من الاكاسرة والقياصرة والاباطرة المخيفين الذين هم اطغى واقوى واخطر اغراء . قد يزول عن العرب الحكم القديم الضعيف المتسامح ليحكموا حكما جديداً عاتيا مذلا ليس فيه تواضع

ولا صداقة ولا ضعف !

قد نفسد مكاسبنا من هذا العصر بهذه الالعاب الوقحة الخطرة . قد نفسد ذلك بالتلهي بالانقلابات العسكرية وبالمؤامرات والمبارزات وبالحروب الدعائية وبالبحث عن الخصومات السفيهة لكي نظل نؤدي رذائلنا القديمة غير المتحضرة بوسائل حديثة متحضرة ، ليكون خطرنا على انفسنا خطراً قويا تصنعه الحضارة التي ابدعها الاقوياء ، ولكي نخسر كثيراً مما يمكن ان نربحه من هذه الظروف التي تحيط بنا وتضع امامنا فرصاً لا عهد لتاريخنا الطويل المرير بشيء منها في جودتها وملاءمتها .

إن كل الخوف ان يتحول الزعماء والحكام هنا الى ابطال مصارعة، يتصارعون فوق شعوبهم بعضلات ليست عضلاتهم ولكن باخلاق هي اخلاقهم . واخطر الاشياء ان يوضع عقل احمق واخلاق وغد في عضلات عملاق !

إن الضعفاء يستطيعون ان يتحاربوا ويتخاصموا ويتلاعنوا بأسلحة حضارية، ولكن المشكلة انهم لا يستطيعون أن يبدعوا الحضارة ولا أن يكونوا متحضرين مهما أعطتهم الحضارة من قوتها ورخائها وشعاراتها ، ومهما استهلكوها في ضعفهم وشهواتهم !

وكثيرون هم اليوم هؤلاء الذين جل عبقريتهم ان يشوهوا هذه الحضارة ويحولوها الى ادوات قتال وخصومة وبذاءات غير معهودة وتشنجات اخلاقية بينما هم عاجزون عن تحويلها الى تفكير او سلوك حضاري ، كما لا يريدون ان يفعلوا ذلك .

كل جماعة تستطيع ان تتوتر وان تحول توترها الى مظاهرة او ثورة او اغتيال او بغض او الى شعارات تنادي بكل القيم ، ولكن الصعب أن تتحول إلى ذكاء أو إبداع أو فضائل أخلاقية . والتعبيرات السلبية هي دائماً البديل عن الايجابية . فالبكاء والسباب والادعاء والثورة بديل عما هو اقوى ، والحياة في جميع صورها ليست سوى الفرار من السلبية الى الايجابية، او بالعكس .

* * *

لا يفسد الكلام والتفكير في عصر من العصور مثلما يفسدان في عصر الثورات . انهما يتنازلان عن كل نزاهة وصدق وذكاء وكرامة ، ويتحولان الى بصاق جرثومي ، ويسقط الكتاب والمفكرون في اعمق مهاوي الخسة والنفاق والجهالة . انهم يصغرون ويصغرون حتى يمسخون نمالاً ضئيلة تعيش تحت الشقوق وفي التراب ، ويتخلون عن جميع مستويات الشرف والشمم ، وتتحطم ظهورهم من الانحناء ، ويتحول كل أدبهم الى صلوات ذليلة للأحذية الطويلة التي تطأ رجولتهم بكبرياء ، وتهون عليهم رجولتهم ثم تهون حتى ليذهبون يبصقون على أنفسهم بتواضع وتوبة واستغفار ويعلنون لعنها وتلطيخها بكل التهم والحقارات المهينة باسلوب اعلاني ذليل ، راجين ان ترضى عنهم هذه الاحذية وتغفر لهم ما حسبته عليهم تراخيا في الولاء . وتحقير الانسان لنفسه عبادة للطغاة يجدون فيها اقوى مشاعر التفوق والانتصار . ولم يزل الطغاة والارباب في جميع العصور يفرضون على الانسان ان يحقر نفسه بكل الصور . بالهتاف والايمان والاستعراضات والاستغفار والدعاء ، وبالقوانين والعقوبات الوحشية التي يقوم بتطبيقها ضد نفسه ، وبالحروب والثورات التي يذهب فيها الناس يقتل ويعادي بعضهم بعضاً بحماس وإيمان وصغار بدون ان يعرفوا لماذا يفعلون ، وبالاعتراف على النفس وبالتصدق على المجتمع بما يملك . والحرب والثورة هما افظع اساليب البشر في تحقيرهم لانفسهم .

ان أصحاب الكلمة هم أسوأ الناس حظاً في عصر الثورات . انهم حينذاك لا يفقدون حريتهم فقط بل ويفقدون أنفسهم من داخل أنفسهم . انهم يموتون كبشر . وهم في أكثر الأوقات ليسوا منافقين ، هم أقل من المنافقين لأن النفاق مقاومه سلبية ، مقاومة على نحو ما ، أو استسلام غاضب محتج ، وهم قد فقدوا كل غضب واحتجاج داخلي وكل مقاومة ولو سلبية . وما أبشع عهداً يصبح النفاق فيه أفضل من الايمان لأن الايمان إسقاط للمقاومة من الداخل ، والنفاق هو المقاومة الوحيدة الممكنة في مثل هذا العهد . ان أقبح ما يحدث في عهد الثورات أن يؤمن بها الناس أي أن يعجزوا عن كراهة ما فيها من حماقات وهمجية من داخل ذواتهم بعد أن عجزوا عن كراهتها من الخارج .

انه لا يكفي من أرباب الكلمة في عصر الثورات أن يسكتوا عن أفانين الطغيان والجنون التي لا بد أن تمارسها كل ثورة ، بل لا بد أن يهتفوا لذلك ، ثم لا يكفي الهتاف – بل لا بد من أن يؤمنوا ، ثم لا يكفي الايمان بل لا بد مع الايمان من التوتر والافتضاح والتخلي عن كل وقار واحتشام وذكاء ورجولة وإلا اتهموا في ولائهم للثورة ، وهذا معناه اتهامهم بالخيانة ! اني لأشعر بالعزاء والراحة حين أجد كاتباً ينافق عهداً ثورياً ، لأني أخشى عليه أن يؤمن – أن يموت . ان الأفضل أن يقاوم ، فاذا لم يقاوم فالأفضل أن ينافق ! كم اشعر بالغضب والكآبة والرثاء الباكي حينما أفكر في هذه الأقلام التي أذلتها الثورات وحولتها الى هوان حتى لم يبق لها من احتمالات الشرف غير ان تنافق .

يصاب التفكير وكل فنون التعبير بنكسة هائلة مع مطلع كل ثورة . وتحتاج المجتمعات الى نضال كبير لكي تتغلب على هذه النكسة التي تصيبها بها العهود الثورية .

ولا يوجد عقاب للمفكر والكاتب ولكل من يتعاطى الكلام أقسى من الثورات . انها العقاب الهائل للتفكير وللاستقامة العقلية والتعبيرية المطلوبة على أرفع مستوى من كل حامل قلم ومن كل نبي يحاول أن يصنع الناس بالوحي وبالكلمة يتحدث بها من أعالي قمم الزمان ! ولا تفقد الكلمة كل أخلاقيتها إلا في زمن الثورات . انها تنتحر وتتحول الى نوع من المعصية البذيئة . انها تتحول الى دين من الوقاحة والأكاذيب الغبية ، والى صراخ يهدد أعصاب الانسان وذكاءه بالجنون .

في عصر قد مضى كان يرهق أعصاب هذه المنطقة رجال كانوا يفدون اليها من السماء ، يتحدثون عن أعظم الأخطار وأفضل الوعود وأكبر الأشياء بأسلوب من الخيال والتهويل يحول الأعصاب الى جحيم وجليد . كانوا يضعون كل الآلهة والأبالسة وكل احتمالات الخوف والرجاء في أعصاب الانسان بأسلوب روائي تلتقي فيه كل معاني العبقرية بكل معاني التوتر بحيث يصبح الجنون والمرض هما كل ما يمكن أن يحدث .

وفي جميع العصور كان يمزق المنطقة رجال آخرون هم أقوى خطراً ، ظلوا يتعاقبون عليها بالثورات العسكرية ، قادمين اليها من أزقة التاريخ المعتمة يحملون

في قلوبهم البغض والكآبـــة ، وفي أخلاقهم وعقولهم التوحش والضلال ، وفي أفواههم الدعاوى والاستحالات وكل أنواع البذاءات .

أما في هذا العصر والعصور القادمة فقد يكون خطر هؤلاء الرجال أكبر من جميع ما نستطيع تصوره. قد يكون معنى الثورة أن يصاب أحد العسكريين بالمغص أو الأرق المزمن أو بنشاط الغدة الدرقية أو بزوجة شرسة أو بالحقد على رؤسائه فيطلب الى جماعة من زملائه المصابين بمثل حالته أن يخرجوا مع الفجر من معسكراتهم ليستولوا على دار الاذاعة ويعلنوا أنفسهم ثواراً .

والمحتوم ان كل ثورة تصنع مزيداً من احتمال ثورات اخرى .

واذا كان من المزعوم أن الثورة تصبح أحيـاناً دواء يستطب بـه كضرورة علاجية . فان العقدة انه لا يوجد أي ضمـان في أي وقت بأية صورة من الصور بأن هذا الدواء الاضطراري لن يستعمل إلا بقدر الحاجة في الحـــالة الملائمة، في الوقت الملائم، بالأسلوب الملائم . أما الثورة المطلقة فانها تساوي العلاج المطلق .

أي اذا كان كل من ظن انه قـادر على الثورة وانه يريد ان يعـــالج خطأ موجوداً يطلب منه أن يثور فان هذا يشبه أن يطلب من أي انسان معالجة أية حالة مرضية يراها بل أن يجري أية عملية جراحية أو أية عمليات جراحية بالجملة لأن الثورة هي كذلك عملية جراحية جماعية .

قد يأتي وقت يلعن فيه الرجل بأنه ثائر ، فيقال : هذا ثائر للطعن فيه كما يقال اليوم : هذا رجعي ! وقد يقال في يوم من الأيام : هذا الانسان أو هــذا المجتمع مصاب بحالة ثورية أو حـالة عسكرية ، مثلما يقال : هذا مصاب بحـالة مرضية أو بحالة انهيار اخلاقي أو انهيار عصبي !

***

والجيش الذي يتدخل للاستيلاء على الحكم تحت أي سبب من الأسباب هو كالحارس الذي يسرق ماوضع تحت حراسته. ان هذا الجيش آثم ومخطىء وخارج على القانون مهما كانت حوافزه ونتـائج تدخله . وتحرك أي جيش داخـل أي

مجتمع لا يعني إلا ان ذلك المجتمع يعيش على فراغ وانه لا توجد فيه أية قوةسوى قوة السلاح الغبي . والسلاح دائماً غبي وغير أخلاقي. تحرك الجيش في المجتمع يعني أنه ليس في المجتمع رأي عام ولا تقاليد قوية ولا احترام للنظام أو للقانون ، وليس فيه كذلك قيم أخلاقية أو مذهبية أو فكرية ، وإنما فيه السلاح وحده . والذي يمنع السلاح من التفكير في سرقة الحكم هو أن يكون المجتمع ذا قيم قوية من أي نوع . والسلاح بطبيعته سارق ومصاب بالغرور والحماس للحماقات المتوترة.

واذا اصبح السلاح وحده هو الذي يفكر ويفهم وينتقد ويشخص الخطأ والمرض ويعالجها ويضع الفلسفات والمذاهب والشرائع ويحاكم ويعاقب وينفذ العقوبة ويستولي على الحكم كلما استطاع او يحاول الاستيلاء عليه كلما شعر انه يستطيع فلا بد ان يكون المعنى اكبر من الفساد والفوضى بل اكبر من الجنون والهمجية . اذا اصبح السلاح إلهاً ونبياً وقانوناً فلا بد ان يكون الانسان قد اصبح شيئاً آخر .

ان المجتمعات تسلح الجيوش وتدربها وتتكلف نفقاتها الباهظة على حساب رخائها وذكائها ، لتؤدي عملاً معيناً لا يستطيعه غيرها ، ولكي تصبح القوة الوحيدة الضاربة في المجتمع . فاذا تحولت هذه الجيوش وهي القوة الوحيدة الى اسلوب للمغامرة والتآمر والقفز ليلاً على السلطة ، مستعملة السلاح الذي وضع في يديها لتستغله في الانتصار على الذين سلحوها ودربوها وتحملوا الانفاق عليها وهم لا يتكافأون معها لانهم لا يحملون سلاحها وتدريبها اصبح الامر اسلوباً بذيئاً من اساليب التخطي لكل القيم الحضارية والرجوع الى الغابة بوسائل حديثة،واصبح الامر كذلك نوعاً خطيراً من الخيانة والغدر .

ليس بطولة ولا عملاً كبيراً يمكن أن يفخر به أي أنسان أن يثب الذين يحملون السلاح على الذين وضعوا السلاح بايديهم دون ان يحملوا هم سلاحاً .

واذا كان من الجائز تبرير وثوب الجيش على الحكم لانه يوجد احتمال بان يكون ذلك مفيداً او ضرورة فانه توجد احتمالات مضادة وقوية بان يكون ذلك الوثوب مجرد طموح او توتر او محاكاة او منافسة او حقد او لعب بالسيف

او عرض للذات بوسائل حربية او خروج من السأم والفراغ باية وسيلة او شوق الى تجربة السلاح او بحث عن المغامرة والاثارة او عن النصر بـلا أي هدف او مجرد بحث عن التخلف .

وتدخل الجيش المستمر لانتهاب السلطـة يوحي بنفس الشيء الى جميع من يعيشون تحت السلاح . انه في الليلة التي يخرج فيها بعض الضباط من مضاجعهم ومعسكراتهم للاستيلاء على دار الاذاعة تكون العملية نفسها قد اوحت الى ضباط آخرين بنفس الفكرة بل صنعت ظروف الفكرة وظروف العمليـة المضادة لها .

تدخل الجيوش تحت شعارات الاصلاح ومقاومة الاخطار يعني ان يصبـح رجل واحد نبياً وقاضياً وسيافاً ، يشرع ويحكم ويعاقب ، وان يكون هذا الرجل الواحد ضابطاً في الجيش . ومامثل هذا الا ان يتحول رجل الشرطة او الحارس على الناس والاشياء الى شريعة وحكم بـلا محاكمة والى سيف ، ثم يعلن نفسه بطلاً منقذاً .

وهل يحدث مثل هذا في اي مجتمع ؟

ان أية ثورة عسكرية تقع باسم المقاومة لأي عهـد أو نظام أو فساد أو لأي تأخر تشبه هذا الذي لا يحدث !

ان الجيش الثائر نفسه ، الفاضل جداً ، الثوري الايمـان والتفكير والمذهب لا بـد أن يرى أية ثورة أخرى ضد ثورته أو ضد أخطـائه هي خيـانة عظمى وخروج على القانون ، ويعاملها على هذا الحساب مهما كانت ضرورية أو نافعـة أكثر من ثورتـه . فكل من ثاروا على غـيرهم يرون كل ثورة عليهم هم خيـانة وغدراً . وهم لن يتسامحوا معهـا أو يتوقفوا ليسألوها بورع صادق : هـل هي فاضلة ، هل هي أعظم نفعاً وتقدمية من ثورتهم !

إذن فجميع البشر يرفضون الثورات العسكرية ويرون فيها عمليات تخريبية ولكنهم يمارسونها أحياناً أو يرحبون بها حينما تكون منهم أو لمصلحتهم . وهذا كما يذمون ويلعنون جميعاً الأخلاق السيئة والرذائل التقليدية المعروفة وإن كانوا

يباشرونها بسلوكهم أو يرضون عنها اذا صدرت عنهم أو جاءت وفق ما يشتهون .

وهذا يعني ان الثورات خطايا يقترفها الثوار كعصاة كما يقترفون الكذب والغش والذنوب الأخرى . ولهذا فانهم يسحقون بلا رحمة وباسم القانون والعدل كل من يثورون عليهم كما ثاروا هم على من قبلهم .

ولو كانت الثورات عملاً وطنياً طيباً لوجب أن يهتفوا لكل من يثورون عليهم وأن يستقبلوهم بالعناق !

ولكن لو أن ثائراً ثار ضده أحد الأنبياء ، فهل يتورع هذا الثائر عن صلب هذا النبي وعن تحريق جميع ما يحمل معه من ألواح وصحائف باسم الوطنية والنظام أو باسم التعاليم الدينية التي جاء بها ذلك النبي المصلوب !

ولم يحدث في أي عصر من عصور التاريخ أن أباحت قوانين أي مجتمع من المجتمعات أية ثورة عسكرية تحت أي ظرف من الظروف ، بل كانت كل القوانين في كل العصور تحرمها وتعاقب عليها .

إذن فكل الثورات العسكرية خروج على كل القوانين حتى على قوانين أشد الثوار ثورية !

ان إعداد الجيوش عملية ذئبية أي ان قوماً يعدون ذئاباً مقاتلة لأن قوماً آخرين يعدون ذئاباً أخرى . ولم يستطع كل أصحاب الذئاب أن يتخلصوا جميعاً من كل ذئابهم . وأي عقل في أن تعد أنت ذئباً لكي أضطر أنا الى إعداد ذئب مقابل لكي يحميني من ذئبك أو بالعكس ؟

وإعداد ذئب ليلاقي ذئباً آخر يساوي لا ذئب هنا ولا ذئب هناك من حيث احتمال تكافؤ القوى . والفرق بين الحالتين هو الخسائر والتبذير والآلام في الأولى دون الثانية . واحتمال التفاوت بين الفريقين يظل موجوداً حتى ولو لم توجد هذه الذئاب . وليس في أعمال البشر كلها ما هو أسخف من إعداد الجيوش . واذا كان لا بد من أن نتحارب فإن بقاءنا بأيدينا أذكى وأفضل من ان نخترع الخناجر . انه بلا عداوة لا معنى للجيوش ومع العداوة ما أفظع الجيوش وأقل جدواها !

وهذا الإعداد المتقابل يشبه ان يوجد اتفاق على أن تقلع عين خصمك ليقلع هو عينك أو أن تهدم بيت جارك ليهدم بيتك ، أو أن يستعد كل منكما لذلك بكل قواه واهتماماته وتفكيره منفقاً فيه أبهظ النفقات دون أن يفعله !

ان البشر بكل ذكائهم وتجاربهم وتحضرهم لم يستطيعوا أن يتوصلوا الى الاتفاق فيما بينهم على التخلص من هذه العملية الذئبية الباهظة .

وجميع الجيوش منذ بدأ تكوينها لم تستطع بكل ما شنت من حروب عامة أو محلية أن تحل مشكلة من مشاكل الانسان أو مشاكل الحياة ، وليس من طبيعتها أن تفعل . بل انها دائماً تصنع المشاكل وتعمقها . وكثير من الحروب ليست سوى عقاب لحروب أخرى أو محاولة لتصحيح أخطاء صنعتها حروب أخرى أو لحل مشاكل أقامتها جيوش محاربة أخرى . نعم ان جيشاً ما قد يكسب نصراً على جيش آخر . ولكن هذا النصر ماذا يعني ؟

ان مجموع البشر لم يستفيدوا أية فائدة من مجموع الحروب التي شنتها جميع الجيوش في كل العصور . إذ كل الحروب في كل التاريخ لم تكن إلا ثأراً من حرب أو نتيجة لحرب أو خوفاً من حرب أو وسيلة لحرب أو تداوياً بما هو أقتل !

إذن فالجيوش لا يمكن أن تعطي البشر أو الحياة شيئاً .

الجيوش مثل الأمراض ، كل ما يمكن أن يستفاد منها تعاطي اللقاح منها ضدها . ولن يكون الانسان شاكراً للمرض أو مؤمناً برسالة المرض وبقيمته الانسانية لأنه يصيبه فيتخذ منه لقاحاً ضده ! مع ان التلقيح بالجيوش والحروب ضد الجيوش والحروب لا يمنح النتيجة التي يمنحها التلقيح بالمرض ضد المرض .

ان للجيوش وظيفة كبيرة واحدة في حياة الانسان ، تلك هي الوظيفة التي تؤديها لحياته الحشرات والطفيليات ، وهي ان تمتص دماءه وارزاقه وتجلب له الآلام والخراب والتشويه بدون ان تعالج امراً من أموره أو تعطيه اي تفسير لوجودها .

ولا يبدو الانسان كريهاً صغيراً جالباً للسخرية والضحك الأليم مثلما يبدو وهو في ملابس الجنود ، ينظر الى المرآة بكبرياء ولكن بلا عظمة ، ويظهر الرضا

عن وظيفته الذئبية الحشرية والاستعداد لتأديتها باخلاص ، ولكن بلا ارادة او عاطفة او ذكاء او شجاعة ، بل كدمية شريرة باهظة التكاليف .

ان قيام ثورة عسكرية في اي مكان يعني ان يصدم العالم كله بالنبأ الكبير المذهل وهو ان حشرات وذئاباً مدربة على القتال قد استولت على بلد ما لتحكمه نيابة عن الانبياء والعلماء والفلاسفة، اي باخلاق الانبياء وعبقرية العلماء وحكمة الفلاسفـــة !

***

واعود لاقول مرة اخرى :

انه لا مكان في الثورات للاحرار واصحاب العقول والاخلاق الممتازة ، بينما فيها اوسع الاماكن للاذلاء المثخنة اخلاقهم وعقولهم وانفسهم بالجراح !

ان اية ثورة من هذه الثورات التي تقع امامنا في هذه الايام بتتابع مثير لا بد ان تقتل او تسجن او تنفي او تحقر امثال افلاطون وسقراط وسبينوزا وفولتير وجان جاك رسو وابي العلاء وابن رشد لو كانوا يعيشون في عهدها — بل لا بد ان تفعل ذلك بموسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الانبيـــاء لو كانوا معاصرين لها وحاولوا ان يؤدوا رسالاتهم . ولكن اتفه المنافقين الاغبياء الوضعاء سيجدون فيها اعظم الحظوظ وارفع المناصب .

وهذا يعني انه بمقدار ما تتكاثر هذه الثورات تموت احتمالات وجود الاحرار والمفكرين وذوي المزايا القوية . وهذه احدى كوارث كل ثورة .

انه لما كانت أية ثورة تصر على أن يؤمن بها كل من في المجتمع ايماناً مطلقاً ، وكانت لا تقبل أي شك أونقد أوتردد أوتسامح في الولاء لها، ولاتتراخى في معاقبة كل ذلك وسحقه ، وكان الايمان المطلق الموحد لا يمكن أن يوجـــد إلا في قوم متساوين في ضعفهم ومستوياتهم العقلية والثقافية ، وكان من المستحيل أن يخضع المتفوقون لمثـل هذا الايمان بل لا بد أن يثوروا عليـــه ولو من داخلهم اذا لم يستطيعوا إعلان ثورتهم ، فالمتفاوتون في مواهبهم وثقافاتهم لا يمكن أن يتفقوا في ايمانهم :

لما كان ذلك كذلك أصبح شيئاً محتوماً أن تعادي الثورات كل المتفوقين ، أن تعادي كل من لا يستطيعون أن يؤمنوا بإخلاص وولاء متشابه ـ كل من يرفضون أن يتخلقوا بمزايا القطيع . وإذا كان من المفروض أن تقاوم الثورة امتياز المولد والطبقة فان مقاومتها لامتياز الخصائص الذاتية أشد ، هي تريد أن تجعل الناس متساوين في هوانهم وغبائهم . لقد كانت جميع الثورات ولا تزال كذلك تبحث عن النموذج الواحد في البشر ، هي لا تريد التفاوت بينهم. انها تحارب الفروق العقلية والأخلاقية لأنها تخشاها ، لأنها تتحداها . لهذا كان من المحتوم الدائم أن تعاقب جميع الأحرار والمفكرين والشرفاء أو تضيق بهم. ان هؤلاء هم التحدي المثير لها، والتحريض القوي عليها، والاحتجاج الدائم على غباء قطعانها واستسلامهم المهين . وهؤلاء يبادلونها نفس العداء واللعنة . وانهم ليعادونها لنقيض الأسباب التي تعاديهم من أجلها . ان العداء بينها وبينهم حقيقة تاريخية معروفة الأسباب. هي تمقت فيهم التفكير والفهم والنزوع الى النقد والشك والتسامح والمحبة والرؤية الشاملة ، وهم يمقتون فيها الغبـاء والتعصب والبغض والتسلط والكذب والغرور وضيق الرؤية . إذن لا بد أن يضيق كل منهما بالآخر .

وقد كانت النتيجة الطبيعية لهذا أن تفرض الثورات في كل زمان على المتفوقين نوعاً خاصاً من الإذلال والقهر لا تفرضه على من سواهم من التافهين والمغفلين . انها تنظر اليهم دائماً كأعداء ومفسدين ومذنبين خطرين، وتعاملهم على هـذا الافتراض، وتفرض عليهم كل ألوان العزل والحرمان والتحطيم، وتبدع في إذلالهم وقهر مزاياهم ومعنوياتهم ، ثم تطلب اليهم ان يشكروها على ذلك كرهاً وأن يعترفوا ضد أنفسهم وأن يلعقوا دماءهم ويأكلوا قيئهم . وقد تعلن بعد ذلك أنها قد غفرت لهم لتزيد من إذلالهم وتحقيرهم ، ولترضى عن نفسها بالشعور بالمقدرة المطلقة وبخضوع الجميع لها على أذل المستويات وبسعة رحمتها وعفوها الذي لا حد له عن المذنبين والأعداء . وذلك بعد أن يتوبوا التوبة القاتلة على يد شيطان جاهل يقتات بالقسوة والضلال .

واذا كان من المفروض ان الثوار إنما يثورون في العادة باسم الحرية والأفكار التقدمية فان الأحرار والمفكرين العظام يشقون في عهد الثورات إذا لم يسقطوا الى حضيض النفاق والجبن والعبودية أكثر مما يشقون فيالعهود التي تزيلها الثورات بل مما يشقون في كل العهود ، وان الثوار ليضيقون بهؤلاء الدعـــاة التقدميين بأفكارهم ونضالهم ومستوياتهم ويعملون على إذلالهم أكثر مما يفعـل بهم خصوم الثورة التقليديون . والمفكرون ودعاة التقـــدم الذين ماتوا أو تعذبوا في عصر الثورات أكبر كثيراً من الذين ماتوا أو تعذبوا منهم في عصور غـــير ثورية ، والوحشية التي نزلت بهم من الثوار أفظع من اية وحشية نزلت بهم !

وللثورات دائماً عدوان، أولهما خصومها بالنظرية وبالوضع الاجتماعي والتاريخي والطبقي وهم الذين توجه اليهم ضربتها الأولى ، وثانيهما ذوو الأفكار والمذاهب الحرة التقدمية الجريئة اذا لم ينافقوا ويتحولوا الى طبول وهتافين فكريين . مع أن هؤلاء قد يكونون من أنصارها بالنظرية والطبقة . وقـد تقسو عليهم أكبر من قسوتها على أولئك . فهي اذن لا تعادي أو تصادق بالمذهب أو التفكير بل بالخوف والأنانية . ان الثورة تبحث دائماً عن الايمان لا عن الحقيقة، عن الانتصار لا عن الحب . لقد عرفنا فيما سبق ان الناس في زمن الثورات محتوم عليهم أن يؤمنوا ومحرم عليهم أن يفهموا . واذن فالذين لا يستطيعون أن يؤمنوا ومحكوم عليهم أن يفهموا لا بد أن ينافقوا، والذين لا يستطيعون أن ينافقوا بمهارة وذكاء لا بد أن يموتوا أو يلقوا من الهوان كل فنونه . والثورة تشترط للنفاق لكي تقبله شروطاً باهظة . تريده ان يكون مهيناً وصغيراً بلا حدود ، تريده ان يكون موتاً . انها لا تتسامح في اسلوب النفاق المطلوب .

لهذا كان عصر الثورات هو بحق عصر النفاق او الايمان الهمجي — فإمـــا مؤمنون بلا كرامة عقلية أو منافقون بلا كرامة اخلاقية ، وهم في الحالتين بلا كرامة حضارية !

وأكثر من يشقون بهذا النفاق ويفرض عليهم تجرعه بلا رحمـة هم الأحرار وذوو العقول والأفكار العظيمة وغيرهم من كبار الرجال اذا لم يقبلوا أن يموتوا أو يتحطموا تحت ظروف من الوحشية والبطـــولة لا مثيل لها في تحديهـــا

المتقابل .

اني أخاف الثورات لأني أخاف على مستويات الحرية والذكاء والكرامة والمعارضة الشجاعة والتمرد الخلاق .

اني أكره الثورات لأنها خطر على العبقرية ، لأنها تسحق التفوق .

لقد كانت الثورات هي دائماً فترات هدم . ان مجيئها على فترات كان فرصة انقاذ للانسان وللحضارة . ولو أنها كانت شيئاً دائماً لتغير وجه الحضارة .

●

ادعو الكتّاب إلى الانتحار

الكاتب يعمل في الناس لا من اجلهم ، وهو لا يجيء لان دعوة ملحة وجهت اليه ، وانما يجيء متطفلاً — يجيء لاضطراره الى المجيء لا لحاجة الآخرين الى مجيئه . فهو سقوط على المجتمع لا موت في سبيله . انه يقرأ نفسه على المجتمع ويستمع الى نفسه بواسطة المجتمع .

ومع ان موضوع الكاتب موضوع فدائي فان حوافزه واهدافه ذاتية انانية .

واذا وجدنا كاتبا يذوب حزنا ودموعا على الخاطئين والمتألمين والمظلومين فهذا الكاتب لا يمتاز بامتلاك مقادير اكبر من الفضيلة أو الحب أو النزاهة أو الشجاعة ، بل قد يكون ممتازا بالحقد والوحشية والبغض والكآبة الروحية .

والكاتب مشغول بنفسه وبآلامه عن اية آلام اخرى . انه يتحدث عن شؤونه هو باسلوب يوهم القارىء الطيب انه يتحدث عن شؤون الاخرين وانه انسان قد صاغه الله من الحب والرحمة . والمشكلة ان عيوب الكتاب لا تنفصل عن افكارهم ، فاذا قرأنا لاي كاتب كان معنى هذا ان نقرأ جميع ما فيه من نقائص على انها رسالة انسانية موجهة الينا من انسان يعيش مع الآلهة .

ان الكتاب قوم يبيعون همومهم على الناس ويلقون بها فوقهم بالاكراه . وهم بطبيعتهم عدوانيون مهما اعطوا من نتائج جيدة . أليسوا يفرضون انفسهم على

المجتمعات ويطلقون عليها كل ما فيهم من هراء وتعب وضـــلال ؟ حتى حينما يعطونها ازهاراً ومسرات وحباً لا يقصدون ان يفعلوا ذلك . فالكاتب مفترس يقتات بمن يبكي عليهم وبمن يشقى بحبه لهم !

ليست مهنة الكتابة الا آلاماً خاصة توزع توزيعاً عاما . وجميع الفنون ما هي الا اساليب عرض او استعراض للذات او فرار منها ، وليس فيها ما هو تضحية او حب . بل ان كل الاعمال الفنية والعقليــة كالتفكير والشعر والنبوة والرغبة في الاصلاح ليست سوى ظواهر عصبية ابرزتها قدرة ممتازة على التعبير.

وقد كان المفروض دائمــاً ان الكاتب رسول يجيء ليخالف المجتمع ويتعبـه ويغيره ، وانه ليس شاعراً مداحاً يطلق نفسه في الأسواق لامتــداح رذائلهـا وضعفها وأوهامها .

موضوع الكاتب هو حياة الانسان وكل ما له علاقة بحياته أو تأثير عليهـا : ينتقدها ليقويها ويهذبها لأنه رسول يدعو الى عـالم أفضل . ولم يبعث الله رسولاً مداحاً يمدح ما هو موجود أو يمدح المجتمع ويفسده بالثناء وبالرضا عن النفس .

ان الرسول ـ أي رسول ـ هو دائماً هجوم وإقلاق وإثارة وإحداث للألم ـ هو نوع من التشاؤم الذي يتحول الى شك ومحاولة لتغيير الناس والأشياء .

والرسول لا يمكن أن يتحــول الى قصيدة امبراطورية أو قصيــدة سوقية يتملق بها فساد امبراطور أو ضعف جمهور . والذي يتملق مشاعر الأسواق ليس أقل جريمة من الذي يتملق مشاعر الحكام . والحافز لمتملق المجتمـــع هو نفس الحافز لمتملق التاج . والخطأ هو نفس الخطأ والربح هو الربح والنتيجة واحدة .

ولم نستطع أن نفترض الكاتب شيئاً مـا غير أن نفـترضه رسولاً . ولكن الكاتب في أكثر الظروف لا يحمل رسالة رسول بل لا يحمل رسالة ما .

انه مداح !

ماذا يكتب ؟ انه لا يريد أن يتعب نفسه أو يتعب جمهوره . لقد تحول الى قارع طبول .

وجد جماهير غافلة متفائلة راضية عن نفسها وعن ضعفهـا وعن أمسها وعن

يومها وعن غدها . وجدها مصدقة لا تعرف الشك ولا تريده ، فاقـدة لملكات النقد ، تملك أحقاداً وأوهاماً صغيرة نبيلة . فلم يحاول أن يرهق نفسه أو يورطها في أن يخالف هذه الجماهير أو يعلمها أو يصطدم بها .

كان الأسلوب السهل أن يتملق ويمدح ففعل . لقد حمل المعازف ليغني لهـا أغاني الاسترخاء والاطمئنان البليد !

الجماهير تكره التشاؤم وتكره أن تعرف نفسها أو تعرف الحقائق . تكره التشاؤم لأنه نوع من النقد ، وتكره النقد لأنه ينطوي في معناه على المطالبـة بالتغيير . والتغيير مخيف لأنه تعب وخطو الى المجهول . وهي ترحب بالتفاؤل لأنه تسامح مع ضعف النفس ، وتسويغ للعجز والانتظار والاستقرار وللهرب من الشعور بالنقص وبالالتزامات الثقيلة !

والذين يبشرون بالتفاؤل هم إما منافقون أو مستغلون أوأغبياء أومرددون لأغنية ألفها قوم من الدهاة تحت أغراض مذهبية أو سياسية .

التفاؤل إما بلادة أو حيلة ما لم يكن مزاجاً نفسياً .

ونجد أشد الناس تفاؤلاً هم المستفيدين من السوق أو المجانين ، ونجدالشعوب المتأخرة أكثر تفاؤلا من الشعوب العظيمة ، والأغبياء يتفاءلون أكثر من الأذكياء . وقد نتفاءل في دعوتنا لأننا متشائمون من داخلنا !

التفاؤل معناه الرضا عن النفس وعن وسائلها في الحياة بكل ما سوف تؤدي اليه من نتائج . انه جبن وبحث عن العزاء المريح .

التفاؤل فرار من خطر الحقيقة ومن ألم الاحساس بها ! والتشاؤم الذي نراه هداماً ليس تشاؤماً في الحقيقة وإنما هو خوف قتال أو هزيمة كامـلة ، إذ ان التشاؤم رؤية للواقع واعتراف به !

والجماهير تنقاد للذين ينشرون فيها فلسفة التفاؤل وتهبهم ايمانها وقيادهـا وتشتهي ان تنخدع لهم لأنهم يريحونها . وإذا نزل السوق داعيتان : داعية تفاؤل وداعية تحذير يتحدث عن احتمالات الأخطار فمعروف جـداً من الذي سوف يجلسه السوق على عرشه !

إن من يدعون الى البقاء تحت سفح الجبل سيلقون اتباعاً اكثر من الذين يدعون الى صعود القمة الخطرة ، والذين يبشرون بالأوهام السهلة يكونون انبياء اكثر من الذين يبشرون بالحقائق الصعبة .

الحياة احتمال دائم وكذا الحقيقة ، فليست الحقيقة إذن هي ان نتفاءل فقط لأن التفاؤل ينقلنا من أن نبقى احتمالا الى ان نتحول قدراً ، وليس معنى التشاؤم الاستسلام والبكاء ولكن معناه تقوية الجسور والبحث عن الوجه الآخر من الحقيقة . وقد يكون التشاؤم والتفاؤل حالة نفسية لا فكرية . فالمرضى والضعفاء يغلب عليهم التشاؤم ، اما الاصحاء والأقوياء فهم في الأكثر متفائلون .

والتفاؤل قد يهبنا الراحة ولكنه لن يهبنا الحقيقة . وقد تكون راحة المتفائلين كراحة المتخدرين – راحة تؤدي الى التعب والضعف !

انا لا ادعو الى التشاؤم الكئيب وإنما ادعو الى رؤية الحقيقة بكل احتمالاتها وأخطارها . ادعو الى التفكير المتشائم والحياة المتفائلة !

والكتاب الرديئون يختارون دائماً الوسيلة السهلة التقليدية – يختارون ان يغنوا للنائمين بدل أن يوقظوهم او يحركوهم . لقد وجدوا ان أيسر ما يصنعون ان يغمدوا قراءهم في أنفسهم وأن يحولوا شهوات الحياة فيهم الى احقاد وآمال لا تتعب من الانتظار !

والكاتب في الأغلب متهم بأنه يختار الطريقة المضللة المريحة . انه لا يعلم قراءه بل يخدعهم . يدرسهم أنهم أذكى الناس وأقواهم وأشرفهم وأعرقهم فضيلة وأنفذهم في وعي الأمور ، وانهم منتصرون وصائرون الى جميع ما تشتهيه أنفسهم ، وانهم مبرأون من العيوب ، وان كل حقائقهم حقائق صحيحة . حتى انه ليبارك ذكاءهم اذا وجدهم يعبدون صنماً فاسقاً ، ويدلل بعبوديتهم لهذا الصنم على اكتمال وعيهم . انه يبالغ جداً في امتداح جميع آلهتهم الغبية .

إنه يزكي من غير تحفظ مشاعرهم وأوهامهم بكل ما فيها من ضغينة وصغار وضلالة وعقم ، ويملأ الزقاق الفارغة بالهواء الفاسد ولا يترك لهم فرصة لاستنشاق الهواء النظيف .

يكرر قراءه على أنفسهم ، لا يقطع لهم من ذاته شيئاً ، ولعله لا يملك ذلك الشيء . وتكراره لهم يجعله يضربهم في أنفسهم فيعطي النتيجة التي يعطيها ضرب أرقام معينة في أرقام مثلها . يضرب احقادهم في احقادهم ، وكذا اوهامهم في أوهامهم وضعفهم في ضعفهم وتفاؤلهم في تفاؤلهم وثقتهم بأنفسهم في ثقتهم . فهو اذن لا يغيرهم وإنما يضاعف حماسهم لبقائهم في طفولتهم وكراهتهم للتجدد .

كان الشاعر القديم ينافق الحاكم وحده ، اما الكاتب الحديث فينافق الحاكم والجمهور معاً . وهو يقول لكل منهما ما يريده لا ما يغيره . لهذا أصبح أشد احتياجاً الى النضال ضد الصدق . لقد أصبح الكاتب في الأغلب أحد أعداء الحقيقة الشرسين .

***

واتهم الكاتب العربي بأنه لم يكن بطلاً ولا فدائياً !

البطولة نوع عظيم من التحدي والعصيان . والبطل هو الذي يتمرد على المجتمع ـ على أخطاره ومغرياته . هو من ينتصر أو يموت دفاعاً عن شيء ، بل من يموت لأنه بطل لا لأنه يدافع عن شيء !

البطل لا يسير في الطريق العام بل يخرج عنه ، وهو لا يطيع كما تطيع الجماهير ولا يرضى عما ترضى عنه أو يؤمن بآلهة السوق أو أخلاقها او تعاليمها . انه دائماً إزعاج وخروج على المقررات والقوانين .

والكاتب العربي لم يستطع أن يكون بطلاً ـ لم يستطع ان يتحدى أو يعصي أو يخالف القوانين . لم يستطع أن يموت .

هو دائماً راكع ومطيع . يطيع القوة ويطيع الجماهير والتقاليد والأفكار المعروضة في السوق ، ويطيع كل الأوامر ويخاف أن يعصي أو يخالف . انه يعبد كل الأصنام في كل المحاريب ، بل انه يتحول الى داعية خوف وطاعة ، يعلم الجماهير كيف تطيع وتخاف ويسوغ لها ذلك ويدعوها اليه. انه رسول مضاد ـ مضاد لمعنى كل رسالة ، هو يلوث السوق اكثر من أن يحاول تنظيفها .

واذا تحدى أو قاوم فلا يحتمل ان يكون شجاعاً ، بل لا بد ان يكون تاجراً ـ لا بد أن يكون آمناً من الخطر ، وان يكون قد قدر فوجد ان موقفه هذا يمنحه من المكاسب اكثر مما يمنحه الموقف الآخر المضاد . فهو يعارض حيث تكون المعارضة مغنماً لا مخاطرة . فالمعارضة عنده دائماً نوع من البحث عن الربح لا عن التضحية !

لم يقف الكاتب العربي في وجه الخطر فلم يدفع الثمن !

لقد وجد شهداء للبطولة في كل كتّاب الشعوب العظيمة . أما كتّاب العرب فقد وجدناهم اكثر ركوعاً من الباعة والعمال وأصحاب الحرف . ولو فعل بعضهم شيئاً فيه مخاطرة لكان نوعاً من الخطأ في التقدير أو التورط ، وليس تحدياً ولا شجاعة .

لقد وجدناهم يعبدون الله والشيطان في وقتين مختلفين ، بل في وقت واحد على حسب انتصار كل منهما وقوته .

* * *

واتهمه بأنه ليس ناقداً، لا يعرف الحدود الفاصلة بين الأكاذيب الكبيرة وبين الحقائق . هو قارىء وسامع وهاوٍ للخرافة . لا مساح يخطط الحدود ويضع العلامات .

الاشاعة والخبر المكذوب والحديث في السوق والكذبة السياسية والتصريح الرسمي ـ كل ذلك حقائق عنده يتخذ منها موضوعاته ومذاهبه وعقائده وأحكامه على الأشياء والناس والحياة ، ويفسر بها السياسة العالمية والدول والأشخاص والمواقف ، ويصنع منها كل الغذاء الذي يطعم به خرافه . انه يكذب غباء ، تصديقاً لمن يكذبون دهاء .

يأخذ كل حقائقه من الاذاعات والصحف وأحاديث المجالس ومن النقوش فوق القبور . وهذه كما هو محتوم تجيء متناقضة .

إذن كيف يتصرف ؟

انه تارة يتعدد ويتناقض بتعدد وتناقض هذه الحقائق، ويذهب في أشواط لا تنتهي بين التصديق والتكذيب والصعود والهبوط في مجال واحد !

وتارة يمسك بطرف واحد ويصدق أحد الجانبين المتناقضين ويراه الحقيقة ويرفض ما يناقضه ، ويأخذ حينئذ بمبدأ الحقيقة الواحدة . والحقيقة عنده غير منقسمة بل يملكها كلها جانب واحد .

وهو يتجه هذا الاتجاه حينما يكون التناقض عليه محرماً — حينما يكون عاجزاً عن التناقض وعاجزاً عن أن يقتنع بهذا وبهذا . لأنه خائف أو منافق أو لا يملك قدرة فكرية أو ثقافية تجعله يشك ويتناقض ! وأسوأ ما يحدث لأي انسان في هذه الدنيا أن يكون عاجزاً عن التناقض لأنه جبان أو بليد .

وهو لا يملك تجربة ولا معرفة تجعله يستطيع التمييز بين المستحيلات والممكنات . فالبشاعة والاستحالة والظروف والقرائن لا تؤثر في عزمه على التصديق . لقد سمع الشيء أو قرأه أو اشتهى تصديقه وهو يوافق مذهبه السياسي أو الفكري . إذن هو صادق !

وهو لا يقرأ الخبر من داخله أو من ظروفه بل من حروفه ومن السوق ومن رغبته هو . والحكم الفصل بين الصدق والكذب هو اتجاهه هو — مخالفته له أو موافقته . فما يوافق هواه أو مذهبه أو مزاجه الثقافي هو الصدق ، وما يخالفه هو الكذب . انه لا يفهم الحياة بقوانين الحياة ولا يحكم على الخبر بخصائص الخبر!

يحول قراءه الى أعشاب يحرقها بالتهاويل والأكاذيب الممتصة للطاقات الانفعالية . وتعويد القارىء على ابتلاع الكذب يفسد عليه وعيه وشجاعته . والذي يعتاد الاستسلام للأكاذيب المزعجة يهون عليه الاستسلام للحقائق المزعجة !

***

واتهمه بأنه لم يبلغ مرحلة الوعي ، فهو لا يرتفع الى مستوى فهم القضايا التي تواجهه ، وهو لذلك لا يرتفع الى مستوى القدرة على علاجها .

يكتب ويفسر ويعلل ولكن بدون ان يفهم .

افهامه للأشياء دائماً سابقة وثابتة . لا يدرك انه لا توجد حقيقة محددة او مفسرة تفسيراً سابقاً منتهياً ، وانه لذلك لا يمكن أن تفهم الحقائق من ذاتها ، وان أي شخص أو شعب أو موقف لا تفسره مثله ولا نظرياته وإنما تفسره ظروفه وهي التي تضع له مثله ونظرياته . وهذه الظروف خاضعة أيضاً لظروف أخرى . فهي غير متقررة .

وإذن لا يوجد موقف ولا تفسير ولا شخص متحدد، كذلك لا توجد حقيقة متحددة ولا دولة متحددة . فالذين يتخذون موقفاً متحدداً أو يفهمون الحياة فهماً متحدداً هم قوم خارجون على القوانين الكونية .

الكتّاب العرب لا يفهمون المشاكل ولا يعالجونها ولكن يشتمونها ! وهم عاجزون فكرياً عن التحرك بالسرعة والقوة التي تتحرك بها الظروف والأحداث والناس . وتعقيدات الأسباب والمسببات وتحركاتها أقوى من تحركات طاقاتهم الذهنية والتفسيرية .

الحوادث دائماً تسير في طريق متعرج مخادع ، صاعد وهابط ، ففهمها يحتاج الى عمليات فكرية مماثلة .

لم يتعلموا أن يفهموا ويفسروا وإنما تعلموا أن يسبوا ويتهموا !

لم يدركوا ان الأشياء قوانين فلم يدربوا ملكاتهم على النمو .

لم يعيشوا في مجتمعات تعالج الأزمات بالتدبير والإعداد فلم يتعلموا علاجها بالتفكير .

وجدوا في بيئات تكثر من الصياح حين الخطر فصاروا هم يكثرون من الصياح كذلك عند وجود المشكلة !

وهم لا يختلفون في فهمهم وتفسيرهم للمشاكل لأنهم في الحقيقة لا يفهمونها ولا يفسرونها وإنما يتكلمون فيها .

يتكررون جميعاً في تصور واحد ثابت .

والذين يفهمون موضوعاتهم ويتعمقون في دراستها لا يمكن أن يتفقوا عليها.

والذين يتفقون هم الذين لا يعرفون ! واذا عرض موضوع على قوم فسيكون أكثرهم اختلافاً عليه هم أكثرهم وعياً له . وسيتفق عليه أولئك الذين لا يعونه .

وجميع كتّاب العرب يحيون بروح واحدة - روح قد أضعفها طول تقمصها للتاريخ .

ولعلهم غير محتاجين الى وعي الأشياء وعلاجها بل لعلهم يهربون من ذلك . فان قرّاءهم بطيبتهم وتواضعهم لا يحوجونهم الى صعود هذا المرتقى . بل لا بد أن يكون هؤلاء القراء يهابون ويستنكرون الكتّاب الذين يتعمقون في الفهم ويرونهم متعبين غير جديرين بالاحترام والاتباع . والبشر في الأكثر يرحبون بمن يثيرون مشاعرهم لا بمن يعلمون عقولهم !

وهم يعطون أحكامهم قاطعة لا ترجيح فيها ولا شك . والقول بالاحتمال يخيفهم ويرهقهم فيفرون الى القول باليقين .

وبهذا يغلقون كل احتمالات المعرفة المتجددة ويفرضون آراء معينة ويرهبون المخالفين ويفترضونهم خونة .

ومن الصعب ان يفكر أو يتجدد قوم قد انتهوا من معرفة الحق وعينوه تعييناً لا يحتمل الخلاف والمناقشة . وصعب جداً أن يوجد بين هؤلاء من يجرؤ على مخالفة الآراء المسلمة التي تؤمن بها السوق على أنها حقائق نهائية ، سواء أكانت هذه الآراء سياسية أم فكرية أم دينية . وقد يجرؤ الكاتب على الانتحار ولا يجرؤ على مخالفة من يحكمون على الأشياء أحكاماً قاطعة متعصبة !

والذين لا يشكون هم الذين لا يعلمون . فالعلم دائماً شك والجهل يقين . وكلما تعلمنا الشيء وأحطنا به ازددنا شكاً . والمبصرون اكثر من العميان شكاً في مرئياتهم . وكلمة « يقين » لا وجود لها في القوانين الكونية أو العلمية .

***

واتهمه بأنه لا يتحرى الصدق ولا يحترم الحقيقة !

انه يكذب ويشعر انه لا بد أن يكذب وان من الذكاء أن يكذب وانه يعيش في مجتمع لا ينتصر فيه إلا من يكذبون !

لم يصنع له مثلاً فكرياً عظيماً يفنى فيه ، وهو لا يتحمس للمعـاني الإنسانية الكبيرة . ما هو الصدق ، وما الكذب.؟

إنهما ليسا حقيقتين متميزتين ، ليس بينهما فاصل يعترف به ويحترمه بل هما حقيقة واحدة تعطي طعماً واحداً ونتيجة واحدة !

ثم ما هي الحقيقة؟ هي أن يصل الى غرضه من كل الطرق ومن أقرب الطرق.

إنه يكذب كذباً فكرياً . يعارض أو يؤيد ، يمدح او يذم بلا حقيقة وبـلا شرف . وإذا لم يكذب فليس لأنه يحترم الحقيقة بل لأنه يخشى الكذب أو لأنه يريد ان يكون وقحاً ! والإنسان يصدق أحياناً وقاحة لا صراحة .

ليس لمواقفـه الفكرية قيمة ولا دلالة فكرية ـ لا يتحرى الصدق في أي موقف فكري إلا بالمقدار الذي يتحراه فيه المعلن عن أحد مساحيق التجميل .

هو لا يدرك قوة الحقيقة ، لهذا لا يحترمها ، لهذا لا يضحي في سبيلهـا . والجاهل لا يمكن أن يتعذب دفاعـاً عن مثل فكري لأنه لا يدرك قيمته . واحترامنا للحقيقة منطلق دائماً عن إدراكنا لقوتها . والذين لا يحترمون الحقائق هم قوم عاجزون عن معرفتهـا ، والذين يحترمونها لا بد أن تكون لهم مزايا فكرية. ومن أجل أن تكون لنا فضائل يجب أن تكون لنا مثل فكرية كبيرة.

والكاتب العربي لا يبالي بالحقيقة وإنما يبالي بتأثيرها فيه . وتأييده وخذلانه لها قائمان دائماً على هذا الحساب . فإذا مدحها كان كاذباً بقدر ما يكون كاذباً إذا ذمّها . إنه قد يمتدح الحق ويدافع عنه بالحافز الذي يمتدح به الباطل ويدافع به عنه ، هو كاذب في هذا بقدر ما هو كاذب في الآخر . بـل هو متهم حينما يقف الموقف النبيل أكثر .

وهو يعادي الحقيقة الكبيرة أكثر من عدائه للحقيقة الصغيرة لأن الحقيقة الكبيرة تخلق المنافسة والخوف والحقد أكثر مما تصنع الحقيقة الصغيرة ، ولأنهـا تغضب وتخيف من يحتاج الى رضاهم !

إن الكاتب العربي لا يرى في القضايا الفكرية والأدبية أكثر من انفعـالات صغيرة يستجيب لها أو لا يستجيب بقدر ما فيها من تأثير على منافعه الخاصة.

فأحكامه تشبه مبارزة كلامية سريعة تافهة تقع بينه وبين بائع متنقل في مساومة صغيرة، أو تشبه محادثة مع صديقة مغرورة تهوى الاعجاب والاطراء ويوجب الادب لها ذلك. وهو لا يعتقد أن للتاريخ او للزمن او للمجتمع عليه حقا او حساباً. انه لا يستطيع ان يتخذ مواقف متضادة او يشعر مشاعر متضادة ازاء الاشياء المتضادة.

وهو عاجز عن التحمس للشيءالعظيم وعاجز عن الاستهجان المتحمس للشيء الرديء .

والكتّاب العرب لم يستطيعوا ان يخلقوا مولودا فكريا او ادبيا عربيا، لقد ظلوا مظاهر ولادة ولم يتطوروا الى ولادة!.

لم يعطوا قيادة ولا حرية ولا مذهبا من المذاهب السياسية أو الادبية أو الاجتماعية أو الفكرية المتميزة الخاصة.

لم يوجدوا ولم يغيروا !

جميع المذاهب والقيادات والفلسفات التي يحيا بها العالم لم يضع الكتاب العرب واحدا منها ولم يضيفوا اليها أو يطوروها أو يدخلوا اية تعديلات عليها ـ بل لم يستطيعوا ان يصبحوا فاهمين ومفسرين لها ، لم يستطيعوا ان يصبحوا شراحا. وكان كل حولهم ان يتهموا ويسبوا تلك المذاهب والثقافات ويرفضوا احترامها والاعتراف لها بالقيمة او التفوق، لان اعترافهم لها ينافي الوطنية والاستقلال وكراهة الاستعمار !

لم تربح الانسانية ولا قومهم من وجودهم شيئاً، ولن تخسر كذلك لو لم يوجدوا ، لأنهم لم يعطوا ولم يغيروا !

ولو بتر مكانهم من شريط المعرفة العالمية لما تبين مكان البتر، وانا هنا افترض لهم مكانا.

يتكلمون في كل شيء ولكن باسلوب التهديد والكبرياء.

يحلون كل مشكلة ولكن من غير أن يدرسوها!

ليست الحقيقة عندهم أفكاراً أو ابتكاراً أو تواضعاً ، وانما هي غرور وتحد

واحتقار وعداوة للآخرين .

يشتمون ويفاخرون ، وهذا أقوى ما يفعلون .

خصومهم ضعفاء وأغبياء ومهزومون وبلا شرف وخططهم كلها خاسرة ، أما هم فمعهم كل التاريخ وكل الحقيقة وكل المستقبل .

جميع ما يصنعون ليس غير عملية إحراق لحماسهم وحماس الآخرين – يحولون توهج النفوس الى جهود صغيرة من الانفعالات الضائعة .

يهيجون المشاعر ولكنهم لا يعلمونها ولا يغيرونها ، انهم يجعلون من قرائهم غباراً تاريخياً ويصعدون الى المجد بالسقوط فوق جماهيرهم !

وهم مع هذا ليسوا منفصلين عن مجتمعهم – ليسوا نقصاً في جهاز كامل ، ولا رذيلة واحدة في مجتمع من الفضائل !

*

نعجب أحياناً كيف يعيش أقوام على الأوهام ، ولكن علينا أن نعلم ان للأوهام من قوة الاغراء مثلما للحقائق أو اكثر ، وانه لا يوجد من يعيشون بالحقيقة وحدها ! وقيمة أي مذهب كائنة في قدرته على الإقناع والتأثير لا في سلامة منطقه !

ان الناس يحيون في الخرافة ولكنهم لا يحيون بها ، فالخرافة قد تحرك حياتهم دون ان توجدها ، هي تهز ولكن لا تخلق . فالحقيقة هي وحدها التي تتحول الى حقيقة ، أما الكذب فانه يظل دائماً كذباً !

الخرافة تعيش بقوة الحقيقة غير ان الحقيقة لا يمكن ان تعيش بقوة الخرافة . والأكاذيب لا تعول نفسها بل هي تحيا دائماً خارج ذاتها !

والذين لا تصنع حياتهم إلا الباطل ومع هذا يحيون انما يحيون على حساب حقائق الآخرين وبقدر ما لديهم هم من حقائق اضطرارية لم يصنعوها ولم يستطيعوا ان يتركوها لأنه لا وجود لهم بدونها !

والانسان مهما كان خرافة فلا بد ان يكون فيه شيء من الحقيقة وإلا لمات .

ولكن هذه الحقيقة قد تكون في حياته لا في منطقه !

❁

قد نبحث عن اعتذار للكتاب .

ان طغيان الحكام وتبلد المجتمعات كانا يفرضان عليهم العجز والتفاهة . فالنبوغ يخنقه الخوف والقهر والظروف الرديئة !

ولكن هذا الاعتذار يتمم المشكلة ولا يحلها ، لأن رسالة الكاتب هي ان يحاول تقوية الحرية ضد خصومها وإضعاف اولئك الخصوم او إزالتهم .

والقول بأن الكتّاب كانوا يعيشون تحت الخوف والكبت ، يعني القول بأنهم عاجزون ومقصرون مسؤولون . مفروض على الكاتب أولاً أن يعطي نفسه الحرية ثم يعطيها الآخرين ، وعجزه عن أن يكون حراً هو معنى المشكلة ومعنى التهمة !

وليس المطلوب من الكاتب أن يجد الحرية فيباركها ، ولا أن يجد الطريق ممهداً واسعاً امامه فيسير فيه متراخياً ينشد الأناشيد الحرة السعيدة . ولكن المطلوب منه أن يتعذب ويخاطر ويبدع ظروفه واحتياجاته ! وبقدر ما هو مفروض على عمال المناجم والمصانع والعاملين في الأرض أن يوجدوا عملهم ، كذلك مفروض على الكاتب أن يناضل لإيجاد الحرية . اولئك مطلوب منهم ان يزيلوا كل ما يعوق عملهم وانتاجهم ، والكتّاب مطلوب منهم ان يقودوا المعركة ضد طغيان الحكم واللاهوت والرجعية وكل ما يؤخر ازدهار التفكير الحر !

وانتصار أعداء الحرية يبرر اتهام الكتاب لا براءتهم . وبقدر ما يكون توطن الأوبئة دليلاً على ضعف الاجراءات الصحية ، كذلك يكون فقدان الحرية دليلاً على ضعف الكتّاب وإفلاسهم . ان وجود الدكتاتورية في أي مجتمع يعد اتهاماً عنيفاً للكتّاب ، ولا يمكن ان يكون عذراً لهم . فالمفروض فيهم ان يمنعوا وجود الطغيان لا ان يكون وجوده محللاً لنفاقهم وهوانهم .

حينما نفترض الحرية موجودة ، والمجتمعات متطورة واعية ، والحكم صالحاً عادلاً

وكل شيء على ما يرام ، فما هو موضوع الكتّاب حينئذ وما هي أعمالهم ؟

والكاتب العربي ليس متهماً فقط بأنه خائف مكره – هذا أصغر ذنوبه . وخوف الكاتب قد يكون ذا دلالة كبيرة ! فالكاتب الذي يخاف هو الذي يكون خطيراً ومخيفاً !

ولكن الكاتب العربي متهم بأنه في ذاته ليس كبيراً ، انه ضعيف ومجدب من داخله . وهو ليس قوة داخلية عظيمة منعها الضغط الخارجي من التعبير عن قيمتها . لقد كان الكاتب العربي يصنع ضعفه من داخله ، وكان بهذا الضعف الداخلي يخاف الحرية والتفكير ويعاديها ويحتلم بالأشباح والخرافات ، بل لقد كان هو نفسه يبتكر المبررات الاخلاقية والفكرية والدينية والتاريخية لتسويغ طغيان الحكم ورجعية المجتمع والخوف من التطور والحرية . وعلى امتداد التاريخ نجد هؤلاء الكتّاب أو نجد أكثرهم في أول القافلة يحدون للطغيان وللمجتمعات الضالة، ويشرعون لها الخرافة وعداوة العقل والعدل والحضارة ، لقد كانوا هم المحلل الأدبي لكل المظالم والانحرافات الفكرية . ولم يكونوا يفعلون ذلك بقدر ما يخافون ويكرهون ، بل لقد كانوا ينافقون ويكذبون ويصوغون الأباطيل والتفاهات متبرعين ومبتدئين ملقاً أو متاجرة أو مزايدة أو اعتقاداً . وكثير من طغيان الطغاة ورجعية الجماهير ، إنما اخذا بالتعليم والتلقين عن هؤلاء الكتّاب ! لقد تعلم الطغاة والناس منهم بعض ما يفعلون ويعتقدون من ظلم وجهل وتأخر ، ولم يتعلموا هم من هؤلاء الطغاة والناس ضعفهم وإفلاسهم .

لم يفرض الخوف عليهم تعاليمهم السخيفة وضعفهم المهين !

والفضيلة الانسانية لن يستطيع الخوف أن يخفيها أو يسحقها ، انها لا بد ان تظهر بأية صورة وأن تعبر عن نفسها في شكل من الأشكال . واذا لم يحدث ذلك فليس السبب هو الخوف والإكراه بل الإفلاس والتفاهة .

والأقوياء يستثيرهم الطغيان ويطلق فيهم مزيداً من الرغبة في المقاومة والقدرة عليها. وليست العبقرية إلا أسلوباً عالياً من التحدي. ونجد في التاريخ دائماً ان التحدي للألم والخوف هو الذي صنع اعظم وافضل انتصارات الانسان .

ولو كان الخطر والخوف يقتل أو يقف التقدم والمغامرة لما وجـــد شيء عظيم أو قوي في هذه الحياة . ولا توجد أية قوة مهما كانت باطشة تستطيع ان تسحب من النفس البشرية موهبتها او تمنعها من التدفق الخارجي !

والخوف لا يكون دائماً ولا في كل الاتجاهات .

هنالك اشياء كثيرة لا نخاف من التعبير عنها ولا نجد من يحاسبوننا عليها . وتوجد ايضاً أوقات نشعر فيها بالأمان ونشعر ان الخطر قد سقط من فوق رؤوسنا . فاذا كنا نملك موهبة عقلية او فنية او إصلاحية فسوف نجـــد حينئذ الفرصة للتعبير عن هذه الموهبة !

وتوجد حالة واحدة فقط لا نستطيع ان نعطي فيها ولا ان نفعل او نعبر ، تلك الحالة هي ان نكون فاقدين لما يمكن ان نعطيه او نفعله او نعبر عنه !

فلو كان الكاتب العربي يختزن في داخله مزية قوية لاستطاعت هذه المزية ان تشق طريقها الى الخارج إما بالانتصار وإما بالحيلة والتنكر وإما بالتماس الفرصة وإما بالانتحـــار البطولي . فالمزية الفكرية والاخلاقية لا ترى في مثل هـــذا خطأ او شيئاً فظيعاً او تضحية خارقة !

ان كثيراً من الجنود في الميدان يقاتلون قتالاً يعلمون انه نوع من الانتحار ، ومع هذا ينتحرون بدون ان يفروا او يبكوا ! بل ان عمال المناجم والبحارة والتجار وغير هؤلاء ليقدمون دائماً في اعمالهم العادية على مثل هـــذه المغامرات الانتحارية بينما تكون احتمالات الخطر عليهم اعظم جداً من احتمالات الخطر على كثير من الكتاب الذين يرفضون ان يكونوا شجعاناً ومغامرين .

ثم لا يشعر اولئك انهم قد صنعوا بطولة او شيئاً خارقاً !

هؤلاء الجنود والعمال والتجار والبحارة يقدمون على الموت من غير ان يقتلهم الخوف ، أما الكتّاب فلا يجـدون في انفسهم من الشجاعة او الاشمئزاز مـــا يجعلهم ينتحرون انتحـــاراً بطوليـــاً كما ينتحر الأقوام الذين لا يكتبون ولا يفكرون !

كيف يكون هؤلاء الناس البسطاء اشجع من الكتاب الذين وضعوا انفسهم

مفسرين لمعاني الموت والحياة ومعاني الشرف والعقيدة والبطولة ، وواضعين للقيم الانسانية المختلفة ؟

ان رتبة الانسان التطورية تستنكر عليه ان يتقبل الحياة بـلا شروط . ان قيمه العقلية والاخلاقية والادبية التي ألزم بها نفسه تنكر عليه ان يحيـا كيفما اتفق . فالحياة الانسانية مشروطة دائمـاً او هكذا ينبغي ان تكون وتقول التعاليم . والحيوان وحده هو الذي يقبل حياته بلا شروط لأنه يعيش من غـير قيم . ولا يوجد انسان واحد يمكن ان يقبل حياته غير مقيدة بقيود اخلاقيـة وادبية ما لم يسقط الى اعماق الهوان والمذلة . فالبشر مهما هانوا يحيون دائمـاً بشروط اي ولو شروطاً نظرية، الا اذا فقدوا كل تقدير لأنفسهم !

اذن كيف يقبل هؤلاء الكتاب حياتهم بدون ان يشترطوا لها شروطاً ما ؟ كيف يقبلون ان يحيوا بلا حرية ولا تفكير ولا كرامة ؟ كيف يتقبلون ان يسلبهم الخوف والنفاق والملق كل مزاياهم وشجاعتهم ؟

ان الكتاب الذين يتنازلون عن حريتهم تحت الخوف والاكراه هم قوم قد قبلوا الحياة بلا أي شرط ! وهذا أبشع ما يفعله أضعف وأذلّ البشر بأنفسهم !

والشروط المطلوبة من الكتاب هي ان يفعلوا مـا يوجب عليهم ان ينتحروا احياناً بالطريقة التي انتحر بها سقراط العظيم !

*

انا دائماً افكر في هذه القضية :

هل الافضل ، أو هل المطلوب من الانسان أن يعيش في امـان واستقرار وجبن واسترخاء ثم يموت في هوان، ام ان يعيش في خطر وقلق وخوف ومغامرة ثم يموت في موكب ؟

هل الخير للبشر أو المطلوب منهم ان يكونوا موجودين فقط يتغذون بحشرات الأرض وبقولها وينامون في غطيط ، ويجلسون هادئين ، يجلسون في الظل صيفاً وفي الشمس شتاء، وينفقون حياتهم في الاشاعات والتمني وفي الأحاديث المكررة

وفي الصداقات التافهة وفي السير على الطرقات في ذهول ، وفي احتراف العلاقات الجنسية وفي تفريخ الابناء والبنات بلا أمل ولا مستقبل ، بدون أن يحاولوا الصعود الى القمم والانتحار فوق النجوم ، وبدون ان يجازفوا ويؤثروا في الناس وفي الأشياء ويصنعوا الخطر والخوف والقلق لأنفسهم وللآخرين ، ثم ينفدون في سكون ويضيعون كهباء ؟

أم ان الخير لهم والمطلوب منهم ان يتعبوا ويقلقوا ويتعذبوا ويصنعوا القلق والتعب والعذاب للآخرين ثم يشنقون او يحترقون مثل شهاب فقد نفسه بعد معركة باسلة مع جيش من النجوم ؟

هل قيمة الحياة في نفس الحياة ام في الاحداث التي تقع فيها ؟

اني هنا أسأل الكتاب والادباء الذين يخافون وينافقون ويبيعون وجودهم لكي يبقوا فقط من غير شروط لبقائهم – من غير ثمن سوى مجرد وجودهم ! أليس الموت في معركة باسلة مع الاعداء اشرف من الموت في معركة ذليلة مع الامراض؟

لست أجد فرقاً بين حياة اي انسان وحياة اية حشرة تأكل وتتناسل وتموت مثله ، ولا بين حياة مثل هذا الانسان وحياة اية نبتة ضعيفة اذا كانت حياته لا تساوي اكثر من مجرد وجوده حياً ! ان روعة الحياة في الاخطار والحماقات الباسلة !

كم هي الكائنات الدنيا التي تظفر بالعلف الرديء والمأوى الرطب وبالامان الذليل وبالاعمال الجنسية الموفورة وبالتناسل الخصب – تناسل الحشرات ثم بالموت المضمون والقبر المريح !

وهل الانسان افضل من هذه الكائنات اذا كانت اعماله لا تتفوق على اعمالها، ووجوده لا يعني الا وجوده ، وليس لديه من الحرية والكرامة والابداع اكثر مما لديها ؟

ان الانتحار في ضجة خير من الحياة في سكون !

لماذا يجبن الكتاب والمفكرون ؟ هل يخافون الموت والعذاب والضياع ؟ وأي موت وضياع وعذاب افظع من التفاهة والنفاق والاسترقاق العقلي لمن يحملون

رسالة القلم والكلمة ؟

ان اشد الناس عذاباً وضياعاً وموتاهم الادباء والمفكرون اذا تحولوا الى جبناء بلا كرامة والى حرس خاص للطغيان والفساد ولبلاهات المجتمع ونقائصه بدون ان يكون لهم ثمن اكثر من ان يعيشوا في صغار !

اني افكر في نفسي فأخجل من كوني حياً وانساناً حين اجدني لا احقق او احترم معنى الانسان وقيمة الحياة ، ولا أعطيهما شيئاً غير ان استهلكهما في مذلة وركوع .

اني اخجل من خوفي وحقارة مطالبي واحتياجاتي ورضاي بمجرد كوني موجوداً ، كوني حياً آكل وأتناسل واموت ! وسوف يكون احتقاري لحياتي وخجلي منها اقوى واذكى لو افترضت نفسي اديباً او مفكراً او صاحب مذهب !

ماذا يربح اي انسان من مثل هذه الحياة ، ولماذا لا يغامر ويموت منتحراً كما يموت اللص الهارب المطارد ولا يسلم نفسه ، وكما يموت صائد الثعالب القطبية تحت الجليد ؟ ولكن هذا تساؤل ساذج ، فالناس لا يموتون او يحيون ولا يجبنون او يشجعون بالمنطق . ولو كانت الحياة بالمنطق لكان الطلب على حجز الاماكن فيها قليلاً جداً .

والناس لا يفرون من الموت لانهم يحبون الحياة او يكرهون الموت ، وكيف يكرهون شيئاً لم يجربوه بل كيف يكرهون صديقاً يحل لهم جميع المشاكل المستعصية : دة وقلب رحيم حلاً نهائياً ويعالج الآلام الكبيرة بذكاء وحسم وصداقة ؟ ان البشر يبحثون عن الغيبوبة والراحة والسكون والهرب من المسؤولية ، وعن النوم العميق . والموت يحقق لهم كل ذلك !

وإنما يفرون من الموت لان الموت تغير وفراق ، فهم يرفضون أن يموتوا، أي يرفضون ان يتغيروا او يفارقوا . انهم احياء ، فلماذا يقبلون ان يموتوا اي ان يكونوا شيئاً آخر ! ورفض التغير والفراق هو الذي يمنح المعتقدات القوة والبقاء ويصنع الجبناء ، لا حب هذه المعتقدات والنظم ولا حب الحياة . وهذا هو الذي يجعل المجتمعات دائماً بطيئة الحركة ، تعادي دعاة التجديد وتصلبهم على ابواب

المعابد في اغلب الاوقات !

وكل تغير وفراق في الدنيـا هما تغير وفراق جزئيان الا الموت فإنه تغـير وفراق كليان .

ولهذا فقد يكون كل تغير وكل فراق اسهل من الموت . وقد قبـل الناس التغير على مراحل وجرعات مع انهم فيما يظهر لم يقبلوا الموت الذي هو تغير كلي!

والبشر جميعاً يشق عليهم بدرجـات متفاوتة ان يغيروا عقائدهم واخلاقهم وافكارهم واوضاعهم التي ألفوها وارتبطوا بها طويـلاً . فالخروج من شيء الى شيء يجد الانسان فيه دائماً معاناة ورهبة . لهذا يهاب الموت ويهاب تغيير نفسه وتغيير عقائده وازيائه النفسية . وهو يتغير ويريد التغير كما يموت بلا تدبير بـل بالضرورة !

ولكن لما كان الموت فراقاً ممتازاً كان الفرار منه ايضاً بطريقة ممتازة . ولو كنا امواتاًوعرض علينا ان نصبح احياء لوجدنا في ذلك مشقة ورهبة ولكرهناه للسبب نفسه — اي خوفاً من التغير والفراق !

ومع هذا فيبدو أن الناس يفرون من الحيـاة كما يفرون من الموت وانهم في فرار دائم منها . ويظهر ان اكثر تصرفاتهم وتحركاتهم ليست سوى محـاولات فرار من الحياة ، ولكنه فرار متنكر متستر . وهذا هو الفرق !

✲

والموقف الطبيعي للكاتب ان يكون دائمـاً معارضة وتحـدياً ، ولا يكون مقرراً ولا مسجل مشاهد ، حتى الحقائق نفسها اذا وقف منها موقف المسجل او الواعظ او المؤيد كان خارجاً على نفسه !

لا ينبغي للكاتب ان يتحدث عن المجتمع والحياة والناس كحقيقة موجودة او حقيقة سوف توجد ، بل كحركة دائمة لا صورة لها !

موضوع الكتاب هو دائماً شيء غير موجود ، وهم ليسوا ماضياً ولا حاضراً. هم دائمـاً يتخطون ما هو موجود ، ولا يقفون عنده ليمجدوه . انهم يبشرون

بالشيء الذي لم يوجد والذي لا يعيش في إطار، يبشرون دائماً بفكرة - بفكرة لا تتحول الى صورة، فالصورة قيد!

كل مجتمع يحتاج الى فكرة تسبقه وتتفوق عليه، وتتحول املاً وشوقاً محركاً وهدفاً محتجباً، وتكون اكبر من الماضي والحاضر ومن المجتمع نفسه!

لا بد من جسر فكري يمتد الى المستقبل امتداداً لا يحده شيء. ومادة هذا الجسر الفكري هم الكتّاب بأفكارهم وأحلامهم وتمردهم على كل ما وجد من الاكاذيب ومن الحقائق ايضاً. فالحقيقة الموجودة ليست هدف الكاتب وإنما هدفه الحقيقة التي لم توجد، بل هدفه الحركة والتغيير لا الحقيقة.

ان الكاتب الحقيقي عدو لما وجد، عدو لنفس الحقائق الموجودة، ينقدها ويكشف عيوبها ويتفوق عليها ولا يرضى عنها. انه يبحث ويسير ولا يقف عند شيء، يبحث ويسير بلا هدف نهائي معيّن.

ان التحدث عن الاشياء بلا رسالة والتحديق الطويل التائه في الأفق البعيد المطلق حيث لا شيء، هما التفسير الكامل لمعنى الكاتب!

المجتمع محتوم عليه ان يقيم معارضة من نفسه ضد نفسه. والكتّاب هم دائماً أركان هذه المعارضة. وفي تصميم كينونتهم ان يعارضوا كل الاشياء المتقررة المتحددة من الحقائق والافكار والمذاهب والرجال والنظم والتقاليد والعقائد!

ان في نية الاشياء - كل الاشياء - ان تحافظ على وجودها وتقاوم عوامل التغير. والمفروض ان يكون عمل الكتّاب قلقلة هذه الاشياء وإكراهها على الحركة والتغير أو على الزوال. وكل شيء يحب ذاته، وهو لا يحتاج الى نصيحة من الخارج لكي يحب ذاته، والمطلوب من الكتاب أن يضعفوا هذا الحب!

الاشياء والناس يخافون التغير ويقاومونه، ومع هذا يريدونه ويفعلونه. إذن هم محتاجون الى ما يساعدهم على اختيار احد الاتجاهين.

فالحياة بكل ما فيها من أشياء وناس محتاجة الى الحركة والتغير، ولكنها على نحو ما ترفض الاستجابة لهذه الحاجة. لهذا كان لا بد أن يكون عمل الكاتب هو مقاومة هذا الرفض، والدعوة الى ما ليس شيئاً ليزاحم الشيء

المتجمد ويحوله الى حركة وتغير ويضع مكانه حركة وتغيراً .

وعمل الكاتب ليس احتياجاً اجتماعياً واضحاً مثل عمل النجار والحداد والعامل في الارض وأمثالهم .

والكاتب حينما يكتب ويعالج ويبكي ويصيح غيرة على المتألمين والمظلومين والمتأخرين وعلى الاخلاق والحقوق الضائعة لا يعني ما يقول ولا يعتقد انه يستطيع أن يفعل شيئاً مما يلزم نفسه بالدعوة اليه ، انه لا يقصد خير الآخرين أو حبهم أو الاستجابة لاحتياجاتهم اكثر مما يقصد مثل هذا الخباز الذي يقف طويلاً بصبر جميل جداً أمام النار لكي يعد الخبز للجائعين .

ولكن الكاتب حينما يفعل ذلك انما هو انسان متألم يبكي ويصرخ من فداحة ألمه الخاص ، وبالاستمرار يتحول البكاء الخاص بسبب الالم الخاص الى عمل منظم كبير يفسر تفسيراً اجتماعياً .

وجميع الاعمال القيادية هي من هذا القبيل . فالزعماء والمصلحون والحكام والروحانيون هم قوم متألمون يحولون آلامهم الخاصة الى بكاء ، ويحولون بكاءهم الى شرائع وأديان وبطولات وفلسفة وقيادة ، ما لم يكونوا منافقين يؤدون أدوارهم بالخداع والكذب والبكاء المزيف !

فهم إما أناس يبكون لانهم متألمون ، أو أناس يتباكون لانهم ماكرون ! والكاتب لا يكتب لان الناس محتاجون الى ما يكتب بل لانه هو محتاج الى ان يكتب !

وقد قبل البشر هذا البكاء وهذا الكذب كظاهرة اجتماعية لانهم محتاجون الى الكذب والنفاق والى من يعبر لهم عن احتياجهم هذا تعبيراً اجتماعياً قيادياً !

والمجتمعات تحول أعمال البكاء والحزن الى قيادات وفنون وفلسفات وصلوات وأعمال بارة . حتى البكاء والنواح والحزن لا بد له من قيادة !

وبقدر ما احتاج الانسان الى ان يحزن ويبكي ويصيح ، احتاج الى من يصنعون له ذلك والى من يصلون به وله وعليه صلاة الحزن وصلاة الجنائز !

واذا جاء الكاتب مغنياً لا باكياً فهو إنما يغني لنفسه أحاسيس نفسه ولكن بصوت مسموع وأسلوب مثل اسلوب الاعلان . انه لا يغني للنـــاس وإنما يغني حيث يسمعه الناس !

وجميع ما ابتكره الانسان من آداب وفنون وتعاليم وصلوات ومزامير إنما كان غناء للنفس أو بكاء على النفس . ومحاولاته التعبـير عن آلامه ومسراتـه الخاصة هي التي أعطته صيغته الاجتماعية والاخلاقية .

فالكاتب ليس وظيفة اجتماعية بل مشكلة خاصة حولها المجتمع الى تعبـير اجتماعي !

وعلى الكاتب ان يظل دائماً غناء أو بكاء ، فاذا تحول الى داعيـــة — الى مؤمن يدعو الى الايمان بعقيدة او بحقيقة او بنظام أو بمذهب أو برجل أو بحكم كان زائفاً ومهرجاً وشيئاً لا موضوع له !

★

كانت توجد دائماً أكذوبة كبيرة تقول ان الكتاب أصدقاء للناس وطيبون ومضحون بأنفسهم في كرم خارق ، لهذا اختاروا ان يكونوا كتاباً يعـالجون الفساد والظلم ، ويدعون الى الخير والفضيلة ، ويبكون آلام النـــاس في صدق عجيب !

ولكن هذا الزعم مثل كثير من المزاعم التي لا يوجد اي احتمال لصدقهـــا ومع هذا يصدقها الجميع حتى الذين كذبوها لكثرة ما كررت ولاسباب اخرى. والكاتب او المصلح الذي يتلهب بكاء وحسرة على الناس ليس صديقـاً لهم او رحيماً بهم اكثر من القاتل او السارق او اللاعن لهم !

ان الكاتب يختار طريقه بالضرورة والظروف والصدفة لا بالحب او بالايمان، كما يختار القـاتل او اللص عمله . والحوافز التي تجعلنـــا نلعن الناس ونحصبهم بالحجـــارة وهم يسيرون في الطريق الى اعمالهم او الى المعابد ، ونبيع لهم المخدرات هي نفس الحوافز التي تجعل منا كتّاباً ومصلحين ومعلمين للأطفال في

المدارس العامة او تجعل منا أطباء وانبياء . ان عملنا في الحالتين نوع من التغذي بالآخرين والاعتداء عليهم والتعامل بهم !

والكتّاب والزعماء وجميع من يمارسون أنفسهم فوق الآخرين إنما يؤدون عملية جنسية فيها كل معاني الشبق والافتراس والقذف والنشوة ، وليس فيها شيء من مشاعر الحب أو الاحترام أو التضحية !

وهل الذين يركعون تحت أقدام النساء الفاتنات فضلاء ام مفترسون ؟ وهل الطبيب الرحيم الذي يعالج الناس يعطف عليهم وتؤذيه آلامهم اكثر من الجلاد الذي ينفذ فيهم حكم الاعدام ؟ وهل اختلاف الطبيب والجلاد في مهنتيهما راجع الى اختلافهما في حب الإنسانية ؟ أو هل المغني الذي يذيب نفسه في غنائه ليطرب الناس يحبهم او يصادقهم اكثر مما يفعل ذلك من يحفرون قبورهم او يسرقون اكفانهم ؟ ام هل الحشرة التي تلقح الأزهار بالحياة افضل في قصدها وتدبيرها من الحشرة التي تنقل جرثومة المرض ؟

ومن الهراء الشائع ان يقال مثلاً : ان فلاناً يعمل لوجه الحق . فالحق بالنسبة للانسان هو الانسان دائماً ، ولا حق خارج ذات الانسان . ومحال ان نستجيب لغير ارادتنا مهما كانت قوة الإكراه او الإغراء . واذا ضحى انسان ما بنفسه تحت اي شعار مثير فهو انما يضحي بنفسه لمصلحة نفسه او باغراء وضغط من نفسه على نفسه . والقيم والناس بل والآلهة هم أدوات وطعام لشهواتنا وسلوكنا، لا أهداف . ان كل الاشياء هي مجالات وشعارات لشيء واحد هو الرغبة . وحتى من وقف مع الحق هو كاذب لأنه انما وقف مع مصلحته وهواه ! وتختلف مواقف الناس لاختلاف اهوائهم ومصالحهم لا لاختلافهم في احترام الحق !

والبشر ليسوا ضالين او منحرفين لانهم لا يطيعون إلا رغباتهم ، فهذه هي قوتهم ومزيتهم وطبيعتهم ، ولا يمكن كما لا يجب اصلاح او تغيير نياتهم او ما فيهم من خضوع لشهواتهم ، إذ ليس ممكناً ولا مفيداً ان يكونوا بغير شهوات أو ان يخرجوا على هذه الشهوات . واذا خرجوا عليها كانوا داخلين فيها من باب

آخر . والفرق بين الصالحين والفاسقين هو فرق في توزيع الرغبة وفي ظروفها لا في الاستجابة للحق او الاستجابة للهوى . فلقد كان الهوى القوي هو الحق القوي في جميع العصور لدى جميع الشعوب . واذا كان الحق في الواقع غير الهوى فانه لن يكون حقاً في أنفسنا ما لم يصبح هوى من أهوائنا ، ولو كان حقاً لكان حقاً مواتاً لا حراك فيه . ولهذا فان الفاضل جداً يعد رديئاً جداً في المقاييس الاخلاقية !

ان القلم في يد الكاتب او الكلمة في فم المصلح كالسلاح في كف المحارب كلاهما دفاع عن الرغبة لا عن الناس او الحق، بل كلاهما هجوم لا دفاع عن شيء. وإطلاق النار على الطائر الضعيف وإطعامه الحب أسلوبان من أساليب الوحشية أو من أساليب الرحمة ، ولكنهما ليسا أسلوبين مختلفين على أي حال !

واذا تحدث اي كاتب عن اي شيء لم يكن يعني بالحديث ذلك الشيء الذي تحدث عنه، ولم يكن كذلك يبحث عن مصلحة المجتمع الا بقدر ما نبحث نحن عنها حينما نختار ان نكون لحادين للموتى او مولدين، نسهل قدوم الوافدين الجدد الى هذه الحياة .

فإذا تحدث الكاتب عن الله او عن الابطال او عن الجماهير او عن الخير والشر والظلم والعدل والوطنية والخيانة ، فإنه لا يعني الحديث عن شيء من ذلك ، ولكنه يتحدث عن ذاته الى ذاته ، فهو لا يعرض موضوعات بل يعرض ذاتاً واحدة هي دائماً ذاته . واذا تغنى بفضائل الدين او الديمقراطية او الشعب فهو لا يريد ان يمتدح غير نفسه !

ويريد الكتّاب ان يقتنعوا بأنهم هم الذين يضعون للمجتمعات قيمها الادبية، وقد يصدقهم الآخرون في هذا الاقتناع .

ولكن كيف ؟ ان القيمة الأدبية لا تعني الا البحث عن القيمة المادية . ولا يمكن تصور أية قيمة أدبية معزولة عن المادة . وقيمة الاشياء تساوي نفس الاشياء لأن كل شيء يساوي مادته

فهل يمكن ان يكون الكتّاب هم واضعي القيم المادية اي واضعي قوانين

المادة ؟ ان الصدق والشجاعة مثلاً قيمتان ادبيتان اي ماديتان ، فهما يعنيان معنى اخلاقياً لأنهما يعنيان معنى مادياً اي يبحثان عنه . فهل الكتّاب هم الذين وضعوا القيمة المادية للصدق والشجاعة !

ان في المسألة شيئين هما : كون الصدق والشجاعة قيمة مادية ثم معرفة هذه القيمة . ولا دخل للكتّاب في الاول لأنه قانون من قوانين التوافق والتناقض المادي الحركي . واما الثاني وهو معرفة هذا القانون ، فالمعرفـــة المجردة ليست وضعاً . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى يشك كثيراً في ان الكتاب يعرفون قوانين الحركة والتناقض والتوافق فيها او يعرفون القيم المادية اكثر من الآخرين الذين يعيشون هذه القوانين والقيم ، اي يشك في انهم يعرفون قيمة فصل الربيع بالنسبة للأزهار او قيمة المرأة او قيمة النفاق في المجتمع والتلاؤم معه او قيمة الحرية والاستقلال بالنسبة للتجارة والرخاء والابداع ، او قيمة التبكير صباحاً الى الحقول والمصانع اكثر مما يعرف ذلك الآخرون المباشرون للحياة .

اذن فأقرب الاشياء ان الكتاب هم الذين يتحدثون عن القيم وليسوا هم الذين يضعونها او يعرفونها. ومع هذا فالقيم التي يتحدث عنها الكتاب والمعلمون ليست في الأغلب هي القيم الادبية اي المادية الموجودة في قوانين الحركة والمادة المتناقضة ، بل دائماً يعمل الانسان والحياة والمادة بعيداً عن هذه القيم . وحتى هؤلاء الكتاب انفسهم لا يمكن ان يعملوا او يحيوا داخل قيمهم ، ولو انهم التزموا القيم التي يتحدثون عنها لماتوا حتماً لانها قيم غير مادية اي غير كونية ، وهي قيم منعكسة عن انفسهم لا عن حركة المادة التي هي القيمة الحقيقية الوحيـــدة الموجودة في هذا العالم .

والكون والانسان والحياة تعمـل دائماً بقيمها المحتومة غـير مبالية بتعاليم المعلمين الا بقدر مـا يبالي القمر بمن يتغزلون بجماله ويطلبون اليـه ان يدنو منهم ليضعوا قُبَلهم الحارة على محياه الوضاء .

وجميع ما في هذا العالم من جماد وأحياء وبشر يصنعون قيمهم بقانون الحركة والضرورة والإمكان الذاتي كما يصنع النهر مجراه ، ثم يعرفون هذه القيم كما يعرف

الكوكب طريقه في الظلام . والفرق فرق في المستوى لا في النوع .

اذن فالكتاب وغيرهم من صناع الكلمة ، لا يضعون قيم الحياة او قيم الانسان ولا يعرفونها ، وإنما يتحدثون عنها ، بل ولا يتحدثون عنها في الاكثر ، ولكن يتحدثون عن قيم اخرى هي ضد قيم الحياة ، لهذا كان الكون والانسان في اغلب الاوقات محتاجين الى ان يتمردا في سلوكهما وقوانينهما على ما يقول اصحاب الرسالات والتعاليم ، لهذا ظلا يتقدمان ، والكتّاب ايضاً يتقدمون ولكن بقدر ما يتعلمون من قوانين الحركة . ولو كانت الحياة والانسان يخضعان للقيم الموضوعة – لو كانا يخضعان لإلهام الكتاب والمعلمين والانبياء لكانت النتيجة فاجعة حقاً . ولو كان الكتّاب والمعلمون يخضعون لتعاليمهم هم لماتوا عجزاً عن التوافق مع الحياة ولظلوا متخلفين عن المجتمعات التي يعيشون فيها .

والانسان كان يستطيع ان يعيش ويتطور ويفعل الفضيلة بدون قيم مكتوبة ومصنفة . فالحياة والتطور والفضيلة تصوغها وتهدي اليها الحركة الباحثة عن التوافق مع الضرورة ، ولا تصوغها النظريات الرائعة المكتوبة .

والقيمة هي دائماً الحكم الخارجي على الشيء وليست سببه ولا قانونه . ان البشر يزرعون الارض ويشيدون المصانع ويطورون اسلحة القتال واثاث المنازل ويتوافقون مع قوانين الطبيعة ويتقون شرورها بغير حوافز ولا قيم اخلاقية او ادبية او انسانية ، وكذلك يحيون ويؤلفون سلوكهم النفسي والاخلاقي ويتصلون بالنساء وينجبون الاطفال ويلتزمون بتربيتهم .

والقيم المكتوبة ليست غير مجدية ولا ضرورية فقط بل وضارة جداً نظرياً ، لان القيمة المكتوبة تتحول الى قيد عقلي قد يسوغ به المجتمع جموده وخوفه من الاشياء الجديدة. وقد كانت الحياة دائماً في تطورها محتاجة الى ان تناضل لتتخطى القيم والنظريات السابقة المعترف بها وتتخطى جميع المعلمين من انبياء ورواد ومفكرين!

وهل يكون معنى هذا ان الكتاب والدعاة يتحولون الى جهاز تعويق في المجتمع ، وان المتمردين والعباقرة منهم هم الذين يناضلون لابطال القيم المؤخرة التي يصنعها ويدعو اليها المعوقون ، وان قيمة الكتاب الجيد هي ازالة آثار الكتاب

الرديء ، وان الكتاب الممتازين ليسوا هم الذين يعلمون الحيـــاة ولكنهم الذين يحمونها من التعاليم ؟

اذن على الكاتب ان يكون ناقداً دائماً والا يكون معلماً ابداً .

ان الكاتب لا يعطي المجتمعات شيئاً ، ولا يريـد كما لا يستطيع ان يعطيها ، وهي لا تأخذ منه شيئاً ولا تريد كما لا تستطيع ان تأخذ . ولكنها تريد منه ان يحدثها عن نفسه او عن نفسها او عن اي شيء او عن لا شيء . فالانسان يريد ان يسمع ويتحدث وان يتعرى امام الناس ويتعرى الناس امامه . وهو يجد في هذا فناً وراحة ومسرة وإن كان لا يدري لماذا . وقد عبد البشر دائماً الفنون لأنهـا عمل من أعمال التعري !

لقد تقبلت المجتمعات الكتاب ورحبت بهم في احيان كثيرة لأنهم يحدثونهـا عن فضائحها وصغائرها وآلامها ، ولأنهم يبكون عنهـا وعن أنفسهم ويتعرون أمامها ويعرونها أمام نفسها وأمام الآخرين . وفي طبيعة البشر البحث عن العراة والتعري وعن المأساة في جميع صورها والاعجاب بمن يحدثونهم عن ذلك !

انهم يجدون لذة وعزاء في الافتضاح والالم. وقد هتفوا لكل الدعاة والكتاب والفنانين والمفكرين البارعين في عرض الانسان في الطريق العام عارياً مفضوحاً باكياً ضعيفاً ، وكانت الاعلام ترتفع للشعراء والقصاصين والدعاة الفضاحين الذين يجيدون كشف العورات والحديث عن المآسي وعن الضعف البشري ، ويجيدون كذلك البكاء والاحزان !

والذين يقبلون بلهفة على قراءة الكتب المقـــدسة والروايات وكتب النقد والتفكير الهدام ، ويعجبون بالفنون الأليمة والبذيئة ، لا يفعلون ذلك لأنهم ذوو ذوق او موهبة او فضيلة او رحمة ، ولكن لما يجدون من لذة كأنها لذة الجنس في الحديث عن المتألمين والخاطئين وعن الآثام الكبيرة وعن حقارة الانسان وضعفه وضياعه وسوء مـآله ! انهم يبحثون عن الفضائح والصغائر والآلام والهموم في التاريخ وفي المجتمعات أو في الخيال ليشاهدوها في أسلوب استعراضي جـــارح ليجدوا في أنفسهم العزاء والنشوة والارتياح ! والاطلاع على أحاسيس الآخرين

رغبة كبيرة في البشر ، ورغبتهم في الاطلاع على أعضاء الآخرين الداخلية أكبر.

وهل نحن محتاجون الى التغذي بالحديث عن الناس وعن آلامهم مثل احتياجنا الى التغذي بالخبز ، وهل البشر لا يزالون مفترسين يأكل بعضهم لحوم بعض ولكن بأسلوب متخفف ، لهذا وجد الكتّاب – وعملهم هو التغذي بالناس وتقديمهم كطعام على موائد الآخرين بالحديث عنهم – وجدوا مكانهم في كل المجتمعات ؟ والمجتمعات تريد أن تتغذى بالكتّاب، بمشاعرهم وهمومهم وصغائرهم كما يتغذون هم بها ، لهذا تقرؤهم بشهوة . وليس في حوافزها أن تتعلم منهم ، ولا في حوافزهم أن يعلموها !

ولا يوجد أي احتمال للصدق لو زعمنا أننا نبحث عن الفائدة الفكرية أو الأخلاقية أو الوطنية أو الحضارية حينما نقرأ بحماس شديد رواية طويلة مثيرة تحكي أقسى مأساة انسانية فيها كل أنواع الشقاء والانحراف والزلل . نعم اننا نجد متعة روحية في قراءة مثل هذه الرواية ، ولكن ما أسباب هذه المتعة ؟ انها على كل حال ليست حب الحق أو المعرفة .

*

فكرة الكاتب العظيم أن يقاوم ما هو موجود، أما الكاتب الرديء ففكرته أن يتوافق معه .

الكاتب العظيم لا يحارب لأنه يؤمن بشيء أو يبحث عن شيء ، بل لأنه مدفوع من داخله لأن يعطي ذاته بلا ثمن ولا تفسير ، فالتحدي فيه تلقائية لا رسالة . والذي يكتب لأنه مؤمن أو لأنه يطلب شيئاً هو واعظ أو تاجر لا كاتب !

وشخصية الانسان الأخلاقية والنفسية منفصلة عن شخصيته الفنية ، لهذا لا ينبغي أن ننتظر من الكاتب ولا من النبي أن يلتزم بتعاليم دعوته ولا أن يكون أكثر قابلية أو إخلاصاً لها من خصومها . فالدعوة الى الأشياء الجميلة أسلوب لا موقف ، والنبوة ليست التزاماً وإنما هي تعبير عن أزمة ذات ، أي عن ازدحام داخلي !

ان الدعوة الى الشيء لا تعني غير مجرد الدعوة ، فهي لا تعني ارادة ذلك الشيء أو التقيد به . فالبشر لا يكونون أنبياء أو كتاباً بجوافز أخلاقية بل بحوافز نفسية تحت الظروف الملائمة. انهم يحزنون ويخافون ويغضبون ويصرخون ويحبون ،ويكونون عصبيين من غير أي مغزى أخلاقي، وهكذا أيضاً يصبحون دعاة من غير أن يلتزموا دعوتهم أو يحترموها بل ومن غير أن يريدوها ! والانسان – أي انسان – لا يحيا عمله وإنما يحيا به !

والعلاقة بين الفن والأخلاق مثل العلاقة بين الايمان بالله وحب أكل الضفادع.

والكاتب والنبي يدعوان الى الفضيلة والى مجد الانسان بالنية التي بها يتألمان ويغضبان ويكرهان الآخرين !

الكاتب والمصلح والنبي قوم يبكون على أنفسهم بحجة البكاء على الآخرين !

***

حينما يصبح التفكير شاهد زور .. والكلمة بلا شرف

الأفكار الصعبة هي أعلى مراحـــل الانسان ، والذين لا يفكرون أفكاراً صعبة لا يعطون أعمالاً صعبة ، فالتفكير الخطير هو التفسير الكبير للانسان .

نحن اليوم نبحث عن كينونة جديدة ونواجه كينونة جديدة . وكل كينونة عليها أن تحمل مزاياها وأخطارها ، بل هي لا تستطيع غير ذلك .

ولا كينونة عظيمة بلا شجاعة، وأية شجاعة؟ هناك شجاعة الوجود والحياة، وشجاعة الصيرورة والبقاء — هناك شجاعة التغير . وكل الوجود حتى الجماد وكل شيء محتاج الى الشجاعة بل محكوم عليه بها وإلا زال ومات .

ان نهوض النبتـة تحت الصقيع والهجير والإعصار المميت لشجاعـة تطاول شجاعة الأنهار والجبال والنجوم في مقاومة الهزيمة والفناء ! انهـا وهي تتحدى عوامل الطبيعـة المفترسة بدون أن تستسلم أو تهون لتلقن البشر أقوى المواقف وتسخر من جبنهم وضعفهم حينما يجبنون ويضعفون .

ولكن الانسان الذي يحتاج الى كل هذه الألوان من الشجاعة محتاج ايضاً الى شجاعات أخرى — الى شجاعات خاصة بالانسان ، تلك هي شجاعات التفكير والنقد والشك والتكذيب والضمير — تلك هي شجاعة الرفض والخروج على ما

هو معروف ومسلّم . ان شجاعة التكذيب هي أبلغ وأفضل شجاعات النفس الانسانية .

وشجاعة أي مجتمع هي مضمون ، وهذا المضمون لا بد أن يكون أعمالاً وأفكاراً وأخلاقاً صعبة . فالوجود الجديد القوي لا يمكن أن يعيش في إطار الخصائص الفكرية والنفسية والأخلاقية القديمة السهلة التي كان يعيش بها الوجود القديم الضعيف السهل .

الحياة والتطور خطر . ومحكوم علينا بتقبل هذا الخطر بكل ما فيه من آلام وآثام فكرية وغير فكرية .

وكما اننا لا نفر من لقاء الطبيعة الخطرة ، بل نواجهها ونتحداها ونتعامل معها ، فكذلك يجب علينا ألا نفر من لقاء الأفكار الخطرة بل علينا ان نواجهها بالأسلوب الذي نواجه به الطبيعة وتقلباتها وأخطارها وجنونها .

ان فرارنا من الفكر المخالف يعني الفرار من مواجهة أنفسنا ومن التعامل بذواتنا ومن النظر الى عقولنا . ولا مثيل لهذا إلا أن نهرب من رؤية وجوهنا في المرآة أو من أن نرى الآخرين ، لأن أي فكر هو إما نحن أو الآخرون ، فالهرب من الفكر هرب من رؤية أنفسنا أو من رؤيتنا لجيراننا !

وليس بممكن أن يكون الفرار من الطبيعة فضيلة طبيعية أو انسانية ، وبالمنطق نفسه ليس بممكن أن يكون الفرار من الأفكار مزية قومية أو دينية ، كما لا يمكن ان يكون الفرار من النظر في المرآة مزية من أي نوع .

والعقل الانساني محتاج دائماً الى من يعذبونه ويشحذونه ويعلمونه التمرد على نفسه ، لا الى من يعطونه المهدئات أو المنومات ليسترخي وينام ويؤمن . انه في اكثر المجتمعات واكثر الظروف يميل الى هذا الاسترخاء والرقاد والايمان بلا نبوات ولا أنبياء ولا معلمين . ومهما حثثناه على ان يكون خارجياً فسيبقى دائماً فيه شيء كثير من الطاعة والقعود ، ومهما دعوناه الى ان يكفر فسوف يظل دائماً مؤمناً .

اننا اليوم ودائماً ملزمين بمشاركة العالم المتحضر الذي يصنع الظروف والحياة

الجديدة في السير فوق الجسور والمزالق القاتلة ومواجهة اهوال المنطق الجامح المتمرد على القيود والتعاليم وعلى الآلهة المتحجرة في المعابد القديمة . ان علينا ان نتحمل آثام الحضارة واخطاءها ومتاعبها كاملة وجميع ما فيها من زندقة وخطايا. والذين يريدون تقدماً وابداعاً بلا زندقة ولا خطيئة هم مثل الذين يريدون حياة بلا شهوة ولا مغامرة . وليس مما يشعرنا بالفخر ان نظل نقتات بما يصطاده المغامرون الذين لا يحترمون آلهتنا ولا عقائدنا ، ولا مما يهبنا المجد ان نعيش في الحضارة بافكار واخلاق ونفسيات البداوة ، او نظل نؤمن بحكمة الطبيعة بينما الآخرون الذين لا يؤمنون بهذه الحكمة يصوغون هذه الطبيعة ، او ان نظل نتحدث برهبة عن منطق السماء وأمم أُخرى تقتحم أسوارها ؟

واذا كان هذا طريقاً الى النار فان علينا الا نهاب النار . لا ينبغي ان نكون اكثر جبناً من اولئك الذين قدموا ودائماً يقدمون الى النار والى الحرية الباهظة الثمن ضحاياها الكثيرة – الى النار التي لا يستطيع دخولها سوى المبدعين والمفكرين والزنادقة الاحرار . علينا ان نحافظ على نصيبنا من الخطر بشجاعة . وليسوا اذكياء ولا اصدقاء اولئك الذين يدعوننا لنكون جبناء نخشى الفكر والنار اكثر مما يخشاهما الآخرون ! ليسوا اصدقاء ولا فضلاء اولئك الذين يعلموننا فضيلة الطاعة والخوف من الاخطار النبيلة . فالشجاعة هي ان نفعل الخطر ولو كان دخول النار ، والفضيلة هي ان نكون شجعاناً ولو في تحدي العقاب .

واذا كان التفكير خطراً فان افضلنا هو الذي يفعل هذا الخطر . والخوف من النار كالخوف من الموت ومن المغامرة والمحافظة على الشرف ، كل ذلك جبن قد يكون للبشر مستقبل كبير في الجحيم او قد تكون هي المستقبل ، فاذا حرمنا منها حرمنا من هذا المستقبل ! وقد يكون في دخول الجنة خطر على الاخلاق وعلى خصائص النضال في الانسان ، فاذا عشنا فيها جميعاً فقدنا اخلاقنا وعوامل المقاومة فينا !

***

العبقرية عذاب ، والذين لا يتعذبون لا يكونون عظماء . وعذاب الكبار

اقوى واشرف من عذاب الصغار . والذي يجرؤ على ان يتحدى الجحيم وما فيها من اهوال وخوف ،ويتحدى جميع الآلهة الكبيرة المنتقمة هو اعظم رجولة من اولئك الذين يذوبون فرقاً ويشوهون حياتهم بالبكاء والاستسلام والضراعة والدعاء الذليل !

والخوف من التفكير لا يكون فضيلة. والتفكير ليس إما حلال وإما حرام، بل هو إما موجود او غير موجود !

والذين يدافعون عن الآلهة والمذاهب القديمة ويمتدحونها لا يفعلون ذلك لأنهم يحترمونها ، بل لأنهم يخشون ما يمكن ان يجيء من بديل جديد مكانها ، فهم ليسوا مادحين او محبين للقديم ، بل خائفون من الجديد. والمادح لا يمدح ليحترم شيئاً ولكن ليكسب شيئاً او ليدفع شيئاً،وحتى حينما يكون المدح صدقاً لا يعنى به نفس المدح . المادح كاذب حتى وهو صادق ! والذي يثني على الزهرة او على الشمس ، لا يقصد الثناء عليها ، وإنما يعبر عن ابتهاجه هو ، والذي يمدح الإله لا يمدحه ، ولكنه يبكي او يخاف او يبتهج . ان المديح هو دائماً تعبير عن شيء ليس مديحاً !

والذين يمتدحون آلهة أي مجتمع هم كالذين يمتدحون حكامه وطغاته وفساده ، أي انهم منافقون أو أغبياء أو مادحون لأنفسهم ولمصالحهم !

***

الحياة مملوءة بالطاعة والجبن والهوان . فكم هي قبيحة وأليمة هذه الحياة !

كل الناس على مستويات متفاوتة مهزومون وضارعون ومؤمنون بما لا يعرفون ولا يحترمون ، وكلهم مستعدون على نحو ما للتنازل عن حدودهم وكبريائهم وحريتهم بلا مرارة أو دموع . إذن كم هو جميل أن يوجد بيننا عصاة يرفضون الاستسلام والركوع ، وتظل قاماتهم منتصبة شامخة تتحدى القامات الطيّعة الراكعة ، وتظل عقولهم حصوناً عالية ترفض الأوامر والإملاء والتهديد ، ومفتحة متواضعة تستقبل جميع النسمات والأعاصير من كل الجهات . ما أروع أن تظل واقفاً بين الساجدين ، وعاصياً بين المطيعين ، وشاكاً بين المؤمنين ،

وممارضاً بين اصوات الهاتفين ، وأن تقول : لا حيث لا يوجد من يقولها معك . انت حينئذ التعبير الأعلى عن أقوى ما في الانسان ، انت حينئذ المعنى الكبير للكرامة الانسانية ، والتفسير العظيم لرسالة كل نبي وقديس وفيلسوف !

ان هذه الدنيا محتاجة دائماً الى أنبياء يعلمونها فن العصيان والكبرياء والتحدي ، أما فن الطاعة والجبن والسجود فما اكثر انبياءه ! ولكن واأسفاه ، فالبشر لا يطيعون التعاليم ولا الأنبياء مهما آمنوا بهم وكرهوا الآخرين أو قاتلوهم تعصباً لهم !

ان الناس لو حاسبوا أنفسهم أمام أنفسهم بالمقاييس الأدبية التي صنعوها لها لشنقوا أنفسهم احتجاجاً عليها وخجلاً منها .

ما أشد حاجتنا الى ان نكون سخفاء لكي نستطيع ان نحيا وأن نتلاءم مع حياتنا! اننا لا نستطيع ان نحيا او نسعد لو حاربنا كل سخف في انفسنا وحياتنا. ما أقل الذين يمارسون حياتهم وموتهم بالاسلوب الذي يختارونه لا بالاسلوب الذي يفرض عليهم . اما سائر الناس فيموتون ويحيون بدون ان يتدخلوا في أسلوب موتهم او اسلوب حياتهم او في مواقفهم منهما !

الانسان يفعل ذاته وسلوكه بجبرية ذاتية ، وهو في هذا لا فضيلة له حينما يكون فاضلاً ، لأنه حينما يكون فاضلاً ، لا يستطيع ان يكون غير ذلك ، إذ لو فعل لتعذب ، فهو في فضيلته هارب من العذاب ، من العجز ، باحث عن اللذة . وهل الباحثون عن اللذات فضلاء ، أو هل الهاربون من الألم فضلاء ؟ هل العاجز عن ان يكون جباناً يستحق الثناء ؟

* * *

ولكن لماذا اكتب ؟ لقد ماتت الكلمة ، ماتت منتحرة وبلا شرف .

كل الناس يحولون آلامهم ومتاعبهم وجهلهم وكذبهم وحقدهم وبغضاءهم ونفاقهم وهرامهم وجميع غثيانهم الى كلام. الانبياء والأذكياء والفنانون والزعماء والحكام وكل الكبار يحولون ذلك الى كلام مكتوب ، مفروض على المجتمعات أن تقرأه

وتسمعه وتؤمن به وتقاتل او تعادي من لا يؤمنون يه ، اما غيرهم فيحولونه الى مجرد كلام .

اذن الكلمة تعني كل نقائص البشر في حالتها التعبيرية بالصوت او الكتابة، في حالة الاعتداء بها على الآخرين من طريق السماع او القراءة ! فالكلام هو دائماً نوع من اطلاق النار على تحصينات الآخرين حتى حينما يستعمل للتعبير عن السلام. والذي يقول السلام عليكم ليس مسالماً اكثر من الذي يقول اللعنة عليكم !

كل الناس يتكلمون – يتكلمون بلا حساب ولا صدق ولا عدل ولا محبة ولا علم ولا ذكاء ، بل وبلا ارادة لمعنى الكلام لأنهم في الحقيقة حينما يتكلمون لا لا يتكلمون وإنما يئنون او يغنون او يبغضون او يكذبون أو يعرضون انفسهم عرضاً جنسياً متبرجاً . وهم لا يجدون اية وسيلة يعرضون بها كل ما في أنفسهم من ضعف وسخف وانحراف بلا قيد غير الكلمة ، فالكلمة هي أرخص واكثر مــا يفعلون هي موعاء لكل فضلات النفس . انهم دائماً يتكلمون لأنهم دائماً ينفعلون – يتكلمون بلا وعاء يحتويهم وبلا قانون يحددهم أو يتحددون به . وليس في قدرتهم ان يفعلوا شيئاً بلا أي ذكاء وبلا أية مسؤولية او حصافة وبلا أي خضوع لقانون الممكن والمستحيل مثلما يفعلون الكلام . فكل شيء يخضع لنوع من انواع المنطق والحالة من التقيُّد بالواقع ما عدا الكلام ، فالكلام لا يعترف بأي واقع ولا بــأي منطق . فأضعف الناس وأجهلهم وأفسدهم يتكلمون بلغة أقوى الناس وأعلمهم وأعلاهم استقامة دون ان يصطدموا بشيء . ولكن الضعيف والجاهل لا يستطيعان ان يفعلا فعل الأقوياء والعلماء مهما تكلمــا بلغتهم ! وكم هو فظيع ان تكون الكلمات التي تتحدث بهــا أعلى النفوس ، هي نفس الكلمات التي تتحدث بها أضعف النفوس . ومعنى هذا ان الكلمة لا تعني شيئاً لأنها لا تستطيع ان تحمي نفسها من أن تكون الشيء ونقيضه بنسبة واحدة !

كل الناس يقولون المحال ويقولون ما لا يفعلون وما لا يريدون وما لا يستطيعون وما لا يمكن ان يحدث وما لا يجوز أن يحدث ، وما لو حدث لكان وبالاً عليهم ولأصبحوا هم أول المقاومين له . وكل الناس يتناقضون ويكذبون ، ويصغرون ويقبحون ويرفعون اصواتهم عندما يكذبون كما يفعلون ذلك عندمــا يصدقون .

ولا يوجد قانون من قوانين الكلام يفرق بين الصدق والكذب ، بين الأذكياء والأغبياء .

لقد ظلت الكلمة في كل التاريخ اقوى خصم للصداقة والاخوة والسلام بين البشر ، ظلت اقوى جهاز لتهديم الذكاء والأخلاق . ولم يوجد جهاز لنشر العداوة والضلال وسوء الادب بين الناس مثل الكلمة . اما الوجه الآخر من وجهي الكلمة فلم نتحدث عنه لكثرة ما بالغ الناس في الحديث عنه وعن مزاياه! لم نتحدث عما تصنعه الكلمة من حب وعزاء ومعرفة لأنه قد بولغ جداً في تقدير الكلام من هذا الجانب .

والكلمة وحدها هي العملة الدولية التي تتعامل بها كل الدول والاسواق ، مع علم جميع من يتعاملون بها انها عملة زائفة لا تساوي شيئاً! وآفة كل متكلم وكاتب انه لا يتكلم او يكتب عن الشيء كما هو ، أو كما ينبغي ، بل كما يريده هو ، او كما هو في نفسه هو . وما من انسان يقول كلمته لأنها مطلوبة او واجب قولها ، بل لأنه هو محتاج الى أن يقولها . فالكاتب والمتكلم الذي يخاطب الآخرين انما يخاطب نفسه لا اولئك الآخرين ، وهو ليس طبيباً يداوي بل مريض يتداوى! الكلام هو دائماً تفسير للمتكلم لا لما يتكلم عنه ! حتى النبوة ليست رسالة الى الناس ، ولكنها حديث مع النفس بصوت مسموع! ان الكلمة هي أسوأ مستهلك ومفجر لذات الانسان !

لقد صغر الكلام وهان ، حتى اصبح لا يهز أحداً ولا يصدقه او يحترمه احد ، واصبح الناس ينظرون الى المتكلمين كما ينظرون الى من يتقايئون عليهم او يشتمونهم او الى من يكشفون عن عاهاتهم الفظيعة المستترة بصراخ ومباهاة — او هكذا كان يجب ان ينظروا اليهم ، او هذا هو الذي سوف يحدث في يوم من الأيام .

ان المتكلمين قوم يبصقون أنفسهم على الآخرين وكأنهم يتكلمون أو يفكرون . ولعل البشر لم يخترعوا الكلام ليقولوا الحقيقة أو ليبحثوا عنها أو ليستعملوه لذلك ، ولكنهم اخترعوه وظلوا يستعملونه للقذف بما في أنفسهم الى

الخارج على وجوه وثياب الآخرين . انهم اذا تكلموا لا يقصدون ان يتفاهموا بل أن يتضاربوا أو يتباصقوا ! والكلمة الرديئة في كل احتمالاتها هي التعبير السخيف عن الاحتجاج على ما في الحياة من ألم وغيوب !

***

ولكن ما شأن هذا العصر الذي تطورت فيه وسائل التعبير تطوراً لم تعلق به أحلام الآلهة القديمة والذي تعقدت فيه المشاكل المتعاظمة وتواجهت فيه الخصومات والخصوم بلا حواجز ولا مسافات !

لقد أصبحت الكلمة في هذا العصر وباء عاماً وخطراً دولياً رهيباً .

أما الشعوب المتخلفة المبتدئة بممارسة الحضارة وباللهو بها وبوسائلها التعبيرية الصارخة فقد أصبحت الكلمة فيها عفونة عقلية وأخلاقية لاتطاق، وطفولة بعيدة عن كل تهذيب . صارت الكلمة في هذه الشعوب بعد أن تسلحت بأساليب الإعلام الكثيرة الممتازة نوعاً من الافتضاح الأليم الكبير ،ومن الانتحار الذي لا ذكاء فيه ولا شرف .

ما أعظم ما جنت الكلمة على الكلمة في هذه المجتمعات، ما أعظم ما أفسدت الكلمة الكلمة وأسقطتها وجعلت المجتمعات لا تتأثر بها ولا تحترمها، لقد سقطت الكلمة لكثرة استعمالها ولكثرة ما جاءت كاذبة سخيفة عدوانية ! ان الحديث الدائم عن جمال القمر وعن عظمة الإله يضعف التأثر بهما ويحولهما الى غثيان ! فإكثار الكلام عن الشيء يفسده ويسلبه سحره !

ومن المحتمل ان يأتي زمان توضع فيه قوانين تحرم الكلام والكتابة كما تحرم شهادة الزور والغش والخيانة، وأن يحتقر فيه الناس الكتّاب والخطباء والمتحدثين كما يحتقرون اللصوص والقتلة والمفسدين ، وقد يحدد عدد الكلمات التي يسمح بها وتحدد الأوقات التي يكون فيها الكلام مباحاً كما تحدد الأشياء الأخرى وكما يحدد الطبيب للمريض الدواء والطعام وأوقاتهما . قد يحدث هذا في وقت من الأوقات لحماية الكلمة من الانهيار والسقوط المحتومين ، ولحماية الانسان نفسه من شر الكلمة . وكم نرجو ألا يحدث مثل هذا . ولكن قد يعقل الانسان ويدرك بتجاربه

وباحتياجات حياته خطر الكلمة عليه فيعالج الموقف علاجاً أفضل من علاج القوانين ويحدد علاقته بها كما يحدد علاقته بما يفسد صحته وبما يقتله ! ومع هذا فلو تصورنا الانسان ممنوعاً من الكلام السخيف ، لتصورنا قارورة مغلقة على الكون ! أو لتصورنا بالوناً رقيقا تجمع فيه جميع الأعاصير والرياح دون أي متنفس !

***

اذن لماذا اتكلم واكتب مع ان الفضيلة وحب الناس ليسا في حسابي ولا من حوافزي ، ومع ان الكتابة والكلام ليسا نضالاً ضد شيء ، ومع ان المجتمع ليس محتاجاً الى كتابتي وكلامي ، واذا كان محتاجاً فانا لا ابحث عن حاجته وهو لم يدعني الى ان اكون له طبيباً ؟

انا اتكلم واكتب لاني لا استطيع ان اسكت ، كما اني اعمل لاني لا استطيع ان اتوقف عن الحركة ، وكما اني احيا لاني لا استطيع ان اموت ! انا اكون لاني عاجز الا اكون ، لا لاني افعل شيئاً طيباً او قيماً او نافعاً ، ولا لاني ابحث عن المجد والنجاح ، فبحثي عن المجد والنجاح تبرير لفعلي لا سبب له ! ان المجد والنجاح ليسا شيئاً ولكنهما نوع من الشعارات التي نؤدي بها انفسنا ونسوغ تحت ضجيجها تحركاتنا التي لا معنى لها !

وكيف قلت اني لا استطيع ان اموت ؟ اني استطيع ذلك ، لاني استطيع ان ارمي بنفسي تحت احد اسباب الموت الكثيرة الموجودة امامي ؟ اذن انا استطيع ان اموت كما استطيع ان اتحرك وان اتقي الموت !

ولكن كلا ، فأنا لا أستطيع لأني لا أستطيع أن أريد ذلك ، إذن أنا لا أستطيع أن أفعله .

ان الناس لا يريدون بأعمالهم أن يحققوا شيئاً بل أن يهربوا من الصمت ، حتى ما يبدو أنه لتحقيق شيء ليس هو كذلك في نهايته . فالذين يقيمون جسراً يقيمونه للمرور فوقه ، ولكن لماذا يمرون ولماذا يفعلون ما بعد المرور؟ انها سلسلة لا تعني غير الهرب من الصمت . هذي هي حوافز العبقرية وحوافز كل عمل نبيل ، كما هي حوافز كل عمل سخيف .

ان الكاتب يكتب للناس ويتحدث اليهم كما يعاديهم ويسبهم ، لا يفعل هذا أو هذا بحثاً عما يريدون أو عما ينفعهم بل استجابة لذاته . وكل انسان إنما يتحرك من ذاته الى المجتمع لا من المجتمع الى ذاته !

وأفضل ما في الكلمة أنها قد تقرأ وتسمع ولكنها لا تطاع ، ولو كانت تطاع لكان الموقف أسوأ من الجنون ومن الفناء ومن التأخر الدائم ومن الاستحالة ومن الشيء ونقيضه . والمواقف التي تبدو لنا وكأنها طاعة للكلمة ليست كذلك حتماً ، وكما اننا نفعل ضد الكلمة بلا كلمة فكذلك قد نفعل موافقين للكلمة من غير طاعة للكلمة. فطاعتنا للكلمة مثل عصياننا لها - كلاهما الطاعة والعصيان عمل أنفسنا بتحريض أنفسنا . كل شيء يتحول الى كلام ، والكلام لا يتحول الى شيء !

* * *

ماذا يعني أن نفكر ، وهل نحن نفكر ، وإذا كنا نفكر فهل نفكر لنفهم ونتغير أم لنتعصب ونتعادى وندافع عن أوهامنا وعجزنا ؟

ان تفكيرنا ليس خاضعاً لنفسه ولا ملك نفسه ، ولكنه دائماً ومهما أردنا غير ذلك ، خاضع لحالتنا النفسية ، وحالتنا النفسية خاضعة لصحتنا وظروفنا وتاريخنا ومصالحنا ولأوضاعنا الخاصة . فالتفكير إذن ليس حاكماً عدلاً بل ليس حاكماً البتة ، ولكنه شاهد زور ، شاهد كذاب لا أخلاق له ولا ضمير ، يلقن الشهادة فيقولها كما لقنها بلا شجاعة ولا حرية ولا نزاهة . ليست أحكامنا العقلية على الأشياء أو على أنفسنا أحكاماً عقلية ، بل هي التزامات اجتماعية وتاريخية ونفسية . التفكير هو دائماً عميل خائن - خائن لنفسه وللحقيقة التي يزعم انه يتحدث بها وانه لا يبحث إلا عنها . فالذي يقول الحياة جميلة والذي يقول انها مأساة كلاهما انما يعبر عن حالته النفسيه مستخدماً تفكيره كسلاح لا كمنطق .

والتفكير المجرد ، اي التفكير بلا حالة نفسية ، لا يستطيع أن يحكم على الكون أو على أي شيء بأنه جميل أو غير جميل ، وهو حتماً في ذاته ليس هذا ولا هذا . فالذين يقولون ان الانسان او ان الكون طيب إنما يحسونه كذلك ،

لا انهم يعلمونه او يعقلونه كذلك، فكأنهم يقولون نحن مبتهجون راضون متلائمون مع أنفسنا ومع ما حولنا، والذين يقولون عن الانسان أو عن الكون انه سخيف إنما يعنون أنهم متألمون متعبون غير سعداء ، ولا يعنون انهم وجدوا الانسان او الكون كذلك . ودائماً البشر يعكسون حالتهم الخاصة على الاشياء التي يتعاملون معها – هم لا يعكسون افكارهم ، بل مشاعرهم الحزينة المتوترة او المبتهجة المستريحة . ان الصحة الجيدة هي المعدة التي تهضم اقسى الآلام والأخطاء والمشاكل وتحولها الى ابتهاج وافكار متفائلة، وان الصحة الرديئة تصنع العكس . فالأفكار ليس لها من ذاتها لون ، ولكن ظروفها هي التي تعطيها ألوانها المختلفة ، والحالة الصحية هي الوعاء العام لجميع هذه الظروف .

نحن نحكم على الاشياء لأننا منفعلون ، لا لأننا مفكرون ، والأشياء التي لا تحدث لنا انفعالات ، لا نستطيع ان نحكم عليها بعقولنا أي حكم. فسقوط الحجر علينا ذنب وخطأ ، ولكن سقوط كوكب على كوكب آخر وتدميره له ليس شيئاً ، ليس خيراً ولا شراً ، لا ظلماً ولا عدلاً ، إلا على احتمال انه قد يسقط علينا . وكذلك يختلف نظرنا الى قتل الانسان او الحيوان للانسان ، وقتل الانسان او الحيوان للحيوان . ان مبدأ الاحتجاج والاستحسان ليس عقلياً . ولعل القتل للانسان افضل من الصدقة عليه ، ولعل قتل الشيخ المريض افضل من علاجه ليعيش شيخاً مريضاً مدة أطول ، لو كان العقل هو الذي يصوغ سلوكنا ومنطقنا !

اننا لو كنا بلا آلام ولا احتياجات خاصة ، لأصبحنا محايدين من الكون ومن كل شيء ، لا نستطيع ان نعقله ولا أن ننكره ، ولا أن نراه حسناً ، ولا أن نراه قبيحاً . والذي لا يعاني معنى الجوع ولا لذة الطعام لا يمكن ان يجد فرقاً عقلياً بين التراب وسماني الجنة . ولهذا فإن الأرباب التي لا تجوع ولا تتألم أو تلتذ ، لا يمكن أن تفرق بين الاشياء، ولا أن تحكم عليها أية أحكام عقلية او اخلاقية . فكل الاشياء حينئذ سواء لديها .

التفكير لا يستطيع ان يحكم ، ولا يستطيع أن يعدل لو حكم . وهو معذور

في هذا لأنه لا يحكم بإرادته او حوافزه ولا لمصلحته، انه تابع . هو لا يحترم او يحتقر شيئاً او يتخذ أي موقف من أي شيء الا مقوداً مأموراً .

ان الكون والأشياء في حكم المنطق وحده ليست شيئاً ، ليست صواباً ولا خطأ ، ليست جميلة ولا دميمة ، انها وجود فقط . والفرق بين مفكر يرى في الحياة والبشر وفي جميع الأشياء أسخف صور الفوضى والعبث والدمامة، ومفكر آخر يرى في كل ذلك أسمى معاني الجمال والحب والنظام والذكاء فرق نفسي لا عقلي . ليس بالعقل أدرك الفلاسفة المتشائمون ان الحياة سخيفة ، ولا بالعقل أدرك الفلاسفة المتفائلون انها عظيمة ، بل بالصحة والمرض وبالتعب والراحة . والعقل دائماً مسلوب الارادة والقـــدرة بل مسلوب الذكاء ، وهو لا يكون ذكياً إلا بالتحريض الذي توجهه اليه القوى الأخرى الخارجية. كان بعض الفلاسفة مرضى أو متعبين فجاءت أحكامهم تشاؤمية فظنوا وظن غيرهم ان بين الفلسفة والتشاؤم ارتباطاً ،ولكن تشاؤمهم من تعبهم لا من فلسفتهم .

إذن فنحن جميعاً ، نحن كل المتكلمين والمفكرين ، المؤمنين والمنكرين ، حينما نتكلم ونكتب ونحكم لا نقدم قضايا فكرية ، لا نقدم أدياناً ولا مذاهب أو نظماً أو حقائق مدروسة معقولة مؤيـدة بالتفكير الحر النزيه المحايد . ولكننا نقدم حالتنا النفسية الخـــاصة بكل تعصب وتحيز وغباء وغوغائية ، لا تهذيب ولا ذكاء فيها .

اننا ونحن نقدم للناس ادياننا ومذاهبنا ونظمنا بفخر واستعلاء ، إنما نقـدم لهم في الحقيقة صحتنا ومرضنا ، قوتنا وضعفنا ، تفاؤلنا وتشاؤمنـــا ، سرورنا وكآبتنا ، انتصارنا وهزائمنا ، نجاحنا وعجزنا ، أهواءنا ومصالحنا ، جميـــع ظروفنا وارتباطاتنا التاريخية والاجتماعية ، لنطالبهم ان يؤمنوا بهـــا كحقائق مطلقة منزهة .

هذه هي مشكلة كل مفكر وداعية ونبي ،مشكلة كل انسان ، كل من يتكلم ويقتنع ويحاول حمل الآخرين على الايمان باقتناعاته ، اي بذاته.

فهل للتفكير او للاقتناع او للكلمة حينئذ اية قيمة ؟ اننا مع هذا لا بد ان

ان نتكلم ونفكر ونقتنع . اننا احياء ، والحياة بكل ما فيها من عبقرية ونشاط ليست سوى عملية استنفاد للذات اي للحياة ، فالحياة بكل وسائلها هي التعبير الكامل عن عمليات الموت . اننـا نحيا اي اننا نموت ، نحن نبحث عن الموت في صورة البحث عن الحيـاة ! انني افكر واكتب لانني اموت ، واموت لاني احيا كغلطة غير مقصودة ، ولان موتي وحياتي يتحركان بقانون واحد ، وليس في اي منهما معنى اخلاقي او فكري اكثر مما في الآخر .

ان المادة التي تتحول الى حرارة او ضوء او حركـة لتصنع قوة او مظهراً جديداً من مظاهر الحياة ليست في تحولها هذا الا باحثة عن الموت اي عن النفاد. وكذلك الانسان في تحوله الى ابداع واعمال كبيرة وتفكير وكلام وهداية للضالين ، ليس الا باحثاً عن الموت اي عن النفاد .

ان كل شيء ينتحر لان كل شيء يتحرك ويتغير اي يفنى لمجرد الفناء، كل شيء ينتحر باسلوبه الخاص .والبشر ينتحرون باساليبهم الخاصة،انهم لا بد ان ينتحروا حتى ولو لم يجدوا اسباباً ينتحرون بها ولهذا فان الذين لا يجدون اعمالا يدمرون بها حياتهم فلابد ان يموتوا بلا عمـل ، بالفراغ والضحك والملل . وقد وجـد المستغنون عن العمل الوسائل التي يموتون بها اكثر مما وجـدها المحتاجون الى العمل . اليس سخيفاً ومحالاً ان نفترض الناس يعملون لكي يحيوا، لكي يحتاجوا ، لكي يعملوا ،ليستمروا في تكرار هذه العملية الدورية العقيمة؟ان معنى هذا انهم يعملون ليحتاجوا وانهم كذلك يحيون ليحتاجوا . فالعمل يبقي الحياة ، والحياة تبقي الاحتياج ، والاحتياج يفرض العمل . فأي هذه الثلاثة هو الوسيلة وأيها هو الغاية ؟ اذا كان العمل من اجل الحياة فالحياة من اجل مـاذا ؟ يقولون انها من اجل ذاتهـا ، جواب لا يعني شيئاً . ولو كانت من اجل ذاتها لاكتفينا بمجرد وجودنا احياء بلا اي شيء آخر ، ولما كان لها نهاية لانها من اجل ذاتها .

اذن البشر لا بد ان يفكروا ويكتبوا،ويقتنعوا ويصنعوا للآخرين،المذاهب والنظريات والافكار والاخلاق والمثل،وان يدأبوا على دعوتهم الى الاستقامة وان

كانوا لا يبحثون عن النتيجة او الفائدة او الفضيلة او الحب او الصدق ولا يبالون بأي معنى اخلاقي . لانهم انما يريدون بكل ما يعملون ان يدمروا حياتهم لا ان يفعلوا الخير لانفسهم او للآخرين .

ان الناس يعملون ويتحركون لمجرد تحقيق الفناء كما تتحرك الانهار والرياح والشموس والكون كله. ان الشمس تبدد ضياءها لمجرد التبديد حينما تذهب تمنحه جزافاً وبسخاء لا معنى له ولا عقل فيه ، وهكذا يفعل الانسان حينما يحيا ويمنح العبقريات والفنون والآداب والنظريات والسلام ، او حينما يصنع الحروب والأحقاد والخصومات ، او حينما يكتب ويفكر ويملؤه الحماس والإيمان ! يملؤه الحماس والايمان لماذا ؟ لغير ما شيء ، لأشياء لا معنى لها ، ولأشياء تسحقه وتذله وتستهلك كل قطرات حياته . انه يموت تحت رايات افواج متلاحقة من الطغاة والاصنام والمذاهب الشريرة وفي الحروب والأحزان والعداوات وفي البكاء والغيرة على الآخرين الذين لا يحمل لهم اي حب او احترام . لأنه يبحث عن الموت ، عن أي شيء يموت تحت لوائه .

لقد فرضت عليه الحياة بلا سبب او فكرة وبلا مصلحة لأحد. وهي بطبيعتها حركة اي فناء ، لا تقبل التجميد ولا تحتمل كذلك . لا توجد الحياة الا في حالة استهلاكها ، لا نحيا الا بأخذنا بأسباب الموت . هكذا كان الانسان، فراح يبحث عن اساليب مهذبة او تبدو مهذبة مع انها ليست كذلك ليبدد فيها حياته . فالموت انتحاراً اذكى واكثر تهذيباً من الموت في حرب يشنها طاغية مجنون او في سبيل عقيدة غبية او نظام متوتر متكبر او من الموت حزناً او تخمة اوجوعاً او بالشيخوخة او بأحد الأمراض الطويلة او من الموت بالاصرار على الكتابة والتفكير حيث لا تأثير في ذلك على من يكتب ويفكر لهم ، ولا اخلاص او صداقة لدى من يكتبون ويفكرون .

✡

وحيث ان غاية أعمال البشر كلها هي تحقيق الموت لأن الحياة كما سبق حركة

والحركة فناء فانهم حينئذ لو أبادوا انفسهم بوسيلة علمية شاملة لكانوا بذلك اكثر شجاعة وتهذيباً من ابادتهم لأنفسهم بالوسائل العادية المعروفة البطيئة كالاستغراق في العلاقات الجنسية والعبادات والكلام والانفعالات الهدامة ومخاصمة الآخرين والاختلاف معهم والبحث عن الآلهة والأديان والمذاهب والنظريات ، والخوف من النار والعار والمرض والأرق والخطأ ومحاولة النوم بــلا جدوى ، وغير ذلك من صور السلوك والانفعــالات التي لا تعني سوى تحقيق الفناء . ولهذا فان التحذيرات المتعالية التي تتنادى في كثير من ارجــاء العالم اليوم خوفاً على الانسان من ان يهلك نفسه ويهلك الحياة معه باسلوب علمي ممتــاز ليست إلا خوفاً من الهدف المطلوب المحتوم ومن ان يؤدى هذا الهدف باحسن الأساليب واقواها ، وهي كذلك ليست الا نوعاً من الورع التقليدي الضعيف الذي اعتاد الضعفاء والوعاظ المتعبون ان يمارسوه كعادة وكأسلوب من أساليب البكاء الذي لا يعني غير نفس البكاء . وهذه التحذيرات الخائفة هي مثل الخوف على الميت من الدفن وعلى المحتضر من الموت ، وهذا الخوف ليس خوفاً فكرياً وانما هو خوف غريزي كخوف أية حشرة ضئيلة من ان تنتهي أشرف وانظف نهاية. ان الانسان يفضل ان يموت أذل وأحقر موتة عادية عــلى ان يموت أضخم وأعز موتة غير عادية ،فهو يرفض ان يموت من أعلى مكان تحت امجد الظروف رفضاً لأبشع أنواع الهوان او احتجاجاً على اقبح المظالم والآلام وأسباب العار ، ليتقبل الموت بالشيخوخة او بأمراض القلب والشرايين او بالاعدام او بحوادث الطرق تحت احقر الظروف.

ولو كنا نحكم بالعقل لما مات منا أحــد كما تموت الحشرات والكلاب باسباب الموت العادية المهينة ، ولمتنا جميعاً موتاً سماوياً عقلياً متفوقاً . فالذي يرفض أن يموت بيده موتاً نظيفاً عالياً سريعاً ليموت بالجراثيم او بالذبحة الصدرية لا يعبر عن عقل انسان بل عن غريزة برغوث !

وبالقوة والاقتناع اللذين يرفض بهما الانسان ان يشك او يناقش في قيمة حياته وفي ان يختار اسلوباً عقلياً ليموت به على اسلوب غير عقلي — اسلوب حشري —

ترفض أصغر ذبابة ان تشك او تناقش في قيمة حياتها وفي قيمة الاسلوب الذي تختاره لموتها لو استطاعت ان تتكلم وتفكر . والبشر دائماً يفعلون بلا تفكير ما يقتلون عليه بالتفكير !

ان وجودنا والحكم علينا بالحياة وقوع في المصيدة ، وجميع ما نفعله ليس إلا محاولة يائسة للخروج من هذه المصيدة أو للاحتجاج عليها أو لتدميرها أو للتكيف بها . ان معنى كوننا نحيا أننا نعاني ونتجرع حتى حينما نمارس اللذة والسرور . ان الحقد والغيظ والخوف والحزن والطموح والمنافسة والتوتر هي الأساليب المألوفة للتعبير عن المعاناة والتجرع ، حتى الحب والانتصار والتفوق والامتلاك صور من هذه المعاناة وهذا التجرع . ورفض الانتحار تحت ظروفه الموجبة ليس سمواً أو ذكاء انسانياً ولا بحثاً عن الأفضل أو الأجدر ولكنه هوان حيواني برر تبريراً انسانياً . والرفض للانتحار نوع من الرفض للحقيقة الكاملة المواجهة ولتعاطيها باليد مرة واحدة . ليس رفض الانتحار فلسفة وإنما هو جبن يتفلسف . والشجاعة بكل صورها في كل مواقفها انتحار غير مباشر ، والجبن وتقبل العار والهوان بأي اسلوب وتحت أي مبرر رفض مباشر للانتحار . ان الانتحار هو أقوى وأحسم احتجاج على نقائص الذات أو المجتمع أو الكون ، ولأنه كذلك كان الذين يقدمون عليه قليلين جداً وغير عاديين في الغالب !

*

التفكير هو دائماً خطر على العدل والحق والصداقة بين البشر لأنه يستخدم دائماً لتحقيق هذا الخطر .

لا يوجد من يستخدم تفكيره أو ذكاءه للبحث عن الصواب الذي لدى الخصوم أو لإنصافهم أو لإعطاء العدل من النفس ، بل كل الناس حتى الطيبون منهم جداً يستعملون تفكيرهم وذكاءهم لهدم الآخرين والانتصار عليهم ولهدم ما معهم من حق أو فضيلة ، أو لتقوية مواقفهم هم والدفاع عما اختاروه لأنفسهم أو وجدوا أنفسهم فيه مهما كان سيئاً وسخيفاً ظالماً .

وإذن فلعل الناس – لو لم تكن لهم أفكار وذكاء – يكونون أعجز عن فعل الضلال والاجتراء عليه والتباهي به وعن اختلاق العداوات والخصومات بينهم، كما أنهم بدون سلاح قوي أعجز عن أن يستطيعوا إبادة بعضهم لبعض . فالبشر يتقاتلون بالأفكار كما يتقاتلون بالسلاح ولا يتفاهمون بها !

*

ولكن ها هنا تعقيد أو مشكلة . ذلك أنه إذا كانت أحكامنا على الأشياء ليست أحكاماً عقلية ، فان حكمي في هذا الموضوع وفي أي موضوع آخر يصبح حينئذ حكماً غير عقلي . وهذا صحيح ، لأن العقل لا يستطيع أن يحكم في أية قضية معتمداً على نفسه ، إذ لا توجد فيه ولا له مقاييس من ذاته ، بل مقاييسه دائماً من خارجه أو في خارجه ، مقاييسه دائماً في ذات الانسان وفي مشاكله وأوضاعه أو في الظروف الأخرى الخارجية .

ان العقل في ذاته فراغ ليس أمراً أو نهياً أو قانوناً أو خروجاً على القانون ، ليس ذكاء أو غباء أو مستوى انسانياً ، وهو لا يعرف ما هو الخطأ والشر أو الخير والصواب . العقل لا يوجد في ذاته ولا لها ولا يعمل من أجلها ولا يتحدد بها ، فحدوده دائماً ليست فيه ، وهو لا يفسر أعماله ولا يقومها ولا يوجهها ولا يستهلكها بل ، لا يستطيع تصحيحها ! وليس الخير والشر أو الحق والباطل هو ما نعقله أو ما لا نعقله ، ولكن هو ما نجده ونفعله ونريده أو ما لا نجده ولا نفعله ولا نريده . من الممكن دائماً أن يصبح ما هو معقول غير معقول وما هو غير معقول معقولاً . والذي يرفض ذلك ويصر على تقسيم الأشياء الى معقولة والى غير معقولة ، هو موقفي أنا الانسان من الأشياء لا موقف تفكيري . ان البشر دائماً هم الذين يقودون أفكارهم مهما بدا ان أفكارهم هي التي تقودهم . وإذن فما قيمة أي فكر أو رأي أقوله هنا اذا كانت جميع أفكاري وآرائي غير عقلية ، وكيف أبطل أحكاماً غير عقلية بحجة انها غير عقلية بحكم غير عقلي ؟

والجواب اني هنا أحاول أن أبطل واقعاً بواقع أو حالة نفسية بحالة نفسية أو مجتمعاً بمجتمع لا تفكيراً بتفكير . والعقل هنا ودائماً ليس سوى سلاح . والحياة كلها ، بل الكون كله هو ابطال واقع بواقع وإزالة شيء بشيء ، وليس إزالة تفكير بتفكير أو الرد على تفكير بتفكير .

ان الكون لا يتغير أو يزيل بعضه بعضاً بالتفكير ، وكذلك المجتمع مع المجتمع ومع نفسه ، وكذلك الانسان مع الانسان ومع نفسه . حتى الحروب ليست أفكاراً تحارب وتهزم أفكاراً ولكنها وجود يحارب ويهزم وجوداً آخر . والأفكار هي دائماً تعبير عن الوجود وارادة الوجود ، أما الوجود فلا يمكن أن يكون تعبيراً عن أية أفكار .

وبقدر ما هو صحيح ان الصخرة لا تسقط على رأس الانسان لتقتله بفكرة ، كذلك صحيح بنفس النسبة انك أنت وأنا وكل الناس لا يقاوم بعضنا بعضاً أو يدمر بعضنا بعضاً أو يصحح بعضنا بعضاً بالأفكار أي باغراء الأفكار أوبصدقها أو بإرادتها أو بالدفاع عنها أو بما لها من قوة قانونية أو مزايا أخلاقية .

ان أفكاري هي تعبيري الذاتي بالذهن وبالكلمة عن موقفي النفسي والمادي من الطبيعة والناس ومن نفسي ، وكذلك أفكار كل انسان . ولا يمكن ان تكون مواقفي النفسية والمادية هي تعبيري عن أفكاري ، كما لا يمكن ذلك لأحد من الناس !

انه لا توجد أية نماذج أو مثل فكرية للأشياء : لا للكون ولا للحياة ولا للانسان ولا للمذاهب أو النظم أو العقائد أو التقاليد أو الأخلاق لتوضع على مقاساتها أو لتنقد وترفض إذا خرجت عليها . ان نموذج كل شيء ومثاله هو وجوده وذاته . فالأشياء والبشر لا يتقاتلون أو يختلفون بحثاً عن نماذج أو مثل عقلية أو خلافاً عليها ، وإنما هم وجودات متعددة تتصادم دفاعاً عن ذواتها ومجالاتها بلا أي معنى زائد على وجودها . فالنموذج العقلي أو المثال العقلي هو صورة الوجود لا وعاؤه ، صفاته واحتياجاته لا مبدؤه أو سببه .

ان نموذج البيت أو الجسر الذي يراد بناؤه هو الانسان والظروف المادية التي

يقام فيها ومادة بنائه ، وليس نموذجه أفكاراً أو أخلاقاً أو مستويات قائمة بذاتها معروفة بخصائصها المستقلة .

فالمهندس هو الطبيعة والطبيعة ليست هي المهندس ـ الطبيعة تخلق المهندس والمهندس لا يخلق الطبيعة . الكون هو نموذج المهندس ولكن المهندس ليس نموذج الكون .

ان الكون ليس صيغة مكتوبة ـ ليس صيغة انسانية . ان العقل هو امل ومستوى وحاجة في الوجود الانساني ، وليس قانوناً او علة او تفسيراً في الوجود الكوني او في النظام الكوني . العقل ليس شيئاً في العالم ولا شيئاً خارجه ، انه هو تفسير الانسان للاشياء ولنفسه ، انه تفسير فقط وليس وجوداً ـ هو حركة الكون لاعلته ولا غايته ولا ذكاؤه !

ان اية نظرية تجيء من خارج الكون فلابد ان تكون باطلة في رأينا نحن سكان هذا الكون وفي سلوك الكون نفسه مهما كانت عبقرية ، مع ان هذا مستحيل اذ لايمكن ان نفكر خارج الكون ولا ان توجد افكار خارجه .

*

ليس التفكير قوة معارضة في اي وقت ولا في اي موضوع . انه دائماً اتباع وهوان ، وان كان يظن انه القائد العظيم في كل المعارك والميادين .

ولننظر كيف يمكن ان يبدل الفكر نفسه على جميع الصور والاضداد دون ان يشعر بالذنب او المعاناة .

ان في الدين الاسلامي تشريعاً يجعل للذكر مثل حظ الانثيين في الميراث ، وتفكير المؤمن يقول ان هذا التشريع هو اعلى مستويات العدل والمنطق ! ولكن لو جاء التشريع ليقول ان للانثى مثل حظ الذكرين او ان الميراث كله للرجل او كله للمرأة او لا شيء لاحد منهما او هو بينهما بالتساوي لقال هذا التفكير ايضاً نفس القول !

ويقول الدين بقطع يد السارق ، فيقول التفكير الديني ما اعظم وارحم هذه العقوبة ! ولو كان قد قال بفقوء عيني السارق ، او قتله او جلده او حبسه او استرقاقه او تغريمه لرأى التفكير الديني في هذا العقاب نفس الرأي .

ويقول ايضاً بجلد الزاني او رجمه فيعجب التفكير الديني بالمستوى العالي لهذا الجزاء المتحضر ويرضى عنه الى المدى الذي يجعله يرى في مناقشته كفراً وغباء ! ولكن لو ان الدين قد قال بقطع الاعضاء التناسلية للزاني بدل الجلد او الرجم لاعجب منطق المؤمن بذلك ولوجد انه لبراعته ونزاهته هو اقوى البراهين على وجود الله وعلى صدق نبوة محمد ﷺ وعلى قوة ذكائهما وصداقتهما وحبهما للانسان !

وهكذا يعيش الفكر في تبعية وهزائم دائمة في جميع القضايا السياسية والفلسفية والاجتماعية وفي الاخلاق والتقاليد وكل شيء . فهو ابداً يخضع لما وجد او للارادة والمصلحة او للعادة والخديعة او للخوف والتعب . وهو لايكتفي بان يخضع ويرضى ويوافق، بل يناصر ويكذب ويزور حتى لكأنه مستشار فاسد لدى طاغية جاهل جبار ! انه يؤدي دوره الذليل المخادع بحماس واعتقاد !

وهذه ليست افتراضات يراد بها السخرية من الفكر او تجريحه ، وانما هي صور متواضعة عن سلوكه المشهود وسلوكه الدائم في التاريخ .

لقد آمن الفكر بكل شيء وبرر كل شيء ودافع عن كل شيء من الاخطاء والحماقات والمظالم والاضداد في كل زمان . فالايمان والالحاد وعبادة الاوثان وعبادة الله والسرقة والاحسان والاشتراكية والاقطاع . كل ذلك تفكير له انبيائه وشهداؤه .

ان هذا المفكر الذي يصوغ اعظم الحجج للتدليل على ان الشيوعية هي وحدها العلاج الشافي لجميع آلام البشر كان من الممكن تحت ظروف اخرى ان يتحول الى مفكر مضاد يصوغ حججه القوية للتدليل على ان الرأسمالية هي وحدها العلاج !

وامام كل مفكر يدعو الى مذهب او عقيدة او نظام يوجد مفكر آخر او مفكرون كثيرون يدعون الى النقيض بنفس الاقتناع والغباء والجنون . والفرق بين من يدعو الى الشيء ومن يدعو الى نقيضه ليس فرقاً فكرياً .

ولا ينتظر من التفكير ان يكون منقذاً لنفسه او للانسان ، وهو لا يستطيع ان يكون كذلك ، بل هو محتاج دائماً الى من ينقذه . ان اهواءنا لتنقذنا دون فكارنا ! وضلال الفكر وهداه ليسا فيه ولكنهما في القوى التي تحركه . وتغير الفكر ليس تفكيراً وانما هو اتباع لشيء ما .

* * *

الدكتاتور.. أعلى مراحل الاستغلال والرجعية

أريد أن أفترض فرقاً بين الدكتاتور والطاغية المستبد ، وفي هذا الافتراض ليس كل مستبد أو طاغية دكتاتوراً . توجد دائماً أوضاع مستبدة طاغية ولكنها بلا دكتاتور، فالاستبداد والطغيان هما إحدى مركبات الدكتاتور. هو لا يكون إلا مستبداً وطاغياً ، ولكن هذه هي صفته الأولى المتواضعة . كثير من الحكام ظالمون ومستبدون وطغاة كبار ، ولكنهم مع ذلك لا يرتفعون الى مرتبة الدكتاتور ! الدكتاتور انسان غير طبيعي ، هو لا يوجد إلا قليلاً . ان خصائصه الكثيرة المتعبة تجعل وجوده ظاهرة لا تتكرر كثيراً. تحدث الزلازل والبراكين والأحداث الكونية الصعبة أكثر مما يحدث وجوده . محصول البشر منه نادر جداً ولكنه باهظ جداً . هو لا يخلق نفسه ولا يخلقه المجتمع . انه بذرة وتربة . بذرة تجمعت فيها خصائص خطيرة ، وتربة تتقبل هذه الخصائص وتطلق فيها طاقة النمو والازدهار الشرير !

في أي الظروف يوجد الدكتاتور ؟ لا يوجد في أحسنها ولا في أسوئها . فالظروف الجيدة جداً لا تأذن بوجوده، والسيئة جداً لا تتحمل وجوده. ولكنه يوجد في ظروف متطورة ولكنها غير متكاملة ولا مستقرة — ظروف فيها مرارة وألم وحيرة وفراغ واتكالية ، كالظروف التي توحي فيها السماء الى واحد

من أهل الأرض ليكون رسولاً .

لم يحدث أن قام دكتاتور لا في المجتمعات البدائية ولا في المجتمعات المتكاملة. فهو نبت لا ينمو فوق القمة ولا في الحضيض . واذا وجد في شعب مثل الشعب الألماني ، كان دليلاً على أن هذا الشعب غير ناضج وإن كان مبدعاً . ان كثيراً من الشعوب ذكية جداً كخالقة ، وغبية جداً كمفكرة وكبشر ، كالطبيعة تبدع كقانون دون ان تكون ذكية او مفكرة . ويبدو ان الشعب الألماني وشعوباً أخرى تبدع وتعمل كطبيعة لا كبشر يفكرون ويتوازنون عقلياً وأخلاقياً . ولهذا فقد يسيرون وراء أي مجنون من غير ان يفهموا او يعارضوا كما يصنع البشر . وهم معرّضون للاصابة بهذا الجنون دائماً . وقد يروعنا فيهم هذا الجمع المثير بين العبقرية المتفوقة والغباء المتفوق !

*

الدكتاتور لا يريد بمغامراته ان يحقق أهدافاً معينة ، وانما يريد ان يصنع أحداثاً مثيرة ، فهو حدث لا فكرة . والأزمات والمشاكل غذاء طبيعي لكل دكتاتور . يطلب شيئاً ويلح في طلبه ويثير الدنيا ويهددها بكل الأخطار اذا هو لم يبلغ ما يريد ، فاذا بلغه تحول بالأسلوب نفسه والإصرار نفسه والثورة نفسها يطلب شيئاً آخر . وهكذا يستمر في طلبات وتهديدات لا تنتهي ، لانه في الواقع لا يبحث عن شيء وانما يريد ان يستمر يخلق الاحداث والمخاوف والخصومات ويحركها . والاهداف التي يتحدث عنها والتي يحولها الى مطالب ليست الا وسائل يبرر بها تحركاته وتهديداته وخلقه للازمات . ولو ان الدنيا اعطته كل ما يريد وكل ما فيها لظل ايضاً يهدد ويعادي ويطالب بالحماسة نفسها. ولو انه انتصر على جميع الشعوب وركعت تحت قدميه ضارعة مبايعة لانكر هذه الشعوب واحتقرها لايمانها به وطاعتها له ، ولراح يصنع من حولها الاخطار والمشاكل. لا يرضيه ان تحدث الاموركما يريد ، بل هو يصر على ان تحدث باسلوب صارخ عنيف وان تحدث بأمره هو . ليس المطلوب ان تحدث الاشياء ، بل ان

يكون هو محدثها ، ليس المطلوب فقط ان يأخذ بل ان يثير ويخيف وينتصر كجبار قاهر . يريد ان يأخذ اغتصاباً لا ان يأخذ وكفى .

يبحث عن المشاكل لا عن الحلول . فاذا تنازل له خصومه عن اية مشكلة اخترعها هو فانه لا يلبث ان يخترع لهم حشوداً من المشاكل ، دائماً يبحث عن الخصوم . خصومه لا تحددهم صفاتهم ، ليس له خصوم بالفكرة . يخاصم لانه لا بد ان يعيش في مبارزة دائمة–في احداث .لا يطيق ان يتحول الناس الى اصدقاء له ، بل الى اهداف سيئة ليشغل اجهزته بمحاربتها ولعنها .انه يمقت السلام والصداقات . ومحاولة ارضائه او اسكاته بالتنازل له او باعطائه ما يريد افساد له . فالذين يتنازلون له او يستسلمون لمطالبه ومشيئته ليخلقوا منه صديقاً او مسالماً او متعاوناً ،يثيرون شهوته اكثر فاكثر . هو يختلق الاحداث ويدعيها اذا لم تأت اليه عفواً ، وقد يدبر المؤامرات ضد نفسه ! انه دائماً يبحث عن الدوي ولو بالتآمر ضد نفسه ! من المحال ان يفهم الآخرون كيف يرضونه . اذا اقلقهم واخافهم وهدد السلام حاولوا ان يدفعوا هذا الخطر ، ويظنون ان له مطالب معينة كسائر البشر يرضى ويقنع ويسالم اذا ظفر بها ، فيسلمون له هذه المطالب . ثم تأخذهم الدهشة اذ يجدونه بعد ذلك اشد صخباً ولجاجاً وشهوة في المخاصمة . ارضاء الدكتاتور محال لانه لا يستطيع الا ان يتحرك ويعادي ويهاجم ، ولو اراد بصدق ان يهادن ويسالم لما استطاع . هو لا يعترف بالحدود – لا يقف عند حد ، حدوده هي حدود شهوته وقدرته . لا بد ان يزحف ليتقدم او يتدمر ، هو دائماً عقدة دولية ! انه خفقان دولي مهما كان صغيراً .

وكما انه لا يحارب لهدف ولا لمطلب معلوم كذلك لا يحارب دفاعاً عن نفسه ولا عن جماهيره ، انه يحارب لانه لايستطيع الا ان يحارب . لهذا لابد ان يسير في طريق الهلاك او طريق النصر ـ النصر الذي تختلط اسبابه باسباب الهزيمة .

وشر ما فيه انه لا شفاء له ، فاما ان يبقى بأمراضه او يذهب بها !

وهو لا يحتفظ لاحد بحب او اخلاص او احترام او عهد . يعامل انصاره والاخرين كما يعامل الاشياء ويشعر نحوهم كشعوره نحوها ـ لا بود ولا بتقدير ولا باعتراف ولكن باحتياج ومنفعة ثم يلقي بهم وراء شعوره ! الحب ـ حب

الناس والاشياء ابعد العواطف عنه ، ان علاقته باي شيء هي علاقة افتراس !

ليس له قلب يتعامل به ولكن له شهوات غادرة متقلبة . يستطيع ان ينسى انه انسان ، وان يضرب بكل قبضته بلا اية انسانية من كانوا اقرب الناس اليه واطوعهم واخلصهم له وان يفتك بهم كانهم اغدر الاعداء . لم يحدث ان وفى لاحد من انصاره الى النهاية دون ان يغدر او يفكر في الغدر . لقد مات قلبه من كثرة ممارسته الخروج عليه والتعامل ضده ، لقد طالت انيابه واظافره من طول ما افترس ! خوفه الدائم ، لانه قوي ومغتصب وساحق ، يحوله بالتدريج الى وحش . ان احساسه نحو الناس مثل احساس العاصفة والزلزال والنيزك نحو من تفتك بهم ، يعمل كقوة طبيعية لا كمنطق ، يعمل بقانون الحركة لا بقانون الاخلاق !

وهو فاجر الى ابعد الحدود التي يستطيع ان يكون بها فاجراً . الصدق والشرف والمواثيق والاتفاقات والصداقات لا تعني عنده اكثر من ان يوقعها ويخطب بها . الكذب والخيانة منهاجان اساسيان في قوته ونظامه . الكذب والخيانة فلسفة وغريزة في حياة كل دكتاتور ، لعله يحتقر نفسه لو لم يكذب ويغدر بل لا يفهم كيف ولا لماذا لا يكون غادراً كذاباً !

لا يستطيع يكون غير متناقض . يمدح الشيء ويذمه . يذم الشيء ويفاخر بفعله . يتنقل بين المتناقضات في مهرجانات من الدعاية والاعلان . يعبد الشيطان ويلعنه ، يمتدح الملاك ويصلبه . يكتب الدستور ويطلق الرصاص على من ينادون به . يدعو الى الحرية ويعاقب من يصدقونه . يمجد الكرامة ويسحبها من السوق . يقدس اسم الشعب ويحتقر ارادته . يفعل جميع الاخطاء ويضع مكبرات الصوت في الطرقات للثناء على اخطائه ، فاذا فعل خصومه واحدة منهن ارسل عليهم كل كلابه . لا يحترم عقل الجماهير ولا يخشى ذكاءها . لا يؤمن بالمنطق ولا بالشرف بل بالدعاية . الدعاية عنده سلاح رهيب ، يرصد له كل شيء ويعتمد عليه لسحق جميع الاعداء . الدعاية في تقديره مجموعة شريرة من

الاكاذيب والاشاعـــات والصياح والتكرار والاصرار والاغتيال والرشوة والمؤامرات !

*

الدكتاتور كما سبق لا يجيء في كل الظروف ولا في كل المجتمعات ، بل يجيء في ظروف خاصة قابلة لان يمثل فيها كل ادواره . فهي ظروف تهيىء للوقوع في شباك الدعاية والاستهواء ،وهو من جهة اخرى وكما سبق ايضا لا يؤمن بالاخلاقية ولا بالمنطق ، فهو يكذب ويضلل ما استطاع ، لا يمنعه من ذلك مانع . لايشعر ان احداً يراه او ينكره ، لا يخجل من النور ،انه لا يراه ، لا يحسب اي حساب لكل ما في الشمس من ضياء ورؤية . ومن جهة ثالثة ليس للجماهير مناعة كافية ضد الانخداع والخوف وتصديق السحر .

وهذه الامور الثلاثة تعطي دعايته المرهقة كل الفرص لكي تبلغ منتهاها .

فاذا وجدت المجتمعات الهاربة من نفسها ، الباحثة عن الغوايـة ، ووجـدت تلك الغواية بكل مغرياتها واساليبها ورسلها ،ثم سلطت عليها كل كذبها وفجورها وانطلاقاتها وقوتها ، ثم كانت المجتمعات بظروفها النفسيـة محتاجـة الى الضلال والاتباع والايمان وتسليم القـــلاع للغزاة الفاجرين ! اذا اجتمع ذلك كله كان محتوماً ان تجيء دعاية الدكتاتور شيئاً مثيرا وحاسماً ، وهذا هو التفسير لما ثبت دائماً من تفوق الدعاية الدكتاتورية على دعايات خصومها . انها تجيء تعبيراً عن حالة اليمة موجودة ، وهذا يجعلها رسالة وانقاذاً في تصور الجماعـات ، لهذا يترامون تحت قدميها بلا وقار ولا كرامة . انهم بذلك يهربون من انفسهم ومن فراغها الاليم الموحش . لم يجدوا ما يملأ هذا الفراغ غير الايمان بالتعصب والحقد والكذب والوعود التي تطلقها هذه الدعاية المتوحشة . اما خصومها فليست لهم هذه المزايا فلا يتكافأون معها .

والمجتمعات في الغالب تؤمن بالذين يعلمونها الكذب والغواية والبغض والجنون لا بمن يعلمونها الحب والحقيقة والصداقـة والعقل . والا كاذيب اقوى سحراً من

لحقائق ، والمهرجون الصارخون يعطون الجماعات الفرصة لكي تريح آلامها واعصابها وحرمانها اعظم مما يعطيها العقلاء المتوقرون ، ما اسخف الاتزان حيث يطلب الجنون ، وما اخطر الاتزان في مخاطبة الجماهير وقيادتها . ان الاعتدال هو آخر ما تطلبه السوق .

الدعاية الدكتاتورية تتفوق دائماً على دعايات خصومها ، تتفوق لانها استهواء ضخم يتركز على فراغ مخيف ، وتتفوق لانها قذائف هائلة تظل تتهاوى بلا اي قيد من قيود الشرف او القانون او الصدق على اضعف المواقع واكثرها لهفة وانتظاراً للفاتحين . ليست الدعاية الدكتاتورية عملاً من اعمال الانسان وانما هي نوع من القاء الحجارة الثقيلة . انها لا تحترم التاريخ ولا تخشاه .

التخويف هو المعنى الكبير في دعاية الدكتاتور . وغريزة الخوف هي اقوى غريزة تستثير الجماعات وتستهلك احاسيسها . الخوف في الجماهير اقوى وافعل من الحب والعقل والقانون ومن كل شيء ، وعن الخوف يتولد الحقد . والخوف والحقد هما اعظم قوة حركت التاريخ ، ودفعت بالجماعات الى التخلي عن جميع الفضائل الانسانية لتفعل شر ضروب الهوس والظلم والوحشية تحت اقدام اعظم واقسى المجانين والفاتحين في التاريخ . الدكتاتور يلقي بثقل دعايته كله على مخاوف جماهيره واحقادها فيملؤها بالاعداء المتربصين وبمؤامراتهم وخياناتهم التي لا تنتهي ، ويضيق عليها الجو بالاشباح والأبالسة ، ويظل يحدثها بأعلى الضجيج عن اخطار هذه الأشباح والأبالسة ، وعن الخطط الكبيرة التي توضع في الظلام لاغتصاب الحياة والسعادة من الجماهير ، وللقضاء على منقذها العظيم ، وعن الاستعدادات المقابلة التي يحكم وضعها لتحقيق الانتصارات التي لا ريب فيها . والخائفون جداً لا يستطيعون ان يتدبروا الأمور ولا أن يبصروا ما في الطريق الذي يساقون فيه ، وحينئذ لا يحتمل ان يقاوموا او يعارضوا او يفهموا . ما أسهل انقياد الخائف ، وما أضعف بصره عن رؤية ما أمامه . ولعل أكثر مخاوف البشر التاريخية ، إنما صنعها هؤلاء الذين ابتكروا الخوف من الجحيم والشيطان والآلهة . وأعظم أفعالنا منبثق عن أحقر مشاعرنا!

الدكتاتور يحدث في العلاقات الدولية نوعاً جديداً من الاخلاقية الكريهة ، يشيع اساليب الوقاحة والسباب والبذاءة والاتهامات غير المألوفة واشياء اخرى من هذا النوع . انه يتحدث عن خصومه واليهم وكانه حشرة تطلق كل ما في جوفها من اشياء على نفسها وعلى من حولها دون ان ترعى اي قيد من قيود الاداب او احترام الذات ، ويستخدم لغة ومعاني لا عهد للكبار بها ، يحول لغة الصغار ومشاعرهم الى لغة والى مشاعر للكبار . وهذا لون من الوان دعايته التي يعول عليها كاعظم قوة يدخل بها المعركة لغزو مشاعر السوق. ولما كان لكل فعل رد فعل كان محتوماً ان تنطلق من الجبهة الاخرى أساليب مشابهة . والمفروض أن الدكتاتور يتخلق من نسيج الارض ومن ألمها وغبارها ، فاذا أصبح كبيراً يتحدث بلغة الكبار لم يستطع ان ينسى بسرعة وسهولة لغته ولا أسلوبه في التعبير عن مشاعر الصغار . انه يقفز من الشارع الى العرش فينقل معه كل أخلاق الشارع مضافاً اليها شعوره غير العادي بالقوة والكبرياء . ونفس هذه القفزة لا بد ان تصيب توازنه بخلل عظيم . والقفز العالي خطر على الاتزان . والفرحة الخارقة قد تقود الى الجنون اوتسلب الشخص وقاره. وهذه المشاعر المقفوز بها هي التي تضرب الدكتاتور – مهما تأخر ذلك – بالانهيار والهوس وعبادة الذات . انه يقود الجماهير اولاً الى الجنون ثم تقوده تلك الجماهير الى ماقادها اليه ، هو اولاً يفسدها بدعاياته وبانتصاراته الخارقة السريعة ثم تفسده هي بهتافها وركوعها وايمانها ، انه يدمرها وتدمره جزاء متبادلا. وليس خطره على الجماهير بأعظم من خطرها هي عليه! انه القاتل المقتول ! انه قاتل يستحق رحمة قتلاه ورثاءهم .

❁

والدكتاتور لا يطيق المعارضة ، والمعارضون في حكمه خونة اعداء لصوص فاسدون متآمرون أشرار ، ليس لهم الا ان يموتوا كما تموت الكلاب المريضة . كل من لا يعبده ولا يؤمن بعصمته فهو زنديق .

هو لا يطيق النقد والتفكير . والذين ينقدون ويفكرون لابد ان يكونوا

عملاء للأعداء ، ولابد ان يكونوا من بقايا الظلام البعيد . التفكير والنقد كفر بالقومية وخيانة عقلية وتفتيت للقوى وتردد يجب ان يقضى عليه بلا شفقة !

ولماذا التفكير والنقد ؟ ان الزعامة المطلقة قد اغنت عن كل ذلك بموهبتها والهامها الذي لا يخطيء . الحاجة الى الهتاف والتصفيق اعظم جداً من الحاجة الى النقد والتفكير . فالدكتاتورية صلوات لا معرفة ، ايمان لا تفكير ، هتاف لا اتزان .

والذكاء . لماذا الذكاء ؟ انه لعنة انسانية لانه يضعف الايمان ويضعف الرغبة في الاتّباع . الذكاء هو دائماً عدو الزعامة اللدود — هو دائماً زندقة وطنية !

والشك ! الا لعنة الله على الشاكين . ان الشك يضعف الغرور والتعصب . والغرور والتعصب هما دائماً جناحا الدكتاتور في تحليقه الى آفاقه المظلمة .

اما الخلاف فلا يوجد ما هو احق منه بالنقمة والعقوبة . أليس هو خصم الوحدانية ونقيضها المحتوم ؟

الدكتاتور مريض ، شاذ ، غير سويّ . انه يعشق ذاته ، يعبدها ، يراها الحق المطلق ، يراها كل شيء ، ويرى كل ما سواها الباطل والهباء !

كل الناس مخطئون آثمون خونة صغار . هو وحده الراشد النبيل الكبير المخلص . وهو وحده القوي المنتصر ، وله وحده الدوام والمجد في الأرض وفي الأعالي . انه دائماً مصاب بجنون لم يجد البشر له تعريفاً .

يريد أن يهدم كل أحد وأن يمسخ ويلوث جميع البشر . حتى التاريخ ، حتى الأموات لا يريد أن يوجدوا وأن يذكروا أو ينسب اليهم خير لئلا ينافسوه أو يشاركوه في إبداع الحياة والحضارة وفي صياغة التاريخ . يريد أن يطمس كل شيء . انه يغار من الآثار ومن التاريخ ومن الأنهار لأنها قد وجدت قبله! يغضب من مشاعر الجماهير الموزعة بينه وبين التاريخ ، وبينه وبين الآباء . يريدها كلها له وحده . يحزنه ويثيره أن يطيل الناس النظر الى الشمس والقمر . ان ضوءهما قد يغطي على ضيائه ،وقد يشغل النظر اليهما عن النظر اليه .

يكره النجوم لأنها تقاسمه اهتمام الجماهير ، وتنافسه في علوهـا . انه أحياناً غاضب على الله لأنه يقاسمه ايمان الناس وحبهم وولاءهم !

يكره الأشياء المرتفعة ، يكره الرؤوس المرتفعة والأسماء المرتفعة والعقول المرتفعة والأخلاق المرتفعة والتاريخ المرتفع . انه يكره كل انواع السموات وكل معاني الارتفاع . يريد أشياء متساوية وشعباً متساوياً لا جبال فيـه ولا قمم . يريد الاشياء المنخفضة . انه يحارب الرؤوس والشرفات والأعـالي . يعمل على تذويب الفوارق الذهنية والثقافية بين الناس ، لا يريد أذكياء ولا أقوياء ولا من يقاومون . بل الكل ركوع بغباء !

الدكتاتور إله او مجنون او عقل طفل . ان اشياءه هي اجمل الاشياء واقواها وانبلها ! فخططه وجيوشه وافكاره وانتصاراته واتباعـه ورعاياه هي اقوى وافضل وانزه من كل الجيوش والخطط والافكاروالانتصارات والرعاياوالاتباع، هو لا يخطيء ولا يضعف ولا يهزم ، وخصومه لا يهتـدون ولا ينتصرون ولا يقوون . والانتصارات مثل الهزائم ، كلتاهما تزيد جنونه حماساً — هذه تغريه وتلك تهيجه !

انه ليس مغروراً ولا انانياً ، ولكنه اكثر من ذلك !

*

هل الدكتاتور يعطي ، واذا كان يعطي فهل ما يعطيه يساوي ما يأخذه ؟ من الواضح انه يخلق حالة حادة من توتر المشاعر وحماسها ومن الآمال والرغبة والحركة والتحفز والبريق والرضا عن النفس ويخلق كـذلك انتصارات مدوية واحساساً وطنياً عنيفاً، ومن الواضح كذلك انه يحاول تغيير ما هو موجود وان يصنع منه مخلوقاً جديداً ويصبه في صور متحركة نابضة ، وان يحرك الهامـد ويمنحه الحياة ، وان يزين كل الشرفات ، ويضيء كل المنارات ، وان يرفع اعلام الدولة فوق مناكب النجوم ، ويزحم جميع المنابر بالخطباء ويضـع في ايديهم

السيوف المرهفة ، ثم يركب الشمس ويطل من فوقها على العالم ليتحداه ويتهدده ويطالبه بالتسليم والمبايعة .

ولكن هل هذا عطاء ؟ اليس نوعاً من ارهاق الدورة الدموية ومن الاسراع بنبضات القلب ؟ وهذا كله استهلاك ليس فيه انتاج . انه كالخفقان يرهق الجسم دون ان ينظم الحياة او يهبها القوة ! ثم ما هو الثمن الذي يتقاضاه ؟

ان انتصارات الدكتاتوروهزائمه مأخوذة من حسابات الجماهير . دعاياتهالهائلة الباهظة ومظاهراته وصهيله ومؤامراتهو مغامراته ، كل ذلك يُدفع من حساب المجتمع . ان الرصاصة التي يطلقها احد اعوان الدكتاتور على احد المعادين له في احد البلدان الاخرى ليدفع الجمهور ثمنها . وشراء الانصار ورشوتهم ! ما افدح الاثمان ، ان المقتول يدفع ثمن قتله !

الدكتاتورية معناها المغامرةوالاشتباكوالتصادم بكلالاشجار وكل الحجارة ، ومعناها البحث عن الخطأ والالم وعن الاثارة والعداوة والخوف والجنون .معناها المبارزة الدائمة ، المصارعة مع كل احد في كل وقت .لا وجود ولا بقاء للدكتاتورية من غير عداوة وغير اشتباك . وثمن هذا باهظ ، باهظ . والشعوب وحدها هي التي تسدده .

يظل رصيد الدكتاتور من الاعداء يتراكم حتى يبلغ النهاية الخطرة ، ولا دكتاتورية بلا نهاية حتى ولو باستنفادها لنفسها . وانتصاراتها وهزائمها سواء فيان لكل منهما ثمناً ندفعه نحن الشعوب — نحن الذين يصنعون الانتصارات ويصنعون الهزائم . وفي الحالتين نصنع الالم والتعب لانفسنا ولجيراننا وللتاريخ ،ونصنع المجد للاصنام .

ان الناس لا يحيون بالانتصار على الناس بل بالانتصار على الطبيعة ! والدكتاتورية محاولة فادحةالثمن للانتصار على الناس ! ويوجد انتصار واحدفقط هو ابهظ من الهزيمة ، ذلك هو انتصار الدكتاتور . ولم يدفع البشر ثمناً فادحاً مثل الثمن الذي يدفعونه حينما يحولون حياتهم كلها وقوداً لطموح احد المجانين ،

ولم يسرقوا سرقة اضخم من ان تنفق جمع امكانياتهم في الدعاية لاسم واحد،حتى المشروعات الانتاجية والاصلاحية تتحول الى دعاية !

*

يروع الناس احياناً من الدكتاتور انه لا يسرق اموالاً ليحولها الى اسمه،وانه يحيا بلا ترف !

ولكن ليست السرقة هي فقط ان تحول اموال الآخرين الى حسابك ، ذلك هو اصغر السرقات في المجتمع. ان اقبح السرقات واكبرها ان توجه كل جهود الدولة وكل اموالها الى بنوك الدعاية لك والى الوجوه التي تثبت مركزك وتعطيك القوة والبقاء والاستعلاء . وما حاجة الذين يملكون حرية التصرف المطلقة الى السرقة؟ ان السرقة نوع من العجز والتحديد . فالعاجزون والمحتاجون يسرقون ، اما القادرون على كل شيء فلا يسرقون شيئاً . وقد يكون الترفع عن سرقة المال ضرباً من التأله ، فالإله لا يتواضع ليملك مالاً .والذي تتحول رغبته الى السيطرة قد يزهد في تملك الاسهم والسندات والعقارات . والتفكير في حياة الترف ومظاهره شعور بالنقص ! وأفجر المتكبرين هو الذي لا يحتاج الى ان يكون انساناً فيه ضعف الناس ومشاعرهم واحتياجهم – هو الذي تتحول احتياجاته من احتياجات انسان ضال الى احتياجات إله متكبر !

واذا كان الجيش القوي هو اكبر مفاخر الدكتاتور فان هذا الجيش هو اكبر عملية امتصاص لحياة المجتمع لاعطاء القوة والبقاء والتألق لعدوه . والدكتاتور يصنع الجيش القوي لحماية نظامه وهيبته لا لحماية شعبه ! والجيوش كيفما كانت ليست عملاً من اعمال الحياة ! ان الجيوش ضد الشعوب مهما كانت لحمايتها !

ووجود الدكتاتور علامة على استعداد العقل العالمي للاصابة بالجنون ! ذلك انه لا يتألق الا في ظروف دولية خطيرة ، والمفروض في مثل هذه الظروف ان تكون في غاية الحساسية وان تكون عملية التوازن بينها دقيقة جداً ، قد يكفي اي عامل تحريض جديد ليجعلها تضطرب وتفقد كل ضوابطها ! لهذا كان ظهور

الدكتاتور علامة على الكارثة ، وكان دائماً هو اقوى جهاز لتفجير الحرائق الكبرى التي يسميها الناس بالحروب لانه يهيء الاحتكاك المدمر، ولأنه لا يقتات الا بالآلام والمخاوف والاحقاد والمناورات وبالتحريش بين الكتل والدول المتخاصمة . لقد ظل في كل التاريخ افضل عميل لإله الحرب !

وهو مهما كان تافهاً خليق بأن يهب الانسانية اكبر الآلام . فقيمة الشيء لا تساوي الشيء نفسه بل تساوي ظروفه ، تساوي اهتمام الآخرين به وتقديرهم له وتعاملهم معه !

واذا تحدث الدكتاتور مع ذلك عن السلام فلأنه لا يحترم شيئاً في الحياة — لا يحترم نفسه ولا كلمته ولا الذين يتخاطب معهم . وهل هو حقاً لا يحترم نفسه ؟ المفروض انه لا يحترم شيئاً غير نفسه ! نعم انه لا يحترمها وانما يطلقها ويفجرها كما يطلق ويفجر جواسيسه وأسلحته . وأول ما يحتاج اليه الدكتاتور أن يسحق كل مقاومات نفسه لتصرفاته المتحررة من فضائل الانسان ، ان عليه أولاً ان يتحول جهازاً لا انساناً لكي يصبح دكتاتوراً مثالياً !

الدكتاتورية شجرة لا تنمو إلا في الجحيم — في الحرب وفي الخوف من الحرب وفي التهديد بالحرب !

*

الحاكم الفاسد يسرق ، اما الحاكم الإله فهو فوق السرقة لأن السرقة تحديد ، وهو مطلق . الحاكم الفاسد يسرق لنفسه ، اما الحاكم الإله فيسرق لمجده ! والفرق بين من يسرق لنفسه ومن يسرق لمجده ، كالفرق بين من يدخل حرباً عالمية عامة ومن يقتل انساناً واحداً . الحاكم الفاسد يحرم على الشعب ان يقاوم أما الحاكم الاله فانه يعجز الشعب عن المقاومة ! الحاكم الفاسد قد يسلب الشعب حريته ، اما الحاكم الإله فانه يسلب الشعب رغبته في الحرية — الحاكم الفاسد يكذب ، اما الحاكم الإله فانه يعاقبنا اذا لم نحول كذبه الى صلوات وشعارات وطنية ! الحاكم الفاسد يعاملنا كخصوم ، اما الحاكم الإله فانه يتعامل بنا كأننا

أشياء ! الحاكم الفاسد يعادي من يعارضون ، اما الحاكم الإله فانه يقتل من يفكرون !

*

الانتخابات في عهد الدكتاتور عملية اعتراف بالاكراه بشرعية بقائه .

والكذب والادعاء والأزمات والمخاوف والاستبداد والمغامرات هي التبرير الوطني لشرعية وجوده !

*

المصانع والأعمال الانشائية التي يقيمها الدكتاتور لا يراد بها ان تكون مصانع ومنشآت بقدر ما يراد بها ان تكون حرساً خاصاً يحمي الدكتاتور ، وتاجاً يغطي الآثام الكبيرة التي تجلل رأسه ! ولهذا فانها لا تخضع لقانون الربح والخسارة لا تخضع للعمليات الحسابية أو التجارية ، بل تخضع لقانون الدعاية. ولا يسأل هل تخدم الشعب والوطن — هل هي الحل الأفضل والصورة الكاملة ، وانما يسأل : هل تقوي الدكتاتور وتهبه البريق الذي لا بد منه ؟

في النظام الديمقراطي يصل الرجل الى الحكم أو الى منصب المسؤول من طريق الانتخابات العامة أو التصويت الخاص ، وهذا الاسلوب ليس مثالياً وفيه نقص خطير . انه يجب ان يضاف اليه شيء آخر قد يكون أعظم !

الذي يصعد الى الحكم أو الى منصب المسؤولية الكبيرة يجب ألا يكون مريضاً ولا منحرفاً — يجب ان يكون سليماً وسوياً من الناحية الطبية والنفسية وان تشرف على التأكد من ذلك هيئة محترمة جداً من الأطباء وعلماء النفس قبل ان يجرى عليه التصويت ، وقبل ان يرتفع الى الحكم او الى المنصب الخطير . ويجب ان يبقى دائماً تحت الكشف ! وتوقيع الأطباء وعلماء النفس على صحة الحاكم وصحة المسؤول الكبير أعظم وألزم من انتخاب السوق وتصويت البرلمانات واللجان المختلفة ! وانتخاب هؤلاء الأطباء للحكام والمسؤولين أفضل وأوجب من أي انتخاب في هذه الدنيا !

وتبقى المشكلة حينئذ هي الحكام المرضى الذين يصلون الى الحكم من طريق السيف ! فوصول المريض الى الحكم او الى المنصب المرتبط بالمجتمع او بالوضع الدولي الحساس ينطوي على احتمالات أليمة وعلى أخطار عالمية ومحلية !

والحاكم المريض وكذا المعلم المريض ، تتحول آلامها وأمراضها الى حكم وتعاليم ، فاذا حكم أو علم المريض فالمعنى ان المرض هو الذي يحكم ويعلم !

والمرضى والمنحرفون خليقون بأن يظفروا بأصوات السوق ، لأن المريض والمنحرف يكون في العادة حاداً ومتطرفاً وقاسياً وصاخباً ومبالغاً وكذاباً وعصبياً جداً ومثيراً للأسى والاشفاق والألم . وهذه هي المزايا التاريخية العظمى التي كانت دائماً تجتذب اليها ايمان الجماهير واعجابهم وتصفيقهم !

وغالباً ما نجد في التاريخ ان غير الأسوياء وغير الأصحاء هم الذين كانوا يقودون البشر ويحكمونهم ويهبونهم الحكمة والاقتناع ، وكان البشر يستجيبون لهؤلاء المرضى اكثر من استجابتهم لغيرهم لأنهم كانوا اكثر من غيرهم يتصفون بهذه المزايا العنيفة التي تثير حماس السوق وتسيطر على انفعالاتها ! وآلام الانسانية وأخطاؤها الضخمة وتعاليمها المتوهجة العصبية مدينة بوجودها واستمرارها وانتصاراتها الباهرة لهؤلاء المرضى المتفوقين !

ولم تلعن السماء الأرض بلعنة أكبر من ان تضعها في قبضة حاكم أو معلم مريض أو منحرف ! فالحاكم المريض لا بد ان يكون سلبياً عاجزاً يخشى كل حركة وكل تغيير لما هو موجود ، او مخاطراً الى حد الجنون ، يعالج آلامه وانفعالاته الحادة بخلق الأزمات وبالاندفاعات القاتلة . وهو دائماً يقدر المواقف التي يواجه وموضوع المحافظة على الكرامة تقديراً مصاباً بمرض الحساسية الخطير .

ولا بد ان نعلم هنا ان الصحة ليست مقدرة بما في الجسم من كيلوجرامات بل الصحة حالة عضوية وكيمائية وتوازن نفسي . وأعظم ظاهرات المرض المبالغة في تقدير الذات ، فالحاكم الذي يؤله نفسه ويريد ان تكون له وحده المشيئة والتصرف والغلبة مريض ، لأن الطموح الجنوني والثقة المطلقة بالنفس والشعور بلذة الاستعلاء على الآخرين وإخضاعهم وتحمل مسؤولية التاريخ كلها حالة

مرضية . والأسوياء لا يجدون في شيء من هذا لذة ولا سروراً، بل يشعرون انه أسوأ صور العذاب والتعذيب – العذاب للنفس والتعذيب للآخرين ، والمرضى وحدهم هم الذين يجدون لذة في تعذيب أنفسهم وتعذيب غيرهم .

ولو كان الناس جميعاً أصحاء وأسوياء لما وجد من يرضى بأن يحمل على نفسه كل هذه المسؤوليات ، ولا من يحب ذاته حتى العشق والعبادة فيراها وحدها جديرة وقادرة على ان تريد للناس كلهم وتفكر لهم كلهم وتفعل لهم كلهم وان تكون أقوى منهم مجتمعين ! ولما وجد ايضاً من يشعر بنشوة غامرة بإذلال الآخرين وتحقيرهم وخضوعهم وهتافهم ! ان الذين يحبون ان يحولوا ذواتهم الى آلهة يعبدها الناس والتاريخ ، هم قوم مرضى بأخطر الأمراض وأشدها كآبة ووحشية !

الانسان السوي يحيا ذاته – كل ذاته . والذي يحيا ذاته مفروض فيه ومشروع له أن يفكر ويسمع الموسيقى ويكون له أصدقاء ويكون هو صديقاً ، ويعامل الناس ويعاملوه بمحبة وشرف ومساواة ، ويأكل الطعام الجيد ويشرب عصير الفواكه الحي والمعتق ، ويحيا حياة رخية نظيفة ، ويعمل ويطور عمله ، ويكون ناجحاً ، وتكون له زوجة وأولاد أذكياء أصحاء، ويترنم بالأغاني بعض الاوقات بصوت مسموع ومرح لا يخفى ، ويصفق له الناس اعجاباً بكثير أو قليل من مزاياه ، وأن يحب نفسه حباً مهموساً أو حباً غير منطوق ! ولكن ليس من حياتك ذاتك ان تصبح قيصراً ويصبح الناس لك عبيداً ، أو أن تصبح ضجيجاً يثقل سمع الدنيا، أو تمثالاً كبيراً يقف على مدخل التاريخ كأنه يحرسه، لتمر جميع الهامات من تحتك ، من تحت قدميك ! انك اذا أحببت نفسك هكذا أو حاولت ان تكون هكذا فلا بد انك مريض مرضاً خطيراً !

لماذا تريد ان تكون قيصراً ؟هل لانك تريد مصلحتك او لانك تريد مصلحة الملايين التي تفرض عليها ان تحيا داخل ذاتك ؟ ليس لك مصلحة في ان تكون إلهاً ، بل هذا هو العذاب والخطر.عذاب لنفسك لانك تشعر انك المسؤول الاول او المسؤول الوحيد. وما اقسى الوحدانية – ما اقسى وحدانية المسؤولية ! لقد حملت

المسؤولية كلها وحملت الملايين على ان يعتمدوا عليك ويثقوا بك وينتظروا منك ان تفعل لهم جميع ما يريدون وتدفع عنهم جميع ما يكرهون – حملتهم على ان يثقوا بك كإله !

وهذا له وجهان : وجه نفسي ووجه عملي .

فمن الناحية النفسية لا اقسى ولا اشد عذاباً لك من ان تشعر ان الناس –كل الناس – قد وهبوك ثقتهم ، او فرض عليهم ان يهبوك كل ثقتهم . هذا تعذيب لنفسك وتوريط لا رحمة فيه . فالثقة المطلقة بأي انسان قتل لذلك الانسان ! واني لأعجب كيف لا تموت الآلهة من شدة ثقة المؤمنين بها ! كيف لا تموت من الحياء والحرج والمسؤولية ؟

ان كثيراً من الحكام المطلقين الذين وضعوا انفسهم فوق عروش الآلهة كانوا ينتحرون بأساليب متوهجة مثيرة من اساليب الانتحار . كانوا يشبون الحروب ويصنعون الأزمات والمشاكل ويجربون كل ضروب الحماقات والمقامرات الجنونية ، وكانوا يفعلون هذا تحت ضغط شعورهم بأنهم قد فرضوا على الناس ان يثقوا بهم ثقة مطلقة ،وانهم هم قد وضعوا انفسهم في هذا المضيق وان الجماهير تحت اقدامهم راكعة متوسلة تنتظر ما يفعلون بايمان او باذلال . والآلهة لا يمكن ان تكون معتدلة ولا صانعة للسلام ! كما ان اخلاقها واعصابها لا بد ان تكون متوترة !

واما من الناحية العملية فما اسوأ حال ذلك الحاكم او الزعيم الذي يفرض على نفسه ان يعمل للناس كل افكارهم واتجاهاتهم ونظمهم ومذاهبهم ، وان يصنع لهم الحياة والرخاء والمجد والحرية والحماية ! انه لا يوجد اشقى من ذلك الحاكم او الزعيم ، كما لا يوجد من يعادي نفسه ويعذبها بمثل هذه القسوة والضلال !

ان الحاكم السوي المحكوم بالقانون وبالمجتمع ، والذي لا يأخذ شيئاً من المزايا الضخمة التي يأخذها الحكام المطلقون او الموثوق بهم ثقة مطلقة – ان مثل هذا الحاكم الضعيف لأحسن حظاً من اولئك الحكام الاقوياء الذين يحكمون الشعوب كآلهة، ويعدونها كآلهة، ويفرضون عليها الايمان بهم كآلهة، ويحيون فيها كآلهة! والانسان هو دائماً اسعد من الإله ! كل انسان لا يستطيع ان يعيش باكثر من

شعوره ولا ان يستمتع بحدود اوسع من حدود ذاته . فالانسان الإله مهما ملك واستقوى وتصرف فهو محدود بذاته وبمشاعره واحتياجاته وبقدرته على الحياة، فالحاكم الإله لا يستطيع ان يحيا بأعمق او بأوسع او بأعلى مما يستطيع ان يحيا الحاكم الضعيف او الانسان العادي . فلا مكاسب ذاتية او شعورية خاصة لمن يملكون كل الاشياء !

اما الخطر ، فما افدح الاخطار التي تهدد من يريدون ان يحكموا المجتمعات كآلهة ، هؤلاء اما ان يظلوا دائماً آلهة : لهم قوة الآلهة وجبروتها وقداستها ونزواتها واخطاؤها واعاصيرها . والا فلا بد ان يصابوا بالموت او الشنق او السقوط ! ولا يوجد اكثر تعرضاً للاخطار من الآلهة . والآلهة القوية هي اكثر الآلهة استعداداً للاصابة بالامراض المستعصية مثل امراض الدم والقلب والاعصاب

اذن لا توجد مصلحة للحاكم الإله في ان يكون كذلك ، فلمن اذن المصلحة؟ هل هي للمجتمعات التي تحكمها هذه الآلهة ؟ لا توجد ايضاً مصلحة لهؤلاء في مثل هذا الوضع لان الحاكم الإله لا يستطيع ان يصنع غير ما تستطيع ان تصنع جماهيره . فهو لا يعطيها شيئاً وانما يعطيها ذاتها ، عملها ، قوتها ، امكانياتها ! هو يجعلها تثق به وتعتمد عليه وتستسلم له وتتنازل عن حريتها وكبريائها تحت قدميه بدون اي ثمن ! انه مثل آلهة القدماء التي كانت تنصر المؤمنين بها على اعدائهم وتمنحهم الرزق الوفير . ولكنها لا تفعل ذلك الا اذا فعلوه هم اولاً لأنفسهم - اي ان ما يفعله المؤمنون كان ينسب الى الآلهة التي كانت هي ايضاً من فعل اولئك المؤمنين ! وكل ما يستطيع فعله ذلك الزعيم الرب ان يأمر ويمنع ويختار احد المواقف ، ولكنه في هذا لا بد ان يكون متكافئاً مع طاقة جماهيره وظروفها والا كان انتحاراً . ونتيجة اختياره للمواقف انما تفصل فيها ايضاً تلك الجماهير والظروف الاخرى . ولهذا كان يحدث في التاريخ ان هؤلاء الزعماء الآلهة كانوا يعطون الهزائم والفناء اكثر مما يعطون الانتصارات والقوة ، وذلك حينما يتحركون خارجين على الظروف وعلى احتمالات الموقف الذي يواجهون ، وحينما يعملون تحت ضغط طموحهم وعبقريتهم الخاصة المتفردة . واي تدمير يصيب اي

شعب في اية مغامرة انما كان سببه زعيماً اراد ان يكون اكبر من الناس ومن نفسه. والخسائر التي تسببها الزعامة القوية المستبدة اضخم جداً من الارباح التي تعطيها، لان الآلهة لا تفعل وانما تشتهي وتطمح وتأمر ثم تتربع فوق ما يحدث وتتكلم باسمه ! لا يصنع ذلك الحاكم الإله غير أن يضع اسمه وصورته على جماهيره لكي يصبح المجتمع هو هذا الاسم وهذه الصورة فقط . ولأجل هذا الثمن الكاذب كان يحول تلك الجماهير الى طوابير من الاطفال يؤلف لهم الاغاني والاناشيد الطيبة المرحة في تمجيده لينشدوها بين يديه في المواسم الكثيرة ودائماً ، متفضلاً بالاستماع اليها باعجاب ونهم وتلطف وسرور ، أومتفضلاً بالاعراض عنها ان شاء. ثم يرمي لهم بقطع الحلوى التي صنعوها هم، ويصر على ان يظلوا اطفالاً لا يكبرون ،يعدهم بالحلوى ويلقي بها اليهم كلما احسنوا النشيد والتأدب واجادوا فن الطاعة له !

*

ان الحاكم الإله يجعل الناس موضوعات لذاته ، لا ذاته موضوعاً للناس، وهو يعمل فيهم ليحقق وجوده هو كجبار ومبدع وخالق ، لا ليحقق وجودهم هم ، وهم بالنسبة له أشياء مثل الأخشاب ومادة التمثال بالنسبة للنجار والمثال . واذا أجاد العمل والحكم وحاول أن يعطي شيئاً فكما يجيد النحاتون أعمالهم الفنية ، كما يجيدون أعمالهم في الحجارة – لا يفعل ذلك لأنه صديق أو رحيم ، بل لأنه يريد ان يكون متفوقاً قاهراً ، ويريد أن يبرر كينونته المطلقة وأن يتلذذ بشعور التفوق والتفرد والغلبة . والعطاء مثل القتل في حسابه ، لأن القتل والعطاء كلاهما عملية تفوّق ، وهو لا يبحث إلا عن التفوق . وليس في نيته أن يصنع الخير بل المجد لنفسه ! يعمل للخلود لا للفضيلة ، وفي سبيل المجد والخلود خدعت أفضل جهود الانسان وحولت الى وقود لشهوات الأرباب المرضى .

إذن لا مصلحة للشعوب ولا للحكام في ألوهية الحكام !

ان الحاكم الإله مظلوم ومعذب ، وان الشعب كذلك مظلوم ومعذب ! فهل يمكن أن يوجد رجال أسوياء أصحاء يسعون أو يقبلون أن يكونوا حكاماً آلهة

يملكون امتيازات الآلهة وتبعاتها وآلامها الفكرية والنفسية وخصائص وجودها الرهيب ؟ لا بد ان يكون هؤلاء الرجال مرضى لكي يفعلوا ذلك ! ان مهنة الألوهية هي أخطر مهنة وأتعسها وأقلها حظاً من السعادة والسرور والأمان والراحة ، وأحقها بالشفقة الكئيبة !

وحينما تزول الأمراض والآلام فلن يوجد في الارض من يرضى بتنصيبه إلهاً على الكون !

*

لا يبحث الدكتاتور عن الأفضل بل عن الأضخم ، ان هرماً واحداً كبيراً لأفضل لديه من ملايين الاهرامات الصغرى ، لا يعجبه ما ينفع الناس ولكن ما يبهرهم . الأشياء الصارخة هي دائماً ألعابه المختاره . وقد تكون الحرب والمبارزة الدائمة مع الخصوم هي أخطر أساليبه في البحث عن هذه الأشياء الصارخة !

لقد ضاعت أعظم جهود البشر في تشييد القبور والقصور والمعابد والتماثيل والميادين وفي هدم المدن وانشائها ، وفي إعداد الجيوش والاحتفالات والاستعراضات وفي الدعاية والخطب واقامة الزينات امام المواكب ، وفي المشروعات الدعائية والامور الاخرى التي لا يقصد بها إلا إرضاء رغبة الدكتاتور في بحثه عن الضخامة والاثارة وعما يذل الجماهير .

حتى العلم لقد أخضع لهذه الرغبة المريضة في الطغاة ، إذ سخر في حالات كثيرة لما يبهر لا لما ينفع !

ولم يزل الطغاة في جميع العصور يأكلون لحوم الانسان وابداعه ويحولون كل حياته الى غذاء لشهواتهم المنحرفة . حتى الحكام الفضلاء ظلوا يفعلون ذلك ايضاً . وليست الحروب والمذاهب والوطنية العدوانية والمشاريع الكبرى ، إلا عمليات زفاف لا تنتهي لشهوات الطغاة بل ولشهوات الزعماء الفضلاء !

وقد تتحول روح الدولة الى دكتاتور ، واذن فكل الدول حتى الدول الديمقراطية قد تتخلق ببعض اخلاق الدكتاتور وتتقمص بعض صفاته . والمأساة

ان الجماعة اية جماعة كيفما كان مستواها الحضاري والنفسي لا بد ان تتحول على نحو ما الى موائد وتعبيرات للقادرين تقتات بها شهواتهم ويعبرون بها عن ذواتهم الخاصة وعما فيها من شذوذ وغرور وضعف! فالطغاة، بل وحتى الحكام والزعماء الطيبون لا يبحثون عن كرامة شعوبهم او رخائها حينما يحاولون ان يعطوها المجد او الهوان، وانما يتغذون بها!

وابشع ما في الدكتاتور انه اعتداء على الرجولة. انه يسحق رجولة الرجال ويحطم شرفهم وكبرياءهم، ويحول المجتمع الى قطعان من الخصيان الفاقدين للفحولة العقلية والاخلاقية، المستريحين من معاناة البطولة والذكاء والشرف، بل ومن معاناة الغضب واستبشاع البشاعات

*

واذا لم يصب الدكتاتور البشرية بمعانيه البشعة فالسبب في ذلك ضعفه لا حبه للانسانية ولا احترامه لها ولا حصانته العقلية او تقديره للامور تقديراً سوياً!

*

ان أعلى مراحل الطغيان للدكتاتور وأطغى مظاهراته المثيرة أن يصل الى المرحلة التي يجرؤ فيها على ان يعلن نقده لنفسه. واعلان الدكتاتور نقده لنفسه نوع منكر من الكبرياء والتباهي والخداع والبذاءة، وهو الصورة النهائية للفراغ من عملية الاذلال للمجتمع وإضعافه وسلبه كل أنواع المقاومة والاحترام للنفس.

والدكتاتور حينما يعلن نقده لنفسه كأنه يريد ان يقول للمجتمع: أنت لست أهلاً لشيء لا للنقد ولا لغيره، لأنك أقل وأضعف وأجهل من أن تعرف ما يجب نقده في زعيمك أو تجرؤ عليه. وأنا — انا الزعيم الإله فاضل وعادل وشجاع وحر الى المدى الذي يجعلني أنا الشيء وأنا الثائر على الشيء — أنا الوجه وأنا المرآة — انا الإله وانا المصلح للإله! ولا يوجد شعب يقتات بالهوان مثل شعب يمن عليه حاكمه بنقده لذاته اي بتظاهره بذلك بينما يحرم على الشعب نفسه ان ينقد هذا الحاكم. وكم هو قبيح وتواضع مهين لمن يوجه اليه هذا التواضع ان

يلعن الحاكم نفسه بدلاً من ان يباح للشعب ان يلعنه اذا كان لا بد من لعنه ! ان نقد الطاغية لنفسه اسلوب لئيم من اساليب التأله والوقاحة والتضليل ، هو ضرب من التحدي لاخلاق المجتمع ورجولته وذكائه ، وضرب من الحديث عن الملابس الداخليـة تعبيراً عن الرغبة في الاثارة والتحقير والاستهزاء ، لا عن الرغبة في في التطهر او العلاج او التوبة او الصدق ! وليس اعلان النقد للذات في كل حالاته الا محاولة للثناء على الذات — هذا في الناس العاديين . امـا الطغاة حينما ينقدون انفسهم فهم يعنون ما هو اكثر جداً من الثناء على النفس ، انهم يحاولون تبرير اخطائهم الكبيرة والاعتذار عنها بالاعـــتراف بأخطاء صغيرة هي في حسابهم حسنات كبيرة دون ان ينووا التوبة منها ، بل يحاولون بهذا الاعتراف ان يحولوا جميع سيئاتهم الى مزايا يشكرون على الاستمساك بهـا . انهم يعترفون حيث لا يمكن الانكار ليحولوا هذا الاعتراف الى انكار ، فهو اعتراف يعني اسوأ اساليب الانتهازية . يريدون ان يقرروا انهم موازين انفسهم ومصححوها ، فهم لا يحتاجون الى مصححين لانفسهم من خارج انفسهم ! ان الاعتراف هو دائماً محاولة لتسويغ الخطأ ، وليس محاولة للاقلاع عنه .

ومع هذا فالدكتاتور حينما يعترف انما يعني الاعتراف ضد رجاله ومجتمعه لا ضد نفسه ، فهو مثل الإله الذي يلوم عبيده اذا ضعفوا مع انه هو الذي خلقهم ضعفاء !

*

والدكتاتور يجد سعادة في ان يتحدث ويأمر اجهزته بأن تتحدث بمبالغات كبيرة عن هزائم وآلام وطنه وقومه التاريخية ، ويتحدث ويأمر بالتحدث كذلك عن زعماء وطنه السالفين الذين هزمهم الأعداء او هزمهم فسادهم وضعفهم فركبهم الهوان وذهبوا ولم يكسبوا اي خير او مجد لوطنهم او لأنفسهم . وهو يريد بهذا ان يتفرد وحده بانتصارات الحياة وأمجادها ، وان يقتنع ويقنع الدنيا كلها بأن التاريخ إنما ولد بين يديه ، إنما خرج من صلبه ، وانه لم يكن يوجـد قبله إلا

الهزائم والعار ، وانه هو الخالق الأول والوحيد لأمجاد قومه ووطنه ولأمجاد التاريخ كله . إن أعظم ما يفسد على الدكتاتور رضاه عن نفسه وينغص عليه شهوته بالتفرد أن يكون له شركاء في أي مجد قد مضى أو مجد قد يأتي . وهذه علة أصيلة وبعيدة المدى في أعماق نفس أي دكتاتور متأله !

انه يعشق التاريخ الذليل المهزوم الملوث ، ويكره ان يكون تاريخاً نظيفاً أو عزيزاً أو كريماً . ولهذا لا بد أن يزور ما كان . وقد يود أن يحرق جميع الوثائق التي تناقض هذه الغاية اذا لم يجد وسيلة اخرى ! ان الدكتاتور انسان عاشق لعار التاريخ، يريد ان يكون كل شيء فيه فضائح وهواناً وخيانة وعفونة، ليكون المعالج المقوم له المدعي لأبوّته الصالحة المبدعة ! آفة كل دكتاتور مهما كان صغيراً وضئيلاً انه يريد ان يكون الطبيب العالمي للتاريخ ! يريد ان يكون الوالد والمولد لكل مجد. يريد ان يكون الزوج والعاشق والمعشوق والآب والابن وروح القدس . انه يريد ان يعيش في زفاف دائم ، وان تدفع تكاليف زفافه من رخاء الانسان وحريته وسلامه ودمه وذكائه . انه زفاف يتألف موكبه من الخوف والتهديد والضغط والتهريج والكذب والاستعراضات والحرمان ومن الحرب أحياناً !

*

ان أشد الناس تعاسة هو الدكتاتور حين لا يجد معارك يخوضها ولا أعداء يتغذى بعداوتهم والتشنيع عليهم . والدكتاتور لا يسعد بشيء يملكه ، حتى الانتصارات الكبيرة لا تستطيع ان تسعده ولا ان تشفيه من همومه العدوانية ولا من أشواقه الدائمة الى المعارك والخصومات ، بل قد تعذبه هذه الانتصارات كما تعذبه الهزائم !

الدكتاتور لا يقاتل أو يعادي ليكسب معركة أو ليهزم خصماً ، ولكنه يقاتل ويعادي نفسه – يقاتل ويعادي أشباحاً تسكن أعماقه . وانتصاراته في معاركه وعلى خصومه لا تقهر أشباحه النفسية بل تزيدها ضراوة وتوحشاً واكتئاباً !

ان آلام البشر وهمومهم وتجاربهم المريرة وكل نقائصهم قد تتجمع أحياناً في نفس انسان ما ، لتشوهها وتملأها بالفزع والقسوة والحقد والمرارة والفظاظة وبالحروب والخصومات غير المعقولة . وتحاول هذه النفس أن تخفف من عذابها بتوجيه أبالستها الى الخارج ، أن تقذف بهم في أية معركة خارجية بدون أي هدف خارجي ، فتحارب وتخاصم وتنتصر أو تنهزم ، ثم تظل كما هي وفي كل الحالات كئيبة عدوانية حاقدة ساخطة تبحث عن المغامرات والعداوات والهموم والآلام . ان أي دكتاتور لا يتعامل مع الأحداث التي يعيش فيها أو يصنعها ، وانما يتعامل مع الأشباح المتوحشة التي تعيش فيه وتنهش كبرياءه وأفكاره وهواجسه ، وتضطره الى ان يحاول التخلص منها وتحويل ضغطها عليه الى العالم الخارجي حوله لتعذبه وتعرضه لأبشع الأخطار والآلام . ليست الأحداث التي يصنعها أو يعيشها الدكتاتور إلا طعاماً يقدمه لهذه الأشباح المتحاربة داخل ذاته لتكف عن افتراسه ! حتى الاصلاح والانتصار ليسا مطلبين مقصودين له ولكنهما تعبيران غير مهذبين من تعبيراته الفرارية عن حالته النفسية القاتمة . ان إلقاء القنابل على أية مدينة جميلة لا يعني في حساب الدكتاتور وفي ارادته التعبير عن نفسه ، إلا ما يعنيه انشاء الحدائق في الميادين العامة .

كل دكتاتور شقي في نفسه ، لهذا يصنع الشقاء للآخرين !

لقد تجمعت في نفس الدكتاتور شحنات هائلة من الانفعالات الأليمة ثم تحولت هذه الشحنات الى وحوش ضارية ، فهو محتاج حتماً الى اطلاقها خارجياً ، وهي كذلك لا بد أن تنطلق حتى ولو حاول ضبطها ووضعها في أقوى الأغلال . ليس الذي يحتاج اليه الدكتاتور ليسعد ويشعر بالرضا والحب هو الانتصارات ، بل السلام مع نفسه . ان الخطر عليه ومنه ان مشاكله في داخله . انه يظل دائماً جائعاً مهما التهم من الطعام والدماء أو من الآلام والمشاكل. فهو الحيوان العجيب الذي يشتد جوعه بالتغذي .

واذا كان جميع الناس لا يتعاملون مع الأحداث بل مع أشباحهم ، فمشكلة كل دكتاتور ان اشباحه تكون اعظم قوة وتوحشاً ، وانه يملك في يديه الوسائل

القوية التي يستطيع ان يسلح بها هذه الأشباح على أعلى المستويات !

الدكتاتور عقاب لنفسه قبل ان يصبح عقاباً للمجتمع ، هو لا يستطيع ان يبتسم من داخله أو يرضى أو يشعر بالاطمئنان ، حتى احلامه لا بد ان تكون احلاماً متوحشة ، فيها دماء وتدمير وسقوط ومؤامرات. ليس ابتسامه إلا نوعاً من الأنين والكآبة والوحشية . في أعصابه كل حروب الدنيا ومخاوفها وكآباتها . انه ظالم ولكنه ايضاً مظلوم ، معذب متعذب ، مخيف بقدر ما هو خائف . جميع صيدليات العالم واكتشافاته الطبية والعلمية لا تستطيع ان تشفيه من آلامه الذاتيـة التي يتداوى منها بخلق الأحداث والأزمات الأليمة . تجيء أعماله كانفجارات مرضية يعاني منها، لا كولادة يستريح بعدها ويجد فيها الحب والأمل والبهجة والمستقبل . ان التكوين التاريخي والنفسي للدكتاتور لا بد ان يكون تكويناً أليماً موحشاً ، لهذا لا بد ان تكون صناعة الحقد والألم والتغذي بهما احدى مواهبه التي يتفوق فيها ، واحدى لذّاته المفترسة ! ان أسوأ عالم لدى أي دكتاتور هو العالم الذي تمتنع فيه الحروب والمؤامرات والبغض والعذاب . ولو وجد مثل هذا العالم لمات فيه الدكتاتور مختنقاً كما تموت أية حشرة اذا لم تجد ظروفها الملائمة !

*

الشعب في عهد الدكتاتور كالإله في المجتمع المؤمن — له كل التعظيم والامتداح والمداهنة . كل الأعمال باسمه ، وكل الحديث عنه واليه ومن أجله ، تصاغ فيه اقوى اناشيد البلاغة والحماس ، وتقترف تحت شعار العمل في سبيله والدفاع عن كرامته أبشع المظالم والحروب والمغامرات ، وأبشع أنواع الاعتداء عليه وعلى حرياته . أما عند التطبيق فهو الملك الذي يملك ولا يحكم ، بل فهو الملك الذي لا يحكم ولا يملك. وكما يفعل المؤمنون كل الحماقات والشعارات والمواقف المتناقضة باسم الإله، كذلك يفعلها الدكتاتور باسم الشعب . انه يرتكب جميع التناقضات تحت شعار واحد ، وينادي بكل الشعارات المتناقضة في مواكب من الاعلان

والمباهاة. يسرق الشعب في عهد الدكتاتور ويهان ويقتل ويكبل بأطغى القوانين والتشريعات المعادية الجاهلة دفاعاً عنه – يدافع عنه بالاساءة اليه والكذب عليه والكذب به وبالإذلال والتحقير له ، يقتل في الطرقات والمغامرات والحروب كذباب ثم يصلى على روحه الطاهرة ويرثى بأبلغ الخطب ، يضحى به احتراماً له. كل المغازلة له وليس له شيء من الحب . ليس للإله في المجتمع المتدين ولا للشعب في زمن الدكتاتور من الأمر سوى الاسم والبسمة – لهما التوقيع على جميع الأشياء وليس لهما سيادة على أي شيء . حتى التوقيع ليس بيديهما ولكن بأختامهما . لا وجود لهما إلا في التحدث عنهما . ان الآلهة محقرة مستضعفة في مجتمعات المؤمنين كالشعوب في مجتمعات الطغاة . ومع هذا فلا أحد يتحدث عن أمجاد الشعوب اكثر من الطاغية ، ولا أحد يتحدث عن أمجاد السماء مثلما يتحدث المؤمن الضعيف السلوك .

*

في زمن الحاكم الفرد يتحول الشعب وكل ما فيه الى عمليات استعراض صارخة وقحة متواصلة لذات مريضة واحدة ، حتى التشكيلات والشعارات المضادة في لغتها للفردية المشابهة لتعبيرات الديمقراطية ، ليست إلا توكيداً لهذه الفردية ولهذه العمليات الاستعراضية التي تتعاطاها ذات واحدة باهظة الثمن . ما أغلى الدكتاتور ، ما اعظم ما يأخذ من الحياة وأحقر ما يعطي . ان ذات الدكتاتور هي أغلى ذات ظلت الانسانية تدفع ثمنها على امتداد تاريخها . الدكتاتور اكبر سارق لدماء البشر ورخائهم وحريتهم وكرامتهم. ان دماء الشباب ممزوجة بأقوى الخمور ، هي اشهى الأطعمة الى كل دكتاتور .

حتى الايمان بالله والدفاع عن الأنبياء وتشييد المعابد وادخال الاضاءة القوية اليها ، لا بد ان يكون القصد بها استعراض هذه الذات الشاذة التي تريد ان تحول كل الأشياء ، حتى الآلهة والأديان الى أدوات استعراض في المعرض الكبير الذي يتحول اليه المجتمع في وقت ما ، ليعرض جنون انسان ما . ان تكبير الله والثناء

عليه وعلى شرائعه وعلى تدبيره في الكون لا يعني في عهد الدكتاتور اذا نطقت به أجهزته او خطبه غير الهتاف لذلك الدكتاتور والثناء على عبقريته الملهمة الخيرة. الدكتاتور يغازل نفسه ويبتسم لها وينظر اليها في المرآة اكثر مما تفعل أية غانية متهتكة ، كل اعماله وقوف امام المرآة. اذا حارب او صادق او أنشأ مصنعاً او تشريعاً أو خطب فهو انما ينظر الى صورته بأسلوب غزلي مفضوح . كل الاشياء يجب ان تتحول الى أدوات زينة والى مرايا لينظر بها الطغاة الى انفسهم حيثما كانوا ونظروا . ان كلمة : ما اعظم الله ، لا يقصد بها إلا ليعش القائد ، وان كلمة : الكون جميل ، لا تفسر إلا بأن العهد الذي نعيش فيه هو اجمل العهود ، وان اي شيخ أو رجل دين يذيع او يكتب حديثاً في تفسير القرآن او شرح الحديث النبوي ، لا يمكن ان يكون الحافز المتخفي وراء هذا الشيخ ووراء أحاديثه وبحثه عن الله وعن الطريق الى الاستقامة ، غير الامتداح لذلك الحاكم المطلق الذي سخر جميع ما في الدولة وما في المجتمع ليصبح كله ثناء عليه حتى اذاعة الأحاديث الدينية واضاءة المآذن في المناسبات ، وحتى البحث عن الله وعن الآخرة !

ان شهوة تحويل الناس والأشياء الى عملية استعراضية لفرد طاغ مريض قد كلفت الانسانية على امتداد تاريخها أبهظ الأثمان ، ولا تزال تكلفها . وليست الحروب في كثير من حالاتها إلا هدية من الجحيم يبعثها دكتاتور ما الى أهل الارض تعبيراً عن هذه الشهوة الاستعراضية . فقد يكون اشعال الدكتاتور للحرب هو اعلى اساليبه الجنونية في البحث عن وسيلة شريرة جداً لاستعراض ذاته امام ذاته .

ان الحرب كصورة من صور الاستعراض الذاتي امام الذات لا مثيل لها في الاثارة والبشاعة والإشباع . ولو استطاع العلم في يوم من الأيام ابتكار طريقة علاجية لشفاء هؤلاء الرجال الباهظين من هذه الرغبة الاستعراضية ، لكان ذلك من اعظم انتصارات الانسان العلمية .

*

وتوجد في الانسان رغبة اخرى قد تختلط بالرغبة الاستعراضية – تلك هي الرغبة في الانتصار . ان الرغبة في الانتصار جنون قديم في البشر . لقد حولوا هذا الجنون في تعاليمهم المتوارثة الى احدى المزايا العظيمة التي يحاول التطلع اليها والتلبس بها كل الناس ، حتى أغباهم وأقلهم شأناً . ولكن كم مات البشر وتعذبوا وخسروا وتعادوا وقاسوا من الهزائم لأنهم كانوا يسيرون وراء رجال ضالين كانوا يسيرون وراء الانتصارأت ـ الانتصارات على آخرين ، كانوا هم ايضاً مثلهم يبحثون عن نفس هذه الانتصارات بنفس الجنون والحماس والمخاطرة. ان ارادة الانتصار نوع من الشذوذ الخطير . فالانسان الطبيعي ليس هو الذي ينتصر أو يريد الانتصار ، كما انه ليس هو الذي ينهزم أو يريد الانهزام . فالانتصار كالانهزام كلاهما خروج على الصحة والاستقامة . واذا كانت الهزيمة شراً لأنها إذلال للانسان ، فان النصر كذلك لأنهما شيء واحد . والسعادة ليست هي ان تشعر الناس بالمرارة والهوان ، ولا ان يشعرك الناس بالمرارة والهوان .

ان المجتمعات تشوه الناس وتصيبهم بالانحرافات ، لهذا يحاولون ان يتعالجوا من تشويه المجتمعات لهم بأن يشوهوا هم أنفسهم مكرراً . ولن يشوه انسان نفسه بأفظع من ان ينتصر على انسان آخر . فالانتصار تشويه للمنتصر بقدر ما هو تشويه للمنهزم . ان المنتصر إما ضارب شاتم للناس أو سارق لهم ، وهو ليس فاضلاً ابداً بانتصاره ، لأن الانتصار لا يكون فضيلة إلا اذا كان إذلال الناس والاعتداء عليهم والسخرية منهم فضيلة ! ان الناس حينما يتعالجون من آلامهم بمحاولة الانتصار على الآخرين ، انما يحاولون ان يتعالجوا بما يزيدهم مرضاً وتعاسة وخوفاً واحتمالات هزيمة . والمنتصر يتعذب ويخاف ويخسر ويتوتر كالمنهزم او اشد ، انه في الغالب لايبحث عن شيء وانما يهرب من شيء ليقع فيما يهرب منه وفيما هو اسوأ منه .

والانتصار لا يصنع أمانا ولا سعادة ، وقد ينقلب الموقف فيشعر المهزوم بالامان والراحة اكثر مما يشعر بهما المنتصر ، واقرب الناس الى الهزيمة هم المنتصرون لان الانتصار هو اسوأ اساليب التحقير والتحدي والسباب والبحث عن

الهزائم والاخطار ! المنتصر يشتم المهزوم بلغة لا مثيل لها في البذاءة والاذلال والقسوة ! والهزيمة جراح لا تشفى الا بجراح اشد .

وحينما تشفى المجتمعات من انحرافاتها فسيهرب الناس من الانتصارات كما يهربون من الهزائم والعار والمرض ، وسينظرون الى من يبحثون عن النصر مثلما ينظرون الى المصابين بالشذوذ الجنسي وبالامراض العقلية . وقد تشيد المستشفيات الخاصة لعلاج المرضى بحب هذا الجنون ! ما اخطر الانتصار على اخلاق المنتصر واعصابه وذكائه ، ان بعض الانتصارات تصعق وتقتل ، وكلها تهزم ولو بعد حين ، لان كل شيء لا بد ان يتحرك من مكانه .

انت مريض وبذيء وهمجي وعدواني وغير اخلاقي بقدر ما تريد تنتصر وان ترتفع صورك فوق جميع الشرفات وقدماك فوق جميع الهامات ، انت كذلك بقدر ما تريد ان تظل واقفاً شامخاً كتمثال ضخم ، وان يركع كل من سواك تحت قدميك ، يهتفون ويتضرعون ، وان يتحول جميع البشر الى نمال وفئران وارانب ودجاج ، وتتحول انت الى ذئب وثعلب وديك ! ان اي زعيم او قائد عسكري او حاكم او كاتب او عالم يشعر بالنشوة لانه انتصر على قرين او مثيل او خصم او مزاحم ليس الا انساناً غابياً يعيش في عصر الحضارة . واذا كان مستوانا الحضاري والانساني يرفض اليوم ويستبشع ان نسير واقدامنا على هامات الناس فعلينا ان نعرف ان انتصارنا على المجتمعات او على الشعوب الاخرى او على الزعماء الآخرين او على المخالفين في الرأي او الدين او المذهب او الوطن او على اي منافس من اي نوع آخر هو اسلوب فظيع من اساليب السير باقدامنا على هامات الناس . ان الاصابة بشهوة الانتصار هي اخبث واخطر اصابة يصاب بها انسان ما . واكثر الناس جنوناً بالانتصارات وبحثاً عنها بأسخف الاساليب نزقاً ، هم الاطفال وامثالهم من الطغاة المعروفين بالقادة العظام .

ما اكثر ما بذل الانسان من دمه ونضاله وذكائه وخلقه ثمناً للرغبة في الانتصار على الناس — هذه الرغبة التي هي قمة الضعف . اليس الصغار والاغبياء اعظم ابتهاجاً بالانتصار على الآخرين من الفلاسفة والعلماء والاذكياء وكبار الرجال؟

ولا ينبغي ان نعتقد ان البحث عن النصر هو وحده الذي يصوغ تقدمنا بل انه كثيراً ما يعوق هذا التقدم ويحطمه .

*

ولم يزل المؤمنون في كل عصر يوجهون الى الله مثل هذا الدعاء البعيد عن التهذيب والمعرفة – لم يزالوا يقولون : انصرنا يا إلهنا على الاعداء او على المخالفين او على كل الناس او على الكفار، انهم يتصورون الله شيئاً صغيراً بلا اي مستوى من الاخلاق او الذكاء او التقاليد العظيمة ، قد يتصورونه طفلاً في السماء ، او جندياً جلفاً يحارب في خطوطهم تحت شعار « انصر اخاك ظالماً او مظلوماً »وهم في جميع الحالات لا يرتفعون به عن مستواهم النفسي والعقلي والاخلاقي – عن مستواهم قبل ان يتحضروا . ان الله في تقدير المؤمنين قوة فقط – قوة عمياء . ليست الاخلاق او الفضائل الاخرى هي مزيته ، بل مزيته العظمى هي القوة ، هو إله لانه قوي وليس إلهاً لانه فاضل . ان دعاء المؤمنين هذا يشبه ان يقولوا : كن يا الله همجياً متوحشاً سخيفاً ظالماً غير متحضر ، كن يا إله العالمين عميلاً وخادماً لغبائنا وشهواتنا وبداوتنا ، كن لنا وحدنا ضد خصومنا وضد اصدقائنا كذلك .

ويبدو الموقف هزلياً وغبياً محيراً حينما نتصور ان الآخرين الذين يدعى الله ضدهم لينصر عليهم هم ايضاً يدعونه نفس الدعاء ليهبهم وحدهم النصر ضد خصومهم . فيا له من موقف تغرق فيه عبقرية الإله وحكمته وأخلاقه ، ويضيع فيه توازنه وثقته بنفسه وبنبل مستواه ، ويوقعه في اقسى امتحان يصعب الخروج منه بنزاهة وكبرياء . وازاء هذا الموقف السخيف المحير توجد ثلاثة فروض او حلول لإنقاذ موقف الإله من هؤلاء المؤمنين المتناقضين الاغبياء. هي ان يستجيب لجميع الذين يطلبون منه النصر ، او لا يستجيب لاحد، او يستجيب لفريق دون فريق. الافتراض الاول مستحيل وسخيف الى ابعد الحدود . والافتراض الثاني يجعل التوجه الى الله عبثاً ويبطل معنى الالوهية ويجردها من مغزاها ومن اسباب البحث

عنها والايمان بها . والافتراض الثالث يجعل الله متحيزاً غير اخلاقي وغير معقول.

ولا يحتمل ان الإله ينصر صاحب الحق فقط اذا طلب منه النصر لان ذلك يقتضي ان كل من انتصر فهو صاحب حق وكل من انهزم فهو صاحب باطل . ولا يخفي على احد ما في هذا الرأي من سخف ومن مخالفة لما هو موجود في هذه الحياة . ومع ان الدنيا لم تزل مملوءة بالاغبياء والضالين فان احداً منهم لم يهبط به ذكاؤه الى التزام مثل هذا الرأي في سلوكه او في منطقه التفصيلي ! ان الشيء لا ينتصر لانه حق بل لانه قوة وظروف مواتية وارادة انسانية ، واذا كان الشيء كذلك انتصر مهما غضب الحق او احتج او ادعى لنفسه الدوام والتفوق . ان النصر ليس فضيلة تبحث عن اضعف القلوب ولكنه شهوة تنحاز الى اقوى الاجساد .

واذا انتصر الحق اي ما ندعوه حقاً فليس لانه حق بل لانه يعيش في ظروف مواتية ، كما ينتصر الباطل اي ما ندعوه باطلاً اذا وجد مثل هذه الظروف . ولهذا فان كلاً منهما ينتصر حيناً وينهزم حيناً آخر ، بل انهما لا ينتصران ولا ينهزمان وانما ينتصر او ينهزم من ينادون بهما — ينتصر وينهزم الناس بظروفهم وقدراتهم وحيلهم ، ولا ينتصر ما عندهم من حق او باطل . والظروف المواتية وارادة الانسان لا تسيران مع هذا دائماً او ضد هذا دائماً ، بل تتحركان باسلوب غير اخلاقي وغير منطقي . وما من شيء انتصر في وقت الا انهزم في وقت آخر لتغير الظروف وتغير الرغبة والقدرة لا لتغير ذات الشيء . وما من مذهب او موقف انتصر الا وكان يمكن ان ينهزم ، او انهزم الا وكان يمكن ان ينتصر ، ان اعظم الاديان والجيوش والنظم التي انتصرت لم تنتصر لانها حق ، والتي انهزمت لم تنهزم لانها باطل .

ان الناس لا يستطيعون ان يعرفوا الحق ولا ان يعرفوا الباطل ، وهم لا يبالون بهذه المعرفة ، ومن الخير الا يعرفوا ، اذ لعلهم لو عرفوا لتبلدوا وتوقفوا ، اعني ان هذا هو ما يقضي به المنطق ، او على الاصح لو عرفوا الحق والباطل لكان ذلك حرياً بأن يفسد عليهم غباءهم وغرورهم وان يسلبهم لذة الحماقات المريضة

بالكبرياء ، انهم فقط يريـدون او لا يريدون ، يستطيعون او لا يستطيعون . هذي هي كل القضية . وكما ان هذه هي حقيقة الانسان منذ وجد ، فهي كذلك حقيقة الحياة منذ وجدت .

ومقاييس الحق والباطل مأخوذة من الانسان لا قـادمة اليه ، مأخوذة من ارادته وقدرته وحـاجته لا من عقله ولا من اخلاقه ، وارادته وحاجته ليستا مضبوطتين بأي قانون ولا بأية نسبة من النسب ، انهما تعملان في فراغ واطلاق وفوضى ! انه لا يمكن تحديدهما بأية مطالب معينة لا مادية ولا ادبية . ولهذا فان الخبراء لا يمكن ان يخططوهما لتسيرا في الطريق المحدد كما يسير النهر في مجراه الصناعي او يسير القمر الصناعي حول الارض او الشمس .

*

لقد كان المفروض ان يكون دعاء المؤمنين: اللهم لا تنصرنا ولا تنصر علينا ، اللهم لا تنصر أحداً على أحد ، بل اللهم لا تجعل لنا أعداء لنطلب منـك النصر عليهم ، ولا تجعلنا أعداء لأحد ليطلب اليك ان تنصره علينا . فانه لظلم لا يليق بك وحقارة تترفع عنها صفات الأرباب أن تخلق الناس لتجعـل منهم منتصرين وآخرين منهزمين ، كما انها هرطقة ووحشية منا أن نتصور ذلك في أخلاقك أو أن ندخلك في معاركنا الصغيرة الظالمة الوقحة ذات الأهداف والحوافز السخيفة .

ان الذي يتحدث عن انتصاراته على الأعـداء بابتهاج، يشبه الحيوان المفترس حينما يبدو مرحاً لأنه افترس حيواناً آخر ، أو يشبه الطفل حينما يتحدث بنزق كنزق الطبيعة عن اهـــاناته للاطفال الآخرين وعن شجه لرؤوسهم وتحطيمه لأدواتهم .

*

والدكتاتور هو قمة التوحش لأنه قمة البحث عن الانتصارات بكل مستوياتها وأنواعها . لهذا كان دائماً هو قمة الأخطار البشرية مهما كان مصلحاً أو ذكياً.

*

لما كان من المقرر دائماً انه لا حد لما يمكن ان يهبط اليه الانسان والمجتمع من مذلة وشقاء، كانت النتيجة الكئيبة الدائمة، انه لا حد كذلك لما يمكن ان يرتفع اليه المغامرون من جنون واستعلاء. ان كل مجتمع، بل كل انسان قد يتحمل راضياً أو لاعناً جميع ألوان التحقير والتعذيب . اذن فكل دكتاتور قد يدعي لنفسه جميع ألوان التأله والكبرياء ، كما قد يفعل جميع ما تأمره به نفسه المريضة من شرور وحماقات . انه لا حد لجنون الحكام الطغاة لأنه لا حد لهوان الشعوب وغبائها ! لا يوجد حد أدنى من الضعف والاستسلام تقف عنده الجماعات ، اذن لن يوجد حد أعلى لألوهية الطغاة . لقد ظل التاريخ لهذا يسير دائماً في طريق طويل شاحب مسدود بالعار والجبن والجنون . ان كل إله مجنون كان يجد في المجتمعات ما شاء من معابد ومصلين مهما تعرى وافتضح وخطب لجنونه في الأسواق .

ما من دكتاتور إلا ولا بد ان يستجمع في ذاته كل آثام التاريخ ورجعيته بأسلوب رجعي بليد مهما كانت خصائص العصر الذي يجيء فيه هذا الدكتاتور . انه بسبب الظروف التي يعيش فيها الدكتاتور قد يقدم نفسه كرسول عظيم ينادي بمحاربة الرجعية والإقطاع والاستغلال والاسترقاق ، وبمحاربة محقري الكرامة الانسانية . ولكن لكي يصبح هو وحده الإقطاعي المستغل المستعبد المحتكر لتحقير الانسان ، ليستمتع وحده بلذة الانفراد بالطغيان ، ليتحول وحده الى أبشع الصيغ الرجعية المتخلقة في أحلك أرحام التأخر ، ليصبح أبشع تمثال للظلام. الإقطاع والرأسمالية هما ان تملك طبقة أغلب ثروات المجتمع، والدكتاتور يتحول وحده الى مالك لكل ذلك . والاسترقاق هو ان يمتلك قوم من الأقوياء حياة وتصرفات وحرية جماعة من البشر ، والدكتاتور يمتلك وحده حياة كل المجتمع وتصرفاته وحرياته ! انه لا يوجد في التاريخ محتكر أبشع منه ، هو لا يحتكر الأشياء فقط ، بل يحتكر الأفكار والعقائد وخلجات النفس وحرية النقد والرؤية ، بل يحتكر البذاءة والجنون .

واذا كان من أقبح ذنوب القدماء المتوحشين انهم كانوا يجرون عمليات خصاء

على عبيدهم ، فان أكبر متفنن في خصاء البشر هو الدكتاتور . انه لا يقتل فيهم الذكورة فقط ، وانما يقتـل فيهم ايضاً الذكاء والشجاعة والغضب والارادة — يقتل فيهم الانسان .

واذا كانت الرجعيـة هي استعادة ما كان في عصور الهمجية من أخـلاق وأفكار وبداوة بذيئة ومن نظم وايمان بالقوة وعـداء للحرية ، فان الدكتاتور هو أخبث مستعيد لتلـك العصور ، بل ان مجرد وجود الدكتاتور هو أوقح وجوه الرجعية . فاذا هاجم أي دكتاتور الرجعية كان المعنى ان الرجعيـة في أعلى درجاتها تهاجم الرجعية في احدى درجاتها .

أما تحقير الانسان فلن يوجـد أسلوب للتحقير أبلـغ من ان تصبح شهوات رجل واحد وتوتره وطموحه وأحقاده واختلال غـدده الجنسية وسائر غـدده الصماء هي الوحـدة القياسية لأخـلاق الانسان وأفكاره وآمـاله ولفهم الأديان والحياة والطبيعة والتاريخ ، وهي كذلك المنفذ الوحيـد الذي يطل منه شعب بأسره على الدنيا . ثم يصبح هذا الرجل الواحد هو المرآة السحرية التي تتحول فيها جميع الوجوه الى وجه واحد ، والمرآة التي لا يستطيع أي انسان ان يرى وجهه إلا من خلالها !

*

أتمنى أن يبتكر البشر نظاماً جديداً أتخيله الآن . ذلك بأن يقوم كل مجتمع على فترات معينة بعمليـات مسح بشري ، فاذا وجـد أن فرداً ما مصاب من الناحيـة النفسية ، أو يمكن أن يصاب بالشذوذ الذي يؤدي الى الاصابة بمرض الاستعلاء أو شهوة الاستعراض الذاتي أو البحث عن الانتصارات المخربة — هذا الشذوذ الذي تتكامل أبشع تعبيراته في شخصية الدكتاتور . نعم ، فاذا وجد ان فرداً ما مصاب بهذه الآفة أو محتمل أن يصاب بها،وجب أن تجرى له عملية خصاء لتقتل فيه هذا الشذوذ أو تضعفه. فان حوافز الطموح الخبيث والمغامرات العدوانيـة تضعف أو تموت في الخصيان ! أتمنى ذلـك مع ما فيـه من وحشية وتراجع عن المدنية .

ليت جميع قادة العالم وزعمائه الخطرين يختصون ! إذن لأصبحت احتمالات الشر أقل !

الغباء خبز عالمي

كان المقرر ان معرفتنا هي التي تصنع قدرتنا ، ولكن يجب ايضاً ان يكون مقرراً ان قدرتنا تصنع معرفتنا . ويستحيل ان تكون معرفتنا ثابتة اذا كانت قدرتنا متغيرة . والعاجز والقادر لا يتفقان في فهم الاشياء ولا في تفسيرها .

وموقفنا من الكون متغير لتغير وعينا له، ووعينا له متغير لتغير قدرتنا عليه، ولا يمكن ان تتغير حركتنا نحو الشيء ، ثم لا يتغير تفسيرنا له .

وكل عقائد الناس ونظرياتهم ناشئة عن علاقاتهم بالوجود الآخر الذي يتعاملون معه ، ودائماً تتغير هذه النظريات والعقائد لتغير هذه العلاقات ، وافكارهم لا تنطلق من داخلهم ، وانما تعبر عن علاقاتهم الخارجية — هي حاصل موقفهم من الاشياء ، ولو افترضنا قوماً بلا علاقات ولا مواقف خارجية لافترضناهم بلا اية عمليات ذهنية . ان محاولتنا التوافق مع عالمنا هي التي ابدعت جميع معارفنا ومثلنا ولاهوتياتنا . ليست قيمنا الادبية نابعة من داخلنا ولا قادمة من خارجنا .

الارتباط بالشيء يتحول الى احساس ثم الى فكرة ، وهذا هو الذي يصنع كل نشاطنا العقلي ، والايمان هو حاصل التناقض بين ارادتنا ووجودنا ، والإله حالة لا وجود، فنحن لا نجده كقوة فاعلة في الكون بل كحالة وكأرادة للمجتمع .

لقد ظل التاريخ في عملية نشاط دائمة لتغيير افهام الناس للوجود وتفسيرهم

له . وكان هذا يعني وجود الاديان والمذاهب المختلفة التي لم يكن ممكناً ان تتحدد، ولم تكن عملية التاريخ هذه الا تعبيراً عن وضع الانسان المتحرك ازاء نفسه وازاء كونه . والذين لا تتطور عقائدهم مع تطور اوضاع حياتهم المتحركة هم قوم قد ماتت عقائدهم ، فهي لا تتحرك مع الاحداث ولا تتأثر بها .

والعقيدة العاملة لا يمكن ان تبقى ثابتة ، والذي لا يغير عقيدته هو انسان يحيا بلا عقيدة ، لقد ابعد عقائده عن طريقه ، القى بها في متحف مهجور من نفسه . ان العقيدة غير المتغيرة ميتة لان الحياة تغير دائم . والوسيلة المجدية لاقناع اصحاب العقائد الثابتة باستحالة ما يعتقدون ، هي تركهم يجربون تلك العقائد على الحياة مع إعطائهم كل التسهيلات القانونية. والله هو التعبير التاريخي الذي لا يعني به كل مجتمع إلا مجموعة أوضاعه ونظمه وتصوراته وكل ظروف حياته المتبدلة . فالذي يقول اقاتلك دفاعاً عن الله او عن الحرية او عن النظام والعدل إنما يعني الدفاع عن نوع من الحياة قد رتب مصالحه عليه .

وعقائد الانسان ومثله التي آمن بها حينما كان يروعه خسوف القمر ، لا يمكن أن تظل هي عقائده ومثله ، بعد أن أصبح يصنع الأقمار ويغزو الفضاء الذي كان يهاب التحديق فيه .

*

بماذا يمكن أن يجيب الفلاسفة ورجال اللاهوت القدماء لو سئلوا : هل يمكن أن يتصرف الانسان في نظام الكون ، فيضيف الى المجموعة الشمسية أعداداً أخرى من النجوم الصناعية ، تدور في افلاكها ، او يدمر بعضها أو يحركها !

من المحتوم ألا يسخروا ممن يسأل هذا السؤال ، بل لا بد أن يرثوا له .

وما أظنهم سيحكمون عليه بالزندقة ، لأن الزنديق هو الذي يخالف في أمور لا دليل على اليقين فيها . الزندقة احتمال لا جنون ! والزنديق هو الذي يفكر أكثر ، وليس هو الذي يجن اكثر – هو الذي يثير الغضب لا الشفقة .

كانت الفلسفة والثقافة القديمتان تريان النظام الكوني نظاماً غيبياً لا يخضع

للتفاسير ، ولا يضبط بالقوانين ، كما لا يمكن احداثه او تغييره او محاكاته . وكل ما تقدر عليه عبقرية الانسان ان تشاهد وتحاول أن تفهم وأن تؤمن برهبة وتواضع. فالكون بالنسبة للانسان ليس الا مصدر ايمان وتأمل وانبهار وخوف وعبادة وفرار من النفس ومن الكون نفسه !

لم يكونوا يتصورون الكون قائماً من داخله ، فهو ليس مجموعة قوانين ذاتية تدرك وتفسر وتسخر ، وانما هو اعجاز خارجي — هو مشيئة وليس ضرورة . والمصنوع المحكوم من وراء التفكير والتفسير ، كيف تمكن القدرة عليه ؟

ولكن لقد تطور الانسان فأصبح الكون في وعيه انسانياً — لقد صار موضوعاً من موضوعات تفكيره وقدرته . وأفكار العاجزين لا يمكن أن تبقى أفكاراً للقادرين. فالتفكير ليس انعكاس ذاته بل انعكاس حالتي القدرة والعجز. ولا يوجد من يفكر لأنه خلق هكذا مفكراً بالذات، وانما يفكر الناس خاضعين لعوامل غير فكرية .

كل شيء قائم على طبيعة تتحول قانوناً . وهذه الطبيعة المتحولة قانوناً هي نوع واحد في كل وحدات الوجود المتماثلة . وتوجد طبيعة أو قانون مشترك بين أصغر ذرة وبين الشموس والأقمار . والفرق ليس إلا في المقدار .

واذا كنا نستطيع أن نرفع حجراً ، أو نحركه أو نفتته بجهد ما ، فاننا بهذا القانون نستطيع أن نرفع قمراً أو نسقطه ولكن بجهد أعظم . واذا كان الكون كله ليس إلا مجموعة قوانين ، فان من المستطاع السيطرة عليه والتصرف فيه بمعرفة هذه القوانين والقدرة على تسخيرها. وبقدر ما نعرف من هذه القوانين نصبح أحراراً في القدرة على التسخير والتغيير .

وعقدة اللغز في عجز الانسان إزاء الكون كامنة كلها في مقدار الفرق بينهما. فالانسان عاجز لأن الكون أكبر منه لا لأنه فوقه في طبيعته أو منطقه .

واذا استطاع الانسان ان يعرف قانوناً واحداً من قوانين الكون أو يحدث أي تغيير في أية وحدة من وحداته استطاع من حيث المبدأ والفكرة أن يعرف كل قوانينه وأن يغير كل أوضاعه في كل آحاده . وسبب العجز ذاتي لا طبيعي .

والعجز الذاتي يتغير بتغير الذات .

وانتاج الكواكب الصناعية ودورانها في الفضاء كما تدور الكواكب الآتية من الغيب ، يثبت ان طاقات الكون وقوانينه وآلهته فيه ، وان هذه الطاقات والقوانين والآلهة ليست أسراراً محجوبة ، بل هي كالقوانين الموجودة في أية آلة نصنعها ونتحكم فيها .

ويثبت ايضاً ان الكون يصوغ بعضه بعضاً ، فالانسان وهو من الاسرة الكونية ، يصوغ الكون ويغيره ، كما ان الكون قد صاغ الانسان ولا يزال يصوغه ويغيره .

ثم يثبت ان الانسان يستطيع ان يعلم كل الموجودات وان يغيرها ويسيطر عليها ، اذا هو طوّر علومه ووسائله ، وان قدرته على تطوير وسائله ومعارفه لا حدود لها . فهو قد صنع كوكباً وقذف به الى فلك يسير فيه ، اذن هو يستطيع ان يصنع ما هو اكبر او يدمره اذا شاء . واذن لقد سقطت الاسرار .

انه لو كان الكون خاضعاً لغير ذاته ، او لو كانت قوانينه موجودة في غير ذاته ، لما استطعنا ان نصنعه بمعرفتنا له .

كان الانسان القديم يصوغ افكاره عن الحياة وعن الكون متلقياً لها من خارج الحياة وخارج الكون. كان خائفاً وعاجزاً ، فكان لذلك يفر الى الاوهام محتمياً بها من مشاعره الخائفة العاجزة ، والوهم مهرب ممتاز يخترعه العجز والخوف . والبشر اذا خافوا وعجزوا ، عالجوا خوفهم وعجزهم بالاخطاء العقلية . والعاجز لا بد ان يكون مخطئاً نفسياً. ونحن في الاكثر لا نخطىء لاننا عاجزون فكرياً بل لاننا خائفون من الحقيقة ، او عاجزون عن امتلاكها . ومن يعلم ولا يستطيع ، يتعذب اكثر ممن لا يعلم ولا يستطيع . ولهذا يهرب العاجزون من المعرفة الى الجهل ، فالانسان لا يريد المعرفة التي تعذب ارادته ، وهو يفضل ان يكون مغفلاً سعيداً على ان يكون ذكياً معذباً . واسباب الايمان بالخرافة موجودة في انفسنا لا في الخرافة نفسها. والجماهير محتاجة دائماً الى أن تؤمن وتصلي وتهتف وتبغض. لقد حولت آهاتها وهمومها الى آلهة وشياطين لتعبدها وتلعنها . فالانسان عندما

يعبد ويلعن ، إنما يعبد ويلعن نفسه .

وحينما كان الانسان القديم عاجزاً ، كان محتوماً عليه ان يبحث عن مسببات الايمان بالاخطاء الاعتقادية والذهنية ليخفف عن نفسه الشعور بالعذاب . وقد نؤمن بالخرافات لنبرر بها نقائصنا وعيوبنا ، ونتهمها بأنها هي المسؤولة عن تخلفنا واخطائنا . فالخرافة تجعلنا نحول رذائلنا الى مزايا !

الذين آمنوا بالآلهة والانبياء لم يؤمنوا بهم ليحترموهم او ليعبدوهم ، بل ليلقوا عليهم بنقائصهم وذنوبهم ، فهم اكثر كفراً ممن لا يؤمنون . كان الذين آمنوا بالاسباب العليا الفاعلة ، يريدون ان يدافعوا عن انفسهم بالايمان ، وكانت الآلهة والعقائد دائمة التغير ، لأنها ليست غير الانسان ومحاولاته للدفاع عن نفسه .

لقد اضطر الانسان الاول الى الايمان بان الكون محكوم بالطلاسم المقدسة الخالدة ، لكي يتقبل وضعه الأليم فيه كقضاء محتوم ، بل كفضيلة من فضائل النفس والعقل . وبهذا يقضي على الصراع الذي لا بد أن يثور في نفسه بين إرادته وقدرته . وكانت فلسفته الذكية قائمة على ان الذي لا يستطيع أن يفعل ، فإن من المريح له ان يجهل ، بل ومن الذكاء ان يجهل .

كانت ضرورة نفسية ان يؤمن البشر بأن الوجود يحكم من خارجه ، من بعيد ، ليبرروا لأنفسهم الاستسلام والهزيمة بدون أن يشعروا بأنهم فقدوا كرامتهم وذكاءهم ! لقد ظلت الخرافات اوفى الأصدقاء للانسان في رحلته الطويلة عبر قارات التاريخ . والناس في إيمانهم وجحودهم لا يبحثون عن الخرافة ، ولا عن الحقيقة ، وإنما يبحثون عن الراحة . وهم لا يطيقون الاضواء الدائمة ، فكان البحث عن الظلام نوعاً من العبادة ، فعاشوا في الظلمات اكثر مما عاشوا في النور . كان النور يقتل اعصابهم وعقولهم ، وكانت الظلمة تريحهم !

لقد ظل الانسان يكرر تجاربه مع الاحداث والكون فتعود الجسارة ونمت قواه ، فبدأ يصحح أفكاره ازاء نفسه وازاء عالمه ، وأدرك انه جزء من الكون ولكنه الجزء المتفوق عليه . اذن لا بد أن يعرفه وأن يغيره ويحكمه ! وهنا بدأت تتساقط الأوهام وتتنازل الشموس والأقمار من سمواتها ، وأصبحت تحكم

من الأرض بمنطق الانسان، بعد ان كانت تحكم من فوق الاولومب بمنطق الارباب.

وإذا زالت حاجتنا النفسية الى الخرافة ، بدأنا نسعى لمعرفة الحقيقة ، والمحتاجون الى الخرافات لا يمكن ان يحاولوا معرفة الحقائق . وجرأتنا وقدرتنا تصححان لنا أفكارنا ، اكثر مما يصححها لنا اخلاصنا او ذكاؤنا .

ان عجز الانسان عجز زماني ، وهو يسير في الطريق ، فلا بد أن يذهب فيه بعيداً . والمسألة مسألة زمان ومسافة .

وعلى الذين يؤمنون بكل الماضي ان يفكروا في هذا :

هل كان من الممكن ان يقتحم البشر الكون لو كانوا محافظين في ايمانهم وفي سلوكهم التاريخي ، لا يعصون ولا يتغيرون ؟

ان انتصار الانسان على عقائده ونظرياته وعلى تواضعه القديم ، يعني ان علينا اجتناب المبالغة في تقديرنا لما لدينا من حقائق ومسلمات ، وان نعلم ان الحقائق كالأشخاص ، ليس فيها ما هو خالد ، ولا ما هو المثل الأعلى ، وان الخلود للنوع لا للفرد .

ويعني ايضاً ان نحذر ، فلا تخدعنا معارفنا الضئيلة المتقررة ، وتعتقلنا في طور واحد من أطوار التاريخ !

*

ليست الخرافة مجرد عجز عقلي او خطأ في تفسير الأشياء . فمن أخطأ في عملية حسابية او في رؤية الاشياء ، لم يعد مؤمناً بالخرافة ، ولكن الذي يؤمن بأن قوس قزح اشارة تفاهم تعظ السماء بها الارض يعد من المؤمنين بالخرافات . فالخرافة عمل من اعمال الارادة لا من اعمال العقل ، وهي حالة نفسية لا فكرية. وفي الانسان شوق الى ان يكون خرافياً ، والحقيقة وحدها كئيبة !

ويوجد دائماً خطآن : عقلي ونفسي .

والمخطىء خطأ عقلياً ، لا يصعب ان يدرك خطأه بسهولة وان يتراجع عنه أيضاً بنفس هذه السهولة . فالذي يخطىء في عبور الطريق او في اسماء الاشياء او

الأشخاص او في مسألة رياضية او لغويـــة ، لا يجـد صعوبة نفسية في ان يعدل موقفه ، ولكن المؤمن بأحد الآلهة او باحد المذاهب والاديان ، هـــل يستطيع ان يغير موقفه او يدرك حقيقة موقفه بمثل هذه السهولة ؟

والمحتاج الى الايمان لا يرفض المنطق فحسب ، بل انه يفر منه ويعادي من يدلونه عليه ! وليس في الناس من يبحثون عن المنطق ، ولكنهم يبحثون عن التلاؤم مع الاشياء ، وحتى حينما يبحثون عن المنطق ، لا يقصدون احترامه، بل استغلاله او الانتصار عليه . فالبحث عنه حرب له !

ولهذا لم يختلف الناس أو يتعادوا في العلم ، كما اختلفوا وتعادوا في المـذاهب والعقائد. ومع هذا فالبشر لا يختلفون او يتعادون بسبب الاختلاف على العقائد ، بل بسبب الاختلاف على المصالح والظروف والاوضاع والخصائص والتاريخ والمستوى. فالناس لا يحبون الحقائق الى المدى الذي يجعلهم يتقاتلون او يتباغضون من اجلها . ولكنهم يصنعون ذلك من اجل اهواء أنفسهم .

والعقيدة تصبح التزاماً يدافع عنه المعتقد كما يدافع عن بيته ونفسه ، وليست كذلك الحقيقة المجردة . واذا لم يتعصب الناس لمذاهبهم وعقائـدهم ، كان معنى هذا ان تلك العقائد والمذاهب قد فقدت قيمتها وعملهـا في حياتهم ، وأصبحت نوعاً من التاريخ المحفوظ .

العقيدة شهوة لا معاناة . وإدراك الحقيقة عمل من اعمال الشعور الأناني ، لا من اعمال الحقيقة نفسها ولا من اعمال الفكر المنزه . والحقيقة لا ترى نفسها ولا تخضع لنفسها . والاحتياج الى الشيء هو الذي يرينا إياه ويجعلنا نؤمن به ونقدره ونراه حقيقة — لا قوته ولا وضوحه . والاشياء جميلة وقوية ومقنعة ، بقدر مـا تستطيع ارادتنا لها ان تجعلها كذلك . ليس في البشر منزهون، هم جميعاًيعيشون بالخبز والارادة ، ليس فيهم من يعيش بالمعرفة او بالحقيقة او بالروح .

والفضيلة والرذيلة هما ناتج عمليات التناقض بين مشاعرنا ، والحق والباطل حكمان من احكامنا ، لا وجودان متغايران في حياتنا !

واذا كان الناس في اعتقاداتهم لا يبحثون عن الصواب ، بل عن التوافق بين انفسهم واحتياجاتهم ، فإنهم في موضوعات ايمانهم ، لم يجدوا او يعلموا ، وإنما

ارادوا وملأوا فراغاً . وهم محتاجون ان يؤمنوا ويغنوا ويصلوا وينتظروا ، لا الى ان يجدوا آلهة تستمع اليهم وتستجيب لهم .

في طبيعة الحياة ان توجد نوعاً من التناسق الفكري بين الاحتياج والواقع . والانسان امتداد وليس حالة ، ليس ماضياً او حاضراً او مستقبلاً بل هو ذلك كله . لا يحيا في وجوده فقط بل وفي خياله وشعوره وفكرته . وموضوعات الشعور والخيال والفكرة موضوعات غير زمنية ، لا تضع حدوداً بين ما قد كان وما لن يكون وما هو كائن . وهي تتلقى المستحيل وتتعامل معه بالحماس الذي تتلقى به الواقع وتتعامل معه .

فالبشر يحيون بالتطلع ، يحيون خارج الوجود كما يحيون بالوجود ، وهم وحدهم دون كل الكائنات يحيون في كل الامتدادات . اما سائر الاحياء فيحيون بالوجود فقط اي بالواقع ، اذ ليس لهم امتداد فكري او شعوري او خيالي وراء حدود الحاضر . وهم لهذا لم يحتاجوا الى الايمان والعقائد كما احتاج الانسان . وامتداد الانسان في كل الجهات هو الذي صنع عقائده وايمانه ، هو الذي صنع كل اوهامه . ليس بين الموجودات كلها من يصنع الخرافة ويصدقها او يعيشها غير الانسان الذي هو وحده صانع الحضارة وصانع العبقرية وهادم الخرافة .

*

لن تزول الخرافة ما بقيت الحقيقة ، فاسباب الايمان بهما واحدة . والانسان الذي اخترع الايمان بهذه هو وحده الذي اخترع الايمان بتلك . فالايمان بالخرافة كالايمان بالحقيقة ، كلاهما صادر عن اقوى واصدق ما فينا ، وهما معاً من تدبير الحياة لنفسها . ففراغاتها محتاجة الى تشغيل . والحياة البارعة ليست هي التي ترفض الخرافات او ترفض الحقائق ، بل هي التي تحسن الانتفاع بهما معاً والتنقل بينهما . وقيمة كل منهما بما تعطيه لا بما تعرفه . والقدرة على الايمان ليست تفوقاً او تخلفاً عقلياً بل ظروف . فالاذكياء والاغبياء قد يؤمنون بالخرافات وقد يرفضونها متأثرين في الحالتين بظروفهم او بمزاجهم النفسي .

وانتاج الاوهام قد يكون نوعاً من نشاط الحياة ، فالحياة الكبيرة تصنع

اوهاماً كبيرة كما تصنع حقائق كبيرة ، والحياة التافهة تعجز عن انتاج الاوهام كما تعجز عن انتاج الحقائق . ولكن المبدعين قادرون على التغيير وعلى ارادته ، اما الخاملون فانهم يؤمنون بلا ارادة تغيير ويتغيرون بالاكراه ، وحتى اوهامهم مستوردة وخالدة .والتصادم بينالخرافة والخرافة ، وبين الخرافة والحقيقة،وبين الحماس لهذه والحماس لتلك ،هو الذي يصنع كل نشاطاتنا الكبرى .

والجمود على الخرافة مثل الجمود على الحقيقة، يعطل نمو الحياة ويضعف طاقاتها ومسراتها واحاسيسها .

وخرافات المتأخرين ليست اقوى من خرافات المتقدمين وانما هي اخلد وابقى واحقر . والانسان بطبيعة تركيبه متناقض،ومن الخير له ان يتناقض ،ويستحيل قيام الحياة او المجتمع من غير تناقض . اذن لا بد ان يؤمن بالنقيضين ، بالحقيقة والخرافة .

ولم تزل الأكاذيب الفكرية الذكية تحرك الموكب الانساني نحو النشاط العظيم .

والمجتمعات القوية تخترع اوهاماً ذكية تبارك الابداع والقوة ، اما العاجزون فان اوهامهم مثبطة جاهلة . وهذا هو الفرق .

والاوهام كالفنون – بل هي فنون – منها الجيد ومنها الرديء ، ومنها ما يزكي الحياة ويصورها حباً وأملاً وتوهجاً ، ومنها ما يحولها الى خوف ودمامة وبغض ورماد .

وحياة الناس في جميع العهود قائمة على ان يقاوموا اوهاماً ليتخلصوا منها كي يقعوا في قبضة اوهام اخرى .

يقاومون اوهاماًقديمة قد فقدتالحياة ليستقبلوا اوهاماً جديدة تحمل اغراض حياة مقبلة . ان الاوهام نوع من الموسيقى الذهنية ، والانسان كائن موسيقي : موسيقي بسمعه وخياله وتفكيره ، جميع البشر يحبون الموسيقى ، وجميعهم يؤمنون بالاوهام !

وكل مجتمع ينتج من الاوهام – او يقبل – ما يلائم مزاجه وقدرته وما يشتهي ان يكون . فالمجتمعات تصوغ اوهامها ،واوهامها لا تصوغها . وقدوجد

الانسان ، ولا يزال يوجد قبل اوهامه .

وكثيراً ما يفسر المفكرون والمصلحون تأخر الشعوب وتقدمها بمعتقداتها الواهمة او الصحيحة ، القوية او الضعيفة . ولا يبدو هـذا صحيحاً . فالمعتقدات دليل على حالة الشعوب وظروفها ، لا خالقة لها .

ولا يمكن ان يبتدع شعب عقائد ترفضها طبيعته ، ولا ان يستمسك بها لو فرضت عليه ، واذا كان يتناسب مع احدى المعتقدات لم يكن ممكناً ان يصنع افضل منها مهما حرمت عليه ونهي عنها ، كما لا يمكن ان يتطهر منها . واذاتفوق عليها تخلى عنها او طورها او تناساها !

ان قوماً يخلقون عقيدة ، وقوماً يحاربونها ، وقومـاً يرفضونها ، وآخرين يخلقون عقيدة مضادة . فلماذا ؟

والذين يعتقدون عقائد تبارك الكسل او التعصب او الحقد او الفقر اوالجهل او الفرار من الحياة هم قوم يريدون تبرير تلك النقائص لانهم يتناسبون معها ،وهم لا بد ان يكونوا كذلك حتى ولو لم يعرفوا هذه العقائـد . فاحتياجات البشر ومواهبهم هي المسؤولة عن عقائدهم ، وليست عقائدهم مسؤولة عن شيء .

ان الكاهن لا يستطيع ان يقيم بيننا او في قلوبنا الا يوم ندعوه الى ذلك لاننا لا نجد سواه ، ولهذا فاننا نصلبه او نعلمه الخروج على نفسه حين نصبح اكبر منه . والعاجزون يعبرون عن عجزهم شتى التعابير ، فـاذا لم يعبروا عنه تعبيراً دينياً عبروا عنه تعبيراً آخر . والضعيف المحروم المتألم لا بـد ان يصلي ويدعو ويعبد الموتى والآلهة الكثيرين ويتحمس للايمان بالقدر ويلقي عليه كل اثقاله واخطائه اذا كان متديناً ، واذا لم يكن متديناً حول عجزه وألمه الى بكاء وانفعالات هدامة والى عتاب للظروف والايام والحظوظ والآخرين، والى شكوى وصراخ ولعنات .

اما الاقوياء فانهم يعبرون عن انفسهم تعبيراً قوياً سواء أكانوا متدينين امغير متدينين . ولكنهم سوف يرفضون او يدمرون كل مـا يعوق انطلاقهم وتعبيرهم القوي عن انفسهم . ومع هذا فلا بد من توزيع النفس بين ضروب التعابير . ان الضعفاء يبتكرون العقائد الضعيفة ويبحثون عنها لانهم ضعفاء .

والناس لا يقسمون الى ضعفاء لانهم مؤمنون بالاوهام ، والى اقوياء لانهم مؤمنون بالحقائق ، بل يقسمون الى اقوياء لانهم اقوياء ، والى ضعفاء لانهم ضعفاء. والعقيدة هي اللغة التي يتكلم بها ضعفهم او قوتهم .

*

العقيدة هي الصورة لا جهاز التصوير ، هي الكلمة التي نعبر بها عما نريد ونستطيع . واذا تغيرت الارادة والقدرة تغيرت الكلمة .

والاوهام بيوت ننشئها بقدر طاقتنا ومعرفتنا لنسكنها ، وهي مستراح نبحث عنه لاننا لم نجد سواه ، هي محطة انتظار . وسكنانا في الكوخ المتهدم لن يمنعنا من الانتقال الى البيت الجميل الحديث اذا وجدناه او استطعنا انشاءه . واذا اخرجنا سكان الاكواخ من اكواخهم فانهم سيبحثون عن اكواخ اخرى اويقيمون تحت الاشجار وفي الكهوف والخرائب او في العراء ، فالقادرون يتحركون والعاجزون يكتشفون مزايا الوقوف . والارادة لا تخضع للعقيدة بل العكس : الارادة تخلق العقيدة كما تلغيها وتغيرها ، وهما لا تتعارضان بل تسيران كتابع ومتبوع . ونحن دائماً نتبع ارادتنا ونحرف او نرفض من اجلها عقيدتنا .

الحياة تعمل بالموهبة والمستوى لا بالاعتقاد — تفعل ما تستطيع ان تفعل لا ما ينبغي ان تفعل ، حتى العلم والحضارة هما نتاج الموهبة . والموهبة توجد نفسها ولا يوجد ما يوجدها ، وهي التي تصنع ظروفها ومجالاتها ومسبباتها .

*

ان مذاهبا لا تشكل اخلاقنا ولا خصائصنا ، ولكن هذه هي التي تجعلنا نبتكر المذاهب او نختارها او نكيفها .فنحن نختار هذا المذهب او لا نختاره ، او على الاقل نصوغه بما لا بد ان نكون . ونوع الايمان والارباب لا تأثير له على حياتنا ، وانما التأثير للظروف والخصائص التي توحي بذلك الايمان وتلك الارباب . وليس سبب تعصب المؤمن بمذهب من المذاهب هو ايمانه بذلك المذهب ، بل سببه ظروفه وحالته النفسية . فالمتعصب القاسي يختار المذهب الملائم او يحول مذهبه الى تعصب وقسوة ، والمتسامح يفعل نفس الشيء . ولهذا يختلف اهل العقيدة الواحدة والمذهب الواحد اختلافاً كبيراً في

سلوكهم وصفاتهم النفسية ، ويختلفون اكثر اذا اختلفت العصور والاوضاع والحضارات التي يعيشون فيها . واصحاب الخصائص القوية يبدعون تحت جميع الظروف والنظم ، أما ذوو الخصائص الضعيفة فلن يكونوا مبدعين تحت اي عهد او نظام او ظرف . ولا يتغير المجتمع بتغير التعاليم او الاديان او القوانين . ان خصائصنا تحول كل شيء الى طبيعتها .

*

هل يمكن أن يحيا الانسان بلا خرافة ؟

قيل في كلمات سابقة : إن الخرافة موقف نفسي، فالايمان بها يشبه انفعالات الحقد والغيرة والبغض والحب والخوف والشوق . ونحن في هذه العواطف لا نفكر بل نتخذ مواقف نفسية . والبشر جميعاً محتاجون الى أن يقرروا وضعاً أدبياً لأنفسهم ازاء الكون ، ووضعاً مماثلاً للكون ازاء أنفسهم !

والانسان يهاب الضياع والفراغ، انه يخترع لنفسه المنازل والملابس والكهوف ليقاوم بها احساسه بنفسه واحساسه بالطبيعة . وهو ينام ويجلس ويقف فوق الارض والكراسي والسرر ، لأنه لا يستطيع ان يعيش واقفاً في الفضاء ولا أن يتحرك حركة دائمة . وهو كذلك لا بد أن يخترع لنفسه بيوتاً وكهوفاً وملابس وأرضاً وكراسي وسرراً من الخرافات لتستقر فوقها نفسه التي تهاب الضياع والفراغ ، ولا تستطيع ان تعيش عارية في الصحراء ، ولا ان تتعلق في الفضاء أو ان تتحرك حركة دائمة . انه لا يتطهر من خرافاته – لا يستطيع ذلك ولا يريده ، ولكنه يبدل ويغير ، فهو لا يترك خرافة إلا ليأخذ بخرافة اخرى – خرافة هي أحدث وأقوى سحراً . وقد يطلق الرصاص على إلهه القديم ولكنه يظل يقاتل بحماس أشد تحت راية إله آخر .

والغباء مثل الخبز ، غذاء يومي للجماعات لا تستطيع ان تعيش بدونه ، فهو الذي يجعلها تقدر على ان تتلاءم مع كل التناقضات الأليمة التي تحياها . حتى الذكاء لا يعيش إلا في إطار من الغباء . الانسان والمجتمع الذكيان لا بد لهما من

الغباء . العقل الذكي لا بد له من حياة وسلوك غبيين ، بل لا بد له من أفكار وعقائد غبية .

ان الخرافة هي تفسير الاشياء تفسيراً هو اكثر من مجرد وجودها . ولما كان مجرد الوجود أقل من الانسان كنفس وخيال وحاجة وارادة ومستقبل ، أصبح محتوماً عليه ان يؤمن بالخرافة .

الخرافة هي محاولة الايمان بشرعية الوجود والحياة والانسان ،وبأن الانسان هو التفسير الاخلاقي للكون ، وهي كذلك المبرر الأدبي لكي نظل دائماً مجانين نتقاتل ونتعذب وننتحر دفاعاً عن أخطائنا وآلامنا وجهلنا وآلهتنا الحمقى ! ستبقى الخرافة ما بقي الشعر والموسيقى والخيال واللذة والألم . وبقدر ما يستحيل ان نوجد بلا مكان ، كذلك يستحيل بمثل النسبة ان نحيا بلا خرافة . والخرافة في كل تفاسيرها قائمة على تقدير الأشياء تقديراً نفسياً . والتقدير النفسي لا يمكن ان يكون عادلاً ولا متزناً ولا صواباً ، وهو يتحول الى ايمان وضعف وعبودية ومخاصمة للاعتدال والنزاهة والمعرفة لأنه احتياج ، والاحتياج لا يكون منطقاً ولا تسامحاً . وإله كل قوم يساوي ظروف حياتهم . والعلاقة بين الانسان وكونه يجب ان تكون علاقة معاملة كالعلاقة التي بين الوجود والوجود ، فاذا أصبحت علاقة ايمان أصبحت خرافة . فالايمان ليس معاملة حرة بين وجودين . ومن أجل ان الخرافة موقف نفسي لم يوجد من يمكن ان يستغنوا عنها إذ لا يوجد من يمكن ان يحيوا بلا مواقف نفسية . واحتياج أرقى الناس الى الخرافات أعظم من احتياج أدناهم ، فأكثر الشعوب تطوراً هي اكثر الشعوب آلهة لأنها اكثرها مواقف نفسية . والدولة العظيمة تحرسها دائماً خرافات عظيمة ، أما الدولة المنهارة فلن تكون خرافاتها وآلهتها افضل منها . واذا ماتت خرافات شعب من الشعوب أو فقدت حماسها ، كان محتوماً ان ذلك الشعب قد مات أو خمل وهان .

الانسان ليس حقيقة وليس خرافة بل هو الاثنتان معاً . ولن يكون إلا كذلك في مستقبله !

يشعر الانسان ان حياته في ذاتها أو لذاتها لا يمكن ان تكون معقولة ولا محتملة، لهذا يحتاج الى الأوهام والمعارك – الى الآلهة والمذاهب والأكاذيب والمبالغات، والى الخصومات، والى القومية والوطنية ليبرر ويفسر بها حياته، بل ليهب حياته لهذه الاوهام والمعارك. فالبشر لا يمكن ان يقبلوا وجودهم أو يفهموا له معنى إلا اذا فسروه بغيره، وانفقت حياتهم باسم شيء خارجي صارخ. إذن فالأوهام والحروب ضد الآخرين هي التثمين الكاذب لحياة الانسان ووجوده. ان كل شيء في تقديرنا نحن البشر لا قيمة له اذا لم تكن له غاية غير مجرد وجوده، والأوهام وحدها هي التي تجعل لوجودنا غاية، فمن أجل ان نؤمن بقيمة انفسنا وبأن وجودنا وبقاءنا معقولان لا بد لنا من الايمان بالأوهام!

*

المذاهب والآلهة والأديان ليست غير من جاءوا بها وفسروها، فإله أي قوم أو مذهبهم أو دينهم ليس شيئاً اكثر أو أقل من تفسيرهم له، وتفسيرهم له ليس اكثر أو أقل من تصورهم له، وتصورهم له ليس شيئاً اكثر أو أقل من حالتهم النفسية والفكرية والمادية. فمن آمنوا بالآلهة أو بالمذاهب أو بالأديان التي جاء بها القدماء، فانما يؤمنون بأولئك القدماء، ومن كفروا بها فانما يكفرون بأولئك القدماء ايضاً، لأن تلك الآلهة والأديان والمذاهب هي نفس أولئك القدماء. فالذين يدعوننا الى الايمان بعقيدة ما، هم في الحقيقة يدعوننا الى الايمان بقوم ما، والذين يعيبون علينا كفرنا بعقيدة ما، هم يعيبون علينا كفرنا بقوم ما. واذا دعانا الشيخ أو القسيس الى ان نؤمن بمذهب أو بإله قد ارتبط به، فهو لا يدعونا إلا الى ان نؤمن به هو – أي نؤمن بتفكيره وظروفه ومصالحه وحالته النفسية، بل بزيه وغبائه ونفاقه واستغلاله لنا! فالناس لا يعبدون آلهة ولا أدياناً ولا مذاهب ولا حقائق أو أوهاماً مهما بدا انهم يفعلون ذلك، وانما يعبدون اناساً مثلهم كانوا قبلهم – يعبدون ظروف أولئك الناس واحتياجاتهم ونقائصهم وأمانيهم وآلامهم، ويعبدون التاريخ الذي كان يوماً من الأيام انساناً أو مجتمعاً! ان من أطاع انساناً دعاه لعبادة إلهه فعبده، فهو

انما عبد نفس ذلك الانسان – عبد ظروفه التاريخية والنفسية التي تحولت الى فكرة إله . ولكن لماذا يعبد الناس الآخرين ؟ انهم لا يعبدون إلا أنفسهم .

كل شيء في الانسان يعبر عن ذات الانسان ، حتى افكاره عن الاشياء .

اذا علمنا الآخرين او تحدثنا معهم او صادقناهم او عطفنا عليهم ، فنحن بذلك انما نعامل انفسنا لا أولئك الآخرين . ان اولئك الآخرين ليسوا الا وسائل مواصلات لنا ، نريد ان نصل بها الى انفسنا . وليس في حسابنا ان يسعدوا او يأخذوا شيئاً ! نحن لا نشعر بهم ، وانما نشعر بعلاقاتنا بهم ! واذا عبدنا الآلهة او احترمنا الاخلاق او متنا في سبيل اوطاننا ، فإننا ايضاً لا نريد بذلك الا توزيع انفسنا والتعبير عنها ، ولسنا نبالي بالآلهة او الاوطان او الاخلاق – لسنا نبالي بمن نموت في سبيلهم ولا بمن نعبد ونحترم . ان الذي يموت تحت قدمي إله او زعيم ، لا يحمل في نفسه اي احترام او حب لذلك الزعيم او الإله . ولكن البشر لا بد أن يوزعوا ذواتهم ، وكل اعمالهم وعقائدهم ومذاهبهم اساليب مختلفة لعمليات التوزيع ! ولهذا فإننا نقتل زعماءنا وآلهتنا بالحماس الذي ندافع به عنهم ، واذا قتلنا الزعيم او الإله او هتفنا له ، شعرنا بنشوة من نوع واحد ، لاننا نفعل هذا او هذا لإرضاء انفسنا ، لا لأننا نتبع مثلاً اعلى . ولا توجد اية حدود بين الظروف التي نسقط بها الزعماء والآلهة والظروف التي نهتف لهم بها .

والناس لا يفكرون او يعملون لأنهم يعتقدون ان شيئاً يستحق ان يفكروا فيه او يعملوه ، بل يفكرون ويعملون ، لأنهم لا بد أن يفعلوا ذلك . انا كإنسان لا أتخذ موقفاً فكرياً لأني اهوى الفكر او اهوى الحق ، بل لأني اريد ان اجعل من هذا الموقف الفكري مبرراً او مشرعاً للأسلوب الذي اختاره في توزيع نفسي وتوزيع طاقاتي وفي التعبير عن مشاعري المتراكمة . فإذا آمنت بإله او بمذهب او بنظام ، فقد فعلت ذلك لأني اريد ان أحوّل ذاتي الى سلوك والى تعبير بالصوت والحركة والصورة ، واريد ان ابرر ما اريد فعله بالآلهة والمذاهب والنظم التي آمنت بها . فالإيمان هو نتيجة السلوك ، وليس السلوك نتيجة الايمان ، السلوك

هو نتيجة نفسه . والذات الانسانية لا بد ان تُحوَّل الى شيء. وجميع آلهة البشر وعقائدهم وأعمالهم، إنما ارادوا بها التعبير عن انفسهم ، لا التعبير بأنفسهم عنها! الذي يهتف باسم إله من الآلهة او يصلي له ، هو لا يريد هذا الإله ولا يريد الإيمان به ولا ان يستجيب له ولا يعتقد انه يفعل ذلك ، ولكنه يؤمن به ويهتف باسمه ويصلي له لأنه محتاج الى العبادة ، وان لم يكن محتاجاً الى نفس الإله الذي يعبد ! فهو لا بد أن يهتف وإن كان لا يجد الآلهة التي يوجه اليها هتافه ، لهذا يذهب يفترض هذه الآلهة ! لقد خلقت لنا حاجتنا الى الصلاة والهتاف الآلهة والزعماء !

وكذلك الذي يقاتل ويقتل في سبيل وطن او فكرة او عقيدة ، انه يصنع ذلك لأنه محتاج الى ان يعبر عن نفسه بهذا الاسلوب ، اذ هو في ظروف نفسية او اجتماعية تجعل ذلك بالنسبة له محتوماً . والوطن والفكرة والعقيدة ليست في حساب من يضحون في سبيلها الا تبريراً وتشريعاً لما لا بد أن يحدث من حيث الحالة النفسية او المادية ! اذا قتل انسان انساناً آخر باسم عقيدة دينية او باسم مبدأ او وطن ، فإنه لم يقتله بحافز من الاحترام او الحب لذلك الذي قتل باسمه، وانما قتله بتحريض من انفعالاته وظروفه النفسية الخاصة ، لقد تحولت انفعالاته الداخلية الى سلوك خارجي. والذي يضرب بسلاحه في معركة وطنية اومذهبية لا يمكن ان تكون افكاره او مشاعره ، وهو يضرب في تلك الحالة ، مشغولة بذلك الوطن او ذلك المذهب او ذاكرة لهما . ولهذا فان الذين يقتلون باسم الدين والفضيلة ، يقتلون ايضاً من غير دين ومن غير فضيلة . والذين يقتلون لأسباب صغيرة او تافهة من هذه الاسباب العادية اليومية ، هم الذين يقتلون باسم الغضب لله والغيرة على الفضيلة والحق . وقتل انسان مخالف في الدين او المذهب مساوٍ لقتله في النزاع على معاملة مالية صغيرة جداً او غضباً لكلمة طائشة مثيرة ! ولو كنت قاضياً ، لما وجدت فرقاً بين من قتل ملحداً دفاعاً عن الإيمان ، ومن قتل انساناً للخلاف على قليل من المال ، او طمعاً في سرقة مثل هذا المال القليل ! فالقتل في الحالتين تصرف ذاتي لا عقائدي ! جميع هؤلاء يتصرفون ويقتلون

استجابة لحالتهم النفسية ، لا احتراماً لمن يفعلون باسمهم ومن اجلهم ! لقد بلغوا حالة الغليان الوجداني ، فهم فاعلون على كل حال – تحت اي سبب اي تحت اي اسم . والانسان يوزع حالته النفسية بصور مختلفة ، فالذهاب الى المعبد والى الملهى والنادي ، والهتاف بدعاء الالهة وبالشعائر الدينية ، والصراخ بالشكوى والأنين وبلعن الحظ ولعن الاخرين ، والقتل في سبيل الدين او المبدإ او الوطن والقتل للسرقة –كل ذلك تعبيرات مختلفة لحقيقة واحدة ، وكله استنفاد للشحنة النفسية . وليس العمل للفضيلة او العمل للحقيقة او ضدها في حساب احد ممن يفعلون ذلك !

ان ابلغ صور العبادة في معناها النفسي ، ليست الا حركة تعبيرية – انها ضرب من الحركة العصبية والنفسية . وهي في احسن حالاتها نوع من الرقص والغناء والدوران حول الذات وشد شعرات اللحية بلا هدف . ولهذا فان الذين يتركون العبادةوالصلوات للآلهة ،يحتاجون الى الرقص والملاهي الصاخبةوالهتاف للزعماء وزيارة قبورهم اكثر . وما اكثر زوار قبر لينين في موسكو .

الذي يؤمن بأربابه ويصلي لها ويدعوها بحماس وجنون ، ماذا يريد ولماذا يفعل ؟ هل لأنه مؤمن ، هل لأنه فاضل ، هل لأنه ذكي ، هل لأنه مخصوص من الآلهة بالاستقامة والحظوظ السعيدة ؟ ولماذا تخصه الآلهة دون غيره بحبها وحبه لها وايمانه بها وايمانها به؟وهل خصته ففعل،أم فعل فخصته،وهلخصته بسبب أم من غير سبب ، واذا كان بسبب ، فهذا السبب ما سببه ؟ كيف يجعل انسان فاضلاً ثم يجزى على جعله فاضلاً ؟ لقد حوبي مرتين – وكيف يجعل انسان آخر سيئاً ثم يعاقب على جعله سيئاً ؟ لقد ظلم مرتين . ان هذا يشبه ان تسلب انساناً بصره ثم تعاقبه اذا لم ير ، وان تعطي آخر بصراً قوياً ثم تكافئه لأن بصرهقوي!

ولكن كلا . فالذي يلتفت الى الارباب ، لا يصنع ذلك لأنه مخصوصبشيء، وإنما هو انسان يحاول ان يستفرغ فضلاته الانفعالية.وما مثله الا كمثل من يتقيأ او يبكي او يغني بهياج !

وليس في المسألة خطأ فكري ولا صواب فكري ، وانما فيها تعبير له حافز

ونتيجة . ولهذا اختلفت آلهة الناس وعقائدهم وعباداتهم بدون ان يسألوا أنفسهم هل أخطأوا ام اصابوا ، لانهم لا يبحثون عن الخطأ او الصواب ، بل يعبرون عن ذواتهم بأي اسلوب ، تحت اية عقيدة باسم أي إله . فالغرض هو التعبير لا صيغة التعبير . لا بد من الغناء وليكن مؤلف الأغنية أي مؤلف ! وليس مضمون العبادة او الاغنية هو المطلوب ، بل نفس ادائها !

وقد جرب البشر آلهتهم منذ اقدم العصور ، وجربوا عقائدهم . وبعد تجاربهم الطويلة وجدوها لا تستجيب لهم ولا تفهمهم ولا تغير من حالهم شيئاً ، ولكن مع هذا ظلوا يؤمنون بها ويجربونها ويصلون لها . فلماذا ؟ السبب انهم لا يجربونها او يصلون لها لأنهم ينتظرون منها ان تفعل لهم ، لقد علموا انها لا تفعل شيئاً ، ولعلها لو كانت تفعل ، لكان هربهم منها ومصيبتهم بها اعظم . فمزايا الآلهة في انها لا تفعل . وهذا هو سبب ايمان المؤمنين بها ورضاهم عنها وتنزيههم لها !

ماذا يكون الوضع لو كان لكل انسان او لكل قوم إله او آلهة تفعل لهم جميع ما يطلبون منها ، او جميع ما يريدون او جميع ما يحتاجون اليه، او تفعل جزافاً بلا قانون وبلا حساب ، او تفعل ما تستطيع هي او ما يجب عليها او ما ينبغي فعله ؟ ولكن ما الذي ينبغي فعله بالنسبة للآلهة ؟ لا يمكن تحديده ، بل لا يمكن تصوره ولا وجوده ، لأن أي فاعل انما يتحدد فعله بالشهوة والحاجة والضرورة والعجز ، ولو وجد مثل هذا الإله او مثل هذه الآلهة، لما وجد أسوأ من ذلك الوضع ولا من تلك الآلهة ، ولأصبح محتوماً ان يصاب المؤمنون بها بالجنون . وهذا الافتراض يعني الشيء وعدم الشيء ، يعني الاستحالة . ووجود الإله ينافي وجود أي شيء غيره ، لان وجوده يعني ملء كل فراغ من اي نوع ، فلا مكان حينئذ لما سواه. ومن المستحيل ان تبقى حياً او عاقلاً تحت حكم الالهة ! ولو وجد من يمكن ان توجه اليه تهمة انه خالق ، لما وجدت عقوبة تتكافأ مع ذنبه . فالخالقية جريرة فوق كل عقوبة .

ان المؤمنين محتاجون الى ان يجربوا ويصلوا ، وهم لا يفعلون ذلك لأنهم

مؤمنون أو عارفون بمـــا يفعلون ، انهم يصنعون الصلاة والتجربة كما يصنعون الخطيئة والغواية والألم . هم لا يفعلون ذلك طاعة ولا غواية ، لا ايماناً ولا كفراً، بل تعبـيراً عن الذات . انهم كالذين يبكون ويشكون ويصرخون ويشتمون ،لا يعنون شيئاً .

ولو ان المؤمنين الاتقياء فهموا هذه الحقائق ، لكان مفروضاً ان يخفضوا من كبريائهم وتعصبهم وغرورهم . ولكن لا ، لأن النـــاس يتكبرون ويتعصبون بقدر حاجتهم الى ذلك لا بقدر جهلهم بسبب تعصبهم وكبريائهم . وهم يفعلون لأنهم يجهلون اكثر مما يفعلون لأنهم يعلمون !

*

الانسان احتياج ، والاحتياج يتحول الى مشاكل وآلام ، والآلام والمشاكل تتحول الى افكار ومذاهب وعقائد وأرباب . وجميع المذاهب والأرباب والعقائد والعبادات والتنظيمات ، ما هي إلا أساليب تعبيرية !

والانسان لا ينتقل مباشرة من الشعور بالحاجة الى الحاجة ، بل هو محتاج الى ان يفترض فراغاً كبيراً بـين الاحتياج والتعبير عنه ليملأ هـذا الفراغ بالأفكار والمثل والفلسفات والآلهة . وهذه ليست شيئاً في ذاتها ، ولا قيمة لهـا كمنطق وفكرة ، وانما قيمتها في انها تبرر وتشرع الاساليب التعبيرية وتنظمهـا ! البشر محتاجون دائماً الى ان يصرخوا ويتحركوا ، وان يخضعوا صراخهم وحركتهم لنظام ما – أي محتاجون الى ان يحولوا صرخاتهم وتحركاتهم الى عقائد ومذاهب وطقوس وقيود . وقـد ظلوا في جميع مراحـــل وجودهم مفروضاً عليهم ان يصرخوا ويتحركوا في دوائر مغلقـة الى غير ما غـاية ، وان يضعوا صراخهم وحركاتهم في اطارات مذهبية أو دينية أو فكرية – أي يضعوها في قيود !

ان الذين ينحرفون عن الذهاب الى المعابد أو الى البيوت المحجوجة المقدسة ليصلوا ويهتفوا ويذلوا ويتحركوا ويطوفوا ويقبـلوا ويبكوا ويخشعوا ، والذين يكفرون بالكتب المنزلة المقروءة بابتهـال ودموع وشهقات ، والذين ينكرون الانبيـــاء وينكرون التحدث عنهم وعن معجزاتهم وفضائلهم بصراخ وهياج

ونشوة جنسية : ان هؤلاء جميعاً لا بد ،ن يهتفوا ويصرخوا ويصلوا ويخشعوا ويطوفوا ويبكوا في أماكن اخرى وتحت أقدام رجال آخرين ليسوا بأنبياء ولكنهم اقوى منهم . ولا بد ايضاً ان يقرأوا برهبة وسكون وايمان واحترام كتباً ليست منزلة ولا مقدسة، ولكنها اقوى من الكتب المنزلة المقدسة ! انه لا بد من أصنام ونصوص ودعاة وعبيد .

والذين يصلون في معبد أو يهتفون باسم إله أو نبي ، أو يلعنون الكفرة والملحدين وينادون بسقوطهم وهلاكهم ، والذين يهتفون للزعماء والمذاهب والنظريات ويتعصبون لها وينادون بانتصارها – هؤلاء وهؤلاء لا يريدون إلا ان يعبروا عن انفسهم بالصورة والصوت والحركة كالذين يؤدون أعمالاً جنسية . هؤلاء ليسوا فضلاء ، وأولئك ليسوا أشراراً ، فالحوافز والنتائج والنيات من نوع واحد . والاختلاف في الاتجاه الى التعبير بهذا أو هذا ، يرجع الى اختلاف ظروفهم ومستوياتهم الذاتية والفكرية والنفسية .

هذا الانسان التقي الطاهر ، الذي يتغذى بالصلوات والصراخ بين يدي الله وتلاوة كلامه والتوسل اليه بأسمائه الحسنى وبأنبيائه ورجاله المقدسين – هذا الانسان من الممكن جداً ان يتغير اسلوبه في التعبير عن نفسه،وان يختار اسلوباً آخر مضاداً تماماً لأسلوبه في المعبد وأمام الله لو أنه استطاع ان يجد الامكانيات الأخرى للتعبير المضاد – من الممكن أن يستبدل بالمسجد وبمناداة أسماء الله وأسماء أنبيائه أماكن وهتافات وشعارات اخرى ! فالحواجز بين بيوت العبادة وبيوت الخطيئة حواجز ضعيفة ، والذي يذهب الى هذه كان يريد تلك ولكنه أخطأ الطريق أو عجز عن بلوغ غايته . والمسافة بين الله والشيطان مسافة قريبة جداً ، لا يعجز أي انسان عن اقتحامها .

والايمان وعدم الايمان ، ليس برهاناً أو عدم برهان ، ولا قدرة على وعي البرهان أو عجزاً عنه ، ولا فضيلة أو رذيلة ، ولا تقى أو خروجاً على التقى ، ولكنه رغبة في التعبير بما يبرره ذلك الايمان أو رغبة عنه !

وقد كان المتقرر في أذهان الكثير من الباحثين ، ان الناس يؤمنون ثم

يعملون ، أما الحقيقة فهي ان الناس يرغبون في العمل أو يعملون أو يضطرون الى العمل فيؤمنون ، وقد يعملون بلا ايمان ، فالايمان ليس شيئاً ولا هدفاً ولا تعبيراً ، وهو لا يعني اكثر من لغة ، فآمنت بكذا لا يعني الا اردت كذا ، وان كان الانسان لم يستطع ان يحول جميع اراداته الى ايمان كما انه لم يستطع ان يحول كل احاديثه الى كذب . فالإرادة لا تتحول الى ايمان الا تحت ظروف معينة ! واذا لم يكن الايمان شيئاً ولا هدفاً ولا تعبيراً ، فان الحركة والصوت والصورة هي هدف الحياة وتعبيرها وعملها !

وقد يبدو لنا صحيحاً جداً ان الذي يذهب الى المعبد ليصلي انما يقصد ان ينال الثواب والقرب من الإله ، وان الذي يؤم ضريحاً مقدساً او مكاناً مسكوناً بالارواح او حفلة زار لا يريد الا ان يأخذ شيئاً او ان تشفيه تلك الارواح من مرضه او من ألمه باحدى معجزاتها . وهذا احتمال ظاهر ولا خلاف . اما المغزى الكبير في هذا ، فهو ان ذلك الانسان لا يفعل ما يفعل لطلب شيء او نيل شيء ، ولكنه يختار اسلوباً من اساليب التعبير بالصورة والحركة والصوت . وهذه الاماكن وسائل جيدة للتعبير عن ذلك !

ان الايمان عملية وليس فكرة – عملية مثل العملية الجنسية وغيرها من عمليات القذف والافراز . ولا يوجد من يريد ان يؤمن اذا لم يوجد من يريد ان يعبر – اذا لم يوجد من يريد ان يقذف ويفرز . اننا لا نعلم انه قد وجد ايمان بدون تعبير ، لقد كان لكل دين ومذهب طقوس ومحاريب وصلوات ومبكى ! وان من يرفع صوته متغنياً بأية أُغنية يجد الراحة التي يجدها من يصلي بحرارة . ولهذا كانت المجتمعات دائماً محتاجة الى الصلاة والى الغناء معاً . ولم تكن مكانة الكاهن فيها ارفع من مكانة المغني حتى في اكثر المجتمعات تديناً ! بل لقد كانت العبادات والأناشيد الدينية نوعاً منظماً من الغناء ! فالذين يصلون يغنون ، والذين يغنون يصلون ! ووظيفة المغني في المجتمع وظيفة نفسية مثل وظيفة الشيخ الذي يصلي بالناس ! ويخطب لهم !

اما التعبير فكم وجد بدون إيمان !

التعبير عملية افراز وقذف ، لهذا كان عملية الحياة الكبرى !

وقد لوحظ دائماً ان الشبان هم اشد الناس حماساً للايمان بالمذاهب والمثل والآلهة والزعماء والدعـاة الغاضبين اللاعنين ، واشدهم ايضاً تعبيراً عن ايمانهم بالتضحية والعمل والهتاف والهوس رالتعصب والشوق الى سحق المخالفين وبغضهم والغضب عليهم . وتفسير هذا ان الطاقة المختزنة المحتاجة الى التحويل قوية جداً في الشبان ! كما لوحظ ايضاً ان الشيوخ والمستذلين والضعفاء يكونون في العادة أميل الى العبادة والتزلف الى الارباب والمناجاة لهم ، وهذا لأن هؤلاء أقـل قدرة على التعبير عن أنفسهم تعبيراً آخر مضاداً ، فيه معصية ولذة واثم اكبر !

ولا يحتمل ان الشبان او الشيوخ يفعلون ذلك اكثر من سواهم لانهم اكثر فضيلة او معرفة بالحق او حرصاً على الخير ومصلحة النفس .

ان الشبان المراهقين الذين تروعنا حمـاستهم للاديان وايمانهم بالآلهة والزعماء وفدائيتهم في سبيل المبادىء والاوطان، لو انهم وجدوا متنفساً جنسياً او عاطفياً او مادياً كافياً، لفقدوا كثيراً من حماسهم وايمانهم وفدائيتهم العدوانية المقاتلة.

لقد كان هؤلاء الشبان المراهقون هم دائماً الحطب الجيد الذي اشعل منه الارباب والمغامرون والمجانين الطامحون حرائق التاريخ الكبرى . كان الشبان في جميـــع العصور هم الغذاء الغني للبطولات والحماقات والاديان والحروب والمذاهب والخروج على القانون وعلى الأخلاق !

من الخير للجنود في أية معركة لكي يكسبوها، الا يكون معهم نساء ليكون احتياجهم الى التعبير عن طـــاقتهم وانفعالاتهم بقتل الاعداء وكراهتهم اصرخ واعنف! واذا ارتوى المحاربون جنسياً ضعفت فيهم ارادة القتل والعداوة للآخرين. والمحرومون جنسياً هم دائمـــاً اصلب عداوة وحقداً واصخب تعبيراً عن هذه العداوة وهذا الحقد ! ولو ان قادة العالم من الشيوخ ملكوا قدرة جنسية ثم عبروا عن هذه القدرة تعبيراً جنسياً، لتضاءلت الاخطار التي تهدد البشر بالفناء، وكذلك لو انهم عبروا عن انفعالاتهم المضغوطة والمصدومة تعبيراً آخر يطلق صراخهم ويستخرج ما في انفسهم من تجمعات خبيثة . لو انهم استطاعوا مثلاً ان يذهبوا

الى الكنائس ليصلي بعضهم ضد بعض ويدعو بعضهم على بعض ويشتمه ويتمنى له الدمار ويهتف لنفسه بالنصر والقوة – لو انهم استطاعوا ان يفعلوا ذلك – على شرط الا يعلم كل منهم ما يصنعه خصمه ضده ، لكان مفروضاً ان تقل احتمالات الاشتباك بينهم! ان الحالة النفسية تصرف على احتمالات كثيرة . وقد ادى الشيطان للبشر خدمة عظيمة ، كانوا يلعنونه فكان لعنه راحة لأحقادهم ، وتعويضاً لهم عن التعبيرات الاخرى الضارة . لقد انقذ الشيطان الانسان من آلام كثيرة لأنه كان يمتص انفعالاته باطلاقها عليه سباباً وتهماً !

والذين صرخوا في العالم ومنحوه العداوات والاحقاد او الحروب او الفلسفات او الاديان والتعاليم العنيفة الحزينة – كانوا رجالاً عاجزين او محرومين جنسياً وعاطفياً ومادياً ، وكانوا عاجزين عن التعبير بوسائل اخرى !

ان التدين عملية قذف ذاتي ، والذين يؤدون اعمالاً دينية يشعرون بالراحة والارتواء ويظفرون بنوع من الطمأنينة السعيدة ، وهم يفسرون هذه الطمأنينة بأنها راحة الضمير المستقيم ولذة العبادة ، مع ان ذلك ليس سوى الاسترخاء الذي يعقب كل عملية افرازية !

والايمان من غير تعبير يشبه الاحتقان ، قاتل وأليم . والقيمة النفسية لأية عقيدة هي في ان نؤدي طقوسها لا في ان نصدقها .

*

لقد وجد الكون بلا ايمان، وكان يؤدي أعماله بلا ايمان الى ان وجد الانسان، ثم ظل الانسان كذلك يؤدي عمله بلا ايمان ايضاً، وأخيراً وجد الايمان ، وكذلك نحن جميعاً نصل الى هذه الدنيا بلا ايمان ونظل نؤدي أعمالنا كذلك بلا ايمان . إذن فالايمان هو عمل الحركة والتعبير وبعدهما ، وليس سببها ولا هدفها ولا قبلها ! لقد خلق الكون الايمان ولم يخلق الايمان شيئاً من الكون !

وكما ان البشر قد صنعوا القوانين والتعاليم الأخلاقية من وجودهم هم ، لا من وجود هذه القوانين والتعاليم نفسها، فكذلك قد صنعوا الايمان والآلهة والأديان.

وفي الحالتين ليست هذه ولا هذه إلا البشر أنفسهم وليس وجودها غير وجودهم. وهي لا تساوي نفسها وانما تساوي من أوجدوها !

*

نحن لا نهاب الخروج على الايمان أو على النظرية ، وانمــا نهاب الخروج على الواقع، فاذا استطعنا الخروج عليه خرجنا ولم نحترم ايماننا ولا نظرياتنا المضادة. والايمان والنظرية ليسا شيئاً ولكنهما تعبير عن احساسنا بالواقع وعلاقتنــا به ، وهما – أي الايمان والنظرية – لا يهبانِنــا قوة ولا ضعفاً ، لا حماساً للأشياء ولا فتوراً نحوها ، وانما يفعل ذلك قدرتنا أو عجزنا . فلا خطر في الايمان الغبي او النظرية الغبية ، ولكن الخطر كل الخطر في العجز، حتى الشعور بالعجز لا خطر منه، بل الخطر في نفس العجز، بل لو أراد القادر ان يكون عاجزاً لما استطاع، كما ان النهر الكبير الجاري لا يستطيع ان يكون صغيراً ولا ساكنــاً لو أراد ذلك واستطاع ان يريده . ولو اعتقد القادر انه ضعيف لمـا أضعف اعتقاده من قدرته شيئاً . ان أي انسان او شعب يصبح قوياً أو ضعيفاً لم يكن هذا أو هذا لأنه أراده ولا لأنه آمن بقوته أو بضعفه ، كما ان قوة قلب أي انسان أو ضعف قلبه أو جهــازه العصبي ليس نتيجة لارادته لهذا أو لهذا ، ولا نتيجة لايمــانه بهذا أو هذا .

والمفكرون والمصلحون يظنون انهم يصنعون شيئاً مفيــداً حينما يدعون الناس الى أن يريدوا القوة أو يؤمنوا بقوتهم لكي يكونوا كذلك . ان ارادة القوة لا تصنع القوة ، وكذلك الايمان بها ، ولكن القوة هي التي تصنع القوة !

ولماذا نريد القوة أو الضعف ؟ ولماذا نؤمن بأننا أقوياء أو ضعفاء ؟ ان كل هذا هو انعكاس قوتنا وضعفنا لا سببهما .

ان أي هجوم على النظريات والعقائد الضعيفة لا يجدي شيئاً ، كما ان الدعوة الى العقائد والنظريات القوية لا تجدي كذلك أية جدوى. ولو ان أي انسان قد لقن جميع المعتقدات والأديان الغبية التي تحرم كل قوة وذكاء فآمن بها، وكان في نفسه

يحمل بذور القوة والعبقرية ، ثم وجد في ظروف تبيح له ان يكون قوياً عبقرياً لما استطاعت تلك الأديان والمعتقدات ان تنقص من عبقريته شيئاً إلا بقدر ما تستطيع الدعوات أو الخرافات ان تنقص من جريان النهر ومن عظمته اذا ألقيت فيه مكتوبة على بطاقات مزخرفة !

ان التهويل من شأن النظرية والعقيدة يشبه التهويل من شأن الأشباح .

●

مِن الوحشية ان تكون اخلاقياً.. وَمِن المستحيل

أنا لا أحب الحقيقة ولا أكرهها ، وإنما أحب ما يلائمني وأكره ما سواه . لست أحترم شيئاً أو أدافـع عن شي لأنه عدل أو حق ، ولكن لأني أهواه أو أستفيد منه أو أعيش فيه أو أدافع عن نفسي وأثني عليها بالدفـاع عنه والثناء عليه، أو لأني عاجز نفسياً أو اجتماعياً عن الخروج عليه وعن التلاؤم مع نقيضه! ولهذا فاني لن أعاني أية صراعات نفسية أو أخلاقية لكي أختـــار موقفي حينما تكون نظرياتي وعقائدي وتعاليمي في طريق غير طريق مصالحي وأهوائي ! ان أفضل انسان لن يجد أية معاناة لكي يطيع ذاته ويعصى مثله ! اذا اتبعت الحق أو احترمته فليس لأني فاضل ، واذا اتبعت الباطل أو أحببته فليس لأني شرير، ولكن لأني في الحالتين انسان . أنا أفعل الخطأ بالإصرار والحماس اللذين أفعل بهما الصواب ، ولست في الحقيقة أفعل هذا ولا هذا ، بل أفعل دائمـاً ذاتي لأني أناني . ومجموع أنانيات البشر الفردية يساوي مجموع فضائلهم الاجتماعية ! الحقيقة لا تكون هدفاً ، ولكنها قد تكون الطريق الى الهدف !

أنا أفكر وأتكلم كشريعة ، ولكني أحيا وأنفعل وأخطىء كطبيعة !

أنا اتهم قائل الحق بقدر ما أتهم قائل الباطل ، هـــذا يسير الى هواه فوق الحق ، وذاك يسير الى هواه فوق الباطل ، فأيهما الفاضل ؟

اذا علمنا الناس الدين والأخلاق ، صنعنا منهم منافقين كذابين متناقضين ، ولم نصنع منهم متدينين ولا أخلاقيين ، إذ أنهم من الناحية النفسية والسلوكية سيكونون خاضعين حتماً لاحتياجاتهم وطبيعتهم ، ومن الناحية النظرية سيكونون ملزمين بالتوافق مع ما تعلموا . ومعنى هـذا أن يكونوا ملوثي الذوات نظيفي الثياب ، معناه أن يجمعوا بين الرياء والخطيئة ! فالدعاة الى الأديان والأخلاق لا يعطون الناس شيئاً غير أن يضعوهم في موقف يحتم عليهم أن يكذبوا وينافقوا ويتناقضوا . فتعليم الأديان والأخلاق يؤدي حتماً الى مزيـــد من الخروج على الأديان والأخلاق ، أي إن الايمان يحمل دائماً نقيض تعاليمه ! ولم تستطع جميع التعاليم الدينية والأخلاقية أن ترفع من مستوى الاستقامة عنـد الانسان في أي عصر من العصور ، ولم يشعر الشيطان في أية فترة من فترات التاريخ ان تعليم الدين أو الأخلاق قد يهدد سلطانه بالزوال أو النقصان أو بأية أزمة من الأزمات ! لم تهدد التعاليم مصالح الشيطان في أي وقت من الأوقات . ولن يوجـد أي فرق أخـلاقي بين أكبر الدعاة الى الايمان وأكبر الدعاة الى الإلحـاد ، والفروق بينهما هي دائماً فروق غير أخلاقية وغير دينية ! والناس لا يمكن أن يتفاوتوا في تدينهم وأخلاقهم وإنما يتفاوتون في حياتهم !

ان رجل الدين ضعيف أمام أوامر ذاته ورغباتهـا واحساسها بقيمة المعصية وبضغطها وحتميتها كضعف الخارج على الدين او أشد ، وقد يختلف نوع المخالفة والطاعة التي يأتيها كل منهما لاختلاف الظروف والأوضاع والخصائص ، ولكنهما لا يختلفان في ان كلاً منهما لا بد أن يعصي وأن يطيع . والطاعـــة والمعصية لا تعنيان الاستمساك بالدين والاخلاق ولا الخروج عليهما ، بل تعنيان التوافق وعدم التوافق ، فهما إذن ليستا خضوعاً للتعاليم ولا تمرداً عليها . فاذا فعل المؤمن ما يأمر به الدين أو ما تأمر به الاخلاق ، فهو لا يفعل ذلـك لأنه مؤمن متدين ولا لأنه أخلاقي ، وانما يفعله لأنه انسان يتحرك في كل الجهات ويقتات بكل البقول ويخضع لكل أنواع الإغراء . يخضع لإغراء الطاعـة كما يخضع لإغراء المعصية ، وقد يجد هوى نفسه في العبادة أكثر مما يجده في التمرد ، وقـد يكون عاصياً

فاسقاً اذا أطاع الأوامر أكثر من كونه كذلك اذا عصاها . ولا تعني الصلاة غير ما يعنيه الرقص في تعبير الإنسان عن حاجته الى الحركة والى تحويل شحنته النفسية الى أسلوب تعبيري . والفضيلة تصبح أحياناً شهوة لا معاناة ، فاذا أصبحت معاناة فلن يوجد من يلتزمها .

اختيار الإنسان لمواقفه الطيبة والرديئة ليس موضوعاً دينياً ولا أخلاقياً إلا في الصورة واللغة . أليس الذي يموت دفاعاً عن الحرية والعدل كالذي يموت دفاعاً عن الطغيان والكذب ، كلاهما انما يستجيب ويخضع لهواه لا لمثله الأعلى ؟ ولهذا فان موضوعات أخلاقنا هي دائماً مواقفنا ، لا حوافزنا ولا أهدافنا ، فالحوافز والاهداف لا يمكن كما لا يصح نقدها ولا توجيهها لأنها لا تخضع لأي توجيه أو تعليم ، فلا تجوز المحاسبة عليها ولا مجازاتها ، إذ هي لا تتأثر بالترغيب أو الترهيب . والرجل الاخلاقي المثالي بالنسبة لك ولي ، هو من يقف منا موقفاً يتلاءم مع رغباتنا أو مع نظرياتنا ، وليس هو من له طبيعة مثالية . وعاجز جميع ما لدى البشر من أديان وقوانين وعقوبات ، عن ان يصوغ طبيعتهم النفسية أو الاخلاقية صياغة جديدة . وكل ما يحدث انما هو تأثير على الموقف والاسلوب لا على الطبيعة . ونحن حينما نتحول الى رسل وكتّاب ومصلحين ، ندعو الناس الى ان يكونوا فضلاء ومنزهي النيات والحوافز ، هل ندرك اننا ندعو الى محال؟ وإذن لماذا نفعل ؟ والداعية الذي يذهب يزعم ان حبه للبشر هو الذي خلق منه كاتباً أو مصلحاً أو نبياً ، هو انسان يبالغ في مجاملة نفسه والثناء عليها ، وقد أصبحت مبالغة الدعاة في مجاملة أنفسهم شيئاً معتاداً ومتكرراً بحيث لا يثير دهشة أحد .

ومن الغباء الشائع ، أو الكذب الشائع ، ان الدعاة والكتّاب كانوا في كل العصور والظروف يطلبون الى الناس ان يتمردوا على مصالحهم وأهوائهم ، احتراماً للحق والعدل والفضيلة والمنطق ، كأن مثل هذا التمرد يمكن ان يحدث وكأنه شيء غير مستحيل ، وكأن الإنسان يستطيع ان يكون ذئباً أو حملاً أو ما شاء بالإرادة أو بالأمر ، وكأن الذئب يستطيع ان يكون حملاً ، والحمل يستطيع ان

يكون ذئباً ! وكم يكون الامر مذهلاً اذا كان هؤلاء الكتّاب والدعاة يصدقون أنفسهم فيما يزعمونه من جدوى محاولاتهم لإصلاح الاخلاق وتطهير النفوس . ان جميع ما عند البشر من ذكاء وعلم وتعاليم وتاريخ وجنة ونار وآلهة وأنبياء لا يستطيع ان يجعلهم يحبون العدل أو الحق أو الناس حباً دينياً أو أخلاقياً لا يخضع للهوى والأنانية . نحن أنانيون فقط ، ولكن أنانيتنا لا تتحقق احياناً إلا بأن نكون فضلاء ، بأن نعمل للحق وللآخرين ونؤثرهم ونناضل لإسعادهم ، وقد نموت دفاعاً عنهم توكيداً لأنانيتنا . وهذا معنى الحضارة وقيام المجتمعات .

لا يولد موقف الانسان معه ، ولكن كل انسان يصنع موقفه تحت عدد لا حصر له من الاحتمالات الحمقاء . ولهذا فما من انسان إلا ويمكن ان يكون فاضلاً بقدر ما يمكن ان يكون رديئاً – أي بموقفه . فالبطولة ومثلها النذالة احتمال لا ولادة . ولعلنا نحن البشر نسمي بطلاً كل من لم يجد الفرصة لكي يكون نذلاً ! وليس في الناس من يساوي ذاته فقط أو احتمالاته فقط ، بل كل شيء يساوي ذاته واحتمالاته معاً . ولما كان البشر غير متحددين في أية صورة من صور الكينونة ، كان ممكناً دائماً ان يأخذوا بأي نظام وان يتخلوا عنه بنفس السهولة والحماسة . وما من نظام تحياه أية جماعة انسانية ، إلا ويمكن ان تحياه كل الجماعات الانسانية الاخرى على مستويات مختلفة . واذا رفض قوم ما نظاماً يحياه أقوام آخرون ، فلن يكون السبب في النظام نفسه – لن يكون السبب ان ذلك النظام لا يتناسب مع الذين رفضوه، ولكن السبب هو اسلوب فرضه – السبب هو انه لم يفرض عليهم بالاسلوب الذي فرض به على الذين قبلوه . ولهذا فانه يمكن ان يقبله الذين رفضوه ويرفضه الذين قبلوه لو اختلفت الوسائل . وليس الذين يقبلون شكلاً من أشكال الحياة متناسبين معه اكثر من الذين يرفضونه . واذا قال قوم ان نظاماً معيناً غير صالح لهم ، كان المعنى انهم لا يريدونه ، لا انه حقاً بطبيعته او طبيعتهم لا يصلح لهم .

ان البشر باحتمالاتهم يقبلون كل نظام ثم يختلفون في القدرة على القيام به لاختلاف خصائصهم وظروفهم ، كما يقبلون كل خرافة ودين ومذهب ! وانتقال

الجماعات من مذهب او نظام الى مذهب ونظام آخر ليس انتقالاً مما لا يلائم الى ما يلائم ، وانما هو انتقال تحتمه الحركة والقلق الدائمان الذاتيان ،إذ ليست هناك حدود فاصلة او مفهومة بين ما لا يلائم وما يلائم، كما لا توجدتعريفات تحدد كلاً منها. والعالم يشاهد اليوم بلاداً عديدة ومختلفة المستويات قد اخذت بنظام معين واحد لم تأخذ به بلاد اخرى قد تكون اكثر تقبلاً له من حيث التفكير. والسبب انه فرض في حالة بالثورة ، ولم يجد من يفرضه في الحالة الاخرى ! والبشر هم الذين يتلاءمون او يرفضون التلاؤم ، يتلاءمون مع ما هو موجود ومع ما يفرض عليهم . فالتلاؤم في الناس لا في عقائدهم أو أساليب حياتهم . ولهذا فقد ظلوا في كل التاريخ يتلاءمون مع أتعس المذاهب والعقائد والنظم وأغباها حتى كأنها أذكى المعارف وأزكاها وأعدلها، وكانوا لا يشكون منها وإن شكوا فمن أنفسهم لا من مذاهبهم أو عقائدهم أو نظمهم، كما كانوا يرون ان تلك المذاهب والمعتقدات والنظم خالدة لا تزول ! ان نظامين متناقضين قد يطبقان على بلد واحد ، بل لقد طبقا في تجربة عملية مشهودة على جانبي مجتمع واحد، فبدا الجانبان متلائمين مع نظاميهما المتناقضين الى أبعد حدود التلاؤم ، بل ان المجتمع المتخلف او المتطور قد يأخذ بنظام واحد فيتلاءم معه ، ثم يأخذ بنظام آخر مناقض له فيتلاءم معه ايضاً بنفس النسبة !

وكل هذا يعني مرونة الانسان في صياغة أفكاره ومشاعره وعقائده وسلوكه واستعداده العجيب لقبول كل ضغط ولعبادة كل الاصنام المختلفة الاخلاق والمواهب بحيث يستطيع ان يطيع كل آمر ويتلاءم مع كل شيء – مع كل شيء ونقيضه ، مع الهزيمة والنصر والخرافة والحقيقة والحرية والطغيان ، ومع النظام والفوضى والايمان والتمرد على الايمان ، بل ومع اللذة والألم . ولهذا كان من غير الصحيح بالنسبة للمجتمعات ان الضغط يولد الانفجار ، لأن هذه المرونة تجعل الضغط مهما كان قاسياً ،لا يجد مقاومة من الداخل ولا ردود فعل،بل قد يجد احياناً كثيرة استجابة واستسلاماً وتلاؤماً . والانفجارات المعروفة التي حدثت في التاريخ، لم يكن سببها الضغط ، وأقسى أنواع الضغط في التاريخ لم يحدث اي انفجار ، لقد

كانت المجتمعات تمتص كل ضغط يقع عليها ، كان الانسان يبتلع جميع الآلام بصبر وموهبة كأنها المعجزة !

ومن الحقائق المذهلة ان الضغط القوي على أي مجتمع يتحول فيه الى أفكار وعقائد وحالة نفسية يقتات بها بدل ان يتحول الى انفجار، أي ان اهانة المجتمع تتحول فيه الى ايمان وعقيدة وعبادة ، والى اخلاق وتقاليد مرعية . وهزيمة أي عهد او نظام لا تعني هزيمة أي نوع من أنواع الضغط ، وانما تعني ان ضغطاً آخر قد أقبل ، كما ان هزيمة أحد الآلهة لا تعني هزيمة ذلك الإله ، ولكن تعني ان إلهاً آخر في الطريق . والآلهة تنتصر على الآلهة وعلى الجماعات دون ان تنتصر الجماعات على شيء. ومجموع أحداث التاريخ هي مجموع معارك الارباب وتحركاتها! قصة الانسان هي قصة أربابه ومغامراتهم وخلافاتهم وما حاكوا من مؤامرات وأبدعوا من حروب وعانوا من آلام !

ان في الانسان دائماً استعداداً لا ينضب لهضم الآلام والمشاكل مهما كانت صعبة الهضم ، فلا يحدث ان تصاب أخلاقه أو تفكيره أو نفسه أو عقائدة بعسر الهضم وأن تجرع اكبر المقادير واردأ الأنواع من الغباء أو الظلم أو الفساد أو الكذب أو من الخرافات والاهانات ! انه يهضم كل ما يهين كرامته وعقله وما يعذب ذاته ويصنع منه غذاء ممتازاً تقتات به روحه ، ويفسره تفسيراً يرضى عنه منطقه ، ثم يحوله الى أديان ومذاهب وفنون تهبه الصبر والعزاء والابتسام والبلادة . ولم يكن ابتكار العقائد والنظريات الاخلاقية التي كان الانسان يحابي بها ضعفه ، الا اعتذاراً يقدمه الى نفسه لتغفر له شدة هوانه وشقائه وغبائه وقدرته الخارقة على قبول كل ذلك بالصبر الجميل الطويل ! لقد تحمل الانسان في تاريخه الطويل أقسى الآلام والاهانات ، وكان مستعداً دائماً ان يتحمل اضعاف ما تحمل بصبر يزداد على الأيام نضجاً وتسامحاً وقوة ، ليواجه كل ما يلقى ويعيشه ، وهو يتلو الأناشيد المرحة السعيد في تمجيد نفسه وتمجيد حياته وما فيها من قيم ودلالات عليا . لقد كان يقتات بكل الأطعمة التي تقدم اليه بتواضع وشهية ، ولم يكن يشترط فيما يوضع بين يديه أية شروط لا أخلاقية ولا منطقية ولا اي شيء ، كما لم يكن يعرف

أي ذلك أحسن مذاقاً او أجود صنفاً ، انه لم يكن يعاف شيئاً . كان يحيا تحت كل الظروف والمناخات وينمو ويعطي نفسه وطاقته كذلك بلا كبرياء ولا عصيان!

انه لا حد لما يمكن أن يجرب البشر ويستسيغوا من هوان وقسوة وغباء! لقد أخجلوا الآلهة والطغاة والدجالين من طول ما آمنوا وأطاعوا وتعذبوا وصبروا! انهم لم يرتفعوا عن الطبيعة في قبولها لكل ما فيها من شرور ومظالم!

لقد صنعوا الحضارة والعبقرية والفنون والرخاء. تحت كل الشعارات والنظم والعقائد ، تحت الدكتاتورية والديمقراطية والجمهورية والملكية والرأسمالية والاشتراكية ، وتحت الالحاد وتحت كل شيء ، حتى لقد أصبح من الخطأ المضمون القول بأن بعض المذاهب او العقائد او النظم أصلح من بعض لنمو موهبة الانسان ولقدرته على التلاؤم معه! لقد استطاعت كل العقائد والنظم المتناقضة ، وكل الآلهة والطغاة ، وكل الحكام الصالحين أيضاً ان يتعاقبوا على المجتمعات ، يذلونها ويسرقونها ويجلدونها ، فتحني لهم رأسها في بلادة وهوان غير مختارة لنفسها ، ولا مفرقة بين الشيء ونقيضه. ولم يكن وقوعها تحت نير هذا النقيض دون نقيضه ، ذكاء ولا احتفاء بالحقيقة ، ولكنه كان عشوائية او ضرورة او الزاماً من الاعلى . واذا حكمها أفضل الحكام او افضل العقائد والنظريات والمذاهب ، فليس لأنها تستطيع ان تختار او تحسن الاختيار ، ولكن كما تقع ايضاً في قبضة اسوأ الحكام والمعتقدات والنظريات والمذاهب ، انها المصادفات التي لا تعني ذكاء ولا بطولة!

وليس توزيع المذاهب والنظم والآلهة بين المجتمعات قائماً على العدل والوعي وعلى ان كل مجتمع يأخذ ما يناسبه وما يصلح له دون غيره في الوقت الملائم المحدد والدليل على ان الامر ليس كذلك ، ان هذا التوزيع يمكن تغييره بضربة واحدة مفاجئة قوية ، وبدليل انه يمكن دائماً فرض أية عقيدة أو مذهب او نظام بالقوة ويمكن إزالته أيضاً بالقوة ، كما يمكن فرض اي شيء آخر بهذه الوسيلة نفسها . ان اي نظام قائم الآن في اي مكان يمكن نقله الى اية بقعة في العالم بالوسائل المعروفة كما يمكن إزالته من أية جهة من الدنيا ووضع اي نظام آخر مكانه وكأن الأمر شيء عادي!

وإذن فلماذا تقوم الثورات وفي كل التاريخ وجدت ثورات؟ لقد كان المفروض بل المحتوم الا تقع اية ثورة في اي عصر ، اذا كان الناس لا يبحثون عن أوضاع

معينة ويرفضون نقائضها ؟

ليس للثورة اسباب او مقاييس متحددة خارج نفوس الثوار . قد يثور قوم في ظروف تجعل آخرين ينكرون الثورة أو يقاومونها . الثورة هي دائماً حالة نفسية ، لا حالة اخلاقية ولا منطقية ! وهذه الحالة النفسية لا تصنعها ظروف خاصة . الناس لا يثورون او يتغيرون لأنهم مظلومون أو محرومون أو متألمون او لأنهم شاعرون بذلك، وإنما يثورون حينما يوجد مغامرون يحركونهم ويقودونهم الى الثورة . فسبب الثورة ليس في الظلم او الحرمان او في الاحساس بهما ، بل في وجود المغامرين . ولهذا فلا ينبغي ان نتوقع الثورة حتماً من اكثر المجتمعات سوءاً وتأخراً وألماً . ولم يحدث أن كانت الشعوب الثائرة هي أشد الشعوب حرماناً او أقلها نصيباً من الحياة والعدل ، بل لقد كان الذين يثورون ، او على الأصح ، كان الذين يقودون الثورات ، هم في الغالب من ذوي المستوى الحسن على نحو ما . ولا يمكن ان يكونوا من ذوي أسوأ او أدنى المستويات. والذين يحيون حياة مندحرة وذليلة تماماً ، قد تخور قواهم ويفقدون كل رغبة أو قدرة على النهوض ، فيحتاجون حينئذ الى من هم أفضل حياة منهم لكي يخرجوهم من ورطتهم السحيقة . والآلام الباهظة قد تصنع الذهول والاغماء والرغبة في البكاء والاستسلام وتفقد الشعور بالهوان، بل وبالآلام نفسها ، وقد يتحول الألم الشديد الى موت ، ولا يستطيع اقسى انواع الظلم والحرمان والتأخر والفساد ان يكون سبباً لأية ثورة . والثورات التي تقع على امتداد التاريخ ، هي في الواقع تصرفات عادية مثل الضرب والشتم والغضب والعصبية ومظاهر التعب ومثل اعمال التجارة وإطلاق النار على الحيوان ، تتحول تحت الظروف الملائمة الى اساليب ثورية . فالثائر ليس إلا لصاً او قاتلاً او تاجراً ، قد اضطرته الظروف، او اضطره النصر الى ان يغير سحنته ويخفي ذاته وملامحه الحقيقية الرهيبة الكريهة تحت شعارات المجتمع وضروراته ومكاسبه المتراكمة . والفرق بين الثائر والمجرم العادي ، ليس فرقاً اخلاقياً او نفسياً ، ولكنه فرق اجتماعي . ولهذا فإن كل ثائر هو في نفس الوقت عدو للثورة ، فهو لا يثور لأنه يحترم الثورة او لانه يؤمن باهداف ثورية

دائمة ، بل ليكون هو ثائراً ، ليكون مالك ثورة، ليكون بطلاً او لصاً كبيراً.
فاذا كانت الثورة ضده ، حاربها كأقوى الاعداء . انه في كثير من الاوقات يوجد ثوار ، ولكن لا يوجد اصدقاء للثورة ، وقد يعادي الثائر الثوار الآخرين أشد العداء ، قد يعاديهم اكثر مما يعادي خصوم الثورة . قد يرى الثائر في الثائر الآخر منافسة خطيرة لا يراها في غير الثائرين .

ان الثورة عملية افتراس ، اهدافها وحوافزها الاعتداء والانتصار ، حتى في افضل صيغها . والثائر لا يثور لانه يبحث عن اية حقيقة خارج ذاته ، او لانه ينكر شيئاً ، فليس لاي ثائر اية اهداف خارجية ، خارج ذاته ، اذ كل ثائر يعبر عن ذاته بالاسلوب الذي تعبر به الطبيعة عن ذاتها حينما تبطش او تتحرك . نحن لا نثور لانه يجب ان نثور ، ولا نرفض الثورة لانه يجب رفضها ، بل الثورة اسلوب من سلوك القطيع ، فهي حركة متتابعة بلا وعي ، كما يفعل القطيع في تتابع افراده دون ان يدري أو يناقش ولولا روح القطيع في الانسان ، لما قامت اية ثورة كبيرة . إن الناس ينتظرون من يضرب او يدمر او يكره او يعتقد أولاً ليفعلوا مثله بغباء حيواني. اما الذين يبدأون اولاً، فهم اجهزة التفجير التي لا بديل عنها . قد توجد كل المبررات الادبية والعقلية للثورة ، ثم لا توجد الثورة ، وقد توجد الثورة بدون مبرراتها الانسانية . والمجتمعات التي لا تثور ليس لانها صالحة او راضية عن نفسها وعن حظوظها او مستغنية عن الثورة ، وهي ليست حتماً افضل من التي تثور ، وانما هي مجتمعات لا يوجد فيها صانعو الثورة ، لانه لا يوجد فيها ظروف الثورة ونفسيتها او القدرة عليها ، اما لانها متعبة ومتأخرة جداً ، وإما لاسباب اخرى .

والشرط الدائم للثورة وجود ثوار لا وجود اوضاع تنادي الحاجة او التعاليم او الرجولة بالثورة ضدها ، فالثورة رجال لا اوضاع . والرجال لا يجيئون على مقدار الظروف والاوضاع والمنطق والضرورات الموجودة او التي قد توجد ، وانما يجيئون على غير مقياس كما يجيء الذكاء والغباء والطبيعة . وليس لأي شيء مقياس او ضرورة من ذاته ، بل البشر هم مقاييس الأشياء وضروراتها . اذ لا

توجد ضرورات او مقاييس خارجية . وقد عرفت كل المجتمعات الثورة والثورة المضادة للثورة ولكنها لم تعرف الفرق ولا الحدود بينهما ، ولم تعرف كذلك أيتهما الخالصة لأن الاخلاص كلمة ضخمة بلا تفسير في اية لغة ، ولأن الحدود اوالفروق موجودة في ارادتنا لا فيما نريد . واذا كانت المجتمعات المتطورة او بعضهـا لا تعالج امورهابالثورة ،فليس السبب انها قد وجدت أفضل الأشياء وانها احترمت هذا الذي وجدت وكرهت أن تغـيره ، او انها لا تشكو شيئاً ، ولكن السبب ان الثورة فيها غير ممكنة او غير مغرية ، او أنها لا تصلح ان تكون فيها اسلوباً من اساليب التعبير عن الذات . ان البشر لا يجيئون طبقاً لمثل خارجية محددة ، بل المثل تجيء طبقاً لهم ، فالانسان هو دائماً نموذج نفسه ، والنماذج التي يريد أن يكونها ليست سواه . فلا توجد إذن حقائق معروفة يثور النـاس او يسعون لتحقيقها ! اذا ثار المظلومون المعذبون فليس لأنهم مظلومون معذبون، واذا لم يثر السعداء المحظوظون ، فليس المانع لهم من الثورة سعادتهم وحسن حظوظهم، بل أكرر ما قلت من قبل ، وهو ان السعادة قد تكون احد اسباب الثورة والتبرم ، والشقاء قد يكون احد اسباب الهزيمة والصبر الذليل.وأيهما يثير سخطالانسان : العدل ام الجور ؟ لقد ظل البشر في كل تاريخهم ، راضين عن الطبيعة مـع شدة جورها ، حتى حولوا جورها إلهاً ممتاز الاخلاق . ولكنهم كانوا مع ذلك ثائرين عليها بالمعنى ، لأنهم كانوا يغيرونها ويعملون ضدها ! ولو كان الظلم او الفساد يصنع الثورة ، حتماً لثار البشر جميعاً وفي كل الازمان ضد الطبيعة ، ولمـا احترموا منطقها او حكمتها !

ان الثورة كمقاومة الثورة كلتاهما تعبير عما نريد لا عما نحترم. والثورة والكف عن الثورة هما دائماً تصرفان ذاتيـان ، والبشر يصنعون الثورات او لا يصنعونها بالاسلوب الذي بـــه يغضبون ويلعنون او لا يغضبون ولا يلعنون في مواقفهـم ومعاملاتهم اليومية العادية . والحـــالة النفسية التي هي ثنائية الذات والظروف الاخرى تفصل في الاتجاه الى هـذا او الى نقيضه ، والفرق بين الثائر وغيره في موقف متشابه فرق نفسي متألف من عدة فروق ذاتية .

ان القول بحتمية التاريخ ليس صحيحاً اذا كان المراد بذلك سير الإنسان أو حياته في طريق محتوم مكتوب مقدماً تمكن معرفته بالقراءة أو بالتفكير ، أو كان المراد اتجاه البشر وحياتهم دائماً الى الأفضل . وما هو الأفضل ؟ انها لغة انسانية لا تعني شيئاً ، لا في الطبيعة ولا في حياة الانسان ، بل ولا في تفكيره . ان تاريخ الانسان ليس شيئاً خارج الانسان أو فوقه ، بل الانسان هو تاريخه . والبشر لا يسيرون حتماً في طريق مرسوم على الورق ، لأن ارادتهم وتفكيرهم وقدرتهم وظروفهم ونزواتهم غير متحددة لا بالمنطق ولا بالأخلاق ولا بالقوانين الطبيعية ولا بأي شيء ، وهم في أهوائهم ومنطقهم وسلوكهم لا يبحثون عن الأحسن ، ولا يعرفون ما هو الأحسن ، ولا يستطيعون ان يحققوا دائماً ما يرونه الأحسن . فكل شيء فيهم احتمال ، فالتاريخ الذي هو من خلقهم احتمال ، ليس فيه حتم إلا اذا كان في مصير أي انسان أو في حياته حتم . الحتم لا وجود له إلا في لغة الآلهة وخيالها ، أما الأشياء فلا حتم فيها — ان الفراغ هو الحتم الدائم .

ولا يمكن أن تسير كل المجتمعات في اتجاه تاريخي موحد إلا اذا كان من المستطاع ان يسلك جميع الأفراد في حياتهم سلوكاً واحداً، أو ان تتشابه جميع وحدات الطبيعة تشابهاً مطلقاً في حركاتها وصفاتها . ولو أخذت جميع الشعوب بنظام واحد وسارت في مجرى واحد في زمن واحد تحت ضغط الظروف أو الإغراء القوي أو المحاكاة أو القهر أو مقاومة التحدي الرهيب أو تحت أية قوة أو معجزة قاهرة ، لكان من المحتوم ان تختلف وتتفرق يوماً ما خاضعة لقانون الاحتمال العام .

والحكم على التاريخ بالحتمية حكم مذهبي خاص ، فكل صاحب مذهب يقول بحتمية التاريخ، وهو يعني ان مذهبه هو الطريق الوحيد للتاريخ — هكذا يقول الشيوعي والاشتراكي والرأسمالي والملحد والمؤمن والمسلم والمسيحي وكل صاحب عقيدة أو مذهب . فأي ذلك هو الحتمي ؟ وأي هؤلاء قرأ التاريخ ورصد كل حركاته قبل ان يكون ؟

ولا يوجد بين الكائنات كلها من يحمل تناقضاً في احتمالاته الأخلاقية والنفسية

والتاريخية مثل الانسان ، ان ما يريده ويستطيعه غير متحدد ، وإذن كيف يتحدد تاريخه أو سلوكه ؟ بل هو لا يستطيع ان يعرف ما يريد أو يريد ما يعرف ! ان كل انسان ينطوي على نقيض نفسه ، أي على نقيضه الأخلاقي . والتزامه لهذه الاخلاق المعينة مساوٍ في احتمالاته لالتزامه للأخلاق الأخرى المناقضة لها ، وهو يفعل هذا أو هذا بالقانون الذي يعشق به فلانة أو فلانة ، ويصادق فلاناً أو فلاناً ، ويختار هذه المهنة دون تلك . وقد يتحول من سلوك الى آخر كما يغير اتجاهه في السير ، وكما ينتقل من مكان ومنزل الى مكان ومنزل آخر بنفس الحوافز والأهداف الاخلاقية ، ولكن ليس بنفس السهولة لأسباب ليست أخلاقية . ومن الصعب جداً أن يوجد من يستطيعون السير كل حياتهم في طريق أخلاقي واحد ، ولو حدث مثل هذا ، لوجب أن نعلم ان هؤلاء القوم ليسوا عقلاء ولا فضلاء، وأن نعلم ان في الأمر شيئاً غير عادي – شيئاً ليس سببه الاستمساك بالأخلاق ولا الخروج عليها ، انه شيء لا يحمد ولا يذم لأنه مثل سلوك الأحجار وقوانينها الذاتية التي لا تعني فضيلة ولا رذيلة ولا شيئاً ! فالفضيلة الدائمة بلادة دائمة أو كذب دائم . ان الذي يلتزم بأخلاق معينة كل حياته لا يخونها ولا يفكر في خيانتها،لا يمكن ان يكون أخلاقياً، بل ولا يمكن ان يكون حياً أو انساناً ، أعني ولا يمكن ايضاً ان يكون موجوداً ، لأن الأخلاقي هو الذي يفعل الشيء ونقيضه ويريد الشيء ونقيضه بنسبة متحركة في وقت واحد أو في وقتين مختلفين. الأخلاقي هو الذي يصدق مرة واحدة ليكذب عشرات المرات ، ويكون شجاعاً في موقف واحد أو في عدة مواقف ليكون جباناً كل حياته ، ويرفض باسم الشرف ان يبيع نفسه سراً بثمن أقل ضرراً وتحدياً للمجتمع ليبيعها جهراً بثمن أكبر ضرراً وتحدياً باسم الشرف ايضاً !

والذين يبدون لنا محافظين على مستواهم الأخلاقي أطول مدة ، هم قوم بارعون يتقنون فن التغطية والتستر على الفضائح الكبيرة ! ان اعظم رجل روحاني في التاريخ ليعيش في ذاته اكبر لص واكبر قاطع طريق ، بل وانه ليمكن ان يكون كذلك ذات يوم ، بل لعله قد كان ، كما ان ذات اكبر لص

واكبر قاطع طريق يعيش فيها ايضاً اكبر قديس ، وان واعظ المعبد كان يمكن ان يتحول الى سارق لشموع المعبد ، كما ان سارق الشموع كان يمكن ان يصبح واعظاً عظيماً في اكبر كنيسة أو اكبر مسجد . ومن المحتوم ان احتمالات اعظم زعيم أو اعظم قائد عبقري – احتمالاته الذاتية والاخلاقية تؤهله لكي يكون تاجراً صغيراً او مرابياً في قرية نائية ، او ساقياً في احدى الحانات .

ان في كل شيطان احتمالات اكبر ملاك ، وفي كل ملاك احتمالات اكبر شيطان ! في كل بطل احتمالات نذل، وفي اكبر الأنذال احتمالات اكبر الأبطال، بل في كل انسان كل الاخلاق ، ففي الانسان الفاضل كل الاخلاق الرديئة ، وفي الرديء كل الاخلاق الفاضلة . وليست الظروف وحدها هي التي تجعل البشر هكذا او هكذا ، بل واحتمالاتهم الذاتية ، فالانسان في كينونته الاخلاقية احتمال مطلق ، وهو من حيث الاخلاق يكون هذا أو هذا بلا معاناة . والمعاناة التي يحسها كثير من الناس حينما يواجهون مواقف مخالفة للسلوك العام أو للتعاليم المكتوبة ، هي معاناة ليست اخلاقية أو ذاتية ، بل اجتماعية أو نفسية ، والمعاناة النفسية التي تتحول الى مواقف اخلاقية ليست جزءاً من تكوين الانسان النفسي أو الذاتي . والانسان بطبيعته وولادته ليس له اي موقف نفسي من اي تعبير اخلاقي . بل انه لا يوجد انسان اخلاقي ، وانما يوجد انسان مريد فقط ، انسان يريد فيطارد ارادته بالقدرة والحيلة ، بالافتراس والمغازلة ، بالصلاة وفعل الفضيلة حيناً ، وبقتل المصلين ومن يفعلون الفضيلة حيناً آخر .

ومع أن البشر فعلوا جميع الانحطاطات الأخلاقية التي عرفوها واقترفوها بسلوكهم وأنكروها وصنفوها بمنطقهم ،فلقد كان من الممكن دائماً،من الممكن في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل ان يهبطوا من حيث طبيعتهم الأخلاقية والنفسية الى قرارات أشد عمقاً ، ومن المحتمل كثيراً حدوث مثل هذا في الآتي من التاريخ. ولم يمنعهم من هذا الهبوط الأشد عمقاً مقاومتهم لأنفسهم ، ولكن منعهم انهم لم يستطيعوا او لم يريدوا او لم يعرفوا او لم يحتاجوا . انها ليست الأخلاق هي التي منعت الحيوان المفترس من ان يكون مفترساً اكثر ! لقد منع البشر من ان يهبطوا

في مستواهم الأخلاقي اكثر مما هبطوا القانون الذي لم يستطع به هذا السلاح أن يكون قاتلاً ، او هذا الوحش ان يكون ضارياً ، او هذا الحجر ان يكون كبيراً ، او هذه الشجرة ان تكون ضخمة اكثر مما كان ، والاخلاق لا دخل لها في شيء من هـذا . لقد كانوا كالطبيعة ، خاضعين في كل تصرفاتهم لقانون القدرة والعجز لا لقانون الخير او الشر . وقانون الخـير والشر او الفضيلة والرذيلة هو تعبير عن قانون القدرة والعجز وليس العكس . ان سلوك الانسان هو الذي يحدد سلوك الانسان ، وهو الذي يحكم عليه ايضاً لا منطقه . ان منطقه قارىء فقط لحكم سلوكه على سلوكه . المنطق تعبير عن ارادة السلوك وعن احتمالاته لا عما يفرض عليه ! والناس لا يختلفون في الاخلاق ولا في الطبيعة بل في القدرة والموهبة ، يختلفون في عمق ذواتهم وارتفاعاتها كما تختلف الجبـال والسهول ، وكما تختلف الأسود والأرانب في قدرتها لا في اخلاقها . ومع ان الانسان من حيث التعبير الأخلاقي احتمال مطلق فانه من حيث الطبيعة الاخلاقية متحدد متكرر في اسلوب واحد لا يختلف ، فهو لا يستطيع ان يكون فاضلاً ولا ان يكون غـير فاضل ، ولا يستطيع ان يكون هذا او هذا بل هو دائماً هذا ، لا توجد عدة احتمالات لاتجاهه الاخلاقي ، لا حينما يفترض أخلاقياً ولا حينما يفترض خارجاً على الأخلاق .

*

وكون الانسان غير اخلاقي ليس شيئاً خطيراً ، بـل ان الشيء الخطير هو أن يكون الانسان اخلاقياً ملتزماً . كم هي وحشية لا يتسع لها هذا العالم أن يكون البشر أخلاقيين .

ماذا لو وجد مجتمع او انسان واحد جمع في سلوكه كل المزايا النظرية والتزم بها كالتزام الطبيعة بقوانينها ، لا يكذب ولا ينافق ولا يشتم ولا يحب ولا يكره ولا يعادي الا بنظرية اخـلاقية ، ولا يبحث عن السيطرة والقوة ، ولا يعشق ذاته عشقاً أنانياً ولا يخضع لارادته خضوعـاً فيه كل الجنون - يؤثر الحق والفضيلة والناس على نفسه ، ويضحي بنفسه في سبيل العدل والحب ، وبمصلحته فداء لمصلحة الآخرين ، ويحب للناس ما يحب لنفسه وكما يحب نفسه — يعامل نفسه والآخرين وكل شيء

بالنظرية ملتزماً كالقانون الطبيعي ؟ماذا يحدث للحياة وللمجتمع ولنا لو كنا فضلاء وملتزمين لا نفعل ولا نريد الا مـــا نراه صواباً ونافعاً لنا وللآخرين وللحياة ومتوافقاً مع المبادىء والنظريات التي ننادي بها والتي نحفظها ، والا ما اردنا به وجه الحق مع التنزه عن الاغراض والشهوات النفسية المحرمة ؟ بل ماذا يحدث لو كنالا نفعل ولا نريد ولا نتكلم الا اذا علمنافي اعماق انفسنا الصدق والاخلاص والنزاهة ؟ ثم ماذا لو كان الحاكم ، والزعيم ، والـكاتب ، والفنان ، والمخترع ، والتاجر ، والزارع ، والجندي ، والمغامر – ماذا لو كان كل هؤلاء لا يعملون الا اذا كان حب الناس والعمل من أجلهم هو الحافز الاخلاقي والنفسي ؟ ماذا لو قتلنا او شتمنا او هجرنا كل من يستحقون ذلك بالنظرية ؟

وهل يستطيـع البشر بدون رذائل نفسية ان يكونوا أخلاقيين او مبدعين ؟ انني حينما اتصور البشر فضلاء الى هذا المدى لا استطيع ان اتصور وجود مجتمع ولا حضارة ولا عبقرية بل ولا وجود ناس . ان تصور الاخلاقية في الانسان كتصورها في الطبيعة ، واذا كانت الاخلاقية في الطبيعة هدماً لها فانها في الانسان كذلك هدم له ! وماذا لو كانت الطبيعة – لو كانت الانهـار والبحار والشموس والاقمار والسحب والرياح والاحجار والحيوانات والحياة بكل انواعها ، والحديد والخشب والمواد الخام التي نصنع منها اسلحتنا واشياءنا الاخرى – ماذا لو كانت كل وحدات الطبيعة هذه خاضعة للاخلاقية ، للعدل ، للحق ، للحب ، للمساواة ، للرحمة للاخلاص ! هل يمكن حينئذ ان توجد او تبقى او تتحرك ؟ ان هذا الحجر الذي يقف فوق الحجر الآخر ، وان هذه الحيوانات والحشرات التي تعيش على الانسان وعلى الـكائنات الاخرى ، وان هذه الانهار والرياح والسحب التي تتحرك فتقتل وتغرق وتفسد – ان هذه الـكائنات ليست اخلاقية لا في سلوكها ولا في منطقها ، ولو خضعت للاخلاق لمنعتها أخلاقها من الحركة خوفاً من ان تكون قاتلة او ظالمة أو غير مخلصة في سلوكها أو في قصدها ، ولـكان من المحتوم حينئذ ان يقتلهـــا شعورها بالذنب !

أعمال الطبيعة وأعمال الانسان كلها أعمال انتحارية لا تعني شيئاً سوى نفسها ،

ليست لها أهداف خارجية ولا تفسيرات أدبية . ان سبب الشيء هو نفس الشيء وهو تفسيره وغايته في تصرف الانسان وتصرف الطبيعة وفي منطقها . وليست الحضارة والإبداع وممارسة اللذة والسرور إلا صورة من صور الانتحار ومحاولة للتخلص من الحياة والكينونة في صورة البحث عنها ! الطبيعة والانسان لا يقصدان ان يفعلا الخير أو الواجب أو الحق أو حتى اللذة بما يفعلان ولكنها يعملان ليتخلصا من ذاتيها ، ينتحران بأن يعملا بلا هدف ولا حكمة ، بمواصلة السير من أجل السير بلا طريق . وهذه العملية الانتحارية هي التي تصنع الحضارات والأعمال الكبيرة والفنون والآداب وكل الأشياء الجميلة . قصة الحياة كلها تشبه قصة البحر والمطر والنهر . يتحول البحر الى مطر ونهر ، ثم يتحول النهر والمطر الى بحر ، ثم تتكرر العمليات بلا أية فكرة . انها عملية انتحار دائمة . الطبيعة حينما تتغير وتعطي أعمالها المبدعة تنتحر لأنها لا تقصد إلا ما يقصده المنتحر، ولا تؤدي أعمالها إلا الى ما يؤدي اليه عمل المنتحر، والانسان في أعماله العظيمة يعمل نفس الشيء بنفس الأسلوب ونفس النتيجة ، وليست الولادة سوى أبسط وأوضح أسلوب من أساليب الانتحار لأنها لا تعني شيئاً غير نفس هذه العملية العقيمة . ان الولادة لا تعني غير الولادة ، وان أعمال الانسان وأعمال الطبيعة لا تعني غير نفس هذه الأعمال ، والانتحار لا يعني غير الانتحار، وكذا الحياة لا تعني غير الحياة ، حتى العبقرية لا تساوي الا العبقرية كما ان الانتحار لا يساوي اكثر من الانتحار .

ان سقوط الشجرة مساوٍ لنموها لان السقوط والنمو لا يعنيان الا معنى واحداً ، ولا يخضعان الا لقانون واحد. والسقوط انتحار ، إذن فالنمو انتحار، وإذن فالحياة كلها انتحار ، لا أخلاق ولا أفكار ، ولكنه انتحار ليس كريماً ولا رديئاً ، ليس هو الانتحار الذي ينهى عنه الواعظون والمدرسون ، وإنما هو انتحار النجوم والانهار ، حينما تهوي وتضيء وتفيض في كرم وكبرياء ! إذن ليس في الطبيعة ولا في اعمال الانسان او في حوافزه اخلاقية، وليس من مصلحة الحياة ان توجد هذه الاخلاقية ، والبشر جميعاً لا يطيقونها ! انهم يرفضونها في

كل عصر ومجتمع مهما آمنوا بها ودعوا اليها .

ولو ان انساناً يعيش في اكثر المجتمعات ايماناً بالاديان والاخلاق ودعوة اليها، اراد ان يحيا هذه الاديان والاخلاق بسلوكه ، لكان محتوماً ان يموت هذا الانسان منبوذاً في الطريق العام ، إن لم تصلبه الجماهير او السلطات على جذع شجرة باسم الدفاع عن هذه الاديان والاخلاق ! والذين قتلوا او أوذوا في التاريخ بحجة خروجهم على العقائد والنظم ، إنما حدث لهم ذلك بسبب تمسك اخلاقهم بأخلاق تلك العقائد والنظم ، لانهم كانوا اخلاقيين اكثر من غيرهم ، لا لانهم كانوا زنادقة . فالمجتمعات تضيق بذوي الاخلاق القوية المتحدية ، لا بذوي النظريات الكافرة . ان الذين قتلوا باسم المروق من الدين او من اي نظام او مذهب ، إنما قتلوا لأنهم وقفوا موقفاً اخلاقياً ، لا لأنهم رأوا رأياً ما .

وهنا قد يبرز سؤال يقول : اذا كانت الاخلاق مستحيلة ، وكانت ضد الانسان والحياة ، فكيف جاءت اذن النظريات الداعية اليها المادحة لها ! لقد كان المفروض حينئذ ان تقوم تعاليم البشر على النهي عن هذا المستحيل الضار والمعاقبة عليه – كان المفروض ان يدرس تحريم الاخلاق ، وان توضع الكتب في ذمم المستمسكين بها والداعين اليها !

ولكن الجواب ان النظريات والمثل الاخلاقية ، إنما كانت نوعاً من التمني ، والمفروض في الاماني ان تكون فوق الواقع وخارجة عنه .

وهنا ينهض سؤال هو : اذا كان جائزاً ان يتمنى الانسان شيئاً مستحيلاً ، فكيف يجوز ان يتمنى شيئاً ضاراً ؟

ولعل الجواب ان هذا جائز ايضاً ، فنحن جميعاً لم نزل نتمنى اشياء ضارة بنا ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى : ان التمني هنا ليس فيه حقيقة التمني ، ولكنه نوع من الاحتجاج على ما هو موجود ، ومن الضيق به واعلان التمرد الفكري عليه . فالبشر متعذبون من كونهم بلا أخلاق ، ويشعرون بذلك فيذهبون يتمنون ان يكونوا محكومين بالاخلاق ، ولا يفكرون في انهم لو كانوا اخلاقيين لكان عذابهم اشد ووضعهم اسوأ !

والمسألة ليست سوى اعلان سخط على الواقع ، جـــاء في صورة شوق الى نقيضه الذي هو أبشع ، وهذا لا يعني خطراً ولا شيئاً ، لان هذا النقيض الذي هو اسوأ ، لا يخشى من وجوده لأنه لا يوجد . ان جميع عقائدنا ونظرياتنـــا المثالية في كل العصور ، لم تكن سوى سخط دائم ضد واقـع وشوق دائم الى حالة اخرى نشعر بالحنين والحاجة اليها ، دون ان نتبين صورتها او حدودهـــا كاملة ! والناس قد يتمنون غائباً هو اسوأ فراراً من حاضر هو أقل سوءاً لانهم في العادة لا يعدلون في المقارنة بين الالم الموجود والالم الذي سوف يوجد ، بل هم لا يقبلون مثل هذه المقارنة ، اذ ان احساسهم مركز على الحالة الموجودة دون الحالة المنتظرة ، ولهذا فإن اكثر العقائد والمذاهب بقـاء على الزمن واستغواء للنفوس ، هي اسخفها واكثرها استحالة ، لانها لا تتحول الى واقع يجردها من سحرها ويحولها الى مشكلة تصنع الالم للمؤمنين بها المتعاملين عليها .

إن الانسان شاعر : يقول الشعر ويسمعه ويغنيه ، والشعر الذي يقوله ويغنيه ويسمعه ، لا يريد ولا يستطيع ان يحياه ، بـل يقوله فقط ، ولو فرض عليه ان يحيا ما يقول لقاوم ! والنظريات الاخلاقية هي نوع من الشعر الذى يقال لمجرد القول . الانسان حتماً محتاج الى ان يتجاوز نفسه ووضعه ، لانه لا يستطيع ان يعيش محبوساً داخل حدود ذاته وواقعه وإلا لاختنق ، فهو دائماً اكبر من ذاته وواقعه ، وهو يتجاوز حدوده الذاتية والواقعية بالشعر والنظريات والعقائد . وهو ليس كاذباً ولا ضالاً حينما يقول ما لا يستطيع ان يلتزم ، كما انه ليس كاذباً ولا ضالاً حينما يقول الشعر والاغاني ويسمعها ويطرب لها دون ان يحياها !

ان الشعر والغناء والعقائد والنظريات المستحيلة التطبيق، هي الجسور النفسية التي يعبر عليها البشر ذواتهم الى غير ما شيء — الى الفضاء البعيد لتتحرك فيـــه آمالهم ونظرياتهم بلا حدود ولا موانع حتى تموت بكبرياء في هذا التيه النفسي المسحور . وخيالات البشر ومذاهبهم الكاذبة هي التعويض الطبيعي عن عجزهم الذي يعذبهم ويحاصرهم كلما أرادوا او تحركوا . لقـد حاول الانسان ان يفك هذا الحصار عن نفسه بالكذب العقلي على حياته — عجز أن يكون كما يريـــد

فراح يفكر كما يريـــد . وما أسخف الحيـــاة لو كنا لا نفكر ولا نعتقد إلا ما نفعله !

والانسان عاجز ان يعرف، لا بالمنطق ولا بغيره ما هو الأفضل أو الأصدق فيما يختار من عقائد ونظم ، وهو لا يبالي بألا يعرف . ولم تكن المعرفة في أي وقت من الأوقات شرطاً في حياة الانسان أو في رضاه عن نفسه ، أو في دفاعه المتعصب المجنون عما لديه من المعتقدات والنظم ! انه يعتقـد ويقتنع بالأسلوب الذي يعادي به الآخرين ويشاتمهم ، وبالقانون الذي يهبط به الحجر الثقيـل من أعلى الى أسفل ! ومع انه يناقش المذاهب والنظريات بحماس وعصبية، ويؤيدها أو يعارضها بلغة يستعمل فيها العقل والأخلاق ، فليس للعقل ولا للاخلاق أي سلطان على تكوين عقائده أو اقتناعه بها ، ولا على سلوكه النفسي ! وقد يخدع البشر أنفسهم ، أو يجهلون طبيعة سلوكهم فيحسبون انهم بمناقشاتهم وحماسهم المنطقي ، إنما يبحثون عن الصواب والعدل ، وانهم خاضعون في كل ما يقولون ويعتقدون ويفعلون للمنطق والأخلاق ، وانهم لم يخالفوا الآخرين إلا احـتراماً للعقـــل والحق ، لا للمصادفات أو الهوى أو المصلحة ! وأخطر الأشياء على أي مجتمع أن يكون الناس فيه مخلصين لعقائدهم وأفكارهم . فالاخـــلاص ضد الحياة والمجتمع والنظام ، ولهذا لم يوجد ولا يمكن أن يوجد مخلص واحد في أي عصر من العصور ! ان المخلص لمذهبه لا بد ان يكون متوحشاً .

ان الذين يفعلون الصواب لا يفعلونه لأنهم يحترمون المنطق ، وان الذين يفعلون الخطأ لا يفعلونه لأنهم يحتقرون المنطق . وليست الحضارة والاخلاق او فقدهما منطقاً او فقـداً للمنطق ، ولكنها قـــدرة وفقد للقدرة ! وليس اعظم الناس ابداعاً وحضارة واخلاقاً هم دائماً أعظمهم منطقاً! ولم يزل الناس مختلفين ويزدادون خلافاً مع انهم يتناقشون ويحتكمون في نقاشهم الى العقل والى الاخلاق في جميع ما يختلفون فيه ، ولم يستطع الاحتكام الى المنطق والاخلاق ان يحسم او يضعف الخلاف بينهم ، بل مظنون جداً ان لم يكن محتوماً حتماً ان هذا الخلاف قد يقل او يضعف لولا احتكامهم الى المنطق وتراشقهم به ! وقد كان محالاً دائماً ان يؤدي

الصراع الحر بين الافكار الى خير او الى اية نتيجة طيبة ، لا يمكن ان يؤدي الى تقارب او اتفاق او محبة او الى معرفة او جلاء للحقيقة . ولو ان الناس عقدوا هدنة دائمة بين مذاهبهم وعقائدهم فلم يدخلوها في اية صراعات فكرية او مذهبية، لكانت الاحتمالات اكبر لرؤية الحق واحترامه والالتقاء عنده ، ولكي تهدأ وتتوازن خصوماتهم وتعصبهم لحماقاتهم واوهامهم ، وتشفى نفوسهم من جراحاتها ! ان المنطق لا يمكن ان يعطي حقيقة ولا سلاماً . وكل انواع السلام والحقائق التي نعيشها ونملكها اليوم لم يصنعها الصراع بين الآراء ، وانما صنعتها الحاجة والعجز والآلية والقانون والتكيف والتجربة !

ونحن حينما نشتبك في مناقشات ومبارزات جدلية ، لا نستعمل في الحقيقة عقولنا وانما نستعمل اعصابنا وتوتراتنا ، بل نستعمل ايدينا من بعيد ! ولو كنا نستعمل عقولنا لعرفنا انه ليس من العقل ان نحاول الوصول الى الصواب او اقناع الآخرين او حسم الخلاف معهم او نيل اعجابهم وحبهم بالهجوم بعقولنا على عقولهم . ليس من العقل ان تدخل في معركة عقلية مع العقول الاخرى لان هذا لا يفيدك ولا يفيد مخالفيك ولا يفيد الحقيقة التي تزعم الغيرة عليها والدفاع عنها ! فالاحتكام الى المنطق في اي خلاف بينك وبين نفسك وبينك وبين الاخرين هو نوع من القتال ومن البحث عن العداوة والاعداء ، وليس محاولة للاقناع او للبحث عن الصواب او الصداقة . المناقشة المنطقية مع المخالفين هي استجابة سريعة للعاطفة ليس فيها منطق او حافز اخلاقي ، ولا يمكن ان ينتصر الصواب على الخطأ او العدل على الظلم بالقتال العقلي . وليس صحيحاً تحت اي ظرف من الظروف ان اية عقيدة او دين او نظام قد انتصر بقوة الاقناع او الاقتناع المنطقي ! ان المختلفين الذين يتعالجون من خلافاتهم بخوض المعارك المنطقية هم كالذين يتشاتمون ، لا يفعل هؤلاء ولا هؤلاء اكثر من ان يبصقوا انفعالاتهم ويظهروا قوتهم او يدافعوا عن كبريائهم باسلوب محنق بليد . وحتى المخلصون في طلب الحقيقة لا يستطيع النقاش الحر بينهم ان يخفف من خلافاتهم او يساعدهم على رؤية الصواب ! بل ان الاخلاص للحقيقة يصنع التباعد والبغضاء

بين الناس اكثر مما يصنع ذالك الاخلاص للمصلحة واللذات . ان الناس مقبولون على نحو ما، متعايشون ببعض السلام ومظاهر الصداقة لانهم غير مخلصين للحقيقة، لانهم مخلصون لانفسهم وظروفهم فقط . ما ابشع الوضع لو كان هذا الشيخ مثلا مخلصاً للعقيدة التي يؤمن بها ، يؤثرها على اهوائه واحتياجاته !

لقد كان النـاس في جميع العصور يستعملون عقولهم ولكن لا ليستقبلوا بها الحقائق او العقول الاخرى ولا ليصافحوها او يجربوها ، وانمـا ليتحدوها ويقاوموها ، لقد كان العقل يواجه العقل بالاسلوب الذي يواجه السلاح به السلاح بنفس الحقد والغباء والتعصب والخوف والتخلي عن المنطق ، فالمحارب بعقله يتخلى عن عقله حينما يحارب كما يتخلى عنه المحارب بسلاحـه ! ولو أن العقول وحدها تواجهت بلا أي تدخل خارجي لما كانت أشد تقارباً وصداقة في أية معركة تتقاتل فيها ! قد يتفق الناس ويتقاربون ، وقـد يظلوا مختلفين متباعدين ، ولكن ليس بفضل المنطق ولا بسلاحه ، لا حين الاتفاق ولا حين الاختلاف .

ان كل صاحب عقيدة ومذهب يقف عنـد عقيدته ومذهبه يحميها ويبررهما بالمنطق الذي يحمي ويبرر به الآخرون مذاهبهم وعقائدهم الاخرى المضادة بنفس الاقتناع والحماس والشهوة بلا تنازل او تسامح او تواضع ، فالمنطق اداة ضرب لا اداة تفاهم لانه لا يدخل المعركة لحسابه هو ، بل لحساب يـد تقبض عليه . انك اذا استعملت منطقك ضد انسان فانت تريد ان تقتله او تسبه ، ولست تريد ان تعلمـه .

والبشر لا يعنيهم ان تكون مذاهبهم او اربابهم طيبة او صادقة ، بل ان تكون قادرة على اخضاعهم وتخويفهم وعلى اذلالهم وارضائهم عن انفسهم وتحويلهم الى اعصاب متوترة والى ضحايا في معركة يرفضون ان يتناقشوا في شرعيتها !

لا يفكر الانسان او يناقش ليخلق حالة بل ليشرح حالة — حالة هو فيها او هي في نفسه ، ونحن لا نستمع الى من يفكر او يناقش لنتعلم منه او لنفحص ما نسمع وانما لندافع عن حالة نحياها او نتمناها او نريدهـا ، لهذا كان الكلام والمنطق مهما كان صحيحاً وقوياً لا يجدي ، لا ينتفع به المفكر المتكلم ولا ينتفع

به السامع لأن المفكر والسامع محكومان معاً بحالة سابقة - بحالة هي قبل الكلام والتفكير ووراءهما واقوى منهما ، بالحالة التي تخلق الكلام والتفكير وتدفع اليهما وتحرض عليهما ! انا افكر لاني أحيا ولا أحيا لأني افكر ، افـــكارنا هي دائماً تعبير عنا ولسنا تعبيراً عنها ، الفكر عملنا ولسنا عمله ، وكل جهاز يصنع عمله ولا يصنعه عمله ! ان الآلام قد تتحول الى افكار ولكن الافكار لا تتحول الى آلام ، قد أصبح مفكراً لأني متألم ولكني لن أصبح متألماً لأني مفكر . وقد تخلق الحالة النفسية حالة فكرية ، والعكس لا يكون . وقد يصبح التشاؤم تفكيراً ، أمـــا التفكير فلن يصبح تشاؤماً. وهذا الانسان متشائم وفيلسوف ولكن ليس متشائماً لأنه فيلسوف . اذا تعذبت فقد تفكر ولكنك لا تتعذب لأنك تفكر . الكلام والتفكير لا يخلقان حالة ولا احداً ولا شيئاً ، والحالة التي تكون بعد الكلام والتفكير ليست بسببها ، ولهذا فانه لا يمكن ايجاد طراز موحد من البشر باعطائهم طرازاً موحداً من الافكار. ولو كانت الافــكار تصنع الناس لأمكن صنع أعظم الشعوب باعطائها أعظم الأفكار . ويظن كثير من المفكرين بسذاجة عظيمة انه يمكن جعل الجماعات المتخلفة متقدمة بتلقينها أفكاراً كبيرة !

ان الشعوب العظيمة تبدع أفكاراً عظيمة ولكن الأفــكار العظيمة لا تبدع شعوباً عظيمة . والناس لا يختلفون او يتفاوتون لاختلاف وتفاوت افكارهم ، وانما تختلف افكارهم وتتفاوت لاختلافهم وتفاوتهم هم ، فاختلاف الافكار وتفاوتها نتيجة لا سبب ، حتى الافكار والمذاهب السيئة ليست مسؤولة عن المجتمعـات السيئة . ان منطق الناس يفسد لأنهم هم فاسدون ، وهم لا يفسدون لأن منطقاً فاسداً يحرضهم على الفساد او يبرر لهم ذلك ! والناس لا ينتجون افكاراً ومذاهب سيئة ، إلا لأنهم محتاجون الى أن يسلكوا سلوكاً سيئاً ، وإلا لأنهم هم سيئون ، وكل من احتاج الى ان يكون في عمله رديئاً ، فلا بد أن يحتاج الى ان يكون في منطقه رديئاً . فرداءة المنطق تابعة لرداءة العمـــل ورداءة الذات والظروف . وهؤلاء الذين يؤمنون بأبشع المذاهب والعقائد ويدافعون عنها ، ليست العقـدة فيهم انهم اغبياء او جهّال ، بـل العقدة انهم فاسدون وانهم يحيون في ظروف

وأوضاع فاسدة ، وإصلاحهم أو إصلاح منطقهم ، لا يكون بمناقشتهم بمنطق اصح واقوى من منطقهم ، لان المنطق كما قلنا دائماً هو تابع لا قائد . وما اضيع عمل من يحاولون ان يغيروا مجرى النهر او يغيروا اخلاق الانسان بالتفكير والمناقشة او بتلاوة الآيات والمدائح للاخلاق ! ليس في الكون او الحياة شيء يحكمه المنطق او يفسره او يبرره ، وليست حياة الانسان وحدها ، هي التي لا منطق لها ، بل ان وجوده ومنطقه نفسه لا منطق لهما . وليس هذا فقط ، بل ان الانسان ومنطقه هما ضد المنطق وليسا فقط بلا منطق ! ولو كانت الحياة محتاجة الى المنطق او مسبوقة به، لكان المنطق ايضاً محتاجاً الى المنطق ومسبوقاً به ، وحينئذ لا يمكن ان يوجد أي منطق ، إذ كيف يمكن ان يوجد منطق قبل كل منطق ؟ وعلى هذا الافتراض ، يصبح محالاً ان توجد الحياة او يوجد اي شيء لأن وجودالاشياء في هذا التقدير يكون مشروطاً ومسبوقاًبوجود شيء لا وجود له ، وهو المنطق ! أريد أن اقول اذا كانت حياتنا محكومة بالمنطق ، فمنطقنا محكوم بماذا ؟ وهل المنطق يتألف من الفراغ ؟ إذن فالمنطق مسبوق حتماً بغير منطق ، فالمنطق غير منطقي ، لا في نشأته ولا في طبيعته ولا في أعماله . وهو في كل حالاته وتفسيراته ليس الا ظاهرة وتفسيراً من ظواهر الحياة وتفسيراتها، وليس علة او مبدأ لها . وكما وجد الانسانبلا منطق وضد المنطق فكذلكتوجد نظمه وسلوكه ومنطقه ، اي بلا منطق وضد المنطق .

لقد كان الانسان غير موجود ثم أصبح موجوداً ثم يصبح غير موجود ، فأية هذه الحالات هي المنطق ؟ ان كان وجوده منطقاً ، فان عدمه قبل ان يوجد ، ثم موته بعد أن وُجد غير منطق. ولا يمكن ان نفترض وجوده وعدمه منطقيين معاً ، ولو كانا كذلك لكان تعاقبهما غير منطقي ولا معنى له، كما لا يمكن افتراض الشيء ونقيضه كذلك . ففي الوقت الذي يكون فيه الشيء منطقياً لا يكون نقيضه منطقياً ، بل لا بد أن يكون احدهما فقط منطقياً ، أو ان يكون كلاهما غير منطقي ، أي ان الشيء ونقيضه يجب ان يكون لكل منهما وقت يكون فيه منطقياً على حسب تغير الظروف والحاجات إن لم يكن بد من منطقية الأشياء .

ولكن لا يوجد وقتان بالنسبة للانسان ولوجوده ، فالوقت الذي يكون فيه موجوداً هو نفس الوقت الذي يكون فيه غير موجود من حيث الإمكان والاحتمال والملاءمة ، والوقت الذي يكون وجوده فيه منطقياً يساوي الوقت الذي يكون فيه عدمه منطقياً . فاذا استوى وجوده وعدمه ، لم يحتمل ان يكون أحدهما منطقياً دون مثيله ، ولم يحتمل كذلك ان يكون الوجود والعدم معاً منطقيين ، لا يحتمل في أية صورة من صور المنطق ان يكون وجود الانسان اليوم وفقده غداً ، أو عدمه بالامس ووجوده اليوم منطقياً . ولهذا فانه لو وجد في وقت عدمه ، وعدم في وقت وجوده لما اختلف الأمر شيئاً . اذا كان وجوده منطقاً فلماذا عدمه ، واذا كان عدمه منطقاً فلماذا وجوده ، واذا كان وجوده في وقت منطقاً ، وعدمه في وقت آخر منطقاً ، فلماذا أو ما الفرق بين وقت ووقت ، وعلى أي اساس يحدد الوقتان ويختاران ؟ اذا كان الانسان قد وجد منذ مليون عام وكان وجوده في التاريخ المذكور منطقاً ، فهل يكون وجوده غير منطق لو كان قد وجد منذ ثلاثة ملايين عام أو بعد ثلاثة ملايين عام ؟ ما هي المنطقية في وجوده في أي تاريخ دون وجوده في أي تاريخ آخر قبلاً أو بعداً ؟

انه لا شيء ينافي المنطق مثل محاولة البحث عنه في وجود الانسان وحياته أو في سلوكه ، أو حتى في منطقه ، وان الذين يؤمنون بأن البشر موجودون بالمنطق وانهم به يحيون ويتصرفون ويفكرون ليربطون أنفسهم بوهم كبير ، لا يمكن التستر عليه ولا الدفاع عنه ولا المغالطة فيه !

*

كل شيء يؤدي عمله بما يمكن ان يسمى غريزة الأشياء . لقد اعتدنا القول بأن الحيوانات والحشرات تعيش حياتها وتحافظ على نفسها وعلى نوعها بالغريزة ، وكان من الصحيح ان نقول مثل هذا القول عن الانسان والنبات والجماد . فكل الأشياء تؤدي دورها بالغريزة العامة . فالنهر يتجمع ويسير في مجراه الذي يشقه لنفسه ويعطي كل ذاته ، والنبات والحجر يفعلان ذلك ، والبشر يوجدون ويحيون ويريدون ويتحركون ويفكرون ويختارون أساليب حياتهم ومذاهبهم

وعقائدهم بنفس الأسلوب الذي يتصرف به الحيوان والحشرة . والفروق بين الانسان وغيره فروق ذاتية لا منطقية ، ولكن هذه الفروق الذاتية قد تحولت في احدى صورها الى فروق منطقية ، كما ان الفروق بين الحيوانات والحشرات والنباتات والأشياء فروق ذاتية ايضاً لا منطقية . فبعض الحيوان والنبات والجماد اعظم جداً من بعضه الآخر ولكن ليس بالمنطق ، وكذلك الانسان اعظم جداً من كل ما سواه ، ولكن ليس بالمنطق ايضاً . حتى الفروق بين البشر هي في الحقيقة فروق ذاتية لا منطقية ، والفروق المنطقية هي فقط تعبير عن الفروق الذاتية . ان شجاعة وذكاء ودهاء فصائل معينة من الحيوانات ليس منطقاً بل غريزة ، ومثله براعة البشر وحيلهم وذكاؤهم وحضارتهم . وليس القول بأن الانسان منطقي إلا كالقول بأن الفيضان أو الوباء منطقي !

في حياة البشر منطق ولكن حياتهم ليست قائمة على المنطق ، وفيهم ذكاء ولكن ذكاءهم ليس له منطق ولم يبدعه المنطق كما لا يوجهه المنطق ، ولهم حضارة غير ان حضارتهم غريزية لا منطقية . واذا كان غباؤهم ليس قائماً على المنطق وليس له مبرر منطقي فكذلك ذكاؤهم ! انهم يصابون بالذكاء والغباء وبالحضارة والتخلف كما يصابون بالطول والقصر والصحة والمرض وبالعقد النفسية ، وهم يحيون عبقريتهم كما يحيون آلامهم ونقائصهم . ولو ان اية حشرة قارضة او زهرة صحراوية استطاعت ان تتحدث عن نفسها كما نستطيع نحن البشر لوجدت ما تقوله في الثناء على نفسها وعلى منطقها اكثر مما وجدنا ، ولألفت اضخم الكتب للتدليل على ما في وجودها وحياتها وسلوكها من براعة منطقية هي اعلى ما في تاريخ الآلهة من ذكاء وفضيلة ، ولذهبت حينئذ تزعم اكبر المزاعم بأنها لا تتحرك ولا تتناسل ولا تنمو ولا تقرض ملابس الناس او تفسد مزروعاتهم او تأكل غذاءهم الا بأقوى وأصدق اساليب المنطق وبأخلاقية هي افضل من اخلاقية البشر . وقد ينزل الوحي عليها حينئذ ليثني على منطقها او اخلاقها كما نزل على الناس ، وقد يبعث اليها كذلك الانبياء كما بعثوا الى الناس !

ومع هذا فقد يكون من الصواب التفريق بين المنطق والتفكير — قد يمكن

القول بأن الانسان مفكر ولكنه ليس منطقياً. فالبشر يفكرون وقد يستعملون التفكير ويستعينون به في تصرفاتهم كما يستعملون الخداع والدهاء ويستعينون بهما ، ولكنهم يفعلون كل ذلك بلا منطق لان التفكير ليس منطقاً ، بل انه مضاد له ! وقد وضع الانسان المنطق لا ليعيشه او يتعامل به ، ولا لانه وجده رغبة او حاجة او ضرورة في نفسه او في عقائده او نظمه واوضاعه ، ولا يمكن لاية عقيدة او مذهب او نظام او مجتمع او انسان ان يحيا بالمنطق . وليست المسألة هي فقط ان الانسان ضد المنطق ، بل وان المنطق ضد الانسان وضد نشاطاته الفكرية والنفسية والحضارية . ولا يمكن ان تشاد اية حضارة في اي مجتمع يخضع للمنطق بل ان الذي يخضع للمنطق لا بد ان يموت حتما وبلا اي تأخير لو كان ممكناً ان يوجد مثل هذا . وكل الشعوب لا تحيا ولا تتقدم الا بقدر ما تخرج على المنطق ! وانما وضع البشر المنطق كما وضعوا اللغة . واللغة حديث عن الاشياء فقط ، حديث انساني ،حديث عن الاشياء كما هي وعما هي. والمنطق كذلك حديث لا حياة ولا اخلاق ولا تفكير ولا ضرورة !

والانسان لا يستطيع ان يكون منطقياً ولا اخلاقياً ولا متديناً مهما عبد الآلهة وفعل الفضائل وصاغ الاساليب المنطقية ! انه يحيا فقط . وجميع ما يعد ظواهر دينية او اخلاقية او منطقية ليس الا اسلوباً في الحياة . ولا تخضع حياة الانسان للتدين او الاخلاق او المنطق الا بمقدار ما تخضع لذلك حياة النبات وحركة الحجر .

ويوجد نوعان من المنطق في اي تصور يبحث عن الاحتمالات المنطقية . فالشيء كما هو منطق طبيعي ، والحكم على الشيء كما هو منطق وضعي . اذن فما يسمى بالمنطق هو اما الشيء كما هو واما الحكم على الشيء كما هو . ومعنى هذا ان المنطق هو الوجود كيفما كان او رؤية هذا الوجود كذلك ، ولا فرق بين المنطق والوجود .

واذا كان كل وجود منطقاً ، فلا منطق ، ولكن وجود او لا وجود !

*

ومهما اقتنعنا بألا منطق في وجودنا وبعبث عبقريتنا وعبث ما حولنا من الاشياء فان اقتناعنا هذا لن يوهن من ارادتنا لانفسنا ولما في وجودنا من تفاهة وضياع ، كما لن يوهن من دفاعنا عنه واستمساكنا به . ان اسوأ اخلاق الحياة اننا لا نستطيع ان نكره ما نحتقر او ان نرفض ما نخجل منه . اننا نريد ما ننكر ونندافع عما نحتقر ونستمتع بالهوان الذي نتعلم الذم له بجبرية كجبرية الموت ونزق كنزق الاطفال وغباء كغباء الطبيعة .

ونحن عاجزون عن ان نوجد حالة توافق او تقارب بين منطقنا واقتناعنا وبين ارادتنا وتصرفنا . ولهذا فاننا مهما اختلفنا في تفسيرنا للحياة ، في ايماننا بعبثها او بحكمتها ، بتفاهتها او عظمتها ، لا نختلف في شدة رغبتنا فيها وفي الخضوع لالتزاماتها المهينة . جميع الناس مسخرون لارادة الحياة وللعمل فيها بلا كرامة ولا هدف ولا شرف ولا ثواب ! ان اشد الفلاسفة احتقاراً للعالم ولما فيه من آلهة وعظماء وشهوات لا يقل في استمساكه بالحياة وقبوله للهوان فيها عن ابسط الناس واقواهم ايماناً بحكمة الكون وثقة بارباربه الذين صنعوه ووضعوا فيه جميع اسرارهم وذكائهم ورحمتهم ! واستمرار بقاء النوع الانساني في هذا العالم بلا انتحار عام مشروط دائماً بألا يكون البشر خاضعين للمنطق ، ولو خضعوا للمنطق لما وجد اي احتمال لبقائهم ! ان الانسان لا يستأذن منطقه لكي يحب نفسه ، ولا يوجد من يحبون او يبغضون بالمنطق . وكلنا نحب انفسنا بالاكراه بل ونصر على التمسك بوجودنا حتى ولو لم نحبه . فالوجود لا يحتاج الى اية مبررات ليكون مشروعاً او مفروضاً . كل وجود يبرر نفسه ، ومبرر كل شيء هو وجوده لا فضائله ولا اسبابه او غاياته . والناس يبررون انفسهم لانهم موجودون لا لان لهم مبررات معقولة .

ولكن ما هو المنطق الذي نتحدث عنه نافين ومثبتين ؟

المنطق نفياً وإثباتاً هو الانسان ، ولا وجود له بدون الانسان لا منفياً ولا مثبتاً . فالكون وكل الأشياء من غير الانسان كتلة من المادة والحركة لا تعني

شيئاً ، واحتياجات البشر وعلاقاتهم ومصالحهم وآلامهم هي التي تحول هذه الكتلة الى منطق أو الى نفي للمنطق . فالمنطق وعدم المنطق هما إحساس انساني أو اجتماعي وليسا وجوداً كونياً ، بل ولا وجود انساني أو اجتماعي . ولهذا كان المنطق دائماً مختلفاً ومتناقضاً ومتطوراً لتناقض الظروف والمجتمعات واختلافها ، هذا التناقض الذي يصنع تناقض الأحاسيس والأفكار واختلافاتها. فإذا قيل : هذا منطقي أو غير منطقي ، كان المعنى هذا ملائم أو غير ملائم ، أو هذا نريده أو لا نريده !

ولكن ما معنى هذا ؟ أليس معناه ان حكمنا على الكون او على الانسان بأنه غير منطقي حكم لا يملك احتمالات الصحة ، لأن هذا الحكم لا يعني إلا ان وجود الكون أو وجود الانسان لا يلائمنا أو اننا نظن ذلك ، ولهذا فانه اذا لاءمنا أو حسبنا انه كذلك أثبتنا له المنطق ، وإذن فلعل وجود الكون والانسان منطقي ، ولعل كل ما فيهما كذلك مهما رأينا العكس لأن حالتنا النفسية والفكرية ليست هي المقياس الشامل الوحيد لجميع الأشياء .

ولا بد ان تكون هذه الملاحظة غير صحيحة لأن المنطق تصور انساني ، وافتراض التصور الانساني بدون الانسان لغو لا معنى له .

ان المنطق كاللغة والديانة والقانون والدولة والعدالة ، لا يمكن وجودها بغير الانسان أو بغير من هو في مستواه أو أعلى منه أو من هو قريب منه .

وكل شيء في هذا الكون لو استطاع ان يتحول الى رأي كالانسان ، لرأى ان كل الاشياء لا منطق لها لنفس السبب الذي رأى به الانسان العالم كذلك . فلو كان للنباتات أو للحشرات أو الجمادات تفكير وأحاسيس وآلام لحكمت بألا منطق لأي شيء ، إذ انها سوف ترى حينئذ كما رأى البشر — في أوج رؤيتهم — ان وجودها ووجود كل الموجودات لا يعني شيئاً ولا يحقق أي هدف عقلي أو اخلاقي ، وانه لا عدل في شيء منه ولا يتلاءم مع احتياجاتها ومصالحها ، وانه

خطأ منطقي خطير ليس فيه أية ظواهر او احتمالات منطقية . بل ان الآ لهة نفسها لو تحولت الى متلائمة ومتألمة ومفكرة مثل الانسان ، لكان محتوماً ان تجد في وجودها ووجود جميع الكائنات الاخرى من منافاة للمنطق وخروج عليه مثلما وجد الانسان، وان تحكم على وجودها ووجود كل الاشياء نفس الحكم الذي حكم به الانسان على وجوده ووجود ما حوله . ولكنها بدون تلاؤم وألم ولذة وتفكير لا يحتمل ان تثبت المنطق ولا ان تنفيه . انها في الحالة الأولى تنفي المنطق ، وفي الحالة الثانية لا تنفيه ولا تثبته ، فهو إما منفي او لا منفي ولا مثبت . فالذين يتعاملون مع الكون ومع انفسهم بالتفكير والتلاؤم واللذة والألم سينكرون على الاشياء زعمها منطقية ، او لن يجدوا فيها هذا المنطق اذا التمسوه مهما آمنوا به ، اما الذين لا يستطيعون ان يفكروا ويتلاءموا ويشعروا باللذة والألم ، فلن يحكموا على الاشياء أي حكم ، لا بوجود المنطق ولا بنفيه.

ان الانسان هو الذي أثبت المنطق وهو الذي ينفيه ـ هو الذي يستطيع ذلك وله ان يفعله . ولا احد سواه له هذا الحق الا من كان في مستواه او اعلى منه ، وهذا اذا وجد سوف ينكر المنطق كما انكره الانسان وللاسباب نفسها ! ولم يزعم الكون لنفسه اي مزعم ، لم يزعم انه قائم بالمنطق او انه قد وجد به او انه هدف اعلى من اهداف الآلهة او اهداف اي تفكير ، ولكن الانسان هو الذي زعم له ذلك ، فاذا رأى ان ينكره عليه كان ذلك من حقه الذي لا يجوز ان ينازع فيه ، ان الانسان هو الواهب المسترد لما وهب او المخطىء المصحح لخطئه ، والكون مستسلم صابر ، لا يحس بالخطأ او الصواب ولا بمن يعبده او يلعنه ! ومعنى القضية هنا ان الانسان ينقض الانسان او ينقده ، وليس معناها ان الانسان ينقض الكون او ينقده. البشر دائماً يناضلون ضد عقائد وافكار وغرور فيهم هم لا في الكون . انهم هم الذين يقاومون انفسهم ويضلونها ويفرضون عليها هذه العقائد والافكار والغرور ويضربون على افكارها ووجدانها القيود

والتخلف والغباء . منذ وجد الانسان وهو يحارب نفسه وحياته بكل الاسلحة، بالنظم والاديان والفلسفات والتقاليد والدعاة وبالجيوش الكبيرة - يريد ان يفرض عليها وضعاً او يبقيها في وضع . كانت المعتقدات والنظم في جميع العصور نوعاً من حمل السلاح ضد النفس او من دفاع الذات عن الذات بالهجوم عليها ! امـــا الكون فلا يحارب احداً ولا يضله ، وهو لا يصنع اوهام الناس ولا غباواتهم او غرورهم ، كما لا يأمر بشيء ولا ينهى عن شيء ، وانما يعطي نفسه لكل الطالبين العائشين فيه بلا خداع او محاباة وبلا سخاء او شح .

وقد كان موقف البشر من انفسهم ومن الكون دائمـــاً مختلفاً ، فموقفهم من انفسهم موقف النضال ، يناضلون ضدها لمصلحتها ، اما الكون فلا يناضلون ضده اذا اخترنا التعبير الاكثر دقة ، ولكن يناضلون فيه لان الكون لا يقيم حول نفسه الجيوش والمذاهب والعقـــائد والنظريات كقوات للمقاومة والهجوم ، كما يقيم الانسان حول نفسه ضد نفسه لحماية تخلفه وغبائه وفساده ومـــا هو فيه من مظالم وشرور .

لم تكن اديان البشر وافكارهم وآلهتهم تعبيراً عن خوفهم من الكون وعن محاولتهم لتفسيره والتناسق معه ، بل كانت تعبيراً عن خوفهم من انفسهم وعن محاولتهم لتفسيرها والتناسق معها . فالذي يرى تدبيراً عقلياً في الكون او في الانسان او في الآلام التي تصيب الانسان كالذي يرى اشباحاً غيبية في الظلام : كلاهما انما يفسر نفسه ويعبر عن خوفه منها لا ممـــا حوله . واختلاف الناس في الآراء والمعتقدات لا يعني اختلافهم في تفسيرهم للكون ، وانما يعني اختلافهم في تفسيرهم لانفسهم . فالكون لا يحمـــل الالزام بأية عقيدة وليس فيه اوامر أية شريعة كما لا يملي اي نظام او يفرض اية صورة من صور الحيـــاة . ومع هـــذا استخرج منه الناس جميع العقائد والنظم المتناقضة . فالناس يصنعون عقائدهم وألوان حياتهم بقدر ما يريدون او يستطيعون لا بقـــدر ما يكلمهم او يعلمهم او يأمرهم الكون ، ولا بقدر ما يحتمل او يستطاع .

ان الارباب والعقائد والاوهام في كل عصر هي حصيلة تصادم الذات بالذات، صراع الانسان مع نفسه ، تفسيره لها . شعور يتحول الى إله وعقيدة وموقف نفسي ، وآخر يتحول الى خوف وعبادة لهـذا الخوف . فالقصة اذن هي ان الشعور يعبد الشعور ، اي ان الخائف هو صانع الخطر ، وان الإله هو المؤمن ، وان العاشق هو المعشوق ! والبشر هم دائماً الذين يعكسون على الكون اسرار ومنطقه وهيبته وفضيلته ، وليس العكس .

* * *

الوجود الإنساني هو أكبر التحديات الفنية لعبقرية الوجود

تغير الطبيعة نفسها دون ان تستطيع نقدها ، والانسان وحده هو الذي ينقد نفسه لانه ارقى . فنقد الذات هو اعلى مراحل الوجود — هو الوجود الانساني — ولعله اسمى فضائله . وتغيير الطبيعة لنفسها نوع من النقد الذاتي ، ولكنه نقد عملي . انها تفعل ما لا تستطيع ان تقول !

والذين يرفضون نقد انفسهم يرفضون شيئاً يصنعه الجماد والنبات والحيوان بنفسه ، وتفعله ايضاً حياتهم بهم كبشر وكطبيعة . فهم كمنطق اقل من الطبيعة كحركة ، بل اقل من انفسهم كحياة ، لانهم ينقدون انفسهم بحياتهم ويرفضون نقدها بتفكيرهم ! لهذا يحيون دائماً غير ما يفكرون ! والانسان يستطيع ويصير افضل مما يفكر ويريد ، ولو كان لا يصير الا كما يفكر ويريد لما تحضر . ونقد الذات هو احد الفروق الكبيرة بين المجتمعات القوية والمجتمعات الضعيفة . فالاقوياء يدركون نقائصهم ويدركون ان الحياة حركة والحركة تغيير ، والتغيير نقد . اذن النقد هو الحياة . والأقوياء ايضاً يجرؤون على نقد انفسهم لانهم يريدون تغييرها ، لأنهم يقدرون على ذلك ويريدون ان يدفعوا ثمنه .

اما الضعفاء والمتخلفون فلا يريدون ان يسمعوا غير المديح والتدليل ، لانهم يخافون النقد — يخافون النقد لأنهم يخافون التغيير لأنه تعب ومعاناة وخطر .

فالذي يقول : انا كامل ومنزه كأنما يقول : انا لا اريد ان اتغير لان التغير

أرهاق وخوف ، والذي يقول : انا ناقص كالذي يعترف بأنه في حاجـة الى مزايا اكبر ، وانه شجاع وقوي لا يهاب ان يحاول ويجرب ويكون !

ان مستوياتنا الاخلاقية والثقافية هي التي تجعلنـا ننقد انفسنا او نرفض نقدها . وكلما ارتقت الحياة اسرعت في نقدها لنفسها . والفرق بين ادنى الاحياء واعلاهم يساوي الفرق بين قدرة كل منها على تغيير نفسه !

وارادة النقد مرتبطة بارادة التغيير ، والخوف من التغيير ليس فكرة بـل عجز . فالذين يرفضون ان ينقدوا انفسهم او يتغيروا ليسوا فضـلاء وانما هم عاجزون .

اعرف ان كثيراً من القراء سوف يثورون بما يجدون هنا ، وسيرون انـه هدم وتخريب للايمان بالقيم وبالانسان وافساد لآرائه الجميـلة المتفائلة عن نفسه . غير ان الانسان لا يعتقد ولا يفعل ما يقال له او فيه بل مـا يريد ويستطيع ، ونفس تعظيمه لذاته او تحقيره لها ليس تعليمياً ، وانما هو ايحاء من الذات الى الذات . والبشر لا يتحركون بالايمان ولا يؤمنون بالبرهان . اذ الايمان وعدمه قدرة وعجز ، لا تعليم ، وكذا النبوغ والغباء .

واعظم الاشياء هي اكثر الاشياء وقوعاً تحت وطأة الهجوم والاتهام ، وقد نقدت الفلسفات والاديان الانسان اكثر مما نقدت الحشرات . والكبار ينقدون ويحاول هدمهم دون الصغار ، ونحن ننقد الشيء بقدر شعورنا نحوه وبقدر ما له من تأثير علينا ! فالنقد دائماً علامة تقدير . وكم هم تافهون اولئك الذين لا يجدون من ينقدونهم ولا من يصوبون اليهم الحملات القاسية الغاضبة ! انـك اذا نقدت شيئاً او انساناً فقد اهديت اليه وساماً ، وكلما قسوت في نقدك كان الوسام أعلى. بل ان الطعن في الشيء نوع من الثناء عليه ، وقـد يكون الذم اكثر دلالة على التقدير من الامتداح !

وليس الفرق بين الأقوياء والضعفاء مساوياً للفرق بـين الرضا عن النفس والسخط عليها — ليس الأقوياء هم الذين يرضون عن انفسهم ، ولا الضعفاء هم الذين يتهمونها. لو كان ذلك كذلك لوجب علينا ان نشيد الهياكل لعبادة انفسنا،

و ان نحول جميع الموهوبين فينا الى شعراء يطوفون في الاسواق لامتداح نقائصنا، ولكانت الاديان شر اعدائنا لأنها مصدر هائل من مصادر التحقير للانسان . لم يوجه الى البشر من الاحتقار والاهانات المذلة في كل التاريخ مثلما وجهت اليهم الكتب السماوية . واساليب العبادة المفروضة في كل دين هي اقوى انواع هذه الاهانات ! ولولا اتهام البشر للشيطان ومهاجمتهم الدائمة له لما قام مجده التاريخي العظيم .

ان الذين يصفون المرض واعراضه لا يصنعون المرض ولا يعدمونه ، ولكنهم يصفونه فقط !

والنقد لا يهدم احداً حتى ولو كان نقداً كاذباً هداماً ، كما ان الامتداح والغرور لا يشيدان شيئاً . ولو كان في طبيعة النقد ان يهدم لما استطاع نقدي ان يصنع ذلك ، وماذا يمكن ان يفعل ما اكتبه هنا ؟ انه صوت خافت مغمور في دنيا كلهاادعاء وكبرياء وصياحقاصف بالتحدث الدائم العالي عن تفوقناالساحق وعن العبقرية التي سبقت جميع العبقريات . هل يمكن ان يعلو هذا الصوت الخافت الخائف فوق هذه الصيحات والرعود الهائلة المضادة المسموعة دائماً في كل مكان ومن كل شفة ، والمقروءة في كل كتاب كتبه الاولون والمحدثون، والمنطلقة بكل اسلوب من اساليب الدعاية والنشر ؟

ليت نقد الناس يهدمهم ، اذن لكان تملق ضعفهم يشيدهم ! وليت الغرور وامتداح النفس يصنعان الشعوب، اذن لصنعنا انفسنا افضل واقوى واسعد قوم تصورتهم الآلهة الفاضلة ! وليت الحقد والبغضاء يقتلان الاعداء ، اذن لما بقي لنا عدو واحد في هذه الدنيا !

*

ليس نقد الذات هو فقط ان ننقد انفسنا بل وان نحترم نقد الآخرين لنا .

اننا نرى دائماً ان افضل ما يجب علينا عمله اذا ما نقدنا ان نثور ونفقد وقارنا ونؤلف الكتب ونلقي البيانات الصاخبة في الرد على الناقدين وتكذيب ما زعموا وان نقابل نقدهم بهجوم اقوى ونحول المسألة الى معركة من السباب والمفاخرة ،

ثم نذهب نضاعف الثناء على انفسنا بمبالغات غير متوقرة ، كأن القضية كلام يعالج بكلام واتهام يرد عليه بافتخار !

وليس في سلوكنا ان نفترض النقد احتمالاً من احتمالات الحقيقة او موضوعا تجدر دراسته والاستفادة منه . ان السلوك الذكي ان نواجه النقد بالتحية حتى ولو جاء من اعداء حاقدين !

ونحن حينما نثور بمن ينقدوننا ، لا نقصد الغضب للحقيقة ، فكم هي الحقائق التي تهان أمامنا بدون ان نغضب لها ، وكذلك لا ننوي ان ندافع عن أنفسنا لأن النقد ليس خطراً على احد . ولكننا نثور لأننا لا نستطيع ضبط أعصابنا او احترام تصرفاتنا ! فالغضب من النقد حركة انفعالية لا وعي فيها . ان أعقل تصرف إزاء اي نقد هو : ان هذا النقد إما ان يكون صحيحاً او غير صحيح ، ان كان صحيحاً فعلينا ان نستفيد منه وان نرد عليه بإصلاح انفسنا . وأما ان كان غير صحيح فماذا يضيرنا ؟ بل انه حينئذ قد يكون عامل تحذير وتقويم !

ولا يوجد في التاريخ كله من ماتوا من النقد ، والذين بدا لنا انهم ماتوا من النقد ، إنما ماتوا من أخطائهم او ضعفهم !

وهنا نقول شيئاً اكثر من القول بأن النقد لا يقتل ، هو القول بأن الفساد نفسه لا يقتل ، كما ان الاستقامة لا تعصم ! لقد شاهد البشر في جميع العصور عهوداً وحكاماً يسقطون وينهض مكانهم آخرون ، وقد فسروا ذلك بأن اسبابه الفساد والاستقامة .

ولكن لا ، فالحاكم لا يسقط لأنه فاسد، بل لأنه ضعيف او لأنه وجد له منافس اقوى منه . وهو لا يبقى او ينتصر لأنه صالح ، بل لأنه قوي . ولهذا فقد يسقط الطيبون والرديئون كما قد ينتصرون . وإذا سقط الفاسد فليس لأنه فاسد ، واذا انتصر الصالح فليس لأنه صالح . فالمنتصر قد يكون فاسداً جداً ، والمنهزم قد يكون صالحاً جداً . وقد عاش الفاسدون أطول مدة في التاريخ ، ولا يزالون يعيشون ، ولم تسقطهم ذنوبهم الكبيرة ! والرجال الذين يصنعون ثورة فيسقطون عهداً أو حكماً ليسوا فضلاء بل مغامرون قادرون، وقد يكونون

فاجرين جداً حتى ولو حققوا أنبل الاعمال . فالحافز لهم هو روح المغـامرة والقوة ، لا حب الفضيلة أو الغضب على الفساد !

والذي يثور بالحاكم الشرير ليحل مكانه ، يثور ايضاً بالحـاكم الصالح اذا وجد الفرصة وقدر عليها ، اذ هو يثور في الحـالتين لأنه مغامر لا لأنه فاضل . واحتمالات ثورة المغامر ضد الحـاكم الفاضل ، أقوى من احتمالات ثورته ضد الحاكم الشرير ، كما اننا قد نجرؤ على اصطياد الحيوان الفاضل اكثر من جرأتنا على اصطياد الحيوان المفترس. واذا وجدت روح الثورة، فلن تحتاج الى الاسباب التي تبررها ، وإذا لم توجد ، فلن تكفي جميع الاسباب المثيرة لوجودهـا ! والمغامر يبحث عن نفس المغامرة ، لا عن العدل أو الحق والخير . والحياة ليست صراعاً بين الخير والشر ، أو بين الأفكار والأفكار ، ولكنها صراع بين النـاس أنفسهم – بـين الإرادة والإرادة ، والضربـة والضربـة ، والحجر والحجر ، والسفينة والموجة .

ولا مقياس لرضا الناس وسخطهم ، ولا لثورتهم وخضوعهم، ولا لما يريدون أو يكرهون !

وأية ثورة تعطي المجتمع شيئاً ، لا تفعل ذلـك لأنها فاضلة اكثر من الوضع الذي كان قبلها والذي ثارت به ، وإنما تعطيه ، اذا أعطته لأنها تغيير . والحياة تتطور بالقوة مهما كانت شريرة . والقوة والتطور ليسا عملين اخلاقيين . إذن فقيمة الثورات – إن كان لهـا قيمة – في حتمية حركتها وحتمية ظروفها الجديدة لا في مستوى اخلاقها !

فاذا كان الفساد لا يقتل ، فكيف يقتل النقد ؟ لقد ظلت الأشياء التي كانت كل المجتمعات تنقدها دائماً وتلعنها، هي اقوى الاشياء واكثرها خلوداً. فالكذب والنفاق والغدر والأنانية وغيرها من الرذائل لم يقتلها او يضعفها نقدها الدائم ، وكذلك فاعلوها ظلوا هم الأقوياء الخالدين السادة مع ضخامة النقد الموجه اليهم في كل المجتمعات في كل الأوقات . فالنقد لم يكن في أي وقت سلاحاً قاتلاً .

والنقد مع هذا لا يمكن ان يكون صادراً عن حوافز الحب للفضيلة ، بل

النقد هو دائماً موقف نفسي للناقد حتى حينما يكون صحيحاً ، ولكنه مع ذلك ليس شيئاً شريراً ! وحينما ننقد الشيء الرديء ، لا ننقده لأنه رديء ، بل لأننا لا نتلاءم معه أو لأنه ضدنا أو لأننا محتاجون من الناحية النفسية الى ان ننقد ، أي نفرز انفعالاتنا ، وما اكثر النقد الذي هو عملية إفراز نفسي وعصبي . وكيفما كان الامر ، فحب الحق والخير ليس في حساب من يفعلونهما ! ولا ضير في هذا ، لأن ارادة الخير ليست جزءاً من عمل الخير ولا شرطاً فيه ، والنيات الطيبة ليست هي التي أجرت الأنهار ، او صاغت الشموس ، او ساقت الإنسان في مجراه الحضاري . والنتائج لا تصممها النيات ، وإنما تصممها احتمالات الشيء . والنتائج التي تجيء مخالفة لما نويناه ، اكثر جداً من التي تجيء موافقة ، والبشر يتوصلون دائماً الى غير ما يريدون ! ولو كانت الاعمال بالنيات، لمات الإنسان بنياته غير الصالحة ولما صنع خيراً ابداً .

ليست ارادة البناء أقدر على البناء من ارادة الهدم ، بل ليست احدى الارادتين غير الاخرى !

*

اني اطلب من المؤمن الا يرضى عن نفسه كثيراً او يحتقر من يخالفونه بكبرياء ، واطلب اليه ايضاً ان يعرف انه لا فرق بينه وبين الزنديق ، فكلاهما لا يفعل إلا ارادته . فليس المؤمن فاضلاً أو عاقلاً أو مخلصاً أو خادماً للإله أكثر من الملحد ، بل ان الذين ينكرون الآلهة يفهمونها ويحترمونها دون الذين يؤمنون بها ! إذ الذين يؤمنون بها لا ينزهونها عن شيء ويتهمونها بكل أخطائهم ونقائصهم وبما في الكون من اخطاء ونقائص ويلقون عليها بمتاعبهم وعجزهم ،فهم يؤمنون بها ليلوثوها لا ليتطهروا بها ، وليستخدموها لا ليكونوا لها عبيداً .

المؤمن انسان أراد فسمى إرادته إلهاً او صورها بصورة إله فذهب يؤمن بها ويصلي لها ويقاتل الآخرين ويعاديهم من أجلها ، ودفاعه عن الآلهة او عن الدين هو دفاع عن الإرادة !

وقد اراد الملحد كما اراد المؤمن ولكنه عبّر عن ارادته تعبيراً مختلفاً ! هذا

رجل افتتح متجراً لبيع اللحوم ، ورجل آخر أفتتح متجراً لبيع الخبز ، ليس أحدهما أفضل او اتقى من الآخر بسبب اختياره لنوع تجارته ، ان كليهما قد افتتح متجراً لإرادته لا لبيع الخبز أو اللحوم . والذين يبيعون الآلهة ، والذين يبيعون الأفكار المضادة للآلهة لا يتعاملون لا بهذا ولا بهذا ، وإنما يتعاملون بإرادتهم ! لهذا لا يحق للمؤمن أن يفخر على الذين لا يؤمنون بإيمانه او بنوع آلهته او يعاديهم لأنهم لا يصلون للآلهة التي يصلي هو لها إلا إذا جاز له أن يفخر على الناس او يقاتلهم لأنه استجاب لشهوته باسلوب غير الاسلوب الذي استجابوا هم به لشهواتهم . والذي يؤمن بالله ويصلي له لا يكون فاضلاً إلا بقدر ما يكون من يحب المرأة أو المال او الطعام او يخاف الأقوياء وينافقهم فاضلاً ! إنك إذا غضبت على من ينكرون آلهتك او عقائدك فلست تغضب عليهم لأنك تريد لهم الحق او تحترمه في نفسك او لأنك تحترم الآلهة والعقائد، بل لأنهم خالفوك ، وفي خلافهم إزعاج لك وخطر عليك وتحد لوضعك ولمكاسبك الاجتماعية المتقررة ، فأنت تخشاهم كما يخشى صاحب السلطان من ينازعونه السلطان . والبشر لا يختلفون او يتقاتلون في سبيل الآلهة والمبادىء ، ولكنهم يسمون ظروفهم واهواءهم آلهة ومبادىء . وليست المذاهب والأرباب في كل صورها في كل التاريخ إلا عملية إخراج وتوزيع لحالات النفس ، والذين يتحمسون لعقائدهم او آلهتهم او مذاهبهم هم في الواقع يتحمسون لظروفهم . والاستقامة - حيث وجدت - ليست حالة دينية او اخلاقية بل نفسية ! والمتدين والفاضل ليس متديناً ولا فاضلاً وانما هو مختار لموقف ، والذي يختار المواقف الطيبة التي تباركها الأديان والأخلاق سيختارها حتى ولو كان بلا دين ولا اخلاق .

والتدين ضد الاخلاقية بل ضد التدين نفسه ، فالمتدينون خارجون على الاخلاق وعلى الدين ! ان الانسان يحول حالته الى دين ، هذا شيء ، والشيء الآخر انه ايضاً يبرر حالته مهما كانت ضد الدين بالدين - اي يستعمل الدين ، وكذلك المبادىء والمثل وقوداً لشهواته ودلائل على شرعية ما يريد ويفعل ، ولا يصنع العكس بل ولا يستطيع ان يصنعه !

فاذا كان حاكماً متديناً او يحكم في مجتمع متدين فانه سوف يصنع جميع مـا يريد ويستطيع ثم يدلل بالدين وبرجال الدين وبكل التفاسير الدينية على ان ما يفعله هو الدين ، انه اذا كان ملكاً فسيكون الدين ملكياً ، واذا كان قيصراً فسيكون الدين قيصرياً ، واذا كان اشتراكيـاً او رأسمالياً فسيكون الدين كذلك، وهكذا دائماً، الدين تابع لنا،ولسنا أتباعاً له في كل الأوقات والظروف. والناس المتدينون العاديون كلهم ايضاً يحولون دينهم الى الحـالة التي هم فيها ويلزمونه بأن يكون تفسيراً لوضعهم وشهادة له ، فاذا كانوا مرضى وضعفـاء وجبناء وخونة وغير ذلك اصبح الدين بنصوصه وروحـه وعباداته تبريراً بل وتشريعاً لفضيلة المرض والضعف والجـبن والخيانة وكل الرذائل التي يعيشونها . ولو ان نبياً مصاباً بالبرص بعث الى قوم من البرص لكانت الاصابة بهـذا الداء شرطاً من شروط الايمان بالله . فالمؤمنون لا يتدينون وانما يستدلون بالدين على ما يشتهون او يفعلون !

اننا بهذا نحول الدين الى محلل شرعي لشهوات المؤمنين وتصرفاتهم كيفما كانت خارجة على الدين ونجعله مزكياً لنقائصهم . والدين لا يستطيع أن يحـكم الناس أو يفسرهم لمصلحته أو بمنطقه . ولا يحدث أبداً أن يخضـع المؤمنون حالتهم للدين ،بل هم دائماً يخضعون الدين لحالتهم .وقد كانت النظريات في جميع الظروف مفسرة لحالة لا خالقة لها . وكل المذاهب والأديان ونصوصها تفسر بالظروف التي تعيش فيها أي بإرادة المجتمع أوإرادة الأقوياء فيه .

إذن فالمتدينون لا يفعلون شهواتهم وأخطاءهم فقط ، بل يفعلونها ويزيدون على ذلك أن يدللوا عليها بالدين ويضعوه خادماً لها،أما غير المؤمنين و غير المتدينين فأبعد مايذهبون اليه أن يفعلوا الشهوات والأخطاء التي يفعلها المتدينون المؤمنون ولكن بدون أن يأتوا بالله وملائكته وكتبه وأنبيائه ليكونوا مزكين لما يفعلون ! ان غير المؤمنين وغير المتدينين لأقرب الى الدين والايمان من المتدينين المؤمنين ، وان التدين ليس خروجـاً على الدين فحسب ، بل خروج عليه وسب له ، لأنك اذا كنت متديناً فسوف تفعل جميع ذنوبك ونقائصك ثم تسب الدين باتهامك اياه بأنه

يبررها لك بل ويدعوك اليها ويلزمك بها ! وجميع الناس يتكلمون بلغة السماء ويعيشون بقانون الجنس وطبيعة الأرض .

اذا كنت رجلا كبيراً من رجال الدين وقد اخترت لنفسك أن تكون منافقاً فانك لن تنافق وتستغفر الله، بل تنافق وتزعم أن الرسول كان ينافق وأن الله يأمر بالنفاق – مع تغيير لا بد منه في التسمية ! واذا كنت حاكماً متديناً أو نبياً مرسلا وكنت شهوانياً وضعيفاً أمام سحر المرأة وكنت تريد أن تجرب منهن أكبر عدد فسوف تستجيب لشهواتك زاعماً أن الله قد شرع لك ذلك بالزواج وبالامتلاك والمتعة وهبة النفس وغير ذلك، وأن الله سوف يغدق لك الجزاء على ما تفعل لأنك تحقق أهدافه الحكيمة البعيدة المدى ! لقد زنى الأتقياء تحت راية الدين أبشع مما زنى العصاة تحت راية المعصية ! والذي يفعل عيوبه وذنوبه تحت توقيعه هو ، أكثر أخلاقية وديناً من الذي يفعلها تحت توقيع السماء !

اذن ، أيها المؤمنون ، أيها المتدينون ، اتركوا الدين واتركوا الله لتكونوا أقرب الى الله والى الدين – أو على الأقل خففوا من صلفكم وحقدكم على من يخالفونكم ، فلستم أفضل منهم لا في تقويم الأديان ولا في تقويم الأخلاق ! ان المؤمنين بالله والأديان يصنعون ما قاله نهرو عن الهنود : انهم يعبدون البقر ولا يعتنون به ، ولو أنهم أعطوا البقرة ما تريد ولم يعبدوها لكان احترامهم لها أفضل !

والله ليس لوحة جميلة يضعها المؤمنون داخل صدورهم . المفروض أن الله عبقرية وذكاء وسلوك ، فالمؤمنون بالله اذا لم يحولوا ايمانهم الى مزية وقوة ، فهم زنادقة ولكن بدون مزايا الزنادقة ، بل ان الزنادقة بالتفكير أفضل وأقرب الى الله من الزنادقة بالأعمال ! والمؤمنون في جميع الحالات هم قوم يضعون الله في أفواههم والشيطان في رغباتهم ! والبشر دائماً يتعصبون لاعتقادات لا يستطيعون العمل بها بل ويحاربونه ، فالفضيلة عندهم تعصب لا سلوك .

وهؤلاء الذين يمجدون الله حينما يتحدثون ، ويشتمونه حينما يعملون – هل هم مؤمنون ؟ اذا رأينا أن هؤلاء الذين يؤمنون بالله كنظرية ويكفرون به كأخلاق – هؤلاء الذين يقاومون الله بالله – يقاومونه كنشاط ويقبلونه كاعتقاد ، يقبلونه

كمبرر لآثامهم ويرفضونه كقوة مانعة لهم من الظلم والسرقة والطغيان والتأخر والدنس – اذا رأينا أن هؤلاء مؤمنون أو فضلاء فقد ذهبنا في تفسير الله الى أدنى مستوى أخلاقي وعقلي .

ليس المنكرون بأفكارهم هم الملاحدة ، ولكن الملاحدة هم الذين يؤمنون بالله أو يزعمون ذلك ، ثم لا يحترمونه حينما يتعاملون مع الناس أو مع الحياة ، وحينما يستبد بهم الشبق والانانية والجهل فيذهبون يفجرون ويسرقون ويظلمون ويكذبون ثم ينهضون يستغفرون الله ويصلون له كثيراً ويرجون ان يصافحهم أو يقابلهم أو يغفر لهم . والذين يفعلون ذلك أو يعتقدونه ، هم شر الهراطقة . انهم يتصورون الله قيصراً او زعيما ضالاً ينشرح صدره للنفاق وقصائد الامتداح ويفقد وقاره عند تملقه ! ونفس الدعاء والصلاة اتهام لله بليد . فأنت اذا دعوت الله ، فقد طلبت منه ان يكون او ألا يكون – انك تطلب منه ان يغير سلوكه وذاته وانفعالاته ، واذا صليت له فقد رشوته لتؤثر في أخلاقه . فالمؤمنون العابدون قوم يريدون أن يؤثروا في ذات الله ويصوغوا سلوكه . والصلاة والدعاء ليسا إهانة لله فقط ، بل هما ايضاً إفساد للداعي المصلي لأنهما تعويد له على الرشوة وعلى نفي القانونية والعدالة ! والذي يتعلم رشوة الله وينكر قانونية الاشياء ، هل يمكن ان يكون سلوكه وتفكيره في المجتمع فاضلاً وذكيا ؟

ان الله في حوافزه وغاياته ليس اعتقاداً بل كينونة . فالذين يعملون ولا يعتقدون ، يوجد الله فيهم دون الذين يعتقدون ولا يعملون ، والله ليس حاكماً طاغياً غبياً يجعل الايمان به هو الحد الفاصل بين الاخيار والاشرار . والايمان بالاشخاص لا يعني شيئاً في حساب الفضيلة والرذيلة والخير والشر ، ولا توجد ذات هي جزء من السلوك الانساني ، ليس إنكار الاشخاص او الايمان بهم سلوكا . ان الذي لا يعلم بوجودي لا يعد مسيئاً إليّ ، ولكن المسيء هو الذي يعلم بوجودي ويعلن اعترافه بي ثم ينسب إليّ الشرور والنقائص . فالكفرة هم الذين يخرجون على الله في سلوكهم ، وليسوا الذين يبحثونه بأفكارهم حتى ولو لم يهتدوا اليه ! وإنكار الله بالتفكير هو أعلى أساليب الايمان به والصلوات له ! انه تصور له

على أعلى المستويات الفكرية .

والشيخ الذي يملأ لسانه بالله وبتسابيحه ، ويملأ تصوراته بالخوف منه ومن جحيمه ، بينما يملأ أعضاءه وشهواته بالكذب والخيانة وبالصغائر وبعبادة الأقوياء ، هو أكفر من أي زنديق في هذا العالم ! ان أقل فرق بين الشيخ الفاسق والملحد الفاسق ، ان الأول كالذي يأتي الفاحشة مع أمه في الكعبة ، وان الثاني كالذي يأتيها مع أجنبية في بيته !

*

ان الله شروط غير موجودة ، والذين لا يشترطون لله أية شروط ، لا عقلية ولا خلقية ولا فنية ، ويرون أن وجوده يعني وجود الذبابة والطاغية المجنون ، ولا ينزهونه عن أي وجود تحت أية ظروف ، لأنهم يرون كل وجود يساوي كل إله ، فلا إله زائد عن أي وجود ، ولا وجود زائد عن أي إله — هؤلاء الذين لا يشترطون لله أية شروط لا يعرفون انهم بذلك لا يثبتونه وأيضاً لا يحترمونه . والإله في كل افتراضاته هو سلوك لا ذات ، فاذا لم يوجد سلوك إله فلن توجد ذات إله . وما أبشع صورة الألوهية في عقيدة من يتصورون ان وجود الحشرة والمرض والظلم يفسر وجود الإله ويبرره ، أو يفسر وجودَه ويبرره ، وجود الانسان الذي غاية أمانيه وعبقريته أن يعيش بلا أمل أو رسالة ، غير أن يعيش وأن يتحدث بإعجاب عن الآلهة والمثل ويخرج عليها ، ويخرق التعاليم التي هو صانعها ، ويبكي بلا شجاعة ، أو يضحك بلا وقار ، ويدخل مع الطبيعة في معارك لا هدف لها غير نفسه ، ونفسه ذاتها لا هدف لها ، ثم يموت بلا تفسير عقلي أو أخلاقي . نعم ، انه يموت بالطبيعة ، ولكن لماذا تجيء الطبيعة محكوماً عليها بالموت ؟ ان لكل خطوة منفردة نخطوها تفسيراً وهدفاً ، ولكن مجموع خطواتنا لا هدف له ولا تفسير .

وإرادة الانسان لنفسه هي انعكاس وجوده وليست انعكاس منطق أعلى ، وجميع الكائنات الحية ، بل والجمادية ، تريد وجودها بضرورة الوجود لا لقيمة الوجود . وبالسبب الذي يريد به الانسان نفسه ، تريد أضعف حشرة نفسها

بدون أن توجد قيمة ذاتية لوجود أي منها أو لموضوعات حياته . لقد وجدنا فأردنا وجودنا ووضعنا له تفسيراً عقلياً وأدبيـاً ، ونحن لم نرَ وجودنا فكرة مثالية ، ولم نرده أو نعجب به كمشروع علمي مدروس . ولهذا فان الأفكار المضادة لا تستطيع أن تغير من حبنا لأنفسنا وحياتنا ، اننا نحب حياتنا وأنفسنا بقدر ما نستطيع لا بقدر ما نعرف ، وإرادتنا وأفكارنا لا تقيد حياتنا . ونحن نكون لأننا قادرون على أن نكون ، لا لأننا نريد ذلك أو ندعو اليه بعقائدنا ونظرياتنـا !

وإرادة الشيء لذاته لا تعني الثناء على ذلك الشيء ، وإنما تعني كون الشيء هو ذاته ، وكون الحجر هو ذاته لا يعني ثنـاء الحجر على الحجر . فاذا أراد الانسان نفسه ، لم يكن معنى هذا ان يضع لوجوده تقويماً فكرياً ، وإنما معناه ان الانسان هو نفسه . فاذا حوّل هذه الإرادة الى ايمان أو اعجاب عقلي ، فقد فسر الإرادة تفسيراً لاهوتياً – أي فسر كون الشيء هو الشيء بكون الشيء غير الشيء !

وقيمة الإنسان كلها ليست سوى قيمة حربية ، أي في حربه ضد الطبيعة ، وهي حرب لا تحمل أي مغزى أخلاقي أو فكري أو كوني، انها معركة لا تعطي تفسيراً ، وهي كالمعركة الأبدية بين الموج وصخور الشاطيء . وفائـدة الانتصار انه يعطيه بعض احتياجاته ، ولكنها احتياجات دفاعية أو سلبية ، إذ هي لا تعني شيئاً لولا وجوده . فمن اجل ان يكون لانتصارات الانسان على الطبيعة معنى بالنسبة له ، يجب ان يوجد وان يكون محتاجاً ، ولكن لماذا يوجد لكي يكون محتاجاً ؟ وهل يوجد أي تفسير أدبي لخلق الإنسان محتـاجاً باحثاً عن الانتصار ؟ وهل من المنطق ان توجد المشكلة من اجل ان تنتصر عليها ؟ أوليس المعقول ألا توجد المشاكل لئلا تكون محتاجاً الى هـذا الانتصار البائس ؟ انه لا يوجد منطق في ان نخلق المرض لكي نتعـالج منه ، وان نسقط في البئر لكي نناضل للخروج منه !

والانسان مهما كان مبدعاً وقوياً ، فلن توجـد فيه أية آثار لبصمات إله أو

رسول أو تدبير كوني ، وما له من دلالة اكثر مما لأية ظاهرة طبيعية كالزلازل والبراكين والأنهار الكبيرة العظيمة . واذا تفوق على الطبيعة ، فليس لتفوقه أية اشارة قادمة من السماء أو الغيب ، بل كتفوق الشمس على ما هو أصغر منها ، أو كتفوق شجرة على شجرة ، وحيوان راق على حشرة ضئيلة . وجميع ما يفعله البشر ليس إلا علاجاً لغلطة وجودهم ! ووجود الانسان لا يمكن ان يكون مفيداً للآلهة أو دالاً عليها وعلى تدبيرها ، بل وجوده مضاد لوجودها ولمصلحتها وهو في معناه وسلوكه مناف لمعناها وسلوكها . وعليها ألا تسمح بوجوده اذا كانت تريد اثبات نفسها واثبات فضائلها . واحتمالات وجود الآلهة وكونها مفهومة بدون وجود الانسان ، اكثر من احتمالات وجودها وفهمها مع وجوده ، أعني لو وجد عقل ثالث محايد يشاهد الموقف من خارجه ! ولو كنت إلهاً لما خلقت الانسان ولقاومت أي إله آخر يحاول ان يخلقه لكي أظل محتفظاً بتفوقي وكرامتي ووقاري واحتمالات صدقي ورضاي عن نفسي !

ومع ان الانسان هو وحده الذي تحدث عن الآلهة ودعا الى الايمان بها وشاد لها أضخم المعابد ، إلا ان كل شيء فيه ينافيها ويقيم في وجهها المعارضة ! لقد خلق الإله الانسان ليعبده ويطيعه ، ولكنه يعلم مقدماً انه لن يعبده ولن يطيعه . فهل كانت رغبته في عبادة الانسان له غير ناضجة ، أم كانت خطته لتحقيق رغبته غير كافية . يا لها من قضية معقدة غير ذكية !

ان الإنسان هو أبشع تحد علمي وفني وأخلاقي للإله حتى في أزهى عصور الورع والايمان . أوليس الذين يؤمنون بالله يشتمونه بإيمانهم ؟ ما صورة الإله في عقيدة من يتصورون هذا الانسان ، هو أعلى ما وصل اليه ذكاء الله وقدرته ، وانه هو أقوى الأدلة على وحدانيته وحكمته !

اذا اشترطت لله شروطاً فانك لن تجده ، واذا لم تشترط له أية شروط فانك من جهة تحتقره ومن جهة اخرى لا تستطيع ان تثبته . فالله مشروطاً محال ، وغير مشروط محال وخطيئة !

والعقدة الدائمة ان براهين وجود الإله هي دائماً براهين نفيه ، وان اسباب

الثناء عليه هي اسباب الطعن فيه !

*

كذلك ليس الذين ينقدون الناس ويدعونهم الى ان يتغيروا، هم الذين يهدمونهم أو يطعنون فيهم – ليس هؤلاء هم أعداءهم . ولكن اعداءهم الهادمين لهم الطاعنين فيهم ، هم الذين يسرقونهم ويفقرونهم ويستبدون بهم ويحولونهم الى حروب وخصومات وقوداً لطموحهم ، والى اعلان ودعاية ارضاء لجنونهم ، وهم الذين يخدعونهم ويكذبون عليهم ويحاربون فيهم الحرية والوعي والتطور ، ثم يخطبون فوق منابرهم هاتفين لمجد الانسان منشدين أبلغ الأناشيد في عبقريته !

ان عدونا هو الذي يضعفنا ، وليس الذي يقول لنا انتم ضعفاء، وان الانسان الفاسق الظالم المنحرف لهو أشد طعنا في البشر من جميع الطاعنين ! فالحاكم او الكاتب الفاسد الذي ينهض ليتملق الناس ويقول لهم : انتم التفسير الكامل الجميل لصفات الله ولعبقرية الوجود وعبقرية القضاء والقدر هو الخصم المدمر المتآمر ،دون الذي يدعوهم الى ان يعرفوا عيوبهم ويكرهوها .

وعند الناس مثل قديم يقول : « مبكياتك لا مضحكاتك » ويعنون بهذا ان صديقك الذي عليك ان تحترمه وتستمع اليه ، هو الذي يقول لك الحق فيؤلمك الى ان تبكي ، وليس صديقك هو من يكذبك ويقول لك الباطل ليجلب اليك الضحك والسرور الكاذب ؟

*

ان الذين يتحاشون الأفكار الخطرة يقعون في السلوك الخطر ، والناس في العادة يخافون أفكاراً معينة لأنهم يخافون ما تعني هذه الأفكار من تصرفات سلوكية . والأفكار لا تخاف لأنها افكار ، بل لأنها قد تؤدي الى سلوك !

ورجل الدين وصاحب المذهب والحاكم والزعيم – كل هؤلاء لا يقاومون الأفكار المخالفة لأفكارهم إلا لأنهم يخشون انيكون معناها الخروج على الأوضاع والنظم والحياة التي ألفوا وعاشوا . ولو علموا ان هذه الأفكار المخالفة ستظل دائماً افكاراً فقط لما قاوموها أو خافوها !

اذن فنحن حينما نبحث عن الأفكار المستقيمة ونستنكر المتمردة أو الملحدة أو الجديدة ، إنما نعني ما تنطوي عليه من سلوك ، فالغرض هو دائماً الحالة السلوكية . والأفكار ليست شيئاً في ذاتها ، وحتى الأفكار الثورية لا تعني شيئاً لولا احتمالات الثورة التي تبدل الأوضاع والناس القائمين عليها . نحن نريد الأفكار المؤمنة لأننا نعتقد انها تمنحنا سلوكاً مؤمناً ، ونرفض الأفكار الكافرة لاعتقادنا انها تجعلنا كافرين في تصرفاتنا !

ولكن هل هذا صحيح - هل صحيح ان المؤمنين بأفكارهم مؤمنون بأخلاقهم وهل العكس صحيح ؟

ليست الاستقامة ايماناً أو كفراً ، ولكنها تلاؤم بين الناس وظروفهم وتعبير عن علاقاتهم بالمجالات الخارجية . وكل انسان ومجتمع محتاج الى ان يعبر عن ذاته ، وأساليب التعبير مختلفة وكثيرة . فالتفكير وإطلاق التفكير نوعان من التعبير ، والتطاول الفكري على الأشياء المفروضة مقدسة وعلى التاريخ اسلوب ممتاز من أساليب التعبير . فالبشر نوافذ كثيرة يطلقون منها انفسهم في شتى الاتجاهات .

فاذا حرم على الفرد او المجتمع ان يفهم ويفكر ويحول فهمه وتفكيره الى اصوات ، فلا بد ان يوجه جميع نفسه الى التعبير بالأسلوب الآخر - اي بالانحراف السلوكي . ولهذا فحيث لا تفكير ولا خروج عقلي - حيث الايمان والخوف من الآلهة ومن العقائد المقدسة والاحترام لها - حيث يوجد هذا توجد الانحرافات السلوكية الخطيرة . وهذا مشهود دائماً في المجتمعات المستقيمة في اعتقاداتها ! ومن أسوأ ما في المتدينين انهم يتسامحون مع الفاسدين ولا يتسامحون مع المفكرين ، وقد يثيرهم مفكر واحد يتحدث مع نفسه همساً ، ثم لا يحركهم ان يخرج كل من في المجتمع على فضائل الدين والأخلاق ! والمطلوب عندهم المحافظة على رجعية التفكير لا على مثالية السلوك .

والذين لا يستطيعون ان يكونوا متحررين يكونون متحللين ، والفسوق السلوكي بديل صحيح عن التفكير ! واذا كان فاسق الفكر فاسق الأعضاء ايضاً

فان مستقيم الفكر قد يكون أشد فسقاً اجتماعياً واخلاقياً ونفسياً ! ان الذين يدعون الى الورع الفكري ، يدعون في نفس الوقت الى الفسوق الأخلاقي — اي ان الاستقامة الفكرية تعطي عكس الغرض الذي ينشده المعتقدون ! فمن اجل البحث عن الفضيلة ، يجب علينا ألا نبحث عن الايمان. وحاجة البشر الى الأعمال الكبيرة لا الى العقائد القوية !

ولا يصح الافتراض بأن عقائدنا القوية هي التي تصنع اعمالنا الكبيرة، فحوافز الانسان لا عقائده هي التي تصوغ كل نشاطاته ، بل بين العقائد والحوافز عداوة وتناقض ، فالحوافز تضعف العقائد ، والعقائد تحاول إضعاف الحوافز . والذين أبدعوا التاريخ لم يكونوا ذوي عقائد قوية ، وانما كانوا ذوي حياة قوية ! وما ندعوه بالعقائد ليس إلا عملية تشريع لشهوات غير معتقدة . فالعقيدة هي دائماً شعار فقط لشيء آخر ليس عقيدة ، هي دائماً شعار لشيء هو ضد العقيدة . ليست العقيدة والوطنية إلا تفسيرات مثالية لمشاعر وتصرفات فردية ذاتية . والبشر يحولون ارادتهم الخاصة الى لغات وشعارات عامة ! والحياة لا تخضع للقيم الأدبية ، بل توجد فيها هذه القيم، والقيمة الأدبية تعني ان الشيء مطلق، ولكن الشيء الموجود لا يكون مطلقاً . والأديان والأوطان وكل الموضوعات الأخرى التي تبدو كحقائق ادبية او عقلية ، ليست قيماً ولا مجردات ، انها لا تعني غير ارتباطنا بالشيء وتأثرنا به . وعلاقتنا بأي دين او ارض او قوم او فكرة، هي علاقة شخصية مادية مثل علاقتنا بالطعام وبالملابس .

ونحن لا نحترم الأشياء أي الأشياء ، ولكننا نحترم توافقنا معها او التزامنا إياها ! والمعنى الأدبي لأي شيء ليس سوى ارادتنا له !

القيم والمطلقات لغة انسانية لا وجود كوني ، بل ولا وجود انساني . والانسان يتحدث غير ما يفكر ، ويفكر غير ما يحيا ، ويحيا غير ما يريد ! ان العقائد والمثل لا تعني شيئاً في حياة البشر ولا في نظام الكون ، غير انها لغة اخترعها الانسان دون ان يجدها او يتقيد بها او يحترمها !

وقد كانت كل قفزة حضارية تشير الى انهيار عقائدي في العصر الذي سبق .

ولا ينبغي ان نبكي على ما يموت من عقائدنا او افكارنا ، فليس بصالح ولا ممكن ان نحيا بشعار واحد أو داخل إطار واحد كل الحياة في كل الزمن .

*

وطبيعة الحركة المتناقضة في الحياة لا تترك اي احتمال لاحترام الالتزامات الاعتقادية أو الأدبية ، فالالتزام العقلي لا يمكن ان يعيش إلا في فراغ لأنه سكون ، والحركة تناقض . والموجود لا يكون ملتزماً إلا بقدر ما يكون عاجزاً عن الحركة وعن الاستجابة لها . وجميع الناس في جميع العصور يصنعون واقعهم واحتمالاتهم وظروفهم المتناقضة غير متقيدين بأي التزام فكري او أخلاقي ، والمؤمنون وغير المؤمنين يخضعون بدرجة متساوية لقانون الحركة المتناقضة ، لا للايمان ولا للثورة ضد الايمان . واذا فعلوا ما يوافق اعتقاداتهم فهم لا يفعلون اعتقاداتهم وانما يفعلون حياتهم !

ان الالتزامات المذهبية ليست سوى أحاديث منمقة . والمحافظون أو من يسمون محافظين، لا يختلفون عن أشد المتمردين خروجاً على الالتزامات العقائدية واستجابة للظروف المضادة للالتزامات ، ولكن يختلفون في اللغة أو في حركة الظروف . فالفريقان يفعلان أهواءهما وواقعهما ، لا التزاماتهما . ولكن أحياناً تختلط الأهواء والواقع بالالتزامات أو تبدو في اتجاه واحد ، وأحياناً أخرى ، وهذا هو الأكثر ، نخرج بكل قوتنا وشهوتنا على التزاماتنا من حيث الرغبة والسلوك ، ثم نذهب مع هذا نبالغ في امتداح هذه الالتزامات ! فالمحافظون هم أناس محافظون في لغتهم أو ظروفهم ، لا في أخلاقهم ولا في التزاماتهم العقلية أو مشاعرهم ! ولهذا فقد يكون المحافظ في تفكيره من أفسق الناس في سلوكه !

إذن لا يوجد ملتزمون وغير ملتزمين ، إذ لم يأت من يستطيع أن يكون ملتزماً . والذين يزهون بما عندهم من عقائد ونظريات ، إنما يزهون بما لا يمكن التزامه وبما لا تأثير له عليهم ، بل بما لا يريدون ! والمعتقدون جداً كاذبون جداً لأن اعتقادهم ينافي حياتهم ، فكلما زعموا انهم ملتزمون كانوا كاذبين ، وكلما حاولوا أن يحيوا عقائدهم احتاجوا الى مزيد من الكذب والنفاق والتناقض !

ولا يستطيع أحد أن يتمسك بتعاليمه إلا اذا استطاع أن يسير كل حياته في طريق واحد مستقيم، أو إلا اذا استطعنا أن نتوقف عن الرغبة وتتوقف ظروفنا عن الحركة والتغير .

لقد كانت محاولة الانسان الدائمة أن يكون معتقداً غير ملتزم، وكان في محاولته هذه يبحث عن الراحة لا عن الفضيلة أو الصواب !

*

ولما كان الفصل بين النظرية والسلوك ممكناً بهذه السهولة صنع البشر لأنفسهم كل هذه العقائد والتعاليم المثالية الشاقة التي يستحيل تطبيقها، وخرج فيهم الدعاة والأنبياء والمعلمون القساة الذين أثقلوا الانسانية بفداحة وروعة ما يعلمون، دون أن يخشوا الزامهم بما يقولون، او الحكم عليهم بمعتقداتهم، او اتهامهم بالقسوة والمناداة بالمحال ! وأفجر الناس وأطغاهم يرحبون بتوقيع وتشريع أفضل القوانين في العدل والحرية والاستقامة بلا شعور بالخوف او التناقض لأنهم يعلمون أنهم لن يكونوا ملزمين بها لا أمام أنفسهم ولا أمام الآخرين . ولعل اكثر الناس خروجاً على التعاليم هم أقوى من وضعوا التعاليم، كما أن أفسق الحكام والمعلمين قد يكونون اكبر الدعاة الى الأديان والأخلاق مع أن الأديان والأخلاق تحرم عليهم كل ما هم فيه من استغلال وسرقات وكبرياء ومنافع كثيرة، وتحرمهم من ذلك لو انتصرت كما لا بد أن تزيلهم . ولكنهم يعلمون ان الدعوة الى الشيء لا تعني وجود الشيء، وان النظرية التي لا تتحول الى سلوك ليست شيئاً خطيراً . ولو وجد الحكام الأتقياء ورجال الدين والمعلمون الموصوفون بكل ضروب الغيرة أن الأديان والأخلاق التي يمتدحون ويحلون قتل كل من يفسرونها بغير تفسيراتهم هم، تريد أن تنتصر، لجندوا جميع الاشياء لحربها وهزيمتها لان انتصارها هزيمة لمصالحهم .

وكل الناس أصدقاء للفضائل المضادة لمصالحهم اذا كانت هذه الفضائل ستبقى دائماً أملاً خلاباً لا يتحقق، وحديثاً يتلى من فوق المنابر بلا تطبيق !

وقد كان الناس جميعاً يخلقون الاديان والفضائل النظرية ويدعون اليها برهبانية واصرار لانهم كانوا يعلمون أنهم لن يكونوا مقيدين بها في حياتهم وانهم يستطيعون

أن يجمعوا بين العقيدة والعمل بلا عقيدة ، بين العقيدة الورعة او القاسية جداً والاخلاق الفاجرة المنحلة جداً . لقد تعلمنا الايمان وتعلمنا الخروج عليه باسلوب انساني تاريخي عام جعلنا لا نلتفت الى فداحة التناقض فيه !

ولو كانت الفكرة تعني التقيد بمضمونها لما ابتكر الناس الاديان والمواعظ والاخلاق المكتوبة ، ولما أمكن أن يؤمنوا بها ، لانه لا يوجد من يستطيعون العمل بها ! نعم لو كان الايمان ملزماً لكان مستحيلاً ان يوجد في التاريخ كله مؤمن واحد . لقد كان البشر يحلمون ويتمنون حينما دعوا الى الايمان بما لا يفعلون ولا يستطيعون . والاحتلام والتمني نوعان من الاحتجاج على الواقع ، وحياة الانسان في حالة احتجاج دائم . وهذا هو التفسير لسير المجتمعات وراء الذين يصنعون لها الاحلام والاماني ، اي يصنعون لها الاحتجاجات الصارخة حتى ولو كان هؤلاء الصانعون منافقين وكاذبين في احتجاجاتهم ، اي خارجين في سلوكهم على احلام الجماعة وامانيها ! فالبشر يريدون من يحدثونهم ويحلمون لهم بعصبية وصراخ، ولا يريدون الفضلاء الهادئين او المتوازنين او الصادقين مع انفسهم ومع الواقع . والواقع وحده وكما هو عذاب وبذاءة ! لقد كانت كل المجتمعات وكل الناس في حالة هرب دائم !

وحضارات الانسان وجميع فنونه واديانه ليست سوى تعبيرات مختلفة عن حالات الهرب ، بل وجود الحياة نفسها عملية هرب . ولولا ان الانسان هارب دائماً لما اوجد اوطور حياته او علومه او اخلاقه . ان اية كينونة انسانية هي محاولة للفرار من واقع ما .

فالانسان فاضل او عبقري او بطل او متدين او صديق محب للآخرين لأنه هارب ، والطبيعة هاربة ايضاً ، ولكن الانسان وحده هو الذي يعبّر عن هربه باللغة والتفكير والفن والبكاء والتدين ! وكبار اطباء العالم الذين قدموا الينا من فوق النجوم ليذرفوا الدموع في الطرقات حزناً على خطايا الانسان وآلامه ، او ليتلقوا الألواح لمعالجة امراض الأرض وتجفيف المستنقعات في اخلاق أهلها لم يكونوا أفضل من غيرهم ، وانما كانوا أعنف احساساً بالحاجة الى الهرب وتعبيراً

عنه . والكتاب والزعماء الذين يخلبوننا باخلاصهم وجهادهم ليسوا الا هاربين من واقع او ذكرى او حالة نفسية قائمة . وطلب المجد الذي يحرك هؤلاء انما يعني الهرب من شيء ما ، فطالب المجد هارب ، والذي لا يكون هارباً لا يمكن أن يطلب مجداً لأن المستقر لا يطلب شيئاً . المجد ليس شيئاً ، وانما هو فرار من حالة ! ولو ان اي انسان فقد كل مسببات الرغبة في الهرب لما امكن ان يفكر او يريد !

ان الفضيلة في جميع صورها ليست غير اساليبنا في التعبير عن هربنا من واقعنا الذاتي وواقعنا الخارجي ، وليست الرذيلة الا ذلك !

*

والتعب ضريبة على الوجود الانساني . الانسان موجود ، اذن هو متعب ، وهو لا يكون لو لم يكن متعباً ولو لم يشعر بالتعب ! والمتعبون لا بد ان يصرخوا ، ويتطرفوا ويحطموا المصابيح ويناقشوا في الفضائل التي لا يفعلونها ولا يستطيعونها بل ولا يحترمونها ، وان يلعنوا شيئاً ما . وهنا توجد فرصة اكيدة لظهور الفضائل المتعصبة الغبية ، وظهور القادة المتهوسين الكاذبين ، وللايمان بالدعاة الذين يجيئون بالتعاليم المهيجة .

انه لولا التعب لما وجد من يهتفون لاي زعيم او إله او مذهب ، ولا من ينتحرون تحت اقدام الطغاة والأرباب والأديان والمذاهب البليدة في تتابع تاريخي مذهل ، ولا من يبكون حزناً على الضعفاء والمتألمين وعلى الأخلاق والأوطان المضيعة ! واكثر الزعماء والآلهة احتياجاً الى التطرف والصياح والقاء الخطب في الطرقات هم زعماء وآلهة اكثر المجتمعات تعباً ! - والزعيم المثالي في الشعب المتعب هو الزعيم المهيج ، وكذلك الإله المثالي !

والجماعات لا تؤمن بالزعماء او المعلمين او الآلهة لأن لهم قوة خارقة او مزايا لايمكن الاعتراض عليها ولا لأنهم ضرورة انسانية اوكونية . وانما تؤمن بهم لأنهم يتحولون الى تعبيرات قيادية جماعية والى احتجاج عام على ما لا نستطيع او على ما لا نريد ، وهي تفضل ان تعبر عن تعبها وأزماتها بالصراخ والجنون والتطرف

والايمان بغير المعقول باسلوب جماعي حاشد منظم . وممارسة الجنون تحت قيادة قائد يحسن فنه هي ابشع واقوى انواع الجنون في التاريخ ولكنها اقواها في تفجير الحماس والسرور والبطولات الكئيبة البذيئة ! والناس يبكون ويرقصون وينتحرون جماعة اكثر مما يفعلون ذلك آحاداً . وسلوك الجماعة لا يحتاج الى مبررات اخلاقية او عقلية .

ما تطلبه الجماعات ليس هو الحق ولا هو العدل او العقل او الحرية ، بل اللعب بمشاعرها، ولعل الأصح انها لا تطلب شيئاً تعرفه ، ولكنها تنتظر اي شيء يعرض او يفرض عليها في مواكب من الضجيج . لهذا نجح في غزوها جميع الفاتحين . لا توجد صورة متحددة لماتريده الجماعات او لما تطلبه ، وانما تعيش في تيه مفتوح على كل الجهات، يحرسه ويحكمه الادلاء الضالون المفترسون ، والحقائق عندها ليست موجودات بل تعبيرات ! لقد هتفت الجماعات في جميع العصور لجميع الحكام والزعماء والعقائد والنظم المتناقضة على درجة واحدة من الحماس . هتفت للايمان بالله وللايمان بالالحاد، وللملكية والجمهورية وللديمقراطية والدكتاتورية والرأسمالية والشيوعية ، وهتفت للعدل والظلم والقاتل والمقتول ، وعبدت آلهة قاتلة وآلهة لا تفعل شيئاً .

والنظم والمعلمون والقادة الذين خلبوا ألباب الشعوب وقادوها الى الهزائم والانتصارات ، واستعبدوا أرواحها لإرادتهم وتعاليمهم اطول مدة بأقسى اسلوب ، لم يكن لوجودهم او انتصارهم اي مسوغ ، غير انهم كانوا يعبرون بالصياح والتطرف والخطب والتعاليم المحقرة للمنطق عن متاعب هذه الشعوب ، تعبيراً استنفد منها اعظم شحناتها الانفعالية المتعبة . وفضائل السوق لا تكون متوقرة ولا صامتة ، فالفضيلة الصامتة ليس لها مؤمنون ولا قراء . والمنطق الهادىء لا يستطيع ان يدخل في مبارزة ناجحة مع الاصوات العالية المتوترة في ميدان عام ! ان المنطق الهادىء تحدٍ للسوق ! وليس ايمان الجماهير لأفضل النظم والزعماء والمعلمين ، بل لأبرعهم في إثارتها . واذا وجدنا قائداً قوياً او معبوداً ، لم يكن من الصواب البحث عن مزاياه ، بل عن رذائله القادرة على التلاؤم مع

آلام السوق وتطرفها وحاجتها الى الايمان بالانبياء المهيجين .

ان الناس لا يؤمنون بالافضل او بالاصدق ، بل بالاكثر صخباً وتجاوباً مع الاعصاب المتعبة .

*

والعدل والحرية والخير والحب والاخلاص – هذه التعبيرات وامثالها في كلام الانسان ، إنما تعني في سلوكه الجوع والجنس والافتراس والخبز والنوم . فهو يسمي ذاته الجائعة الآكلة للضفادع بأسماء الآلهة والملكوت والانبياء والقديسين. وقد اخترع لغة قادرة على تزييف وتغطية حوافزه واهدافه . وكان اختراعه للمجاز والمبالغة والكذب وتسميته للأشياء المكروهة بأسماء محبوبة ، نوعاً من عمليات التزييف والتغطية . لقد سمى سلوكه ورغباته الجارحة بأسماء مثالية ، فأصبحت اللغة مسؤولة عن الكثير من اخطاء الانسان وتوتراته العقلية والاخلاقية. ليست الآلهة والاديان والفضائل الانسانية اوهاماً عقلية فقط ، بل واوهام لغوية ، فالجماهير تتلقى اشياءها المقدسة لغة من السوق ، فتغطي حقيقتها غير الجميلة وغير السارة بحجاب كثيف جميل سار من التسميات والشعارات. ولو كان الانسان بلا لغة لكان بلا حضارة، ولكان ايضاً بلا آلهة ولا احقاد ولا أكاذيب ولا أوهام كبيرة ؟

واللغة تصنع حالة نفسية ، كما انها نتيجة لمثل هذه الحالة . والحافز على صياغة اللغة حافز نفسي لا بلاغي ، اي ان الذين يعبرون تعبيرات مجازية ، لا يقصدون جمال الاسلوب او الارتفاع بالفن اللفظي ، بل هم مندفعون امام ضغط نفسي في داخلهم ، او وراء هدف خارجي يرومون تحقيقه . وهذا يعني ان اللغة ليست مفسرة لعقائدنا وعواطفنا فحسب ، ولكنها واضعة لها ايضاً ، فالخطأ في اللغة يصنع خطأ في التفكير .

ولا يوجد من يريدون ان تكون لغتهم او لغة من يتعاملون معهم ، وسيلة صادقة وامينة للتعبير عن انفسهم او عن ظروفهم كما هي، ان هذا نوع من التعري والسباب لا تطيقه حياة الانسان . والتعبير باللغة عن الانسان وإلى الانسان كما

هو سباب وافتضاح رفضهما البشر في كل العصور ، وإنما البشر جميعاً يريدون من اللغة ان تكون جهاز تزوير ، يزورون به كل شيء ليكون كما يشتهون . وهم لا يتحدثون عن الاشياء كما هي، بل كما يريدونها ، وهم يحاولون ان تخضع لهم الحقيقة لا ان يخضعوا هم للحقيقة . لهذا اصبح من المتقرر أن كلام الناس لا يمكن ان يكون دليلاً على عقائدهم او اخلاقهم ، فالكلام ليس وسيلة بيانية ! ان الذي يتحدث عن أغراضه يغطيها اكثر مما يكشفها !

واللغة مثل الغناء والبكاء ، ليست تعبيراً عن الواقع ، ولكنها تعبير عن الانسان ، عن اسلوب الانسان لا عن واقعه . وأية لغة او توكيدات لغوية لا يمكن ان تكون وسيلة تعارف او ذات دلالة مباشرة على نية القائل وأهدافه . فاللغة أداة توصيل كاذبة دائماً !

واكثرالناس بعداً عن الصدق اللغوي هم اصحاب المثل والدعوات، فالمعلمون والدعاة والكتاب لا يريدون بدعوتهم ان يقولوا الحق او ينصروه، وانما يريدون أن يقولوا ما يلائمهم ويريحهم ، او ما يعتقدون أنه يؤثر في الآخرين . وليس في قصدهم أن يتحروا الصدق ، فإذا صدقوا ، فلن يكون الصدق هدفهم ، ولكنه وسيلتهم الى هدفهم . فالصدق ضرورة لا رسالة ، والكلام بحث عما نحن ، لا عما هو واجب او عما هو اخلاقي . اذا نطق اي قاض في اية محكمة بكلمات الحق او ما يراه حقاً ، فلا ينبغي ان يختلط علينا الامر ، فهذا القاضي حينما حكم ، لم ينظر الى الحق ولا الى من يستحقونه ، ولم يخطر ذلك على باله ، وإنما نظر الى نفسه ، لقد كان يعبر عن ذاته ووضعه ، لا عن القانون او الاخلاق ، وكان هذا هو شعوره . ويقول في اسباب حكمه : هذا هو العدل . ولو قال الحقيقة بلغتها لقال : هذا هو أنا أو هذا ما لا بد منه بالنسبة لمن هو في مكاني ، فالانسان لا يمكن أن يكون معبراً إلا عن نفسه فقط .

والمفكر أو المصلح الداعية حينما يصر على ان حبه للانسانية هو الذي جعله يفكر لها ويخلق من ذاته رسولاً يدعوها الى الخير ليس كاذباً فقط ، بل ومخطيء خطأ عقلياً ترتب عليه خطأ لغوي ، وقد عبر عن خطئه وكذبه باللغة .

وبالاستمرار اقتنع الناس واقتنع هو على نحو ما بتفسيره لنفسه وسلوكه . لقد ابتكر الانسان الكلمة ليهاجم ويقاوم لا ليتفاهم ، كان حافز القتال أقوى من حافز التفاهم في ابتكار الكلام . فاللغة وسيلة قتال نفسي وعقلي ، لا يريد المتكلم أن يكون مفهوماً أو فاهماً ، بل أن يكون هارباً أو متخفياً أو مفترساً . ولو استطاع أن يعبر عن حقيقته تعبيراً لغوياً صحيحاً لقال انه حينما يفكر ويصنع من نفسه رسولاً هادياً لا يقصد هداية الناس ، ولكن يقصد أن يتعالج بهم من نفسه ، فهو هارب من داخله الى الآخرين – هارب الى السوق . والنتيجة ليست مقصودة في حسابه ، انه ليس رحيماً ولا صديقاً ولا محباً أو انساناً اكثر من الذين يشبون الحروب ويقتلون الملايين . ولو قال ذلك لما اختلف الوضع بالنسبة له ولا بالنسبة المجتمع . فالناس لا يرحبون بالداعية أو الرسول لأنه صادق أو طاهر القصد ، بل لأنهم محتاجون الى الايمان والاتباع والى المنشدين المتوترين !

إذن فآلهة الانسان وعقائده ومثله وأخلاقه هي مجموعة أخطائه اللغوية . نعم ، ان له سلوكاً وأفكاراً وعواطف موضوعية ، ولكن التعبير عنها والحكم عليها هما الخطأ اللغوي .

ان البشر يضعون لغتهم ليكونوا لها عبيداً . كم هزت المجتمعات وساقتها الى المذابح والانتصارات الجوفاء كلمات لاهوتية غامضة، مثل الخير والشر والعقيدة والوطنية والخيانة والشرف والعدل والظلم والحق والباطل ، مع ان ذلك لا يعني في معناه غير تناقض الانسان مع نفسه وظروفه ومع الآخرين . والفرق بين الشيء ونقيضه يساوي الفرق بين رغبتنا فيه ورغبتنا ضده !

٭

ومعنى ما تقدم ، ان جميع أنواع السلوك والعقائد والمثل بل والابتكارات الحضارية هي حاصل عمليات اخراج الانسان وتوزيعه وتفسيره لنفسه وظروفه. وهذا يعني ان اعمالنا السلوكية والفكرية والنفسية لا تنقسم من حيث الحافز والهدف والطبيعة الى طيبة ورديئة أو الى ايمان وكفر ، بل هي عملية واحدة تختلف علاقات الآخرين بها فيختلف شعورهم نحوها ثم يختلف حكمهم عليها .

ان قتلي لعدوي عدل ، وقتل عدوي لي ظـلم ، وان رأيي وديني صواب ، ورأي المخالفين ودينهم خطأ – هكذا ينظر الأذكياء والأغبياء الى أنفسهم والى الآخرين ، وهكذا يتعاملون باسم الآ لهة والأوطان وباسم الحق المطلق .

ونحن لا نعادي المخالفين لنا لأنهم ضد الفضيلة او ضد الايمان والحق ولكن لأنهم ضدنا ، وهم مخطئون لأن ارادتهم ومصالحهم تصطدم بارادتنـا ومصالحنا . فنحن دائماً الوحدة القياسية للآ لهة والمذاهب والناس وكل الأشياء .

ان جميع عقائد البشر واهدافهم تنبع من التراب لتصب في التراب وتتحول الى تراب .فالبشر ليسوا حكمة تتحول الى ارض وانما هم ارض تتحدث عن الحكمة ، وكل ما عندهم من تفكير يعبر عنهم ولكنهم هم لا يعبرون عن اي تفكير ، والافكار لا تتحول الى وجود ، والوجود هو الذي يتحول الى أفـــكار ، واذا حدثت ثورة اجتماعية فليس لانها قد كانت فكرة بل لان احتمالات حدوثها قـد تكاملت ،والفكرة عن الشيء هي تعبير عن حالة ما ، عن حالة فينا وفي ظروفنا وهذه الحالة هي التي تحركنا دائماً لا أفكارنا. والخلاف بين الشعوب والأفراد ليس على المذهب او التفكير بل على الكينونة والارادة .

ان الناس يتحدثون عن المبادىء ، ويتحركون بالشهوات ، ويتعاهدون على القوانين ،ويتعاملون بالمؤامرات ! واذا اختلفت كينونة قوم او ارادتهم اختلف تفكيرهم،والاختلاف الفكري هو دائماًفي أسبابه وطبيعته اختلاف غير فكري. ويشبه الاختلاف بين آراء الناس اختلاف تناقضات الطبيعة ، هو اختلاف حركة وتصادم ، لاتفكير. فالكينونة والارادة هما دائماً الحالة الاولى والاسباب الفاعلة. والمذاهب لا تغيرنا ولا تحركنا ولكن نحن الذين نغيرها ونحركها ،ومذهب الانسان غير الانسان، لان المذهب موقف فكري عام،أما الانسان فرغبة متغيرة خاصة.

ان الخلاف بين الشيوعية والرأسمالية خـــلاف فكري مذهبي في لغته وفي ملابسه الخارجية،أما في تكوينه العضوي فانه خلاف كينونة ، خلاف مستويات وانتصارات وهزائم وتاريخ وبلاد واحقاد وشهوات وقوة وضعف وحركات لا منطق لها .

ولا تأثير لأي منطق او مذهب ما لم يكن تعبيراً عن حالة ، وهذه الحالة لا يخلقها المنطق او المذهب ، ولا يحرضها . والافكار والمذاهب لا يأتيها نشاطهامن ذاتها بل وجودها نفسه يجيء من خارجها. واذا أمرتنا او نهتنا مذاهبنا وافكارنا كان المعنى انهـــا هي نفسها واقعة تحت ضغط أوامر ونواه خارجية . ولعل الصحيح أنها لا تأمر ولا تنهى ، وانما تتلقى الامر والنهي لتبعث بهما الى الغرائز المحتقرة فينا ، أي منها واليها ! ولم يزل العالم يزدحم بالنظريات والمذاهب المتقاتلة ولكن المذاهب والنظريات بالنسبة للمجتمع هي الاسمـاء للقوى المحركة الحقيقية التي لا تحترم غير نفسها ولا تستطيع أن تكون ملتزمة أو تابعة .

وبقدر ما يصدق القول بأن الجمال ليس نظرية وانما هو مستوى ذات، كذلك يصدق القول بأن النظام ليس نظرية ولكنه اكتمال حالة .

والبشر في ابتكارهم للنظم والمذاهب المختلفة الدائمة لا يفعلون ذلك بحثاً عن المنطق أو الصواب ولكن خضوعاً لقانون السير الدائم في التيه المجهول ، كالاسلوب الذي تتحرك به الطبيعة فتصوغ حركاتها المتناقضة العقيمة بلا بحث عن شيء ولا حاجة الى شيء ! ان البشر يسيرون ويظلون يسيرون ، فيبدعون الحياة كما تبدع الرياح الضالة جبال الرمال ، ويحدث دائماً ان الحركات العشوائية التي تأتي عن الانسان والطبيعة تصنع الحالة التي ندعوها مجتمعاً ونظاماً وعقلاً كونياً او عقلاً إلهياً في الكون ، كما تصنع حركات البخار غير العاقلة أنهـــاراً كبيرة عاقلة . والاشياء المنظمة العاقلة هي دائماً حصيلة أشياء ليست منظمة ولا عاقلة . ان نفس عقولنا هي نتاج وجود غير عاقل ، كما أن الانسان قد خلق عن شيء ليس انساناً . ودائماً فاقد الشيء يعطيه ، لهذا وجدت الحياة والكون وتطورا ، ولو كان فاقد الشيء لا يعطيه كما تقول الفلسفة القديمة لكان مستحيلاً وجود أي شيء وتغير أي شيء . ووجود الكون والحياة والانسان والعلم والحضارة يعني أن فاقـد الشيء يعطيه ، أليس الله نفسه يعطي الاشياء التي هو فاقد لها ؟

*

أبشع التناقضات ان نصنع الاشياء بارادتنا ثم لا نستطيع ان نصنع الانسان كذلك . ان كل الاشياء ، المذاهب والنظم والافكار المتغيرة ، لا تستطيع ان تغير الانسان ، فالانسان هو دائماً روح واحدة لا تعيش وراء الحضارات . نعم ، هو يحدث تغييراً في حياته ونظمه وافكاره وحضارته ، لان هذه كلها صناعة يكتسبها ويتقنها ويتفاوت فيها ، وهي اساليب وتعبيرات عن ذاته الخالدة التي لا تتغير لانها لا تكتسب ولا تصنع .

حتى الأخلاق ، انها في تغير دائم ، ولكن الذي يتغير فيها ليس هو الانسان بل الأسلوب والتعبير . والمستوى الانساني الذي تنطلق عنه أقوى الأخلاق والمواقف ، هو نفس المستوى الذي تنطلق عنه أضعف المواقف والأخلاق. ولهذا فان البشر تحت جميع التغيرات الكبيرة التي يدخلونها على حياتهم وأدواتها ، يظلون كما هم بلا أي تغيير ، وكل التغيرات هي تغيرات زي ولغة لا تغيرات ذات . ونحن نستطيع أن نغير زينا ، أي نغير وسائل تعبيرنا عن أنفسنا ، دون أن نستطيع تغيير أنفسنا ، اننا نتكلم كل اللغات لنعبر عن معنى واحد لا يتغير .

ما يصنعه الانسان أعظم من الانسان ، ان افكاره ومثله وعقائده ، هي دائماً وفي كل التاريخ اكبر منه مع انه هو خالقها ، وان مصانعه ومدائنه وجيوشه وحضاراته متغيرة وكبيرة جداً ، أما هو فيظل صغيراً ، صغيراً مثلما كان حينما كان بلا حضارة ولا ثقافة ولا لغة . وكم هو غير منطقي ان يكون المخلوق أعظم من الخالق ، ثم لا يستطيع هذا المخلوق الكبير ان يغير خالقه الصغير ! انه منظر مثير ان تشاهد حشرة دقيقة تحمل فوق نفسها من الأزياء والجواهر والأدوات الحضارية المختلفة شيئاً هائلاً في الضخامة والتنوع والجمال ، وتلك هي صورة الانسان تحت حضارته الكبيرة المتنوعة ! ما أعظم الفرق في مدينة متحضرة كبيرة بين ما في هذه المدينة من فن وشموخ وضخامة ، وما في مبدعها الانسان من تفاهة وضعف وبكاء . كان العدل والمفروض ان نصنع انساناً كبيراً حينما استطعنا ان نصنع حضارة كبيرة .

ولو ان الانسان توصل الى ان يصوغ ذاته بالأسلوب الذي يصوغ به المعادن والأرض والأجهزة العلمية لتغيرت كل حقائق التاريخ ، ولكان ذلك اعظم من جميع انتصاراته . فهل يستطيع أن يفعل هذا في أيامه المقبلة ؟ ما أعظم أن يصنع الانسان نفسه بالأسلوب الذي يصنع به حضارته وأدواتها .

وقد كانت افكار الناس ومحاولاتهم مصروفة لتغيير اشيائهم لا لتغيير ذواتهم . ولنلاحظ ان التعليم والتأديب والتفكير وجميع انواع الحضارة هي اشياء لا ذوات ، فالذين يغيرون افكارهم او اخلاقهم او اية صورة من صور حياتهم انما يغيرون اشياءهم لا ذواتهم .

ان النقائص والشهوات والحوافز والاهداف التي تحرك اعظم انسان هي التي تحرك اتفه انسان في مستواها ونوعيتها . وكل الفرق بين الكبار والصغار هو مقدار الفرق بينهم في القدرة على اخراج وتوزيع ذواتهم وظروفهم وشهواتهم الخاصة في شتى الصور والتعبيرات . وعبقرية البشر واعمالهم موهوبة كلها لخدمة هذا المستوى وخدمة هذه النوعية النفسية للانسان ، لالرفعها او تغييرها .

وقد كانت جميع مساعي الانسان ، ويخشى ان تظل كذلك في المستقبل ، موضوعة للاستجابة لذاته وليس للاستبدال بها . وكان همه ان يخلق الاشياء طبق نقائصه لا ان يخلق نفسه طبق نظرية مثالية بحيث يصبح بلا نقائص .

والمأساة ان كل الآلهة في كل التاريخ تريد ان تخلق الاشياء على مثالها ، وكان الافضل ان تخلق نفسها على مثال فكري كبير .

★

ما اسخف المحاولة لو وضعنا رغبات الانسان وسلوكه في صورة ، ثم مثله وشعاراته في صورة اخرى ، ثم حاولنا المقارنة بين الصورتين ! ما اعظم الفرق بين اخلاق البشر النظرية واخلاقهم السلوكية والنفسية !

لقد كان الجمع بين الايمان بالنظرية او المناداة بها ، والخروج عليها ميثاقا عاما وقعته جميع الشعوب في كل التاريخ حتى اصبح ذلك شيئا مألوفا لا يثير حيرة أحد ولا تساؤله . ولا يوجد من يفعل نظريته ، وكل الناس يظلمون

نظرياتهم لانهم يفعلون رغباتهم ومصالحهم تحت اسمها . فالنظريات في جميع المجتمعات لاتعني نفسها !

لم يكن ممكنا ان يحيا الانسان بنظرية لان الحياة حركة وتناقض واحتمال وتوتر وخطر وشهوة ، والنظرية ليست كذلك بل هي ضد ذلك . ولهذا فان جميع الناس حتى افضلهم محكوم عليهم بالخروج على نظرياتهم ، وهم سواء في الحاجة الى هذا الخروج ! وليس الخروج على النظرية دليلا على الضعف بل على التناقض الطبيعي بين النظرية والحياة . والمثاليون ليسوا هم الذين يطيعون النظريات ولكنهم هم الذين ينظمون خروجهم عليها ليكونوا متوافقين معنا ، اذ ليس في البشر من يستطيعون ان يخضعوا لنظرياتهم مهما ارادوا ذلك .

وكذلك لم يكن ممكنا ان يحيا الانسان بلا نظرية لأنه مفكر ، ولا بد ان تتحول الافكار الى نظريات .

اذن فالانسان محكوم عليه بان تكون له نظريات وبان يخرج في حياته وارادته على هذه النظريات . فهو ككائن حي لا نظرية له ، وكمفكر لابد ان يكون صاحب نظرية ، وقد ظل البشر منذ كان لهم تاريخ يحيون هذه الثنائية المتناقضة . وهم جميعا يتعانقون ويتصافحون ويرتبطون بالمعاهدات والمواثيق والاتفاقات ويتبادلون التحيات والخطب والتوقيعات الرسمية ويتحدثون ببكاء عن استعباد الشرف لأنفسهم ولشهواتهم المغلوبة – يفعلون كل ذلك وكأنهم خاضعون لنوع حاسم من النظريات ، بينما يتعاملون ويتقاتلون بالمشاعر بلا اية رقابة من اية نظرية .

وقد اضطروا الى قبول هذا التناقض والازدواج والكذب العالمي !

ولكن ، أليس الناس يتعاملون ويحيون بالنظريات ؟ اذا لم يكونوا كذلك فما معنى حياتهم الخاضعة للقانون والتخطيط ، وما معنى اتفاقهم على السلوك العام وسيرهم في الطريق المرسوم وعملهم بالفكرة الواحدة ؟

انهم لو كانوا يعيشون بلا نظرية لما امكن ان يوجد ما يسمى مجتمعا، فالمجتمع ليس الا نظريات قد تحولت الى صور متحركة !

ولكن كل هذا ليس الا صورة، فالحقيقة ان الناس والمجتمعات تحيا بالتكيف والعادة والتقليد والشهوة والتجمع والتلاؤم وبالذكاء والخوف والرغبة والغريزة، كما يتقون الاخطار ويفعلون احتياجاتهم اليومية وسلوكهم العادي، وكما يسيرون متتابعين في الطريق الواحد، وكما تصنع الحيوانات في حياتها وتجمعها. والذين يخضعون للنظام الذي يحيون تحته، كالذين يذهبون الى ميدان القتال ليموتوا ويقتلوا الآخرين، وكالذين يدخلون في معركة جماعية ضد اللصوص او ضد الحشرات، لا يفعلون ذلك بالنظرية بل بالارادة والضرورة والتلقائية. ولذلك فانهم يؤدون اعمالهم هذه حينما تكون ضد نظرياتهم كما لو كانت تؤيدها! والذي يعيش تحت نظام شيوعي او رأسمالي او جمهوري او ملكي لايطيع ذلك النظام او يحترمه لانه نظرية بل لانه حالة، وتتغير النظرية كلما تغيرت الحالة. والذي يخضع لحكم طاغية لايفعل بحافز النظرية، وانما بحافز الخوف والاتباع والسير مع الآخرين في طريق الجنون والعبودية.

والنظرية هي تحويل الواقع الى صورة فكرية، ولا يمكن تحويل النظرية الى صورة مادية. والبشر يحولون إمكانياتهم المادية وارادتهم – لا نظرياتهم – الى حالات مادية جديدة، ثم يحولون الحالات الجديدة بما فيها من ارادات واحتمالات الى نظريات. والنظريات ليست حافزة ولا خالقة ولا هدفاً، وإنما هي مفسرة. وليس الاختلاف بين الناس مساوياً للاختلاف بين نظرياتهم، بل للاختلاف بينهم هم.

وفي كل المجتمعات غريزة القطيع الذي يطيع ويتجمع ويكون فاضلاً وشريراً بلا أية نظريات! ان الذين يتجمعون في المعبد ليصلوا للاله بأصوات عالية، والذين يهتفون للبطل والطاغية، والذين يهجمون على المخالفين لهم بوحشية – ان جميع هؤلاء يصنعون سلوكهم بلا نظرية، لأنهم لا يحتاجون الى نظرية لكي يخضعوا لأهوائهم واحتياجاتهم!

*

لا توجد أية وسيلة تستطيع ان تجعل الانسان أخلاقياً من داخله. ان البشر

لا يصنعون انفعالاتهم ، إذن هم لا يصنعون أخلاقهم ، لأن الأخلاق ليست سوى انفعالات قد حولناها الى تعبيرات اخلاقيــة . وهم ينفعلون ويتحمسون للاشياء وضدها بلا اذن منهم ومن تعاليمهم الأخلاقية ومستواهم الحضاري والثقـــافي ، كما يجوعون ويمرضون وترتفع الحرارة في اجسامهم اذا مرضوا ، بل كما يسقطون الى الارض اذا ارتفعوا عنها . وأخلاق الانسان النفسية لا يمكن استحـداثها او الرفع من طاقتها بالفلسفة او الدين او بالرغبة والثقافة او بالايمان بالفضيلة والحق والنظريات الشاملة القوية ، حتى الحضارة والتعليم لا يستطيعان ان يفعلا ذلك . نعم ، انهما قد يغيران من اساليبنا في التعبير عن اخلاقنا ، ولكنهما لا يستطيعان ان يغيرا اخلاقنا ! والاخلاق ليست موضوعاً من موضوعـــات الحضارة ، ولا يمكن ان تكون ، ولكن التعبيرات الاخلاقية هي احد الموضوعات الحضارية ، لأن الاخلاق اسلوب لا محبة !

لقد ذهبت جميع المحاولات التي بذلها الدين والحضارة والفلسفات لإنمـــاء فضائل النفس عبثاً انسانياً رائعاً دون ان تحدث اي اثر في نفوس الافراد أو الجماعات . فالحالات النفسية ، وهي الاخلاق من الداخل، تحدث بأسبابها حدوثاً لا خيار ولا حرية فيه ، كما تحدث الظواهر الطبيعية ، وكما تجيء ألوان جلودنا . انها طاقات تستجيب لمثيراتها وموضوعاتها استجابة غير اخلاقية .

والنـــاس يتفاوتون في قدرتهم الانفعالية ، كما يتفاوتون في قدرتهم العضلية والفكرية ، اي يتفاوتون في خروجهم على الاخلاق النفسية من حيث القدرة وفي التعبير عن هذا الخروج . ولا تستطيع وحدة الظروف ، كما لا يستطيع التعليم ان يسوي بينهم في ذلك ، وقد يستطيع العلم ذلك في المستقبل بوسائله المادية . وكما ان قدرة الانسان المادية لا يمكن تغييرها او تقويتها بغير وسائل مادية فكذلك قدرته الانفعالية .

ولو ان البشر جمعوا كل الكتب التي تحوي اقوى التعاليم والاخلاق النظرية والتي جاء بها اصدق واعظم المعلمين والمفكرين في التاريخ ثم حولوها الى اكبر حريق في العالم ، لما نقص ذلك من فضائلهم النفسية شيئاً ، كما ان هـذه الكتب

التي ظلوا يقرأونها دائماً بإيمان وكبرياء وحب وقداسة دون ان يفكروا في إحراقها ، لم تستطع ان تزيد من حبهم للحق او للناس ، ولا من طاقتهم على ان يكونوا فضلاء من داخلهم ، ومستحيل ان تستطيع ذلك . والناس يستطيعون ان يغيروا من مسببات حالتهم النفسية ، وإذا تغيرت هذه المسببات تغيرت حالتهم هذه ، مهما كرهوا تغيُّرها او قاوموه ، فالحالة النفسية تتغير ولكنها لا تعلم ولا تؤمر ، ويستطيعون ايضاً ان يعبروا عن انفعالاتهم غير الاخلاقية بتعبيرات اخلاقية ، ومعنى هذا ان يكذبوا وينافقوا ويخدعوا ويتكلفوا أخلاقاً لا يشعرون بها . فالفاضل جداً في المجتمع ، هو الذي يستطيع ان يكون منافقاً وقادراً جداً على تدليس مشاعره ، وليس هو الفاضل من داخله ، إذ لا يوجد مثل هذا الانسان .

وكل تربية البشر الاخلاقية والاجتماعية الصالحة ، معناها تعليمهم نوعاً من السلوك ، لا نوعاً من الشعور او الحب ، لأن الشعور والحب لا يعلمان . فالتربية الاخلاقية في كل المجتمعات ، معناها تعليم الكذب على الآخرين ، لا تعليم الشعور الفاضل نحوهم . واذا أحببنا الآخرين فكما نبغضهم ، لسنا فضلاء ، وإنما نحن خاضعون لحالتنا النفسية ، وحبنا للشيء كبغضنا له ، ليس اخلاقية بل افتراس واعتداء . ومن يحبون الناس والحقائق لا يفعلون ذلك بحافز الاخلاق ، ولكن بحافز المصلحة والتلاؤم .

والذين يقولون لنا أحبوا الناس او أحبوا أعداءكم واخوانكم كما تحبون انفسكم أو أحبوا العدل والحق والصدق – هم خطباء ومغنون فقط ، إلا اذا كانوا يريدون ان يقولوا لنا كونوا منافقين وتكلفوا الفضيلة تكلفاً وتظاهروا بغير ما في انفسكم . فالاخلاق في كل العصور ، هي اتقان فن التكلف ، هي مجموعة اساليبنا المختلفة المتكلفة للتعبير عن اشياء لا نعنيها . حتى الاحسان الى الآخرين او الاشفاق عليهم ، هو عطف على الذات ، لا على الآخرين !

ومشاعر الانسان لاتبحث عن الواجب او الحق ، فنحن لانحب او نكره باحساس اخلاقي بل لاننا محتاجون او مضطرون الى الحب والكراهة ، ولهذا

فليس من المحتوم ان يكون من نحب او من نكـره يستحق حبنا او كرهنا . ان اسباب شعورنا نحو الاشياء والناس هي غالبا فينا لا في الاشياء ولا في الناس. فالمشاعر الراضية والغاضبة ليست عقوبة ولا مكافأة ولكنها احتياج .

لقد ظل البشر دائما محتاجين الى آلهة وشياطين وقـديسين وفسقة ليكونوا شيئا يعلقون عليه مشاعرهم المتناقضة المتوترة . انهم محتاجـــون الى ان يحبوا ويبغضوا ، اي الى ان يستهلكوا طاقتهم النفسية استهلاكا خارجيا . ولو كان الانسان يعيش وحده ، اظل ايضا محتاجا الى ان يحب ويبغض ! ولو فقد الناس من يستحقون عبادتهم وغضبهم لشقوا بمشاعرهم التي لا بد من توزيعها توزيعـــا خارجيا ، بل لكان محتوما حينئذ ان يتوهموا وجود مثل هؤلاء ليفرزوا عليهم رضاهم وغضبهم ، اعجابهم واستنكارهم . فالحالة النفسية لابد من تحويلها الى موضوعات خارجية .

*

الفضيلة في جميع مستوياتها هي إما شهوة أو ملاءمة أو جبن أو تجارة، والذي يفعل الفضيـــلة لأنه يشتهيها ، لا يكون فاضلاً كالذي يفعل الحق اذا كان في مصلحته . ومن فعل الحق الذي في مصلحته أو الفضيلة التي تلائمه ، كان كفاعل الباطل والرذيلة ، فهو في الحالتين لا يفعل إلا المصلحة والملاءمة . والفرق بـين الفاضل والرديء ، هو اختـلافهما في تلاؤمهما مع الأشياء ، لاختلاف المستويات والظروف .

العبقرية المضادة

العصر الذي نعيش فيه دكتاتور ، اذا كان من الجائز وصف العصور بالدكتاتورية ، انه يفرض نفسه بلا أخلاقية على الأقوياء والضعفاء ، على الذين يريدونه ويستطيعونه ، وعلى الذين يرفضونه ويعجزون عنه . والمشاكل والالتزامات تتعقد فيه وتتلاحق بسرعة ووحشية . وهو في فرضه نفسه ليس مهذباً ولا متحضراً ، لا يجامل أو يرعى الفروق بين من يفرض نفسه عليهم من حيث القدرة والعجز وغير ذلك . ان أقوى الأمم وأغناها وأعظمها تقدماً مهددة بالهزيمة والتخلف أمام عمليات التنافس الساحقة بين الأقوياء الخائفين الصانعين الخوف للآخرين ، لاضطرار كل دولة الى ان تدخل حرب المنافسة غير مختارة أو مستأذنة ظروفها أو راحمة لنفسها أو باحثة عن الأفضل أو الأنفع . وقد ضيقت وسائل المواصلات والاعلام الكثيرة التي لا حيلة في دفعها هذه الدنيا ، فأصبح البشر جميعاً يعيشون فوق نقطة – يعيشون في غرفة واحدة لتتلاقى فيها جميع الخلافات والأحقاد ، وجميع صور التقدم والتأخر ، وكل المعرفة والجهل ، والمزايا والرذائل ، والخوف والحب ، والعقيدة ونقيضها – لتتلاقى فيها جميع أطوار التاريخ – الأقمار الكونية مع التداوي من المرض والجهل والفقر وعدوان الطبيعة بالتعاويذ وقراءة النصوص المحفوظة . فما أعجبه وأقساه من تلاق . لقد

زالت الحدود والمسافات ، فما يحدث في أي مكان يراه الجميع ويدخـــل عليهم حياتهم وأفكارهم وبلادهم قسراً ، فحضارة أي شعب مفروضة على كل الشعوب، فمن المستحيل أن يخفي قوم أنفسهم عن العالم أو يفروا منه أو يخفوا أنفسهم عن أنفسهم ، بقدر ما هو مستحيل أن يخفى عليهم العالم أو ألا يتأثروا بمـــا يصنعه ويعرفه ويقوله الآخرون ! لقد أصبح الفرار من الدنيا مستحيلاً ، وأصبح العصر الحديث مفروضاً على الجميع بجبروت وحتمية ، فلا يوجد اليوم من يستطيعون أن يبقوا متأخرين كما كانوا أو كما يريـدون . لقد اصبح التأخر أمنيـة عزيزة لا يظفر بها مريدوها بالمستوى الذي يريدون ، وأصبح التقدم ضريبة يفرضها هـذا العصر على جميع من يعيشون فيه . ان كل عصر هو على نحو ما ، هزيمة ومقاومة للعصور التي كانت قبله ! غير ان مقاومة هـذا العصر للعصور التي كانت قبله مقاومة لا شبيه لها في مزاياها وقوتها وحتمية انتصارها .

لقد أضحى التخلف مطلباً شاقاً ، فمتاعب التقـــدم وتكاليفه أقل ثمناً من متاعب التأخر وتكاليفه ، وأضحت القدرة على التأخر عبقرية مضادة – عبقرية فاضحة ! ما أقوى هؤلاء الذين يستطيعون ألا يتقدموا في هذا العصر ! ماأقوى من يستطيعون أن يعيشوا خارج العصر الذي يعيشون فيه ! ان الذين يريدون ان يظلوا متأخرين كما كانوا ، يحتاجون الى موهبة أقوى وأكبر من الموهبة التي يحتاج اليها الذين يتقدمون ويتحركون ، ومن وقف في مجرى التيار الزاحف ناله التعب واحتاج الى البذل من نفسه أعظم ممن سار مع ذلك التيار ، أمـــا من سار ضد التيار ، فذلك اكثر تعباً وأعظم حاجة الى العبقرية . ان المتخلفين ليناضلون أقسى نضال لكي يبقوا متخلفين ، ولا يمكن ان يظل مجتمع من المجتمعات محافظاً على مستوى تخلفه ما لم يناضل بوحشية لمقاومة التقدم ! فالتخلف نضال هـائل ضد النفس والطبيعة . ومع هذا ، فالتقدم والتأخر كلاهما مع الطبيعة وضدها ، لأن الطبيعة غير متحددة في سلوك الانسان ، وإن كان المتأخر يحتـاج الى نضال أعظم لكي يستطيع ان يتأخر . ليس التخلف هو ان نترك العمـل ، بل هو ان نعمل عملاً كبيراً مضاداً ودائماً لكيلا نتقدم . المتأخرون يناضلون ضد حيـاتهم

وشهواتهم ليتأخروا ، فالحياة بأفكارها وشهواتها تفرض علينا ان نسير ونتطور، فمحاولتنا البقـاء متأخرين ، معناها مقاومة جميع قوانين الحياة ، لهذا كان التخلف شاقاً اكثر من التقدم ! ان محاولتنا ألا نتقدم ، تشبه محـاولة النهر ألا يسير في مجراه ! كم هي المجتمعات التي تنشىء الجيوش الكبيرة وتشب الحروب ، وترصد الاعتمادات المالية الضخمة، وتقيم اقوى وأبهظ الأجهزة الدعائية، وتسخر كل امكانياتها المختلفة ، وتخترع الافكار والمذاهب والاديان والآلهة والفلسفات، وتزيف الدعاة والمصلحين ، وتصنع العلماء والخبراء وتشتريهم ، تفعل كل ذلـك لتستطيع المحافظة على مستوى تأخرها ومقاومة قوانين التطور وحوافزه . ان ما بذلته الانسانية من دماء وعرق ، وما ابتكرته في كل تاريخها من حيل وذكاء لكي تبقى متأخرة لأكثر مما فعلته من ذلك لكي تتطور وتتقدم ! كم من الحروب خاضهـا البشر ، ومن الثقافات والنظريات ابتدعوها ليحـافظوا على أوضاع موجودة أليمة متخلفة ! وكم هي الطاقات النفسية والفكرية والاخلاقيـة التي ينفقها الانسان الشرير لكي يبقى حقوداً وظالماً ولصاً ومعتـدياً وبغيضاً مبغضاً ونذلاً ، ولكيلا يكون فاضلاً نبيلاً عادلاً صديقاً للناس وللحقيقة ! ان الحاكم الفاسد المتأخر المقاوم لمصالح شعبه وتقدمه ليتعذب ويتعب ويخـاف ويناضل اكثر من الحاكم الآخر ، وان الكراهة التي يواجهها ويواجه بها مثل هذا الحاكم ، لأعظم من المغانم التي يحصل عليها ومن العناء المطلوب منه بذله ليكون مستريحاً وآمناً ومحباً محبوباً اكثر .

اذا اراد مجتمع ان يبقى متأخراً فمـاذا يفعل ليحقق هذه الغاية ? ان عليه حينئذ ان يحرم كل تفكير جديد، وكل حافز وقانون من حوافز وقوانين التطور. وهذا يعني ان يوجد افكاراً وثقافات مضادة للافكار والثقافات الجديدة المحرمة وان يوجد قوات ضخمة لتستطيع حماية ذلك التأخر وتستطيع ايضاً قمع الحوافز والقوانين الطبيعية التي لا بد ان تكون خطراً دائمـاً يهدد سلامة الوضع المراد حمايته ! والانسان الذي يريد ان يحرم على نفسه ان يفكر ويتغير ماذا يجب عليه ان يصنع ? انه لا بد ان يوجـد من نفسه حرساً ضد نفسه : حرساً من الافكار

والعقائدوالا كاذيب والانفعالاتوالتصرفات الرديئة ومن الغباء والهربوالمقاومة والثبات امام تحديات الحياة وتحديات الاشياء والافكار والاوضاع الجديدة ! انه جندي رديء في معركة باسلة رديئة ضد نفسه ! انه يحـارب نفسه لكيلا يكون افضل !

لا توجد امة تستطيع ان تعيش كما تريد هي ، بل لابد ان تعيش كما تفرض عليها الظروف ويفرض عليها العالم الذي يحيط بها والذي لابد ان تتعامل معه ! وكل ما تستطيعه ان تقاوم ، ولكن نفقات هذه المقاومة اغلى واخطر جدا من الاستجابة لما لابد من الاستجابة له . ان المعركة للتأخر معركة ضد النفس، اما المعركة للتقدم فهي معركة مع النفس ، فاي المعركتين اقسى وابهظ ثمنا . ومع هذا فما من مجتمع او انسان الا ولا بد ان يضع بعض موهبته لمقاومة التقدم ، اذ لا احديستطيع او يريدان يتقدم كلالتقدم ويستجيب لكل احتمالاتهالممكنة !

*

الانسان لابد ان يكون حالة ، فالذي لا يستطيع ان يكون رديئا لابد ان يكون صالحا ، والذي لايستطيع ان يكون صالحا لابد ان يكون رديئا ! وكما يستطيع ان يفعل الشر بحماس وقوة فانه ايضا يستطيع ان يفعل الخير بنفسهذا الحماس وهذه القوة ، وهو اذا اغلقت في وجهه ابواب الجنة او ابواب النار ذهب يطرق ابواب الاخرى لانه لايستطيع ان يعيش خارجـا عنهما معا . لابد ان يكون شيطانا او قديسا او هما معا ! والمجتمع الصـالح القوي هو الذي يضطر الناس الى ان يفعلوا الفضيلة وان يكونوا من اهـل الجنة لانه يحرم عليهم ان ان يكونوا من اهل النار ويجعلهم عاجزين عن ان يفعلوا الرذيلة ، امـا المجتمع الضعيف الفاسد فيفعل عكس ذلك ! والبعد بين ارادة الرذيلة وارادة الفضيلة وبين ارادة الجنة وارادة النار ، بعـد يساوي البعد بين شعورين متناقضين . انه بعد وهمي !

انا الانسان . . ماذا اريد ؟

ماذا يريد البشر من جميع ما يفعلون ويعتقدون ويتمنون ؟ يريدون ان يحققوا حالة شعورية . جميع الماديات وغير الماديات لاتعني عندهم اكثر من ذلك ، وقيمة الشيء المادي في انه يعطي هذه الحـــالة الشعورية . يبحثون عن الثقافة والافكار الجديدة ويصنعون الحضارة والمصانع الضخمة والاديان والآلهة والاكاذيب والمخترعات ، ويلبسون ويأكلون ويشربون ويهتمون بالنساء والاصدقـاء وبالمجد والشهرة لانهم بذلك يصنعون مشاعرهم ، يصنعون مشاعر معينة ملائمة ويبتعدون عن مشاعر اخرى مضادة . فالشعور هو أعلى مطالب الانسان وأولها. الانسان اشياء كثيرة تمر كلها من طريق واحد هو شعوره ، والبشر مـــادة تبحث عن شعور ، وشعور يبحث عن نفسه بالبحث عن المادة ! والاشياء التي تمنح الانسان هذه الحالة الشعورية هي أثمن ما في هذه الحياة ، اعني حياة الانسان ! نحن نحيا بالشعور اكثر مما نحيا بالطعام ، ونجوع بفقده اقسى مما نجوع بفقد الخبز .

هل نحن فكرة اكثر من كون الحشرات فكرة ؟ نحن لا نساوي اكثر من أنفسنا ، وكذلك الحشرات — ونحن لا نريد إلا ان نحقق أنفسنا ، وكذلك ايضاً الحشرات . والفرق بيننا وبـين الحشرات هو فرق التفوق فقط ، وفرق التفوق بيننا وبين أرقى حيوان لا يفوق كثيراً فرق التفوق بين أدنى حشرة وأرقى حيوان ! ماذا نفقد أو يفقد الكون او تفقد الشمس والقمر بفقدنا انفسنا ؟

سيقولون ان هذا منطق الضعفاء ، سنقول نعم ، ولكن ما منطق الاقوياء ؟ الاقوياء والضعفاء يجيئون ويبقون وينتهون بلا منطق وهم ليسوا منطقا على كل حال . وقوة القوي في منطقها تساوي ضعف الضعيف ، كما تساوي قوة الحيوان المفترس عجز الحشرة الضعيفة ! وليس في الحجر الكبير منطق اكثر مما في الحجر الصغير ، وتفوق الشيء لا يعني إلا انه متفوق ، ولا يوجد لهذا معنى اكثر من ان رقماً اكبر من رقم ! والفرق بين الانسان وبين أضعف حشرة ، فرق في تفكير الانسان لا في تفكير الطبيعة أو قصدها ، والفرق بين الفضيلة والرذيلة يساوي

الفرق بين رصاصة أقتل بها ورصاصة تقتلني !

ما هي اهداف ومشاعر الانسان المتحضر المتفوق البالغ اعلى مستويات التقدم والقوة وما هي نهاية تساميه – مـاذا يريد ويفعل بكل مزاياه القوية ؟ ما الفرق بينه بـين اضعف واجهل انسان في الحوافز والاهداف والمشاعر – ما مشاعر واهداف اعظم انسان ، وما مشاعر واهداف احقر انسان – ما الفرق بين قوة هذا وعبقريته وفضائله وبين ضعف هذا وجهله وغبائه ورذائله – من اين ينبعان وفيم يصبان ؟ ماذا يريد الانبياء وماذا يريد المكذبون بهم – ماذا يريـد الآلهة وماذا يريـد الشياطين – من هم المثاليون ومن هم الانانيون ، وأيهم الاقوياء وأيهم الضعفاء ، وأيهم الخير والمنطق وأيهم الشر والخطأ ؟ ما قيمتي انا الانسان اذا كان غاية ما اريده وافعله ان اوجد وآكل وانام واتناسل كالحشرات وان اخـاف وأظلم وأظـلم وأُخاصم وأتكبر وأُحب نفسي واكره الآخرين واتعصب لابنائي وأُعادي ابناء الجـيران ، وان اشتهي النساء واصنع الاكاذيب والآلهة والطغاة والقيود لنفسي وللآخرين ،وأُحارب الحقائق وألعن الاحرار والمخالفين والمتفوقين واستهلك ذاتي في ذاتي. واخيراً أهرم وأمرض وأعمى وأجن وأموت ، ثم أذهب أزعم بملء كبريائي وسذاجتي وإيمـاني اني انا فكرة هذا الكون وعقله وتفسيره ، بل وازعم ان جميع ما تعمله الآلهة وتستطيعه وتشغل تفكيرها به من فوق سمواتها ان تسخر لي الأشياء وتشرف على صياغة مشاعري وشهواتي ، وان تبعث إلي بالرسل والكتب وان تغضب وتثور وتفقد وقارها لاني خضعت لضعفي واستجبت لطبيعتي وتصرفت كانسان ، وعجزت عن مقاومة القوانين والرغبات التي صنعتها تلك الآلهة نفسها ووضعتها في كياني وفي طريقي ، وترضى وتتهلل سروراً لاني آمنت بما لا اعلم، وفعلت ما لا أُحب ، وقتلت في نفسي حوافز الحرية والتفوق. ويتعاظم عندي هذا الزعم حتى أُحوله الى معابد وصلوات وانبياء ، والى ثقافات وتقاليد واحقاد اجتماعية نبيلة والى حواجز وحدود بيني وبين نفسي وبيني وبين الآخرين ؟ – مـا قيمتي انا الانسان ؟ لقد حولنا ضعفنا الى أكاذيب ثم رفعناها الى السماء ثم هبطنا بهـا في صور نبوءات وعبقريات ومثاليات وانواع كثيرة من

البطولة والشرف والحب والفضيلة . لقد كان الكذب السماوي احدى عبقريات الانسان العظيمة !

سيرى الطيبون ان هذا تشاؤم هدام .

نعم ، فرؤية الحقيقة والتعبير عنها بقدر ما فيها من قسوة وكآبة كان يعد دائماً تشاؤماً ، لأن الانسان لا يبحث عن الحقيقة كما هي بل عن الراحة بأية ثمن ، لهذا كان يهرب من رؤية الحقيقة ويصنع الاقنعة الكثيرة الواقية من رؤيتها . واكثر عقائده ومثالياته وفلسفاته ، كانت انواعاً من هذه الاقنعة ، كان يكذب ضد نفسه على نفسه ، ويحول هذا الكذب الى شرائع وفضائل ، يصلها بأبعد حدود الأزل ، وكان يفسر كل شيء تفسيراً مريحاً لأعصابه ومخاوفه وضعفه ! لم يكن ينظر الى الاشياء كما هي ، بل كما يريد ويستريح ! والمتفائلون يرون الأشياء بأمانيهم ، لا بواقع تلك الاشياء ! اما المتشائمون ، فانهم ايضاً يرون الاشياء من خلال انفسهم ، ولكنهم لفرط إحساسهم يرونها رؤية اقرب الى إدراك عيوبها وإدراك الآلام المخبوءة فيها . لهذا كان المتشائمون في الغالب اصدق حكماً على العالم من المتفائلين ! والتفاؤل يخلق احياناً الغباء والهوان والتواضع والانتظار لما لا يكون . اما التشاؤم فقد يبدع الاختراع والتجديد والقوة والخيال، لأنه خطر وقلق وتطلع وتخط لما كان ، وكراهة لما هو موجود !

لقد أعطى المتفائلون الاحلام الجميلة، وأعطى المتشائمون الحضارات والفلسفات والاحتجاج . والتشاؤم لا يمكن ان يكون طريقاً من طرق الفرار لأنه لا فرار. ومهما دعونا الناس الى ان يحتقروا الانسان او يحتقروا العالم وما فيه من دمامة وآلام وأخطاء ، فانهم لن يستطيعوا ان يحتقروا شيئاً من ذلك الا بقدر ما فيهم من استعداد وقدرة على هذا الاحتقار ! ومهما احتقروا الانسان والعالم فانهم لن يتخلوا عنهما او يهربوا منهما ، فالدعوة المتشائمة ليست خطراً على الحياة ولا على الابداع فيها او الافتتان بها ، وليست كذلك خطراً على الانسان ! ومهما جاء الفلاسفة المتشائمون وأبدعوا في تحقير هذا الوجود والزراية به وبمن فيه ، فسيمضون في طريقهم بدون ان يغيروا من حب الانسان لأخطائه ونقائصه

وحقاراته وآلامه ، وبدون ان يضعفوا من العلاقة بين البشر والأرض ! وقد جاء الانبياء يبصقون على الدنيا وعلى كل عبقرية ، ويحولون كل شيء الى مناحة ، ويلعنون ما كان وما سوف يكون ، ويترجمون الانسان كحشرة كافرة ذليلة ، فماذا حدث ؟ والناس لا يرهبون التشاؤم لأنه خطأ عقلي ، بل لأنه تحذير ، وهم يرحبون بمن يقول لهم اطمئنوا ، لا بمن يقول لهم احذروا !

والتشاؤم هو أن ترى الليل وانت في النهار ، والموت وأنت في الحياة ، والشيخوخة وانت في الشباب ، والخطر وأنت في الأمن ، والخطأ وأنت في الصواب – أي ان تستوعب الاشياء في إحساسك استيعاباً شاملاً ، وان تفكر فيها وتدركها كحالة واحدة ، أي ان ترى الشمس حينما تكون طالعة وحينما تكون غائبة ومتلاشية ، منظراً واحداً ممتداً . والذين لا يرونها إلا حينما تكون طالعة ، هم إما أغبياء وإما جبناء ! والتشاؤم لا يعني كره الحياة او الانسان ، بل فهمهما والعطف عليهما والدفاع عنهما .

*

ليست الصداقة عطاء ، انها أخذ . الصداقة فرار من الذات وتعبير عن الألم – عن مأساة الانسان . نحن حينما نصادق ، لا نريد أن نعطي او نعالج او نوزع حباً او سروراً ، وإنما نريد ان نوزع انفسنا ، مآسينا ، أحزاننا ، خوفنا ، حيرتنا ، عجزنا ، نوزعها على من ندعوهم أصدقاءنا ! انها علاقة جنسية ، ليس فيها عملية إنجاب للاطفال . هي ليست أريحية ، ولكنها بكاء بعيون الآخرين !

الذين اخترعوا البغض

كم نشعر بالخوف والغضب حينما نجد شعباً بأسره يتحول في آلية ذليلة الى جهاز دعاية ، كل شيء فيه : الصحافة والاذاعة والكتاب والمعلقون والفنانون – يتحولون كلهم طفرة مثل صدى تابع ، يكررون وينشدون بنفس واحد ،

وأسلوب كأسلوب الصلاة رأياً او مذهباً او سباباً معيناً او المطالبة بالسير في طريق معين ، لأن حاكمهم او زعيمهم او قائدهم الروحي قال ذلك او أمر به او اتخذه اسلوباً من اساليب دعايته ضد قوم او قادة آخرين ، او ضد شيطان او شبح اخترعه لغرض سياسي او لعداوة شخصية او لعقدة نفسية او لحقد او حيلة ومكراً . والشياطين والاعداء والخصومات والحروب التي جعلت الانسان يسير في طريق مسدود بالآلام والمخاوف والاحزان ، انما نبعت من نفوس الزعماء والحكام والمعلمين ومكايدهم ، لا من مصلحة الحياة او الانسان !! ومن الفظاعة ان يعادي شعب شعباً او حاكماً او زعيماً او مذهباً ، ويحول عداءه هذا الى عقيدة وتاريخ وحرب ، لأن حاكماً او زعيماً او قائداً روحياً أراد هذا العداء وفرضه على شعبه وأتباعه ، او وقع فيه تحت ظروفه النفسية او الاجتماعية الخاصة ، ومن الفظاعة المضاعفة ان يغير ذلك الزعيم او الحاكم رأيه في اعدائه او معاملته لهم ، فيراهم اصدقاء وطيبين بعد ان كان يراهم خصوماً اشراراً خائنين وينتقل بهم من اصدقاء الى اعداء ، ومن فاعلي فضيلة الى فاعلي رذيلة ، فيصبح أتباعه والخاضعون لحكمه او لتعاليمه ملزمين بهذا التنقل من النقيض الى النقيض ! ولا يخطر على البال هوان او تحقير للانسان أفظع من ان يفرض عليه حقد زعمائه وأنبيائه وغباؤهم ونقائصهم الاخرى لتصبح له عقيدة تقتات بها روحه واخلاقه ! وفي كثير من المجتمعات لا يوجد رأي جماهير ولا رأي مفكرين ، وإنما يوجد رأي واحد وشهوة واحدة وجهاز يتحرك فيتحرك كل شيء بأسلوب التتابع الآلي ! وانا لا استطيع ان أكف نفسي عن ان احتقر اشد احتقار ذلك الكاتب او المفكر الذي يؤمن ويكفر ويبدل ملابسه العقلية ويتحرك على كل الجبهات مغيراً مواقفه من الاشياء ، لأن حاكمه او زعيمه أراد ذلك او فعله . واني بصدق وعمق لأهنىء هؤلاء القوم الذين يستطيعون بسهولة ان يخلعوا عن انفسهم كل مشاعر الاحترام لأنفسهم دون ان يبكوا او تذبل اجسامهم من أكل الهوان . لو ان هؤلاء ركعوا للطغيان وهم يبكون ويلعنون ويحترقون ويعصون من داخلهم ، لكان من المحتمل الغفران والرثاء لهم ، أما ان

تهوي سياط الهوان على عقولهم وهم يغنون ويرقصون ويمضغون اللبان، فهذا شيء تحت كل معاني السقوط !

ان دعارة الرأي والضمير والمذهب والعقيدة ، لشر انواع الدعارات ، وان هؤلاء الذين يفسقون بشرف الانسان وكبريائه لهم أفسق الفاسقين ! والناس يعدون الحاكم الذي يغتصب أعراض النساء فاجراً يستحق المقاومة واللعنة ، ولكنهم لا يرون هذا الرأي في الحكام والزعماء والدعاة الروحيين الذين يزنون بالعقول والضمائر والأخلاق ويغتصبون شرف الكلمة .

ما ابشع ان تتفق آراء الناس في الأشياء ، يؤمنون جميعاً ويكفرون جميعاً ، يؤيدون او يعارضون بلا خلاف – يتحركون بالجملة كأنهم من الحطب ! اذا اختلف حاكم او زعيم او نبي او كاهن مع آخرين أمثالهم من الحكام والزعماء والأنبياء والكهان والشيوخ ، لم يوجد من يفكرون او يشكون او يعارضون في هذا الخلاف ، وانما يوجد أتباع لهذا وأتباع لذاك ، كلهم يؤمنون ويهتفون ، كأنهم اشياء تقتسم لا بشر . ولهذا لا نجد لا فكراً ولا حرية ولا حياداً حين يقع خلاف او صدام بين هؤلاء وهؤلاء، وإنما نجد كفراً غبياً او ايماناً غبياً. واقتناعهم بهذا او هذا ليس باقتناع ولكنه اتباع ، والمؤيد غبي جاهل ، وليس خيراً منه المعارض !

ولن يجد البشر في كل ما يجدون ما هو منكر وعبودية مثل ان يجدوا ان الشعوب تتعامل : تتعادى وتتحارب وتختار مذاهبها وآلهتها وافكارها واخلاقها واصدقاءها واعداءها من خلال ذوات الحكام والزعماء والدعاة الروحانيين ، وخلال اهوائهم ومخاوفهم وتوتراتهم وخصائصهم النفسية والعقلية ، ولن يشوه البشر شيء مثلما يشوههم ان يتحولوا الى انابيب يمر من خلالها كل ما في القادة من ضعف وسوء وألم وفضلات غير نظيفة ، او ان يتحول القادة الى نوع من الانابيب تمر من خلالها الشعوب لتضيع في صحارى الجنون والمغامرات والاحقاد السوداء. والبشر لم يفطنوا حتى اليوم الى ان قادتهم هؤلاء هم الذين يصنعون الخلاف بينهم ويؤكدونه ، ويصنعون الخصومات والعداوات الكبرى التي تنتهي بالحرب او

بالاستعداد الدائم للحرب، وانهم هم الذين يقيمون بينهم الحدود والحواجز المحفورة بالاسلاك الشائكة والمكهربة وبالآلهة والعقائد المتعصبة وبالجيوش الكبيرة التي تحمل الموت دون ان تحمل اية فضيلة غير فضيلة الاجادة للقتل !

واختلافات السادة والأرباب وتنافسهم وتناقض اهوائهم وما لذلك من اثمان باهظة لا تسدد حساباتها والأسفاه من دماء هؤلاء السادة والأرباب ! وليس في الدنيا كلها ما هو اغلى ثمناً واعظم وحشية من المصارعة بين الزعماء والقادة، ومصارعة الثيران وكل الحيوانات هي شيء طيب وانساني بالنسبة لهذه المصارعة. واسبانيا بكل فنها المتوحش تبدو بلداً من الملائكة إزاء ما يحدث في العالم من خصومات ومبارزات وصراع حاقد مرير بين اقطابه وأربابه ! واذا كان قادة العالم يصرون على ان يتقاتلوا ويتعادوا ويفعلوا الجنون فليت البشر يعرفون كيف يجعلونهم يصنعون ذلك لحسابهم الخاص ويمنعونهم من ان يؤدوا ألعابهم الخطرة فوق رؤوس الشعوب او بعضلات الشعوب ! ليتهم يعرفون كيف يجعلونهم يتبارزون بالسيوف مبارزة فردية كما كان القدماء يفعلون . اذن لكان هذا اقرب الى العدل والشجاعة واخلاق الفروسية !

والمشكلة انه لا يوجد انسان عام للاعمال العامة وانسان خاص للاعمال الخاصة، بل ان لكل انسان عام شخصية خاصة يحيا داخلها حينما يجب ان يكون انسانا عاما يحيا خارج ذاته . واخطر الاشياء ان يكون للانسان العام شخصية فردية ـ أي أن يحيا ويفكر ويتألم ويتلذذ من داخل ذاته، ان معنى هذا ان يخضع كل ما في المجتمع لخصائص شخص واحد ولآلامه وظروفه واخطائه ـ أي أن تتحرك الدنيا كلها وتساق بآلام فرد او بمخاوفه او بطموحه او بجنونه او بأي شيء من اخلاقه وتفسيراته النفسية او العقلية للمواقف العامة الكبرى ! انه لا يوجد من يتصور ان جبلاً كبيراً قد يمر من سم الابرة، ولكن الناس لم يزالوا يشاهدون ملايين الناس يمرون من خلال غلطة رجل واحد او شهوته او كبريائه او خلال تعاليمه المنحرفة ـ يمرون الى الموت او الى العبودية الدائمة ـ عبودية العقل والعقيدة والمذهب او عبودية العذاب ! نعم لم يزل الناس يشاهدون الملايين

تمر سم الابرة . هو خطر كبير ان تكون للحاكم او للزعيم او لاي رجل عـــام صفات انسان ، ولكنه بغيرهذه الصفات لايستطيـع ان يكون حاكماً ولا زعيماً ولا انساناً عاماً . فبغير نقائصه لايكون ، وبنقائصه يكون ، ولكن ما اخطر ما يكون ! ان كل زعيم وحاكم ليس إلا انساناً ملوثاً بينما يطلب منه ويفترض فيه ان يكون ملاكاً ـ هو انسان عادي في منصب إله ـ يطلب منه ان يكون في حجم الشمس وفي ارتفاعها بينما هو في حجم الهباءة وفي سقوطها .

وقد حاول الانسان في تاريخه الطويل ان يعالج بلا نجاح هذا المأزق ، فراح يفترض كائنات مركبة تركيبا عجيبا لتقود حياته وتشرف على العدالة والمنطق في هذا الكون . وكان ان افترض آلهة غريبة التكوين فيها بعض صفات البشر وليس فيها صفاتهم الاخرى لكي تكون هذه الآلهة قادرة وفـاعلة ولكن بلا خضوع للصفات الاخرى التي تجعلها محكومة بها كما تحكم الزعيم او الحاكم او القائد شخصيته الخاصة ، فيكون في ذاته العامة محكوما بذاته الخاصة . وقد تناقض الانسان في تصوره للإله : لقد تصور انه لا بد ان يكون كامــلا ، ثم تصور انه بدون النقائص والاغراض الذاتية لا يمكن ان يفعل شيئا او ان يدبر ملكه او يرغب في تدبيره . فحوافز الفضيلة والقوة هي حوافز الرذيـــلة والضعف . ثم تناقض مرة اخرى فذهب ينزه هذه الرذائل ويحولها الى فضائل لانها رذائل إله . فصورة الإله اذن في ذهن الانسان انه كائن له رذائل البشر وفضائل الآلهة ـ او له رذائل البشر دون فضائلهم . لم يستطـع ان يتصور هذه الفضائل الا في اطار هذه الرذائل !

لقد كانت دائماً الصورة المثالية التي ابتكرها البشر لمن يقودون الجماعات او يحكمونها او يعلمونها صورة منزهة عن ذاتها ، فالذات خطر على الفضيلة وعـــلى القانون والعقل ، ولكن لا فضيلة ولا قانون ولا عقل بغير الذات . المعلم او القائد الذي يخضع لذاته كيف يمكن ان يكون منزهاً او عادلاً او عاقلاً دائماً ؟ والذي لا يخضع لها كيف يمكن ان يكون قائداً او معلماً او شيئاً ؟ ان ارادتك لذاتك هي نفس ارادتك لنقيضها ، فـــلا توجد ارادة للذات وارادة لنقيض الذات ،

فبالخضوع للشيء يطلب الخروج عليه .

ولكن من حسن الحظ ان المعلمين والقادة والحكام والزعماء الذين يحكمون المجتمعات هم محكومون ايضاً بتلك المجتمعات على نحو ما حكماً غير مباشر . ولولا ذلك لكان الخطب اكبر ! وكلما ضعف هؤلاء السادة ضعفت الاحتمالات التي تجعل الشعوب تتصافح بالسيوف ويزحف بعضها على بعض تحت رايات تقودها حشود متلاحقة من الحمقى والمجانين والمرضى والمنحرفين والطامحين المقامرين بالبشر .

انه لولا الحكام والزعماء والمعلمون الخالدون لفقدت الخصومات بين الشعوب أعظم أسبابها .

المرض والعبقرية

العبقرية هي الانسان مصبوباً في قالب مادي خاص ، وهي نهاية حالة معينة يبلغها الانسان في تكوينه المادي والنفسي ، فاذا انحدر عن هذه الحالة عجز عن ان يوجد حالة العبقرية . اذن الانسان عملية مـــادية – عملية مادية على مستوى فكري نفسي . وهذه العملية الفكرية النفسية المادية هي التي تصوغ حياة الانسان وكل حضاراته . فالشعوب – وكذلك الآحـــاد – التي تبلغ المستوى العلمي في تكوينها العضوي والكيائي وترتفع فوق الامراض والموانـــع الثقافية تنطلق في طريقها انطلاقاً صاعداً مباشراً وتحقق طاقاتها كل احتمالاتها الطبيعية . أما الضعفاء والمرضى فان اتجاهاتهم وغاياتهم تكون تافهة ومنحرفـة ، وهم لا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً عظيماً ولا ان يتكافأوا مع انفسهم او مـــع ظروفهم – وتستهلك الآلام والضعف والبكاء جميع ما يحتمل ان يكون فيهم من ذكاء وابداع .

ان عواطف هؤلاء وقواهم تعجز عن التدفق الى الخارج – خارج الذات ، بل تنصب كلها في ذاتها ، وهذا إما لعجزها عن الانطلاق الى الخارج وإما لانحرافها في اتجاهها ، فهي في صراع ذاتي يشغلها ويستهلكها عن الاتجاه الى مقاومة الطبيعة

واحداثها . انها تشبه الجماعـات والجيوش التي يشغلها قتال بعضها لبعض عن التفكير في قتال العدو الخارجي المتربص ! والمدنية العلمية هي التعبير الأعلى عن صحة الانسان . وهذه الصحة تعني أمرين : جهازاً فكرياً سوياً وجهازاً جسمياً سوياً . والمرضى وناقصو التكوين تهبط فيهم طاقات الحياة وشعورهم بها وتختل وظائفها ويستولي عليهم خمول وجداني وفكري وعضوي، ويعجزون عن الدفاع والهجوم ، ويفقدون الحرية والسيطرة على انفسهم، بل ويلعنون انفسهم كما يلعنون الحرية ، ثم – وهذا عجيب – يتشبثون بالواقـع الذي هم فيه كيفما كان ، لا يحاولون تغييره ولا اسقاطه لأنهم لا يشعرون بالقدرة على الهدم والبناء والتغيير . وحينئذ تتجمع معانيهم كلها في الارادة ، ثم تنصب هـذه الارادة في نوع واحد منهـا هو ارادة البقاء مهما كان سخيفاً . وقد يكون صحيحاً ان ارادة البقاء في المتألمين والضعفاء اقوى منها في الأقوياء السعداء ، وتتلاشى فيهم ارادة الفكر والقوة والسيادة والمخاطرة ، لأن جبناً رهيباً يصرفهم عن المحـاولات القوية ، ويشغلهم بالغريزة الاولى وهي ارادة الحياة في صورتها الدنيا عن كل شيء سواها!

انك لن تجد ضعيفاً او مريضاً كامل الحرية او الارادة او قوي الخلق ، والامم لا تتسلق الاحداث العالية بدون حرية وارادة وسلوك قوي . ولا توجد معركة من معارك الحياة يمكن ان ينتصر فيها الضعفاء او المرضى ، حتى المباريات الرياضية معروفة نتائجها على احتمال واحد فقط .

ان مقادير الدماء التي تنصب من الشرايين الى المـخ ومقادير ما في الشرايين المحيطة به من دمـاء ، لتقرر احتمالات العبقرية وتحدد النشاط الذهني الذي يقرر مصير الانسان ، وحينما تنقص الدماء المتدفقة الى المـخ يعجز عن النشاط وتشل اعماله الفكرية . ومقدار الدم في المخ بل وفي الجسم كله محكوم بالصحة والمرض وبالغذاء ، واي خلل يصيب احدى الغدد يصيب تصرف الانسان كله ووظائفه العضوية بالانحراف ، اما اصابة الاعضاء الرئيسية فالامر فيها اظهر . والنقص في بناء احدهذه الاعضاء يقضي على المرء بأن يكون ناقصاً في جميع اعماله واستجاباته ، فكل عضو من هذه الاعضاء له نسبة مفروض ان يرتفع اليها وإلا كان غير كامل

في وجوده وفي اداء وظيفته وكان عاجزاً عن بلوغ المستوى البشري الأعلى ! ان تقدير اية آلةمن الآلات وتقدير اجزائهالا بد ان يكون وفق الغرض الذي انشئت من اجله والوظيفة التي سوف تؤديها، وان يكون ايضاً التناسب بينها وبين اجزائها وبينها وبين عملها صحيحاً، فاذا اختل هذا التناسب في التقدير جاءت آلة عقيمة . والانسان باجهزته العديدة مفروض فيه ان يؤدي اعمالاً فكرية وعضلية ونفسية تمكنه من ان يكون سعيداً وقوياً وحراً ، فاذا جاءت هذه الاجهزة او بعضها ناقصة جاء عاجزاً عن ان يكون كذلك. والنقص في مقاييس العظام مثل الشبكة الصدرية او الساقين او العضدين او الذراعين او الاصابع والبنان او عظام الجمجمة اوفي القلب والرئتين او في الجهاز العصبي – نعم ، النقص في هذه الاعضاء قد يعوق الانسان عن الذكاء والتوازن والقوة وعن ان يكون عبقرياً ! والضعف الصحي العام خطر على كل المستويات والاحتمالات الانسانية . وهذه الاعضاء والاجهزة الانسانية لن تكون تامة إلا اذا كانت متحررة منذ نشأتها الى كمالها – ولا سيما في اوان تخطيطها الاول – متحررة من المرض ومعوقات النمو والتكامل. وهذه الملايين من الاجساد البشرية التي ساء تخطيطها وبناؤها انما جاءت على هذه الهيئة الاليمة لانها كانت منذ وجودها مستذلة للمرض والقحط والمسغبة ، فلم تنم نمواً حراً كبيراً فجاءت تشويهات ومسوخاً تشير الى الانسان وتذكره به في ألم واحتجاج دون ان تعطي صيغته الكبيرة !

نحن الآن امام ازمة صحية عامة – امام شعوب لم تبلغ الكفاف في صحتها وقوتها ، فلم تستطع لذلك ان تكون ذكية ولا مبدعة ولا عزيزة امام المنافسات والتحديات – تحديات الطبيعة وتحديات الخصوم ! هنا امراض وعجز ونقص في التغذية – هنا حياة لا تجد شروط الحياة . وقد توارثت آلامها هذه في اجيالها المتعاقبة حتى نسق الضعف والتشويه اكثر افرادها وصنع منها هذا الحطام البشري الذي امتاز بميزته الفريدة وهي انه كلما كثر قل !

ليست الحضارة شيئا سوى العبقرية، وليست العبقرية شيئا سوى العقل والشهوة، والعقل والشهوة ليسا شيئا سوى الجسم، والجسم ليس شيئاً سوى الصحة المتكاملة

والتناسق والحياة النظيفة. واي انحراف يصيب بناء هذا الجهاز المادي يقضي على السلسلة كلها بالعجز والانحراف! ولو ان الصحة والقوة جرت في شرايين هؤلاء الخاملين المستسلمين ـ بل لو تغيرت مساكنهم وموائدهم ، لكان احتمالا قويا ان ينبعثوا ويتغيروا ويصدموا النجوم بهاماتهم . والشعب المريض تهبط طاقاته الادبية ، واذا هبطت هذه الطاقات في شعب تهاوت خطوط دفاعه النفسية والفكرية واصبح شعبا مفتوحا امام غزو الاكاذيب من كل نوع : الفكرية والسياسية والحزبية والوجدانية . وحينئذ تأخذ الاتجاهات والدعايات العديدة المتناقضة تضغطه وتضلله وتقتحمه ، فلا يعرف ايها يختار ولا ايها يصدق ، كما لايعرف ان ينقدها او يقاومها ! انه ضعيف ومحتاج ، ولانه ضعيف لايقاوم ، ولانه محتاج يصدق ويتقبل كل ما يرمى اليه من فضلات الخرافات والوعود التي لا تصدق . والمريض شر المحتاجين . ان الخرافات والاكاذيب النفسية تنبت اول ما تنبت تحت ظروف الضعف والحاجة ، فالمريض يصدق حينما يخبر ان مغارة معينة تشفي من جميع الاسقام او ان نبياً قد بعث لشفاء كل المرضى او ان تعويذة خاصة دينية او غير دينية تزيل كل ألم وشكوى ، ولكن من الصعب ان يصدق ذلك السليم القوي . ولهذا ينجح محترفو الاصلاح من كل لون في الامم المريضة مهما تخرقوا . وما اكثر الانبياء والمصلحين والسحرة بين الاقوام المرضى ! ولو ان اي انسان ادعى النبوة بين قوم من المجذومين والبرص لكان من المحتمل جدا ان يؤمنوا به ، ولكن لو ان نبيا حقيقيا بعث في قوم من الاصحاء الاقوياء المتكاملين لكان حرياً ألا يؤمن به منهم احد .

والمرضى والضعفاء لا يتوافقون مع الحضارات والمذاهب القوية لانها تكلفهم ما لا يطيقون ولا يفهمون ، ولهذا يلجون في انكارها واجتنابها وفي خلق المبررات الاخلاقية او الدينية لهذا الاجتناب والانكار . انهم لايستطيعون او يهابون ، وحينئذ يتحولون الى فضلاء ! والذين يرفضون الافكار او النظم او المذاهب او الحياة الجديدة لايفعلون ذلك لانهم فضلاء بل لانهم ضعفاء او هيابون واحيانا لانهم مستغلون . والبشر ليسوا فضلاء او غير فضلاء ولكنهم اقوياء او غير اقوياء ،

والفضيلة والرذيلة هما اسلوبان من اســاليب التعبير عن القوة والعجز او الخوف والاقدام، اي عن المرض والصحة . ولو ارتفعت الطاقة الادبية في هذه المجتمعات التي تعد متاحف للخرافات الضعيفة ونوادي مفتوحة امام المشعوذين – هــذه المجتمعات التي تقاوم كل المدنيات والتغير – لكان من المحتوم ان تحطم متاحفها وتغلق نواديها وتفتح جميع ابوابها لجميع المدنيات والمذاهب والافكار دون ان تخجل من شيء او تهاب شيئا . ولكن ارتفاع الطاقة الادبية محتاج الى ارتفاع في مستوى الصحة .

وكل المرضى ضعفاء ، وهم لا يستطيعون ان يكونوا وحدهم ويهـــابون ذلك، لهذا يخترعون الآلهة والمعتقدات التي يجدون فيها الحماية والامان ويستمسكون بها استمساكا عنيدا . واكثر المجتمعات آلهة وعقائد هي اضعفها . ان المسؤول الاول عن آلهة وعقائد آسيا وافريقيا هو المرض والضعف الذي يسبب الخمول . ليست الفلسفة ولا الفضيلة هي التي جعلت الهنود يعيشون في هــذا الجو المختنق المتصارع بالارباب والاكاذيب العقلية والانبيــاء المتبلدين . انهـم يريدون ان يؤمنوا لانهم ضعفاء ومرضى ، وارادة الايمان ظاهرة من ظاهرات الضعف اي من ظاهرات المرض ! وهؤلاء القديسون والانبيـــاء والملهمون الذين يزرعون الايمان والعقائد والآلهة القاسية في سهول الهند وآسيا وافريقيا الواسعة – لماذا جاؤوا ومن اين جاؤوا ؟ انهم تعبير عن الهرب ، عن الضعف ، عن المرض ،عن الالم . فالالم هو الذي يلهمهم ويرسلهم ، وهو ايضاً الذي يجعل المجتمعات تؤمن بهم وترحب بقدومهم اذا قدموا،وتحلم بهم وتنتظرهم اذا لم يقدموا . فالمعتقدات والآلهة والقديسون والكاذبون في اي بلد يساوون ما في ذلك البلد من آلام وامراض ومشاكل غير محلولة . وهؤلاء يستغنى عنهم ويطلب الشفاء منهم بالصحة والقوة البدنية وبالغذاء الجيد ، لا بالمنطق ولا بالانبياء او المصلحين الطيبين !

والنـــاس لا يضلون لأنهم لا يجدون الهدى ، بل لأنهم يريدون الضلال ، والضلال ليس له مبرر أو مفسر من ذاته بل من ذات الضال ، والتفكير المجرد لا يصوغ عقائدنا ، ولكن يصوغها احتياجنا الى الاعتقاد ، والاختلاف بين آلهـة

البشر وعقائدهم ليس راجعاً الى الاختلاف في طبيعتهم الفكرية ، وإنما هو راجع الى اختلاف ظروفهم المادية والنفسية ، والاختلاف في التفكير نفسه راجع الى الاختلاف في هذه الظروف ، والناس لا يفكرون ثم يريدون ، ولكنهم يريدون ثم يفكرون أو ثم لا يفكرون !

ان آلهتنا وعقائدنا لم تصنعها أفكارنا ولا فضائلنا ، وإنما صنعتها آلامنا وفقرنا ، فالايمان أنين لا غناء ، ألم لا لذة !

ومع هذا يبدو ان المرض كالألم قد يثير في المريض نشاطاً ، وذلك لأن المرض يحدث قلقاً ، والقلق يدفع الى عمل شيء بحماس ، ولأن المريض ببعض الأمراض يكون متوتراً ومصاباً بالحساسية ، والمصابون بالتوتر والحساسية يحاولون ان ينفسوا عن آلامهم بأنواع كثيرة من أنواع النشاط الفكري والسلوكي . وهنا قد تتعاظم الغريزة الجنسية أو حب الإصلاح والدعوة الى الدين والفضيلة والغيرة ، وقد تتحول المسألة الى نوع من الوحي والإلهام . ولهذا فقد يوجد نوع من القرابة بين الدوافع الجنسية والميل الى الإصلاح والغيرة على الأديان والأخلاق. ان المرضى قد يكونون هم أكثر الناس محاولة لعلاج الناس واهتماماً بمشاكلهم وآلامهم ، وحينئذ يتحولون الى قادة ومصلحين وأطباء سماويين وانسانيين لأنهم مرضى ! ويوجد في التاريخ عباقرة مرضى ، وهل هم عباقرة لأنهم مرضى ؟ ان أمراضهم جعلتهم مغامرين ، لأنها قد جعلتهم متحركين لا يستقرون ، فأثاروا عجاجات هائلة في التاريخ ! ولو أن هؤلاء كانوا أصحاء ، فهل يجدون حينئذ في أنفسهم من التوتر ما يكفي ليدفع بهم الى الآفاق البعيدة ؟ ان المتألم يتعالج من ألمه بالنشاط والتفكير والعبقرية والعمل من أجل الآخرين .

قد يكون معنى هذا ان المرض يعجل باستهلاك الطاقة الموجودة على نحو سريع وأسلوب اضطراري متوتر من غير أن يوجد الطاقة أو يزيد في مقاديرها، فهو يشبه الاحتراق والانتحار ، انها فناء ، ولكنه فناء متوهج مثير . وهذا قد يغير مجرى النهر من غير أن يوجد النهر . وقد يكون هتلر أو بوذا مثلاً مريضاً ، فمغامرات أحدهما وتعاليم الآخر لم تهب البشر طاقة ، وإنما استهلكت الطاقة

الموجودة بطريقتهـــا الخاصة ، وهكذا يصنع المرض ! وليست كل الأمراض كذلك ، بل هي أمراض خاصة وهي التي تصنع الحماس والثورة والتمرد ، أمـا سائر الأمراض فتصنع الهبوط المعجز عن الانتاج وعن الاستهلاك معاً ، وتصنع الخمول والخوف والهرب .

الجسم المريض هو شر ما تهديه الحياة الى الحيـاة ! كم هي مسؤولة الأمراض عن تأخر الحضارة ! الحياة لا تعطي أفضل احتمالات عطائها إلا وهي في أفضل احتمالات وجودها ، هكذا هي في النبات والحيوان ، وهكذا هي في الانـسان ! الحروب والأحقاد والعداوات ثمار طبيعية للصحة المنهارة ، فالمريض يستطيـع ان يصنع العداوة والبغض والتعصب ، أكثر ممـا يستطيع ان يصنع الحيــاة ، ويلائمه ان يكون عدواً او هداماً اكثر مما يلائمه ان يكون صديقـاً او عبقرياً ! والانتصار على الأمراض انتصار على اسباب من اسباب العجز عن الذكاء والعبقرية ، وعلى اسباب من اسباب الايمان بالخرافة وبالآلهة والدعاة الزائفين ، وعلى اسباب من اسباب الحروب والخصومات .

علينا ان نقف لنسأل : هل تخلفنا الصحي هو واهب تخلفنا الحضاري ؟

جميع الأسباب التي يمكن ان تذكر هنا قد ترجع كلها الى اسباب صحية لأن الأصحاء اقوياء ، والأقوياء يفعـلون كل احتمالات وجودهم ، والذين لا يفعلون معنى هـــذا انهم عاجزون ولا شيء آخر . وعلينا ان نسأل : هـل الأمراض والمسغبة هي وحدها أسباب هذا التخلف الصحي ، أم ان هذا التخلف هو تعبير عن تخلف آخر - هل هناك اسباب تاريخية وراثية هي التي تصنع وجودنا الصحي المتقدم والمتخلف وتصنع كل وجودنا ؟ وهل مقاييس البدن جزء من الحـالة الصحيـــة ؟

*

الضعفاء يفجرون انفعـالاتهم في ذواتهم ، أما الأقوياء فيحولونها الى أفكار وخطط . التوازن النفسي إزاء المشكلة هو أقوى وأفضل صفات الرجل المتحضر ؟

كل الناس ينفعلون ولكن كيف يتصرفون ازاء انفعالاتهم ؟ الضعفاء يبكون

ويصرخون ويلعنون الآخرين ويتهمون التاريخ بالتآمر ضد عبقريتهم ، ويموتون حزناً . أما الأقوياء فيصنعون كالأطبـــاء المهرة – يشخصون الألم ثم يعـالجونه بصمت ووقار . ان الانفعالات هي اعظم واقوى ما يملكه الانسان في هـــذه الحياة ، ولكن ما اعظم الفرق بين البشر فيما يصنعون بانفعالاتهم . ان اخسر ما يعملون ان يبددوا هذه الانفعالات في عمليات هدامة صاخبـــة . والمشكلة في نفسها ليست مشكلة ، وإنمـا المشكلة في القدرة على مواجهتها والتوازن معها . وليس الفرق بين من ينهضون ومن يسقطون يساوي الفرق بين مشكلة ومشكلة، ولكنه يساوي الفرق بين تفكير وتفكير ، وقدرة وقدرة ، وسلوك وسلوك . ان حدود أية مشكلة هو الانسان نفسه لا نفس المشكـــلة . ولا يمكن تفسير المشاكل أو تقديرها معزولة عن الانسان ، بل لا يمكن وجودهـا بدون وجوده ولا تصورها بدون تصور قدرته وعمله فيها .

النعوش المجللة بالرياحين

توجد الصحافة أحياناً قبل أن يوجد الصحفي ، فالصحافـة ظاهرة حضارية ونحن نعيش في الحضارة، اذن لا بد أن توجد الصحافة وإن لم يوجد الصحفيون . وهذه هي المأساة ! لقد جاءت الينا الصحافة بدون أخلاقها ومواهبها العقلية ، كما جاءت أدوات الحضارة الأخرى مثل السيارات وأجهزة الراديو والمطابـــع والقوانين، وكما جاءت الينا الشعارات الحضارية كالديمقراطية والحرية والاشتراكية والقومية وغير ذلك بدون ان تكون في وعينا أو ثقافتنا أو أخلاقنا أو مزاجنا النفسي ، فصرنا حامـلي حضارة ، أو لابسي حضارة لا متحضرين ، وكذلك وجدت عندنا صحافة لا صحفيون ! الصحافة مطبعة وورق وصور وفن إخراج وبيع وشراء وكلام كثير، أما الصحفي فوعي وفكر وشجاعة وحرية وحضارة وإبداع ونزاهة وعمليات كبيرة وصعبة كصنع التاريخ والأقمـــار والصواريخ والانتصارات . انه مستوى انساني وموهبة كموهبة الاختراع والاكتشاف .

الذين يصنعون الحضارة ، قد يستطيعون ان يصنعوا الصحفي وقد يعجزون، اما الذين لا يصنعون إلا الجهالة وأخلاقها ، فكيف يستطيعون ان يخلقوا صحفياً؟ فالمزايا والاشتراطات التي لا بد أن يملكها الصحفي ، اقسى وأكثر من التي لا بد أن يملكها المخترعون والمكتشفون ، لأن الصحافة فن متصل بكل احتياجات المجتمع وأخلاقه وظروفه ، وبالانسان ، بكل مزاياه ورذائله ووجوده ، كيف يفهمه ويفسره ويعالجه ويقوده . الصحافة فن يحتاج الى كل فن ، إنها الصلوات اليومية التي تقتات بها روح المجتمع وحياته المتكررة المتطلعة . وما أصعب الفن الذي يحتاج الى كل فن ، وما اقل من يستطيعون ان يملكوا كل احتياجات هذا الفن ؟

لقد تحولت الصحافة في كثير من العالم الى عدو خطير للانسان ، انها اكاذيب ونفاق وعجز وبيع للانسان باسم الدفاع عنه، وانها لتضيف الى آلامه وعداواته وأوهامه وجهله وتوتراته النفسية والعصبية وإلى طغاته ونقائصه وهمومه مزيداً من ذلك . الصحافة في البلدان العربية وفي اكثر بلدان العالم ، خاضعة لعوامل غير صحفية ، انها لا تفهم الحقيقة ولا تحترمها ولا تبحث عنها ولا تحاول ان تدفع ثمنها ، ولا ان تقف معها او تدافع عن شرفها — انها في كل حالاتها بلا شرف . هم قوم من المنحلين والمرتشين والضعفاء والمنافقين ، يعرضون في السوق عرضاً دائماً أسوأ ما فيهم ، على انه اسمى رسالة انسانية ووطنية واخلاقية ، بل على انه تضحية في سبيل المبدأ تفوق جميع التضحيات . وهؤلاء الذين يشرفون على هذه الصحافة ، هم أردأ شخصيات المجتمع الذي يعيشون فيه ويحاولون علاجه — هم اردأ شخصيات المجتمع ، اما منذ البداية ، واما بالتعويد والممارسة والاستمرار . ومن المحتوم ان الذين يستعملون انفسهم كل يوم في الكذب والنفاق والبيع تحت وطأة الخوف وإلحاح الحوافز التجارية، لا بد ان يكونوا اردأ الناس، انهم يضعون اخلاقهم وعقولهم في عرض دائم للبيع والمساومات . كم أحتقر هذه الصحافة ، بل كم اخافها وأدعو الى احتقارها والى الخوف منها . انها تتكلم في كل شيء ، ولكن بغرور وجهل وجرأة وضوضاء، وتعالج جميع الامراض والمشاكل

ولكن كما يعالج الدجال مشاكل زواره وامراضهم ، وتفسر الأزمات الدولية والمحلية بالاسلوب الذي يفسر به الشيخ والقسيس التفجرات الذرية او الحكمة الإلهية في خلق الذبابة ، او المغزى العظيم الرحيم في إصابة ابن الجيران اليتيم بمرض السل أو الشلل ! هذه الصحافة ، هل تعطي شيئاً ، وهل هي احتياج من احتياجات المجتمع ، ولو افترضنا العالم بدونها ، هل نفترضه حينئذ افضل أم اسوأ ؟ ما هي اكبر أدوات التضليل والتهديم في العالم المتخلف والعالم الذي تحكمه الدكتاتوريات ؟ أليست اكبر هذه الأدوات هي الصحافة المقروءة او المسموعة او المرئية ، كالإذاعة والتلفزيون وامثال ذلك ؟ فهذه كلها صحافة ، انها هي اجهزة الطرق الدائم القوي لعقول الشعوب وعواطفها واعصابها . تصبح الصحافة في البلد الذي يحكمه الدكتاتور ، لسان هذا الدكتاتور وسوطه الرهيب وصليله الدائم المصم للآذان. أما في البلدان المتخلفة التي تحكمها الحرية الحزبية الفاسدة المتخاصمة بالمصلحة ، فإن الصحافة فيها تتحول إلى أسوأ أداة للاستغلال والمتاجرة بالمذاهب والمثل والآلهة والزعماء . الصحافة في الأوضاع السيئة أقوى جهاز عرض وتبرير – يعرض به الحاكم الطاغية طغيانه ويبرره ، ويعرض بـه الحاكم الفاسد فساده ويبرره ، ويعرض به الصحفي الكاذب كذبه ويبرره ! إنها أداة قتال ضد المجتمع ، ان أية صحيفة تصدر في أي بلد متخلف لتكون مثل زميلاتها السابقات ، وتدور في المدار نفسه ، لهي تجارة محرمة وحرب على الإنسان وعلى ذكائه وقيمه وآماله.

الصحافة بحكم مهنتها محكوم عليها بأن تكون في حالة زواج او مخادنة للأقوياء ، وفي حالة مغازلة كاذبة ومخادعة للضعفاء ، فهي لا بد أن تمارس الخيانة او الخداع على نحو ما . ومن أخطر ما فيها انها تبدو كرسالة في اسلوبها ولغتها مع انها حرفة في تصرفها وحوافزها ، وهي في جميع احتمالاتها ليست نصيحة او غيرة او نبوة يقدمها الاذكياء او الذين يعرفون او الطيبون او الزعماء او الأنبياء الى الشعوب لتعليمها او حمايتها من الضلال والاستغلال ، ولكنها في كل حالاتها ، سلاح عقلي وعاطفي ، يطلقه الأقوياء الماكرون والمتحالفون معهم ، على الجماعات الطيبة في جميع اماكنها واوقاتها إطلاقاً قوياً مزعجاً ، بلا رحمة ولا نية طيبة ،

كما يطلق الصيادون اسلحتهم على الحيوانات والطيور الفاضلة . ولن يوجد ما هو اكثر وحشية في خطورته على فضائل العقل والاتزان من الصحافة، حينما تقع في قبضة دكتاتور متوحش الطموح .

في كل مراحل التاريخ كان الاقوياء والاذكياء الممارسون للحكم والقيادة ، المنتفعون بالاستعلاء على الاخرين يحتاجون دائما الى اسلحة عقلية وعاطفية يخضعون بها الشعوب من داخلها ، او يسممون بها وعيها ومشاعرها ويمزقونها بها في ارهاق دائم . وكان كثير من التعاليم والعقائد والطقوس هي هذه الاسلحة في العصور القديمة ، لهذا كانت تمارس صباح مساء وفي كل وقت مثل الصحافة . اما في العصر الحديث فقد اصبحت الصحافة هي هذا السلاح ، فهي الوسيلة القوية لتبليغ الاديان والمذاهب الحديثة وللتذكير بها واثارة الحماس لها وللدعوة الى الآلهة الجديدة . ولم يجد الطغاة في التاريخ آلة مثل الصحافة يقهرون بها روح المجتمع ويجذبونه بها الى اخطر الحماقات . الصحافة في المجتمعات المتقدمة لا بد ان تكون خائنة اومخادعة على نحو ما ، اما في المجتمعات غير المتقدمة فلا بد ان تكون مع الخيانة والخداع جاهلة وغبية وسخيفة الى حد الازعاج .

المفروض ان يكون اخراج الصحف الجديدة نوعا من البدء لا التكرار او الزيادة . ولكن ما اكثرالصحافة التي هي اخراج صحافة لا صحافة ، هي محاكاة في الشكل لا في الموضوع . ما من صباح رأيت فيه هذه الصحافة او غيرها من وسائل التعبير الاخرى الا وعجبت كيف يستطيع اي مجتمع ان يتكلم او يعيش بهذه التفاهات والغباوات . ولكن تفسير هذا ان هذه المجتمعات لاتعيش بهذه العقول التي تشرف على اخراج هذا الغباء وهذه الحماقات ، بل تعيش بعقول اخرى قادمة من بعيد ، فهي تتكلم لنفسها وتعيش بغيرها . والناس لا يعيشون لانهم يعرفون او لانهم يستحقون .

لقد ابتكرت الحضارة الصحافة ، ومفروض علينا ان نكون متحضرين ، وهذا يعني ان توجد الصحافة في مجتمع من المجتمعات وان لم يوجد فيه الصحفي ، او ان توجد الصحافة قبل ان يوجد فن الصحافة واخلاقها . وهذا يساوي وجود

اطباء ومستشفيات وممرضين بدون وجود طب وعلاج ، او يساوي وجود علاج ومستشفيات وعمليات جراحية كبيرة بدون وجود اطباء وجراحين ! ولو ان انسانا لايعرف القراءة رأى صحافتنا لكان محتوماً ان يحركه الاعجاب بها ، اما لو كان يعرف القراءة والفهم والتفكير والحضارة ، لهاله الفرق بين الذات والثياب ، بين الصورة والحقيقة ، ولرأى حينئذ نعوشا معطرة بالرياحين مغطاة بالاكفان المتحضرة !

★

ان اقوى عيوب العبقرية انها لاتوجد نفسها ولا تعرف كيف توجد .

الذات والموهبة .

كم هم معذبون اولئك الذين لا يتكافأون مع ظروفهم ، واشد منهم عذابا ومأساة هم اولئك الذين لايتكافأون مع انفسهم ، ومحتوم ان من لايستطيعون ان يتكافأوا مع انفسهم لا يستطيعون ان يتكافأوا مع ظروفهم ! وكم هو فظيع ان تكون في الانسان مزية كبيرة بدون ان تكون مزاياه الاخرى متكافأة معها ، وحينئذ لاتستطيع ان تنمو او تعبر عن نفسها تعبيرا سويا وكاملا فتموت وتتمزق او تتحول الى شذوذ او عذاب او الى عاهات نفسية وفكرية!والمشكلة الدائمة ان الانسان مهما كان متكافئا وسويا فستظل قدرته واحتمالاته وذكاؤه اقل من مشاكله واحتياجاته ومن الكون الذي فرض عليه ان يعيش فيه . لهذا لا بد ان يظل دائما متوترا ومتألما وعاجزا عن شيء . ان اعظم مأساة تصيب اي انسان ان يكون له فكر وذكاء وحماس ثم لا يكون له وعاء ذاتي يتسع لذلك ويتحمل تبعاته ويحوله الى نشاط كبير ـ لا يكون له جسم صحيح ولا شجاعة ولا ارادة ولا قدرة ولا حالة نفسية سوية ولا ظروف اجتماعية مناسبة ، وان اشقى الناس كذلك لهو من يملك وعيا لايملك معه ارادة ولا خصائص نفسية

وبدنية ملائمة ! سيكون من اضخم مكاسب العلم ان يتوصل في المستقبل الى جعل الانسان متكافئا مع ذاته ، اذا اعطاه ذكاء اعطاه ارادة ، واذا اعطاه ارادة اعطاه قدرة وسرورا . والذكاء بلا سرور هو ابشع عقوبات الحياة ، والسرور بلا ذكاء هو اغبى تصرفات الحياة ، والحياة بلا قدرة عليها اسوأ من الموت . وكل اخطاء العالم واسباب شقائه ترجع الى عجزه عن التكافؤ مع ذاته او مع ظروفه !

البشر يتعاملون ويعملون كقوانين طبيعية لا كبشر — هم قوانين لا عقول ، ان لهم عواطف وأفكاراً ومشاعر ، ولكن هذه كلها تعمل بقانون طبيعي لا بقانون أخلاقي او فكري ، وهم يتعاملون معنا كما تتعامل الفيضانات والزلازل والبراكين والأوبئة ، وكما تتعامل الشمس والقمر والنجوم والغيوم . انهم لا يبحثون معاملاتهم معنا ليعرفوا نفعها أو قتلها لنا ، هل نريدها أم نضيق بها — انهم لا يبحثونها في أنفسنا بل في أنفسهم هم — انهم حينما يتعاملون معنا إنما يتعاملون مع أنفسهم من طريقنا ، ولا يتعاملون معنا لأنهم يرون ذلك حقاً أو واجباً أو سروراً لنا ، اننا بالنسبة لهم أشياء لا بشر . يعاملوننا بقوانينهم لا بقوانيننا ، وبشعورهم لا بشعورنا ، ويحكمون علينا بظروفهم لا بظروفنا ، ويهتمون بنا — اذا فعلوا — لإرضاء أنفسهم لا لإرضائنا ، ويدينوننا بأسبابهم هم لا بأسبابنا نحن ، ولهذا فان الضربة التي تقتلنا تساوي في حسابهم الضربة التي تحيينا ، اذا كانت ارادتهم تتعلق بالضربتين بمنسوب واحد . انه لا توجد أية وسيلة لجعلهم يحبوننا ويروننا كما يحبون ويرون أنفسهم ، انهم لا يستطيعون ان يصوغوا أخلاقهم أو عواطفهم كما يتصورون ويشتهون. قد أشعر اني أملك فكراً ووعياً ولكني لا أملك ارادة تتناسب مع هذا الفكر أو الوعي ، وقد أشعر اني أملك ارادة أو حافزاً ، ولكني لا أملك قدرة أو تصميماً يتناسب مع هذه

الارادة أو هذا الحافز ، قد أدري ولكني لا استطيع ولا استطيع ان أجعل نفسي استطيع ! اذا كنت أعرف ، فهل أفعل بدون ان أريد وبدون ان أستطيع ، أو هل استطيع ان اكون مريداً مستطيعاً لأني أعرف ؟

ان البشر يفعلون ارادتهم وقدرتهم بقوانين من ارادتهم وقدرتهم ، ذواتهم هي التي تصنع ذواتهم ، وهم لايستطيعون ان يفعلوا ويريدوا الا بقدر ما يملكون من قدرة على ان يفعلوا ويريدوا . والذين يفعلون الحياة ويغامرون هم الذين يريدون ويقدرون ، وليسوا الذين يعرفون ! هنا حقيقة ، تلك هي ان حياة الانسان اذكى من تفكيره . ونحن لانستطيع ان نصنع للآخرين قدرة وإرادة وعبقرية الا بمقدار ما نستطيع ان نصنع لهم وجودهم وذواتهم وحياتهم !

لماذا يختلف الناس في الاقدام والاحجام ؟ هل الاختلاف يرجع الى الاختلاف في التفكير والذكاء ؟ واذا كنا نخلق في الآخرين ما نريد خلقه فلماذا لانستطيع ان نوجد قوما كلهم اقوياء وفضلاء وشجعان ومنتصرون ؟ الذين صنعوا الحضارة وجميع الانتصارات الانسانية الكبرى لم يكونوا عقولا وذكاء فقط ، لقد كانوا كذلك ارادة وقدرة وجهازا نفسيا عظيما . ان البشر يصنعون حياتهم كما يصنع النهر طريقه لا كما يصنع المهندس بناء اوجهازا . والتخطيط الفكري كيف يحدث ؟ انه صياغة الذات لا صياغة العقل . قوة الناس في ذواتهم لا في افكارهم . والقدرة ليست هي قدرة الحجر والحجر والسفينة والموجة والسوط والظهر ، لقد كانت قبل ذلك هي القدرة النفسية . وكيف نملك القدرة النفسية وكيف نفقدها ؟ ان نفس اي انسان لتحتوي كل ما في الارض من تجارب وقوة وضعف . في نفسك ونفسي كل ما كان موجودا هنا وما هو موجود الآن ، في انفسنا نحن البشر جميع حشرات الارض وازهارها ، قوتها وضعفها ، انتصاراتها وهزائمها ، تطورها وتخلفها ، احزانها ومسراتها . وهذا هو الذي يصوغ انفسنا ويفاوت بينها كما

تصوغ القوانين الطبيعية ظاهرات الكون وتفاوت بينها . فهذا جبان النفس ضعيفها ، وذلك شجاعها قويها ، واولئك ضعفاء الأجسام والاعصاب والحواس والاخرون اقوياؤها ! ورسالة الانسان العلمية ان يتحكم في هذه الاقدار ويحولها الى ما يريد ، لا ان يظل ينظر اليها ويرقبها متعذباً بها او واعظاً مصلياً لها !

*

ان السعادة هي مقدار التوافق مع الظروف ومع النفس !

القانون الخالق

الاشياء تتغير وتتشكل وتنشأ خلقاً جديداً بقانون تراكم الحركة والمـــادة ، وكذلك تتلاشى ايضاً بنفس هذا القانون. الحياة والنمو والتطور والحضارة، كلها حالات من التراكم ، حتى افكارنا وانفعالاتنـــا ، ليست سوى تراكم حركة. والثورات والانقلابات، معناها ان ظروفاً ومشاعر واحتجاجات وآلاماً قـــد تراكمت فتحولت شيئاً. الجبال والأنهار والأمطار والشموس والنباتات والمجتمعات والافكار والمشاعر تكوّن وتتطور وتؤدي اعمالها المختلفة ، والتي نراها بارعـة بقانون تراكم الحركة الذي ينشأ عنه تراكم المادة او تبددها . ان قانون الـتراكم لا يترك اي احتمال للتدخل في الكون من خارجه ، وهو يجيب على السؤال القديم : هل الشيء يخلق نفسه ! نعم الشيء يخلق نفسه، فالإنسان والشجر والنهروالكون وكل موجود يخلق نفسه أي يكوّن نفسه . إذا صنع الإنسان مثلاً كرسياً ، فإن ذلك الكرسي يصبح مزدوج الوجود ، فهو إنسان ومادة أولى ، صنع منهـــا الكرسي الذي هو إنسان ، أي الذي أصبح إنساناً. فالكرسي الذي هو إنسان قد صنعه الإنسان ، أي أن الانسان قد خلق نفسه ، والكرسي الذي هو المـادة الاولى قد صنعته المادة الاولى ، اي أن الخشب او غيره من الأشياء الأولية قد خلق ايضاً ذاته . وهكذا كل الأشياء التي يصنعها البشر أو يصنعها الكون بعضه

في بعض . إن الخشب يخلق الخشب ، ولكنه لا يخلق الكرسي ، لأن الكرسي لم يبق خشباً فقط ، وان الإنسان يخلق الانسان أي يخلق ذاته ، بما فيها الكرسي، لأن الكرسي قد أصبح إنساناً ، ولكنه لا يخلق الخشب ، فكل شيء يخلق نفسه فحسب . وإذا حول البشر الطبيعة الى شيء آخر ، فتحويلها جزء منهم ، فهم بذلك يخلقون انفسهم .

ولو كان الشيء لا يخلق نفسه ، لكان خالقه شيئاً يخلق نفسه ، وحينئذ يثبت ان الشيء يخلق نفسه . وقد جاء قانون التراكم الخالق بديلاً علميـــاً عن الارباب والاساطير التي كان القدماء يحاولون ان يفسروا بها عملية الخلق المستمر. وتفسير الكون بالعقائد ينافي وجود القوانين فيه ، بـل ينافي مجرد وجوده ، وتفسيره بالقوانين ، ينافي وجود العقائد ، والجمع بين تفسيره بالعقائد وتفسيره بالقوانين ، يعني القول بالشيء ونقيضه ، اي يعني القول بالحقيقة وإنكارها في مجال واحد .

كل شيء يتحرك حركة دائمة ، وهذه الحركة تتراكم ، وتراكمها يحولهـــا الى حالات جديدة متعاقبة لا نهاية لها . وكل شيء يتطور الى حالة جديدة ، بمقدار ما تتراكم فيه الحركات . هذا النهر يصنع فيضاناً او طاقة اكثر من النهر الآخر ، وهذه القذيفة تصنع دماراً اقوى من تلك ، وذلك المجتمـع متطور اكثر من المجتمعات الاخرى . وسبب هذا التفاوت هو الفرق في تراكم الحركة !

ليس المجتمع إلا طوراً من أطوار التراكم ، وليست افكاره ومشاعره إلا نهاية من نهايات الحركة المتجمعة ، والفضيلة في جميـع صورها ، ما هي إلا تراكم شعور وظروف . إن تفكـــيرنا وشعورنا يتحركان ويتراكمان في حركتهما ، وتراكمهما المتولد عن حركتهما ، هو الذي يصنع حالاتنا الفكرية والشعورية الجديدة . فاذا تغير تفكيرنا وشعورنا ، كان معنى هذا ان عمليات التراكم قد بلغت مرحـــلة التحول . نشعر ونفكر ونتحرك ، ثم نشعر ونفكر ونتحرك ، ونستمر نفعـل ذلك ، حتى تتراكم من شعورنا وتفكيرنا وتحركنا مشاعر المجتمـــع وافكاره وسلوكه وكل أخلاقه وتقاليده بأسلوب الحركة المتتابعة . والعقائد في كل حالاتها هي مشاعر متكاثفة ، حتى الآلهة لا تعني في لغة المتحدثين عنها إلا ذلك،فالذي

قال : انا الله ، كان يعبر عن هذه الحقيقة . فالله هو نهاية سلسلة متراكمة من التاريخ النفسي والاجتماعي . وما مشاعر رجل هذا العصر وافكاره واخلاقه ، إلا حالة متراكمة من تجمع حركات التاريخ . فكل من مروا بالتاريخ ، ينصبون فينا ويحركوننا بطريق التدافع كما تدفع مياه النهر بعضها بعضاً . وكل تغير إنما يعني مرحلة من التراكم المستمر ، وتغير المجتمع ، هو تغير حالة ناتج عن هذه العملية. وهذه العملية هي التي تحدث القفزات التاريخية الكبرى، مثلما يحدث الفيضان والانفجار والغليان .

كان الباحثون يسألون دائماً : لماذا تتجه الحياة الى الصعود ولا تنحرف الى اليمين او الى اليسار او الى الوراء — لماذا تتطور صاعدة مع احتمال ألا تفعل — ما هي القوة التي تختار لها هذه السبيل وتدفعها حتماً اليها ? وكان بعضهم يجيب بأن القدر الاعلى هو الذي يسلكها في ذلك حسب خطة مرسومة مدبرة أزلاً ، وكانوا يجدون في هذا برهاناً علمياً على وجود الإله المفكر الحكيم الرحيم !وآخرون يعزون ذلك الى الصدفة او الى طبيعة الحياة والوجود ، ولكن قانون تراكم الحركة يجيب على هذه المشكلة .

فالانسان يتراكم في نفسه — تتراكم افكاره ومشاعره وحركاته ، وكذا الحياة في جميع وحدات المادة في صورها المختلفة. فالنهر العظيم بحقوله وطاقاته ومجراه ما هو إلا تعبير عن هذا القانون الخالق الذي يبدو رحيماً وحكيماً بلا رحمة ولا حكمة ! وتراكم الانسان في نفسه يعطيه أطواراً متغيرة صاعدة أو تبدو كذلك .

يبدأ الرجل يعمل ويجمع الثروة مبتدئاً من الصفر ، ويظل عمله يتراكم ، وقد يضاف اليه عمل ابنائه وابنائهم . وهذه الاعمال المتراكمة تتحول الى عمليات أعلى وأقوى وأكثر إبداعاً ودقة وقدرة على الانتصار والاتساع. وهكذا تراكم عمليات الحياة في الانسان وفي كل الاحياء يحولها الى أطوار أرقى أو الى أطوار يبدو أنها أرقى . والوجود كله يتطور لأنه يتراكم .

ان في الحياة وفي كل الأشياء قانوناً هو قانون الاندفاع والاصطدام ، وهذا

القانون يحدث التغيرات في كل موجود كما يتغير اتجاه السيول الهابطة من أعالي الجبال بالقانون نفسه ! ولو أراد البشر أن يمتنعوا على التغير لما استطاعوا لأنهم لا يستطيعون أن يمتنعوا على قانون التراكم ، وليس الذي يجعلهم يتغيرون هو إرادة التغير بل هو قانون التغير . ان التراكم قانون اضطراري لذلك كان التطور اضطرارياً حتى الذين يحشدون كل قواهم لمقاومة التطور لا بد أن يتطوروا لأنهم لا بد أن يتراكموا . لقد كانت جميع المجتمعات تخاف أن تتطور أو تتغير بل وتجهل ذلك ، ولكنها مع ذلك تطورت . لقد كان خالقها ، وهو هذا القانون ، يغيرها بدون أن تدري أو تريد .

وافكارها التطورية كيف جاءت ؟ ان افكارنا المتطورة هي دائماً نتيجة وجودنا المتطور .

ان القانون الذي يصنع الشموس ويطور الكون هو الذي يصنع الحضارات ويطور افكار الانسان ، ولكن التعبير مختلف . وارادتنا للتغير ووعينا له فعلان من افعال تراكم الحركة لا فاعلان لها .

وتفاوت المجتمعات في سرعة تطورها معناه تفاوتها في قوة حركتها واسلوب تراكمها ، وتشبه في تفاوت حركتها وحدات الكون الاخرى في عمليات الحركة المتفاوتة . واذا تفوق نهر على نهر او كوكب على كوكب او احدى شجرات البستان على الشجرات الاخرى كان معنى هذا تفوقاً في عملية الحركة المتراكمة . ولكن الحركة قد تكون هدماً ، فليست دائماً بناء ، والذي يجعلها هدماً او بناء هو طبيعة المتحرك وظروفه ومجالاته . واما جهازه العلمي الفكري فهو من خلق الحركة كما سبق . وهو لا يخلقها ابدا بل هي تخلقه ثم تخلق به .

انه لولا تراكم الحركة لما تغير شعورنا ولا تفكيرنا ولا اخلاقنا او حضارتنا، بل لما تغير الكون . نفكر في الشيء فلا نستوعبه ولا نؤمن به ولكننا نستمر نفكر حتى يتحول تفكيرنا الى ايمان واحاطة ـ وكذلك نشعر نحو الشيء او نهم به ونستمر نشعر ونهم الى ان يتحول شعورنا وهمنا الى اقتحام .

كيف يحدث ذلك ؟ اننا نبدأ شيئا ثم يصيرنا التراكم شيئا آخر ، ذلك هو

قانون تغير الأشياء ـ حتى مذاهبنا السياسية والفكرية والفلسفية والاجتماعية وغيرها انما تتكون وتتغير بنفس هذا القانون . قد نواجه مذهبا اجتماعيا معيناً لا ندين به ونظل نواجهه ونفكر فيه ونشعر نحوه ويظل تأثرنا به ومواجهتنا الفكرية والنفسية له تتراكم وتتراكم حتى نؤمن به او نصبح على الاقل غير خائفين منه . ان انزعاجنا من الاشياء وميلنا اليها راجعان في الغالب الى مقدار عمليات التراكم الشعوري والفكري .

*

اعتاد الناس ان يعتقدوا بأن الكتاب والمعلمين الروحيين هم الذين يطورون المجتمعات وانهم هم القوى الخالقة التي تصوغ سلوك المجتمعات واخلاقها وقوانينها وصفاتها النفسية والفكرية . والباحثون العرب تهزهم مشاعر الابتهاج والكبرياء حينما يتذكرون او يقتنعون ان الحياة العربية الجديدة بكل ما فيها من ثقافات واتجاهات حديثة هي منحة طائفة من الرجال ، وان هؤلاء الرجال هم الذين حرروا بلادهم من معتقلات التاريخ وجعلوها تؤمن بالحضارة وتحياها . وقد ضرب المثل كثيراً بقاسم امين ووصف بانه احد الكبار الذين غيروا مجتمعاتهم وصاغوا التاريخ بأقلامهم وافكارهم . قيل ان كتابه عن المرأة هو الذي فك عنها الطلسم وجعلها تلقي بكل هوان التاريخ عن فكرها وجسدها ، وقيل ايضاً عن رجال كثيرين غيره ان كلاً منهم قد غير جانباً من جوانب الحياة وصاغه الصياغه الجديدة .

ولكن هل صحيح هذا ـ هل صحيح ان التغيرات الاجتماعية الكبيرة تحدث بسبب واحد مباشر ، وهل صحيح ان كتاباً واحداً قد يغير المجتمع ؟

لو كان ذلك كذلك لاستطاع اصحاب الافكار الطيبة ان يحولوا البشر الى ملائكة بل الى آلهة ـ ان يؤلفوا كتباً ويلقوا بأفكار تصوغ الناس كما يريدون ، بل لو كان الأمر بهذه السهولة لاستطاع اي شيطان ماكر ان يفسد البشر ويصنعهم كما يشاء بالكتب والآراء . واذا كان هذا صحيحاً افليس من المستطاع حينئذ تغيير خصائص المجتمعات واخلاق الناس بعدة كتب يؤلفها عدة كتاب

حتى ولو كانوا كتاباً مستعارين ؟ وهل الأمر بهـذا اليسر ؟ اذن فلن تبقى أيه مشكلة في هذا العالم ، وحينئذ يصبح أصحـــاب الكلمة اقوى من يحكم العالم بل يصبحون حينئذ آ لهة يخلقون الشيء بالكلمة ، الا ان تعقيداً خطيرا سوف يوجد حينئذ وذلك بأن يتناقض الخالقون للعالم بالكلام ، فما العلاج إذا تناقضوا ــ اذا تناقض الآ لهة ؟

اننا لا نستطيع ان نصنع اخلاق المجتمع بكتاب ، كذلك لانستطيع تغييرها بكتاب ، كما لا نستطيع ان نقيم المصانع ونحول الصحارى الى حقول بنظريات نلقي بها فيها !

واذا كان من غير الممكن ان نجعل الاحداث الطبيعية تقع او تتغير بالأفكار والكتب ، فكذلك لا يمكن ان نجعل أوضاع المجتمع تتغير بمثل ذلك . وبقدر ما يستحيل ان تحـــدث ظاهرة كونية بسبب واحد مباشر ، يستحيـــل ايضاً بالنسبة نفسها حدوث تغييرات اجتماعية بسبب واحد مباشر . وهل يمكن القول بالسبب الواحد المباشر ؟ والظاهرة الاجتماعية كالظاهرة الطبيعية كلتاهمـا تعبير نهائي عن تجمع حشود من الأسباب . ان جميع التغيرات في الوجود مركبة ، معقدة ، متسلسلة . والايمان بالسبب الواحد المباشر انـكار للاسباب . ليس في الطبيعة او الحياة او المجتمعات افكار او اوامر تقول للشيء كن فيكون .

وما حدث للمرأة في مصر لم يكن بد من حدوثه حتى ولو لم يوجد كتاب قاسم امين ، بل ولو لم يوجد قاسم امين نفسه .

لقد حدثت تغيرات كثيرة في المجتمع المصري والعربي وفي الحيـــاة المصرية العربية ، لأن ظروفاً ما جديدة قد حدثت ، لا لأن كتاباً او كتباً قـد أُلفت ونشرت ، وبالأسباب التي تغيرت بها الحياة وأساليبها تغير سلوك المرأة . والمرأة التي تغيرت وتحررت ليست هي المرأة التي قرأت كتاب قاسم امين ، بـــل هي امرأة اخرى ــ امرأة وجـــدت نفسها في معترك ظروف لا بد ان تصنع منها كائناً جديداً . لقد خرج كتاب تحرير المرأة فلم تتحرر المرأة لأن الظروف لم تكن قد تهيأت بعد ، ثم تحررت بعد ان انسحب الكتـاب من السوق وأصبح

تاريخاً يتحدث عنه الكاتبون في بعض مقالاتهم او فوق مكاتبهم ولم يبق قوة في المجتمع تصوغ اخلاقه وافكاره او تحرضها .

حينما نشرت افكار قاسم امين ، لم يكن من الممكن ان تتأثر بها المرأة لأنه لم يكن ممكناً ان تقرأها او تفهمها لأنها لم تكن قارئة ولا فاهمة ، ولم يكن كذلك من الممكن ان يحملها على التأثر بها مجتمعها او أقربوها لأنهم لم يكونوا مؤمنين بها ، او على الأقل لم يكونوا مبشرين بها في نسائهم وفي مجتمعهم ، بل لم يكونوا قارئين لها .

ان المرأة العربية تصر حتى اليوم على رفض الاستجابة لدعوات كثيرة متواصلة تحثها على التخلي عن اخطائها السلوكية والروحية الأخرى الكثيرة ، فهي تقيم الحفلات للجان وتؤمن بالدجالين وتهبهم ايمانها ومالها وحماسها، وتذهب الى القبور وتطلب من الموتى حل المشكلات ، وتصنع مثلما كانت جدّاتها يصنعن في شؤون الزواج وتربية الأولاد وتخويفهم من الحياة والأشباح والظلام والشجاعة ، وفي معاملة الأزواج وصوغ العلاقات مع الآخرين – وتؤمن كذلك بآلهة جدّاتها وتشعر بمشاعرهن وتخضع لانفعالاتهن الرديئة المتأخرة ، ولم تتغير إلا بمقدار ما تغيرت الظروف . ولم تستطع تلك الدعوات والصيحات القوية ان تغير افكارها او مشاعرها او سلوكها لأن الأوضاع التي تحياها لا تكفي لحدوث مثل هذا ، لا لأنه لم يوجد قاسم امين آخر يدعوها الى ذلك .

ولقد دعا كتاب تحرير المرأة الى اشياء كثيرة لم تأخذ بها المرأة او تتأثر حتى اليوم لأنها في الحقيقة لا تأخذ حياتها المتحررة عن الكتب او عن الدعوات والوصايا الصالحة ، بل تأخذها عن الحياة نفسها. من المحتوم ان قاسم امين لوكان ضد المرأة فوضع بدل كتابه في حريتها كتاباً آخر ضد حريتها ، لكان الناتج الاجتماعي هو نفسه بلا تغيير . فالمرأة متحررة او سافرة او عاملة مع الرجل في الريف والبادية وفي بعض البيئات المتخلفة جداً من غير ان تعلم بدعوة قاسم امين او بدعوات غيره من المصلحين بل بدون ان تعلم بوجودهم .

والناس لا يفعلون الشيء لأنهم دعوا اليه او برر لهم فعله ، ولكنهم يفعلونه

حينما يجدون انهم ملزمون بفعله . وعمليـة الإلزام ليست افكاراً ولا كتباً ولا إقناعاً ، انها شيء اكبر من ذلك واصعب . الأفكار تخضع دائماً للحياة ، والحياة لا تخضع ولا مرة واحدة للافكار ، لأن الحياة ضرورة وقدرة ومعاناة ، أمـــا الأفكار فقراءة من كتـــاب يتحدث عن شيء لم يصبح معاناة ولا ضرورة ولا قدرة . ان أقواماً كثيرين يرون حرية المرأة جريمة كبرى وفساداً عظيماً ، ومع هذا يباركون لنسائهم ان يأتين هذه الجريمة وهذا الفساد ويشعرون بالخسران والصغار والتأخر اذا لم يفعلن ذلك . والذين يغيرون افكارهم في هذه القضيـــة يغيرونها لأنهم وجدوا انهم لا بد ان يتغيروا في سلوكهم . فالاحتياج الى السلوك الجديد هو الذي يصنع الاحتياج الى التفكير الجديد . وكذلـــك يؤمن اقوام آخرون بحرية المرأة وقد يتحولون الى مبشرين بهذهالحرية ولكنهم لا يستطيعون ان يحولوا ايمانهم الى سلوك لأن الأوضاع التي يعيشون فيها لا تتحمـل مثل هذه الشجاعة ، والمجتمع قدرة على التحرك لا على التفكير .

ماذا لو ان مصلحاً من اليمن ألّـف كتاباً يدعو فيه الى مثلمـا دعا اليه قاسم امين ثم نشره في بلده في الوقت الذي نشر فيه قاسم امين كتـــابه ؟ هل يمكن الزعم انه لو حدث هذا لكانت المرأة اليمنية قد بلغت الطور الذي بلغته المرأة المصرية مع بقاء ظروف اليمن كلها في مكانها ؟ لقد صدر كتاب قاسم امـــين في مصر وقرأه اناس في مصر واناس في سوريا واناس في العراق واناس في البلدان العربية الاخرى ، فهل جاءت النتيجة واحدة ـ هل اتخذت المرأة موقفاً متساويا في جميع هذه الشعوب ؟

ان الظروف والضرورات هي التي تصنع سلوكنا بـــل وتصنع اتجاهاتنا الفكرية والروحية ورغبتنا في الإصلاح . والضرورة هي التي خلقت دعوة قاسم امين ، وليست دعوته هي التي خلقت تلك الضرورة . بل ان الدعوة الى حرية المرأة ونفس حريتها كلتاهما مظهر لاحتياج ، وليس الاحتيـــاج او الاستجابة مظهراً لهما. والظروف التي صنعت حرية المرأة هي التي صنعت الدعوة الى حريتها، هذه وهذه نتيجـــة . فالاسباب التي أوعزت الى قاسم امين بأفكاره هي التي

أوعزت الى المرأة الجديدة بسلوكها الجديد .

متى يقتنع المجتمع بالفكرة ومتى يحولها سلوكاً؟ ان الناس لا يقتنعون بالفكرة لأنها صحيحة بل لأنها قد وجدت ظروف الاقتناع ، وهم لا يحولون الفكرة التي يقتنعون بها الى سلوك لأنهم اقتنعوا بها بل لأنهم أرادوا ذلك واستطاعوه .

فالفكرة قد تكون صحيحة جداً ولكننا لا نقتنع بها لأننا لا نستطيع الاقتناع ، وقد نقتنع بها جداً ثم لا نحولها الى سلوك لأننا لا نستطيع تحويلها . ان الحركات السلوكية أشياء زائدة على الافكار وعلى الايمان ، وتغيرات المجتمع هي مجهود كبير ، هي فوق الاقتناع والأدلة العقلية . فاذا كانت أفكار تحرير المرأة قد استطاعت أن تقنع الناس كلهم أو بعضهم بصحتها فما الذي جعلهم يستطيعون تحويلها الى ظاهرة اجتماعية أو يرغبون في ذلك مع أن الفكرة ليست حركة ، ليست سلوكاً ؟

والذي يحدث أن الناس يفعلون الشيء أو يحتاجون الى فعله أو يرغبون فيه فيذهبون حينئذ يبررونه تبريراً فكرياً ،وهم لا يفعلونه لأنهم وجدوا له مبررات فكرية . وهذا هو ما حدث في موضوع المرأة وموضوع حريتها . لقد تجمعت الضرورات والظروف التي تفرض على المجتمع وعلى المرأة سلوكها الجديد ، فاستجاب المجتمع واستجابت المرأة ثم راحوا يبحثون عن تلك المبررات الأدبية ، بل ليست المسألة كذلك ، فالمرأة والمجتمع قد وجدوا انفسهم يفعلون ما حدث بدون أن يقصدوا الاستجابة له أو يستطيعوا دفعه أو التفكير فيه . ان أقوى كتاب قد يغير أفكارنا أو أفكار طائفة ممتازة منا ، ثم يستمر هذا التغير الفكري يتزايد بين جميع وحدات المجتمع أو بين وحدات الطائفة الممتازة وحدها . ولكن متى تصبح هذه الأفكار المقروءة عملاً من أعمال المجتمع ؟ تلك مسألة اخرى .

ان الكتب المقدسة التي يؤمن بها الناس أقوى ايمان لم يمكن أن تتحول تعاليمها الى سلوك للذين يؤمنون بها ، بل لا يوجد بين أتقى المؤمنين واصدقهم من يطمعون في هذه المنزلة . فلماذا ؟

*

ليس المجتمع مجموعة من النيازك تنتقل بقانون الحركة وحده، وانما هو مجموعة من الاحتياج والخوف والشجاعة والجبن والعقيدة والعادة والقدرة والعجز والمصلحة والتقاليد الكثيرة المعقدة، وتغير المجتمع بل وتغير أية ظاهرة اجتماعية معناه تحريك هذة المجموعة كلها تحريكاً متوافقاً. وكيف يمكن أن يتحرك هذا الجهاز كله ويتوافق في حركته ليخلق وضعاً حركياً معيناً؟ اننا لا نفعل مانريد ولا نريد ما نفعل ولكننا نفعل ونريد ما لا بد أن نريده وأن نفعله. والبشر لم يجتمعوا في أي وقت ليقرروا إرادة ما حدث ويقرروا الوصول اليه، ولو اجتمعوا لما قرروا ولما أرادوا.

اننا حينما نغير وضعاً اجتماعياً لا نغير وضعاً فكرياً وإنما نغير قوى مادية، نغير تاريخاً وأوضاعاً وأساليب كثيرة من أساليب الحياة المتراكمة، ونرفع جثثاً وتراباً وقبوراً ورجالاً من الطريق، ونهزم جيوشاً وأجهزة وأسلحة، ثم نوجد من الناحية المادية نقيض ذلك. والذي يحاول أن يفعل كل هذا للمجتمعات بالمنطق يحاول محاولة غير مجدية بقدر ما هي محاولة غير ذكية.

المجتمع حاجة واستعداد وقدرة وتركيب وتكيف وتاريخ. هل نستطيع أن نصنع من كل انسان متسلقاً للجبال، أو هل يمكن أن نخلق مغامراً أو عبقرياً في كل وقت وفي كل ظرف وكل مجتمع؟ وهل نستطيع ذلك بالدعوة والتفكير؟ كم من المفكرين والمصلحين الذين أعطوا أفكاراً وفلسفات ومذاهب ودعوات ثم مروا في الطريق العام من غير أن تسير وراءهم الجموع أو يحدثوا أية صدوع في بناء مجتمعهم، وكم من سقراط ومسيح صلبتهم المجتمعات قبل أن يستطيعوا تغييرها او اقناعها.

ان اشد الناس ايماناً بالانبياء والمصلحين لا يستطيعون ان يخضعوا سلوكهم او أنظمتهم او قدرتهم او ارادتهم لما جاء به هؤلاء الانبياء والمصلحون وحتى لو أرادوا ان يفعلوا لما استطاعوا. انهم لا يملكون ان يريدوا، ولو ارادوا لما ملكوا ان يستجيبوا لارادتهم. بل ان الانبياء والمصلحين انفسهم لو ارادوا ان يخضعوا هم انفسهم لما جاءوا به هم لما قدروا، فهم لا يستطيعون ان يطيعوا

انفسهم ولا يستطيعون ان يريدوا طاعتها . ان نظريات الانسان معزولة عن ارادته ، وارادته معزولة عن قدرته ، وقدرته معزولة عن واقعه . قد تكون له نظرية تصوب الانتحار وترى فيه شجاعة وشرفاً وذكاء ورفضاً للعبث السخيف وارتفاعاً بالنفس والكرامة عن الهوان والقبح ، وهو مع ذلك يستطيع ان ينتحر . ولكنه لا يفعل لأنه لا يريد ولا يستطيع ان يريد، ولو اراد لما استطاع ان يفعل . فالانسان واقع وليس ارادة ولا اخلاقاً او افكاراً . ولو بعث جميع اصحاب الرسالات الكبرى من جديد ليفرضوا على المؤمنين بهم إخضاع واقعهم او اهوائهم لما يؤمنون به بالقانون والقوة لما اكتفوا بأن يكفروا بأصحاب هذه الرسالات وينكروهم ، بل لكان محتوماً ان يصلبوهم باسم التعاليم التي جاءوا بها . ان المؤمنين بالرسول محمد عليه السلام ايماناً يجعلهم يقتلون من يجرؤ على توجيه اي نقد اليه ، ليقتلون نفس محمد لو جاءهم ليلزمهم بتطبيق دعوته. وليس اصدق الناس ايماناً بالنبي او بالمصلح أقدر على التزام تعاليمه من اكفر الناس بكل الانبياء وكل المصلحين . ان تغير المجتمعات قانون مثل تغير الطبيعة وتغير الجسم الانساني . أليس تلقي الكتاب الواحد في مجتمعين مختلفين لا يكون على درجة واحدة ؟

وانا لا اعني هنا ان الانسان خاضع إزاء الطبيعة والمجتمع ، بل ان الانسان وكذا المجتمع خاضع إزاء نفسه .

*

الأدلة العقلية لا تستطيع ان تقنع الناس ، فكيف تستطيع ان تغيرهم ؟ حاول بجميع منطقك ان تقنع من يخالفك في المذهب او العقيدة ، واجمع نفسك وكل موهبتك وكل من يرون رأيك وتحولوا الى طاقة عقلية وصوغوا هذه الطاقة في ابهر الاساليب المنطقية الاقناعية ، واحشد معك جميع الاولين والآخرين يحملون على افواههم وعقولهم كل ما قالوه وعرفوه ، بل وجنّد الى جانبك جميع آلهتك وانبيائك وكتبك المقدسة ليشهدوا لك اقوى شهادة تريدها ، ثم جعل من كل ذلك اسلحة تدمر بها حصون مخالفك او شموساً تكشف بها وجوه

الخطأ والصواب في آرائه وعقائده ، ثم توقع كيف تكون النتيجة . ولو كان المنطق يغير افكار الناس وعقائدهم او سلوكهم لكان من السهل جداً إخراج اهل الأديان والمذاهب والأنظمة المختلفة من اديانهم ومذاهبهم وانظمتهم وإدخالهم فيما يخالفها بالمنطق والجدال القوي ، بل انه كلما كان منطقنا أقوى وأوضح كان أضعف في الاقناع ، لأننا كلما تفوقنا على خصومنا بالحجة ، كانت حجتنا أعجز عن إقناعهم ، لأننا حينئذ نثير حقدهم وخوفهم ، بدل أن نستطيع إقناعهم . وإننا لنقنع الآخرين بإظهار تفوقهم المنطقي علينا ، اكثر مما نقنعهم بإظهار تفوقنا عليهم ، لأن البحث عن الحجة الصحيحة او القوية ، ليس هدفاً من أهداف الناس ، انهم يستعملون الحجج القوية لتأييد أهوائهم ، ولكنهم لا يحترمونها لذاتها . ولو احترموها وهي ضدهم ، لأنها قوية او صحيحة ، لعادوها وكرهوها أكثر ، فنحن نعادي الحق اذا كان ضدنا ، أكثر من معاداتنا للباطل . وكسر الحجة بالحجة يشبه كسر السيف بالسيف ، كلاهما يغذي المقاومة والعداوة ، ولا يصنع صلحاً أو سلاماً نفسياً ! والذين اقنعوا الآخرين ، لم يقنعوهم بالمنطق ، بل بالتأثير النفسي . إننا لا نستطيع ان نقنع أحداً بأي اسلوب ، ولكن الناس هم الذين يقتنعون تحت ظروف الاقتناع الخاصة بهم ، وحينئذ نحاول أن نرضى عن أنفسنا بأن ننسب اليها فضيلة الاقناع.

واصحاب الرسالات الكبيرة الذين بدا لنا انهم اثروا في الجماعات ، إنما أثروا فيها لأنهم كانوا يتجنبون محاولة الاقناع بالبرهان ، كانوا يحاولون تجنب اصطدام المنطق بالمنطق والايمان بالايمان ، وأسوأ الدعاة هم أقواهم منطقاً . وقد انتصر الانبياء ، لأنهم جاءوا يدعوننا الى انفسنا ويحتجون علينا بها ، ولأنهم لم يجيئونا بمنطق قوي ليقهر منطقنا ، لقد انتصروا لأنهم جاءوا يدعوننا الى ما في انفسنا ، لا الى منطق غريب جديد قاهر . ان منطق الانبياء لم ينتصر ، لقد انتصروا هم ، ولم ينتصر منطقهم ، فالمؤمنون لا يحترمون ما جاء به أنبياؤهم من تعاليم او منطق أو سلوك ، وإنما يحترمون اسماء هؤلاء الانبياء واشخاصهم فقط. ان انتصار المنطق وقهره ، ليسا أقل من انتصار السلاح وقهره إذلالاً للخصوم

وقسوة على مشاعرهم !

اذا حاولنا هدم منطق قوم شعراولئك القوم اننانحاول هدمهم هم ، فيصرون حينئذ في تعصب وعناد على الدفـاع عن منطقهم اذ يحسون انهم يدافعون عن انفسهم ، والبشر لا يدركون الفرق بين انفسهم وبين مواقفهم . ونحن حيـنما نعادي رأيا إنما نعادي في الحقيقة اتباعه ، والرأي بلا اتباع ولا افتراض اتبـاع لايمكن ان يعادى او يكره . فالناس يعادون الناس حينما يعلنون انهم يعادون المذاهب والعقائد الفاسدة ، وهم اذا لعنوا المخالفين انما يعنون الناس انفسهم لا مذهبهم المخالف لانهم قد اصبحوا في تقديرهم خصوماً لهم . والذين يدافعون عن رأي ما يدافعون عنه لأنه رأيهم لا لأنه رأي ما . فالدفاع عن الرأي والمذهب هو دفاع عن النفس . والوسيلة المجدية لجعل الناس يتحولون عن مواقفهم هي ان يتركوا هم يتحولون عنها ـ ان يشعروا انهم هم الذين يختارون لأنفسهم ، وان توضع في طريقهم مبررات هذا الاختيار والتحول وظروفهما .واذا الزموا الزاماً لسبب من الأسباب وجب اقناعهم انهم لايلزمون بل يختارون !

والذي يتحدث مع مخالفه بالمنطق لا يحتمل انه يريد اقناعه الا ان يكون على مستوى كبير من الغباء ، وانما هو انسان يعرض ذاته ، او انسان متوتر يعبر عن توتره بالكلام والمنطق ، او انسان غير مهذب يحاول بمنطقه مجرد الاذلال لمـن يناقشه وقهره بوحشية ، وفي الاكثر يفعل ذلك بلا قصد ولا وعي بمـا يفعل . واسوأ هذه الاحتمالات ان يكون المتحدث بالمنطق مع مخالفيه قاتلاً أو جارحاً أو بذيئاً ، لا يريد بمنطقه الا ان يقتل او يجرح او يهين .

ولا يوجد انسان يريد أن يقتنع انه يترك عقيدته او عقله تحت ضغط عقول الآخرين او ضغط عقـائدهم ومذاهبهم ، وكل الذين غيروا أديانهم او مذاهبهم غيروها بالاكراه او بالحـاجة او بالشهوة النفسية لا بقرع الحجة بالحجة . ومن اسوأ ما يصنع الناس بأنفسهم ان يتقارعوا بالحجج .

والتحولات التـاريخية العظمى التي حولت المجتمعات من دين او مذهب او نظام الى دين او مذهب او نظام آخر تحويلا عاماً سريعاً لم يكن سببها الاقناع

بل الالزام في احدى صوره المختلفة . وقد كان الإكراه هو احد الاساليب التي كان التاريخ يغير بها نفسه ، ولا يزال يفعل ذلك . والالتزام الطويل يخلق حالة توافق من الداخل ، فالذين يفرض عليهم او يلتزمون التزيي بدين او بمذهب اجتماعي سيتحولون على مر الزمن الى معتقدين لذلك الدين او المذهب بقانون التكيف المحتوم بين السلوك والرأي . ان الفرض بالقوة هو الذي اعطى الانسانية أقوى اديانها ونظمها ومذاهبها ، وحتى الطائفة القوية التي فرضت ذلك لم تقتنع او تقتنع به عقلياً وانما وجدته في رغبتها وقدرتها واندفاعها كما يفعل النهر في فيضانه واتجاهه. ولو كان للإقناع اي تأثير على الناس لأمكن حينئذ ازالة جميع الخلافات من بينهم بمحاولة اقناعهم جميعا برأي واحد .

والناس يقتنعون ويتغيرون تحت وقع الظروف والضرورات، وهذه الظروف والضرورات هي التي تغير منطقهم بقدر ما تغير حياتهم . ومع هذا فالصحيح أن الناس يتغيرون بلا اقتناع . والدعاة والمفكرون يقدرون انفسهم تقديراً هو اكثر من الحقيقة حينما يزعمون او يعتقدون انهم هم الذين يصوغون المجتمعات ويصوغون خصائص البشر النفسية والفكرية ،حتى المعتقدات والفلسفات والمذاهب التي توجه الجماهير او تسيطر عليها فيما يظهر ، ليست من صنع الدعاة والمفكرين . المفكرون والدعاة أدوات يعملها المجتمع ويعمل بها ، وليسوا آلات تصنع المجتمع، وقد أعطت المجتمعات هؤلاء افكارهم وفلسفاتهم، اكثر مما أعطوها هم مذاهبها وعقائدها وايمانها. المفكرون ظاهرة توجد في المجتمع ، ولا توجد المجتمع ، وهم كالعمال والتجار وسائر اصحاب الحرف ، ليسوا سوى تعبيرات ذاتية ، يعبرون عن انفسهم بواسطة الآخرين وفي ذوات الآخرين ، وليسوا اسباباً أولى خالقة . ان المفكر نفسه لا تخلقه او تغيره افكاره ، فكيف تخلق او تغير المجتمع ، وهو لا يطيعها ، فكيف يطيعها قراؤه ؟ أليست حياة أعظم مفكر تخضع لما تخضع له حياة أغبى إنسان من خوف وهوان وتعب وحاجة وشهوة ونفاق وحقد وأنانية وأشياء أخرى كثيرة وصغيرة من الوزن نفسه .

ان افكار كل مفكر هي حتماً ضد حياته ، ضد ما يفعله ويستطيعه ويريده،

فأفكاره هي دائماً فوقه بعيداً ، بعيداً ، ولا يمكن ان تعيش معـــه في مستوى واحد . والعجيب أنه هو لا يشعر بفرق المستوى بينه وبين ما يعطيه من افكار ونظريات، مهما عظم هذا الفرق. كل مفكر يلعن النفاق والتفاهة والجبن والضعف وأخلاق السوق ، ويدعو الى الشجاعة والتحدي والارتفاع عن كل ما في الارض من منخفضات ، بينما يعيش في سلوكه وانفعالاته تحت الارض مـــع الهوام والحشرات الصغيرة ! كل مفكر يفكر كإله ويحيا كبرغوث !

*

لماذا نفكر وتتغير افكارنا ؟ نحن لا نفعل ذلك لأننا نريد أن نفكر ولا لأننا طيبون ، ولا لأن التفكير حاجة من حاجات المجتمع أو حاجات المفكر نفسه . ان الأفكار لا تخلق نفسها ولا تختار نفسها ، وهي في كل حالاتها ليست إلا أسلوباً من اساليب البكاء او الاحتجاج على النفس او على المجتمع او على الطبيعة . واذا لم توجد الحالة التي تجعلنا نبكي ونحتج فلن توجد الحالة التي تجعلنا نفكر ونغير افكارنا! انا ابكي واحتج ، إذن انا أفكر !اذا تغيرت احاسيسنا نحو الاشياء ، ونحو انفسنا تغيرت افكارنا او اصبح تغيرها احتمالاً واحتياجاً قوياً ، فتغير الأفكار هو دائمـاً علامة على شيء . واحاسيسنا تتغير حينما يشتد التناقض بين ما نريد وما نجد — اي حين يشتد التناقض بـين الشعور والوضع الموجود او بين الشعور والطبيعة الغبية . ولكن هذا التناقض دائماً موجود فلماذا لاتوجد الأفكار وتتغير دائماً ؟ان هذا هو الذي يحدث دائماً ولكنه يحدث بشكل تجمع وقفزات ، والقفزة الفكرية الكبرى هي نتيجة عمليات فكرية طويلة بطيئة. فالحالة الفكرية هي محاولة للبحث عن اسلوب توفيق بين ارادة وواقع او بين واقع وواقع آخر مناقض ، والحالة الشعورية ليست سوى اسلوب يعبر عن حـــالة تصادم بين انسان وموضوعاته ، والتصادم والتناقض يصنعان تغيرات كثيرة منها تغير التفكير نفسه. وهذا التغير يحدث حتماً تحت كل الظروف حتى الظروف المقاومة للتغيير ، الكارهة له .

والتبدلات الكبرى التي قفزت بوجود الانسان واعطته حضـــاراته القوية

لا يصح ان تؤرخ تاريخاً فكرياً ـ أي لايصح ان تؤرخ بظهور جماعات او افراد من المفكرين والكتاب الافذاذ الا على تقدير ان هؤلاء الافذاذ انما هم علامات كبيرة تشير الى الحقيقة التي هي اكبر . والتغيرات التي حدثت وتحدث الآن في كثير من البلدان المتخلفة وهي التي تحدث اليوم في آسيا وافريقيا لايمكن عزوها الى وجود مفكرين وكتاب في هذه البلدان ، ولو قام جميع من يستطيعون حمل القلم يحرمون هذه التغيرات ويشرحون اخطارها لما استطاعوا وقفها ولا الابطاء بهـا .

ان الناس يتطورون بلا افكار ولا مفكرين ، يتطورون بالاحساس والقدرة والضرورة والتراكم ، بـل انهم يتطورون ويصنعون الثورات عاصين للافكار والمفكرين . فالمفكرون في الغالب لايثورون ولا يدعون الى الثورة ، وافكارهم تنهى عن الثورة وتصرف عنها اكثر مما تفعل العكس . وكما يفعل البشر المعصية والخطأ ويخرقون القوانين والاخلاق بلا تعاليم بل خارجين على التعاليم كذلك يفعلون الثورات . فالثورة ، أية ثورة ، هي في اسلوبها معصية ولكنها قدتكون في نتيجتها شيئاً ما .

ان الثورة والتطور ليسا افكاراً بل عمليات ذاتية كعمليات الحياة والاعضاء في الجسم . انه لا توجد أفكار تدعو اعضاءنا وحياتنا الى ان تعمل ، ولا توجد كذلك أفكار تقول للناس اقتلوا او اسرقوا او خونوا او احقدوا على الناس او اكرهوا اصدقاءكم او اصنعوا الآلام لأنفسكم وللاخرين . ولكن كل ذلك يحدث بلا افكار بل يحدث ضد الافكار . ولو اجمع كل المفكرين في كل العصور على تحريم التغير والثورة لظل كل الناس يثورون ويتغيرون بالمعدل نفسه بل لربما جاء التحريم محرضاً عليها ، كما ان اجماع الدعاة والتعاليم على تحريم الكذب والغدر والمساوىء الاخرى لم يمنعها او يقلل منها .

لقد كانت الأديان والقوانين وكثير من الأفكار في جميع العصور تنهى عن كل ثورة وتغير وتعاقب عليها ، ولكن ماذا حدث ؟ لقد كانت الثورات والتغيرات الكبرى المحرمة تحدث دائماً كما تحدث الزلازل والبراكين والفيضانات وبالقانون

نفسه. ان الاشياء المنهي عنها تحدث بالاسلوب الذي تحدث به الاشياء المأمور بها، والتبرير والنهي الفكريان لا تأثير لها. فالناس يثورون ويتغيرون من داخلهم، وهم في ثورتهم وتغيرهم لا يبحثون عن الجائز والمبرر فكرياً او اعتقادياً، انهم يؤدون اعمالهم كعصاة يستجيبون لتحريض ذواتهم وطموحهم، لا كأتقياء يبحثون عن الأوامر ليطيعوها. وفي العصور القديمة لم تكن توجد افكار ثورية ومع هذا فقد كان الثوار يوجدون دائماً. والثوار هم دائماً مغامرون او خوارج كالقتلة وقطاع الطرق، ولكن الظروف هي التي تحولهم بعد انتصارهم الى ثوار او الى من يسمون ثواراً. ولا فرق بين الثورة والطموح، والفرق في تقديرنا او في الظروف الخارجية، فكل ثائر طموح، وكل طموح فيه ثورة، والذي لا يثور لاطموح فيه، والذي لاطموح فيه لا يثور. والفروق بين الثوار وغيرهم ليست فروقاً انسانية بل قتالية.

ان الاحاسيس هي اقوى تحريضاً من اعظم الاقلام التي تكتب اقوى الافكار، والذي يحس بالشيء اعظم من الذي يكتبه، والذي يضع مسماراً في مكان الحاجة اليه اعظم خلقاً من جميع الكتاب الذين يحسنون التحدث عن ذلك الاحتياج. والكتاب والمفكرون لا يريدون بما يكتبون ان يغيروا اوضاعاً فاسدة وانما يريدون ان يجدوا موضوعات دائمة يدعون الغيرة عليها ويكتبون فيها، ولا ينتظر منهم لهذا ان يرحبوا بزوال الآلام والاخطاء والعداوات من العالم لان زوالها يفوت عليهم عملهم. ان احتياج الكاتب الى الفساد والشر ليكتب عنهما كاحتياج الطبيب الى المرض في المجتمع ليعالجه!

*

هل يمكن ان تتغير حياة الناس من غير كتاب؟ الجواب: نعم فالحياة كلها تتغير بقوانينها. وقد ظلت حياة الانسان تتطور حتى بلغت عهدها الذي يصنع الكتاب.

اذا احصينا محصول البشر من الكتاب وجدنا فريقين: فريقاً يناصر الرجعية

ويحارب التغير ويخافه ، وفريقاً يبشر بعهد جديد . والمفروض في الكاتب ، اي كاتب ، حتى الكاتب التقدمي المناضل ان يدافع عن مذهب او نظرية او نظام او دين معين ، ومعنى هذا ان يكون ضد المذاهب والنظريات والنظم والاديان الاخرى التي قد تكون اكثر تقدمية . اذن فالكتاب حتى اشدهم تقدماً وتحرراً لابد ان يصبحوا على نحو ما قيوداً ادبية للمجتمعات لانهم يتحولون الى مذاهب ونظريات ومقاطع تاريخية يكون الخروج عليها حكماً عليهم بالتخلف ومعاناة عقلية ! ان الكتاب دائماً اما رجعيون او جاهلون او منافقون ، واما تقدميون يعدون ثائرين ومتمردين . والنوع الاول هو في كل مجتمع الظاهرة القوية المعبرة او على الاقل الظاهرة الغالبة . واما النوع الثاني فمع انه معدود تقدمياً ومخلصاً فانه محتاج الى ان ينافق ويكذب ويضعف في احيان كثيرة ، وهو ان لم ينافق الحكام والاقوياء فانه ينافق الجماهير والتاريخ . ولكن البشر مع هذا يظلون يسيرون في طريق التقدم المفتوح متخطين لانبيائهم ومعلميهم ولكل النظريات والمذاهب والكتاب ! ولو كان الكتاب هم الذين يؤثرون فيهم لكان المفروض ان يكون تأثير دعاة الوقوف أكثر من تأثير دعاة التقدم ! انهم يستجيبون للدعوات الحافزة لانهم في الحقيقة لا يستجيبون الا لحوافز حياتهم .

واذا كان الكتاب التقدميون يعطون المجتمعات فان الكتاب الرجعيين يأخذون منها ـ فهل الكتاب ـ اذا عدل خيارهم بشرارهم ـ يعطون أم يأخذون هل هم خير أم شر ؟

ونجد هؤلاء الكتاب يختلفون في اتجاهاتهم الفكرية لاختلاف المجتمعات التي يمارسون علاقاتهم فيها فالكتاب في المجتمعات المتأخرة كتاب متأخرون ، وفي المجتمعات المتطورة متطورون ، وهذا في الاكثر لا دائماً . اذن الكتاب ادوات تبرير لا تغيير ، انهم في الاكثر قوات دفاع عما هو موجود لا قوات هجوم ، هم في الغالب يحرسون النظام الذي يعيشون تحته ـ يحرسون كل نظام ونقيضه ، يحرسون هذا النظام ، فاذا وجدوا تحت نظام مناقض له حرسوه ايضاً بنفس الحماس والجرأة والتصميم .

اذن كأن الكتاب تابعون وكأنهم لا يعطون ارضهم الا ما يأخذونه منها . واذن فالمجتمعات تتغير من غير كتاب ، وهي التي تخلق صفات هؤلاء الكتاب ! ومن المحتمل جداً ان يكون تطور الانسان اسرع واقوى لولا المعلمون والكتاب الذين كان اكثرهم ضالين وكاذبين يعلمون النـــاس الكذب والخوف من التطور ويستهلكون حوافز الحياة في مقاومة الحياة ، ويصرفون كل جهودهم في تحويل طاقات الانسانية الى حرائق كبرى تشتعل في غابات التاريخ .

وفي طبيعة الكاتب الرديء ان يقنع اكثر من الكاتب الجيد ، لان الكاتب الرديء يدعونا الى البقاء في امـــا كنا اما الكاتب الجيد فيدعونا الى الهجرة . الاول يقول لنا : كونوا كما كنتم ، والثاني يقول : كونوا كما لم تكونوا ـ كـونوا غير ما كنتم ، كونوا اكبر واعظم واصعب . ومع ان الناس حتماً يتغيرون فانهم يرحبون في الاكثر بالدعاة الذين يباركون الابقاء على مـا هو موجود من العقائد والنظم والتقاليد . وهـذا لان تفكير الانسان وارادته اكثر رجعية واقل شجاعة من احتمالات حياته . لقد كان تطور الانسان النهائي يجيء دائمـاً متفوقاً على كل تقديراته الفكرية وامانيه وعلى كل ما كان يريده لنفسه لان الحياة تعمل بالقدرة لا بالارادة ولا بالمعرفة ـ كالطبيعة كلها .

*

وقانون التراكم هو الذي يجعل العقائد والمذاهب والنظم والأشياء في تغـــير دائم .وبهذا القانون أمكن ان يفسر الحق والخير والاستقامة بأنها مراحل للحركة الأبدية، وتفسر عمليـات الكون الخالقة بأنها هي التعبيرات القوية عن القانون المذكور . يأخذ الشيء بقانون الحركة الدائمة يتجمع ، فإذا بلغ مستواه كره نفسه وظهرت تناقضاته وعجز عن البقاء . والحركة الدائمة توجـــد حالات متعاقبة دائمة . وأي مذهب او نظام او تفكير او اعتقاد او وضع جديـد ، ما هو إلا تعاقب حركات ــ وكذلك كراهته والتخلي عنه حركات متعاقبة ، وكذلك كل خلق جديد .

وليس البحث عن الأصلح أو عن الحق هو الذي يجعل النـــاس يبحثون عن

التغيير - بل البحث عنها لا يعني إلا التعبير الأعلى عن قانون الحركة الدائمة. اذ اما انتصر مذهب أو نظام بأسلوب التجمع وهزم المذاهب والنظم الاخرى بهذا الاسلوب نفسه خلقت معه احتياجات وظروف اخرى جديدة. ومحتوم ان يكون حينئذ عاجزاً عن التلاؤم مع كل هذه الاحتياجات والظروف، بل سيكون على نحو ما متناقضاً معها. وهذا يعني بالضرورة فقده لمثاليته واصطدامه بنفسه، ومجرد وجود الشيء يؤدي الى ظهور عيوب فيه مع طول الزمن. ان كل موجود لا بد ان يتناقض مع فكرته ومثله الأعلى ومع وجوده، بل لا بد ان يجيء متناقضاً مع الموجودات الاخرى إذ كل شيء يحمل ذاته ونقيضها. والتراكم - تراكم الشعور والافكار وتراكم الوجود يتحول الى تناقض محتوم مع المذاهب الموجودة القائمة المنتصرة، ان الاشياء تستهلك نفسها. وبالقانون الذي نغير به أزياءنا وصناعاتنا وأثاث منازلنا، نغير مذاهبنا وعقائدنا ونظمنا الاجتماعية.

وكما ان اية خطوة لا تكون هي الخطوة التي قبلها ولا التي بعدها، فكذلك المذهب او النظام بالنسبة لما قبله ولما بعده. واذا كانت الحركة معناها التغير فإن الحياة معناها المذاهب والفلسفات المتعاقبة التي لا تبحث عن هدف ولا عن نهاية ولا عن خير او شر. فكل تغير في الوجود هو انبثاق الحركة الدائمة لا انبثاق البحث عن الصواب او الخير.

والشيء الذي يبدو ولا عيوب فيه سيخلق لنفسه بقانون التراكم عيوباً تجعله محكوماً عليه بالتغير والاعدام، وافضل المذاهب والاوضاع سوف يحولها قانون التراكم وقانون تناقض الشيء مع نفسه الى أفسد المذاهب والنظم. والوجود نفسه خطر وألم وتناقض، فاذا وجد الشيء فقد وقع في الخطر والألم والتناقض، لأن وجود الشيء معناه التناقض بين ما ينبغي وما يمكن. ولهذا فان جميع الرجال والمذاهب والنظم والعهود تقع في الورطة وتفقد مثاليتها وتفوقها اذا جربت وطالت تجربتها؟

ان الوجود عدو دائم للكمال - الموجود عدو نفسه، فالشيء الكامل هو

الذي يظل فكرة ولا يتحول وجوداً ، ولهذا كانت الآلهة والأوهام الرائعة دائماً فكراً لا وجوداً ! وقد ظل المؤمنون ينأون بأشيائهم المنزهة عن ان يقيدوها بالوجود ، وكأنهم قد أدركوا ان الوجود خطر عليها وعليهم . وأي مذهب أو نظام أو انسان أعظم ما فيه هو مستقبله الذي لم يوجد أو ماضيه الذي ذهب فأصبح غير موجود – هذا ما يدعيه ويعتقده فيه أنصاره .

وقد احتاج البشر في كل عهودهم الى ان يؤمنوا بأشياء غائبة ، بأشياء فكرية لأنهم محتاجون الى الايمان ، والايمان لا يكون إلا بأشياء كاملة منزهة ، والاشياء الموجودة لا يمكن ان تكون منزهة ولا كاملة . فعجز الموجود هو الذي أوحى الينا بالايمان بغير الموجود ! ومن اجل هذا فسوف يظل الانسان دائماً محتاجاً الى صور شعرية غيبية تهيج خياله وأمانيه وتملؤها بالأشباح !

*

وقانون التراكم يفسر لنا ظاهرة كبيرة خادعة .

ان التغيرات البارزة التي تحدث وكأنها مفاجأة أو معجزة عندما يحكم عهد أو حزب أو رجل جديد ، ليست سوى نهاية متراكمة معينة . فاذا جاء دكتاتور وأحدث أحداثاً لامعة – وهذا يقع كثيراً – فالتفسير لهذه الظاهرة ان هذا الدكتاتور قد جاء تعبيراً عن حالة تراكمية حادة، لقد استغل هذه الحالة التراكمية بأسلوب صارخ مثير . لم يصنع اكثر من إشعال الفتيل في الوقود المتجمع !

وهذا التراكم لا بد ان يعبّر عن نفسه ، سواء أجاء الدكتاتور أم جاء غيره . وعلى طول التاريخ جاءت التعبيرات في كل عهد وكل نظام . ولهذا فان التغيرات في أي مجتمع تجيء متفاوتة في قوتها وعمقها ، وأحياناً تجيء بشكل قفزات . وكلما تكامل المجتمع كان أقدر على التغير . وقد تتجمع أشواطه وتحفزاته وأسباب انبعاثه داخله لتنطلق كقذيفة .

ولا يمكن أبداً تفسير التغيرات الكبيرة التي صاغت الحضارة والتاريخ بأنها

عمليات تفجير من الخارج ! ليست قوة الدكتاتور وتحركاته المثيرة إلا عمليـــة استغلال لحالة موجودة. ولهذا فانه لا يمكن ان يكون أكبر أو أفضل من عصره ومن ظروفه . فاذا جاء في عصر وظروف متخلفة فلن يكون إلا متخلفاً ، وهو يكون عظيماً ، أو يبدو عظيماً ، حينما تصنعه ظروفه وعصره كذلـك . وقد يكون مجيء الدكتاتور تعبيراً رديئاً عن حالة التراكم !

★

منطق الكون ومنطق الإنسان

منطق الانسان هو محاولة تلاؤم ، انه يجيء الى هذا الكون متروكاً الى نفسه بلا اية رعاية . وفي صميم تكوينه احتياجات وارادات ضـــاجة معبرة ، وبينه وبين عالمه الذي هو مجال احتياجاته وارادته تناقضات اليمة حـادة . فيذهب يحاول التلاؤم مع الاشياء المحيطة به والتعامل معها ، وبهذا يكون مفروضاً عليه ان يدرس ويفهم اخلاق وسلوك هـذه الاشياء ، اي اخلاق وسلوك الكون ليستطيع التعـامل معه . وبالتتابع المستمر يتكون له منطق ويتكامل هـذا المنطق .

فمنطق الانسان اذن محاولته فهم الكون ليتلاءم معه . ومعنى هـذا انه لا يوجد منطق لذاته او في ذاته ولا منطق مستقل - اي ان الانسان ليس له منطق كانسان وانما له منطق لانه كائن متلائم ! ومعنى هذا أيضاً انه لو كان الكون محكوماً بقوانين اخرى او لو كان الانسان يعيش في عالم آخر يختلف عن هـذا العالم لاختلف منطق الانسان ، وكذلـــك لو وجدت قوانين كونية مناقضة للقوانين الموجودة لبدت ايضاً معقولة !

اما منطق الكون فهو كينونته كما هو ، ان حركـــة الشيء هي منطقه . الزلزال والفيضان والتصادم والوباء والقحط والموت - كل ذلك وامثاله اسلوب

مثالي من اساليب المنطق الكوني ، كالمطر والصحة والحيـــاة وشروق الشمس وابتسام الازهار . ان الكون بحقائقه الكبرى يشبه كتاباً ضخماً اليماً اشترك في تأليفه كل الابالسة وكل الملائكة ووضعوا فيه جميع القوانين الطيبة والشريرة، وهي قوانين متحددة في ذاتها غير متحددة في تفسيرها بل ليس لها تفسير ، هي موجودة فقط ، وهي تفهم ولكنها لا تبرر ، تفهم لانها موجودة لا لانها معقولة. والبشر يبررون الكون والاشياء لتعلق ارادتهم بها ، وارادتهم تتعلق بهـا لأنها ولأنهم موجودون ، ولكن اي مبرر لوجودها او وجودهم ؟ والفرق بين الكون والكتاب هو الفرق بين الموجود والموضوع ، وهو الفرق بين منطق الكون ومنطق الانسان .

ان كل شيء في هذا الوجود حتى هذ القلم والحبر والورق خاضع لوحـــدة قانونية تنتظم كل اجزائه كما ينتظم القانون العلمي والرياضي اجزاء القانون كلهـا ـ اي كما ينتظم نفسه !

وإذا كان الشيء يوجد ويبقى ويزول بقانون ، أمكن التحكم في ذلـك الشيء باتباع قوانينه والتحكم فيها ـ فالذي يوجد بقانون يمكن امتـلاكه والتحكم فيه بقانون ايضاً . وتلك القوانين يمكن ايجادها صناعياً ما دامت مستقرة في الطبيعة الموجودة ، وما دامت توجد هي بتحركات وعمليات ذاتية ، وغير ممكن ان توجد القوانين الموجدة للشيء ثم لا يوجد ذلك الشيء .

وبنفس هذا الاسلوب القانوني سيكون ممكناً جداً معرفة القوانين التي بهـــا توجد الحياة ـ حياة الحيوان والنبات ، ومعرفة أدق الأسرار والتفاعلات التي بها يتوالد الحي عن الميت ، وتكوين الكائن الحي من نواة الحيـاة الموجودة ، ثم تقليد تلك القوانين ـ وبهذا الاسلوب نفسه ستحل مشكلة الموت والشيخوخـة وجميع المشكلات العظمى كالعروج الى الكون الأعلى والسيطرة عليه وعلى كل طاقاته وكل ما تتطلع اليه حاجات الانسان وطموحه . ولا يستطاع إنكار شيء من هذه إلا بإنكار القانونية الذاتية في هذا الوجود ، وهذا لا يمكن لأن القانونية العلمية على اختلافها إنما اخذت من الوجود نفسه ، فالقوانين العلمية ليست سوى

قوانين كونية قد صيغت كلمات . ومع هذا فان القوانين الكونية ليست قوانين علمية ، وليست كذلك قوانين أدبية . فالعلم كله وجميع أنواع المعرفة مأخوذة من الكون ولكن الكون ليس مأخوذاً عن شيء ، إذ نحن على مقاس الكون والكون ليس على أي مقاس . ومحتوم وجود أول ليس له أول، والأول بلا أول ليس مأخوذاً عن شيء ولا يمكن ان يكون علمياً او اخلاقياً . وإذا كانت قانونية الكون حقيقة وكان لمعرفة هذه الحقيقة طريق ، فان هذا الطريق وهذه الحقيقة لن يكونا فوق سلطان العقل . فمنطق الانسان يفسر منطق الكون ويحكمه .

ولا فرق بين صنع هذا القلم وصنع كوكب يطلق ليسير بين المجموعات الكونية الهائلة حيث ان كلاً منها خاضع لقوانين محتومة . والفرق بين العمليتين فرق في المقدار لا في الطبيعة . وليست القنبلة الإيدروجينية إلا شمساً صغيرة ، وليست الشمس إلا قنبلة إيدروجينية كبيرة . ومغزى الوحدة القانونية مغزى كبير ، فمعنى هذه الوحدة ان معرفة قوانين احدى وحدات هذا الكون والسيطرة عليها تعطي الفكرة نفسها تقريباً عن سائر الوحدات الاخرى المماثلة. وهذا يعني ان سيطرة العلم الانساني على جزء من العالم مشترك الاجزاء في الطبيعة العامة تنتهي به الى السيطرة الكبرى على جميع الأجزاء المتحدة القوانين، وذلك هو ما انتهت اليه التجربة العلمية . فان الخطوة العلمية الواحدة تختصر الطريق كله الى وحدات المعارف المجهولة . ومعرفتنا لطبيعة كوكبنا الأرضي هي معرفة لطبيعة الكواكب الأخرى المماثلة ، كما ان دراسة قلب أي انسان طبيعي هي دراسة لجميع قلوب البشر المماثلين له في الطبيعة . ولهذا فان العلوم كلما تقدمت ازدادت طاقتها الانتاجية من وحدات المعرفة . وصنع القنبلة الذرية أدى الى صنع القنبلة الإيدروجينية . وكم هي المخترعات والكشوف التي لم يكن منها بد قبل القدرة على انتاج القنبلة الذرية . وكيف لو كان لكل قطعة في الكون قانون خاص ، ولكل قلب طبيعة ومرض وعلاج خاص !

والفكر الانساني بهذا لا يتوقف ولا يفرغ من عملياته ، بل يظل يتحرك في

صميم هذا الكون في رحلة دائمة ، لأن وظيفة الفكر هي تتبع القوانين الكونية وتصييرها قوانين علمية ومقدمات لنتائج معينة . وهل يأتي عليه وقت يفرغ فيه من معرفة هذه القوانين ومن اخضاعها ؟ ولا توجد منطقة من مناطق الكون محرمة على العقل لأنه لا توجد منطقة من هذا الوجود لا تحكمها القوانين التي هي من تصنيف العقل ومن ابتكاره . ان أي شيء لا بد ان يكون موضوعاً من موضوعات العقل ! وكما ان للعين ان تبصر وللأذن ان تسمع كل ما يمكن ان يرى وان يسمع بلا منع ولا تفريق بين نوع ونوع ، فان للفكر كذلك ان يعمل في كل شيء بكل قدرته وطبيعته بلا حظر ولا تحديد . وليس من الاشياء ما هو فوق العقل أو ما هو خارج على سلطانه ، إذ لا فرق بين شيء وشيء من مكان الفكر منها ، فهو إما صالح لكل شيء أو ليس صالحاً لشيء . وطبيعة الفكر من حيث هو فكر تنفي التحديد لأن وظيفة العقل لا تقبل التحدد ، والحد لا يوضع إلا للأمر المحدد ، اما المطلق في وجوده او في عمله فما من حد يفترض له إلا كان لغواً ومحالاً. والعقل مثل سائر الوجدانات الانسانية الكبرى لا يمكن تحديدها، كالحب والبغض والخيال والشعور وأشباه ذلك . وعمل العقل ليس جريمة او غير جريمة ، ان عمله كعمل القلب ، لا يوصف بأنه صواب ولا بأنه خطأ .

وكبار المفكرين المؤمنين في الدنيا ، يرون ان الفكرة التي يجدونها مبثوثة في هذا الوجود ، هي اعظم البراهين ، او هي البرهان الوحيد الدال على وجود الخالق المفكر المدبر لخلقه بالفكر والمنطق الأزلي ، وهم يرون أن الكون إنما وجد ونظم وبقي بالفكرة، وانه بها ايضاً يبقى وينظم ويغير ويعدل أبد الآباد، ويعتقدون بهذا ان الفكرة سابقة الوجود لان الوجود قد كان بها ولم تكن هي به . واذا كان هذا حقاً اصبح من المسلم ان الفكر اذن هو ابو الوجود — عنه انبثق وبه قام ، فهو المهيمن عليه الفاعل له. فلا شيء اذن فوقه حتى ولا مبدأ الاشياء، ليس في طبيعة الفكر ان يهاب اية مشكلة او ان تحرم عليه اية منطقة من مناطق الكون او الحياة . ومعنى هذا ايضاً ان الفكر الانساني يستطيع ان يعلم المعاني والافكار المستودعة اجزاء العالم والقوانين التي طبعته والتي انطبعت هي على

صفحاته لانه هو الذي علم بوجودها فحكم بهـا. ولا يوجد مؤمن واحد يستطيع ان ينفي ان الله انما خلق العالم بالفكر - بالفكر الذي عمله التصادم بالاشياء !

ولكن غير المؤمنين ينكرون الفكرة الكونية ويدعون ان ما نشهده في آحاد الطبيعة مما نزعمه فكرة مقصودة ليس كذلك، ولكن المسألة حدثت على النحو الآتي:

وجد الكون تحت ظروفه الخاصة الاضطرارية التي لا قصد فيها ولا عقل، ثم وجدنا نحن البشر كذلك، لأننا اجزاء من الوجود تجمعت على صور معينة تحت ظروف معينة اضطرارية ايضاً لا خيار فيها ولا تدبير، ثم ادركنا متأخرين وبعد عناء طويل ان كل شيء مسوق بقوانين ذاتية لا حيلة فيها وان هذه القوانين ثابتة في عملياتها. وكان لا بـد لنا نحن معشر الكائنات الحية من ان نتكيف تكيفاً ملائماً مع الوجود المحيط بنا-نتكيف بافكارنا وسلوكنا ومشاعرنا لنستطيع الفهم والحياة والاستقرار - فهم الطبيعة والحياة معهـا والاستقرار فيها. فذهبنا - وهذا ضروري لا مهرب منه - نضع قوانين علمية ومنطقية ورياضية وفلسفية. وكان مرجعنا في وضع هـذه القوانين هو الكون نفسه، فكان كل مـا صنعناه ان اخـذنا القوانين الموضوعة فيه وصيرناهـا قوانين انسانية مطلقة. فهي اذن ليست سابقة له ولا موضوعة خارجـاً عنه، وليست عامة حاكمة عليه وعلى ما ليس موجوداً، وهي لا تدرك مستقلة عنه وانما تدرك به، وهي كذلك ليست واضعة له بل موضوعة فيه ومأخوذة منه. ونحن حين نجد انفسنا متوافقين مع الطبيعة الكبرى ونجد اننا مثلاً نستفيد من الشمس ومـن المياه والمزروعات وغيرها فنذهب ندعي ان هذه انما وجدت لغايات محدودة مقدماً، وان من هذه الغايات ايجاد حياتنا وخدمتنا والابقاء علينا وتوفير المزيد من احتياجاتنا لما لنا من قيمة ادبية علم بها الإله الاعظم فراح يفعل من اجلنا مخلوقاته: نعم نحن حين نذهب ندعي هذه الدعاوى السارة لنا نشبه ذباباً وجد في أحد المحيطات سفينة حربية ضخمة فحط عليها ووجد فيها طعاماً شهياً فوقـع عليه، ووجد وجه حسناء نائمة فقبّـله، وكانت السفينة مسافرة مثلاً الى القارة الامريكية فنزلت به هناك فوجد اشياء سارة كثيرة في الدنيا الجديدة، فراح يزعم مزهواً ان السفينة

وكل ما وجد فيها، وان امريكا وكل ما عليها من البشر والحيوان والنبات والاشياء الاخرى الجميلة حتى الدولار ذو القيمة والسمعة العالميتين انما وجدت من اجله وفي خدمته ! فالانسان ذباب وجد نفسه فوق سفينة فذهب يغني لنفسه هذه الاغاني!

ان المسألة لا تعدو ان تكون وجوداً ملائماً فقط قام عليه زعم تاريخي عالمي كبير كهذا الزعم . والملائمة وحدها ضعيفة الدلالة .

وقد تجيء هرة فترى هذا الكرسي فتمتد فوقه فتجده مريحاً لها فتزعم — لو كانت تستطيع الزعم مثلنا — ان الكرسي انما صنع ووضع من اجلها ! وضعه وصنعه لها الإله او البشر او الشمس او القمر ! وقد يسقط احد المنازل فيتحول الى ركام وشقوق وحفر فتأوي اليه الحشرات وتجد فيه ما يلائمها وتذهب تظن انه قد سقط ليكون لها بيتاً شعبياً !

كما ان جرثومة مرضية قد تجد جسماً ضعيفاً ملائماً لها فتذهب تزعم — لو كان ذلك ممكناً — ان هذا الانسان العليل انما خلق ليكون لها قوتاً ومسكناً ! ومن يدري ؟ فلعل الحشرات تزعم لنفسها ان البشر انما وجدوا من اجلها لان وجودهم ملائم لها ! ولعل طنينها الدائم تعبير غير بذيء عن هذا الزعم ! ولعل لها انبياء وقديسين يبشرونها بهذه المزية ويفسرونها لها !

ثم يقول هؤلاء :

ان الملاءمة لو كانت ذات دلالة على القصد لكان فقدها او ضعفها ذا دلالة ايضاً على فقد هذا القصد ، فالملاءمة سلاح يقتل حامله في هذه القضية، لان اكثر ما في هذا الوجود غير ملائم لنا . ولا يوجد شيء فيه يلائمنا ملاءمة مطلقة ، والذي يلائمنا ويلائم مطالبنا منه قليل . وهذه الملاءمة لاتكون ابداً تامة وهي محتاجة دائماً الى تدخلنا وعملنا ، ثم ان الذي يلائمنا نحن لايلائم سوانا . ومن اجل هذا كان عمل الانسان كله ودائماً نضالاً ضد الطبيعة وضد آلهتها الرحماء الخيرين !ومع هذا النضال القاسي الطويل — نضال الانسان ضد الطبيعة وضد الآلهة — لم يزل الانسان والاحياء جميعاً عاجزين أمام ما تأتيهم به الطبيعة مما لا يعد ملائماً لهم، بل مما يعد ضاراً بهم ! والمطر الذي يعد من اكبر النعم ومن اكبر ما يلائم الاحياء

ويلائم احتياجاتهم نجده ينزل في مكان وهو غير ملائم له ولا لمن فيه ، بل وينزل في أماكن لا حياة فيها ، بينما يمتنع على بلاد لا حياة لها بدونه ! ثم ان هذه النعمة العظمى التي هي المطر لا تجيء أبداً على قدر الحاجة اليها من حيث المقدار والاوان ، بل هي تنزل بطريقتها الخاصة العنيفة ثم لا تبالي بمن يستفيد ولا بمن يصاب بالاضرار . وهكذا كل ما في هذه الحياة !

ان ما في الوجود يشبه ان تقذف طائرة بمقادير من العملة الصعبة ومن الاغذية والملابس المعدة بدون قصد في اسلوب القذف ، فيحدث حينئذ ان يسقط بعض هذا على انسان او حيوان فيقتله ، فيقال ان الالقاء بهذه الاشياء من الطائرة سفاهة وجريمة — كما يصادف ان يسقط بعضه امام انسان آخر او في فناء منزله مثلاً فينتفع به فيقال حينئذ : لا محالة ان الالقاء بهذه الاشياء على النحو المذكور حكمة مدبرة ! وبهذه الطريقة ذات الاعتبارات الخاصة المختلفة تؤول احداث الكون تأويلاً انسانياً أو تأويلاً غيبياً . ولكن هذا الحكم القائم على الاعتبار الخاص غير سليم .

واظلم واجهل نظام اجتماعي في الدنيا قد يلائم فريقاً من الناس فيرونه بنظرهم الخاص اي بمصلحتهم الخاصة شيئاً رائعاً يعبر عن اسمى ما في قلب الخالق الرحيم وعقله من حكمة ورحمة وخير ، والحكم الظالم جداً يجد رجالاً ينتفعون به ويدافعون عنه باسم الله واسم الانسانية واسم الخير الاعظم ! وفي مثل هذا قال الشاعر القديم : مصائب قوم عند قوم فوائد . وما من شيء الا وهو ضارب بجوانبه الى كل الجهات ، وكل جانب منه قد يرى بنظر خاص يخالف نظر الانظار الاخرى الى الجوانب الاخرى ، وما من شيء قد كان الا ويقال له : ليته كان كذا او كذا .

ولو كان الكون فكرة سابقة لما أمكن ان يكون كما كان ولا ان نكون نحن كما كنا ، ولماذا تتحدد حينئذ الفكرة الكونية المطلقة بهذه الصورة التي قد كانت دون كل الصور الاخرى المحتملة المتساوية في قانون الامكان ؟ اما لانها لا تستطيع او لانها لا تريد . ان الفكرة هي صورة ما كان لا مصورته ، والتلاؤم بين موجود

وموجود مفترض دائماً ، ومجرد الوجود قد يكون تفسيراً للتلاؤم بين شيئين ، فبين الموجودات دائماً صفات مشتركة بدون افتراض الفكرة السابقة أو الخالقة . فالتلاؤم ليس شيئاً غير مفترض .

والقول بالفكرة السابقة طور انساني لا قانون كوني، فالكون ليس فيه افكار ولاتفسيرات فكرية وانما فيه حركة، والحركة لا تفسّر بغير الحركة. واسلوب تفسير الماء بعد الجهد بالماء هو الاسلوب الصحيح لتفسير حركة الكون!

اننا نأخذ منطقنا من الكون ولكن الكون لا يأخذ منطقه من شيء لانه بلا منطق ! ان منطقه هو وجوده ، ليس لاي شيء تفسير غير مجرد وجوده المادي . فصفات الاشياء- صفاتها المادية-هي فكرتها وتفسيرها - حتى الاخلاق ما هي الإ صفات مادية لوجود مادي . والتفكير المنفصل عن الوجود او السابق للوجود ليس غير موجود فقط بل مستحيل وجوده ! فنحن لا نستطيع - الى حد الاستحالة - ان نفكر او ان نضع قوانين منطقية من غير وجود مادي نأخذ منه منطقنا وافكارنا ونعكسها عليه ونحسبها به ، فالمنطق والتفكير هما حركة المادة وحساب هذه الحركة ، بل لا يوجد منطق ولا تفكير وانما توجد مادة لها خصائص . واحساسنا بهذه الخصائص المادية هو ما نسميه منطقاً او فكرة او قصداً مدبراً . والانسان قد وجد بعد وجود المادة ، والمادة كما هو المفروض لها خصائص ، ومحتوم ان يوجد تناسب او توافق بين هذه الخصائص ، او بينها وبين الانسان ومشاعره وضروراته . وقد افترض هذا التناسب منطقاً او فكرة او تدبيراً في الكون . ولكن التوافق في الطبيعة ضرورة لا فكرة ! والذين يفترضون كل تناسب فكرة يحتاجون الى ان يفترضوا اولاً ان كل توافق هو ضد القانون الطبيعي ، ولكن لكي يكون هذا الافتراض صحيحاً او محتملة صحته يجب ان نجد كونا ليس فيه اي توافق حتى يمكن ان نزعم ان التوافق حيثما وجد فهو غير طبيعي او خارج على القوانين الطبيعية ، اذ ان الحكم على اي شيء يجب ان يكون تفسيراً لصفات ذلك الشيء . وافتراض ان عدم التوافق هو القانون الكوني افتراض ليس مأخوذاً من الكون نفسه . والكون وحدة

تتكاثر بالتوالد والانقسام ، والمتوالد لا بد ان يكون متوافقاً ، والشيء لا يلد الا ما فيه صفاته او بعض صفاته. فالوجود متوافق احيانا لان بعضه متولد عن بعضه.

والتوافق وعدمه حكم لا وجود ، والطبيعة وجود لا حكم . والفكرة في تصرف الانسان وتفسيره لا يعنى بها الا تحقيق تلاؤم بين وجودين على ما سبق . وافتراض وجود فكرة خارج المادة كافتراض وجود تمثال خارج المادة .

انه لا الانسان ولا الكون يحيا او يعمل او ينتظم بالفكرة او بالمنطق بل بالحركة .

والحركة لا تكون ناتجة عن غير حركة ، انها هي المعنى الكبير والبسيط للوجود .

وقد ظل الفكر الانساني منذ وجد يسأل عن سبب الحركة من اين توجد ، ومن الذي يوجدها ! وكان قد افترض ان السكون هو الصفة الاولى للكون ، ولم يكن قد ادرك ان الوجود لا يكون الا حركة ، وان الحركة لو كانت تحتاج الى سبب يوجدها لكان هذا السبب حركة ايضاً .

واذا سألنا : كيف تحدث الحركة نفسها كنا كمن يسأل : كيف يكون الشيء نفسه ! وقد سألوا : من اين تجيء الحركة ، ولم يسألوا : من اين يجيء السكون .

ان المنطق يعرف بالحقيقة ولكن الحقيقة لا تعرف بالمنطق – اي ان الوجود هو الذي يضع قوانين المنطق وليس المنطق هو الذي يضع قوانين الوجود .

فالحكم على الكون وعلى الحركة يجب ان يكون مأخوذاً من نفس الكون ونفس الحركة . والخطأ الكبير محاولة تفسير الكون بمنطق الانسان لا بمنطق الكون ، ومنطق الانسان هو منطق الارادة كما ينبغي ، اما منطق الكون فهو منطق الشيء كما هو .

والمطلق لا يستطيع ان يعمل شيئاً لان العمل تحديد، وغير المتحدد لا يكون متحدداً . فالقدرة المطلقة ، وكذا الارادة والعلم المطلقان ، لا يمكن ان تصبح عملاً ولا شيئاً .

القوى الفاعلة هي القوى المتحددة! ان قدرة الانسان وارادته وفكرته — لو كانت مطلقة — لما امكن ان تبدع عملاً ما ! نحن نفعل لاننا متحددون — متحددون في قدرتنا وتفكيرنا وعواطفنا ! والمطلق ليس موجوداً — انه وهم . والموجودات لا تكون مطلقة ، فالوجود عمل، والعمل تحديد .

والفكرة السابقة فكرة مطلقة ، لهذا لا يمكن ان تحدث شيئاً ولا ان تتحول الى حركة . والوجود السابق هو الذي يجعل الفكرة متحددة — اي يجعلها تخطيطاً ماديا .

ولو وجدت فكرة سابقة على الكون لما كان ممكناً ان توجد الكون ، فالفكرة السابقة — لو وجدت — لا يمكن ان تتحول الى صورة مادية ، اذ لماذا تتحول ، وعلى اية صورة تكون في تحولها ولا صورة سابقة ؟

*

ليس شيء فوق العقل — كل موجود محكوم عليه بالنقد والتهديم ، والمعدوم هو وحده الذي يرتفع فوق العقل والخطر والاتهام. ان التفكير هو انعكاس الكون على الانسان وعلى مشاعره واحتياجاته . والفكر بطبيعته لا يستطيع ان يقف موقفاً سلبياً من الاشياء، لا بد ان يحاول فهمها وتفسيرها وتأييدها او معارضتها، والشيء الذي نشعر نحوه لا بد ان نفكر نحوه . والموقف الفكري لا يمكن ان يفرض من خارج الفكر والا كان تدخلاً ظالماً .

الكون يفرض علينا ان نفكر — لا خيار لنا في ان نفكر وفي الا نفكر — انه يقف في طريقنا ويصدمنا ويعرض نفسه علينا ، اذن لا بد ان نفكر فيه . وفكرنا لا يجد قيوداً من داخله ولا من طبيعة الكون تحدد تصرفاته او موضوعاته . الفكرة حركة ولا شيء لا يتحرك في هذا الكون حتى ولو اردنا ذلك !

في التاريخ الانساني كله خطوتان صاغتاه صياغة خالقة .

الاولى حينما قام الاغريق يتسلقون الاسوار العالية ليروا الافق البعيد .

والثانية بدأت بالعصر الحديث .

وقد فقد الفكر تاجه زمناً طويلاً بعـــد عصر الاغريق الذي وضع الفكر الانساني كله في تربته المبدعة . وقد استرد التاج السليب في هذا العصر الذي كأنما تصوغه الآلهة . ان هذا العصر هو التفسير الكبير الضخم لمعنى الالوهية - تلك الالوهية التي ظل الانسان يتحدث عنها بكل لغاته ويشعر بها في كل احاسيسه ورغباته دون ان يجد معناها حتى وجده في حضارته التي تملؤه اليوم قوة وخوفاً، وسعادة وألماً ، كمعنى الإله تماماً . لقد كانت عقائد الانسان الغيبية تعبيراً دائماً عما يريد ان يكون وعما يستطيع ان يكون على نحو ما، فصوره الذهنية عن الآلهة وعن الغيب وعما وراء ذلك كانت تعبر عن مستقبله وعن حضارته المحتومة التي يستطيع ان يصنعها وان يعيشها في احتمالاته التاريخية الكبرى. والآلهة والعقائد والمثل هي حصيلة اهتمام الانسان بنفسه ومحاولته التعبير عن رغباتها وعن طاقاتها الانفعالية والتصورية ، فالايمان بحث عن الرغبة لا عن الاستقامة . والفرق بين من يعبد الله ومن يتبع الشيطان فرق في التعبير عن الاستجابة للذات لا عن الاستجابة للحقيقة . والطاقة النفسية هي التي تتحول الى آلهـــة وشياطين والى معابد وملاهٍ والى غناء وصلوات . والمبادىء هي التعبير البلاغي عن الاهواء الخاصة . وجميع المجتمعات تحتاج الى ان تبتدع لنفسها معوقات فكرية تريحهـا من متاعب واخطار السفر الفكري الدائم ، وكل مجتمع يختار هـذه المعوقات متناسبة مع ظروفه واستعداداته . فالقيود الفكرية ضرورة لكل مجتمع - ضرورة لا فضيلة .

والمجتمع الذي ورثناه والذي نعيش فيه جاءت معوقاته الفكرية خليطاً قويا متناسباً مع الظروف التي اوحت به وصاغته .

فالعقل ليس اهلاً للثقة لان ثمة قوى اخرى عديدة فوقه هي اقوى واقـدم واصدق واخلد منـــه . تلك هي الخالق ، وهي الدين ، وهي السلف الصالح باخلاقه وتعاليمه وعقائده وسلوكه، وهي ايضاً التاريخ القومي وتقاليده ومزاياه الباهرة . ثم هو ليس اهلاً للثقة ايضاً لانه يحاول ان يتدخل فيما ليس من شؤونه وان يحكم على اشياء لا يستطيع الحكم عليها لانها ليست لها صفات قانونية ذاتية

تضبط وتحكم بها . فالكون والبشر والطبيعة كلهـا لا تخضع لقوانين منطقية مضبوطة لأنها ليست ذات طبيعة متحددة تصدر عن ذاتهـا صدوراً قانونياً ، ولكنها اوامر ومشيئات تصدر اليها وتهبط عليها اقتداراً .

ثم ما هو هذا العقل ؟

انه قطعة صغيرة من الخلايا المادية ، فكيف يستطيع ان يستوعب او يفقه الاشارات الكبيرة المطلقة المبثوثة فيهذا الكون الاعظماو يحكمه ويخضعهبمنطقه المخلوق المحدود ؟

والله ارحم واعظم من ان يترك عباده لعجزهم الانساني المحتوم الاصيـل ، وكيف يسمح له جبروته بأن يدع الخالق للمخلوق – يفهمه ويفسره بجهله وضعفه وهواه ، او يدع المخلوق يبحث عن اقدامه في الظلام ، سعياً وراء الحقيقة التي لا وجود لها ؟ انه لو فعل ذلك لكان له أحد تفسيرين فقط : اما ان يكونعاجزا أو ان يكون قاسياً ظالماً بخيلاً سفيهاً .

إذ ليس من الممكن الجمع بين الايمان بالإله القادر الحكيم الرحيم ، والايمان بالعقل الخالق او بالانسان الخالق – بين الايمان بالله والايمـان بالطبيعة القانونية المحكومة بذاتها ومن داخلها وبضرورتها المحتومة . لقد احتاج البشر الى غبـاء وغفلة من نوع غليظ ، لكي يستطيعوا الإيمان بالخالق والإيمـان بالمخلوق في وقت واحد . كان الايمان بهما معاً مستحيلاً من الناحية العقلية ومن الناحية العمليـة ايضا ! ولكن الانسان استطاع أن يفعل هـذا المستحيل بقدرته العجيبة على التناقض! إن الايمان بالله يلوث الله ويسقط الكون والانسان، اما الايمان بالكون والانسان فإنه يسقط الله !

بهذا المنطق الفراري المريح استقبلنا شؤون الحيـاة ومشكلات الكون ، ووضعنا العقل بحثاً عن الخلاص منه في هذه الأغلال المركبة ، فاسترحنـا من المحاولات العقلية الشاقة .

وقد كان لهذا الاتجاه أخطاره الكبيرة .

لقد انصرف الناس الى النقل يحفظونه ويدرسونه ، يطلبون بذلك حل جميع

المشكلات التي تواجههم من كل نوع ، ويطلبون بذلــــك ايضاً المزيد من فهم الإشارات والأسرار التي يزعمون بزهو عظيم انها لا تنقضي ولا يبلغ مداهـــا في وقت من الأوقات البعيدة ! ولهذا فإنهم يظلون يتعاقبون بلا ملل غـــلى هذه الدراسات النقلية ، ويظلون يضعون فيها الكتب ويخلقون لها وجوه التأويلات دائماً – فعلوا هذا منذ القرون الأولى ، وهم حتى اليوم يفعلونه ، وسوف يبقون كذلك أطول الأزمان . ولا يزال السحر في أعلى مستوياته – لا يزال مختومـاً لم يفض !

وهؤلاء المسحورون لا يجدون أن تتابعهم على الشيء الواحد وعلى النقــــل الواحد وعلى الشرح الواحد ، يكررونه ، يزيدون فيه او ينقصون ، ويضعون حرفاً مكان حرف او وجهاً بدل وجه ،ينفقون في ذلك اوقاتهم وأوقات أتباعهم ، ويصبون حياتهم وحياة الآخرين في غير قنواتها : هؤلاء المسحورون لا يجدون انهم بما يفعلون يعكفون على الأصنام ، ويحترقون في الهياكل ويدورون حول شمس لا وجود لها ! لقد انطبعت ثقافة هؤلاء بطابع تفسيري نقليّ رائع في الغفلة والإفلاس،حتى لقد صدرت عنها كل هذه الأكداس الباهظة من الشروح والتفاسير الغبية التي فقدت كل مزايا الفكر والفهم والقوة والابداع – هـذه الأكداس التي عجزت مكاتبنا عن الاتساع لها ومطابعنا عن الفراغ منها . ان احدنا لو قدِّرَ له أن يحمل الى منزله كتاباً واحداً من الكتب التي وضعت في التفسير أو في الفقه أو في الحديث او في شرحه او في علم التوحيد والكلام، لاحتاج حمله الى شاحنـــة كبيرة ، مع أن كل ذلك لا يعدو أن يكون تكراراً لقصة عقيمة ، انــه نوع من تناسخ الأرواح البليدة !

وقد نشأت في تاريخنا طبقة مرموقة المكانة رفيعة الشأن بين أئمة الدين – تلك هي طبقة المحدثين الذين كانوا يعرفون « بالحفاظ » . وقد وضعت كتب لا تحصى خاصة بتراجمهم ، عرفت باسم له رنين قوي في مشاعر المجتمع – عرفت «بطبقات « الحفاظ » . وكان شأن الشيخ يعلو بين الخاصة والعامة بقدر ما يستطيع ان يحفظ من الروايات التي تنافي الحياة ! ومعروف ان كبار الأئمـة كانوا حفاظاً ،

وكانوا اطفالاً! وحتى اليوم لا تزال هذه المجتمعات ترفع من مقام الرواة والرواية، والتعليم في المدارس والجامعات قائم في اكثره على الحفظ. ولو أن أي طالب استطاع أن يجيد الإملاء من محفوظاته على الأوراق، لكان نصيبه في درجات النجاح عظيماً!

وبعض الحكومات المؤمنة تعد من إصلاحاتها الكبرى القيام بنبش هذه المؤلفات التابوتية الضخمة، وإرصاد الأموال الكثيرة على طبعها، وتذهب بعد ذلك تظن انها تقدم لشعبها أفضل غذاء وأكبر حركة تطوير. وقد لوحظ ان التأليف حتى اليوم، ولدى كبار كتابنا، ليس سوى عملية نقل، إما عن تاريخنا القديم او عن معطيات العصر الحديث. والنقل عن هذا وهذا عملية تكرار بليدة، ومن التخليطات ان هؤلاء الذين يقومون بحركة البعث للكتب القديمة الميتة، لا يعلمون أو لا يبالون ان يعلموا ان هذه الكتب تحرم كل الحياة التي يحيون، وتراها مروقا وفسوقا، أو ترفاً وسرفاً أثيماً.

وقد كان التعاقب بين المقدمات والنتائج محتوماً، فلقد ترتبت على هذه الثقافة النقلية وقفة عقلية، فان توجيه الطاقة كلها الى النقل وقف بالعقل، وحين وقف ضمر، لأن الموت هو الذي لا عمل فيه، وفي الموت ضمور لا محالة. وبعد أن وقف وضمر أصابه الفساد، لأنه اصبح مستقبلاً فقط – اصبح يستقبل الفساد الذهني القديم المتجمع في المحفوظات من غير ان يكون له نشاط أو تصريف، فصار مثل البركة التي تتلقى دائما الفضلات بدون أن تصرف منها شيئاً. لقد خسرنا بخسراننا العقل الحضارة، فصرنا وجوداً لا ابداعاً! واقتطعت من مساحاتنا الذاتية أفضل مناطقها – اقتطع منا المنطقة الذهنية، وهي منطقة التفجير في حياة الانسان! غام فوقنا سكون رهيب من الاستسلام الفكري، وطال الليل والانتظار لانبثاق الفجر.

لقد كنت دائماً أسأل: لماذا وجدت البطولة في بعض الشعوب ولم توجد في بعض؟

وكنت اعني بالبطولة تلك القدرة الانسانية التي تحدث في التاريخ موقفاً،

وتهبه وجوداً إنسانياً جديداً . وقلت اننا لم نخلق من بيننا بطلا واحداً وهب شجاعة ومزية يتحدى بها جمود التاريخ وغباءه ، ويقف وحده مع مزاياه المتحدية في جانب ، ويقف مجتمعه كله في الجانب الآخر ، إلى أن يموت أو ينتصر .

لقد قبل الأبطال في شعوب كثيرة ان يموتوا في مواقفهم ، او يفتحوا طريقاً كان مسدوداً . وكنت أرى أن البطولة هي صياغة التاريخ صياغة جديدة — هي الفكرة المتحدية حتى الموت او الانتصار .

إن البشر لم يصلوا إلى هذه الحضارة التي ينعم بها الجميع ، حتى أولئك الذين لم يصنعوها، وأولئك الذين يكفرون بها، وأولئك الذين يلعنونها، إلا فوق جسر طويل من التحديات ، ولكن أعظم ابطالنا يموتون فرقاً امام احتمال أي خطر متوقع . ولا نجد حتى اليوم ذلك الذي جرؤ على الاستمساك برأيه او بموقفه إذا كان يكمن فيه موت أو عذاب . نعم ، اننا جميعاً نقدم على المغامرة التي تكسبنا مجداً وربحاً وحياة ، وبطولة أيضاً ! اننا جميعا أبطال إذا كانت البطولة تعني في حسابنا الربح والشهرة والأمان والانتصار .

ما أرخص البطولات والأبطال في حسابنا ! فالكاتب الذي يبيع نفسه لدولة أو لحكومة او لحزب او لزعيم أو يبيعها لمشاعر السوق المتعصبة ولتقاليد المجتمع المتعبة — فيذهب يسب ويكذب ويتحدث بعصبية وغوغائية ، ثم يأخذ الثمن كاملا : — مثل هذا الكاتب يعد من أعظم الأبطال و الشهداء !

والحاكم او الزعيم الذي يهرج لخلق المشاكل والخصومات، ويسرف في الادعاء والكبرياء ، ويستهلك عواطف جماهيره بالحديث عن الأعداء والأبالسة والجحيم والأخطار ، وفي سب الشيطان الذي لا يجرؤ على قتاله ، وفي الصخب والهياج ، وهو يعلم انه لا يخاطر بما يفعل بل يربح — يربح خديعة الجماهير واستغفالهم والاستقواء بهم عليهم : — مثل هذا الحاكم او الزعيم يعد بيننا بطلاً من اعظم الابطال القوميين !

وكم هي حيلة رخيصة ان تشتري البطولة والمجد بسب الزلازل والبراكين وبالحديث المتهيج عن اشباحك النفسية ! ان البطل ليس هو الذي يحاول ان

يرضي ويتملق جهل المجتمع وخصائصه الضعيفة ، او يتملق اخطاء السوق ، بـل هو الذي يتعب السوق والمجتمع ويصعد به ويعطيه ويطوره !

والعداوة ، ومثلها الخصومة ليست لها قيمة انسانية او ذاتية ، ففن العداوة ليس فناً شريفاً . واسخف خديعة تعرض لها اي شعب هي‌ان يتقرب اليه‌حاكمه او زعيمه بمعاداة الآخرين او سب البراغيث . فالكراهة بجميع تعبيراتها ليست انتاجاً ولا حرية ولا عدالة اجتماعية ولا حتى فضيلة نفسية، وليست خبزاً أيضاً !

ليس البطل هو الذي يدخل في معارك لا نهاية لها مع الخصوم او الذي يخترع الخصوم اختراعاً ، بل هو الذي يكسب الحياة والحرية للانسان ، واذا استطاع ان يحقق هذا الكسب بلا خصومة ولا خصوم كان هذا هو النصر الذي تبتسم له السماء . انه ليس نصراً ولا بطولة ان تخترع الجحيم او الشيطان‌لتظل تلعنهما بتهيج كأنه تهيج الرغبة الجنسية !

وكم هو سخف ان تسرف في شتم اعدائك واتهامهم او ان تصنع اعـداء من الزهور لكي تصبح بطلاً قومياً ، كم هو فظيع ان تعالج آلام قوم ومشاكلهم بكراهة الشيطان وسب الاعداء النائمين ! ومن فعل مـا يرضي الجماهير وهو ضد مصلحتها كان ضالا كالذي يترك ما ينفعها خوفاً من غضبها !

والذين يكثرون من سب الاعداء لا بد ان يكونوا كاذبين او جاهلـين او متوترين يفعلون ما لا معنى له ، لأن السب لا يقهر عدواً ، فهم لا يريدون بسب الخصوم هزيمة الخصوم ولا اضعافهم لانهم يعلمون ان ذلك لا يكون ، وانمـا يريدون تضليل الجماهير الغافلة الطيبة ! فهم يتاجرون بالعداوة والشتم ، انهم يبيعون السفاهة باغلى الاثمان، هذا اذا لم يكونوا متعبين او جهالا‌،ينفقون انفسهم بجهالة او بتعب لا يعني شيئاً ! ولماذا تشتري الجماهير الحماقات والأكاذيب بدمها؟ هذا من اكبر مواطن الضعف فيها .

واكثر العداوات والبغضاء الموجودة في العالم ليست احتياجاً ولا ضرورة قومية او اخلاقية او انسانية ، ولكنها فنون شريرة ابتكرها ونماها وأدامهـا هؤلاء القادة الكاذبون الذين وجدوا ان العداوة والخصومة بين الشعوب تمكن

لطموحهم ولاستغلالهم ولبقائهم اكثر مما تفعل الصداقة والمحبة والسلام ! وكأن السوق محتاجة دائماً الى اشباح مخيفة معتدية تصرف اليها اهتمامها ومشاعرها، كأن العداوة هرب من الذات المتعبة .

وقد ظننت ان تفسير هذه الظاهرة – ظاهرة فقدان البطولة – يرجع الى ان البطولة من هذا النوع انما تصدر عن عقل متفوق قد آمن بأفكار متفوقة، وليس في الوجود كله قوة أقوى من قوة الفكرة العظيمة . واصحاب العقول والافكار العظيمة تغازل انفسهم نشوة عظمى تهبهم شجاعة عظمى . وهذه النشوة قد تكون نشوة العقل المبدع ، أو نشوة المخالفة للجماهير ، أو نشوة الارباب الواثقين ، أو نشوة الاعجاب العظيم الذي يهدي الى الاستهانة بالاخطار ، كما قد تكون نشوة التحدي . والذين يجيئون الانسانية بأفكار ومبتكرات جديدة يؤمنون بقدرتها على الانتصار وعلى ان تحدث جديداً في الحياة وفي التاريخ وتصوغها صياغة مبتكرة – هؤلاء الرجال لا بد ان تكون لديهم قدرة خارقة في الارادة والاقتحام. واقتحام الالم نوع من التفكير العالي ، أو هو حالة فكرية عند الانسان ، أو المفروض ان تكون كذلك . ان الافكار القوية تهب مواقف قوية او تحرض على المواقف القوية .

ومحتوم الا يوجد هذا النوع من البطولة بين المحرومين من العقول والافكار المتفوقة ، فالبطولة ليست فراغاً بل فكرة قوية . ويستحيل أن يتحول العاجزون بأفكارهم الى ابطال في اخلاقهم ، فالقوة الاخلاقية هي انعكاس القوة الفكرية ، والافكار لا تكون الا تحدياً ! ومع هذا فلا ينبغي أن نجهل انه توجد مواقف قوية من غير افكار قوية ، واننا لا نفعل لأننا افكار بل لأننا حياة . اننا نفعل بالقوة لا بالفكر ، كما تفعل الطبيعة والكائنات غير المفكرة . ان قوة المواقف مأخوذة من قوة الحياة لا من قوة الافكار ، بل وقوة الافكار مأخوذة من قوة الحياة وليس العكس .

والعلامة الفاصلة بين المتفوق وغيره هي عمق الحياة ، واذا كانت الحياة امتداداً فان بينها من التفاوت في امتدادها مثل ما بين محيط وغدير ، والذين

تتفوق حياتهم بالعمق والامتداد تنطلق منهم طاقات انسانية مماثلة في تفوقها . ففي افكارهم وعواطفهم وأفعالهم هذا العمق وهذا الامتداد الذاتيان المتفوقان !

الحياة إما خصبة ضخمة متفوقة ، أو ضحلة متطامنة . وهي في الحالة الاولى تحمل كل خصائص التحدي والكبرياء لأنها حينئذ تستجيب لمعاني ذاتها المتفوقة أكثر من استجابتها لاحساسها بالاخطار المحيطة بها المقاومة لها ، وتشعر بفضيلة الاستجابة لهذه المعاني أعمق من شعورها بفضيلة الاستجابة للمعاني والاخطار الخارجية المهاجمة ! انها طاعة الذات للذات ، وهي اصدق واعمق طاعة في الوجود !

وأما في الحالة الثانية فانها تحمل كل خصائص الاتضاع والاستسلام ، لانها تحس حينئذ بما يحيط بها وبما يهددها اعظم من احساسها بذاتها وبقدرتها ، فهي من غير اسوار وحدود وارتفاع وبلا عمق أو حماية ، وانها لذلك ترى دائماً ما حولها أقوى منها فلا تقاومه ولا تبتكر موقفاً عظيماً !

هل نحن ذاتيون ندأب دائماً على تعميق ذواتنا وتخصيبها واستغلال معادنها وتوليد قواها ؟ هل نحن نولد من الداخل ثم ننمو ونتكون فيه ؟ هل العالم الذي نريده ينبثق في أنفسنا ثم يظل فيها – هل نحن معاني اللغة وحروفها ام حروفها فقط ؟ هل نحن كائنات تتدفق ام كائنات تتلقى – وهل آلهتنا الخالقة وأوثاننا المعبودة فينا ام خارجنا ؟ هل نحن كذلك ، ام نحن مخلوقات تولد خارج نفسها ثم تحيا وتتحرك وتموت خارجها جادة في الهرب منها ؟

أما الذاتيون فانهم يستطيعون تعميق انهار حياتهم الى ان تصبح في عمقها وامتدادها كالمحيط يزخر بكل الاسرار والقوى المتحدية والخالقة ! وأما الهاربون من ذواتهم فانها – اي ذواتهم – تبقى كالاكواخ المهجورة ، ليس فيها من القوى والاسرار غير ما يدار حولها من قصص الاشباح والأرواح وغير ما يزحف في شقوقها من الحشرات والهوام .

ان صنع النفس لتكون مبدعة وعظيمة وقوية هو أسمى الفنون في هذه الحياة – كما ان أعظم الكشوف الانسانية هو اكتشاف الانسان لنفسه ! ونحن لا

نصنع الأبطال لأننا لم نسمُ الى فن صنع النفس ، وهذا لأننا لم نصبح ذاتيين ، أو لأننا لم نجد في وجودنا هذه القوة !

انك لن تلقى بين الجماهير الجاهلة بطلاً ، ولن يخرج من بين صفوفهم مثل سقراط الخالد حين رأى الموت والحياة وكل شيء اصغر من فكرته ومن وقفته ، لأن الجاهل ليست لديه الأفكار والمواقف الكبيرة التي تجعل منه واقفاً متحدياً. لا يوجد شيء أكبر من الحياة إلا الفكرة – إلا الموقف المتحدي .

اننا نرى اقتراناً بين العظمة الفكرية والعظمة الأخلاقية ، ونشاهد ان الأمم الممتازة بأفكارها تجيء ممتازة بأخلاقها ، فالبطولة حالة فكرية وأخلاقية . وكلما هبط الشعب في ميزان الفكر والثقافة هبط بقدر ذلك في ميزان الخصائص الانسانية .

وتوجد بطولة اخرى ، تلك هي بطولة المخاطرة العلمية . لماذا يرخص هؤلاء المخاطرون أنفسهم ويقدمون على أكبر الأخطار دون أن يهابوا الموت أو أن يصابوا بالجنون من الخوف ، حتى كأنهم ليسوا بشراً يموتون ويتألمون ؟ ان الأفكار التي تحرك هؤلاء المغامرين هي أكبر من الخوف ومن إرادة الحياة . ولذة الألم في سبيل الفكرة الكبيرة أكبر من الألم نفسه ، والتضحية قد تهب مشاعر لذيذة أعظم من المشاعر التي تهبها الحياة ! ان الانسان وحده هو الذي ينتحر لأنه وحده المفكر ، ولا شيء يتفوق على ارادة الحياة غير ارادة الفكر ، فاذا اتجهت الارادتان اتجاهين مختلفين انتصرت أقواهما ، والانسان وحده دون سائر الموجودات هو الذي توجهه الارادتان . ولهذا لا يوجد سوى الانسان من يضحي بحياته في سبيل معنى او مبدأ ، أو باسم معنى أو مبدأ . وهو ينتحر لأن الانتحار فكرة على نحو ما ، ولولا الفكرة لما وجد من ينتحرون ! والذين لا يفكرون كالأطفال لا ينتحرون ، واذا انتحر طفل كان معنى هذا انه قد بدأ يفكر .

والانتحار بطولة لأنه أسمى درجات الجرأة ، ولكنها بطولة مذمومة في تقديرنا ، لأنها تجلب الاكتئاب والألم والخسارة للأحياء أحيانا ، ولأن الأحياء من جهة أخرى يجبنون عنها ، فهم إذن لا بد أن يذموها تبريراً لجبنهم !

ومع هذا ، فإن حافز الشجاعة هو حافز الجبن ، فالشجاع جبان ، والجبان شجاع. فالذي يدعى شجاعاً إنما أقدم على امر فراراً من أمر فهو جبان، او فهو شجاع لأنه جبان ، والذي يسمى جباناً إنما أحجم عن شيء جراءة منه على شيء آخر، فهو جبان لأنه شجاع . والشجعان جداً جبناء جداً ، والجبناء جداً شجعان جداً . ونحن نحكم بهذا أو هذا ناظرين الى الجانب الذي يرضينا! والناس الشجعان والجبناء يقدمون على هذا او هذا ، خاضعين للتقويم الفكري والعاطفي الذي يقومون به الاشياء ويخضعونها به لحساب الضرر والنفع بمعانيهما العامة ! والحرب ضرب من ضروب الانتحار الجماعي، ولكننا ندعوها فضيلة لأنها موصولة بفكرة من فكرنا ، ولا فرق بينها وبين الانتحار العادي من حيث الداعي ، فالداعي اليهما معاً هو محاولة الفرار مما يحدث انزعاجاً الى ما يحدث سروراً وارتياحاً ، ولو في التقدير الخاطىء .

ولهذا فإن أقل المجتمعات انتحاراً هي المجتمعات المتأخرة او المجتمعات غير المفكرة !

وإرادة الفكر هي القوة العظيمة التي اوجدت الحضارات الانسانية المبدعة، ولولا ارادة الفكر لما استطاع الانسان ان يتحول من كائن يعيش في الغابة الى كائن متطور ومتحضر يشيد المدنيات ويصعد الى الأكوان ويحاول ان يهزم كل الاشباح العقلية !

والامم تعظم كلما عظمت فيها ارادة الفكر ، وتهون كلما ضعفت فيها هذه الارادة . والامة التي توجهها ارادة الحياة دون ارادة الفكر ، تذل وتضعف ، لأنها تفقد كل رغبة في البطولة والمغامرة ، فلا تفعل شيئاً عظيماً ، ولا تحترم الاشياء العظيمة !

وارادة الفكر تقوى في الشعب والفرد بقدر قوة الأفكار نفسها وبقدر قوة ادراكها وادراك نفعها وقوة الايمان بها ، وبقدر ما تكون الحياة قوية . فالأفكار القوية تعبير عن الحياة القوية .

ان الموجّه الفكري فيه كل معاني الألوهية : الخلق والانتصار والخلود .

والشعوب المفكرة تنتصر على كل شيء ، على الطبيعة وعلى الشعوب الاخرى العاجزة عن الانتصار على ارادة الحياة – الحياة التي ليس فيها خصائص الألوهية المفكرة !

*

وقد عوقبنا على نزعتنا النقلية فحولنا كل شيء الى رواية ، وضعفت فينا طاقة النقد والفهم والابتكار ، فالمعارف كلها نقل حتى الفلسفة والتاريخ بل حتى الطبيعة والكيمياء والطب . وكان أقصى ما يبلغه علماؤنا وعباقرتنا العظام أن ينقلوا الينا ما حفظوا وما قرأوا كما ينقل لنا الشيخ والقسيس نصوص صلواتها وكتبها المقدسة ! لهذا غاب عنا الأبطال في رحلة طويلة !

ما أقوى سلطان المقابر ، ان الأرواح لتحكمنا دائماً من وراء حدود الزمان! نحن نفاخر أهل الأرض طراً ، نزعم أننا وحدنا الموحدون الذين يعبدون إلهاً واحداً لا يشركون به شيئاً ، ولكن ما اكثر ما نعبد الأصنام . فليس الذي يصلي للشمس او للوثن او للأحجار والحيوانات باعظم شركاً من ذلك الذي يصلي فكره واعتقاده ونظامه لأحد الموتى المحترمين . ان المعتقدين في هؤلاء الأموات ليعادون الحياة والناس والنور والأزهار من أجل ان يكونوا عبيداً لأولئك الموتى – انهم يعادون أنفسهم ليكونوا عبيداً لبعض الأموات !

سئل ملك الانجليز السابق الذي نزل عن عرشه في حادثة الحب المشهورة – بعد إقامته الطويلة في أمريكا عما أعجبه فيها فقال :

« تعجبني هذه الروح التي تجعل الآباء يسمعون آراء الأبناء ، واعتقد أن هذا هو سر تقدم أمريكا وتطورها . ففي سائر أنحاء العالم يريد الآباء أن يفرضوا آراءهم القديمة على أولادهم ، أما في أمريكا فإن الآباء يقبلون بسماحة ورضى الآراء الجديدة التي تملأ أذهان أبنائهم . ولهذا كانت أمريكا تتقدم الى الأمام دائماً بينما ظل سائر العالم مربوطاً بالماضي العتيق برباط لا يستطيع منه فكاكاً » .

وبمناسبتين وطنيتين أذاع كل من رئيس دولة الباكستان ودولة الهند خطاباً على شعبه ، قال رئيس دولة الباكستان :

« اني واثق كل الثقة بأن شعبي سيعيد في كل مناسبة ماضي التاريخ وتقاليده. »

أما خطاب رئيس الهند فقد جاء فيه :

« لقد أدبر الماضي وولى ولم نعد نهتم إلا بالمستقبل الآن ، وهو مستقبل لا يعرف الراحة والهدوء ، بل يتطلب النضال والعمل المتواصل حتى نستطيع أن نفي بالوعود التي قطعناها على أنفسنا » .

*

وقد شبت حروب صغيرة في مساحة ضيقة من تفكيرنا الديني بين جماعة شابت اعتقاداتها الدينية بميول عقلية ضئيلة ، وبين اولئك الذين اخلصوا للنقل وحده . فطوائف من المعتزلة وغيرهم ممن كانت لهم منازع فلسفية قريبة المدى ، اشتجروا في عراك متقارب الحدود ، هم وسائر علماء الاسلام في قضية تصادم العقل والنقل ، وكيف يكون الوضع حينئذ ، فأصحاب المنازع الفلسفية — وهي منازع محدودة جداً — ذهبوا الى انه اذا اختلف العقل والنقل ، وجب الأخذ بالعقل ووجب تأويل النقل او رفضه اذا لم يكن قرآناً او سنة متواترة . قالوا : لأننا لو اخذنا بالنقل ورددنا حكم العقل ، لكان معنى هذا رفضهما معاً ، وذلك لأن النقل إنما عرف صدقه وصدق من جاء به بالعقل ، فهو شاهده ، والشاهد إذا لم يكن مقبول الشهادة كان المشهود له محتاجاً الى من يصدقه ويزكيه فصدق الأخير محتاج الى صدق الأول . أما أنصار النقل فقد استطاعوا أن ينتصروا دون أن يحتاجوا الى تقديم شهداء أو يحتاجوا الى دهاء أو ذكاء ، إذ قالوا أن الواجب الأخذ بحكم النقل وحده ، أما العقل فيجب حينئذ اتهامه لأنه أقل من أن يكون نداً للنقل ، وأضاف أذكياؤهم :

اننا اذا طعنّا في النقل أو شككنا فيه ، كان معنى هذا اننا نطعن في الاثنين معاً ونشك فيهما معاً ، وذلك لأن العقل قد شهد للنقل ، فاذا ثبت في حالة واحدة ان النقل غير جدير بالتصديق ، كانت شهادة العقل ليست ذات دلالة لأنه شهد لأمر غير ثقة بأنه ثقة ، وعاقبة هذا رد العقل ، ورده يقتضي رد النقل لأنه كما سبق هو شاهده الوحيد ، ثم زادوا وقد حسبوا انهم قد وقفوا بهذه المعركة

عند نهاية مرضية وحاسمة :

انه لا يمكن ان يقع خلاف صحيح بين العقل الصريح والنقل الصحيح ، وكل ما يبدو انه خلاف بينهما لا يعدو ان يكون ضلالاً أو قصوراً في العقـــل ، ولو اهتدى وكمل لعرف الحقيقة ، ولوجدها مع النقل دائمـــاً . ونحن الآن ننظر الى رماد هذا الحريق الذي شبّ ثم انطفأ سريعاً فتهولنا ضآلته .

ما هي الوسائل التي يهتدي بهـــا البشر الى ما يريدون ويحكمون بهـا على الأمور ؟ هل هم منطق أم حركة ؟ هل هم محتاجون الى ان يعرفوا ، أم ان عليهم ان يتحركوا فقط كما تتحرك الأشياء – كما يتحرك الجماد والنجوم والنبـات ، فتتلاءم بالحركة مع نفسها ومع الموجودات الأخرى وتحقق مكانها وذاتها !

ان الكون كله يصوغ نفسه ويعطي طبيعتـــه واحتمالاتـه ، ويتوافق مع ظروفه ، ويتكيف تكيفاً مستمراً بقانون الحركة وحده . وقانون الحركة هـذا أليس هو أيضاً الذي يدبر وجود الانسان وحياته ويمنحه نظامه المتطور ؟ الشيء يكون لأنه يستطيع أن يكون، وكينونته هذه هي التي تصنع أفكاره وقوانينه وكل صفاته المادية والأدبية . والبشر كأي شيء يكونون بالحركة التي هي طبيعة الكون ، والحركة تبحث عن التلاؤم وتحققه ، والتلاؤم هو الذي يصنع السلوك . فسلوك البشر هو حركة متلائمة ، وافكارهم وأخلاقهم ونظمهم وكل عبقرياتهم ، ماهي إلا صور للحركة المتلائمة . ولكن الحركة هي التي تصحح نفسها دائماً بوسائل ومرشدين تصنعهم هي . والناس لا يزالون مختلفين : كيف يعرفون ؟ وبمـــاذا يعرفون ؟

هل يحكمون بالنقل ؟

ان الاباطيل التاريخية الكبرى يباركها كلها النقل ، وهو احد ما يثقل ضمير الانسانية بالشرور والعداوات، ويعوقها عن ان تأخذ بنهج للحياة صحيح موحد، وقد جعلها عاجزة عن التحرر من نفسها ومن اوثانهـا ومذاهبها وتقاليدهـــا واخلاقها وعداواتها الموروثة عن آبائها المتوحشين ، فالنقل خصم للصداقة والمحبة والوحدة الانسانية . والنقل هو آلام واحتياجات ونقائص وتصورات عصر

من العصور أو فرد من الافراد قـد تجمدت حروفاً واصبحت كأنها سطور في معبد قديم ! فهل نفرض على التاريخ كله آلام عصر أو آلام فرد كحقيقة خالدة ؟ ان النقل كيفما كان ليس الا تعبيراً عن حالة انسان او جماعة من الناس في وقت من الاوقات .

اذن هل يحكمون بالعاطفة ؟

ان العواطف حرارة ولكنهـا ليست ضوءاً — هي رياح كما يقول فولتير ، تدفع السفينة ولكنها تغرقها ايضاً ! والعواطف يجب أن يعترف بهـا كطاقة عظيمة تدفع المحركات بقوة ، غير ان الطاقة والمحركات لا بـد لهـا من قيادة . وهي في حقيقتها طاقة كسائر الطاقات في هذا الوجود — طاقة فقط .

وكل الناس انما يخضعون في أعمالهم وفي اعتقاداتهم لهذه القوة الهائلة ، والشعوب التي تجيء عواطفها اشد توقداً تكون احفل الشعوب بالنشاط الانساني المبدع ، كما ان المولد الحراري الكبير يكون أقـدر على الاضاءة وعلى ادارة الآلات من المولد الصغير . ولهذا فان من الضلال محاولة تعجيز هذه القوة الانسانية كما تفعل الجماعات الضالة الخائفة من نفسها ! والمولدات العاطفيـة في الامم المتحضرة لا تقل عن مولداتها الفكرية ، لان الحضارة في كل صورها تصنعها القوتان .

والعقل — كما قيل — موات بغير العاطفة ، والعاطفة بدون العقـل غير مبصرة ، اذن فالعقل قوة قضائية لا تشريعية ولا تنفيذية . والعاطفة تريد وتنفذ ، ولكن ما الذي يحميها من الضلال والتصادم ؟

ونحن الذين تعلمنا كيف نميت عواطفنا كما تعلمنا كيف نخمد عقولنا ظللنـا غير قادرين على الاندفاع الى الهدف ، وغير قادرين على رؤية الهدف ، وقد كانت سياسة التمويت التي صنعها اساتذتنا الموتى قادرة على ان تضعف فينا القوتين : قوة الاندفاع وقوة الحكم . وكانت هذه السياسة تعد العاطفة الانسانية شر مـا في الحياة وتراها الخصم الاوحد للدين وللروحانية وللاخلاق !

ان الشهوة المتفجرة هى امضى اسلحة الحياة ، والانسان الشهواني يفعل الحياة اكثر مما يفعلها خامل الشهوات . ولكن هـذا السلاح اعمى وهو حيواني حتى

يحكمه العقل ، حينئذ يصبح انسانياً .

وانت حين تصر على الاستمساك بعقائدك وأوضاعك ، وتصر على انها حق بدليل صدق عاطفتك نحوها أو شهوتك لها لا تكون ذاهباً مذهب الصواب لان الناس جميعاً يجدون نحو اوضاعهم ومعتقداتهم مثل الذي تجد ، حتى اولئك الذين يعبدون الشيطان !

ان المعتقدات ليست عواطف حقيقية وانما هي تعبير عنها أو تصريف لها . والناس لا يختلفون في العواطف الا في مقدارها وتوزيعها لا في وجودها ، فلا خلاف بينهم في ان لدى كل فرد عاطفة الحب والبغض وارادة الحياة ، وانما يختلفون فقط في المقدار أو في التوزيع ، ولكن اختلافهم في العقائد والمذاهب واسع ، فالعقيدة اذن ليست عاطفة ولكن العاطفة صرفت الى العقيدة صرفاً فظهرت فيها على انها احدى صورها وازيائها . والطريقة التي تم بها هذا الصرف هي ان الناس لقنوا عقائدهم بالتكرار والايحاء والتعويد العملي ، ولقنوا أن يصبوا عواطفهم في تلك العقائد ، والاتصال الطويل بالشيء يجعل النفس تألفه بل وتحبه وتهاب فراقه . فتشابكت هذه الافعال والتلقينات بالعواطف فخرج منها مزيج تصدق ان سميته عواطف ، وتصدق ان سميته عقائد .

وطبيعة العاطفة طبيعة ليس فيها تحديد ولا تخصيص . فالحب والبغض والخوف وارادة الحياة وامثالها عواطف مطلقة ليس في مفهوم شيء منها حب ذات او أمر بعينه او بغضه او الخوف منه ، وانما هذه توزيعات تتحدد بالتجربة أو بالتلقين أو تحت ظرف معيَّن . وعاطفتك نحو معتقد او مذهب ما يشبه عاطفتك نحو انسان او فعل ما ، انما وقع لك تحت ظروف خاصة ، ولولا تلك الظروف لبقيت حياتك لا تعرف ذلك المعتقد ولا ذلك المذهب ولا ذلك الانسان ولا ذلك الفعل . والذين حسبوا العقائد عواطف او غرائز فاتهم التمييز بين هذه الامور . وواضح ان الذين يعتقدون في بوذا في الشرق الاقصى هم كسائر أهل المعتقدات في ارجاء الدنيا كان من الممكن ان تظل عواطفهم فراغاً من هذه المعتقدات والآلهة ، وان تظل ايضاً – اي العواطف – كما هي مطلقة بدون

أن تتحول الى الارتباط بأحد هؤلاء الارباب – كما ان الذي احب فلانـــاً أو فلانة او كرهها كان من الممكن الا يحبها والا يكرهها. اذن فالعواطف ليست طريقاً الى معرفة الخير والحق . فماذا يعرفون ؟

ما هو الإلهام والشعور الموحَى ؟ يؤمن قوم بهما ويرون أنهما خليقان بأن يدلا على شيء من وجوه المعرفة والحق . ويصعب التفريق بين معنى لفظة الإلهـــام ومعنى لفظة الشعور الداخلي ، كما يصعب التفريق بين معناهما ومعنى العاطفة على أحد وجوهها . والإلهام مع هـــذا أو الشعور أو الوحي الذاتي ليس له من دلالة اكثر من أن الظروف أو الأوضاع الاجتماعية أو احتياجات النفس ومتاعبهـــا أو قلقها وأمراضها قد جعلت من انسان ما ملهماً مريضاً يتلقى انعكاس تلك الحالات على طبعه الخاص بصورة إلهام أو وحي . والمرضى والشاعرون بالخيبـــة والظلم ، والعاجزون عن أن يصنعوا لهم دنيا حقيقية في عالم الواقع ، والذين لا يجدون متنفساً لمواهبهم – هؤلاء وأشباههم هم أقرب الناس الى الالهام والى تلقي الوحي الذاتي . وقد يتطور هـــذا الشعور البـــاطني حتى يصبح أشباحاً وأصواتاً ترى وتسمع ! وهذه الحالة يجب ان تعد محاولة نفسية منحرفة ، فان المحاولة الصحيحة للنفس الصحيحة هي ان تشيد عالمها المنشود خارجها وان تعبر عن رغباتها تعبيراً عمليا مادياً بأن تنطلق الى الخارج في صور احتياجات مقضيـــة ، فاذا لم تستطع ان تفعل ذلك لسبب من الأسباب ، انحرفت وانصرفت الى الداخل – الى داخل ذاتها . ولكنها لن تجد داخل ذاتها مكاناً للتعبير عن الرغبات ولإقامة عالمهـــا المطلوب . وحينئذ لا تجد إلا ان تتنكر وان تتخذ زي الفضيلة لها زياً – لا تجد إلا ان تتصور إلهاماً ووحياً يريد انقاذ البشر الضالين المعذبين. وأمراضنا وآلامنا النفسية قد تتحول الى قادة ودعاة وأنبياء ! ولهذا فان المصحات العقلية والنفسية هي أحفل المواطن بالملهمين والانسانيين ، وأقرب الطرق الى السماء !

ان المرض والألم والحرمـــان – هذه الأعداء الثلاثة تتنزل دائمـــاً بالنبوات والزعامات الكاذبة المريضة على قلوب المرضى والمتألمين والمحرومين. وليس الوحي الذاتي إلا صورة من صور التعبير عن نهاية الاختزانات الذاتية – اختزانات الطاقات

والشهوات النفسية داخل النفس . والأهوال الوحشية الفظيعة التي تصورها الملهمون لأعدائهم ومخالفيهم – تلك الأهوال التي ليس لها مثال موجود، والآلام التي لا انقضاء لها – راجعة الى انهم كانوا عاجزين عن ايقاع العقوبة السريعة بأعدائهم ومخالفيهم . ولو كانوا قادرين على الانتقام وعلى شفاء أنفسهم من أحقادها وآلامها لما توقدت تصوراتهم بتلك النيران الغيبية التي ظلت تلفح وجه التاريخ الانساني بوهجها الأليم المنكر حتى طبعته بسماتها الكالحة الشريرة .

فالعاجزون يتمنون ، والذين يتمنون يتخيلون خيالات منبثقة عن اللهفة لا عن الفكر ، والمتلهفون العاجزون يتحولون الى مشاعر وتصورات أليمة ضالة ! أما القادرون فقد تعدوا منطقة الشهوة والتصور والتألم الى منطقة الأخذ والظفر واللذة ، فهم كالآلات التي تحولت طاقاتها الى نشاط مادي خارجي وظلت أجهزتها الداخلية سليمة . ولهذا فان اوقات المحن والآلام هي افضل الأوقات لحدوث الالهام وازدهاره ! والشعوب العاجزة الفقيرة هي التي يوحى اليها دون الغنية القادرة ! ويجب ان ننتظر خروج هؤلاء المعلمين في آسيا وافريقيا اكثر من انتظارنا لخروجهم في أوربا وأمريكا .

وهؤلاء المعلمون الملهمون يكونون أذكياء وممتازين ، ويجيئون قومهم بما يشبه المعجزات ، إذ المفروض انهم مخصوصون بذكاء وبطاقة نفسية غير عادية ، وحينما حاول ذكاؤهم وهياجهم النفسي والشهواني ان يتدفقا خارج النفس بحثاً عن المجال اصطدما بالحواجز الصلبة العالية فارتدا داخل النفس ثم اصطرعا فيها اصطراعاً عنيفاً مدمراً فهدما الحواجز والجسور ، وأخيراً ظهرا بأشكال مرضية – شأن كل القوى المندفعة حينما تغلق عليها ذاتها ، فانها اذا لم تجد طريقاً تندفع فيه حاربت ذاتها وفجرتها . ولن تجد – إلا ان يكون شاذاً جداً – مكان هؤلاء بين السعداء او الأغبياء . إذ السعداء قد دفعوا نشاطهم خارج ذواتهم فحققوا رغباتهم ونفضوا أنفسهم من الأمراض والعقد ، أما الأغبياء فان طاقاتهم الذهنية الضئيلة لن تكون لها اندفاعات كبيرة لا في الذات ولا خارجها .

والذين حركوا الموجات التاريخية الكبرى هم من هذا الصنف المريض الذكي

وهؤلاء ليسوا خيراً كما انهم ليسوا شراً ، وهم في المجتمعات كالأمراض في الأفراد، يخطون بها أحياناً على رمال التاريخ ولكنهم يلقون بهـا في التيه المملوء بالعذاب والأوهام – وكذلك الأمراض في الأفراد تدفعهم أحياناً الى أن يكونوا فعالين مبدعين ولكنها مع ذلك تهبهم العذاب،وقد تطبع ابداعهم بالشذوذوالتناقضات الأليمة وبالوحشية الأخلاقية ! انهم مثل الأوهام الكبيرة للامم ، تعطيها الارادة وتسلبها الفكر ، وهم كذلك كالاحلام تعبر عن شيء ولكنهـا تعبر عنه تعبيراً مبهماً مضطرباً . وأغلب الزعماء والدعاة الكبار في التاريخ كانوا من هذا النوع الذي يمنح الارادة ويسلب التفكير .

هذا عن الالهام في صورته المريضة . أما في صورته الصحيحة –أي حينما يقع لانسان سوي – فليس هو سوى انطباعات لصور مادية مأخوذة من العالم المشهود الخارجي ، فهذا العالم المادي المشهود ينعكس على نفس الانسان صوراً وأحكاماً فيحولها الى أفكار فيرى حسناً ويرى قبحاً – أي يرى ألماً ويرى مسرة ، ويريد أو لا يريد ، ثم لا يعطي شيئاً من هذا معنى من معاني الغيب أو الالهام !

❋

ولكن العقل ما مكانته وهل يصلح أن يكون حكماً على الأشياء ؟

يقول العقليون :

إنه إما أن يكون حكماً في الاشياء كلها أو في بعضها أو ليس حكماً في شيء.

فإن كان الاول فإنه حينئذ يكون حكماً على الدين نفسه ، وعلى هذا الفرض تسقط جميع المطاعن التي تقدمت في العقل . وأمـا ان كان الصواب هو الفرض الثاني فما هي الحدود حينئذ بين ما هو حكم فيه وبين ما لا سلطان له عليه ؟ وما من حد يمكن أن يفترض الا كان باطلاً ، لأنه اذا كان حكمـاً في شيء فلا بد أن يكون حكمه هذا قائماً على قيمته الذاتية والا لما قبل ، واذا كانت له قيمة ذاتية تعطيه حق الحكم المقبول وجب ان يكون كذلك دائماً . ولا يمكن ان يكون الشاهد ثقة في شيء في وقت ، غير ثقة في شيء آخر في وقت آخر وإلا لما كان ثقة البتة ، واذا أمكن الشك في شهادة الشاهد في حالة او حالات لم نجد ما يمنع

من الشك فيه في كل الحالات. ثم اذا كان العقل مردود الحكم في بعض الاشياءفرد حكمه اما ان يرجع الى طبيعته – أي طبيعة العقل – او يرجع الى امر آخر ، فان كان الأمر هو الأول وجب رد احكامه كلها دائماً لأنه لا يصح تحكيم شيء ليس في طبع حكمه الصدق ، واما ان كان رد حكمه في بعض الحالات راجعاً الى أمر آخر غير طبيعته قيل: هذا غير مفهوم ولا وجه له ،ولو كان صحيحاً لوجب رد احكامه دائماً من اجل هذا الأمر الغريب المفترض !

وأما الافتراض الثالث – اي افتراض العقل دائماً ليس حكماً في شيء – فهذا مجرد افتراض .

واذن لا محالة من افتراض العقل دائماً حكماً مطلق الحكم على جميع الشؤون الكبيرة والصغيرة ، وانه هو الذي يشرف على كل معارف البشر ، ولا شيء يشرف عليه او ينوب عنه .

وقد يقال بأسلوب آخر : الدين إن كان صدقه قد علم بالعقل ، فالعقل اذن صادق الحكم في رأي الدين ، وله اذن ان يحكم عليه كله في كل الأوقات لأنه هو شاهده ولو شككنا مع هذا الافتراض في العقل ، لكان هذا الشك شكاً في الدين نفسه على ما سبق . واذا لم يعلم صدقه من العقل، فبأية حجة اذن علم صدقه، مع ان العقل هو وسيلة المعرفة على ما افترض ؟ ولو امكن الزعم بأن شيئاً من الاشياء يعلم صدقه بطريقة اخرى غير العقل ، لأمكن لكل صاحب دين او مذهب او باطل أن يدعي هذه الدعوى لدينه او مذهبه او باطله ، ولما جاز للآخرين حينئذ ان يحاجوه بالعقل او يعلموا بطلان رأيه ، ولما جاز ايضاً ان نحاول التدليل على ديننا بالبرهان الذي لا يدرك إلا بالعقل ، ولا ان نحاول اقناع الآخرين به .

يقول قوم : ان اصل الدين أو جملة الدين لم تعرف الا بالعقل ، وبعد معرفة أصله وجب تحكيمه – اي تحكيم الدين – في العقل بعد اخلائه من أعباء الحكم، اي ان وظيفة الدين في هذا الموضوع ، هي ان يدلنا على ان الدين حق ثم يترك الطريق لهذا الذي منحه الثقة ، لأن العقل لن يستطيع ان يعلم الجزئيات التي لا

يمكن علمها الا بالدين وحده . ثم يقولون : اننا لو احتجنا الى معرفة كل قضايا الدين بالعقل بعد أن عرفنا منه صدق اصله ، لكان هذا الاحتياج دليلاً على اننا لم نؤمن بشهادة العقل المطلقة التي ظفر بها الدين منه ، واذا شككنا في صدق شهادته لم نكن مؤمنين به ، واذا شهد الشاهد الثقة الذي نرضى شهادته لزم ان نقبل كل ما يقول ولو خالفت شهادته ما نقوله وما نعلمه .

وهذه المحاولة غير سديدة . وذلك لأننا ما قبلنا شهادة العقل لأصل الدين ، الا لاعترافنا بقدرته على الشهادة ولاعترافنا بأن شهادته مقبولة في جميع الحالات ، وإلا فإنه اذا لم يكن قادراً على الشهادة لعجزه احياناً ، او اذا لم يكن مرضي الشهادة في كل قضية ، لم يجز لنا ان نقبل شهادته في قضية واحدة ، لا قضية الدين ولا غيرها ، لاحتمال ان تكون هذه القضية من القضايا التي هو عاجز عنها او من القضايا التي لا تقبل شهادته فيها . ومن المحال ان تقول قبلت خمسين في المائة من شهادة فلان ورفضت خمسين ، ثم تأخذ محكمة ما في الدنيا بشهادة ذلك الشاهد عملاً بشهادتك له . والعقل اذا كان عاجزاً عن ادراك كثير من قضايا الدين ، او كان أهلاً لأن يخطىء فيها ، فكيف استطاع ادراك اعظم قضاياه ولم يكن محتملاً ان يخطىء فيها — واذا كان قادراً على فهم قضيته الأولى وهي معرفة أصله ولم يكن جائزاً أن يضل فيها فأنى يعجز عن فهم الجزئيات او يضل فيها ؟

إن الذي يعرف الله ووجوده بعقله ، يجب ان يعرف بعقله كل شيء . وليس استمرار الرقابة العقلية نكوصاً عن الشهادة ، بل استمرار في رقابة الأسباب التي أوجبت منح هذه الشهادة . وليس هنالك من تمنحه ثقتك بشهادتك له ليعود هو فيسقطك وليكون حاكماً عليك قادحاً فيك ، ولو حدث هذا لكان إسقاطاً لكما معاً ، لأن الذي يسقط شاهده ، يسقط هو أيضاً لا محالة ، لأنه إنما اكتسب التزكية منه ، واذا طعن الشاهد في مزكيه سقطا معاً .

وهنا يهتز خصوم العقل اهتزازة الانتصار ويقولون في زهو عظيم :

إن شر الأديان والمذاهب في الأرض ، إنما علم صدقها بالعقل على ما يقول أصحابها ويعتقدون ، وهم في هذا القول إما أن يكونوا مصيبين أو مخطئين ، فإن

كانوا مصيبين ، فالعقل شاهد كاذب ، لأنه منح شهادته للأديان والمذاهب الباطلة ، وإن كانوا مخطئين ، فالعقل إذن لا يصح الاعتماد عليه ، لأنه حاكم جريح الموهبة ، يأوي اليه الصادقون والكاذبون . فلا يؤتمن إذن .

ولكن هاهنا أمران :

أحدهما ان العقل لم يستشر في أمر الأديان ، وإنما أُخذت بالتلقين والتتابع ، فالذين يولدون في أي دين يكونون من أهله . واذا كان العلماء والمفكرون والزعماء في اوروبا وامريكا مسيحيين ، وكان الفلاحون والعمال ورجال الدين عندنا مسلمين لم يكن ممكناً ان يعني ذلك ان هؤلاء المسيحيين ليسوا أذكياء ولا عقلاء ولا أحراراً ولا مخلصين ، وأن فلاحينا وعمالنا ومشايخنا هم وحدهم العقلاء والأحرار والمفكرون الأذكياء ، لست مسلماً ولا يهودياً ولا مسيحياً لأنك أذكى أو أعشق للحق من صديقك وزميلك الذي يدين ديناً آخر . إن الناس يجدون اديانهم كما يجدون اوطانهم وأرضهم وبيوتهم وآباءهم — إنهم يجدونها فقط . والعقل لا يدري ولا يستشار ! ولكن البشر بعد أن يرتبوا معتقداتهم ويسلموا بها تسليماً ، يحاولون أن يدخلوا عليها العقل ويسوغوها به ، أي يحاولون ان يزكوها به ، لا أن يحكموه فيها ، فهي لم توضع تحت تصرفه ، وإنما وضع هو في خدمتها . والبشر ، لأنهم مفروضون من المخلوقات العاقلة ، لا يجدون بداً من ان يفترضوا تصرفاتهم كلها محكومة بالعقل ، حتى اكثرها مجانبة للعقل .

ومن الكلام الشائع ان الناس يعتقدون ثم يفكرون ، وهذا غير صحيح حتما ، والصحيح ان الناس يعتقدون ثم لا يفكرون ، أو يفكرون فيما يجعلهم لا يفكرون ، لأنهم بعد الاعتقاد لا يعرضون عقائدهم على الفكر للنقد والاختبار والدراسة . وكل ما يفعلون ان يستعينوا بالعقل على تقوية اعتقاداتهم وزعمها صحيحة ، انهم يسخرون العقل لخدمة ما ليس عقلاً — يسخرون العقل لاخماد العقل . فالمعتقد يفكر اذا فكر ضد التفكير ، اي انه يحارب التفكير باسلوب يجعله يظن انه يفكر ، بل ان التفكير هو دائماً مقاومة للتفكير على نحو ما .

ولو كانت الاديان خاضعة لحكم العقل لضاقت الخلافات بينها وتناقصت أو

لتداخلت وتوحدت كلها في دين واحد كالذي حدث في الشئون العلمية والصناعية التي ابتكرها العقل. فالحضارة تتقارب وتتوحد عند سائر الشعوب مهما تباعدت واختلفت في بداياتها . هل اختلف البشر في الرياضيات وفي الكشوف العلمية أو في حجم الشمس والقمر مثل اختلافهم في اديانهم ومذاهبهم ؟ وكذلك لو كانت الاديان تؤخذ بالعقل والمنطق لوجدنا المؤمنين يخرجون من دين الى دين بالسرعة والسهولة التي ينتقل بها الناس من فكر الى فكر ومن فلسفة الى فلسفة ، بل الناس يخشون على اديانهم وعقائدهم من تعريضها للمنطق . وهم يرون الذين يخضعون المعتقدات للتفكير الحر زنادقة ، يحاربون ويكرهون وتجب البراءة منهم ! انه توجد معركة واحدة تنتصر فيها الاديان ، تلك هي الا تدخل معركة ضد أي خصم من خصومها !

ان حقائقنا متولدة عن رغباتنا ومخاوفنا — عن لذاتنا وآلامنا ، لا عن افكارنا ، فالمخاوف والرغبات تخلق التصورات التي كثيراً ما تكون ضالة وعاجزة وغير متصلة بالتفكير . والخوف والحاجة — لا البرهان — هما اللذان اخترعا لنا عوالم الاشباح والارواح وكل ما وراء الحس من اوهام رهيبة او بهيجة ثم جعلانا نؤمن بها كأننا نراها بل جعلانا نراها . ومع ان التصورات حقيقة فان الصور ليست كذلك دائماً ، فالاولى انطلاقة قذيفة موجودة ، ولكن ليس حتما ان تصيب الهدف ، بل ولا ان يكون هناك هدف . فالتصور حالة لا صورة !

ماذا لو كان الانسان يعيش بلا رغبة ولا رهبة ؟ انه سيكون حينئذ من غير تصور لأن التصور من عمل الحاجة ، والذين لا يحتاجون لا يتصورون ، ولولا الصور النفسية لما كانت الآلهة والعقائد والتقاليد . ونحن نعتقد لأننا نتألم ، لا لأننا نعلم ، ولا لأن الكون محتاج الى عقائدنا ، ولا لأن الآلهة تطالبنا بذلك او تفرح به ، ولا لأن شيئاً من القيم يفرض علينا هذا الاعتقاد . اننا سوف نعتقد حتى لو حرمت علينا الآلهة والاخلاق العقائد ، نحن لا نبحث في اعتقادنا عن رضا شيء ولا عن احترام شيء ولا عن الحقيقة في ذاتها ! اننا نعصي لنؤمن — نعصي أربابنا لنؤمن بها ، نحن لا نريد بعبادتنا ان نطيع ، الطاعة والمعصية شيء

واحد. ان السماء لو ارسلت الينا كل انبيائها ينهوننا عن الايمان ويحرمون علينا كل عبادة لعصيناكل هؤلاء الانبياء وبقينا نؤمن ونصلي ونتعبد ، فالعبادة استفراغ روحي وعملية جنسية تؤديها الروح لحسابها لا لحساب الآلهة . لقد عبدنا الرجال الصالحين الذين جاءونا لينهونا عن عبادة البشر .

ليست أربابنا وعقائدنا قيماً ولا أخلاقاً ولا تفكيراً وانما هي شهوات وانانية ، وليس المؤمن المتعبد بمريد للفضيلة ولا بفاعل لها الا بقدر ما يريدها ويفعلها اولئك الذين يستجيبون لشهواتهم وأغراضهم المحرمة ويتركون في سبيلها الاخلاق المعترف بها ! والشيء – سواء أكان حقيقة أم وهماً لا يعنينا بذاته وانما يعنينا بقدر حاجتنا – ولو الوهمية – اليه ، وليست قيمة الآلهة موجودة في نفس الآلهة ولكن في ارادتنا وشهوتنا ، وأدلة عقائدنا لا توجد في عقائدنا وانما توجد في ظروفنا وفي اعتيادنا لها . والبشر في العادة تتراءى لهم أربابهم وعقائدهم التي تتعلق بها ارادتهم ومستوياتهم كما يتراءى الطعام للجائعين وصور النساء للمحرومين جنسياً في أحلامهم ، وهذا لا يعني اكثر من اننا نريد فنرى ونعتقد ، والارادات والعقائد ليست حقائق خارجية بل تصورات ذاتية . والقصة تتألف هكذا : أردنا فتصورنا فاعتقدنا فاقتنعنا ! لقد احتلمنا بالآلهة كما احتلم الجائعون بالخبز . والخوف من السماء فضيلة بقدر ما الخوف من الظلام فضيلة ! وأسباب الايمان بالأرباب هي نفس أسباب الايمان بوجود الأشباح ! وكما لا يجب على الآخرين أن يريدوا حين نريد ، كذلك لا يجب عليهم أن يريدوا ما نريد !

ان الوجود بكل ما فيه من حقائق وبشر ومعارف وآلهة واخلاق ومبادىء لا يساوي في حسابنا اكثر من رغبتنا فيه وشعورنا نحوه . والعالم لذلك جزء منا كما نحن جزء منه ، منبثق عنا كما نحن منبثقون عنه ، وهو بنا يتغير وينفعل ويصغر ويكبر أكثر مما يحدث العكس ، ومعانيه المحبوبة والمكروهة ، الدالة والنافية موجودة فينا اكثر من وجودها فيه هو ! وهل يتحقق معنى الوجود لو لم نوجد نحن؟ فالوجود معنى يحدده الادراك وحده ، وبغير الادراك لا يمكن التمييز بين معنى الوجود ومعنى ضده ، بل لا يمكن التمييز بين معنى ومعنى ووجود ووجود .

فنحن اذن لشعورنا وادراكنا الموجدون للحقائق الفكرية والأدبية كلها ، الواهبون للاشياء صفاتها وقيمها وقوانينها ودلالاتهـا وحدودها ! والبشر اذن بصفتهم الادراكية هم الذين لهم وحدهم ان يحكموا على كل شيء وفي كل شيء ، وليس لشيء ما ان يحكم عليهم !

*

أما الأمر الثاني عن التشكيل في قيمة العقل فهو :

اذا لم يقبلوا حكم العقل في الأديان لأنه يؤيد باطلهـا فأي شيء اذن يقبلون حكمه؟ انه اذن من الممكن اختراع أرباب وأديان باطلة لا عداد لها ثم الاستمساك بها ورفض ما عداها من غير ان توجد حجة تبطل ذلك ، بل من غير ان يجوز لنا الانكار على المؤمنين بها ، ومناقشتهم ! ولا نستطيع حينئذ ان نعرف أي الأديان والأرباب الحق وايها الباطل . ومن الجائز في هذه الحالة ان نكون نحن الهالكين والآخرون هم الناجين ، فنشقي انفسنا بالأعمـال الشاقة لنصير مصيراً نجهل نهايته ، انه لا وسيلة للمعرفة على هذا الافتراض !

ان الأديان والآلهة التي يمكن ابتداعها يوم يعزل العقل اكثر من التي يمكن ابتداعها يوم يحكم !

ويقول قائلون : ان العقل ليس شيئاً يمكن ضبطه بالابعاد او بالثقل او باللون بل هو احياناً يشبه العاطفة في سرعـة تقلبه وكثرة اختلاف الناس فيه . ان انفعالات النفس وما يختلف على الجسم من صحة ومرض وراحة وتعب وما يحيط به من اختلاف الظروف الاجتماعية بـل اختلاف الظروف الجوية من حر وبرد واعتدال – ان ذلك كله وأمثاله يؤثر في حكم العقل وفي تناقضه حتى ان الانسان الواحد ليحكم أحكاماً عقلية عديدة على الامر المعين الواحد تحت ظروف مختلفة ! ان العقل الذي لا يتناقض هو العقل الذي قد مـات ، ولا يحتمل ان يثبت أي انسان كل حياته على حكم عقل واحد . فكيف يصح اذن اتخاذ العقل حكماً على الاعتقادات ! انه في هذه الحالة لا يوجد ما يمنع من أن مرضاً طفيفاً يصيب الانسان يعبث بميزان اعتقاداته ، وقد يتغير رأيه تحت اختلاف هذه الظروف وهو قـائم يؤدي عباداته فيسخر حينئذ من عقله وعقائده ويرى ان العقل في ان يخرج من

عبادته كما يخرج من ألعابه متى شعر بالتعب او الملل او الحرج او الخطأ !

واذا كان من الضروري ان يدفع عن العقل كل هجوم فان من الضروري ان يقال ان هذا الذي ذكر ليس حقاً كله وان كان ايضاً ليس باطلاً ، فالعقل حقاً يتأثر ويتغير ويتحرك بسرعة ،ويؤيد ثم يناقض ويفعل العكس لأنه حي،والحياة حركة ، والحركة تغير ، وهو في حركته وتغيره يصنع الحقيقة ويصل اليها ويعبر عنها ، ولو كان جامداً ثابتاً لما كان شيئاً . وما دام العقل يعكس دائماً الحقيقةالتي حوله فلا بد ان يتغير وان يتناقض لأن الحقيقة كذلك ، العقل يتغير لأنه شيء قوي . فالشيء لا يثبت على حال ، والقوي اكثر تغيراً من الضعيف، وغير الشيء – غير الموجود هو الدائم الثابت لأنه لا شيء !

وتناقض العقل ليس ضعفاً فيه ، ولكن تناقضه يعني انه يعمل في عدة ميادين وينظر الى كل الجهات ! والعقل هو الذي يدرك تناقض العقل ، فالتناقض وادراك التناقض اسلوبان عقليان ! والعقل ايضاً هو الذي يدرك سخف العقل وهزائمه . ان العقل ناقداً ومنقوداً هو كل المعرفة .

والحياة لا تقبل الثبات ولا الديمومة ، والثبات والديمومة من اختراع الوهم . فالخرافة تدعو الى الدوام – والخرافة اكثر دواماً من الحقيقة . والشيء الذي نتصوره ثابتاً انما نتصوره كوهم ولو تصورناه حقيقة لتصورناه متغيراً وقد تصور الانسان أشياء ثابتة لأنه لم يكن يبحث عن الحقيقة .

والعقل وحده هو الذي توصل الى انه يجب ان يتحول الى تجربة حسية ، وهو نفسه الصانع للتجربة الحسية . وقد انتهى الى أن المنطق المجرد ينتهي أيضاً الى منطق مجرد .

فالعقل هو عمل الوجود الحسي – هذا هو حكم العقل وعمله ، والعقل وحده هو الذي هدم العقل . ان الوجود الحسي هو الحقيقة – هكذا تكلم العقل !

*

وبعد فكل الدلائل التي تقال للتشكيك في قيمة العقل إما أن تكون دلائل عقلية او غير عقلية ، فان كانت عقلية فالعقل إما أن يكون حكماً مرضي الحكم

او ليس كذلك . فان كان الرأي هو الأول هوت جميع المطاعن فيه ، وان كان الرأي هو الثاني سقطت هذه الدلائل أيضاً لأنها دلائل عقلية وقد فرضت باطلة . أما إن كان ما يقال من محاولة هدم العقل ليس رأيـاً صادراً عن العقل فكيف نرتضيه وبأية وسيلة نعلم أنه حق والى ماذا حينئذ يجب ان يكون الاحتكام ؟ لن تستطيع أن تثق أيها المؤمن بأنك على الدين الحق وان مخالفك على الدين الباطل إلا إذا احتكمت الى العقليات ، وانت في هذه الحالة لم تفعل ذلك فكيف ضمنت لنفسك المصير الذي تريده وتنتظره ؟

ان كانت حجتك في ضمان هذا المصير هو رغبتك فيه لارتباطك النفسي والاجتماعي به ولتآلفك الطويل معه ، فاعلم ان جميع مخالفيك هم جميعاً مثلك في رغبتهم وارتباطهم وتآلفهم ، وان كانت حجتك هي اطمئنانك ورضاك عما انت فاعل وعن نفسك ، فاعلم ان الآخرين كلهم يرون ويطمئنون كذلك ، وان كانت حجتك هي انك وجدت مجتمعك كله يرى رأيك ويعتقد اعتقادك ، فاعلم ان كل المجتمعات كذلك ، واما ان كانت حجتك انك تريد الأخذ بالاحتياط لنفسك فتؤمن بما لا دليل عليه لتكون واثقاً من النجاة على افتراض صحته ، فاعلم ان هذا الاحتياط لن يتم لك إلا بأن تؤمن وتكفر بكل شيء في نفس واحد ، إذ لو آمنت ببعض ما عند الناس لما كنت آخذاً بأسباب الاحتياط ، فان ما كفرت به حينئذ قد يكون هو الذي فيه النجاة دون ما سواه ، وحينئذ تكون هالكاً ، فلو آمنت بدين الاسلام او الدين المسيحي على افتراضه دينك ، لكان من المحتمل ان تكون النجاة في الأديان الاخرى . واذن لا بد لك من الايمان بكل الأديان لكي تكون محتاطاً لنفسك . ولكن ايمانك بكل الأديان يخالف كل الأديان ، وهو تناقض لأنك اذا آمنت بدين واحد كان معنى هذا انكارك للديانات الاخرى المخالفة للدين الذي آمنت به . فلا نجاة لك اذا آمنت ولا اذا كفرت ! انه ما من مذهب من المذاهب إلا وهو كفر او خروج عند طائفة من المؤمنين ، وانت لن تكون ناجياً يقيناً على هذا المذهب إلا اذا تبرأت من كل ما اعتقد انه قد يؤدي الى الهلاك ! وإذن لا يمكن الاحتياط إلا بالايمان المطلق

والكفر المطلق مجتمعين في عقيدة واحدة ووقت واحد ! فالاحتيـاط لا يكون بالايمان بكل العقائد ولا بالايمان ببعض العقائد ، بل مبدأ الايمان خطر على هـذا التفكير ، بقدر ما الخروج من كل الايمان خطر ! فالايمان يجعلك تصدق ان النجاة لا تكون إلا بصورة من صور العقـائد ، وحينئذ أية هذه العقائد تهب النجاة ؟ انك لن تجد حلاً لهذه المشكلة .

✡

ومع هذا فالرأي ما سبق ، وهو ان البشر لا يعرفون بعقولهم ولا بعواطفهم ولا بإلهامهم — وهم لا يحيون او يتكاملون بارادة الحق ولا بالمعرفة ، ولا يريدون هذه المعرفة ولا هذا الحق. وانما هم كوحدات هذا الوجود الاخرى — كالصخور والجبال والنباتات ، يوجـدون بالضرورة ويحيون ويتغيرون بالحركة ، ويعرفون بالاصطدام والالتئام . ولهم ارادة ولهم قدرة ، فقدرتهم توجد قدرتهم وتحركها لأنهم مادة ، وارادتهم تحرك قدرتهم لأنهم حياة ، وبالحركة والارادة تكون كل أعمال الانسان . وليس العلم والتفكير وجميـع قوى الانسان الاخرى إلا تفسيراً ورصداً للحركة .

وكما ان وظيفـة الحواس ان تفسر الاشياء لا ان توجدها او ان تضع لهـا أحكاماً أدبية ، فكذلك العقل . فالبصر يرى والأذن تسمع دون ان توجد ، وهكذا يفعل العقل ، والعقل لا يستطيع ان يحكم بأن هذا خير او شر ، حق او باطل إلا بقدر ما تحكم العين او الأذن ! فالخلق والحكم من عمل الحركة وحدها . واذا حكم العقل فحكمه ان يرى الحركة فقط .

اذا قال : هذا باطـل او شر ، كان يعني ان الحركة في حـالة تصادم ، واذا قال : هذا حق او خير ، كان يعني ان الحركة في حالة توافق ، مثل ان يقول : هذا اسود او احمر ، انه رأى الحركة تحكم فحكم . فالبشر يتحركون ثم يفهمون ، ولا يفهمون ثم يتحركون . والمنطق دائماً محكوم بالحركة ، ولكن الحركة لا تحكم بالمنطق .

✡

يمكن فهم الكون وتفسيره اذا افترض محكوماً بذاته، ولكنه لن يكون مفهوماً ولا معقولاً اذا افترض محكوماً بالآلهة أو بالتدبير الخارجي او حتى بالابالسة والارواح الشريرة . فالافتراض الأول يعني فهم العالم كشيء لا يعني شيئاً ، اما الافتراض الثاني فيعني فهمه كفضيلة وفكرة وارادة ! معنى الاول فهم الاشياء كما هي نفسها ، ومعنى الثاني فهمها كما هي غير نفسها . وان الوجود يمكن تفسيره ، ولكن لا يمكن تبريره!

وحينما اراد الانسان ان يفسر الكون كمنطق وكتدبير اعلى ، جعله شيئاً لا يمكن فهمه ولا الاعتذار عنه . وهل يستطيع اي منطق ان يفسر كيف يكون معقولا او ممكناً أن تجتمع كل الآلهة القادرة الخيرة وكل الارواح العلوية وكل العباقرة من البشر ، ليسخروا كل عبقريتهم وفضيلتهم وعدالتهم في خلق ذبابة او طاغية او جرثومة مرض ، او خلق صخرة حادة فوق قمة جبل او في قاع محيط ، او في خلق أحد الاغبياء والمجانين ؟ وهل منطق ان تكون كل معاني الآلهة مصبوبة في هذا الحجر او في هذا الحيوان المريض او النبتة المتوحشة ؟ او هل من المنطق ان جميع هؤلاء الآلهة والعباقرة والارواح الفاضلة لم يجدوا في اخلاقهم ولا في علمهم ولا في تفكيرهم ولا في موهبتهم الفنية صورة للخلق والابداع افضل او اقوى مما فعلوا ؟ وهل هذا الذي حدث هو اكمل جميع الاحتمالات في قدرة هؤلاء القادرين ، وهل لو فعلوا افضل مما فعلوا لتعذبوا او رفض العالم الذي صنعوه ان يكون افضل ؟

من السهل او المحتمل ان نفهم الصواعق والزلازل والبراكين وغيرها من التعبيرات العنيفة العابثة على انها حركات ذاتية لا منطق فيها ولا غرض كأنها حركة المريض المغلوب على أمره ، ولكن من المستحيل فهمها على انها منطق مدبر حكيم !

لقد آمن الانسان بأن للكون منطقاً اخلاقياً وفكرياً، هو اعظم ما استطاع أن يتصور ، وهذا المنطق الكوني هو البرهان الكبير المشهود الذي برر به ايمانه بوجود إله عظيم مثالي في حكمته واخلاقيته . ولولا ايمانه بمنطق الكون لما آمن

بمنطق الإله ، فالكون ومنطقه هما الله ومنطقه ! ولكن كيف آمن بأن للكون منطقاً ؟ ان تصرف الكون لا يمكن ان يتوافق مع أي تصرف من تصرفات العقلاء ، ومنطق الانسان نفسه يخالف منطق الكون ويلعنه ! ولو أن أي انسان اراد ان يتصرف بالأسلوب الذي يتصرف به الكون لتفوق على جميع المجرمين والمجانين في حماقته وظلمه وقسوته ، ولكان محتوما ان تشنقه الجماهير الصابرة على قارعة الطريق !

وان افسق طاغية واقسى مجرم قاتل ، لا يمكن ان يهبطا في طغيانهما وفسوقهما الى مستوى الكون ، وكل الطغاة والقتلة والفاسدين يتمنون ان يسمح لهم بأن يكونوا فضلاء بالاسلوب الذي اصبح به الكون فاضلاً ! ماذا لو طالب البشر حكامهم ان يحكموهم بمنطق الكون ، وماذا لو عامل الناس بعضهم بعضاً بهذا المنطق ؟

ان الانسان لم ير منطقاً غير منطقه هو ليتعامل عليه وليجعله مثالا للمنطق الذي يؤمن به والذي يتصور ، وليقيس به منطق الكون . واذن فبأي منطق جعل للكون منطقاً ؟ إن كان ذلك بالقياس والمثال ، فلا قياس ولا مثال ، لأن منطقه هو منطق خارج على المنطق الكوني وكافر به . وهل رأى منطقاً غير منطقه ؟ وان كان ذلك بالتفكير المجرد ، فالتفكير المجرد ينكر منطقية الكون ويراه متوحشاً ضالاً ، يضرب ويعطي بلا حكمة وبلا رحمة ، اذا فعل الخير والحياة ، فبالقصد والقانون اللذين يفعل بهما الشر والموت ، وخنق الحياة في الزهرة يساوي عنده إنماء الحياة في الحشرة القاتلة ، وهو يفعل الشيء بالاسلوب الذي يفعل به ضده ! ولهذا فان كل اعمال الإنسان وحضاراته مصروفة الى مقاومة الكون والتعديل عليه ! ليست الحضارة في كل تعبيراتها الا مقاومة للحكمة والمنطق الموجودين في الانسان والحياة والكون ! ولا يوجد انسان واحد حتى ولا من المؤمنين بعدالة الكون ومنطقه كأعظم مثل يقبل ان يعامله أحد أو أن يعامل هو أحداً بالاسلوب الكوني . ولو استطاع البشر ان يحاكموا الكون ، لما وجدوا عقوبة تكفي للقصاص منه !

لقد رأى الانسان في حياته منطقين فقط : منطقه هو ومنطق الكون ،

وهما مختلفان اشد الاختلاف ، وكان محتوماً عليه ان يخضع احدهما للاخر ، لا بد من ذلك ! واخضاع منطقه لمنطق الكون لم يكن محتملاً لانه انتحار وجنون ، أما الفرض الثاني فهو الذي اختاره الانسان وهو موضوع حضارته ، وكل انواع نضاله . واريد بمنطق الكون هنا وحينما ذكرته كينونته كما هو — كينونته الخارجة على كل انواع المنطق ! واذا لم يكن للكون منطق فكيف عد منطق الإله اسمى منطق مع انه لا منطق للإله غير منطق الكون — كيف أمكن الايمان بوجود إله مفكر منطقي أخلاقي مع أنه لا دليل عليه سوى هذا الكون الذي لا عقل له ولا أخلاق ؟

لقد وجد الانسان في الكون ما يلائمه احياناً ، ولم يكن يستطيع ان يفسر ذلك تفسيراً علمياً ، فركز اهتمامه في هذا الذي يلائمه . ولم يستطع الالتفات الى الحقائق الاخرى التي لا تلائمه ، بل الحقائق الاخرى التي تصدمه وتحاربه وتناقض كل احتياجاته واصول تفكيره واخلاقه . فكانت النتيجة ان آمن بأن الكون يسير بمنطق طيب معقول ! ومثل هذا ان الناس كانوا يؤمنون بآلهتهم ويدعونها حين الشدائد والاحتياج ، ويطلبون منها مطالب كثيرة متنوعة ، فتقع بعض هذه المطالب في اوانها كما تطلع الشمس ويفيض النهر في اوانهما حتما . فيذهب المؤمنون يركزون اهتمامهم في ذلك ويرون ان الآلهة قد استجابت لهم وانها ترعاهم وتحقق مطالبهم ، ويتغافلون حينئذ عن الاحتياجات والدعوات الكثيرة التي لا تستجاب ! والذين يؤمنون بالسحر سيجدون في التوافق الزمني ما يبرر ايمانهم ! والدعوات التي تستجاب لا بد ان تستجاب حتى ولو طلب من الآلهة ألا تستجيب !

واذا هتف كل المرضى بالآلهة والأصنام وقدموا لها النذور والصلوات لتشفيهم ، فحدث ان شفي منهم عدد قليل لان المرض قد أخذ دوره وانتهى ، ولأن حياتهم كانت أقوى من المرض كما يشفى من يلعنون الآلهة ومن لا يؤمنون بأي دين ولا بأي إله — اذا حدث ذلك فسوف يذهبون يتحدثون عن اولئك المرضى الذين شفوا ، وينسون قصة الآخرين الأكثرين الذين ماتوا لأن المرض كان أقوى منهم ! ينسون اولئك الذين لم تنفعهم صلواتهم ولا نذورهم ! والارتباط بين

حدوث الحدث والعقيدة ارتباط ذهني لا واقعي . مثلاً : المؤمن الذي يضع البذر في الارض ويقول : باذن الله تنمو ! لا توجد أية علاقة بين نمو النبات وبين هذا القول الا في ذهن ذلك المؤمن ، ولهذا فان النتيجة لا تختلف لو قال : ستنمو باذن الشيطان او باذن الصنم او على رغم كل مشيئة !

ولو كانت دعوات الآلهة تستجاب لكانت ورطة لا مخرج منها ، اذ ماذا يكون الوضع لو ان خصمين متحاربين يؤمنان بإله واحد ، دعا كل منهما إلهه لكي يكون الى جانبه ضد خصمه - كيف يتصرف حينئذ ذلك الإله المتورط في هذا الموقف الذي لا مثيل له في الحرج ؟ وكذلك كيف يكون الوضع اذا كان هناك آلهة كثيرة لعدة خصوم متحاربين فدعوها كلها لتفصل بينهم ولينصر كل إله فريقه ؟ سيكون الجواب هنا : ان الآلهة لا تفعل ما يطلب أو يراد منها بل ما ينبغي لها . ولكن يكون معنى هذا الجواب ان الآلهة لا تستجيب لمن يدعونها ويصلون لها ، وكان المفروض انها تستجيب !

ثم هل الآلهة حقاً تفعل ما ينبغي لها فعله - هل تفعل كل العدل والحق والفضيلة ؟ ان معنى هذا ألا يوجد في هذا الكون ما ينبغي ان يغيره الانسان أو يقاومه أو يلعنه أو ينكره ويعذبه ، الا اذا كانت هذه الآلهة عاجزة عن بلوغ ما تريد وبلوغ الكمال الذي تنشده الا بهذه الآلام والنقائص والشرور ! هل الآلهة لا تستطيع ان تصنع الكون او الانسان كاملاً الا بالعذاب والرذائل والمظالم ؟

ان معنى هذا لو كان صحيحاً ان توجد الأشياء طبقما في نفس الإله وطبق صوره العقلية وطبق مثل الانسان الفكرية والاخلاقية !

وهذه النقائص في الكون والانسان إما أن تكون احتياجاً او شهوة ! والآلهة لا تحتاج الى النقائص ولا تشهيها ! واذن كيف ولأية حكمة أو مصلحة وجدت النقائص ؟ لا يمكن وجودها مع وجود حكمة خالقة ! حينما نريد

الدفاع عن ذلك نقول : ان الحياة لا معنى لهـا بدون الآلام والمتاعب والاثم وجميع الشرور الأخرى ؟ ولكن القادر المطلق القدرة ، والخير المطلق الخير ، ألا يستطيع أن يجعل للحياة وللبشر كل معنى وكل شعور بالسعادة بدون هـذه الوسيلة الاليمة السخيفة ؟ ان الطبيب لا يمكن أن يعمل عملية جراحية الا اذا لم يجد وسيلة أخرى . وأنت وأنا وكل الناس لو استطاعوا أن يجعلوا اولادهم كاملين وأقوياء وناجحين ومتعلمين وعارفين ما تطلب معرفته من غير تعذيب وتأديب واكراه على الذهاب الى المدارس ، هل يمكن أن يلزموهم بشيء من ذلك ؟

ولو ان أية حكومة في الدنيا راحت تنشر في الناس الفقر والجوع والفسوق والنقائص والأمراض وكل مـا يحدث الآلام ، مفسرة تصرفها هذا بأنها تعلمهم الصبر والقدرة على النضال وممارسة الأخطار وتهبهم فرصة الشعور بلذة الفوز في المعارك ولذة العمل والانتقال من النقيض الى النقيض ، وتهبهم كذلك اسباب تكامل الشخصية ، لكانت هذه الحكومة أفضل جداً من الإله الذي يفعل هذه الأشياء نفسها للغاية المذكورة نفسها ! والذين يبررون للإله فعل الألم ، هم أشد غباء من الذين يبررون فعل الألم للحكام والبشر ، والذي يصنع الشر وهو غـير محتاج اليه ويستطيع ألا يصنعه شر جداً من الذي يصنعه وهو محتاج اليه وعاجز عن تركه ! وقد يوجد عذر للمحتاجين العاجزين اذا خرجوا على السلوك والتفكير المثاليين، ولكن أي عذر للإله اذا خرج على ذلك! والذي تكون شريعته فرض المثالية كيف تكون حكمته الخروج على المثالية ! كيف يطالب الناس بفعـل أشياء يضيرهم أن يفعلوها ، وهو لا يفعلها مع انه لا يضيره فعلها ، ويعاقبهم على أشياء هو يفعلها مع انهم هم يفعلونها بالشهوة والضرورة وهو يفعلها بلا شهوة ولا ضرورة ؟ ولو كانت هـذه التفسيرات لافعال الإله صحيحة ، لكان الحكام الفاسدون اللصوص القتلة هم أفضل الحكام لأنهم بفعالهم الشريرة المؤلمة يحققون الأهداف النهائية الحكيمة التي تحققها تصرفات الإله الحكيم بمـا يفعله من ألم وحرمان وقسوة وفوضى !

*

وهذا الاتجاه الذي يجعل الناس في الأكثر ينظرون الى جانب واحد من أية قضية ومشكلة وأية ظاهرة ويفسرونها بوجه واحد من وجوه وجودها هو الذي صنع المبررات الدائمة في جميع العصور والمجتمعات للاقتناع بقيمة الدجالين والمهرجين والأدعياء والأنبياء الزائفين وبقيمة الأحلام والأوهام الكبرى ! فالذي يكذب في كل الاتجاهات وعلى كل الاحتمالات ، لا بد ان تصدق بعض اكاذيبه ، ولو أراد أن يكون كاذباً دائماً ، لما استطاع ما دام يكذب دائماً . فالضرورة تجعل الكاذب دائماً صادقاً احياناً . والكذب ليس هو الا تقول الصدق بل هو الا تريده — ليس الكذب هو ألا تصدق بل هو أن تكذب ! والذي يحلم برؤية نفسه لا بد أن يكون صادقاً ، والذي تكثر رؤاه لا بد أن يصدق بعضها بقانون الانتشار العشوائي ! والانتشار العشوائي قانون ونتائجه قانونية !

وميل الناس الى ان يروا جانباً واحداً فقط من مشاكلهم وواقعهم ، هو الذي جعل الجماهير لا ترى إلا صورة واحدة لحكامها وزعمائها حينما تريد الايمان بهم والدفاع عنهم ، وحينما تريد الخروج عليهم والكفر بهم . فهي في الحالةالأولى لا ترى منهم الا الانتصارات والمواقف الطيبة وتغفل عما عدا ذلك ، وفي الحالة الثانية تفعل العكس ! وهذا الميل هو السبب في التفسيرات الخاطئة التي كان الانسان منذ وجد يفسر بها الحياة والاحداث والكون ، ويفسر بها نفسه . إن الانسان يعي ويتذكر ما يلائمه اكثر من وعيه وتذكره لما لا يلائمه ! وهو لا يستطيع ان يعدل في شعوره بين الحدث الذي يصنع له سروراً والحدث الذي يصنع له ألماً ، وليس في قدرته أن يكون حكيماً او معتدلاً أو محايداً بين ما يريد وما يكره. وكذلك لا يستطيع ان يقف بين المتناقضات متناقضاً او فاهماً لموقفه او مقسماً لميوله ونفسه بين هذا وهذا ، بل يريد دائماً ان يتخذ موقفاً منحازاً متعصباًجائراً — موقفاً قاطعاً ومؤمناً،حيث لا قطع ولا اسباب للايمان!

الانسان يهاب الأفكار المتناقضة ، ويهرب من الاقتناع او الشعور بأنه في

موقف فكري متناقض ، ويستريح الى اتخاذ الأفكار القاطعة والايمان بوجهة النظر الواحدة مهما تناقض في سلوكه ومواقفه ، بل هو لا يكون إلا متناقضاً في ذلك . وضعف الافكار عنده وتوزعها يعني في شعوره ضعف الذات وتوزعها .

ولهذا يتفرق الناس في ايمانهم بين المذاهب والنظريات والأديان والنظم ، وكل منهم يؤمن بما عنده بحماس ويراه وحده الحقيقة ، وكأنه لا يوجد شيء آخر غيره او لا يرى ذلك الشيء الآخر ! وهو لا يطيق ان يرى الحقيقة احتمالاً او توزيعاً بين المختلفين ! عجباً ! كيف لا يدرك ان لاعتقاد الآخرين ما يبرره او ما يجعله احتمالاً مثلما لاعتقاداته هو؟ وقد ينتقل الناس من الايمان بمذهب ونظام الى الايمان بنقيضه ، ولكنهم لا ينتقلون الى الايمان بذلك كاحتمال او كجانب واحد من الحقيقة ! هم يريدون أن يكون هذا الشيء إما خيراً وإما شراً ، وهذا الانسان إما فاضلاً فقط وإما رديئاً فقط—يريدون صوراً ذهنية موضوعة في إطارات ثابتة ، ولا يطيقون الصور الذهنية المهزوزة او المتحركة ! ولهذا حولوا تصوراتهم الى موجودات متحددة مختلفة — حولوها وقسموها الى آلهة وملائكة وقديسين والى أبالسة وأشرار ، والى حقائق وأوهام وعقائد كبرى .

وهذا تحويل وتقسيم لأنفسهم لا للواقع .

*

وهل يأذن لي القارىء بتلخيص بعض ما سبق بالعبارات التالية :

الناس لا يحيون او يتعاملون او يريدون بل ولا يفهمون او يفكرون بالمنطق ، فالمنطق لا يقود حياة الانسان وانما يحاول تفسيرها او تبريرها . ولهذا فإنه لا يمكن أن يعالج أي نزاع او يوجد أي تفاهم بين البشر ، واذا توافقوا او تصادقوا فبالضرورة والمصلحة والظروف ، او كما تتوافق المادة مع المادة . والتوافق المنطقي تابع للتوافق المصلحي والاضطراري والمادي والانفعالي النفسي. فتوافق الناس الفكري مسبوق ومحكوم بتوافق غير فكري !

والمنطق في تقدير كل انسان وكل فريق هو ما يشعر نحوه شعوراً ملائماً او ما

يحياه او ما يضطر الى الالتزام به . ودائماً نرى الشيء ونقيضه منطقاً بدرجة قد تكون متساوية ! فإذا كنت تعيش في نظام او مذهب او اعتقاد ، كان ذلك هو المنطق ، واذا تحولت الى نقيضه صار ذلك النقيض هــو المنطق أيضاً ، وانت ومخالفك كلا كما يرى مالديه هو المنطق – كلا كما يرى شيطانه هو القديس ،وكلا كما يرى الله معه وحده.انه لا منطق بدون انسان وبدون ارادة وظروف انسانية، ولا حق ولا باطل إلا في حياة الانسان . فالمنطق ليس شيئاً – انه هو الانسان! وحينما تشعر انكخارج على المنطق فانما يعني ذلك شعورك انك خارج علىإحدى رغباتك او على إحدى المقررات السابقة ، او يكون معنى ذلك ان ظروفك بدأت تشعرك انك لا بد ان تتغير وان مصالحك قد أصبحت في الجانب الآخر ! وإذا قال الناس انهم يحترمون المنطق او يبحثون عنه فالمعنى انهم يحترمون ما يريدون ويبحثون عن هذا الذي يريدون ! وإذا أنكرت على انسان خروجهعلى المنطق فأنت في الواقع تنكر عليه خروجه عــلى عقائدك ومسلماتك – تعني خروجه عليك ! وإذا طلبت من الآخرين أن يكونوا منطقيين ، كنت تعني أن يكونوا متلائمين معك ، ومتبعين لك مسلمين برأيك . فقيمة الحق عندك تساوي قيمته في نفسك وفي مصالحك !ومن وقف عند منطقه بعناد فإنما يقف عند ذاته !

اننا لا نولد منطقيين ، ولا نولد وفينا شوق الى المنطق ، ولكننا نتعلم المنطق بالضرورة والإلزام كما نتعلم اللغة والصلاة والكتابة وملاحظة الأشيــاء وتفادي السقوط في الحفر ! اننا سابقون على منطقنا وموجدون له !

وأنا اعني بالمنطق كلما ذكرته تحويل الشيء الى صيغة نفسية !

ونحن نحيا ونصنع تصرفاتنا وجميع اعمالنا الكبيرة بالاسلوب الذي تحيـا به الحشرات والطيور وتصنع أعشاشها وتصرفاتها وخصائصها السلوكيـة والنفسية من غير منطق ولا مثل فكري او اخلاقي !

وقد نظن اننا نصنع حضاراتنا وعلومنـا وكل ابتكارات حياتنـا بالمنطق وبالمثل والمبادىء . ولكن ما الذي يصنع ألوان الزهرة وضوء الشمس وعصف

الريح ومجرى النهر وفضيلة الكلب وشجاعة الأسد ووقار الحمار وذكاء الثعلب وحذر الغراب ؟ اننا بالحاجة والضرورة والسليقة التلقائية نصنع كل وجودنا الحضاري والعلمي – ليس لأن لنا منطقاً أعلى او مثلاً أعلى نخضع له ونحترمه ونبحث عنه .

نريد ونخطو ، ونخطو ولا نريد بلا حافز ولا هدف خارجي ، ثم نسمي خطونا الطويل العشوائي في التيه الموحش منطقاً ومثلاً ! ومهما عرفنا من حقيقة سيرنا العشوائي فان ذلك لن يخفف من سرعة سيرنا أو من رغبتنا في السير لأننا نسير بالضرورة لا بالمنطق .

لقد كان منطق الانسان في التاريخ ضده وضد حضارته وتطوره وكل ابداعاته الجديدة ، كانت الآلهة والمعابد واذهان الجماهير والمتعلمين تؤمن بمنطق ينكر ويحرم كل ابداع وتجديد. ودائماً يوجد في كل مجتمع من المجتمعات المتطورة والمتخلفة منطق يدعو الى الاستمساك بما هو موجود ، وينكر بل ويحارب الجديد والتغير ؟ ولكن الانسان مع ذلك كان يخطو ويتغير ويصنع الجديد بالكره من منطقه ، وكان يحطم ذلك المنطق المحرم الناهي النافي المقدس ويتخطاه بدون ان يستشيره او يرفق به ، وكان يسير في الطريق المغلق بالمنطق وبالمحرمات والمقدسات العقلية ، لا يحده ولا يصده شيء من ذلك !

فالانسان لم يكن في اي وقت من الاوقات يلتزم المنطق الذي يصنعه ولا المنطق الذي يفرض عليه ، وكان هذا من الخير له !

ولو كانت حياة الانسان تخضع لمنطقه لما استطاع ان يتغير ولا ان يكون شيئاً كبيراً – بل لو كان الانسان يحترم منطقه او يخضع له ، لما امكن ان يتجدد منطقه ، فخروجه على التقيد بالمنطق هو الذي جعل له دائماً منطقاً متجدداً .
ولهذا فان المجتمعات تعجز عن التطور والابداع وعن اكتساب المنطق الجديد بقدر ما تحترم منطقها وتخضع له وبقدر ما يكون له من سلطان عليها ومن قدرة على البقاء ، فالذين لا يخضعون للمنطق هم الذين يصنعون المنطق . ودائماً

نجد المتبلدين الذين لا يشاركون في تكوين المنطق الانساني هم قوم خاضعون لنوع عنيف من المنطقية . وما اتعس الوضع لو كان في الإمكان ان تخضع حياةالانسان لمنطقه ! ان اي منطق هو تعبير عن حالة واحـدة من حالات الانسان المادية او النفسية ، فلو كان الانسان يخضع لمنطقه ، لكان معنى هذا ان تخضع كل حياته لفترة واحدة منها — اي ان يتجمد تاريخه كله في صورة واحدة منه ! والناس حينما يغيرون منطقهم ليسوا بذلك خاضعين لمنطق جديد بل لحياة جديدة — هم لا يستبدلون منطقاً بمنطق بل حياة بحياة !

ومهما اخترع الانسان لنفسه من منطق ضد حياته ، فان نسبة تقـــدمه لن تضعف ، فهو حينما يستطيع ان يتقدم سيغير منطقه الذي يقاوم التقدم او يتركه ويضع مكانه منطقاً آخر يتوافق مع قدرته على التغير ! ولا يوجد منطق متعصب وآخر متسامح ، بل يوجد قوم متعصبون وآخرون متسامحون !

واذا وقفنا عند وضع عاجز ولم نستطع تخطيه ، فليس الذنب ذنب منطقنا بل ذنب عجزنا ! فالعاجز عاجز لأنه لا يستطيـع ان يكون قوياً لا لأن له منطقاً عاجزاً . وعجز المنطق مرتد عن عجز الذات او عجز المجتمع ! ومنطقنا هو صورتنا ولسنا صورته !

والذين يؤمنون بمنطق رديء متخلف ، إما ان يكونوا قد اخترعوا هم هذا المنطق او لقنوه ، وفي الحالتين لا بد ان يكون ذلك لضعف فيهم ، فالذي يخترع المنطق الضعيف والذي يقبله كلاهما يعبر عن مستواه وعن حـالة موجودة فيه . وكما ان المنطق الضعيف لا يوجد هذه الحالة وانما يدل عليها ، فهو ايضاً لا يديمها! وقبول اية فكرة او منطق هو عملية تبرير لما ترغب فيه الذات او لما يفرض عليها او لما تستطيعه او لما يرضي غرورها ، او مطامعها . فالذي يؤمن بفكرة والذي يكفر بها كلاهما يفعل ما يريد لا ما يجب ! ونحن نقبل الفكرة والمنطق ونفهمهما بقدر ما نحن لا بقدر ما هما ، اي كما نستطيع وكما نريد ان نكون لا كما يحملان من دلالات واحتمالات لفظية او عقلية .

والمنطق كيفما كان ليس موجوداً في ذاته وليس منفصلاً عنا ولا متحققاً في الشيء نفسه ، وانما هو علاقة تصورية تقوم بين الكائن وذاته وبينه وبين ظروفه الخارجية. وهذهالعلاقة التصورية هي من صنع التصور نفسه لا من صنعالظروف الخارجية ، لأن هذه الظروف هي مجال صامت – مجـال فقط ، وهي لا تشير علينا بأن نصنع منطقنا على نحو معين . ولهذا فان منطقنا يختلف ويتغير مع ان المجال لا يختلف ولا يتغير – اي مع ان الكون الذي هو مجال نشاطنا الفكري والنفسي باق كما هو في منطق احداثه ودلالاته !

لماذا يتغير منطقنا عن الكون الذي لا يتغير منطقه ؟ ان تغير منطق اي قوم لا يعني تغير الشمس والارض او تغير الأحداث والقوانين الكونية التي يعيشونها ، وانما يعني تغيرهم هم . فمنطق الناس هو حالتهم لا حالة مجالهم الخارجي ! ولقد ظللنا في اكثر الأوقات نأخذ عن الكون منطقاً مخالفاً جداً للمنطق الذي كان ينبغي ان نأخذه عنه ، لقد ظللنا في كل تلك الأوقات نقرؤه قراءة خاطئة . لم نكن نقرؤه كما هو بل قرأناه كما نحن ، ولم نقرأه بالحروف التي كتب بها نفسه ، بل قرأناه بحروف كتبناها نحن !

وإذا كانت أوضاعنا المادية تتغير دائماً فينعكس تغيرها على منطقنا ، فهذه الأوضاع المادية هي من صنعنا ، أي انها حالة من حالاتنا ! ولو كنا نتلقى منطقنا من الخارج بمنطق ذلك الخارج ، او كما يدل ذلك الخارج لما كان ممكناً أن يتغير منطقنا بل ولا ان يكون لنا منطق. إننا نعيش دائماً مع هذا الكونالبليد الصارم، ومع ذلك فكم تتطور وتتحرك فكرتنا عنه ! وإذا كان هذا الوجود نفسه لم يستطع ان يضعنا في قالب فكري ثابت فكيف يستطيع منطق رديء متخلف نلقنه تلقيناً أن يعتقلنا في مثل هذا القالب ؟ لقد تخطينا أقوى منطق في التاريخ وأشده رهبة وسحراً ، ولم يستطع ذلك المنطق الرهيب أن يحتفظ بنا في إساره!

ان الكائنات الاخرى التي هي دون الانسان تعيش في الكون دون أنيكون لها عنه منطق ما ، والسبب أن هذه الكائنات تفقد الحالة الفكرية والنفسية التي تجعلها تستطيع تحويل مجالاتها الذاتية والخارجية الى منطق .

إن الناس يختلفون في تلقي النصوص والافكار التي يلقنونكما يختلفون في تلقي وتفسير المنطق الكوني . وهم يختلفون هـــذا الاختلاف لأنهم يتلقون تفسيراتهم للأشياء من ذواتهم لا من نفس تلك الاشياء.انهم يفسرون ، والتفسير عمل من يقع منهم لا من يقع عليهم بقدر ما الحب والارادة عمل المحب المريد لا المحبوب المراد.وكما ان الشيء المحبوب المراد لا يوجد فيه شيء اسمه الحب والارادة فكذلك الشيء المفسر لا يوجد فيه شيء اسمه المنطق !

★

العقيدة المؤمنة والسلوك الزنديق

(اتمنى ان يحول الناس مقاومتهم للمذاهب والأفكار الجديدة الى مقاومة للطغيان والفساد والبغضاء والعداوة والتزييف والخوف والجهل والفقر والمرض والتأخر – أتمنى ان تفسق افكارهم ويتدين سلوكهم .)

يركز التفكير المتخلف تقديره على النظرية اكثر مما يركزه على التطبيق ، فالقيمة الكبرى للعقيدة لا للسلوك ، فالذي يخرج في سلوكه على جميع الالتزامات المعروفة قد يكون مغفوراً له ومواطناً صالحاً اذا كان شديد المحافظة في تفكيره ، أما الذي يخرج في تفكيره عن المألوف فانه يصبح زنديقاً ممقوتاً مهما استقامت صفاته النفسية والسلوكية . فلو انحرف أي مفكر عن العقائد والتقاليد الفكرية القادمة مع التاريخ ، التي يؤمن بها المجتمع ، الذي قد يكون محكوماً باللصوص والمرتشين والفساق والمنحرفين وبالطغاة الجاهلين ، لكان ذلك المفكر هو وحده المارق المستحق للموت والمطاردة والحقد السماوي والكراهة المتدينة . وانه

لمألوف جداً أن تلقى في بلاد شامخة العقائد اناساً مصابين بكل الفسوق السلوكي وملوثي النفوس تلويثاً خطيراً يجدون في أنفسهم وأيديهم من الشجاعة والغيرة والسلطان ما يجعلهم يحاكمون او يطاردون أحد المفكرين ويرهبون كل احتمال من احتمالات التفكير بحجة المحافظة على عقائد لو أنها تحولت الى إله مرئي ليلزمهم بالعمل بها لصلبوه ثم سجدوا له ! وهؤلاء الملوثون قد يقتلون كاتباً يجرؤ على الدعوة بالرأي الى المساواة بين الرجل والمرأة والى اختلاطها بالمجتمع أو تعليمها الرقص ، بينما يتسامحون مع من يهتكون عرضها وقد يكونون هم من اولئك الذين يفعلون ذلك، بل بينما يتعاقبون عليها بالامتلاك لامتصاص رحيقها بالتناوب ويعرضونها مثل حيوان في سوق الرقيق بلا خمار ولا ازار . ويظهر ان جميع الناس يتخلون عن الله ثم يبقى انهم قد يرفضون اعلان هذا التخلي . والبشر لا يطيقون أن يروا أنفسهم كما هي ولا أن يعيشوا معها ويتعاملوا بها أو يتحدثوا عنها كذلك ، وهذا لخوفهم من أنفسهم لا لخوفهم من الآخرين اذ انهم هم الآخرون .

وفي حماية هذا التفكير كان الشرير جداً يستطيع ان يكون فاضلاً جداً ، وذلك بأن يبالغ في الثناء على الله وعلى الامجاد القومية التاريخية الخالدة ، بينما يحتقرها في سلوكه أبلغ احتقار ، كما يستطيع الفاضل جداً ان يكون شريراً جداً اذا نقد او خالف او فكر . وقد اعتقدنا دائماً ان خير الحكام والزعماء هم الذين يتعصبون لنظريات . والمجتمعات التي تؤمن بهذا المنطق تكون مفتوحة للنفاق والخرافة والتهريج . ان الذي يخون المجتمع ويدمر حياته بالفقر والهوان والتأخر ثم يمتدح تاريخه وآباءه الصيد الذين وهبوا البشر كل ما عندهم من حضارات وفضائل يعد وطنياً عظيماً ، وان الذي يتحدث عن الله وعما في خلقه لنا المرض والجوع والآلام من حكمة ورحمة وعدل ، وعن مزايا الدين وإغنائه عن كل حضارة وعلم يكون قديساً مهما لعن الله وانبياءه بأعماله وتشوهاته النفسية والفكرية . الذين ينقدون التاريخ خونة واعداء ، دون الذين يسلبون الناس الحرية ويسرقون منهم الحياة ويؤخرون بلادهم ويسيئون بانحطاطهم وجهلهم الى

تاريخهم ، والذين يفكرون في الله كفرة دون الذين يكذبون باسمه ويظلمون ويقتلون تحت توقيعه ويتحدون أخلاقه بأخلاقهم الملوثة . فالايمان بوجود الإله ألزم من طاعته والتخلق بأخلاقه. وقد رأينا أفسق الحكام والدجالين والكتاب يعيشون في المجتمعات المتخلفة في مواكب من المهابة والمجد والثراء والاسترخاء ، ولكن لم نر مفكراً واحداً استطاع ان يعيش بكرامة او أمان في مثل هذه المجتمعات ، اذا لم يهادن اوهام السوق ويعبد اصنامها! أليس الملحدون الذين يحيا على عبقريتهم المؤمنون اعظم فضيلة وتديناً من المؤمنين الذين يعيشون دائماً على ذكاء غيرهم ونضالهم ؟ وهل يحتمل ان يكون الله عدواً للذين يصنعون الحضارة وصديقاً للذين يستهلكونها ويلعنونها ، لأنهم يضعون الاديان في افواههم، والمعاصي الكبيرة في قلوبهم واعضائهم ! لقد ظل التفكير في المجتمع المتخلف في كل تاريخه يتسامح مع جميع المخالفات الاخلاقية ، ولكنه كان دائماً يرفض التسامح مع أية مخالفة فكرية او اعتقادية . وقد استثمر الماكرون والاقوياء هذا الغباء استثماراً مزدوجاً ، فمن جهة استطاعوا ان يخرجوا على كل القيود الادبية وان يتمتعوا بجميع مزايا الانحراف والطغيان والفضائح بدون أي احتشام ، ومن جهة أخرى وجدوا المبرر الدائم ليبطشوا بكل ثقافة او تفكير قد يخشونه بحجة المحاربة للآراء المخالفة . ولهذا كنا دائماً نجد في التاريخ وفي العصر الحاضر قوماً لا يتورعون من فجورهم عن أية رذيلة ، ثم يتهيبون من ورعهم كل تفكير ، لقد ظللنا دائماً نجد قوماً هم اتقى الناس حين يفكرون ، وأفسقهم حين يشتهون !

وللفقهاء والمحدثين المسلمين في هذا الموضوع آراء معروفة ، انهم يفرقون بين الفسوق والتفكير ، فالفاسق مهما كان نوع فسقه ليس شريراً كالمفكر المخالف في تفكيره ، والخارج في أفكاره على عقائد السوق كافر وله النار حتماً ، ولن ينفعه ما يقدمه من عبقرية وفضائل انسانية لأنه مرفوض من حيث المبدأ . أما الفاسق فيبقى مؤمناً ومن أهل الجنة حتى ولو قتل كل الناس وفجر بكل الأعراض وسرق كل الأموال ، هذا في حساب الله ، وهو كذلك في حساب المجتمع . لقد قالوا ان الحاكم الظالم اللص الفاجر لا يجوز نقض بيعته ولا الثورة عليه ما لم يعلن خروجه

على العقائد المقررة ، ولا يشرع الخروج على مثل هذا الحاكم إلا في حالة واحدة هي أن يعلن جهراً كفره بالمعتقدات وبالآلهة المعروضة في الميادين العامة. ولكن لماذا يكفر ، واذا كفر فلماذا يعلن كفره ؟ وهل هو فاضل الى المدى الذي يجعله يفعل ذلك ؟ ان العقائد القوية هي دائماً جنود مخلصون للطغاة والمستغلين ، وهم يحافظون على هذه المعتقدات كما يحافظون على الجيوش الكبيرة لأن الجماهير كما تحكم بالجيش القوي تحكم أيضاً بالخرافة القوية . والثائر والمقاوم للثورة كلاهما محتاج الى نوع قوي من العقائد لخديعة جماهيره وتكتيلها لسوقها في طريق واحد الى العبودية. وليس في الثورات ما هو خروج على كل العقائد ، ولكن الثورة ، أية ثورة ، هي استبدال عقيدة قوية وجديدة بأخرى قديمة قد ضعفت . ولم يوجد حاكم واحد في التاريخ كله كانت خطته إضعاف العقائد او الخرافات من كل نوع في المجتمع الذي يقف على قمته ، بل كان الحكام والقادة في جميع العصور اذا حاربوا او أضعفوا عقيدة او خرافة انصرفوا الى تشييد أنواع أقوى من الخرافات والعقائد ، وهم لا يبحثون عن الأفضل او الأصدق ، بل عن الأقوى والأنفع لهم . واذن فلماذا يكفر الحاكم والمستغل او يعلن كفره حينما يكون كافراً حقاً ؟ ان اعلان الكفر قد يكون تضحية او بطولة غير عادية ! ان اي حاكم محتاج الى ان يملك فضيلة خارقة لكي يرتفع عن استغلال الايمان في خديعة رعاياه ، فإيمان القوي رذيلة معروفة لأنه اسلوب لئيم من أساليب الأقوياء لسيطرتهم على الضعفاء ، ولو أعلن أي حاكم كفره بكل العقائد المطروحة في السوق لكان حاكماً لم يعرف البشر له مثيلاً في شجاعته وفضيلته ! لقد ظل أفجر الحكام والمعلمين والفقهاء يحكمون العالم المتخلف في كل تاريخه ويخدعون ذكاءه وأخلاقه متسترين بالدعوة الى عقائد لا تحترمها أعضاؤهم ولا شهواتهم الخارجة على جميع العقائد والقوانين .

وقد أيد الفقهاء والمحدثون المسلمون الآراء المذكورة بأحاديث نسبوها للرسول، لقد قال فيما رووا: « لا تخرجوا على الحاكم الظالم ما لم تروا منه كفراً بواحاً قامت عليه جميع البينات». وقال: «لا تخرجوا على الحكام الطغاة ما أقاموا فيكم الصلاة». ونقلوا روايات كثيرة فيها تكفير لمن يخرجون على الحاكم الظالم المؤمن . ان كثيراً

من الشعوب قد تخضع بلا شعور كبير بالهوان أو المرارة لأفسق الحكام وأطغاهم من الخارجين على الأديان والقانون وعلى كل فضيلة انسانية ، ولكن لو أن أحد هؤلاء الحكام أعلن شكه في مجموعة المعتقدات الشعبية التي لا يريد أحد أن يعمل بها : لا الشعب ولا حكامه ، لكان احتمالاً قوياً جداً أن يثور البركان الخامد ليقتلع ذلك الحاكم الزنديق حتى ولو أصبح مثلاً أعلى في حكمه ونزاهته النفسية .

وللإلف دخل في التهاون مع الفسوق السلوكي والتشدد إزاء الخلاف الفكري والاعتقادي، فقد اعتاد الناس جميعاً أن يفسقوا ويعصوا وأن يروا جميع الآخرين يفعلون ذلك . والأمر ليس كذلك في المعتقدات ، فالبشر قد يحافظون على عقائدهم كما هي بلا أي تغيير ، وفي الوقت نفسه يصنعون كل ما يشاؤون ، واذا غيروا هذه العقائد في أنفسهم فقد يخفون تغييرها ، فكل انسان قد يستطيع ان يكون مثالياً في المحافظة على عقائده حتى ولو كان في حقيقته زنديقاً خطيراً ، ولكن لا يوجد من يستطيع أن يكون كذلك في سلوكه لأن السلوك تطبيق، والتطبيق تناقض وافتضاح وتحديد . وأجمل العقائد تصبح شيئاً حافلاً بالعيوب والنقائص اذا طبقت سلوكاً ! من السهل أن ينافق الانسان في ايمانه ، ولكن من الصعب أن يفعل ذلك في سلوكه ،لأن النفاق الاعتقادي إنما يراد به التغطية على سلوك ما . فالنفاق في السلوك باهظ وهو ليس كذلك في العقيدة .

*

لقد حدث في كل مراحل التاريخ ان وجد من ثاروا على حكام مؤمنين يؤمنون بالإله ويدافعون عن الايمان به ، بل ويقتلون الملحدين . ولكن هذا الذي حدث لم يكن تعديلاً للنظرية وإنما كان خروجاً عليها ، أي كان معصية لا فكرة ، والخروج على النظرية لا ينافي صدق النظرية في هذا التفكير . واذا كانت هذه النظرية قد تغيرت أو اهتزت، فقد حدث هذا بأسلوب غير فكري وبطريقة جزئية غير ثابتة وبالخضوع لمؤثرات خارجية. ان نظريات اجنبية كثيرة قد اعتدت على هذه النظريات المحترمة للعقيدة دون السلوك !

ولماذا أشادوا بقيمة العقيدة أكثر من إشادتهم بقيمة السلوك ؟ انهم لم يكونوا في ذلك أتقياء بل فجّاراً . لقد هوّنوا من شأن السلوك ليستطيعوا التصرف بلا أخلاق ، وهم لا بد أن يخرقوا أي سلوك مقرر ، وقد وجدوا انه من المستحيل أن يكونوا ملتزمين أخلاقياً . وعظموا من شأن الاعتقاد لأن الالتزام في العقيدة مريح ولا يتنافى مع الاستجابة للشهوات، بل ان في الخروج على العقائدوالأفكار المألوفة معاناة وخطراً ، وفي التعظيم من شأن الاعتقاد أو النظرية تعويض عن السلوك القوي المطلوب المفقود . والضعفاء هم وحدهم الذين يعظمون العقائد ويحتقرون الأعمال لأن هذا يتناسب مع ضعفهم ، فالضعف اعتقاد ، أما الأقوياء فانهم يرون ان القيمة كلها للعمل لأنهم يستطيعون أن يعملوا ، والقوة عمل ، فتعظيم العقيدة على حساب السلوك أسلوب منأساليب الهرب والدفاع عنالعجز ، والمبالغون في تقويم المعتقدات هم قوم عاجزون لا فضلاء . والعقيدة ليست عملاً ولكنها هي مجرد توقف العقل عن العمل !

وتصميمنا على الايمان بأية عقيدة ليس متأثراً بصحة تلك العقيدة أو بطلانها، بل بقوة إغرائها وارادتنا لها . ولا فرق بين أذكى العقائد وأغباها في قدرتهاعلى اقناع كل فريق بأن عقائده هي خير العقائد ، والانسان لا يبحث باعتقاداته عن الحق أو الفضيلة ، ولكن عن الشهوة والحماقة والاثارة والتعصب . وقد اخترع الناس العقائد المتعصبة المثيرة لأنهم محتاجون الىأنيتعصبوا ويستثاروا ويحمقوا. والعقائد تتكون بالإلف والممارسة والتكيف النفسيوالذهني، فما ألفناهومارسناه منها يصبح فينا حالة نفسية وفكرية نجد معاناة في الخروج عليه واستجابة ذاتية في الاستمساك به ، وقد نقاتل دفاعاً عنه ، أما ما يخالف ذلك فنراه الزندقة ونقاومه بلا ذكاء أو تسامح . والذين يمارسون الايمان بالحشرات السامة والحيوانات المفترسة ويمارسون عبادتهاطويلاً يحسون نحوها بالروعة والالهاموالحب والحماس ، ويرفضون التمرد عليها ، وقد يقتلون من يشككونهم فيها ، كما يصنع بلا أية فروق من يألفون عبادة الله وحده ويمارسونها مدة طويلة . فشعور العابد للخالق مثل شعور العابد للوثن من حيث التكيف والعشق والاقتناع ومقاومة

المخالفين . ولهذا فان جميع أصحاب العقائد والمذاهب المتناقضة يدافعون عن عقائدهم ومذاهبهم ويؤمنون بها ويشعرون نحوها بالحب والاحترام على مستوى واحد من الجنون والتعصب ، والتفاوت بينهم في تقدير مذاهبهم وأربابهم ليس سببه تفاوت هذه الأرباب والمذاهب ، بل تفاوت مستوياتهم هم . والايمان ليس حباً أو خوفا من الآلهة بل من النفس ، والبشر يحولون خوفهم من أنفسهم الى آلهة وعقائد عنيفة ، كما يحولون توتراتهم الخاصة الى شرائع وأخلاق اجتماعية . والمؤمن الذي يقاتل الآخرين أو يعاديهم لأنهم مخالفون له في الدين ، سيقف منهم هذا الموقف نفسه لو كان بلا دين أو لو كان على دين آخر وخالفوه في ذلك لأن البشر لا يؤمنون بأديان أو مذاهب أو آلهة ولا يدافعون عنها ، وانما يؤمنون بمركبات شعورية ويدافعون عن هذه المركبات التي تتحول الى مواقف . فمن هتف لمذهب أو إله أو هتف ضده فهو انما يهتف لمشاعره أو ضدها ، ومن عادى الناس لأنهم يخالفونه في عبادة الله ، كان كمن يعاديهم لأنهم يخالفونه في عبادة الأوثان لأن المعاداة في الحالتين دفاع عن الإلف والشعور والمصلحة لا عن الآلهة !

لو عرف البشر هذه الحقيقة فهل يتخلون حينئذ عن جنون التعصب والغرور والبغضاء ؟ لا أعتقد ذلك .

*

أحوج الناس الى الخروج على الأديان والأخلاق من حيث التطبيق هم أكثرهم دعوة اليها وايماناً بها ، هم كبار القادة والزعماء والوعاظ الذين يضعون القوانين والعقائد القاسية المتعصبة للبطش بكل من يفهمون أو يفكرون أو يناقشون ، لأن تطبيق هذه الأخلاق والأديان يقضي على هؤلاء جميعاً بأن يصلبوا ويسلبوا كل فوائدهم الكبيرة المحرمة . فلو ان اي داعية أو حاكم أو زعيم عرفه العالم بأنه أعظم من رفع راية الدعوة الى الدين والفضيلة حوكم بنصوص ذلك الدين وتلك الفضيلة أو بروحها ، لكان الاعدام جزاءه المتواضع ! كل الذين يؤمنون بالله يؤمنون به كميت ، كمصلوب ، ولا يؤمنون به حياً قوياً يراقب اللصوص والقتلة والكذابين والمنافقين والطغاة وأهل الغدر والخيانة ويعاقبهم ، ويبتسم للصادقين

والفضلاء ويثيبهم — لا يؤمنون به قانوناً أو نظاماً تحميه العدالة المحتومة . ولهذا فانهم مهما آمنوا به أو زعموا ذلك يتعرون أمامه بكل فسوقهم وتشوهاتهم بلا خوف عقاب ولا انتظار مثوبة وبلا أية هزة من الحياء ، مثلما يتعرون أمام الموتى ، كأنما يتعاملون على جثة ليس لها في حسابهم اكثر مما لأية جثة اخرى . والذي يؤمن بالله ثم يعامله كميت انما هو قاتل إله ! لقد آمن بإله ثم لم يستطع أو لم يرد ان يعايشه أو يحمله حياً في نفسه أو في بيته فقتله ! كل المؤمنين في كل العصور انما كانوا قتلة آلهة وحاملي جثث ، كانوا يؤمنون بالآلهة القوية المفترسة ثم يقتلونها ثم يحملون جثثها ويقيمون تحت اسمها قبوراً شاهقة ، فاذا صلوا لها أو دعوها كانوا في الحقيقة يصلون عليها ويبكونها ! وليست المعابد الكثيرة في كل مكان وعصر إلا قبوراً للآلهة ، لقد بنيت لتكون معابد ، فتحولت الى مقابر . ان كل ما للمؤمن من مزية على غيره انه يشيد مقبرة ضخمة لإله لا يستطيع ان يطيعه أو يحترمه وانما يتحدث عنه ويبكي أمامه بدموع باردة ثم يتعاطى جميع آثامه وخطاياه داخل ضريح ذلك الاله الجميل القتيل الذي لا يريد ان يطيعه كما لا يستطيع !

الايمان جهد رخيص ليس فيه أية فضيلة او تضحية او ذكاء ، وجميع العاجزين والفاسدين والأغبياء يستطيعون ان يؤمنوا دون اية معاناة عقلية او اخلاقية . ولكن الشيء الكبير الذي فيه كل المعاناة هو ان يكونوا فضلاء أو أقوياء في تصرفهم مع الطبيعة ومع انفسهم ومع الآخرين ! وأشد الناس حماساً للايمان هم الذين لا يتعاملون مع ايمانهم ، أي هم الذين لا يلزمهم ايمانهم بشيء اكثر من ان يؤمنوا ويتحدثوا عن آلهتهم بإعجاب ويرضوا عن أنفسهم ويلعنوا المخالفين لهم ويكرهوهم . ودائماً حيث يوجد الايمان الأكيد لا يوجد الالتزام ، فالذي لا يحتاج الى ان يطيع إلهه ويعاني من طاعته لا يشعر بالحاجة الى ان يكفر او يحتج أو يعارض ، فالمعارضة والتمرد على العقائد دليل على شدة المعاناة منها وعلى الشعور بثقل تبعتها وبدلالتها الالتزامية . وكم هي فضيلة أو بطولة تافهة ان نؤمن بإله يملأ علينا الكون ثم لا نلتزم نحوه بأي شيء ، ونعزل ايماننا به عن شهواتنا

وحماقاتنا السلوكية ومصالحنا غير المتوقرة ، بل ونحميها ونبررها به !

اذن الذين يتمردون على العقائد والنظريات لأنهم يتململون منهـــا هم اكثر اخلاقية والتزاماً وشعوراً بقيمة الايمان ممن يؤمنون بلا معارضة ولا شكوك ، فغير المؤمن اكثر ايماناً من المؤمن وأقوى ادراكاً لقيمة الايمان ومعناه الاخلاقي . والذين لا يشعرون بأية حاجة الى الخروج على عقائدهم أو تغييرها هم حتماً قوم متحللون من الالتزامات الأخلاقية ، أي متحللون من نفس عقائدهم . واحترام هؤلاء لانفسهم ضرب من الغباء أو النفاق !

*

أنا دائماً شديد التعجب من حرص الانسان على ألا يكون صادقاً ولا ذكياً في فهمه لنفسه ولسلوكه وفي حديثه عنها ، انه يصر على التحدث عن العقـــائد والنظريات والمبادىء ، داعياً اليها الآخرين وزاعماً انه لا يتحرك الا بها . كم اشعر بالدهشة والخجل حين اسمع من يتحدثون عن الالتزام الاخلاقي والعقلي والاعتقادي بحماس من يتحدثون عن أقوى الحقائق ، وكم أحسد هؤلاء على استعدادهم العجيب للاقتناع بالاكاذيب والأوهام التي تجعلهم يزيفون أنفسهم بلا معاناة . ان الناس لا يتفاوتون في استحالة أن يكونوا ملتزمين أو محترمين لما ينادون به من عقـائد ونظريات ومثل اخلاقيـــة . وبعدي أنا أو أنت عن الالتزام بأية عقيدة يساوي بعد اي انسان آخر ، اذ لا توجد ابعاد مختلفة عن العقائد ولا مستويات مختلفـة للمعتقدين في احترام عقائدهم ! ليس في الناس فضلاء وغير فضلاء ، من يطيعون الفضيلة ومن يطيعون الارادة ، كما انه ليس في الطبيعة ما يخضع للقوانين وما لا يخضع لها ، انه لا فرق بين البشر والطبيعة في الخضوع لقانون واحد . والمعتقدات وجميع النظريات ليست التزاماً أو قيداً بل هي تعاريف وشروح لظروفنـــا واهوائنا ، فنحن بمعتقداتنا نفسر أنفسنا ونبحث عن رغباتنا ومصالحنا ونسميها بها ، ولسنا بالعقائد نضع قيوداً أو حدوداً على سلوكنا أو أهوائنا لنخضعها أو نوجهها ، نحن نسمي اوضاعنا وما نريد عقائد ، ولا نخضع اوضاعنا واراداتنـــا

لعقائد . والفرق بين أشد الناس حماساً لعقيدة من العقائد وتظاهراً بالتزامها ، وبين أشدهم عداوة لها أو خوفاً منها يساوي الفرق بين هؤلاء وهؤلاء في ارتباط مصالحهم واهوائهم بتلك العقيدة . فالذين يعتقدون كالذين لا يعتقدون في خضوعهم لذواتهم لا لأي اعتقاد . العقيدة اسلوب من اساليب البحث عن الذات لا عن الله ، وهي تبرير لما تريد شهواتنا لا لما تريد اربابنا ، نحن نعتقد لاننا عصاة نحاول تحقيق معاصينا تحت شعار مقبول ، لا لأننا أتقياء — الاعتقاد بحث عن شيء ، شيء غير منزه ، لا اعطاء لشيء !

ان النموذج الذي تحتاج اليه حياة الانسان لتكون عظيمة هو أن يكون متديناً جداً في سلوكه وجسارة نفسه لا في اعتقاده أو تفكيره ، أي أن يكون في حياته كالتعاليم وفي تفكيره كالشهوات لا تتقيد بشيء ! والانسان المستقيم النفس والأخلاق القوي الحياة هو المثل الأعلى والأفضل لكل دين وفلسفة مهما أخطأ في التعبير عنه ، سواء أكان ذلك الانسان بلا عقيدة أم كان بعقيدة ، بعقيدة رجعية أم عقيدة تقدمية — أعني سواء أكان زنديقاً أم كان مؤمناً ، مؤمناً تقدمياً أم مؤمناً رجعياً ، واني لأفضل الرجعي المستقيم على المتحرر المنحل. وقد كانت المجتمعات في كل تاريخها بكل تصرفاتها تفضل الذكي الصالح الزنديق على الفاسد الغبي المؤمن . وجميع ما يقال خلاف ذلك ليس إلا لغواً لفظياً وخطابياً لا حساب له في سلوك أي مجتمع من المجتمعات القديمة أو الحديثة حتى أقواها ايماناً ! ان ضمير الحضارة يبحث في المستقبل عمن يستقيم بلا عقيدة ، لا عمن يعتقد بلا استقامة — هدف الانسان المتحضر أن يكون فاضلاً وشريفاً بلا معتقدات ، لا أن يكون معتقداً بلا فضائل ولا شرف . وقد خرج البشر من تجربتهم الطويلة بنتيجة كبيرة وهي ان العقيدة لا تصنع الاستقامة ولا يمكن أن تصنعها ، والذين يطلبون الاستقامة بالعقيدة كالذين يبحثون عن العدل والحب في ضمير الزلازل والبراكين ، وفي ضمير القوة التي تحرك الزلازل والبراكين .

وهل يمكن ان يضعف تعصب الانسان لعقائده ومذاهبه وآلهته او يتواضع رضاه عن ايمانه لو عرف ان هذه المذاهب والعقائد والآلهة لا تستطيع أن تقوم من

سلوكه او من شهواته أي تقويم مهما مــلأ الدنيا حديثاً عنها وشب الحروب والخصومات تحت اعلامها المرفوعة بلا أية نية لاحترامها ، ثم لو عرف انه بايمانه يبحث عن الاستجابة لاهوائه ومآربه الخاصة لا عن مقاومتها ، وان الايمان انما هو دائماً بحث عن الرغبة لا عن الاستقامة ، وان سلوك الانسان في جميع الظروف ليس توازناً او ميثاقاً محترماً بين رغبات وعقائـــد مؤمنة ، ولكنه توازن او تناقض بين رغبات ورغبات اخرى مضادة ، وانه ليس لأي انسان مهما كانت فضيلته او ايمانه من إله يعبده ويصوغ فيه عقائده ويطيع كتبه المنزلة وأنبياءه المتناقضين القساة سوى إله واحد ، وان هذا الإله الواحد ليس سوى الرغبة ، هكذا كان الانسان منذ وجد ، وهكذا سوف يبقى الى الأبد . ولن توجد أية وسيلة لإضعاف هذه الحقيقية .

ان كل انسان يعرف على نحو ما انه كاذب حينما يتحدث عن معتقداته وعن التزامه بها ، وما أكبر مقادير الوقاحة التي يحتاج اليها من يجرؤ على توجيه اللوم الى الآخرين الذين لا يحترمون عقائدهم ونظرياتهم ويخضعون لمصالحهم واهوائهم ، وكأنه هو ليس كذلك . والانسان يحتاج الى غبـــاء غير محدود لكي يستطيع تصديق هذه الاكذوبة ويحتاج الى صفاقة مماثلة لكي يجرؤ على التحدث عنهـا . ومع معرفته لذلك من نفسه ومعرفته ان الآخرين هم كذلك ايضاً لأنهم ليسوا أقدر ولا افضل منه فهو يرفض الاعتراف به وكأنه يستطيع ويحاول أن يخفي نفسه عن نفسه أو عن الآخرين الذين يعرفونه تماماً لأنهم يعرفون انفسهم بهذه القوة . ان أي زعيم في العـــالم يعرف ان الزعيم الآخر كاذب حينما يقف يتحدث عن احترام العـــدل والحق ، لأنه يعرف انه هو نفسه كاذب حينما يقف نفس الموقف ليتحدث نفس الحديث . ومع ذلك فجميع زعماء العالم يجرؤون على أن يتقدموا الى أعلى المنابر الدولية بخطوات لا ترتجف من ضخامة الأكذوبة ليعلنوا هـــذا الهراء على مستوى عالمي دون أن يسقطوا موتى من الخوف او العار ، ودون أن يقذفهم الناس او تقذفهم النجوم بالحجارة . وكل هؤلاء الزعمـاء يفعلون مـا ينكرون باسم الأخلاق على خصومهم ان يفعلوه ، وانهم يقفون من كل القضـايا والمشاكل نفس المواقف التي اذا وقفها الآخرون اعلنوا عليهم النكير وقـــاموا

يلعنون هؤلاء الآخرين باسم الانسانية كلها وباسم كل القيم والقوانين ، ولا يذكرون انهم هم كذلك يفعلون ، وانهم اذا لم يفعلوا فخطة لا نزاهة . ولن تجد مزاحاً دولياً سخيفاً تتعامل به كل المجتمعات في كل العصور وكأنه أقوى من الجد مثل الزعم ان الناس في حياتهم وعلاقاتهم انما يبحثون عن العدل والصدق والحق ، وان سبب الخلاف والخصومات بينهم هو تحري الحقيقة والخطأ في تحريها ، وليس الهوى او المصلحة الخاصة ، واذا كان الانسان يريد ان يسخر من نفسه ويحقرها فليس في اساليب السخرية والتحقير ما هو أقوى من ذلك . وكم يثير الاشمئزاز والغضب ان نجد دكتاتوراً قاتلاً يعاقب على خطرات النفس التي لا تتحول الى همس، وعلى احتجاج العقول الذي لا يتحول الى تفكير ، يجسر على أن يقوم خطيباً داعياً الى الحرية، آمراً بها، متحدثاً عن مزاياها وعن فضله عليها. واننا لنشك احياناً هل هـذا جنون ام هو كذب ! نحن لا نستطيع ان نفسر الآخرين تفسيراً اخلاقياً لأننا لا نستطيع أن نفسر انفسنا هذا التفسير ، لأننا نعرفها ، والذين يعرفون انفسهم ثم يفسرونها تفسيراً اخلاقياً ، والذين لا يفسرون انفسهم تفسيراً اخلاقياً ثم يفسرون الآخرين تفسيراً اخلاقياً — هؤلاء وهؤلاء قوم لا يمكن تفسيرهم . وهكذا يظل الناس يكذبون على انفسهم وعلى الآخرين بقدر ما يكذب عليهم الآخرون الذين يكذبون ايضاً على انفسهم . وهذا الكذب المتبادل لا يبدو انه يعني شيئاً او انه يحقق أي هدف لأي من هؤلاء المتعاملين عليه . والذين يصدقون اكاذيبنا المفضوحة لا يصدقونها عن غباء بل عن حاجة وضرورة ، فهم اذن لا بد ان يصدقوها حتى ولو طلبنا اليهم ألا يصدقوها . والذين يؤمنون بالزعماء والدعاة والمصلحين لافتراضهم اياهم صادقين ومخلصين مثاليين سيظلون مؤمنين بهم وبهـذا الافتراض مهما تعرت اكاذيبهم وجرائمهم وافتضحت، بل لو اعلن هؤلاء القادة عن انفسهم انهم كاذبون مخادعون وطلبوا من اتباعهم الا يؤمنوا بهم والا يحترموهم لأنهم في الحقيقة دجالون منافقون ، لازدادوا لهم احتراماً وبهم ايماناً ، ولقالوا حينئذ انهم من فضلهم وتواضعهم يقولون ذلك عن انفسهم . فيصدقونهم اذا كذبوا ، ويكذبونهم لو

صدقوا . ان الناس لم يصدقوا او يحترموا زعماءهم من روحانيين ووطنيين لأنهم قد استطاعوا ان يخفوا سلوكهم او نياتهم عنهم ، كلا ، انهم مفتضحون ، وقد كان هؤلاء الزعماء يعلنون عن هذا الافتضاح بشتى الاساليب ويشهرون بأنفسهم باسلوب مثالي في التعري، لقد كانت كل اعمالهم واهدافهم تعيش في العراء تتحدى جميع المستويات الاخلاقية والقانونية وتقتات برذائلها بوقاحة واعلان . ولكن البشر مع كل هذا ظلوا مصرين على الايمان بهؤلاء الزعماء وعلى تنزيههم .

وليس ممكناً ان يكون الزعماء والمعلمون المتبوعون في العالم اخلاقيين، يقولون ويحترمون ويفعلون كل الحقيقة ، ويدافعون عنها تحت كل الظروف ، ويكرهون كل الكذب والباطل والظلم والانانية ويحاربونها حتى لو كان ذلك يعني ان يكرهوا أنفسهم ويحاربوها . ولو وجد زعيم او معلم واحد من هذا الطراز لما آمن به أو احترمه او احتمله أي مجتمع ، ولما أمكن ان يقبل هو ان يكون زعيماً او معلماً ، لأنه حينئذ سوف يكون ملزماً بأن يكره نفسه ويقاتلها ، لما فيها من الكذب والباطل والأنانية ، وملزماً ايضاً بأن يكشفها ويحرم عليها ما لا تستحق. فالصدق لا يمكن ان يقود العالم – الصدق مع الذات وصدق الذات يقضيان علينا بأن نزول . إن جميع الكائنات المعروفة لنا ، ما عدا الانسان ، تعيش بالحقيقة ، والانسان وحده هو الذي تقتله الحقيقة ، تجعله يطلق الرصاص على نفسه او يتوقف عن ان يحيا لو أنه عاشها كاملة ! ولكنه عاش وسيظل يعيش لأنه لا يعيش الحقيقة !

*

ماذا يحدث لو تصارح الناس وأعلنوا عن أنفسهم إعلاناً مستمراً وبكل الوسائل انهم لا يسيرون وفق عقيدة أو مبدأ أو نظرية ، ولا يحترمون شيئاً من ذلك ، وإنما هم أجهزة مادية تتحرك بالشهوة والانانية والحقد والمنافسة والألم والكبرياء والجوع ورد الفعل ، وبالعقد والظروف والذكاء والغباء – هل تتغير النتيجة او يتغير سلوك الناس لو أنهم تحدثوا عن أنفسهم وفهموها بهذا الاسلوب بلا أي قناع من الكذب والعجز عن الفهم ، حتى ولو جاءت الكتب المقدسة

وجاء الانبياء للاعلان عن هذه الحقيقة وللدعوة الى الايمان بها ؟ انه لا يمكن أن تتغير النتيجة لو أن كل التعاليم الانسانية قد جاءت تدعو الى نقيض مـــا دعت اليه – لو انها جاءت تدعو الناس الى الكذب والكراهة والحسد والانانيـة والى الحروب وكل ضروب الفساد وتحرم جميع الفضائل المضادة . ان الناس سوف يكونون حينئذ كما كانوا بلا اية فروق ، سوف يعصون التعاليم التي تأمرهم بالرذائل كما يعصون التعاليم التي تأمرهم بالفضائل . فالناس يطيعون ويعصون بلا تعاليم ، بلا تحليل ولا تحريم – اي يفعـلون أشياء ويتركون اشياء بالاسلوب الذي بـه يحبون انفسهم ويكرهون اعداءهم ويشتهون ويحقدون ويجوعون ويعـبرون عن ذلك ، وكما ينامون ويصنعون منازلهم وثيابهم وطعامهم بلا أية تعاليم اخلاقية . وكما انهم حينما يخرجون على التعاليم لا يقصدون عصيانها ، بل الاستجابة لأنفسهم فكذلك حينما يطيعونها . وقد خرجوا على التعاليم اكثر مما توافقوا معها ، وهم في الحالتين لا يقصدون طاعتها ولا الخروج عليها .

ومعنى هذا ان جميع ما صنعه البشر في كل تاريخهم لابتكار العقائد والتمكين لها والمحافظة عليها ، وما أنفق على اجهزتهـــا المختلفة من ذكاء وحب وبغض وخلاف وعمل وعداوات ، ليس إلا عبثاً عقيماً اذا كان القصد من هذه العقائد أن تتدخل في صياغة سلوك الانسان او صياغة أهوائه النفسية .

ان في جسد كل انسان نبياً داخلياً لا يمكن عصيانه ولا تكذيبه ، يوحي اليه بأن يطيع ذاته ويعصي عقائده ومعلميه ، لهذا لم يكن ممكنـاً في اي وقت من الاوقات ان يطيع الناس انبياءهم ومعلميهم الذين يجيئون اليهم من خارج أنفسهم ليعلموهم الاخلاق والعقائد بالأوامر ، لأنه لم يكن ممكناً ان يعصوا انبياءهم ومعلميهم الذين يجيئونهم من داخل ذواتهم ليعلموهم الشهوات والضرورات بالطبيعة . لقـد كان الصراع غير متكافىء بين نبي يعيش داخل الذات ونبي يعيش خارج الذات ، بعيداً عنها . وحينما يبدو الناس في صورة من يطيعون عقائدهم واخلاقهم ويموتون فداء لها ، فهم إنما يطيعون مجموعة من الإلزامات الذاتية والتاريخية والاجتماعية ويدافعون عنها ، او كما يجري النهر وتطلع الشمس وتنمو النباتات وكأنها تسير

وفق عقائد واخلاق موضوعة . ان زهرة البستان التي تتورد في موسمها المحتوم لتحيي ربة المنزل وتبتسم لها وتمنحها شذاها كلما مرت بها او نظرت اليها، لتبدو اكثر اخلاقية وضعية من اي انسان جاء الى هذه الدنيا ليعلم اهلها الاخلاق المقررة في السماء ! فهل الزهرة تعمل وفق اخلاق وعقائد ، أم وفق التزامات ذاتية وطبيعية ؟ واذا مات اللص او الحيوان في معركة باسلة هجومية او دفاعية ، فهو يدافع عن ذاته ، عن شيء لا يعرفه ، لا عن عقيدة ولا عن مبدأ ، انه يقاتل ويموت بلا معنى ، بلا هدف ، كما يسقط الحجر وينزل المطر ، وكذلك المؤمن حينما يموت في معركة بطولية ، وإن بدا في صورة من يدافع عن شيء . ان البطل هو انسان يعرض ذاته عرضاً قاتلاً — الذي يموت دفاعاً عن مبدأ او في سبيل شيء ، ليس الا انساناً يعشق ذاته الى حد القتل لها . الانسان يجيء ، يولد — وأيضاً يذهب ، يقاتل ، يقتل ، ينتحر ، يموت بلا أية تفسيرات او حوافز أخلاقية او اعتقادية . وهو يكون جباناً بالذات لا بالنظرية او العقيدة وكذلك يكون بطلا ، وكما يحب ويكره بلا نظرية ، فكذلك يقاتل حتى الموت بلا نظرية . فكل اعمال البشر ، حتى الموت والحياة والجبن والشجاعة اعمال ذاتية لا مذهبية ، وحتى المذهبية هي عملية ذاتية لا اخلاقية ولا اعتقادية .

إن الانسان في سلوكه وفي جميع استجاباته خاضع لجبرية ذاتية — خاضع لقانون الالتزام الذاتي الذي يخضع له كل شيء ، فالشجاع هو انسان عاجز عن ان يكون جباناً ، والجبان هو انسان عاجز عن ان يكون شجاعاً ، والمؤمنون بالارباب هم قوم لا يستطيعون ان يكفروا بها ، والكافرون بها هم قوم لا يستطيعون الايمان بها . ولا دخل للارباب ولا للعقائد في ان نكون هذا اوهذا، كما لا دخل لها في ان نكون اقوياء او ضعفاء ، عقلاء او حمقى . فالمعتقدات والآلهة لا تستطيع ان تعطي اي تأثير على سلوك المؤمن ، وعلى استجاباته النفسية !

ولكن قد تكون جميع الاعمال الاعتقادية عبثاً مقصوداً ، والعبث المقصود به نفس العبث يستهلك جل حياة الانسان ، بل كل الحياة — من حيث مبدؤها

وغايتها وحاصلها واسلوبها – ليست سوى عبث أليم . فالعقيدة لا يقصد بها ان تعطي سلوكاً ، وإنما هي توزيع غير مضبوط بالتفكير او بالنتيجة لحالة نفسية، كما توزع مثل هذه الحالة بالحقد والغضب والحسد والسباب والبكاء والاحتلام وامثال ذلك. الانسان يبكي دائماً، وبكاؤه الدائم هو الذى يصنع عقائده وعباداته وعبقريته وتفكيره ومثله وكل اساليب نشاطه ! اننا نبكي ، اذن نحن نعتقد ونصلي – لا نستطيع لا نبكي ، لهذا ألا نستطيع الا نعتقد ونتعبد . واذن العقيدة بكاء لا سلوك ، وهما اي الاعتقاد والبكاء عبث مطلوب ليس لانهما يهبان كمالاً او ثقة او يحلان مشكلة ، ولكن لانهما يعبران عن ضياعنا ، عن المأساة العابثة تعبيراً لا يعني غير الاحتجاج الدائم على الحقيقة الاليمة الكبيرة التي لا نستطيع ان نرضاها او نبررها او نرفضها او نرغب في التخلص منها ، انهما تعبير عن الاحتجاج على كينونتنا التي لا تزال تحتاج الى تفسير او تبرير لم نجده بعد ولا امل في ان نجده ، فنعيشها بلا اقتناع ، فنحس بالضياع ، فنبكي ونحول بكانا الى عقائد وصلوات ومثل واخلاق ، واحياناً نحول بكاءنا الى حروب وخصومات او الى فنون وآداب وتفكير ، وفي ظروف اخرى نحوله الى انحراف وعربدة فيهما كل اساليب الانهيار وتعذيب النفس او قتلها ! ان كل زجاجة تحمل شراباً روحياً ،وكتاب يحوي افكاراً وعقائد نظرية، ومعبد يجتمع فيه المصلون ليبكوا ويحزنوا ويلعنوا أنفسهم تقرباً الى الآلهة – ان كل ذلك لا يعني إلا الاحتجاج على وجودنا وعلى من اوجدونا ! حتى هذا القلم الذي يتحرك الآن بيدي ، إنما يعني الاحتجاج والاستنكار ! ان المنتحر والمذنب والبطل والعبقري والمفكر والمؤمن – ان هؤلاء جميعاً ليسوا سوى قوم يبكون فيصنعون من بكائهم تعبيرات مختلفة، تعبيرات فيها جميع معاني الاحتجاج على ما كان . فالايمان والعبادة ليسا اذن الا نقداً للكون وللانسان ولما في وجودهما وسلوكهما من حماقة وغباء وعداوة وكذب وفوضى وظلم ومن خروج على النظام لا مثيل له في منطق المؤمن العابد ولا في أخلاقه وأمانيه – اي ان الايمان والعبادة يحملان كل ضروب الاحتجاج ضد العبادة والايمان ، فهما ينافيان نفسيهما ، اذ نحن لا نستطيع ان نؤمن او نتعبد

مالم نكن معارضين مستنكرين—معارضين مستنكرين لأسباب ايماننا وعبادتنا— للوجود الذي جعلنا نؤمن ونعبد ، وكذلك لا نستطيع ان نبكي ما لم نكن كذلك ، أي ما لم نكن معارضين ومستنكرين شيئاً ما . اننا نبكي ونؤمن بالله لأننا بأسلوب غير مباشر نتساءل بدهشة عن أفعاله وحكمته في مخلوقاته ونعلن الاحتجاج على ذلك . ولو اننا رضينا عن كل شيء ولم ننكر شيئاً وجاءت كل الأشياء حتى انفسنا مع انفسنا وفق احتياجنا وارادتنا بلا تصادم ولا تناقض ، لما بكينا ولا آمنّا ، أي ان قوة ايماننا بالله مساوية لقوة ارادتنا الهرب منه والاعتراض عليه والغضب مما فعل . ولهذا كان المؤمنون يقولون في مخاطبتهم له : أللهم إنا نعوذ بك منك ونلجأ منك اليك – دعاء فيه اقسى مشاعر المرارة والمقاومة الضائعة ! فالايمان والصلاة هما دائماً احتجاج متنكر – احتجاج على الآلهة التي تعرض ذاتها وعبقريتها عرضاً يصدم الانسان في منطقه وأمانيه وضروراته ، بل وينافي الأخلاق في جميع حدودها . وحتى الايمان بالزعماء والمذاهب والنظم ليس إلا نوعاً من الاحتجاج والمعارضة والبكاء !

*

سيكون الجواب الدائم : ان الدين هو هوى النفس حينما نسأل :

ما هو الدين ! فالمتدين هو انسان متبع لهواه كفاعل الخطيئة وليس عاصياً له ! ولنضرب لذلك مثلاً : ان الاشتراكية تعد اليوم في بلد عربي معين مروقاً من الاسلام ، وتعد في بلد عربي آخر أفضل ما في الاسلام ، ولو طبقت الشيوعية بدل الاشتراكية أو بعدها لقالوا انها هي الاسلام ! وسفور المرأة والتعامل بالربا يعدّان في بعض البلاد العربية من أمجاد الشريعة الاسلامية ومن سبقها الحضاري والانساني ، وفي بلاد عربية اخرى يعاقب عليهما او ينكران كأقبح الذنوب ! مع ان القرآن في البلدين المختلفين هو القرآن ، والرسول هو الرسول ، والإله هو الإله ، وما من فرق غير الظروف المختلفة التي صنعت أهواء مختلفة .

وكما يختلف تفسير المؤمنين للدين لاختلاف اهوائهم ، كذلك يختلف تفسير الناس للعدالة والحق والحرية والديمقراطية ، وأخذهم بالمذاهب والنظم وايمانهم بها

وتفسيراتهم لهـا للسبب نفسه . واذا تبدلت الأهواء تبدلت التفسيرات بالنسبة للرجل الواحد وفي العقيدة والنظرية الواحدة . والشيوخ الذين يفتون هنا مع الاشتراكية وهناك ضدها ، لو تبـادلوا الأماكن لتبادلوا الفتاوى . ان الشيخ الذي يفتي بقتل مخالفه لاعتقاده بكفره ، لمستعد ان يتخذ موقف مخالفه لو عاش تحت ظروفه .

ان البشر يضعون في أذهانهم صورة للإله لو انها تجسدت كائناً حيـاً خارجياً مرئياً يعمل في الكون والحياة والمجتمع الذي يعيشون فيه على المكشوف والرؤية، ويعاملهم بالصفات التي تخيلوها وتمنوها له لأصبح لديهم أبشع وأفظع كائن لا يمكن ان يقبلوا التعامل معه ولا ان يكون لهم صديقاً وعليهم حاكماً ، ولا ان يكون مجرد مواطن لهم ، بل لكان محتوماً ان يحكموا عليه بالاعدام . ولا يوجد بـين المؤمنين بهذا الإله على النحو الذي تصوروه من يرضى لنفسه بأن يعيش بالصفات التي اختاروها وألـفوها له ، او يرضى بأن يكون إلهاً كهذا الإله . ان صورة الإله في أذهان بعض المؤمنين تشير الى كائن غريب خارق الغرابة لا يحتمل إمكان وجوده ، ولو وجد لجاء كائناً يثير كل مشاعر الاشمئزاز والخوف والبغض وكل معاني التناقض والوحشية والسخرية ! انهم لم يحترموا الألوهية في تصورهم ، فهم إذن في سلوكهم مارقون وفي عقيدتهم شاتمون ــ مارقون من الالتزامات الأخلاقية والدينية التي يشقون أنفسهم في تعلمها وفي مخاصمة الآخرين ومخالفتهم عليها ، شاتمون للإله في صورهم الذهنية عنه وتفسيراتهم له ! لقد ظل المؤمن يعتقد باقتناع أطول مدة في تاريخه أن خلق الأمراض والعاهات والمجاعات وكل المظـالم والآلام الانسانية والحيوانية ليست دليلاً فحسب على وجود الإله بل هي أقوى دليل على أن عدل هذا الإله وحكمته ورحمته قد بلغت أبعد مدى يمكن تصوره ! وقـد يعد هذا الايمان أعظم برهان للحط من قيمة العقل المؤمن بل من قيمة العقل الانساني كله لأن المؤمن قد اقتنع بذلك كإنسان لا كمؤمن ، لقد كان انسانـاً ثم صار مؤمناً ، وهو انسان حينما يؤمن . ولو أننا من أجل هذا أنكرنا أن يكون للمنطق الانساني او للايمان الانساني أية قيمة لكان إنكاراً معقولاً ، ولكن قد يكون هذا الايمان

او هذا الاقتناع بقيمة الإله الذي يصنع الألم والمرض والفساد لخدمة الانسان والعدالة دليلاً على اخلاق الانسان وعلى ان حالته النفسية لا عقله هي التي تصوغ ايمانه واقتناعه ومنطقه . واذن لا قيمة لأي ايمان او اقتناع او منطق لأن كل ذلك ليس سوى تعبير عن حالة نفسية .

لقد كان البشر منذ كانوا ولا يزالون يفعلون الشيء ونقيضه ويعتقدون الشيء ونقيضه تحت شعار الاحترام للمنطق والحق والبحث عنها . عبدوا الآلهة والأصنام وكفروا بها ، وآمنوا بالأنبياء والدجالين وقتلوهم ، ونادوا بالرأسمالية والشيوعية ، واعتقدوا اليهودية والمسيحية والاسلام وكل دين وأنكروه ، وشبوا الحروب ولعنوا الحروب، وصادقوا هذا الرجل وهذه الدولة وعادوها، واحترموا هذا المنطق واحتقروه ، وقتلوا الانسان وصلوا عليه ، ولعنوا فلاناً وهتفوا له ، وسرقوا الأموال وقطعوا يد من يسرقها ! فعلوا كل ذلك ، فعلوا أحسن الأشياء وأقبحها تحت شعار المنطق والعقيدة والعدل . ثم مع ذلك لا يشعرون انهم يهزلون أقبح هزل حينما يصرون على التحدث عن قيمة المنطق والعقيدة والعدل !

*

خطر التفاوت الحضاري

اذا واجه الانسان موقفاً أقوى منه صدمت مشاعره ، وصدم المشاعر يهيء التفكير والسلوك للاصابة بالشذوذ ، واذا لم تتكافأ القدرة مع الموقف حدثت الصدمة النفسية . وجميع الانحرافات السلوكية والشعورية والفكرية هي التعبير الأليم عن التناقض بين ما كان وما ينبغي ان يكون – بين الانسان وظروفه ! والبشر يحقدون ويبغضون ويصنعون الضجيج والألم والخراب والعداوة بقدر ما يعجزون عن التكافؤ مع ظروفهم ، وقد اخترعت الحياة الحقد والبغض والسباب لكي يستطيع البشر ابتلاع حياتهم ، وكان هذا من اعظم اختراعات الحياة ، فالانفعالات الرديئة والتعبير عنها بالصراخ آلام محولة . ولا يستطيع الضعيف ان يعيش من غير صراخ وانفعالات رديئة الا بقدر ما يستطيع ان يعيش من غير قلب يخفق ! وليس من الممكن ان نخطيء لو كنا مساوين لظروفنا ، والخطأ في تصرف الانسان هو مقدار الفرق بين ما يريد ان يفعل وما يستطيع ان يفعل ، والمرض نفسه ليس الا عجز الحياة عن التكافؤ مع ظروفها وبيئتها !

وتوجد اليوم حضارة كبيرة ، سماتها القوة والابداع والسرعة والخطر والخوف والارهاق . والانسان لا يختار وجوده ، انه يصنع حضارته كما يصنع آلامه واسباب موته وكل نقائصه ، انه يكون حضارته ، وهذا التعبير ادق من

يصنع حضارته ، هو يكون بالضرورة كالطبيعة – يكون حسب الطاقة لا حسب الخطة . وقد يختار كينونته ولكنه لا يختار اختياره ، اذن فاختياره لا اختيار فيه ! انا اختار بتفكيري ولكنني لا اختار تفكيري ، انا افكر كما أتألم . اننا نخلق وجودنا كما يخلق البركان أو النهر أو الزهر نفسه ، وقد شرحنا هذا في مواضع اخرى . ولا نستطيع ان نحدد وجودنا او سلوكنا او حضارتنا كما لا تستطيع الطبيعة ان تحدد افعالها – هي تصنع نفسها دون ان تريدها ودون ان تستطيع ألا تفعل ، وكذلك نحن ، وكل حركة من حركاتنا الحرة مدفوعة بمجموعة من الحركات غير الحرة . وكل موجود محكوم بقوانين ذاته بأسلوب مساوٍ لتلك القوانين ، وهذا هو معنى الاختلاف بين الانسان والطبيعة . نحن نصنع حضارتنا وكل خصائصنا بالقانون لا بالإرادة ولا بالتدبير ، نريد وندبر ولكن كيف تحدث ارادتنا وتدبيرنا ولماذا ؟ فاذا كنا نكون بالارادة والتدبير فان ارادتنا وتدبيرنا يكونان بلا ارادة ولا تدبير . وفي اللحظة التي يكون فيها الشيء لا بد ان يكون ، وفي اللحظة التي لا يكون لا يمكن ان يكون ، ففي أية الحالتين إذن توجد حرية الكينونة ؟

والبشر لا يصنعون احتياجهم ومصلحتهم بل طبيعتهم ، حتى تقديرهم للمصلحة والاحتياج هو بعض طبيعتهم ومحكوم بها ، ولهذا فان الانسان خطر على نفسه بقدر قد يكون اعظم من خطر الطبيعة عليه ! وهو لا يستطيع ان يتحرر من عمله وارادته لأنه لا يستطيع ان يتحرر من طبيعته ، وهو يصنع مصيره بالأسلوب الذي يصنع به نفسه ، واذا كان محتوماً ان الانسان لن يكون إلا انساناً ، فانه كذلك محتوم ان الانسان لن يكون إلا كما كان وكما سوف يكون ، ولو اراد ألا يكون كما كان وكما هو كائن لما استطاع ولما استطاع ان يريد . فهو في حريته غير حر ، وفي ارادته غير مريد ، وعملنا الحرية ودعوتنا اليها فقدان للحرية لأننا نفعل ذلك بلا حرية ! اننا نريد ونفكر ونختار ونستطيع ولكن بقوانين طبيعية كقوانين النمو وعمليات وظائف الأعضاء ، ولا يوجد من يفكر او يريد بلا قانون ، كما لا يوجد من يحيا او يموت بلا قانون . فاختيار الشيء او

التفكير فيه لا يخلق نفسه ولا يجيء جزافاً ، والقوانين التي تصنع الانسان مادياً هي التي تصنعه نفسياً وفكرياً . نحن احرار في كينونتنا كحرية السحاب تماماً ، والفرق في درجة التعبير . والحضارة – وكذا العبقرية – موهبة لا تعليم، موهبة يكون التعليم احد ابتكاراتها . وليس في استطاعة العبقري ان يكون انساناً عادياً ، وليس في استطاعة الشعب المتحضر ان يكون شعباً غير متحضر، فذات الشيء لا تكون إلا ذاته ، حتى ولو لم يرد هو ذلك . والتعليم بلا موهبة يتحول الى أزمة ورذيلة . ووجود العباقرة والملهمين في عصر من العصور او في مجتمع من المجتمعات خاضع لهذه القوانين نفسها ، فالعبقرية لا توجد في قوم لأنهم ارادوها فكانت لهم ، ولو كانت بالارادة لكانت هذه الارادة نوعاً من القانونية ، ولكان من المحتوم وجود هذه العبقرية في كل من يريدونها . وليس شعورنا بالحرية هو الذي يحركنا ، بل قوانين الحركة ، وخصائص وجودنا هي التي تصوغ افكارنا وتكيف تفسيرنا لها . ان كانت العبقرية بالسعي والقدرة ، فكيف لا يوجد هذا السعي وهذه القدرة لدى كل المجتمعات وفي كل العصور ، وان كانت بالارادة فلماذا لا يريدها كل مجتمع وكل عصر – او ان كان السعي والقدرة بالارادة فلماذا لا تكون هذه الارادة لكل الناس بالتساوي ؟ اننا نبدو احراراً بقدر ما نجهل اسباب كينونتنا ! ان مصيرنا ممكن كنظرية ، محتوم كنتيجة ، وحرية الانسان هي صيرورته كما لا بد ان يصير ، واستجابته لحتميته تبدو لنا كحرية . فالحرية هي قدرة الشيء على ان يكون ذاته .

جميع تصرفاتنا ظواهر توجد وراءها الموهبة الخالقة او الموهبة المفقودة ، واعمالنا ليست هي موهبتنا الخالقة بل هي التعبير عنها ، ولهذا تختلف تعبيراتنا لاختلاف مواهبنا . وفضائل الكلاب الخالدة مثال على الخصائص المتفوقة الموهوبة . والمجتمع العاجز او الكسول ليس محتاجاً الى مزيد من النصائح والتوجيهات، بل الى مزيد من الخصائص القوية. والنصائح والتوجيهات لا تعطي المجتمع قوة او فضيلة او موهبة ليست فيه ، والموهبة هي التي تصنع نصائحها وتوجيهاتها ، كما تصنع نفسها . والمجتمعات الممتازة هي ممتازة بخصائصها لا

بتعاليمها ولا بمواعظها ولا بكثرة المصلحين فيها ، بل المتخلفون هم اكثر الناس رسلاً وهداة وتعاليم واقواهم علاقات بالسماء . والبشر يفسرون ويصوغون كل شيء بموهبتهم حتى العلم والحضارة ، فالعاجزون يحولون حضارة الانسان وعلمه الى غرور وعجز وتعصب ومظاهرات وخطب وطبول والى ازمات وعداوات ومشاكل وشعارات ، كل مجتمع يكون كما يستطيع لا كما يطلب منه او ينبغي له . والذين ليس في موهبتهم وعي الحرية والتسامح وتحويلها الى سلوك ، كيف يستطيع شيء ما ان يجعلهم احراراً متسامحين ، والذين ليس في قدرتهم الإبداع والخلق هل يستطيعون ان يتحولوا الى مبدعين وخالقين بمجرد وضعهم تحت ظروف فيها إبداع وخلق ؟ ان هؤلاء سوف يجعلون مما يجدون ويتعلمون مبرراً ومفسراً لخصائصهم . وما نتعلمه ونجده تحكمه خصائصنا ، ولكن ذلك لا يحكم خصائصنا .

ان الحضارة والمعرفة والاخلاق نتائج لا اسباب ، نتائج لخصائصنا لا اسباب لها ، لقد وجدنا أولاً ثم كان وجودنا الحضاري والعلمي . فخصائص الانسان هي التي تجعله يكون او لا يكون ، وهو دائماً يبتدىء من ذاته ويفعل ما حوله وظروفه او يستجيب لها بموهبة تنطلق منه . وعبقرية البشر هي مقدار تأثيرهم في الوجود الذي يعيشون فيه وصياغتهم له ، ولكن كيف يؤثرون فيه ويصوغونه؟ هذا هو عمل خصائصهم وموضوع اختلافها . جميع الناس مثلاً يحيون فوق الأرض ويعايشون شموسها وأقمارها ويواجهون مشاكل ومتاعب وآلاماً متشابهة ، كما يواجهون تحديات الكون الدائمة لهم . ولكن كم هم الذين غيروا الحياة بقوتهم وعبقريتهم ؟ ما اكثر الذين عاشوا الظروف التي عاشها مخترع المطبعة والقاطرة ومكتشف البخار والكهرباء والجاذبية والنسبية ! لقد كان جميع الناس محتاجين ومتألمين ، يشعرون انهم يخوضون معركة متساوية ، فهل جاءوا متساوين في بطولتهم ؟ أليست كل المجتمعات محتاجة الى الحرية والعدل والديمقراطية والرخاء والى الحكم الصالح والتطور والشجاعة والقوة والعبقرية والى الأعمال الكبيرة ؟ فلماذا لم يفعلوا كلهم ذلك بدرجة متساوية ؟ هل الظروف هي السبب ؟ ومن

الذين يبدعون الظروف ويغيرونها – أليسوا هم الناس ايضاً ؟ ومع ان خصائصنا اسباب لا نتائج فان هناك حقيقة اخرى – تلك هي ان عملنا يصنع عملنا – اي انوجودنا الحضاري يصنع وجوداً حضارياً آخر. فالابتكار والبراعة والكشوف تعطي براعات وابتكارات وكشوفاً اخرى ، وهكذا كلما انتصر عقل الانسان ويداه استطاع ان ينتصر اكثر. ولكن التفسير لهـــذا ان ظروفنا الحضارية تستثمر خصائصنا دون ان توجدها او تغيرها ، واذا كانت توجدهـا او تغيرهـا فمعنى هـذا ان خصائصنا توجد وتغـير خصائصنا ، لأن الحضارة التي اوجدت وغيرت خصائصنا هي من صنع خصائصنا ، إذن فخصائصنا هي التي تصنـــع خصائصنا. فالخصائص هي السبب وسبب السبب ، اما كيف توجد هذهالخصائص فكما توجد الخصائصالبدنية وخصائصالنباتات والحيوانات وسائر ما في الكون. ولهذا لا ينتظر ان يؤدي انتشار العلم والحضارة وتطورهما الى ايجـاد مجتمعات متساوية في مزاياها الحضارية والانسانية إلا اذا أمكن اقامة معامـل تخرج منها خصائص الانسان متشابهة كأنها إطارات السيارات وقطع الغيـار ، او تحويل هذه الخصائص الى سوائل واقراص تحفظ في الزجاجات والأنابيب وتؤخـذ في الفم او في العضل او بأية وسيلة علمية اخرى .

*

والحضارة هي نتاج الخصائص الانسانية المتفوقة – حصيلة كل العصور ، فهي اذن أعلى مدارك الانسان واقوى اشواطه متجمعة في قدرتها العظمى ومداهـا الاخير في كل تاريخه وسلالاته . وهذا يقيم مشكلة ضخمة ، فان المفروض ان تتعامل كل المجتمعات والناس مع هذا العميل القوي المتكامل الذي هو الحضارة ، وان يتوازنوا معه - يتوازنوا نفسياًوفكرياً ومادياً ، عليهم ان يفهموهويفسروه ويعيشوه ويتحمـــلوا كل متاعبه ومشاكله وطاقاته وسرعته بمستوى يساوي مستواه . ولكن كيف يستطيعون ؟ ان معنى هذا ان تتبارىأضعف الخصائص مع اقوى الخصائص وتدخل معها في سباق غير متكافىء

الانسان دائماً يخلق أشياء اقوى منه لتثير حماسه وخوفه ، ولتجعل لوجوده فكرة وأملاً ، ثم لتلقي به تحت قدمي إله جبار عنيف يزيده ايماناً وصلاة كلما زاده قسوة وتعذيباً . لقد خلق الآلهة والمخاوف وكل الاساطير العظيمة ، وخلق المذاهب والعقائد والافكار القاسية الغاضبة ! وخلق الحضارات بكل جبروتها وتكاليفها ، وخلق جميع الاخطار – خلق الابطال والطغاة ليذلوه ويقتلوه ويهتف لهم ! انه يحتاج الى الشعور بالخطر والخوف والإلزام ، ويحتاج الى السعي الدائم الأليم وراء شيء يخافه ويكبره ويجهله – شيء ينطلق دائماً بسرعة وقوة تفوق سرعته وقوته لتمتص كل قواه ومعانيه . وهو لا يدري ماذا يريد ولا يريد ان يدري ، ومن الخير له ألا يدري ، هو فقط يتحرك ليكون رماداً ووقوداً لشيء . واحتراقه في ذلك الشيء هو الذي يجعله يضيء ويكبر ويشعر أنه شيء له قيمة وتفسير عقلي واخلاقي في هذا الكون . انه لا يستطيع ان يعيش داخل ذاته ، لا بد أن يهب نفسه لشيء ، – لفكرة أو لمذهب أو لأكذوبة كبرى ، اذا كان غير مستطيع ان يهبها لإله فظيع من آلهة القدماء العتاة – يريد أن يكون جندياً في جيش متحرك يتلقى الأوامر ويضحي بنفسه في معركة ما ، وهذا سبب من اسباب عذابه ، وهو ايضاً من اسباب قوته وراحته . لقد جاء بغير تفسير ، ومحتوم عليه ان يذهب ايضاً بلا تفسير ، ان يموت من اجل الموت. وهذه الحضارة تفرض نفسها بطريقة متساوية على جميع الذين يتعاملون معها – على أشدهم تفوقاً وأشدهم تخلفاً ، وتفرض عليهم ان يتساووا معها في كل مزاياها ما داموا يحبونها . ولكن الذين لا يستطيعون ان يتساووا معها ماذا يصنعون ؟ انه موقف تحد خطير – كيف يكون رد العاجز على التحدي ؟

ان القادر يرد على التحدي رداً ملائماً وعظيماً ، اما العاجز فإن رده سيكون رداً معصوباً منحرفاً ضعيفاً . والواقع ان خصائص الذين ابدعوا الحضارة توجه تحدياً أليماً مستمراً الى خصائص اولئك الذين واجهوها كمستهلكين لها فقط – واجهوها كغزو محتوم انتصر على تاريخهم وبلادهم ومثلهم وثقافتهم وعلى كل تراثهم النفسي والفكري والاخلاقي ، دون ان يستطيعوا المشاركة في ابداعها

او وقف زحفها المتفوق او العيش خارج حدودها وتعاليمها ، وقد كان رد هؤلاء على اولئك عنيفاً وأليماً .

*

لقد وجدت حالة تصادم خطيرة ، فالمتخلفون يخشون المتفوقين ويحقدون عليهم ويكرهونهم ويشعرون نحوهم بانفصال نفسي حاقد ، بل ويحسون كأن بينهم وبينهم تناقضاً طبيعياً كالذي بين الكائنات المفترسة والكائنات المسالمة . اما المتفوقون فإنهم ذهبوا يطغون ويتكبرون ويرون انهم هم وحدهم الموجودون في هذا الكون ، المالكون لكل خيراته وقانون التصرف فيه، وهذا يخلق منهم حضارة متوحشة غبية ، وما افظع الحضارة الغبية ! واذا وجدت بين الفريقين محالفات او صداقات رسمية، فإنها محالفات وصداقات تخفي تحتها عداء وتناقضاً عاطفياً وتاريخياً عميقاً . وقد عجزت كل المحاولات عن خلق صداقة حقيقية بين هؤلاء وهؤلاء ، لأن التناقض النفسي بينهما اقوى من جميع المحاولات . وهذا التناقض العاطفي يصنع التناقض في المصالح اكثر مما يحدث العكس ، فالافتراق العاطفي هو الذي يريهم انه يوجد افتراق مصلحي دائم ، ثم يضخم احساسهم بهذا الافتراق. فالتناقضات في المستوى التاريخي تصنع تناقضات اخرى كثيرة. ولو لم يوجد في التاريخ غالب ومغلوب ، ثم وجد متفوق ومتخلف ، لوجد بينهما العداء والتناقض والصدام والوحشة ، وكثير من هذه التوترات الدولية الدائمة يجب ان يبحث عن اسبابها في اختلاف المزايا الحضارية لا في اختلاف المصالح .

والمذاهب الاجتماعية والفكرية التي قسمت العالم فيما يبدو الى كتل متحاربة لاتعطي الحقيقة بل الصورة ، فالاختلاف في المذهب والعقيدة يعبر عن الاختلاف في المستويات والخصائص ، والعداء على المذاهب والعقائد المختلفة انما يعني عداءً نفسياً لا عداءً مذهبياً ولا عقائدياً . ولو اختلفت عقائد ومذاهب قوم متساوين في خصائصهم ومستوياتهم الانسانية لما صنع هذا الاختلاف مثل هذه الخصومات النفسية الباهظة ، فالعداء بين ذوي مذهبين يعبر عن عداء بين نفسيتين وعقليتين

لا عن عداء بين نظامين ، والاختلاف بين نظامين يصور نوعين من المستويات . والناس يختارون مذهباً ونظاماً او ينفرون منهما ليعبروا عن تأييدهم لقوم وتوافقهم معهم ، او عن نفورهم من قوم واختلافهم عنهم في المحتوى الاخلاقي والنفسي والعقلي . بين الامريكي والروسي خصومة تهدد العالم كله بالدمار ، وسبب هذه الخصومة هو الخلاف المذهبي او التنافس على السيطرة والزعامة العالمية او الدفاع عن الحياة والسلام والحرية وحقوق الشعوب وعن الأخلاق . هذه هي القراءة الاولى ، أما القراءة الثانية فتقول : ان سبب هذه الخصومة هو الخوف ، وان سبب الخوف هو التناقضات النفسية والفكرية ، وان سبب هذه التناقضات هو الاختلاف في المستوى وفي الطبيعة الحضارية ، وهذا هو الذي أقام الحواجز المذهبية وحول هذه الحواجز الى قلاع حربية تختزن وراءها العداوات والاحقاد والاسلحة المصوبة الى المخاوف المتبادلة لا الى الخلافات المذهبية .

ومذاهبنا كأخلاقنا ، كأفكارنا تعبر جميعاً عن حالة نفسية ، وتفسيرنا لهذه الافكار والاخلاق والمذاهب محكوم بهذه الحالة النفسية . والنظرية لا توجد نفسها ولا تفسر او تحرك نفسها ولكن حالتنا النفسية هي التي تعطي النظرية وجودها وحماسها وقوتها، بل وتصوغها وتحدد اتجاهاتها . والفروق بين المجتمعات والافراد فروق نفسية قبل ان تصبح فروقاً علمية او حضارية او اجتماعية ، والمتساوون في نفسياتهم لا يمكن ان يتفاوتوا في نظرياتهم . واذا تدخلت النظريات او المذاهب في المواقف النفسية فهي لا تتدخل كقوة فاعلة بل مفسرة – كل عمل المذهب والنظرية ان تعرضا على الانسان نفسه ! واعمال العقل كلها كالرؤية البصرية انما ترى الرغبة نفسها دون ان تصنعها او تغير طبيعتها . ومع هذا فالأعمال العقلية أمام النفس أقل من الرؤية بالبصر أمام الرغبة لأن عمل العقل لا يكون إلا من عمل النفس ، أما الرؤية فليست دائماً من عمل الرغبة . ولو وجد قوم لا تتغير مواقفهم الشعورية لما أمكن ان تتغير حياتهم ولا أفكارهم .

ومن الأوهام الشائعة التي يقع فيها الكبار دون الصغار قولهم مثلاً : « لقد انتصر فلان على نفسه او انتصر العقل على الهوى او على الشهوة » . فالانسان

لا ينتصر على نفسه ، ولكن نفسه هي التي تنتصر على نفسه ، فالاستقامة هي انتصار الرغبة على الرغبة ، وليست انتصار التفكير او الفضيلة على الرغبة .ولا يمكن ان يحدث صراع او نزاع او حتى مجرد خلاف بين العقل وبين اي شيء آخر من اعمال النفس ، فالعقل لا يقاوم لأنه ليس خصماً لشيء ، وهو ليس قوة فاعلة، بل انه ليس شيئاً وانما هو مجرد تقدير وتفسير للاشياء فقط ، قد يحكم ولكنه لا ينفذ ، ولا يمكن ان يحكم او يعمل لمصلحة نفسه بل لمصلحة الآخرين ، انه محايد، لا يعيش أبداً من داخله. وليس في طبعه ان يناضل لا دفاعاً عن نفسه ولا دفاعاً عن سواه ، واذا بدا أنه يعمل او يعارض فليس هو الذي يفعل ذلك . فاذا تصادم تفكيرنا واحدى رغباتنا كان معنى هذا ان رغبة صادمت رغبة ولكن احدى الرغبتين قد اختبأت وراء العقل بحيث لا ترى إلا بالتحديق والمحاولة . والذي ينطلق بكل سرعته في سبيل الغواية بحيث يقال عنه ان عقله قد انهزم أمام شهوته ليس الامر فيه كذلك ، فعقله لم ينهزم لأنه لم يدخل معركة ولا يمكن ان يدخلها ، وانما تفسير مثل هذه الحالة : ان هذا الانسان قد ضل في توزيع نفسه بين اهوائها ، فالفاسد هو انسان قد عجز عن تنظيم شهواته وعن توزيع حركاته بين هذه الشهوات ، أما الفاضل فهو الذي يستطيع تنظيم هذه الشهوات وليس هو الذي يعصيها او ينتصر عليها . فالفضيلة هي مجموعة رغبات ، والرذيلة هي ايضاً مجموعة رغبات ، والفرق بينهما في التوزيع . فتوافق الشهوة مع القانون الطبيعي او مع السلوك الاجتماعي فضيلة او هذا هو مصدرها ، وتنافرها مع احدهما رذيلة او هذا هو المفروض . وليس العقل إلا عسكري مرور يراقب ويعطي الاشارات بالتوزيع والمناوبة .

*

ان هزيمة التخلف هزيمة قاسية تفسد المشاعر والتفكير والعلاقات وتجعل التناقض محتوماً ومريراً ودائماً ، وان انتصار التفوق لقاس ايضاً يفسد الرغبة والفكرة ويفسد التفوق نفسه ، وعقدة التفوق كعقدة التخلف كلتاهما طريق الى العاهات الاخلاقية والنفسية ، وايضاً الاختلاف في المزايا يصنع الاختلاف في

التفكير والسلوك ، والاختلاف فيهما يوجد موقفاً متناقضاً وخطيراً ، فالاقوياء في خصائصهم يوجهون هزيمة مذلة الى الضعفاء في خصائصهم ، وهـذه الهزيمة تفتح جراحاً غائرة في نفوس اولئك الذين واجهوها،وهذه الجراح تتحول الى مشاكل وأزمات وتاريخ ! وهؤلاء الذين أبدوا تفوقا في معطياتهم الحضارية لا بد ان تكون خصائصهم مخالفة لخصائص الآخرين العاجزين الذين حتم عليهم ان يستهلكوا فقط ما أعطى اولئك ، والفروق في الخصائص لا بد أن تعطي فروقاً في النتائج. ان بين الشعوب أزمة في المستوى ، وهذه الأزمة في المستوى تسبب كثيراً جداً من هذه الأزمات العالمية المستمرة بقدر أخطر مما تسبب أزمات المستوى بين الآحاد . حتى محاربة اللون والجنس ترجع في أسبابها الأولى الى التفاوت في المستوى ، ولو كان المختلفون في ألوانهم او في أجناسهم متساوين في خصائصهم الحضارية المتعددة وفي قدراتهم المادية والعقلية لما وجد ما سمي بالعنصرية لا في هذا العصر ولا في عصر مضى . والطائفية في أي مجتمع وأي عصر ليست إلا تعبيراً عن الاختلاف في المستوى .ان المتشابهين في مزاياهم الحضارية قد يتنازعون ويتحاربون ، وهذا يقع كثيراً ، ولكن العداوة بينهم تظل عداوة مصلحية موقوتة لا نفسية دائمة ، وقد يتحاربون بلا كراهة ولا حقد من الداخل ، وانما الحرب بينهما تدبير خارجي دفاعاً عن مصلحة او طمعاً في اغتصاب شيء او تنافساً على مغنم . أما المتباينون في مزاياهم فان الكراهة والعداوة بينهم داخليتان حتى ولو لم يختلفوا على مصلحة او يتنازعوا على أخذ شيء . وسوف تبقى العداوة والخوف بينهم ما بقي التفاوت في المستوى .

المتخلفون الذين يجدون انفسهم في ظروف إبداعية أقوى منهم في جوانبها المادية والثقافية — ظروف إبداعية قد شيدتها عبقرية متفوقة — هؤلاء تختل تصرفاتهم ويفقدون توازنهم السلوكي والفكري والعاطفي ، ويعجزون عن حب انفسهم وحب الآخرين وحب الحياة — كأي انسان يواجه موقفاً لا يستطيعه — يواجهه بفكره ومقدرته ، وفقدان التوازن الذاتي يهدي الى كل انواع الضلال والعجز . ومع هذا فان الحياة شيء لا يمكن تفسيره ، فكونها موجودة هومعنى

كونها معقولة . جميع المواقف تصنع لنا شعوراً ، وكل شعور يحتاج الى استجابة مناسبة ، ونحن جميعاً محتاجون الى ان نرد على مشاعرنا رداً سلوكياً ، ويجب ان يوجد تكافؤ بين الشعور والقدرة على الاستجابة . وقد كان الموقف هنا فوق القدرة ، فكان الرد عليه هذه الاتجاهات المتقلبة الغبية الخطيرة التي لا تعطي غير هز السيوف الخشبية والخطوات العسكرية البطولية لمحاربة النجوم الآفلة . والمتأخرون يهتمون بالشعارات والحديث عن المبادىء والمثل اكثر مما يهتمون بتحقيق هذه التي ينادون بها ، بل اكثر مما يريدونها او يحترمونها او يفهمونها ، وقد يزعجهم ان يتحقق ما ينادون به ، إذ لو تحقق لقتلهم ، فهم موجودون لأن مثلهم غير موجودة ! فأول من يقتله المبدأ المطبق صاحبه لو كان ممكناً ان يطبق اي مبدأ . ان الناس يدعون الى اشياء على افتراض ان تلك الاشياء سوف تظل امنية وحديثاً فقط ، ولو أرادت ان تصبح واقعاً لحاربوها ، واخطر من يلعبون هذه اللعبة الحكام والزعماء والمصلحون والكتاب . ويتحول نضال هؤلاء المتأخرين الى السلبية العنيفة ، فالحقد والبغض والسباب والاتهام والتشنيع والوعود هي التعويض السهل عن الاعمال الكبيرة . والدكتاتور يهتف بالحرية وباحترام الشعوب اكثر مما يفعل الحاكم الديمقراطي ، لأن المسألة عند الدكتاتور لا تعدو أن تكون خطباً ، واذا أصبح الحاكم يتحدث عن الحرية ويمتدحها فمعنى هذا انه قد اصبح لا يخافها لأنه قد قتلها ، انه يمدح قتيلاً . واذن فكلما وجدت الحرية على لسان الحاكم كان هذا يعني انه لا توجد حرية . فالحكام الذين يحكمون تحت اوضاع ديمقراطية قد يلعنون الحرية لأنها تقيد تصرفاتهم وتحاسبهم على حسناتهم ، اما المستبدون فيتحدثون كأنهم شعراء ومغنون عن فضائل الحرية لأنهم يتحدثون عن فضائل عدو لا يخشونه – عدو غير موجود لأنهم قد صلبوه! والانسان قد يجد سعادة في التحدث عن مزايا عدو مغلوب ، والطغاة يجدون نشوة عظمى في الترحم على الموتى . وتحدث الطاغية عن الحرية وامتداحه لها نوع منكر من فقد الحرية ، انه يحول كل شيء الى اوامر وترخيص حتى ممارسة الحرية والاعتراض عليه . ان الاعتراض عليه بأمره هو يهبه لذة شيطانية ، ان

اوقح الأوامر في هذه الحياة ان يأمر طاغية المجتمع بأن ينقده ويعارضه ، هـذا يشبه ان يطلب اليه ان يقتله ، وهذا اسلوب لئيم من اساليب الاستهزاء والسخرية والتحدي !

والحضارة التي هي إبداع الاقوياء ، تضع على الضعفاء شروطـاً هي فوق طاقتهم ، تلزمهم بأن يعملوا معها لأنهم يحيون فيها ، ولأنهم اذا لم يعملوا فلن تتركهم ينعمون بأوضاعهم المتأخرة، والعمل معها يحتاج الى مزايا نفسية وفكرية وخلقية وإبداعية هي اكثر مما يستطيعون ، ولكنهم سوف يحاولون ولا يجدون غير أن يحاولوا ، وهذا يلقي بهم في وضع متنافر . انهم مكرهون عـلى ان يحاولوا عمل شيء لا يملكون القدرة عليه ، اذن لا بد ان يتحطموا من الناحيـة النفسية ، وان يصبحوا اضخم وعاء للرذائل السلبية من الناحية الاخلاقية . وما أتعس قوماً تفرض عليهم حياة لا يتناسبون مع فضائلها وقوة الإبداع فيهـا ، ودائماً القدرة على العمل تصحح للنفس وللفكر فضائلهما ، والعاجز عن عمـله لا يكون ابداً فاضلاً ولا سوياً . وقد أعطت الظروف الحضارية الجديدة اولئـك الذين لم يصنعوها فرصاً غير عادية لكي يعرضوا انفسهم بكل وسائلهـا عرضاً مريضاً عنيفاً ، لقد اعطتهم وسائلها المادية ولغتها وحماسها وشعاراتهـا وظواهر كثيرة من افكارها ومنافعها وأمانيها وكل قواها — اعطتهم تعبيراتها ولم تعطهم فضائلها . واخطر الاشياء واسوؤها الا يتساوى الناس مع الافكار والشعارات والمثل التي تصل اليهم في طرود وصناديق واذاعات ، وأخطر من هـذا ألا يتساووا مع القوة التي هي فوق مستواهم الحضاري والاخلاقي حينما يمتلكون هذه القوة المستوردة . المفروض ان تتناسب فكرة الانسان مـع قدرته ، فإذا ملك قدرة ولم يملك فكرة او اختل الربط بينهما كان الوضع فاجعـاً ، والذين يصنعون قوتهم لا بد أن يتناسبوا معها على نحو ما ، لأن القدرة على صنع الشيء تطور في وعي الذات ، ولأن الخالق ليس غـير المخلوق في المستوى والفكرة . ومع هذا فالمفروض دائماً ان المخلوقات اعظم من خالقهـا ، فالبشر اعظم من خالقتهم الطبيعة ، والثمرة والزهرة اعظم من الطين ، والجهـاز الذي يصنعه

الانسان ادق من الانسان ، وهكذا . والعمل يطور القدرة والتفكير والارادة والاخلاق تطويراً غير تام التناسب ، وهذا يوجد نوعاً من القانونية بين الانسان وعمله ، وهذه القانونية هي التي تعصم المجتمع على نحو ما من الانهيار ازاء نفسه . اما الذين يملكون قوة لا يتناسبون معها اي تناسب ، لأنهم لم يصنعوها فلم يرتقوا الى مستواها ومستوى الظروف والمزايا التي ابدعتها ، فهؤلاء هم القوة التي لا تملك افكارها ولا خصائصها. وما أقسى تناقض وتعبير شخصيات هؤلاء الذين يملكون حضارة ولا يملكون خصائص حضارية – يملكون حضارة مصنوعة خارج انفسهم وقدرتهم .

وكم هو مثير ان ينهض درويش يحمل كل رذائل الدراويش المتخلفين وتاريخهم ، متحدثاً باسم الحضارة وشعاراتها ليهدد تلك الحضارة نفسها بالصلب والشنق ، انه يسلح خصائصه المتخلفة بسلاح الحضارة ليحطم المعاني الحضارية ، ويدافع عن الهمجية بقوة المدنية ، ويهدد المتحضرين بالاسلحة التي وضعوها هم في يديه ، ويقاوم الحرية بالوسائل التي ابدعتها نفس الحرية ! والمجتمعات التي يفرض عليها ان تحيا في ظروف حضارية ليست من عملها – هذه المجتمعات لا بد ان تعاني انهياراً انسانياً شاملاً ، لا بد ان تعاني ضراوة اخلاقية ونفسية ، وشعوراً بالضياع والتفاهة ،وعجزاً عن الشعور بالحماس والمبالاةِ والاحترام لأي شيء.انهم لن يحترموا الأشياء العظيمة او يعجبوا بها او يفهموها ، سيصرخون ويحقدون ويكرهون كل الناس وكل الأشياء ، وسوف يهتفون بحرارة ولكن بلا عمق ولا ايمان . هم لن يحبوا الأشياء العظيمة لأنهم لا يصنعونها ولا يتكافأون معها . والانسان لا يحب الأشياء المتفوقة التي تظهره ضعيفاً او ذليلاً محتقراً ، وكذلك لا يحب الأشياء التي لا تتكافأ معها موهبته . وهم ايضاً لن يحبوا الآخرين الذين يتفوقون عليهم لأن التفوق اهانة وخطر وخوف ، وجميع الناس في حسابهم اعداء ولصوص وفاسدون وخونة ، ولهذا فهم يلعنون المعسكرات المتخاصمة ويصلون عليها جميعاً بالموت والخراب . ولا يمكن ان يعاملوا احد هذه المعسكرات الا على اساس انهم اعداء وغادرون فاجرون ، انهم لم يستطيعوا ان

يفهموا الآخرين ولا ان يتكافئوا معهم في مستوياتهم الحضارية ، اذن لا بد ان يكرهوهم ويخافوهم وينكروا جميع نظمهم ومذاهبهم ويفاخروا بذلك ، وان يروا ان اكبر مناقبهم انهم يخالفون كل الناس ، يخالفونهم فكرياً ونفسياً واخلاقياً ، وانهم لا يؤمنون بشيء من ابداع الغرباء الفكري او النفسي او المذهبي ، وقد يجدون في مقاومة الحضارة وطنية عالية . ان اعظم مزاياهم انهم لا يؤمنون بمزايا الآخرين ، والانسان لا يستطيع ان يرى الدنيا الا من خلال مشاعره ، بل لا يرى شيئاً الا من خلال المرآة التي يرى بها وجهه . فبالصورة التي نرى بها وجوهنا حين نحدق في المرآة نرى الحياة والأشياء والناس والمبادىء والقيم ، ولا يحيا أحد غير شعوره . ان رؤيتنا لأنفسنا لتؤثر في تكوين شعورنا وتفكيرنا وايماننا واخلاقنا ، وان المرآة لشيء كبير في حياة الانسان ، ان رؤية الوجه تعني اشياء متناقضة . وسر المأساة ان هؤلاء لا يستطيعون أن يعيشوا بأخلاق الماضي وافكاره ونظمه لأن الظروف الجديدة ترفض ذلك وتجعله مستحيلاً ، ولا يستطيعون كذلك ان يعيشوا مع العصر الحديث بكل ما فيه من تفكير وابتكار وسرعة وقوة ، لأنه اقوى منهم . ولا يوجد من يستطيعون ان يعيشوا في وضع لا يتناسبون معه دون ان يتعذبوا ويتناقضوا ويكرهوا الحياة والناس والأشياء . واذا كانت النباتات لا يمكن ان تنمو وتزدهر في غير ظروفها فان الانسان كذلك لا يمكن ان يحيا في غير ظروفه حياة صحيحة او قوية او خصبة !

*

والمحتمل جداً ان تبقى التناقضات النفسية بين المجتمعات والأفراد قانوناً وان تظل تتحول الى تصادم او الى خلاف وعداوة على الأقل ما دام المستوى بين هذه المجتمعات والأفراد ليس في درجة واحدة ، والمحتمل كذلك ان توحيد المذاهب والنظريات والنظم ، بل وجمع البشر كلهم في دولة واحدة — لو حدث هذا — لن يزيل هذه التناقضات القائمة على اسبابها الاولى العميقة .

ولو استطاع الانسان بمحاولاته العلمية ان يخترع مجتمعات متساوية او متقاربة في جميع خصائصها الحضارية والانسانية لكان ذلك اعظم الخطوات في ردم الطرق التي تؤدي الى العداوة والتصادم والخلاف بين البشر ، حتى الخلافات الدينية والفكرية والفلسفية ليست إلا خلافات في الخصائص والمستويات. والناس يختلفون في العقيدة او التفكير لأنهم مختلفون في مستوياتهم، واذا لم يختلفوا في هذه المستويات فان اختلافاتهم الاخرى تصبح اختلافات صورية ، وسوف يحولون حينئذ هذه الاختلافات الى شيء واحد في التفسير والتعبير. فالاختلاف في الدين او في المذهب لا يوجد اختلافاً في السلوك والخلق ولا في الخصائص الذهنية ، فاذا اختلف أهل الأديان والمذاهب المتعددة او تعادوا لم ينبغ تفسير ذلك باختلافهم الديني او المذهبي بل باختلافهم النفسي .

*

وكل الناس يعبرون عن عقائدهم ومذاهبهم ويفسرونها باستعداداتهم ورغباتهم لا بنصوص ولا بروح تلك العقائد والمذاهب — بل لا يوجد من يعبر عن دينه او مذهبه حين يعمل او يفكر وانما يعبر عن وجوده ، فصفات المجتمع هي التي تفسر دينه وتعبر عنه لا روح ذلك الدين ولا نصوصه ، كما انها هي التي تصوغه ، اذن فالأديان والمذاهب ليست مذمومة ولا ممدوحة اذا هان أهلها او عظموا ، وكذا اذا انحرفوا او استقاموا . واذا قفز شعب وأوجد حضارة وقوة ورخاء وهو يدين بدين او مذهب او في عقب ثورة ما وأخذه بنظام معين او فلسفة جديدة ، فهذا الشعب كان لا بد أن يكون كذلك حتى ولو لم يدن بشيء من ذلك او دان بما يخالفه ، والذي غير ذلك الشعب هو اسلوبه لا مذهبه ولا ثورته . ولهذا فقد صنع القوة والحضارة أهل الأديان والمذاهب المختلفة بل المتناقضة، وكذلك أهل النظم المختلفة في الحكم ، والعاجزون والمتخلفون هم ايضاً من كل النظم والمذاهب والأديان . ان المذهب والثورة والعقيدة لا توجد القوة ولكنها تحيا وتقوى بها كما توزعها وتسميها ، ولا توجد أية علاقة بين مذاهبنا وعقائدنا وبين انتاجنا للقوة

والحضارة . وقد اخترع الانسان مـــذاهبه وعقائده ليفسر بها كينونته ، فهو يعتقد لأنه يكون ، ولا يكون لأنه يعتقد .

*

ليست الدكتاتورية الباهظة، وليست الانقلابات العسكرية المتلاحقة، وليست القسوة التي لا تعرف قانوناً ، وليست مـــظاهرات التضليل والكذب والسباب والتهريج ، وليست الوطنية المصابة بالأمراض العصبية وبسوء التعبير والخلق ، وليست التشنجات البطولية والتناقضات الحمقاء ، وليست المبالغات في الحب والكره والتأييد والمقاومة ، وليست الكبرياء القومية السلبية المعتدية ، وليست التحديات المستمرة وتعشق المشاكل والأزمات - ليست هذه كلها إلا بعض الردود التي يرد بها العاجزون على حالة التحدي غير المتكافيء الذي واجهوه في عصبية وحيرة وانكسار . ودائماً تجيء الأفكار والأفعال الخاطئة رداً على مواقف الهزيمة والحيرة والإذلال !

*

الانسان ليس جهاز استقبال بل تطور تاريخي خالق ، وهو يحيا من داخله - يحيا من كونه انساناً يتعامل مع مجتمع من الشموس والتراب والرياح والحشرات ، وكل الأشياء الأخرى حوله هي موضوع حياته ومجالها . واذا كان يتعامل مع الوجود الذي يحيط به ، فإنه يتعامل معه كخالق مغير لا كمجرد وجود ضعيف مخلوق غير متحدد . ولا يمكن ان نفترض الانسان ظرفاً من الظروف ، انه ليس ظرفاً ، ولكن قوة تحكم الظروف ، حتى مشاعرنا محكومة بذواتنا لا بظروفنا ، نحن لا نكون إلا أنفسنا ، وظروفنا لا يمكن ان تجعلنا متفوقين على خصائصنا ولا متخلفين عنها ، ظروفنا لا تصنع عواطفنا بل تصنعها ذواتنا ثم تعكسها على ظروفنا . اننا نحب ونكره ونتفاءل ونتشاءم ونحزن ونبتهج كما نقوى ونضعف ونتقدم ونتأخر ونفكر بمقدار او بقانون تطلقه ذواتنا عاملة في ظروفنا ، ونحن أقدر على تكييف ظروفنا من ظروفنا على تكييفنا . وتغيير الظروف لا يمكن

ان يغير من طبيعة الشيء . الظروف تجعل الشيء يستطيع ان يعمل طبيعته لا ان يغير تلك الطبيعة او يعمل غيرها ، فإذا التقينا بظروفنا الملائمة استطعنا أن نحقق خصائصنا ، لا أن نخرج عليها ، وان أي ظرف لا يعني شيئاً بدوننا، فنحن الذين نعطي الظروف قيمها وتفاسيرها . اننا نفعل الظروف بقدر ما نستطيع ، لا بقدر ما تحمل الظروف من احتمالات ، ولهذا يتحدد فعلنا للظروف وفيها مع عدم تحدد الظروف نفسها ، ولا يوجد من يفعلون بقدر ظروفهم . فصفاتنا هي التي تحدد وجودنا ، لا صفات الوجود الذي نتعامل معه ونعمله — وكذلك كل شيء في الكون ، إنما يساوي نفسه لا نفس ظروفه ، ومن ثم تجيء الاشياء مقدرة بذاتها لا بظروفها . ولو كان البشر يساوون ظروفهم لا ذواتهم ، لكانوا دائماً شيئاً عظيماً لا حدود لقوته ونجاحه ، او شيئاً تافهاً لا قيمة له على حسب تلك الظروف . وقد تحددت الخصائص واختلفت او تساوت مع اختلاف الظروف ومع تساويها . إن أية نبتة مقيدة بذاتها وبصفاتها التاريخية ، مهما اختلفت او تساوت العوامل الخارجية المحيطة بها — وان اي شيء لكذلك . ولو كانت العوامل الخارجية اقوى من الصفات الذاتية ، بحيث تستطيع تبديلها ، لكان من الممكن ايجاد كائنات وبشر متساوين في صفاتهم بوضعهم تحت ظروف متساوية . وقد يبتكر العلم في يوم من الايام وسيلة تحقق للبشر التساوي في الموهبة .

*

توجد في كل انسان قدرة ذاتية تصوغ مشاعره وتوزعها طاقات بمقادير تحددها صفاته النفسية والبدنية . انت وانا وكل انسان آخر تطلق ذاته شحنات معينة من السرور والاكتئاب والتشاؤم والتفاؤل والذكاء والغباء والجرأة والجبن والحب والبغض ، مقدرة باستعداداتنا الخاصة لا بالأوضاع التي نحياها ، فالذي تحمل ذاته شحنة من السرور والرضا تعادل ستين في المائة وهو في السجن ، ستكون النسبة هي نفسها لو أصبح ملكاً عظيماً محبوباً او زعيماً معبوداً ، والعكس ايضاً صحيح ، وهذه النسبة تتغير في توزيعها لا في مقدارها. فالذي تحمل ذاته شحنات

كبيرة من الانفعالات السارة وهو في وضع طيب ، ستبدو النسبة مختلفة حينما ينتقل الى وضع آخر أليم ، ولكن النسبة مع هذا لا تتغير ، وإنما يتغير التوزيع لأن الطاقة الانفعالية مثل الطاقة العضلية ، تفعل ما تستطيع لا ما يمكن ، ان ما يمكن دائماً لا حد له ، ولكن القدرات هي التي تحدد نفسها ، فالحدود في الاستطاعة لا في الامكان .

فذلك الانسان الذي تتألم نفسه آلاماً هائلة في اول مواجهته لوضعه الشاق ، سيشعر بارتياح نفسي مماثل بعد زوال الصدمة الاولى، لتكون النسبة ثابتة ولكي تصبح ذاته متعادلة مع قدرتها . والحياة بارعة في تكييف نفسها وتكييف ظروفها لمصلحتها وفي تلاؤمها مع اوضاعها الأليمة ، حتى القدرة على النوم والعجز عنه، اسبابهما ذاتية ونسبهما ثابتة في كل شخص مهما اختلفت المؤثرات الخارجية، هذا مع الاختلاف بين كل فرد وفرد . وليست مقادير الابتهاج التي تطلقها حياة من كانت ظروفهم جيدة بأكبر من المقادير التي تطلقها حياة من كانت ظروفهم سيئة . واذا ابتهج إنسان لسبب خاص من اسباب الابتهاج الظاهرة ، كان المعنى ان ذلك الانسان محكوم عليه بالابتهاج حتى ولو لم يوجد ذلك السبب الخاص — وهكذا الأمر حينما يحدث العكس ، فأسباب انفعالاتنا الخاصة هي اسباب ظاهرية ، ولا بد ان نصنع انفعالاتنا ونوزعها مهما كانت الاسباب الخارجية . ونحن نبتهج ونكتئب بقوانين من قوانين وجودنا ، لا لأن أموراً رديئة أو جيدة قد وقعت لنا . والأشياء لا تؤثر فينا الا بقدر ما نستطيع أن نجعلها كذلك ، فنحن الذين نصنع ضحكنا ورغبتنا حين نضحك ونرغب لا ما حولنا من معان وأشياء ، اننا نتأثر بقدرتنا لا بقدرة الاشياء التي تعد مؤثرة ، ان الحب ليس إلا إغراء تطلقه ذات المحب لا ذات المحبوب ، والسحر موجود في عيني العاشق لا في عيني المعشوق . ولهذا فإن التأثر بالمؤثر الواحد يختلف لاختلاف المتأثرين ما بين انسان وانسان وغير انسان ، والحماس ليس في الاشياء بل في الانسان !

والبشر حينما يغيرون اوضاعهم لا يفعلون ليحققوا مرحلة من مراحل الابتهاج، بل يفعلون لأن الحياة لا تكون إلا حركة وتغييراً ، فهي لا بد أن تتغير وتتحرك

بلا حساب للخسائر والمكاسب ، انها تتحرك كأية ظاهرة كونية . وعظمة الموقف وتفاهته لا تغيران من حقيقتنا النفسية شيئاً ، اننا نواجه الموقف العظيم بنوع الانفعالات التي نواجه بها الموقف الحقير ، وان الكبار جداً ليواجهون ويعالجون المشاكل الكبرى بمشاعر الصغار جداً . فقيمة المشكلة لا تصنع قيمة مساوية من الشعور والاخلاق لدى من يواجهون تلك المشكلة .

ولهذا نجد قادة العالم العظام جداً يتحاربون بالشتائم والاتهامات والمشاعر الصغيرة الجارحة كأنهم اطفال صغار يتواجهون ويتلاعنون بمستوياتهم ولغتهم المتواضعة ! وهم يتعاملون فيما بينهم كباعة صغار ، لا كمراجيح في الهواء تحمل في قاعها كل مصير البشر. وانه لخطب كبير أن تواجه اكبر المشاكل بأصغر الأخلاق.

وعقدة الموضوع ان اخلاق الانسان مرتبطة بانفعالاته ، وانفعالاته مرتبطة بحياته، فحيث هو حي هو منفعل، والانفعالات ليست موضوعاً من موضوعات التطور لأن الحياة في كل درجاتها محتاجة الى انفعالات غير مختلفة في نوعها ، والاختلاف في عملية استهلاكها . ولكن الحضارة والعقل متطوران ، فيكون معنى هذا ان الانفعالات التي لا تتطور تحكم الحضارة والعلم المتطورين ، ويكون معناه ايضاً ان انفعالات الانسان الغابي هي التي تحكم الانسان المتحضر وتحكم كل ما ابدع في كل تاريخه وبلاده وشعوبه من قوى وحضارات وعلوم وفنون وعبقريات ! وقد غيرت الحضارة في الانسان كل شيء إلا غرائزه الاولى ، فقد تركتها كما وجدتها ، بل لقد عمدت الى تضريمها بالمهيجات والظروف الحضارية الحديثة . والمشكلة انها لا تستطيع كما لا تريد تغييرها ، لأنها ، أي الحضارة ، لا توجد إلا بها ، أي بالغرائز الأولى. يتعلم انسان العصر الحديث من مجتمعه المتطور كل شيء إلا مشاعر النفس وغرائزها البدائية ، فإنه لا يتعلمها لأنها تولد وتعيش معه كما ولدت بلا تعليم ، اذ لا يمكن تعليمها ، فيصبح كائناً غريباً يجمع في ذاته كل التاريخ ، كل فصوله ، ويعيش فيه كل البشر ، اكثرهم تحضراً واكثرهم تأخراً – يعيش فيه ارقى انسان وأحط انسان . ان الحضارة العظيمة يبدعها اناس تعيش ارواحهم في الغابات والكهوف والخيام ، وسكان اجمل مدينة تعيش على

ارقى الفنون والعلوم والمدنيات ، وتتصدر ميادينها ومداخلها أروع التماثيل والحدائق ، تحكمها نظم وتقاليد ، تحكمها مشاعر الانسان المتسلق للأشجار . ولعل أكبر مأساة في عصرنا الحاضر ، أن الحضارة تتطور بسرعة هي أكبر مما تريد او مما تستطيع هضمه والتوازن معه ، وان الانسان الذي هو مبدعها وسيدها لا يتطور ، ان مذاهبه وأفكاره وعلومه وجميع وسائل حياته تتطور دائماً وحتماً ، ولكن مشاعره واحتياجاته وما في نفسه من أحقاد وتفاهات وكبرياء وانانية لا تتطور ، مع أن هذه هي التي تحكم تلك وتحركها — المأساة ان الذات الانسانية نفسها لا تتغير ولا يمكن ان تتغير مهما تغيرت براعاتها وتعبيراتها او تغيرت ثيابها .

*

توجد في ذات كل إنسان نسبة انفعالية لا تختلف لاختلاف ظروفه ، وهي نسبة ثابتة سواء أكان مؤمناً أم كافراً ، ذكياً ام غبياً ، متحضراً أم همجياً،جيد الظروف ام رديئها ، مثقلاً بالالتزامات أم كان من غير اي التزام . حتى ان الذي يذوب فرقاً من خوف الله او يقتات بالسعادة والرضا لأنه مؤمن بالله ، سوف يذوب فرقاً من خوف غير الله او بلا خوف من احد ، ويكون لديه من السعادة والرضا مثل ذلك لو كان لا يؤمن بالله ، لأن الخوف من الله ليس خوفاً من الله ، وإنما هو قلق أو تعب ذاتي ، وهذا يحدث حتماً سواء أخفنا الله أم لم نخفه ، إن خوف الله تبرير لما هو حادث . لقد كان فينا قلقون ومطمئنون ، مبتهجون ومكتئبون ، خائفون وآمنون في عصر الجهالة والضعف والفقر والايمان ، وفي عصر القداسات والنبوات والأرباب الذين كانوا يملؤون علينا آفاق انفسنا وحياتنا، ويعيشون معنا ، في طعامنا وشرابنا وثيابنا ومضاجعنا وفي نومنا ويقظتنا وفي حقدنا وتعصبنا وحتى في علاقاتنا الجنسية . والآن في عصر الحضارة والقوة والرخاء والكفر بجميع الآلهة القديمة ، وفي عصر الصواريخ الكونية والحروب النووية ، يوجد فيناهؤلاء وهؤلاء ، والنسبة لم تختلف إلا بمقدار اختلاف ذواتنا واستعداداتها . البشر ينفعلون ، يخافون ويقلقون ويحزنون لأنهم محتاجون الى

الانفعال وعاجزون عن ترك الانفعال ، لا لأن شيئاً خارجياً يجعلهم ينفعلون او يطالبهم بالانفعالات او يوجبها عليهم ، ولهذا فإنهم لا يكتفون بما في الطبيعة من اسباب القلق والخوف والألم ، فيذهبون يتخيلون ويعتقدون ويفعلون ما يتحول الى مصدر قلق وخوف وألم جديد ، لأن انفسهم تبحث عن ذلك وتريده وتقتات به وترتاح عليه ولا تستطيع سواه .

ان الخوف في كل ظروفه لا يعني إلا اننا نخاف ، ولا يعني انه يوجد ما يجب أو ما لا بد ان نخاف منه ، فالموت نفسه ، وهو قمة المخاوف ، ليس فيه ما يخيف سوى ما في انفسنا من استعداد للخوف ، فهو ليس مخيفاً في ذاته ، بل في تقديرنا النفسي له . والناس لا يتوترون أو يتألمون فكرياً ونفسياً لأنهم يواجهون مواقف أو مشاكل تستحق ذلك ، بل لأنهم من داخلهم متوترون متألمون ، حتى انهم حينما يسبون الآخرين او يكرهونهم او يضربون حولهم الاشاعات ، ليس لأن اولئك الآخرين يستحقون ذلك ولكن لأنهم هم مسوقون بلا سبب خارجي معروف الى أن يصوغوا أنفسهم في أساليب متوترة من السباب والكراهية والتشنيع . فالسباب والبغض حالة ، وليسا منطقاً أو جزاءً عادلاً أو اسلوباً اخلاقياً ، ولهذا فان الناس كما يسبون الآخرين يسبون ايضاً القدر والزمان والحظوظ ، مع انه لا تفسير لهذا السباب غير حاجتهم هم اليه ، وقد يسبون أحياناً أنفسهم . وقد اخترعوا الشيطان ليكون هدفاً جيداً لعدائهم ولعانهم ، والشيطان مظلوم معتدى عليه دائماً ، انه لم يقاتل الانسان في آي وقت ، ولم ينذره أو يتهدده بمثل هذا القتال ، بل لقد كان مثالياً في أخلاقه – يذنب البشر ويسقطون ويتلوثون ، فيلقون بكل ذلك عليه ويحولون شحناتهم النفسية وكل مشاكلهم غير المحلولة الى شتائم واتهامات تنصبّ فوق رأس هذا المسكين الذي هو الشيطان ، وعلى عرضه المجروح بلا خطيئة وهو صابر صامت متجمل . ليت الناس يتعلمون منه الفدائية ونبل الأخلاق ، وليتهم يقيمون له تماثيل اعتذار ينصبونها في جميع مدنهم الكبيرة ، أو ليتهم يقيمون له مهرجانات اعتذار ! واني لأعجب من الانسان كيف لا يقتله الشعور بالذنب وبالخجل إزاء هذا الكائن

النبيل المفترى عليه الذي هو الشيطان ! ان أسباب الرضا والسخط والحزن والسرور ذاتية لا خارجية !

اننا كما نحب لأننا محتاجون الى الحب لا لأن شيئاً يستحق ان نحبه ، كذلك نكره ونلعن لأننا محتاجون الى ان نفعل ذلك لا لأن هناك ما ينبغي ان نكرهه وان نلعنه ! ولو كنا لا ننفعل إلا حيث يكون الانفعال واجباً وحقاً ، لما جاز ان ننفعل في أي موقف من المواقف . ولكن ما هو الواجب وما الحق ، وهل هما شيء سوانا وسوى ما نفعله ونحتاج اليه ؟ إذن نحن لا ننفعل إلا بالاحتياج ، والاحتياج حق وواجب ، إذن فالانفعال لذاته حق وواجب حتى ولو لم تكن له اسباب فكرية أو خارجية ، وإذن فما أتفه ما يعني الحق والواجب اذا قدرا بالمقاييس الأخلاقية والتقليدية !

* * *

الأخلاق.. تخترعها الأرانب وتستثمرها الذئاب

ليس في قوانين الحياة حلال وحرام ، جائز وممنوع ، وإنما فيها ممكن وغير ممكن ، قاتل وواهب للحياة ! والفضيلة هي ان يتوافق الانسان مع الطبيعة لا ان يتجنبها أو يخافها أو يعجز عنها أو يحرّمها أو يعبدها ! ليست الطبيعة إلهاً يكون حلالاً وحراماً أو معبوداً ، وتقاس فضائلنا ورذائلنا واخلاقنا بنوع معاملتنا له ، ولكنها عمل نتناوله بالقدرة والعجز والرغبة والكره والذكاء والغباء . وتحليل الطبيعة وتحريمها واتخاذ نوع التعامل معها مقياساً للاستقامة والضلال ضرب من التأليه لها . فالذين يحللون الأشياء ويحرّمونها هم في الواقع مؤلهون لها ! وجميع التشريعات التي شرعها الانسان لنفسه وقسم فيها الحياة الى محللات ومحرمات والى أوامر ونواه بأسلوب الأخلاقية – جميع هذه التشريعات تعبير عن احساس التأليه والعبادة للأشياء ! والتحليل والتحريم ليسا تعبيراً عن فضائلنا ورذائلنا ، بل عن خوفنا وعجزنا ! واحتياجنا الى التحريم هو الذي صنع لنا الآلهة والأنبياء والشرائع والكتب المقدسة ، لقد أوجدنا الآلهة المحرمة لأننا نريد أن نحرم ، ولم نحرم لوجود هذه الآلهة التي تريد أن تحرم .

في حياة الانسان الأولى كانت آلهته وشرائعه كثيرة ومفترسة جداً ، وكانت المحرمات تضيق عليه وتضيق حتى ليكاد يعجز عن الرؤية والحركة . كانت الطبيعة

رهيبة وقوية وغاشمة الى أبعد حد ، كانت آلهة تأكل أعصاب البشر وأفكارهم وتحصي عليهم كل خطراتهم وتصرفاتهم ، وكان اهتمام الانسان كله مصروفاً الى ان يعبد هذه الآلهة ويسترضيها ، وكانت وسيلته في هذه العبادة وهـذا الاسترضاء ان يحول الحياة كلها الى محرمات ! فكان يحرم الفكر والفهم والتغيير والحرية ، ويحرم اللذة والسعادة والقوة ، وكان تحريم العقل أشنع أنواع التحريم ، وكل تحريم إنما كان تحريماً عقلياً — أي تحريماً للعقـل . كان تحريم التفكير والشك والمناقشة التي لا تعني إلا الحرية العقلية هدف جميع الشرائع المحرمة ، والتحريمات الأخلاقية والنفسية والسلوكية لم تكن إلا تحريمات فكرية ! والعبادة في فكرتها تحريم ، فالانسان يعبد لأنه يحرم او يريد ان يحرم ، ولا يحرم لأنه يريد ان يعبد ، فلا عبادة بلا تحريم ! والأخلاق مجموعة محرمات — مجموعـة من النواهي — « لا تفعل ، ومن الحرام ان تفعـل » . واذا جاءت بأسلوب الأمر كان المعنى نهياً ! اذا جاء فيها آمنوا بالآلهة وصلوا لها وأطيعوا الأوامر والتقاليد والطغاة فالمعنى « لا تفكروا ولا تفهموا ولا تشكوا ولا تقاوموا ولا تكونوا أحراراً » . والشيء المحرم غير الشيء الضار أو الصعب أو الذي لا يكون ، فالتحريم فيـه معنى الإملاء الخارجي والتأبيد والتقديس الفكري — فيه معنى الاعتقاد ، وليس كذلك الضار والمستحيل والصعب . والعلاقة بين الانسان والأشياء يجب ان تفهم على انها كالعلاقة بين الحركة والمجال — علاقة قائمة على القـدرة والعجز عن القدرة ! والفرق لا يخفى بين العجز عن الصعود الى الشمس وبين تحريم هـذا الصعود ، وكذلك الفرق بين تحريم الربا والزنى وبين ترك ذلك لضرره وإيلامه كما يترك المشي فوق النار والشوك والمتفجرات ! الشيء الذي نحرمه إله يجب ان نصلي ونخضع له ونفاخر بعجزنا عنه ونعتقد هذا العجز من أفضل فضائلنا وأسمى أهدافنا ، أما الشيء الذي لا نستطيعه أو الذي يحدث لنا ضرراً وألماً فخصم أو عميل عنيد علينا ان نحاول قهره والسيطرة عليه دون ان نحمل ازاءه أية فكرة تقديسية !

وفي الحقيقة ان التحريم بمعناه الروحي ليس تحريماً على الانسان وانما هو تحريم

للانسان نفسه ، ان الانسان يحرم الانسان حينما يحرم شيئاً — يحرم حركته أو رغبته أو تفكيره ، انه يحرم نفسه على نفسه !

*

الحياة حركة لا تشريع ، وهي لا تتعلم بل تخرق التعاليم ! والانسان آلة وحافز ، ولا يستطيع ان يعمل حياته إلا باجتماعها ، ولا يمكن ان يكمل إلا باكتمال هذه الآلة وهذا الحافز . والآلة هي الذات ، والحافز خليط من الشهوة والارادة والغريزة وغيرها من الدوافع الأولية في وجود الانسان ، أما العقل فهو القوة الثالثة المشرفة على العمليات . والشعوب العظيمة هي شعوب عظمت فيها القوى الثلاث : آلاتها وحوافزها وعقولها . والشهوات القوية تطلق احتمالات قوية ، أما الذين تخمل شهواتهم أو تضيق أو تعلم القناعة والتحريم، فلن يستطيعوا الانتصار في مسابقة دولية ، أو في اي صراع مع الطبيعة . والشهوات تكبر حينما تكبر المطالب ، والمطالب تكبر بالعلم والتدريب والثقافة وبالخيال وبالحياة الكبيرة والموهبة وبإطلاق قوى الذات الطبيعية ، كما ان هذه المطالب تصغر اذا ضيق عليها . ويصيب بعض الأمم أحياناً طور تحريم ، وهذا الطور يكون طور إجداب وضمور . ورغبة أي مجتمع من المجتمعات في التحريم ليست سوى عرض عام لحالة انهزامية ، وحالة الانهزام انما يمليها انحراف عميق في وضع الجماعة الاجتماعي أو في نظام حكمها أو في تربيتها الروحية أو في ظروفها النفسية أو الجغرافية أو في تصميمها الجثماني والتاريخي .

والرغبة في التحريم تكشف عن رغبة في الهرب، فان الذين ينزعون الى تقييد حياتهم بالمحرمات — تديناً أو تعلقاً بالفضيلة — انما يكشفون بذلك عما في انفسهم من استعداد للهرب من الحياة ومن المواقف القوية المبدعة والمشاكل التي تتركب منها الحياة . فالذي يشتهي ويفعل شهواته بتحقيق وسائلها هو شجاع مقتحم ، أما المحرم التارك فليس إلا عاجزاً أو جباناً . والحياة اقتحام ، وهي في اقتحامها لا تبحث عن الفضيلة ولا عن الرذيلة، بل تبحث عن ذاتها — عن القوة ! فالأحياء المحرمون يمثلون دور الموتى الذين لم يدفنوا ، ولهذا فانهم لا يفعلون الحياة وانما

يفعلون الموت بتعاليمهم وثقافاتهم ومشاعرهم وسلوكهم. فالتحريم هو دائماً علامة على شيء . وكم هم كثيرون اولئك الرجال الذين جاءوا بصناعة القيود المضروبة على العقل والروح والحركة كأعظم رسالة انسانية – كثيرون اولئك الذين جاءوا الى الانسان كأفضل الأصدقاء ليحرموا عليه الفكر والموهبة والحماس والشوق الى الأشياء – كثيرون هم أصدقاء الانسان الذين لم تكن صداقتهم تعني غير صناعة القيود لذكائه وارادته . والذين يحرمون على البشر سلوكاً او شيئاً ما ، انما يعنون ان يحرموا عليهم الذكاء والحرية والمقاومة .

ان التحريم يعني انه يوجد شيء فوق البشر ، فالتحريم هو دائماً الدلالة الأليمة على ان الانسان محكوم من بعيد . والمفروض ان الآلهة والطغاة والتقاليد والتاريخ هم الذين يحرمون على الانسان لأنهم هم الذين يريدون ان يكونوا فوقه ، وقد اخترعت كلمات السماء والأرض والنزول والهبوط والعبيد والآلهة مع اختراع التحريم ! وهؤلاء الهداة الذين تنحصر تعاليمهم في تعديد المحرمات والكشف عنها، انما يعبرون عن الجانب المنحرف المنهزم من الانسان، والأصحاء الأسوياء لا يؤمنون برسالات التحريم ولكن يؤمن بها قوم قد انسكبت في تركيبهم المادي والمعنوي نقائص وهزائم مجتمعات وقرون حافلة بالضعف والآلام. والمريض المحروم المعذب يحول النقائص والآلام والعجز الى ايمان وصلوات وفضائل ! ولولا رجال أصحاء جاءوا يبشرون بالحياة ويصنعونها ويمارسونها ويدعون الى مجد الأرض ويشيدون بعبقرية الشهوة والغريزة ، لما استطاعت الانسانية ان تعبر جسورها الفاصلة بين البداوة والحضارة . وكانت رسالة هؤلاء الرجال ان ينقلوا ارادة الانسان من خوف الشيء الى حبه واقتحامه ، ويحولون الانسان من همجي معتقد الى متحضر فنان ، يعشق النجوم ويغازلها بدل ان يؤلهها ويخافها ! وهؤلاء الرجال هم المخترعون والمكتشفون والفلاسفة والمفكرون والشعراء وجميع الفنانين ، هؤلاء كلهم كانوا من اعداء التحريم ومن صانعي الحلال وممجدي الحرام ، كانوا بناة بينما كان المحرمون هدامين . لقد كان الاختراع والفن والتفكير افضل اساليب التحدي للاخلاق ! ان شاعراً او موسيقياً واحداً

فاجراً انطلاقياً يفعل الحرام ويعلمه الناس ، لأجدى على الحياة من جميع الفقهاء الذين أثقلوا المجتمعات بما ألقوا فوقها من كتب في تعديد المحرمات والواجبات ! فالتحريم عملية هدم – هدم للرغبة والعمل والإبداع والحياة ، لأن الحياة ليست إلا مجموعة رغبات ، والتحليل عملية بناء لأن الحلال هو عمل تعمله وتوجده ايضاً وتدفع به رغبتك الى الاحتيال والإبداع ، والبناء هو محللات تفعل لا محرمات تخاف ! ان الشهوة الحرة المحققة لنفسها ، لهي التعبير الأعلى عن معنى الإلهالمبدع الذي صاغه خيال الانسان وأمله وتاريخه .

●

كان الناس في الماضي – في الماضي القريب يحرمون كل شهوة ورغبة وسرور وكل ما يدعو الى ذلك او يجلبه،فالحياة في اعتقادهم حرمان وعقوبة وألموأحزان وامتحان ، كانت الاحزان صلوات ترفع الى السماء والى هيا كل الارض ، وكان المجد والشهرة حراماً لأنهما يصنعان سروراً نفسياً وفكرياً ، وكل سرور حرام ، أما الخمول وهبوط المكانة ، فهما فضيلتان لأنهما ضد رغبات النفس ! وقد وضعوا قاعدة ذكية لمعرفة الحرام من الحلال عند اللبس ، قالوا إذا اختلفتم في أمرين أيهما الخير وأيهما الشر ، او أيهما الحلال وأيهما الحرام فاتركوا ما تهواه أنفسكم فانه هو الحرام والشر ! وقالوا اذا شككتم في أمر فانظروا ، فان كان يوافق رغبة النفس فاعلموا أنه الحرام ! وتحت هذا القانون حرموا الجمال المادي في كل صوره – حرموه في المسكن والملبس والمأكل وفي كل شيء ! وكانوا الى عهد قريب يحرمون الآداب والفنون والشعر والغناء والتفكير والذكاء والعبقرية وكل معاني الحرية ! وهم اليوم لا يحرمون اكثر هذه الأشياء ولكنهم عاجزون عن ابداعها ، وانهم ليستعملونها في استهلاكهم الخاص كسلع أجنبية ولكن بلا موهبة ولا تكافؤ ، كانوا يحرمونها وحين حللوها صاروا غير متكافئين معها ، فانتقلالتحريم من الاعتقاد الى القدرة والموهبة ، كانوا محرمين وعاجزين فأصبحوا عاجزينفقط وهذا في الظاهر أما في الحقيقة فانهم لا يزالون كما كانوا عاجزين ومحرمين لأن الحلال هو الذي نصنعه لا الذي يصنعه غيرنا ، وما دمنا عاجزين عن فعلالعبقرية

والحرية والجمال والقوة فلسنا نراها حلالاً مهما تحدثنا عن ايماننا بها وعن مزاياها ، فرأي الانسان في فعله لا في قوله ،وفضيلته قدرة لا فكرة ، بل انهم ليطاردون ذلك مهما حللوه او مدحوه ودعوا اليه ، والمطاردة أشد عداء للشيء من تحريمه! ان معاقبة المفكر لا تعني تحريم التفكير فقط بل ومعاقبته ، كما تعني تحريم أشياء اخرى ومعاقبتها .

لقد كان الانسان في التاريخ معبداً تتجمع فيه كل الأرباب والطغاة والأشباح لتتآمر على سحقه ! كانوا يريدون ان يوجدوا انساناً بـلا شهوات ولا غرائز ولا تفكير ولا حرية ، وكان وجود هذا الانسان الخرافي هو أمل جميع التعاليم القديمة المقدسة وأمل جميع المسيطرين الأقوياء الذين تعاقبوا على البشر يسحقون عقولهم وشهواتهم ومجدهم . لقد حرموا عليهم الضحك وشجاعة القلب والفكر ، وكانت الآلهة تغضب على الذين يضحكون ، ويفرحون ، ولا ترضى إلا على من يحزنون ويبكون ! كان البكاء والانهيار النفسي عبادة ومزية وخلقاً ! لقد كانوا يريدون ان يحولوا التاريخ كله الى مبكى ، ولم يكفهم أن حولوه الى معبد ! حاولوا أن يميتوا في الانسان كل أسباب الذكاء والقوة ، جربوا كل وسيلة رديئة وشيطانية لذلك . وكان من بعض هذه الوسائل أن ابتكروا خصاء الرجال ، ولم يكونوا يريدون أن يخصوا فيهم القوة الجنسية فقط ، بل لقد أرادوا أن يخصوا فيهم قوة العقل والرغبة والحرية والشجاعة !كان اهتمامهم أن يوجدوا مجتمعات من الخصيان! وجدوا أن الخصيان يفقدون كل طموح الى الحرية والتمرد والاستقلال والمقاومة. والذين يقومون بعملية الخصاء للمجتمعات موجودون في كل زمان، كما يوجد الخصيان ايضاً في كل زمان ، وما من دكتاتور او زعيم أناني او دجال روحاني الا وخطته أن يخصي شعبه – أن يسلبه ذكورته وفحولته !

والخصيان يفقدون حوافز المجد والغضب للكرامة ويرضون بكل هوان ووضع ذليل بقدر ما يفقدون الرغبة الجنسية والقدرة عليها، واذا فقدوا أي شيء سألوا : وماذا خسرنا ؟ بل لعل هذا السؤال لا يوجد في حياتهم ! وجميع التعاليم الاخلاقية وأنواع التربية النفسية التي وضعها الأقوياء والزعماء الروحيون او نفذوها

في المجتمعات ليست إلا عملية خصاء جماعية رهيبة–عملية خصاء عقلي وروحي. ان التحدي والعبقرية والابداع والقوة المتفوقة شهوات لم يستطع الطغاة والتقاليد والمعلمون أن يخضعوها بالخصاء، وليس ذنب خمول الشهوات الناتج عن عملية الخصاء انه يسلب خصائص التغلب والايجاد، بل انه يسلب ايضاً الذكاء وصفاء النفس والمرونة والتسامح والتهذيب ومتانة الخلق!

لا بد أن يكون للمرء مآرب قوية في حياته لتكون له شهوات قوية، لتكون له فضائل وأخلاق قوية، ليكون له ذكاء وعقل متجدد، والشهوات هي التي تغير الافكار بل وتخلقها. وليست العقول منفصلة عن العواطف لا في نشأتها ولا في عملها، بل العقول هي الجزء الأسمى من اطوار الشهوة، وليس في المسألة غير احتمالين: اما ان الشهوة هي التي خلقت العقل، او انها هي التي طورته. ومن اجل هذا التداخل بين شهواتنا وأفكارنا لم يكن ممكناً ان تجيء احكامنا العقلية ثابتة ولا متوحدة! ولو كان البشر بلا شهوات – لو كانوا بلا عواطف لكان محتوماً أن يكونوا بلا عقول ولا اخلاق ولا فضائل نفسية. ان عواطف الانسان التي معناها الشهوة والحاجة قد راحت في تطورها الطويل المتتابع تجرد من نفسها جزءاً ممتازاً لتتسلح به ضد نفسها وظروفها غير المواتية، فكان هذا الجزء الممتاز هو ما سمى نفسه بالعقل، فعواطفنا اذن هي التي تحكم عواطفنا، وشهواتنا هي التي تحمينا من شهواتنا. ونحن نفكر ونعقل ونكون فضلاء ومستقيمين لأننا نشتهي ونخضع للانفعالات، ولسنا نكون كذلك لأننا نحتقر الشهوات او لأننا بلا شهوات او لأن شهواتنا خاملة، وفي الظروف التي تفقد فيها شهواتنا حماسها تفقد فيها عقولنا كذلك نشاطها. والتعاليم الخاطئة تحاول دائماً ان تهدم الشهوات لتسلم في زعمها الارواح والاخلاق والعقول! ان الاتجاهات العقلية خاضعة دائماً لاتجاهات غير عقلية، وان الاهداف العامة لا تعني سوى اهداف خاصة!

ماذا نجد لو اننا درسنا العوامل التي تجعل الناس يركعون للألم والهوان بصبر يتحدى صبر الطبيعة؟ سنجد حينئذ عاملين: ضعف الحوافز، وفقدان الوسائل. اما فقدان الوسائل فراجع الى ضعف الحوافز، وأما ضعف الحوافز فمعناه ضعف

الشهوة – شهوة الحياة والمجد والانتصار والانتقـــام وشهوة العبقرية والحرية . وضعف هذه الشهوات راجع الى فقد المحرضات والمنبهات والى التدريب والتحريم الطويلين .

ان اي شعب من الشعوب اذا اكتملت حوافزه فلا بد ان ينتهي به ذلك الى اكتمال وسائله او الى محاولة ذلك ، وكل ابداع وقوة في هذه الحياة ليس الا نتاج اجتماع الحوافز والوسائل .

✶

ولكن ماذا يصنع التحريم والنهي في الطبيعة البشرية ؟ ان النـــاس يشتهون ويفعلون بقدر ما يستطيعون ، لا بقدر ما يؤمرون وينهون ويحلـــل لهم ويحرم عليهم ، واذن فمهما حرم عليهم فلا بد ان يفعلوا طبيعتهم ، واذا عجزوا فلأنهم عاجزون ، لا لأنهم منهيون أو ورعون يطيعون الأوامر ، فليس صحيحاً ماذكر من ان التحريم يعوق الشعوب عن النمو والتطور ، لقد حرمت جميع الرذائل على الناس وفرضت عليهم الفضائل فهل أطاعوا – هـــل احترموا التحريم ؟ ليت للتعاليم والتشريع والنصائح تأثيراً ، اذن ما كان اعظم النتائج وأرخص الاستقامة . ولو كان الامر كذلك لكان الاشرار هم افضل ما في هذه الحياة لأنهم حينئذ لن يوجدوا .

نعم ان التحريم لا يغير الطبيعة ، ولكنه قد يكون مبرراً للعجز ودالاً عليه ، فاذا كان ما نريده ونحتاج اليه لا يكون إلا بالنضال والتعب والعبقرية ، فقـــد نختار الكسل والراحة ونحتج بالمبرر الادبي ونقول لنقنع انفسنا ونقنع الآخرين : اننا نترك الحرام ونبحث عن الحلال ونحترم الفضيلة ، وان هذا الاتجاه افضل من كل ابداع وحضارة . وفي سلوكنا هذا ما يعوضنا اقوى تعويض عما سبقنا فيه الآخرون ، فاذا كانوا قد تفوقوا علينا بقوتهم وعلومهم المادية التي لا تحترم السلف ولا فضائلهم ، فقد تفوقنا نحن عليهم بالفضائل النفسية والاخلاقية والتاريخية ، وحينئذ لا نشعر بمرارة التخلف ، بل نجد في وضعنا الأليم ما يجعلنا نجرؤ عـلى مباهاة الدنيا بمزايانا وسبقنا العظيم ! وهنا قـــد نتناقض تناقضاً سخيفاً ، اذ

نستجيب لرغباتنا السهلة التي لا تكلفنا عناء ولو كانت حراماً ومنكراً ، ونعصي الرغبات الشاقة الباهظة الثمن بحجة انها حرام، فلا نفعل الشاق بحجة انه حرام، ونفعل السهل سواء أكان حلالاً ام حراماً ، خاضعين لقانون الرغبة السهلة .

والنهي المستمر مع الحرمان المستمر يصنعان في النهاية طبيعة انصراف او رغبة في الانصراف او ضعفاً في الرغبة او رغبة في الكسل او مبرراً له او اعتياداً للحرمان ، وهنا تنتصر السلبية الذليلة . وهذا مشهود في الجماعات التي يطول صدها وتخويفها من نفسها ومن اندفاعاتها الطبيعية حتى ليبدو احياناً انها قد فقدت حوافزها وصفاتها الفعالة . والتحريم الروحي المستديم يفسد الشوق الى الشيء ويفسد العلاقات به ، وهو يضلل الرغبة وان كان لا يقتلها . انه لا يحرم الشهوة تحريماً مطلقاً ولكن يحول اتجاهها ، فاذا حرم على المؤمنين لذائذ الحياة الدنيا ومجدها فانه يرتفع بهم الى السماء ، ومن السهل تصديق التحريم والاقتناع به لأنه يريح من المحاولة المتعبة . فالاقتناع بتحريم الشهوة قد يكون نوعاً من الشهوة ، فالشرائع المحرمة قد تضعف القدرة دون ان تضعف الرغبة ،وهذا اسوأ مايحدث للبشر.وقد كان الذين يعيشون تحت سطوة التحريم الغيبي يشوهون تشويهاً أليماً، انهم يملكون نفس الرغبات والاشواق المحرمة ولكنهم لا يملكون مزايا الاقدام والاقتحام ، هم يشتهون كأفجر الناس ولكن لا يستطيعون الا كأضعف الناس! والناس في العادة ينافق بعضهم بعضاً لأن بعضهم يخشى بعضا ، فاذا كان هناك تحريم عام فقد يأخذون به ويتناهون عنه مجتمعين ولو نظرياً ، فيصبح التحريم ظاهرة اجتماعية لها لوازمها ثم يبقى القادرون على العصيان ، وهؤلاء يعرفون كيف يستمتعون وحدهم بغنائم المحرمات سراً وجهراً، والناس قد يفعلون منفردين ما لا يجرؤون على فعله مجتمعين ، وهم يتعرون في الخفاء أسهل مما يتعرون في العلن . والانفراد بالحرام شهوة مضاعفة ! والخروج على محرمات المجتمع بمثل هذا الاسلوب يعطي اضراراً بدون ان يعطي أية فائدة ، لأن الشيء الذي يفعل على أنه معصية وبانفراد وسرية مع ثلب فاعليه ، لا يمكن ان يكون فضيلة ولا رغبة جماعية تظفر باتجاه جماعي يحقق أعمالاً كبيرة .

والذين يأتون اموراً محرمة في شريعة قومهم او في تقاليدهم او عقائدهم هم ، يصيرون منقسمين على أنفسهم ويسيرون في اتجاهين متعارضين ، انهم لا بد أن يضطروا تحت الشعور بالنقد الذي يضمره لهم قومهم أن يفعلوا في الجانب الآخر أفعالاً مضادة يريدون بها تغطية سلوكهم المنكر ، وهذه الافعال المضادة هي أن يقووا الرجعية . فتجتمع على الأمة حينئذ آفتان : المعصية الحمقاء المتحررة من كل خلق وفهم، والرجعية الفكرية التي لا بد أن تكون غبية متعصبة لتغطي العصيان السلوكي . فمن الناحية الفكرية لا ايمان بفكر، ومن الناحية الاخلاقية لا استمساك بفضيلة ، فكيف اجتمعا ؟ جمود فكري لا مثيل له ، وفسوق سلوكي لا مثيل له أيضاً ، فكيف يحدث مثل هذا ؟ وما أشد ضلال من يلتمسون الفضيلة النفسية والاخلاقية بالجمود العقلي! ان المتأخر فكراً في المتأخرين أفكاراً لا بد أن يسرف في تناول اللذات المحرمة لأنه هو متأخر ولأن المجتمع الذي يعيش فيه متأخر كذلك . والمتأخر في المجتمع المتأخر لا يمكن أن يكون فاضلاً في سلوكه ولا في خصائصه النفسية . واذا أسرف القوي المتأخر في تناول المحرمات على حساب مجتمعه فسوف يضطر الى محاولة تغطية نفسه وجرائرها بأن ينتصر لخرافات المجتمع الذي تمكن من خديعته واستغلاله ،ثم يرى على وجه آخر انه لولا تأخرهم لما انتصر عليهم ، فيذهب يعتقد ان من خيره أن يظل قومه في عمايتهم المباركة ، فيصر على تأييد هذه العماية وتقويتها . ومعنى هذا ان يصبح اكبر زعماء الرجعية في العالم هم أفسق الناس !

*

والذين يرون التضييق على الشهوات يرون أنهم بذلك يخدمون الانسان ويحمونه من الآلام التي يوقعها بنفسه ، ففي رأيهم أن الشهوة هي التي تصنع الفساد والعدوان بين الناس وتصد عن الفضيلة الروحية ، وقد تصرف عن العمل المفيد، وهم من أجل هذا يرون أن الخير كله في اخماد رغبات النفس بالتحريم والتنفير والصد وبكل الوسائل . والفضائل الروحية التي يتحدثون عنها هي الغاية النهائية من وجود الانسان ، وبها يسعد او يشقى أبدياً ! ولكن ما هي الفضائل وما

وسائل الظفر بها ؟ ان الفضيلة ليست شيئاً غـــير الشهوة — الفضيلة شهوة في كل حالاتها ، ومحاولة الحصول على الفضائـل باضعاف الشهوات كمحاولة الحصول على الشيء باعدامه !

ليس الانسان الفاضل هو انسان بلا شهوة او ضعيف الشهوة ، كما ان الرجل العبقري او الشجاع او الاديب او الفنان ليس هو المـلاك الذي يقتات بالسجود وحب الآلهة وصداقة المساكين! ان الاستقامة الاخلاقية نوع من الفن ، فيها شهوة وقدرة وارادة وموهبة وذكاء وظروف تتلقى ذلك وتتعامـــل معه وتلونه . الاخلاق معركة ينتصر فيها أقوى الأسلحة الضاربة ، والمعارك انما تصنعها وتفصل فيها الشهوات ، فالأخلاق شهوات تلاءمت مع ظروفهـــا . والفرق بين الفضيلة والرذيلة فرق تفسيري تقريري ، لا مادي ولا فكري . والشهوات القويــة أقدر على تحقيق حالة الملاءمة ، لهذا كانت أقدر على ايجاد الحالة الأخلاقية المنشودة ! الفضيلة والرذيلة هما تعبير الناس عن ظروفهم الخـــاصة ، والظروف التي تفسر الاخلاق هي في طبيعتها كسائر الظروف التي تحكم كل أعمال الحياة . واذا كانت الظروف التي تخضع لها الصناعة والزراعة والتجارة وغيرها من الشؤون الانسانية والطبيعية ليست شيئاً متحدداً وليست قوة فوق الشهوات والرذائل ، فكذلك الاخلاق وظروفها . ان اخلاق الانسان وفضائـله النفسية تنبع من صميم الأرض وكهوفها وظلامها كما تنبع من صميمها ملابسه ومـآكله وقوته وابداعه المادي . وتتبدل أخلاق الانسان وحكمه على الأخلاق حـين يتبدل وضعه الاجتماعي او حالته النفسية او صحته ، واختلال في احدى غدده او في كبده مثلاً يغير شعوره وتصوره وتفكيره واستجابته النفسية . والضعفاء يتصورون الأخلاق على غـير ما يتصورها الأقوياء ، والغني والفقير يختلفان في تقدير الفضيلة والرذيلة ، ولهذا يختلف الناس في أحكامهم على الامور لاختلافهم في الملاءمة ، ويختلفون كذلك في وضع القوانين الأخلاقية . ان تصور الخير والشر والحكم على الفضيلة والرذيلة ، خاضعان دائماً لانفعالات البشر الخاصة ! والأخلاق هي حصيلة الشعور بالحاجة ، والحاجات تختلف ، فالشعور اذن بها يختلف ، فـلا بد حينئذ ان تختلف هي !

والذين يريدون ان يخضعوا كل العصور لاخلاق وعقائد عصر معين – وقد يكون عصراً متأخراً جداً – هم كالذين يحاولون ان يخضعوا بالنسبة نفسها كل العصور لعلوم عصر من العصور ولصناعته وزراعته وتفكيره .

ماذا لو فرض طب الأولين وحده على كليات الطب في العالم وعلى جميع دارسي الأمراض ووسائل العلاج وألزموا بألا يتخطوا ذلك ؟ ان الذين يفرضون اخلاق الأولين وعقائدهم وفضائلهم علينا هم مثل هؤلاء المجانين الذين لا وجود لهم اليوم ! والأخلاق نوع من الطب لأن موضوعها صحة سلوك الانسان ومرضه ، كما أن موضوع الطب صحة جسم الانسان واعتلاله .

*

وما هي الفضائل التي وصلت الينا مع التاريخ وما بواعثها ؟ ان هذه الفضائل منبعثة عن الألم وعن الظروف السوداء والأزمات النفسية والمادية – أي عن الاجهاد والشقاء ، فالمتضايقون والمتعبون وغير السعداء يلهمون نوعاً عنيفاً وكئيباً من الفضائل ، وهذه هي فضائل المجهدين في التاريخ . وهي فضائل تنكرها فضائل الأصحاء السعداء . والذين يحرمون من شيء ما قد يجدون في أنفسهم ملائكة تلهمهم تحريم ذلك الشيء واعتقاد منافاته للاخلاق التي يتصورون ، والذين لا يجدون الابتسام قد ينتهون الى تشريع البكاء والدعوة اليه كعبادة ولو حسداً للمبتسمين ، والذي لا يستطيع أن يكون بلبلاً يغني فقد يجد قداسة في الغراب الناعب ! فالمتعبون المتألمون هم أعظم المنابع للأخلاق المثالية النظرية لأن النفوس المحرومة المتألمة المظلمة لا بد ان تطلق ما فيها على ما حولها . اننا نتصور الاخلاق والفضائل ونحن سعداء ومبتهجون ومحبون للحياة وللآخرين ولأنفسنا غير تصورنا لها حينما نكون أشقياء مكتئبين كارهين للعالم ولحياتنا ، والانتقال من حالة الى حالة يغيّر شعورنا نحو الأشياء واستجابتنا الأخلاقية . وفضائل الشعوب السعيدة المترفة غير فضائل الشعوب المعذبة الضعيفة المحرومة . وليس من الخير ولا الممكن أن تحكم التاريخ أحزانه ومتاعبه ، ولا أن تحكم أطوار ضعفه أطوار

قوته . ان أحاسيس المريض ليست هي أحـــاسيس السليم ولا أحاسيس الحياة الدائمة ! ليست الأخلاقية عند المرضى هي الأخلاقية عند الأصحاء .

التعب والالم والحرمان هي المصادر الثلاثـة لتعاليمنا العنيفة – أخلاقنا هي انطباعات انفعالاتنا ، وانفعالاتنا هي انطباعات ظروفنا الخاصة والعامـــة ، وظروفنا ليس لها دوام ولا وجود محدد وهي متطورة دائمـاً الى ما هو أسهل وأفضل . وظروف واضعي الاخلاق القدماء كانت قاسية ، لهذا جاءت انطباعاتهم وانفعالاتهم الاخلاقية قاسية كذلك ، تميل الى التحريم والايـلام والذل والبكاء والحزن والتعصب والى ملء الحياة بالواجبات العنيفة دون ان تترك فيها أي مكان للضحك والمسرات ! والاخلاق في حوافزها ذاتية ، هي استجابة لذوات ومشاعر واضعيها لا لذوات او احتياجات او مشاعر المجتمع. فواضعو الاخلاق لا يضعونها لانهم طيبون يبحثون عن الخير او الحق ، ولا لانهم محبون للناس مهتمون بسعادتهم ، وانما يفعلون ذلك لانهم متألمون ومحتاجون ومنفعلون ، او لانهم غاضبون وحاقدو ن ومعاقبون . فالاخلاق ليست حباً او احتراماً للآخرين بل قتال لهم ! ان نفس التدين القوي نوع من الشهوة القوية . فالمتدينون جداً شهوانيون جداً ، ومن فقدوا الشهوة – لو كان مثل هذا يحدث – فقدوا الرغبة في التدين ! والفرق بين الفضيلة والرذيلة فرق بين موقفين لا بين موضوعـــين ، او فرق بينك وبيني انا ، لا بين فضيلتك ورذيلة جارك ، فأدياننا وأفكارنا وأخلاقنا هي صنع شهواتنا وأهوائنا. ونحن لا نستطيـع ان نخرج من عبودية شهوة او ان نرد طغيان شهوة الا بشهوة اقوى . واكثر الناس عصيانا للشهوات والأهواء من عظماء الرجال وقديسيهم هم في الواقع اكثرهم طاعة لها ، ولكنهم يعقدون مقارنة بينها فيطيعون اقواها او اخفاها او اكثرها ملاءمة لهم ، والذين يعصون شهوة ليطيعوا شهوة اخرى لا يكونون فضلاء الا بقدر ما يكون التاجر فاضلاً لانه ترك نوعاً من التجارة ليأخذ بنوع آخر منها ، او بقدر ما يكون اللص فاضلاً لانه ترك سرقة البنوك المحاطة بالحراسة القوية وسرق متاجر الضعفاء المجاورة للمعابد !

والوهم القديم القائل : ان حب الحياة والجاه والمال هو سبب الانحرافات

السلوكية والنفسية ، وان السبيل الى الاستقامة هي كراهة كل ذلك – وهم غبي ساذج . ان حب هذه الاشياء جزء من عمليات الحياة نفسها ، فلا بد ان يحبها الكائن الحي ولا يمكن ان يعجز عن حبها الا اذا مات، فالنهي عن حبها لن يجعلنا نكرهها وانما يجعلنا – على احتمال – نتراخى في طلبها وتحصيلها اذا كان الطريق اليها شاقاً . وحب هذه المكروهات المذمومات هو وحده السبيل الى الصحة الاخلاقية والنفسية ! حب الرذيلة هو الطريق الى اكتساب الفضيلة ، كما ان حب النفس هو الطريق الى حب الآخرين !

والمجتمع الذي يحب الحياة والمال والمجد واللذة سوف يطلبها وينافس عليها ويقاوم من يحاولون حرمانه منها ، وحينئذ يقوم تكافؤ قوي بين قوى الطبقات والافراد ومطالبها المادية ، وهذا التكافؤ هو ميزان العدالة الاجتماعية والعافية النفسية . والفساد والطغيان انما يعنيان ان المجتمعات غير متكافئة في وسائلها المادية والمعنوية . فاذا وجد حكام وسادة يحبون اللذات ويعملون لاحتكارها بين شعوب تتغنى بفضائل الزهد وبكراهة كل نعيم زائل غير دائم كان معنى هذا ان يتلاقى الضعف والقوة، واذا التقت القوة بالضعف تلاقحا بالرذيلة والعدوان وأثمرا كل الشرور الموجودة في المجتمعات المتخلفة ، ولهذا نجد الشعوب المتدينة اللاعنة للدنيا وشهواتها هي احفل الشعوب بالمظالم الاجتماعية والفساد الاخلاقي ! وكما ان قوة اي شعب من الشعوب تجعل الشعوب المجاورة له شعوبا فاضلة ومؤمنة بمزية السلام وحقوق الجوار فكذلك قوة الشهوات في الجماعات والافراد تجعل من الآخرين قوماً عادلين وشرفاء ومستقيمين لانهم لا يستطيعون ان يكونوا غير ذلك ، اذ لو لم يكونوا كذلك لأدبتهم الشهوات الاخرى المعارضة لشهواتهم .

ما الذي يجعل الناس عادلين وشرفاء وفاعلين للفضيلة اذا كرهوا الجاه والمال واللذائذ المادية الاخرى؟ أهو حب الخير لذاته ؟ ليت البشر يجدون ذلك في شيء من تصرفاتهم ، ام هو حب الجزاء في الحياة الاخرى ؟ ولكن ليس كل الناس يؤمنون بالحياة الاخرى ، وليس كل المؤمنين ملتزمين لما يفرضه عليهم ايمانهم . وما اكثر المؤمنين الذين يعملون جميع ما يستطيعون عمله من المعاصي معتمدين على

التوبة في آخر المطاف او معتمدين على سعة المغفرة، او معتمدين على طيبة قلب الله واختفائه وراء الافق ، او على ان الايمان يمحو كل الخطايا ، او منطلقين على سجيتهم بلا تفكير ولا محاسبة للنفس او استئذان للعقيدة. بل ان الاعتقاد ينافي العمل ، فالعقيدة تحول الطاقة الانسانية كلهـــا الى نشاط عاطفي فارغ ، فهي اتكالية حتى في جوانبها الاخلاقية . ان اية عقيدة لا تأثير لها على سلوكنا الا بقدر ما هي استجابة لشهواتنا ! والذين يحبون شهوات الحياة الدنيا كثيراً هم الذين يحبون شهوات الحياة الاخرى كذلك اذا كانوا يؤمنون بها، والذين لا يحبون اللذة العاجلة لن يحبوا اللذة الآجلة ، لاننا بالغريزة نحب الدنيا وبها نحب الآخرة ، فاذا فقدت غرائزنا او ضعفت فستفقد او تضعف رغبتنا في كل الاشياء العاجلة والآجلة . اذن لا يمكن ان نزهد في الدنيا ثم نرغب في الآخرة ، بل ان حب احداهما معناه حب الاخرى . وقد كان اقوى الناس شهوات للدنيـــا هم الذين ابدعوا اقوى الاوصاف لشهوات الآخرة وجاءوا بابلغ الاساليب في التشويق الى اللذات المنتظرة هنالك . والذين كانوا شعراء في وصفهم لنساء الآخرة كانوا حتما شهوانيين جداً في اشواقهم نحو نساء الدنيا ، لقد اشتهوا ما هنا فوصفوا كشعراء ما هنالك ، ان البشر لا يحبون او يعشقون بشهوات غائبـة – بشهوات سوف توجد بعد الموت او في يوم من الايام !

واما ان كان الذي سيجعلنا فضلاء اذا زهدنا في امجاد الحياة هو حبنا للجزاء الادبي ورغبتنا في ان نرضى عن انفسنا ويرضى عنا الآخرون فقد رجعنـــا من طريق آخر الى الاقتناع بان الشهوة هي الطريق الى الفضيلة .

ولكن كيف تقودنا الشهوة الى الفضيلة ؟ نعم ، نشتهي المجد والمال ونحب ان نرضى عن انفسنا، ونشتهي اللذات الكثيرة المختلفة فنفكر في الوصول اليها ونحاول، فنجد ان وسائلها هي الفضيلة الاجتماعية والتوافق الاخلاقي مع الذين نريد رضاهم والانتفاع بهم او التوافق مع مثلهم الاخلاقية – اعني اذا كنا في مجتمع قوي ، فنسعى حينئذ لنكون كذلك كما يحاول التاجر الذي يبحث عن الربح وعن رضا الآخرين ان يكون مثالياً مرضياً ما استطاع الى ذلك سبيلاً ! اننـــا مادة تعشق

مادة ، وجميع الحضارات والفضائل هي ما يكون وما كان من محاولات للوصال والمغازلة بين المادة العاشقة والمادة المعشوقة ! والشهوات هي الجياد الاصيلة التي رفعت جميع العظماء على ضهواتها ليحتلوا قمة التاريخ ! وقد كانت شهوات النساء والطعام والمجد هي النار المقدسة التي صلى لهـا النبوغ الانساني في كل عهوده ، وكتبت تحت سناها اخلاق السلوك والنفس قوانينها ، منقحة لها على التوالي كما تهذب ضربات الموج أسنَّة الصخور ! ان الشعوب المتحضرة اقل تعاديا فيما بينها كأفراد من الشعوب الاخرى المتأخرة مع انها اخضع منها لشيطان الشهوات . ولا بد ان تنتهي شهوات الامم للحياة والسلام والترف الى القضاء على الحروب وعلى مسبباتها . وسوف يبلغ الناس هذه الغاية العظيمة حين تبلغ شهواتهم لهذه الأمور مداها النهائي . ودعاة السلام يحاولون ان يصلوا الى هدفهم الكبير بتقوية شهوات الحياة في نفوس الشعوب ، ولم يفكروا في ان يصنعوا السلام بقتـــل الشهوات او إضعافها .

والشهوة تشب الحرب – لا ينكر هذا – ولكنها ايضاً هي التي تمنع الحرب، وهي الامل في ان تزيلها من حياة الانسان . وفقد الشهوة او ضعفها ليس فضيلة ولا قوة بل مرض، والشيخوخة تفقد فضائلها وقواها لانها تفقد شهواتها الحاسمة. هل للنفط او الفحم او الغذاء او أي شيء فضيلة او فائدة لو فقد طاقاته ؟ وهل للانسان فضيلة او منفعة لو فقد شهواته ؟ ان تسليح الافراد بالشهوات القوية كتسليح الجيوش بالاسلحة القوية ، ليس لأي منهما فضيلة او معنى الا بذلك !

الحياة هي الحماس للأشياء ، ولا حماس من غير شهوات . وكل انسان وشعب يفقد الحماس ، تصاب مواهبه كلها بالعجز ! الافراد والشعوب المبدعة والمتحضرة تملك طاقات خاصة من الحماس ، والمتأخرون غير متحمسين لشيء ، متبلدون ازاء الاشياء والحقائق العظيمة . لا تثيرهم الاحداث ولا الابتكارات ولا الافكار الجديدة ولا الاشياء المثـــيرة ولا الخصوم الأقوياء ولا تفوق الآخرين عليهم ولا تهديدهم لهم بالفناء ، لا تتحرك افكارهم ولا أشواقهم اعجاباً ولا حباً ولا لهفة ولا استنكاراً ! ظاهرة الحماس هي الحد الفاصل بين الابداع والعجز ، الحماس هو نبي

العبقرية ، هو خالقها ، هو شاعرها ، ولكنها هي لا تستطيع ان تصنعه ولا أن ترفع من طاقته !

ولكن لماذا يوجد الحماس عند قوم ولا يوجد عند آخرين ؟ ما أيسر الأمر إن كان الحماس بالتعليم ، وما أصعب الأمر ان كان يملك بالموهبة والطبيعة ! الحماس طاقة مجهولة من طاقات الحياة ، وهذه الطاقة هي التي تخلق فينا الاصرار والتحدي والنشوة والشوق الى الكون والى الحقائق والى المجهول ! ان السير والتفكير والتجديد والتحدي الدائم هي الوسائل الدائمة التي يعبر بها الحماس عن اقوى وأفضل ما في الانسان ! وليس لأي شيء نجاح بدون هذا التعبير الذي هو شهوة الحياة الكبرى ! لن يكون ممكناً ان ينتفع الانسان بإمكانياته الفكرية أو النفسية او الزمنية او الذاتية من غير حماس ! مواهب البشر بلا حماس كالاسلحة بلا أجهزة تفجير . ان عقلي خامد ، ومواهبي واخلاقي وحياتي وكل شيء فيّ خامد وبليد اذا لم اكن املك هذا الجهاز المفجر لطاقات الانسان – اذا كنت لا املك هذا الحماس الذي يحول البلادة الى شوق والسكون الى حركة ! وأعظم شيء يتفوق به الانسان على كل ما في هذا الوجود موهبة التحدي ، فالطبيعة وجميع الكائنات الاخرى لا تتحدى وإنما تعيش ظروفها وطبيعتها المحددة المحكومة بالقوانين . إن الشمس وهي أضخم موجود يواجهنا ، لا تستطيع أن تتحدى شيئاً – لا تستطيع ان تتحدى ظرفاً من الظروف ولا حيواناً او نباتاً او قانوناً صغيراً ، وإنما تسير في طريقها بطاعة وأخلاقية ثابتة ، امسها كيومها ، كغدها ، كدهرها . اما الانسان فهو وحده الذي يستطيع ان يتحدى كل شيء – يتحدى كل الظروف والقوانين والافكار والنظم والآلام والعيوب والعقبات ، فيحولها ويتغلب عليها فيجعلها كما يريد لا كما هي ، أو يحاول ذلك ، والتحدي هو الذي يحول الشيء من : كما هو الى كما يريد . وحضارات البشر كلها هي مجموعة عمليات التحدي ! وهذا الشعب او هذا الرجل اعظم الشعوب او أعظم الرجال لأنه أعظمها وأقواها تحدياً ! وموهبة التحدي لا يمكن ان تكون بغير موهبة الحماس.

والأخلاق الموضوعة التي يحكم بها الآلهة والقادرون الشعوب قائمة على إرهاب

موهبة الحماس وإضعافها ، فهي اخلاق تكبح وتذل وتحرم ، وهي في عملها هذا لا تخضع لاحتياجات الجماعة او مصلحتها ، بل لإرادة الآلهة والمسيطرين . والإرادة المتحفزة اذا طال قمعها وإذلالها، تأتي على طاقة الاعصاب وعلى سدودها المنيعة التي تحتجز وراءها كل طاقات الانسان الانفعالية والفكرية ، واذا انهارت الاعصاب وطال إذلال الانفعالات وتحريمها ، فلن يوجد ما يعصم صاحبها من الاصابة بلوثة التفكير والاعتقاد والشعور والخيال، بل من الاصابة بالعجز واليأس والانهزام ! وتحريم الانفعالات وإذلال الحماس، طريقان جيدان الى الجنون والمرض وهوان الشخصية ! ان الذي تحكمه ارادة الانطلاق وارادة القمع — وارادة القمع ليست طبيعية بل تعليمية — او اضطرارية—يقع بين عامل الدفع وعامل الجذب، فيذهب يستنفد قواه شر استنفاد في غير عمل كصاعد هابط بدون انتقال ، وهذا يرمي الشخصية بالانشطار والاستسلام والارهاق الذي يفسد ارادة الحياة وارادة المحاولة . والشخصية الطبيعية التي تنتفع بالحياة وتنتفع بها الحياة ، هي التي تتكامل قواها وتنصب كلها في مجرى واحد ، وهي بهذا تسلم من النضال ضد ذاتها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى تجد قواها كلها معبأة للنضال مع الحياة وضد الحياة للسيطرة عليها وابداعها !

*

يا شعوباً تخلت عنها شياطينها ، اخلقي لك شياطين ، فإن الحياة بلا شياطين ذهول وخمول وهوان ! ويا شعوباً أنهكها البحث عن الفضيلة ، جربي البحث عن الرذيلة ، فقد تجدين فيها ما تفقدين من فضائل ! ويا شعوباً ضللها البحث عن الايمان ، حاولي ان تفقدي ايمانك ، فقد تجدين حينئذ مزايا الايمان الذي تبحثين عنه !

يا هذه الشعوب ، إن الله لم يرد أن نكون وحدنا المؤمنين ويكون غيرنا الكافرين ، يفعلون هم الشهوات والعبقرية المحرمة والابداع والحياة ، ونفعل نحن فضائل الموت والطاعة والخوف !

*

من الذين وضعوا الاخلاق ؟ من الممكن القول بأن الضعفاء والمغلوبين هم الذين وضعوها ، وسند هذا القول ان هؤلاء هم المحتاجون الى حماية الاخلاق دون السادة والاقوياء لأن في قوتهم ما يضمن لهم الحماية المنشودة . وهـذا الرأى يعني ان القوانين الاخلاقية – وكذا الفضائل – ما هي إلا حاجات العاجزين والضعفاء لأنهم لا يستطيعون البقاء بدونها ، ولو فرضت الدنيا بلا قوانين ولا اخلاق، فهل من الممكن افتراض بقاء هؤلاء ، وأي شيء حينئذ يحميهم من الفناء ؟ فالحاجة اذن الى ذلك إنما تنبع من شعور العاجزين ومن عجزهم . وقد تبع هذا الشعور الحقيقي بالحاجة التفكير في وضع ما يسدها ، فدعوا إلى الفضائل التي تطورت فصارت قوانين وشرائع ! والاقوياء والسادة ، وإن كانوا هم الذين ينفذون القوانين والشرائع ، فهم ليسوا واضعيها ، اذ لا يضع الشيء إلا من احتاج الى وضعه ، وهم ينفذونها على غيرهم من اجل فوائدهم هم . فهم اذن خارجون عليها وعنها من حيث وضعها والالتزام بها . وتنفيذها يفيدهم لأنهم يخضعون بها المجتمع ، وخضوع المجتمع معناه سوقه في طريق واحد ليصنع قوة السادة ومجدهم ، كما يصنع صاحب القطيع حينما يحافظ على قطيعه ويحمي بعضه من بعض ! ولو أن الأقوياء هم الذين وضعوا القوانين الاخلاقية ، لمجدوا القسوة والقتل والاغتصاب وهتك الاعراض، ولأنكروا الرحمة والمغفرة والعفو والسلام والاحسان والصدقة والعدل وغير ذلك من الاخلاق التي يستفيد منها الضعفاء والعاجزون ، وقد حدث بعض هذا في بعض الحالات ، وكان تعبيراً عن رغبة الاقوياء وعن تشريعهم .

ولا يمكن ان يكون شعور الحيوان المسالم نحو الفضيلة مثل شعور الحيوان المفترس ، فالحيوان الضعيف يرى – لو كان يرى – ان الفضيلة هو ألا يوجد حيوان مفترس ولا انسان آكل للحوم – بل ألا يوجد حيوان أقوى منه يهدده بالموت ، أما السباع والحيوانات القوية المفترسة فان الفضيلة والاخلاق النبيلة في تشريعها أن تطول أنيابها وأظافرها وأن تأكل جميع الحيوانات الاخرى الضعيفة، بل وأن تكفى عناء الطلب والسعي فتتقدم اليها تلك الحيوانات الطيبة طائعة

مختارة لتلتهمها في راحة ويسر ! ان أي ذئب لو كان نبياً او مشرعاً، لما حرم في أخلاقه وقوانينه أن يفترس الحيوان الأقوى الحيوان الأضعف ، او على الأقل لما حرم في كتابه المقدس أن تكون الأرانب والحملان طعاماً محللاً للذئاب .

وقد رأى آلهة البشر أن الدين والنظام في أن يذل لهم الجميع وأن يأكلوا لحوم الشعوب وأخلاقها وكرامتها وأفكارها دون عصيان او احتجاج، كما رأوا أن من الأخلاق والشرائع المنزلة تسخير الحيوان وأكلها وعبادة الآلهة بدمها المسفوح ، ولا فرق بين شرائع الانسان ازاء الحيوانات وبينما يفعله الحيوان القوي بالحيوان الضعيف ، وقد شرع الحيوان المفترس لنفسه أكل الانسان والاعتداء عليه، كما شرع الانسان لنفسه أكل الحيوان والتقرب الى الأرباب والمعابد بذبحه! والفرق أن الحيوان شرع لنفسه بلا لغة ولا أنبياء ولا كتب منزلة ، أما الانسان فقد فعل ذلك وحوله الى نبوات وشرائع والى أخلاقية متكبرة !

وقد يرى أن الأقوياء هم الذين وضعوا الأخلاق ليحكموا بها الضعفاء ، اذ المفروض والمشاهد كثيراً او دائماً أن المستمسكين بالاخلاق السلفية قوم مسالمون وصابرون ومطيعون وأوفياء لظالميهم ! قليل أن يثوروا او ينازعوا الأقوياء السلطان او يطلبوا لأنفسهم شيئاً كبيراً ، ولو حاولوا أن يصنعوا شيئاً من ذلك لما استطاعوا أن ينتصروا . ان الانسان لو استطاع لصنع للحيوانات أفضل الأخلاق ولرصد لها أفضل الأنبياء ليعلموها التمسك بها ، ولو كان ذلك ممكناً لأنشأ المعابد للوحوش لتتعلم فن الطاعة وحب الأعداء . ومن المفروض أن الحيوانات القوية تفكر في أن تبتكر للحيوانات الضعيفة تعاليم ومعلمين كما ابتكر الانسان القوي للانسان الضعيف . ولهذا فان الطغاة في كل العصور هم من انصار الاخلاق السلفية ، مع انهم من اعدائها في اعمالهم، واذا لم يكونوا من انصار هذه الاخلاق فمعنى هذا انهم قد وضعوا مكانها أخلاقاً أقوى منها وأحدث لبلوغ ما يريدون . وكلّ طاغية محتاج الى نوع من الاخلاق ليفرضه على رعاياه ويقنعهم به لكي يصنع منهم قطيعاً أخلاقياً تصدر اليه الاوامر والمناهي بالجملة فيتحرك ويطيع بالجملة وبالكلمة المنزلة ! ولا يوجد احوج من الطاغية الى الاخلاق في مجتمعه

وهو أحرص الناس على توكيد هذه الاخلاق واخضاع الجماهير لها وايمانهم بهـا ، وهو محتاج اليها كحاجة صاحب القطيع الى أن يكون قطيعه فاضلاً وكريماً في طاعته وتكاثره ونمو لحمه وألبانه - وكحاجة صاحب الارض الى أن تجود أرضه بكل ما يريد من ثمار وخيرات والى أن يكون عبيده فيها مخلصين أمناء !

والاخلاق التي يريدها الطاغية ويعمل على انمائها وترسيخها هي ضد الاخلاق، فالاخلاق عنده هي التعصب والايمان والطاعة العمياء والسذاجة والغباء وكراهة الجيران والخوف من الآخرين والانفعالات الغبية والغرور وتصديق المحال ، ثم التضحية بالنفس والكرامة وبكل شيء في سبيل الطاغية ومغامراته وطموحه الجنوني وتشييد القبور والاهرامات . وقد يكون من الحقائق المعروفة ان المستبدين والمتألهين في التاريخ هم الذين صنعوا اخلاق البشر الثقيلة المرهقة التي ظلت تحكمهم وتخضعهم من وراء القبور ، وقد اصبحت حاجة هؤلاء الى هـذه الاخلاق مفهومة جـداً الآن وان لم تكن مفهومة في وعي اولئك الذين فرضت عليهم فآمنوا بها ! وكان نوع الاخلاق الذي يدعون اليه متناسباً مع ما يريدون ومع نوع النظام الذي يفرضونه على جماهيرهم ! وليس في طبيعـــة النظام الديمقراطي ان يحتاج الى الايمان الأخلاقي كاحتياج النظام الاستبدادي ، فالنظام الاستبدادي قائم على الحشد والتسخير والتعبئة النفسية وعلى التوتر العصبي، ومثل هذه الحالة محتاجة دائماً الى اثارة اخلاقية ، ولهذا فان الاخلاق في عهد الاستبداد يجب ان تكون متشنجة عدوانية . ولما كان العقل المفكر خصماً لأمثال هـــذه الاخلاق اصبحت مطاردة التفكير والاتزان العقلي جزءاً من الطبيعة الاخلاقية التي يصنعها الطغاة ويبشرون بها ! اما عهد الديمقراطية فانه لا يحتاج الى العدوان، لهذا لا يحتاج الى الهياج ، لهذا لا يحتاج الى الاخلاق ، وانما حاجته ان يكون طبيعياً يعمل نفسه وفضيلته بهدوء واتزان كأنه قانون كوني . وكما ان الطبيعة تؤدي اخلاقها بلا تعاليم اخلاقية فكذلك الانسان في النظام الديمقراطي . والمرضى والمنحرفون والفاسدون هم الذين يحتاجون الى الاخلاق ويهتمون بها ويعولون عليها، ولكن الاصحاء والفضلاء والمستقيمين لا يحتاجون الى ذلك لانهم يتوازنون

مع ظروفهم توازناً ذاتياً بـــدون محرضات أخلاقية او معاناة ! ان القادرين على الاخلاق محتوم أن يكونوا أخلاقيين ، والعاجزون لن يكونوا كذلك بالمحرضات الأخلاقية ، فالاخلاق حالة نفسية ومـــادية متوازنة ، والمالكون لهذه الحالة لا يحتاجون الى الأخلاق، والفاقدون لها ينفعلون وينحرفون ويصرخون ويقلقون ويعجزون عن أن يكونوا أخلاقيين ، وهذه هي الأخـلاق . فالأخلاق التعليمية لا توجد إلا حيث تفقد الأخلاق السلوكية والذاتية .

*

ولكن أليس من الممكن القول بأن الأخلاق مهما كانت سلفية ليست دائمـــاً انتصاراً او تسليماً للأقوياء الظالمين ، وانهـا ليست كذلك لا في أهدافها ولا في طبيعتها ولا في تاريخها،بل انها دائماً ذات احتمالين او طبيعتين ، قد تكون للأقوياء وقد تكون ضدهم ! فالشجاعة والإباء والصبر والمثالية النفسية قــد توجه ضد الطغاة والأقوياء الفاسدين فتدمرهم ، وقد يستغلونها فتكون تأييداً لسلطانهـم وعوناً لهم على الضعفاء الأغبياء . غير ان هذا الرأي الذاهب الى ان الأخلاق من وضع الأقوياء لاحتكار الضعفاء لا يكون صدقه محتملا إلا إذا افترض أن الأخلاق في نشأتها تدبير لا احساس ، والمحتمل جداً أن التدبير الأخلاقي متأخر كثيراً عن الاحساس الأخلاقي. واذا كانت الأخلاق في نشأتها إحساساً لا تدبيراً كان الواضعون لها هم من أحسوها وأحسوا الحاجة اليها أولاً ، فمن هؤلاء ، هل هم الأقوياء ، هل هم الضعفاء ، هل هم الأقوياء والضعفاء معاً؟ إذا أردنا أن نعرف الاحساس الأخلاقي قلنا انه هو الاحساس باللذة والألم ، وإذا أردنا أن نعرف الأخلاق قلنا إنها هي اللذة والألم والسرور والحزن . فلا يمكن أن ينفك الاحساس بالـــلذة والألم عن الاحساس الأخلاقي، كما لا يمكن أن تتألف أخلاق من غير لذة وألم. إن الطفل حينما يتألم فيبكي ويصرخ إنما يحس إحساساً أخلاقياً ويطالب بمعاملة هي صورة أخلاقية ويشارك في تكوين الأخلاق بألمه وبكائه وتعبيراته الحركية ، ولو افترضنا كائناً لا يتلذذ ولا يتألم لافترضناه بلا أخلاق ، ولا أحاسيس أخلاقية ، ومن الجهـــة الاخرى لا محـالة من أن نفترض أشد الناس إحساساً أشدهم إحساساً أخلاقياً .

وإذن فمن هم الذين ليست لهم أحاسيس ولا آلام ولا لذات لنفترضهم غير مشاركين في خلق الأحاسيس الأخلاقية؟ لا نستطيع أن نقول انهم الاقوياء أو انهم الضعفاء. هذا عن طور الاحساس الاخلاقي .

أما بعد أن توضع الاخلاق وتتقرر فمن الذين يستمسكون بهـا ومن الذين يتحللون منها – ما صفات هؤلاء وما صفات اولئك ؟ – من الممكن أن يقال إن الضعفاء أميل الى الاستمساك بالاخلاق لان الاخلاق التزام والضعفاء أخضـع للالتزامات ، وقد يكون المرض والهوان والفقر أسباباً مجدية في أخلاق مهذبة فاضلة – أو على الاقل – في أخلاق مهذبة – كما قد تكون الصحة والغنى والمجد والقوة من مسببات النشوز الاخلاقي. قد يقال إن الفضيلة عجز ، وإن الرذيلة قدرة . وهذا القول يكون تارة حقاً وتارة خطأ ! ومن الممكن القول بأن الضعفاء أبعد عن الاخلاقية لانهم أعجز عن القيام بالالتزام ، وقد يكون المرضى والفقراء والاذلاء عاهات أخلاقية في حياة البشر ، إذ من المفروض أن الاخلاق اتزان وقوة وضبط وراحة وتكامل ذاتي ، وأين الضعفاء من كل هذا ؟

ومن جهة أخرى يمكن أن يقال إن الاقوياء أميل الى الاستمساك بالالتزامات الاخلاقية لانهم أقدر على القيام بالالتزامـات ، ويمكن أيضاً القول بانهم أبعد عن الاخلاق لانهم أقدر وأجرأ على التحلل منها . ولنضرب الصدق والنزاهـة مثلاً ، فالضعيف قد يكون صادقاً ونزيهاً لانه يخشى او لا يستطيع أن يفعل غير ذلك ، وقد يكون غير صادق وغير نزيه لانه محتاج الى الكذب والى خرق النزاهة ، أما القوي فقد يكذب ويخون لانـه قادر على ذلك ولا يخشى التبعة إذا فعل ، ولا يبحث عن الفضيلة إلا الذين لا يجدون الرذيلة ، كما قد يرتفع القوي عن هذا لانه غير محتاج اليه او لان حاجته اليه غير قاتلة! إذن قد يكون معنى هذا أن الضعفاء أحوج الى الاخلاقية ولكنهم أعجز عن القيام بهـا ، وان الاقوياء أقدر عليها ولكنهم أقل حاجة اليها .

وقد يقال أيضاً العكس ، فقد يكون الضعفاء أقل احتياجـاً الى الاخلاق المقررة لانهم أقل تبعات والتزامات في المجتمع وأقل كينونة وأبعد عن اهتمامات

الحياة ، ويكون الاقوياء أحوج الى تلك الاخلاق لانهم اوسع مصالح وحاجات، والمصالح والحاجات تصنع الارتباطات الكبرى التي تحتاج دائماً الى قدر ملائم من المحللات الاخلاقية ، ان المصالح والارتباطات في حاجة دائمة الى الاخلاق ، بل هي تتحول الى اخلاق . ولا يمكن ان نأخذ من المجتمع الذي نعيش فيه شيئاً إلا بثمن واسلوب ، ولا يمكن ايضاً ان نحافظ على ذلك الشيء إلا باسلوب وثمن . وقد كانت المبررات الاخلاقية هي إحدى تعاويذ التاريخ السحرية التي كان المستفيدون يحصنون بها منافعهم وآثامهم الكبرى ! كانت الاخلاق دائماً مبرراً للخروج على الاخلاق ، وكان المعلمون الكبار يشيدون بالتعاليم الأخلاقية لكي يستطيعوا ان يعيشوا غير اخلاقيين !

فليس في هذه القضية إذن قانون متأكد، والمتأكد ان الاخلاق حاجة ومحاولة واختيار – اي انها قدرة وعجز وتفكير . فمن كان قادراً قدرة مطلقة فلن يكون اخلاقياً ، لهذا تصورنا الآلهة لا اخلاقية لاننا تصورناها مطلقة القدرة ، ومن كان عاجزاً عجزاً مطلقاً فلن يكون اخلاقياً، ومن كان قادراً وعاجزاً بلا تفكير فلن يكون ايضاً اخلاقياً . والتفاوت بين الناس في هذه الامور الثلاثة – في القدرة والعجز والتفكير وتسلط بعضها على بعض هو الذي يصنع تفاوتهم الاخلاقي ! وتغير النسب بين الأمور الثلاثة واختلافها هو الذي يغير أخلاقنا ويوجد الفروق الأخلاقية بيننا ، ولو أن قوماً تساووا في قدرتهم وعجزهم وتفكيرهم ثم لم تتغير نسب هذا التساوي لما تغيرت أخلاقهم أو تفاوتت أو اختلفت ! ومعنى هذا ان الاخلاق ضرورة نعالجها ، لا نور تشعه ذواتنا ، هي عمل وتوافق مع الاشياء الاخرى المزاحمة لنا كتوافق الحركة مع الحركة والآلة مع الآلة . ليس في الاخلاق معنى خارجي أكثر من المعاني التي بين الأحجار والأحجار والموجة والسفينة في تصادمهما وتوافقهما، ولهذا فالناس جميعاً ، أقوياؤهم وضعفاؤهم أخلاقيون على نحو ما ، على نحو غير أخلاقي . والأخلاق لا تختلف في بواعثها وأهدافها ، وإنما تختلف في وسائلها والتعبير عنها ، وهذا هو كل الفرق بين الأقوياء والضعفاء وبين المتحضرين والمتوحشين . وحوافز الأخلاقية هي دائماً حوافز غير أخلاقية .

إن الاخلاق تنافي الاخلاق ، لأن المفروض في الاخلاق ان تكون عطاء مع انها في حقيقتها أخذ، كان المفروض ان يكون الاخلاقيون ايثاراً فاذا بهم استئثار. وأفضل الناس اخلاقاً لم يرد ان يكون فاضلاً وانما أراد ان يكون ناجحاً ومحبوبا او راضياً عن نفسه، انه لم يرد ان يرضي الآخرين او يحبهم او ينفعهم، ولكن اراد ان يخدعهم وينتصر عليهم ويأخذ منهم ويرضى عن نفسه ! وأي طبيب ونبي في العالم ، انهما لم يريدا ان يشفيا المرض او يهديا الضالين ، وانما ارادا ان يكونا منتصرين وناجحين ومحققين لذاتيهما ، أي ارادا ان يكونا طبيباً ونبياً ! ان الناس لا يستطيعون ان يهتموا بالناس ولا بمصالحهم ، وانما يتعاملون معهم ويتعاملون بهم كما يتعاملون بالأشياء . المحسن الذي يتصدق على الفقراء ، والكاتب والواعظ اللذان يذرفان الدموع رحمة بالمتألمين ، والذي يقود ثورة مسلحة لنصرة الضعفاء والمظلومين – هؤلاء وأمثالهم لا يتعاملون مع الآخرين بواسطة انفسهم ، ولكن يتعاملون مع انفسهم بواسطة الآخرين . اذن لا توجد اخلاق وانما توجد معاملات كالمعاملات التي توجد بين وحدات الطبيعة !

والانسان كأخلاق وفكرة وقيمة وتفسير لا وجود له ، وانما هو موجود كقوة فقط ، ليس للانسان اية مزية غير مزية واحدة ، تلك هي القوة ، فالقوة هي المزية الانسانية الفريدة ، وكل ما سواها ليس الا تعبيراً عنها وظلالاً لها . فالانسان قوة ولكنه قوة بلا إطار ، بلا تفسير – هو قوة كقوة الزلازل والبراكين والمتفجرات والقوانين الطبيعية ، الانسان يكون في ذاته لا من اجل ذاته ولا من اجل شيء آخر . ان الحجر والحشرة موجودان ولكنهما موجودان في ذاتيهما لا لذاتيهما وكذلك الانسان ، ولهذا فهو ليس اخلاقياً ، ووجوده ليس اخلاقياً ولا يمكن ان يكون اخلاقياً !

ليس في الوجود الانساني او الحياة او التصرفات الانسانية ما يمكن تعليله او تفسيره الا بقدر ما يمكن تفسير وجود الحشرة وتصرفاتها ، او وجود الموت والوباء ، ان للموت اخلاقاً كأخلاق الانسان . الانسان قد يصدق ويبتكر ويناضل ويعمل اعمالا كبيرة وكثيرة ومفهومة الاهداف والدلالات ، ولكن لماذا

يفعل ؟ انه يتحرك من ذاته الى ذاته ، فلماذا تكون ذاته وما دلالتها وتفسيرها ؟ وهو ينطلق في فراغ منتهياً الى فراغ باحثاً عن فراغ، لا يمكن تفسيره بشيء ولا تفسير شيء به ! انه يكون لأنه يكون لا لانه يجب ان يكون ! وإذا رأينا انه يعمل ليكون ، وجب ان نسأل : ولماذا يكون ؟ اعماله معللة بالكينونة ، ولكن الكينونة لا يمكن تعليلها بشيء ، فهو الشيء بذاته ولا معنى له غير ذاته !

والعلم والحياة لا يصنعان الاخلاق وإنما يصنعان القوة ، والقوة دائماً ضد الاخلاق ، ولهذا لا ينتظر في المستقبل ازدهار الاخلاق الانسانية بل نمو القوة الانسانية ، والعلاقات بين البشر ليست قائمة على الاخلاق بل على القوة كالعلاقات التي بين البشر والطبيعة وبين الطبيعة والطبيعة ! وحاجة الحياة والانسان الى القوة لا الى الاخلاق !

وكل الناس يتحدثون عن الاخلاق ويمتدحونها، وكلهم يخرجون عليها بدم بارد – يريدون ان يعاملهم بها الآخرون ، ولا يريدون ان يعاملوا هم بها الآخرين ، انهم يكفرون الآخرين ويلعنونهم اذا عاملوهم بنفس الأخلاق التي يعاملون هم بها الآخرين !

*

عن أبي هريرة عن رسول الله

تحت ظروف معينة اخترع الرواة بدعة الحديث وطريقة حفظه وتدوينه والاقتناع بصدقه او كذبه، وجللوه بوقار كالسماء ، جعل جميع العقول تخضع له، وجعل الاكثرين ينذرون له أنفسهم ويرون في الانقطاع الى الاشتغال به درجة تزاحم درجة النبوة !

بعد الفتوحات العربية الواسعة ودخول شعوب بأسرها في الدين الجديد ، اجتمع للناس فراغان كبيران : فراغ نفسي عقلي وفراغ في الوقت . أما فراغ الوقت فمعلوم ، وأما فراغ النفس والعقل فيرجع أكثره الى تخلي الناس عن أديانهم وتعاليمهم القديمة ، ولو من حيث الفكرة . وقد اجتمع الى هذين الفراغين رغبة قوية في بناء الدين الجديد والعهد الجديد . والبشر في العادة يجدون حماساً وجيشاناً نفسياً عقب كل تطور روحي او فكري او اجتماعي ، واجتمع ايضاً الى الفراغين المشار اليهما رغبة في الحظوة لدى انصار الدين الجديد والعهد الجديد – لدى أنصاره من الحكام ومن الجماهير المتدفقة في حماسها . وكانت هذهالشعوب التي تخلت عن أديانها للدين الجديد المنتصر تحمل في تلافيف نفسها وتقاليدها كل ماضيها الديني والتاريخي والاجتماعي والأخلاقي .

اجتمع الفراغان واجتمع اليهما الولع القوي ببناء الثقافة والدين الجديدين ،

واجتمع كذلك كل ماضي الأمم التي آمنت بالاسلام في صورة أخرى ، واجتمع شيء آخر عظيم التأثير، هو إعجاب الناس بالأبطال وبالرجال الخرافيين الخارجين على المقاييس المعروفة ، وبالاساطير المستحيلة وبالاكاذيب والمبالغات التي تصور عالماً سحرياً لا وجود له ، تتحرك فيه الاماني كيف شاءت ، بلا قيود من الواقع الضيق الأليم ، واجتمع ايضاً ما في طبيعة البشر من رغبة في التصديق وفي خرق القوانين الكونية بوسيلة غيبية خارقة . والناس محتاجون في بعض الاوقات او في كل الاوقات الى تأليه رجال ممتازين منهم، فالانسان الإله لم يزل حاجة إنسانية. وقد عبد البشر الطبيعة والآلهة الغائبين في السماء ، وعبدوا بنفس الحرارة والاخلاص أفراداً منهم !

لقد اصبح التحديث والرواية في تلك الفترة الجياشة أعظم حرفة دينية في الاسلام ، وأصبح المحدثون أشرف طائفة يتطاول الى الالتحاق بها جميع الباحثين عن المجد والفضيلة. فراح الناس في نوبات مجنونة يمتصون من كل الشفاه كل البصاق! وراح أشراف الناس يجثون صاغرين تحت اقدام من يحفظون الحديث ومن يروونه. وتفجرت الرغبات والخيال والمصالح والغباء بطوفان من الرواية اغرق الحياة والفكر وكل معرفة إنسانية . وقد ثبت على طول التجربة ان الحديث خصم بشع للمعرفة الانسانية وللحياة ، وان الحديث والرغبة في التطور لا يجتمعان !

ونسيت ان أضيف الى السطور الماضية :

انه لا يوجد في الكائنات كلها كائن يتناقض ويحتاج الى التناقض مثل الانسان ، وهو لا يريد شيئاً معيناً ولا يبحث عن شيء معيّن ، ولا يمكن أن يعرف هو ماذا يريد! هو دائماً مركب من الشيء ونقيضه ! انه يفعل الذكاء والغباء والحرية والعبودية ويتمرد على جميع الآلهة والعقائد ، ويخضع لكل الآلهة والعقائد ، ويكون إلهاً ويكون عبداً ، يصنع لنفسه آلهة من جنسه ويهبط بجنسه حتى يصنع له أغبى الآلهة ويفرض عليه عبادتها بكل إذلال .

لقد ظل كائناً مزدوجاً وسوف يبقى كذلك دائماً !

*

ظهرت في المحدثين وفي تلك المجتمعات احدى خصائص الطفولة، وهي عبادة الاساطير والارتفاع في تقديرها وتصديقها كلما كانت أكثر خروجاً على المنطق والطبيعة وأكثر غباء ! لم يترك أولئك المحدثون شيئاً خارج احاديثهم ، لقد حدثوا عن كل الوجود قبل ان يكون شيء الى ان يزول كل شيء . فحدثوا عن الفراغ قبل ان توجد المادة ، ثم حدثوا عن طبيعة المادة قبل أن تصبح صوراً متميزة متحددة، ثم حدثوا عن صورها المتحددة وعن طبائعها واعدادها وهيئاتها وعن نهايتها وعن كل سر من أسرارها . حدثوا عن الخسوف والكسوف ، وعن البرق والرعد والرياح، وعن بداية الحياة وكيف وجدت، وعن الحيوان والنبات ، وعن الشمس : من أين تجيء وأين تذهب ، وعن القمر كيف يبدو صغيراً ويتوسط كبيراً وينتهي كما بدأ ، وحدثوا عن القوانين الاجتماعية والاخلاقية والنفسية وعن الظروف التي تقوى بها الامم وتضعف وتسقط وتزول ، وحدثوا عن جميع العوالم والقوى الخفية في هذا الكون وعن الخوارق الكونية التي ستقع قبل فناء العالم وعن كل ما سوف يصيب هذا الوجود الكبير .

لقد حدثوا واستمروا يتحدثون حتى أصابوا أتباعهم بالذهول والدوار وعقدوا فوق بلادهم ليلاً كثيفاً لم تستطع كل الحضارات والمعارف أن تزيله حتى لقد كادت الشمس القوية في بلاد الحديث أن تفقد وتموت في هذا الليل ! قدموا الكون كله حقائق جاهزة وأراحوا المؤمنين بهم من السعي وراء الحقائق الصعبة بينما كان العالم الذي صنع الحضارة متلاحق الأنفاس يبحث عن حقائقه التي لم تنزلها نجوم السماء مع الفجر السعيد على إحدى المغارات الثاوية تحت أحد الجبال الكئيبة المقدسة العارية من الحياة !

ثم انتهوا هذه النهاية المروعة :

ما من كشف او اختراع او ضرب من ضروب الحياة تهدي اليه التجربة او العقل إلا وجدوا في خزائنهم المحفوظة الملأى ما يثبت بطلانه وفساده او ما يغني عنه . وهنا ينهضون ليشبوا حربا دينية ضد ذلك الباطل الذي هدى اليه الشيطان اعوانه من الكفرة والفاسقين، ويظلون يرشقونه برجوم الحديث التي لا عداد لها!

لقد تقررت المأساة وتهيأ لهم ان يقيموا هذا التراث الضخم البشع من الحديث وعلومه الكثيرة الكئيبة . فأصيب التاريخ والفكر العربيان بكارثة من اكبر الكوارث ، وفقدا عافيتهما وقدرتهما على الحركة السريعة القوية المبدعة ! جاءت نتائج أليمة ضخمة لعلوم الحديث وتدوينه والاشتغال به . فلقد انصرفت اعظم طاقات الفكر الى الرواية تكتبها وتحفظها وتشرحها وتؤمن بهـــا وتوفق بين تناقضاتها وتضع لها المصطلحات ، حتى لقد اصبح الناس كلهم محدثين او حفاظاً او شراحاً او مستنبطين للأحكام والعلوم من نصوص الحديث او مستشهدين بها في جميع المناسبات . فنمت ملكات الحفظ وضمرت ملكات الفكر والفهم ، ولم تظفر تلك العصور جميعاً بانسان واحـــد يمكن ان يعد من المفكرين او العقليين الكبار ، وأصبحت الطريقة المعروفة المحترمة لدى الجميع لمعرفة أي شيء هي الرواية حتى التاريخ والتفسير والفهم اصبح رواية ، ولا مكان للتأمل والبحث العقلي . ولهذا نجد حشوداً هائلة متنافرة من الروايات في القضية الواحدة والمعنى الواحد ، ثم لا يدرك المؤلف ولا القارىء هـــذا التنافر المنكر ، اذ لا موضع للادراك والتساؤل هنا ، والمسألة مسألة نقل فقط . ولا مانع من التناقض ما دام العقل ممنوعاً من التدخل ! وكانت محاولات التوفيق بين التناقضات اسخف من التناقضات نفسها ! كانت تبريراً لهذه التناقضات وإذلالا للعقل لا مثيل له ! ان التفسير والتاريخ وغيرهما من الموضوعات لم تعـــد ان تكون في تلك الكتب والمحاولات نقلاً متهافتاً او تكراراً منبوذاً لمعنى صغير لم يثبت صدقه ولا قيمته. واذا اصبحت المعرفة نقلاً فلن تجد فيها غير التكرار والتناقض .

لنقرأ أي كتاب كبير شهير في التاريخ وليكن مثلاً تاريخ ابن جرير الطبري، فاننا لن نلقى بين اجزائه وصفحاته المرهقة سوى الرواية المكررة المتناقضة ، وكذلك تجد تفسيره الكبير ، وكذلك تجد جميع المؤلفات في جميع ما كان الناس يعدونه معرفة وعلماً ! إنها عملية طحن كبير للعقل .

وقد انتهى ذلك الى وجود شعوب اسطورية تخشع لأبهظ الاساطير وتفقـد منطقها في كل المواقف ، وترى في الفكر او النقد اسلوبا من اساليب الله في تعبيره

عن غضبه على من اراد ان يوقع بهم عقابه ، وأحد اساليب الشيطان في اغوائه الجديرين بالغواية من اتباعه الاشقياء !

وقد لجوا في تحامي الفكر والمفكرين وفي التحذير منهما حتى لقد رووا في اخبارهم انه لا تقبل شهادة من ينظرون الى الامور بعقولهم . وحدثوا عن احد الأئمة انه قال : حكمي في اهل الرأي ان يطاف بهم بين القبائل تشهيراً ثم يضربوا بالنعال على وجوههم ثم يقال لهم هذا جزاء الذين يحكمون عقولهم في دين الله ! وعندهم حديث ينسبونه الى الرسول عليه السلام وكان يجب ان نخجل من روايته ، وكان عليهم هم ان ينزهوا الرسول عنه لو كانوا يفكرون ويفهمون ما يروون ! يقول هذا الحديث المزعوم : الذين يفسرون القرآن بآرائهم إما أن يصيبوا او يخطئوا ، فإن أصابوا فقد أخطأوا ، وإن أخطأوا فقد كفروا .

وقد وضعوا كتباً كثيرة في شتم الرأي وشتم من يفكرون . وإذا رجعنا الى مؤلفاتهم وجدناهم يمتدحون الرجل بأنه كان راوية او حافظاً او محدثاً ، ولن نجدهم يثنون على انسان بأنه كان مفكراً او باحثاً ، حتى لنجد ذلك منعكساً على أسمائهم إذ نجدهم يسمون حافظاً وعبد الحافظ ، ولا نجدهم يسمون مفكراً او عبد المفكر ! وسموا الله الحافظ والحفيظ والذاكر والذي لا ينسى . ولم يسموه بالمفكر او الذكي او حتى العاقل !

وتوجد دائماً هوة سحيقة تفصل بين العقل والنقل وتحول دون التقائهما. فالعقل لا يرضى إلا بان يبسط سلطانه على كل شيء وعلى النقل ايضاً ، فالنقل اذن ليس بشيء ما لم يشهد له العقل ، وهو – اي النقل – تسليم مطلق لخرافات بدائية صنعت في ظروف غير عقلية . فهما اذن مختلفان في طبيعتيهما ، ولهذا فان الذين يحترمون احدهما لا يحترمون الآخر .

والتجربة الطويلة التي مرت بهذين الخصمين دلت على ان الذين يرتفعون في ميزان الرواية يهبطون في ميزان الفكر ، ويصدق عكس هذا . فاحترام الرواية هو في معناه احتقار للفكر ، والذين يستمرون طويلاً يحترمون الرواية ويؤمنون بها يصلون اخيراً الى منخفض خطير يفقد فيه هؤلاء المؤمنون كل مزاياهم العقلية !

ولقد كان كذلك كبار الرواة حتى لنشاهد في تراجم حياتهم كل معاني الطفولة وتصرفاتها . وقد كان هؤلاء الرواة في كل العصور هم الحروف الزائدة الغريبة في لغة الحياة – كانوا حروفاً فقط - حروفاً لا يستطاع النطق بها ولا تفسيرها . والضرر الجسيم ان هؤلاء المحدثين قد صبوا كل من جاءوا بعدهم في قوالبهم وشغلوهم بما خلفوا من أساطير وطفولة غريرة . وقد سار العالم العربي في رحلة طويلة شاقة وراء هؤلاء الرواد أفنت بضعة عشر قرنا من الزمان بلا جدوى او راحة او بلوغ هدف . ونرجو الا يكونوا في اوائل الرحلة ، اذ انه توجد علامات تشير الى ان الايام والأحداث الصارمة القاسية لم تستطع ان توهن الاعجاب بهؤلاء الهداة الضالين ! ان المفكر المؤمن بقيمة الانسان وقيمة الحياة ليأخذه الذهول حينما يرى كيف تنفق طاقات ضخمة من الفكر والوقت والأمل والحب والحماس في دراسة كتب الحديث وحفظها والتماس الحياة فيها !

والعجيب ان الحضارة العدوة لهذا الظلام تشارك اليوم في تعميم هذا الظلام ، فإن الوسائل العلمية التي صنعها العلم والفكر يستعان بها استعانة كاملة على نشر هذا التراث المميت في الاذاعة والصحافة وكل اعمال المطبعة !

الرواية هي احدى الوسائل التي تعوق محاولات التقدم نحو المجد والقوة وتصرف عن الايمان بفضائل الحضارة وفضائل الفكر الانساني !

وإن لها لأساليب كثيرة في عملها هذا .

فهي تنعى الحياة الى الاحياء ! وهي من جهة اخرى تشجب الفكر الذي هو بصر القوة والابداع . وهي من جهة ثالثة تصد عن الاحياء وتحتقرهم وتدعو الى الركوع بين المقابر . فالموتى – على حسب ما تقول الرواية – هم الذين يجب الاقتداء بهم دون الاحياء الفاسدين او المعرضين للفساد ! وهي من جهة رابعة تملأ اوقات المؤمنين بدراستها وتفهم اسرارها فلا تترك لهم فرصة للبحث في غيرها ! وهي من جهة خامسة تشحن رؤوس المشتغلين بها غروراً لأنهم يحسبونها افضل هدايا السماء الى اهل الارض ، وغرور الجاهل يحرمه من الانتفاع بمواهبه ! وهي من جهة سادسة تدعو الى معاداة الانسانية ، فالمشتغلون المؤمنون بها لا يمكن ان

يكونوا اصدقاء للانسان، او انسانيين، او ان تصدر عنهم اخلاق انسانية عظيمة!

وأهل الحديث هم اضعف الطوائف في كل بلد. المسلمون مثلاً في الهند والباكستان هم من اشد الناس فاقة وضعفاً، وهم منقسمون الى مذاهب عديدة من حيث الاعتقاد، ففيهم الشيعة والسنة والاسماعيلية والقاديانية والاحناف، وفيهم بعد ذلك اهل الحديث. وهم طائفة مشهورة، لها مساجدها وكتبها ودراساتها الخاصة، وهي مجانبة بمذهبها وورعها الطوائف الاخرى، وهي تدرس الحديث وفنونه دراسة مستقلة على حسب فهمها وقدرتها، وتأخذ شرائعها وسائر أحكامها من النصوص مباشرة لأنها ترفض التقليد وتعاديه. فهي لهذا شديدة اللصوق والهوى بالرواية. فما هو شأن هذه الطائفة؟ انها مع اخلاصها ونبل قصدها الذي لا ينكر، تعد من أعجز تلك الطوائف وأبعدها عن الخصائص الايجابية الفاعلة.

ونحن لذلك لن يغمرنا فيض من السرور والتفاؤل حينما يخرج من بين صفوفنا قوم يدرسون الحديث او يحفظونه او حينما نسمع أصواتاً ترتعش من الهزال تنبعث من صدور كأنها بقايا مقابر أثرية تدعونا الى الحديث والى العيش بين المقابر! بل انه لينبغي لنا ان نفزع أشد الفزع يوم ينتهي الينا نبأ بأنه قد نبغ بين قومنا محدث أو محدثون! ان هذا النبأ يساوي أن نخبر بوقوع زلزال مدمر او وباء هائل! وهذا شيء قد جربناه وعرفناه وعشنا فيه، فلسنا نقدم ظناً او استنتاجاً!

والنصوص المقدسة او المفروضة مقدسة، هي احد مؤخرات الفكر البشري عن النمو والنضج، بل هي احد ما طبع حياة الانسان بالتبلد والكآبة والسلبية النازعة الى التحريم. وقد كان تقدم الفكر والحياة دائماً مساوياً ما بلغه البشر من تمرد على النصوص. ولا يزال الطريق غاصاً بالشواهد الدالة على نهاية المعركة، وغاصاً ايضاً بالانصاب التي يزدحم حولها المؤمنون، ليعوقوا سير التاريخ!

*

والقواعد التي وضعوها لمعرفة الحديث الصحيح من الضعيف قواعد صبيانية. فالصحيح هو الذي يرويه راو ثقة عن مثله من بداية السند الى نهايته.

ولكن من هو الثقة ؟

هو الذي يجتمع فيه وصفان : مسلم صالح بحيث لا يجرؤ على تعمد الكذب ، وحافظ لا يخطىء في حفظه ولا في تحديثه .

ولكن المسلم الصالح ، أيراد به من هو كذلك في الظاهر والباطن ام في الظاهر فقط ؟

اما الثاني فلا قيمة له ، وأما الأول فلا سبيل الى معرفته .

وكم هم الذين يستطيعون ان يخدعونا بما يبدون ويقولون مما يخالف حقيقتهم ! ان اذكى الاذكياء قد ينخدع ويصدق الخرافة والكذب . والنفاق والمكر فنان يتفاوت من يتعاملون بهما في درجة إتقانهما . والواقع انه لا يوجد من لا ينخدع ومن لا يصدق الكذب ولو أحياناً ! وفي القرآن ان قوماً من المنافقين كانوا يعيشون في المدينة مع الرسول عليه السلام وكانوا يظهرون له الايمان وهو لا يعلم من أمرهم شيئاً – أي انهم استطاعوا أن يضللوه ويخفوا نفاقهم ، وقد قال عن هؤلاء : « ومن اهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم . نحن نعلمهم » . وتاريخ المنافقين في الاسلام معروف . وكان كبار الصحابة وأذكياؤهم لا يعلمون شأن هؤلاء المنافقين ، وكانوا يرونهم مؤمنين صادقين كما كان الرسول يراهم !

وليس في الدنيا كلها أغبى من انسان يرى الناس مؤمنين وفضلاء، لا يكذبون ولا يغدرون لأنهم يتظاهرون بذلك ! ومن العجيب ان الناس يثقون بالآخرين في شؤون الدين، ولكنهم يحاذرونهم في شؤون الدنيا، لا يمنحونهم الثقة التي يمنحونهم إياها اذا حدثوهم عن الله او عن الرسول . فلماذا ؟

والمحدثون نفسهم يعطون الفكرة عن قيمة هذا التصديق والثقة بأسلوب غير مباشر .

إنهم يختلفون في الراوي الواحد فيراه بعضهم صالحاً وثقة ، ويراه آخرون غير ذلك ، ومعنى هذا انهم باعترافهم قد يخدعون ! والراوي الذي يخدع محدثاً واحداً او محدثين دون ان ينكشف أمره ، يستطيع بهذه الوسيلة نفسها ان يخدع ثلاثة وأربعة وخمسة وجمعاً ! ولو كان حكم المحدثين على الرواة لا يخطىء ، لما

جاز أن يختلفوا فيهم هذا الاختلاف .

ثم ما هي وسائل الاختبار التي كانوا يميزون بها بين الصالحين والطالحين؟ليست لديهم أجهزة للكشف على الكاذبين ، ولم يكن لهم ذكاء خارق يعلمون به خزائن النفوس ويقرأون به تعبيرات الوجوه . ان المسألة لم تتجاوز أن تكون غفلة شاملة وكرماً في البلادة يحول المغفلين والمخادعين الى صالحين واطهار . وأي ضرر يصيبهم او يصيب الاسلام اذا اعتقدوا الناس كلهم أو جلهم اتقياء وصادقين ؟ أليس في هذا خير للاسلام والمسلمين؟ أو ليس الواجب ان يظن الخير دائماً بالمسلم؟ ثم أليس اتهامهم للمسلمين وإساءة الظن بهم ، مما يغضب الله ويغضب المسلمين ايضاً؟ وفي إغضابهم العذاب لنا ولهم كذلك. ان الطيبين هم الذين يرون الآخرين طيبين ! وانهم اذا شكوا في أمر نقلة الحديث ، فسوف ينالهم شكهم هذا بأضرار جسيمة ، إذ سيكون محصولهم حينئذ من الأحاديث الصحيحة قليلاً ، كما سوف يكون مشايخهم الثقات قليلين ، وهذا يعني هبوط مكانتهم بين الخاصة والعامة ، ويعني ايضاً ان يتقدم عليهم المحدثون الآخرون الذين رووا الاحاديث الصحيحة الكثيرة والذين أخذوا عن الكثيرين من الرواة العدول ! فتوثيق الكاذبين اذن تجارة وقوة وانتصار ! والخطأ في توثيق غير ثقة أفضل من الخطأ في تجريح الثقة !

هذي هي الامور التي أملت على المحدثين بأن يكونوا مصدقين اكثر من ان يكونوا مكذبين . انها عملية بيع . وكم هم الذين يبيعون السلع الرديئة — كم هم المزيفون في السوق ؟ وبيع الرواة كبيع الآراء ! فاذا كان الوعاظ والفقهاء يبيعون على السوق آراءهم الزائفة بلا ورع فانهم كذلك سوف يبيعون الرواة ! والبائعون مضطرون الى امتداح بضائعهم ! والشيخ بضاعة حقيقية تعرض وتباع في السوق كالآلهة والانبياء تماماً ! لقد كانت الارباب والانبياء والشيوخ والمحدثون بضائع تجلب الى الاسواق فيقع فيها الغش كما يقع في سائر السلع !

اننا نرى في عصرنا الحاضر الجماهير الغفيرة ، وفيها الاذكياء والمتعلمون والممتازون يجمعون على تزكية انسان هو زعيم في الغدر والكذب والخداع ! ومازالت احكام الانسان على الاشياء وعلى الآخرين محكومة بالغباء والغفلة والتعب .

وقبول الشيء والرضا عنه قد يكون تعبيراً عن التعب ! قـــد نصدق رواية او راوياً لأننا متعبون .

ثم ما معنى كون الرجل صالحاً ؟ اننا نتأثر بالمذهب وبالموافقة والمخالفة اكثر مما نتأثر بالعمل وبالحقيقة ، فالذي يوافق مذهبه مذهبنا او الذي بيننا وبينه تلاؤم وصداقة نميل الى ان نعده صالحاً وثقة ، والذي ليس كذلك نريد ان نجعله من الفاسقين والأبالسة ، والحقيقة لا تنفصل عن الشعور . والفضيلة والرذيلة همـــا الموافقة وعدم الموافقـــة ، ولا يوجد من يستطيعون ان يكونوا اكبر من حبهم وبغضهم ، ولا من ينتصرون دائماً على اهوائهم الخاصة . والناس في كل تصرفاتهم انما يتركون هوى لهـــوى وشعوراً لشعور ، اذ هم في جميع مواقفهم خاضعون لشعورهم . ولم يخرج المحدثون عن اهوائهم وميولهم ، وهم لا يجبنون عن الاعتراف بذلك . ان السني يعد الامام الشيعي بل الملاك الشيعي شيطاناً ، وهكذا يصنع الشيعي في حكمه على السني . وجميع اصحاب المذاهب يخضعون لهذه المؤثرات في حكمهم على الآخرين . ولا يمكن التدين بلا هوى ، ولا يمكن العدل مع الهوى .

على ان التقوى التي جعلوها احد ركني التزكية قد جعلوها في مناسبة اخرى سبباً في الاتهـــام . وقد روى مسلم في صحيحه — ومسلم والبخاري هما اللذان يجرؤآن عـــلى ان ينافسا بكتابيهما القرآن الكريم — روى مسلم في كتابه : ان الصالحين هم اكذب الناس في الحديث . وفسروا هذا بأن الكذب يجري عـــلى ألسنتهم بدون ان يعرفوا او يقصدوا لغفلتهم ! وروى مسلم هذا ايضاً في صحيحه ان نقاد الحديث كانوا يرفضون شهادة قوم يعدونهم من أهل الجنة لو شهدوا على تمرة واحدة . ونقل صاحب كتاب الآداب الشرعية عن أحد الأئمة أنه قال : اذا جاء في سند الحديث : حدثني فلان الزاهد — اي الصالح — فاغسل يديك منه فانه لا يساوي شيئاً ! وقد عرف ان بعض الرواة من الصالحـــين كانوا يكذبون في حديثهم تقرباً الى الله كالذين كانوا يكتبون الكتاب بـأيديهم ثم يقولون هذا من عنـــد الله . وعندهم أن الكذب يجوز او يجب للمصلحة ، وقد رووا أخباراً يعدونها صحيحة عن الرسول فيها تحسين وترويج للكذب المصلحي . وأية مصلحة

أكبر من خدمة الدين ، ويوجد في كل زمان من الاتقياء من يرون أن كل عمل مشروع إذا كان ينصر كلمة الله. ونصرة كلمة الله يجب ان تكون غاية كل مؤمن. واذا كان من الجائز او الواجب أن نكذب كما يقولون ويروون في أخبارهم إذا كان كذبنا يحمل فائدة من أي نوع – او إذا كان من الجائز او الواجب أن نكذب في الشؤون الدنيوية الصغيرة فكيف يحرم الكذب الذي يخدم حقيقة الحقائق – الذي ينصر الله ودينه ؟

ومن الاحاديث التي رووها في تسويغ الكذب للمصلحة ما نقلوا عن الرسول انه قال يجوز الكذب في الحرب وفي حديث الرجل زوجته وحديث المرأة زوجها وفي الاصلاح بين الناس . وفي حديث آخر عن الرسول أيضاً أنه قال : « ليس الكذاب الذي يقول خيراً وينمي خيراً » . وفي حديث آخر : « الحرب خدعة » أي الحرب كذب . وكان يكذب في الحرب كما رووا !

وهذا موضوع خطير .

إذا كان الصدق والكذب يخضعان في الحكم عليهما للمصلحة لا للتشريع كان معنى هذا أنه ليست هناك شرائع ولا أخلاق ولا مواقف فاضلة ومواقف سيئة وانما هناك مصالح فقط ، والمطلوب البحث عن هذه المصالح حيثما كانت ، وهذا يعني ابطال الأخلاقية . واذن لماذا جاءت الأديان ؟ ان كانت قد جاءت للبحث عن المصلحة بلا أخلاق، أي بالكذب والصدق والفضيلة والرذيلة وبكل الوسائل فالأبالسة وأفجر الناس لا يفعلون غير هذا ، انهم يصدقون اذا كان الصدق خيراً لهم ويصنعون الفضيلة المحققة لأغراضهم ، ولا يفعلون الشر حباً للشر ولكن حباً لأنفسهم وبحثاً عن الفائدة . والمفروض أن الأديان والأخلاق والتعاليم كلها انما جاءت تطالبنا بأن نضحي بمصالحنا في سبيل الفضيلة . وتشريع الكذب للمصلحة يفقد الكذب قيمته ! لأن الناس إذا علموا ان الكذب مشروع للمصلحة فلن يصدقوا ما يقال لهم ، وهذا يبطل الغرض من الكذب الباحث عن المصلحة .

إذن فالصلاح الذي عد ضماناً ضد الكذب هو من أسباب الكذب !

وإذا قيل إنهم ليسوا كل المحدثين يقولون بجواز الكذب في الحديث لخدمة

الدين بـل ان الأكثرين يرفضون ذلك كان الجواب : وكيف نعرف هؤلاء من هؤلاء ؟ وليس انكار هذا الرأي في الظاهر دليلاً على أن منكره ينكره حقاً ، إذ قد يكون إنكاره له من الكذب الديني الذي يرى جوازه او وجوبه . وهو لا بد أن يعلم أنه يجب عليه أن يخفي مذهبه في هذه القضية لأن إعلانه له يحمل الناس على أن يردوا روايته، وحينئذ يضيع عليه الغرض من الكذب ومن القول بجوازه !

وأما الركن الثاني من ركني التزكية وهو أن يكون الراوي حافظاً لايخطىء في حفظه ولا في تحديثه فهو أبعد الركنين عـن احتمالات الصحة . ولا يمكن العلم بأن انساناً ما لا يخطىء إلا بعد العلم بأنه معصوم – معصوم من أن ينسى إذا حفظ ومن أن يخطىء في سماعه إذا سمع ومن أن يقع عبث في أوراقه إذا كتب ولكن أي انسان يمكن أن يملك هذه الضمانات؟ أكثر الناس ينسون بل كل الناس، وكثيرون منهم يخطئون في السماع فينقلون ما يقال لهم ويكتبون بلا إتقان . وآخرون لايميزون بينما يكتبون وما يكتب لهم او عليهم ، فتدخل على كتبهم أشياء لا يعلمونها ولا يعرفون أن ذلك قد حدث . وكثير من المحدثين كانوا أميين او شبه أميين ،لا يجيدون القراءة ولا الكتابة ، وهذا يجعلهم لا يعرفون مايدخل على اوراقهم .

وليس اسوأ ولا اردأ في جميع معتقدات البشر من ان تؤمن برواية رجل يحدثك عن الله مفترضاً فيه انه لا ينسى ولا يخطىء ولا يخدع ، ان جميع المعتقدات لأقرب الى احتمالات الصدق من عقيدتك القائمة على هذا الافتراض !

والمحدثون في الغالب كانوا يعتمدون على ذاكرتهم لانهم لم يكونوا يكتبون ، اما لأنهم كانوا أميين او لأنهم كانوا يريدون المباهاة من بأنهم الحفاظ الذين يستوعبون علمهم في انفسهم ويتنقلون به ويعلمونه الآخرين من غير رجوع الى الكتب. وهذه منزلة كانت عظيمة في تقديرهم ! وكان النقل عن الكتب نقصاً خطيراً . والرواية بلا كتاب كانت عملية إغراء وعرض للذات فيها نوع من المغازلة والتبرج !

وكانوا يعلمون ان كتابة الحديث منهيّ عنها فكانوا يحترمون هذا النهي ،

ولديهم احاديث كثيرة شهيرة تنهى عن ذلك ، من هذه الأحاديث انهم رووا عن الرسول عليه السلام انه قال : « لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن . ومن كتب عني شيئاً فليمحه » . وهذه رواية صحيحة عندهم ، وهي مروية في صحيح مسلم. وروى ابو داود ان الرسول نهاهم ان يكتبوا كلامه . وتوجد روايات اخرى كثيرة سيمر بنا بعضها في صفحات آتية ! واصحاب الرسول الذين هم الطرف الأعلى في سلسلة الأسانيد لم يكونوا ينهون عن كتابة الحديث فحسب ، بل كانوا ينهون عن حفظه وروايته - كانوا ينهون عن مجرد التحديث ويعاقبون من يحدثون !

فالمرجع اذن في حفظ الأحاديث حين جمعها كان الذاكرة لا الكتابة . وقد تأخر تدوين الرواية كثيراً ،وكان الراوي يحدث بالحديث بعد وفاة الرسول وبعد وفاة من حدثه به بعشرات الأعوام . وهل مما يحدث ان يختزن الراوي في نفسه مئات الروايات وآلافها عشرين او ثلاثين او خمسين عاماً ثم يرويها كما هي لا يخرم منها شيئاً ؟ واذا كان من الممكن حدوث مثل هذه المعجزة فهل من الصواب والعقل او من الدين الثقة بها حتى تصبح وحياً منزلاً يترك من اجله العقل والحياة وعلوم الانسان جميعاً وتلزم البشرية كلها ان تؤمن به ما ظلت الشمس طالعة ؟ وقد كان حفاظ القرآن ينسونه وكان الرسول نفسه ينساه احياناً . وهذا ثابت في رواياتهم الصحيحة ، ولولا عنايتهم العظمى به لنسوا منه الكثير !

واذا حدث ان راوية جاء معجزة انسانية فاجتمعت له خصائص خارقة للعادة في قوة الحفظ فهل من المحقق أو المحتمل ان تجتمع هذه الخصائص لجميع الرواة الذين يتألف منهم الاسناد ، حتى لا يشك في نسيان أي واحد منهم ؟ ونسيان واحد في سند يتألف من خمسة أو ستة رواة ، يكفي لهدم السند كله ! إن رواية ينقلها لنا سبعة من الانبياء من بينهم أولو العزم على هذا النحو معتمدين على قوة الاستذكار فيهم لرواية خليقة بأن نشك فيها من جهة احتمال النسيان مثلاً ! وقد كان آدم ناسياً حين أكل من الشجرة كما ذكر القرآن ، وكذلك قد حكى أن موسى وغلامه قد نسيا حوتهما ، ونسي الرسول عليه السلام بعض آيات

القرآن حتى ذكره بها مذكر ، ونسي أيضاً في الصلاة وفي شؤون أخرى كثيرة ، وقال : « إنما انا بشر مثلكم أنسى » .

ماذا يحدث حينما يلقى خطاب عام على جمع كبير من الناس ؟ انه لا يوجد إنسان واحد مهما كان استذكاره يستطيع ان يحفظ الخطاب بكل معانيه وحروفه . واذا كان قد حفظ منه عشرة في المائة ، فماذا يبقى من هذه العشرة بعد شهر ؟ فإن كان قد بقي بعض الألفاظ والمعاني العامة للخطاب بعد الشهر ، فماذا يبقى بعد السنة وبعد العشر او الثلاثين او الاربعين سنة ؟ وقد كانوا يروون الأحاديث بعد أربعين أو خمسين عاماً ، وقد يروونها بعد أكثر من ذلك !

ثم أية فكرة سيخرج بها الحشد من الخطاب الذي استمعوا اليه ؟ انهم سوف يتناقضون في العبارات والمعاني التي سيعونها ، وسيحفظ فريق ما لا يحفظه الفريق الآخر ، ويفهم بعض الحاضرين ما لم يفهم الآخرون ، وسيكون الخلاف بين السامعين الحاضرين شديداً . ولا يمكن الخروج بفكرة صحيحة من روايات الشهود ، وسوف يكون التناقض اكثر كلما كثر عدد السامعين . كل هذا يحدث بعد سماع الخطاب مباشرة ، أما بعد مضي عام أو عشرة أعوام ، فإن رفض شهادة جميع الشهود في هذه القضية قد يهدينا الى الحقيقة اكثر مما يهدينا قبول شهادتهم ! ان الرجوع الى المنطق والقرائن والظروف أفضل لفهم الحقيقة من الرجوع الى الروايات التي يرويها جمع غفير في حشد عام !

والأحاديث التي يرويها المحدثون كانت تقال كما هو المفروض في مجتمعات عامة ، وقد تقال لفرد أو أفراد ، ثم يأخذ الأفراد يحدثون بها للمناسبات بعد مرور عشرات السنين احياناً ، معتمدين على حفظهم لا على كتبهم . فهل يمكن أن يطمئن قلب المؤمن الى هذه الأحاديث اذا كان يخشى ان يعبد الله بالكذب ؟ إن الرواة لم يستطيعوا أن ينقلوا لنا كلمات الاذان التي كانوا يسمعونها في اليوم الواحد عدة مرات بأسلوب اعلاني مثير ، فاختلفوا في ذلك اختلافاً لم يخلصوا منه حتى اليوم ، وكذلك اختلفوا في نقل الشعائر الدينية الكبرى العامة كالصلوات والحج وأعمال الغزو وغيرها !

بل لقد أرادوا أن يصفوا شيئاً يملأ أنفسهم بهجة وإكباراً وايماناً ومحبة فما استطاعوا . أرادوا أن يصفوا لنا هيئة الرسول – وجهه وشعره ، فنقلوا انه قد شاب ، ونقلوا انه لم يشب ، ونقلوا انه قد خضب شيبه بالحناء ، ونقلوا انه لم يخضب ! لقد نقلوا روايات متناقضة عن كل أوصاف جسمه . إنهم لم يقدروا ان يرووا لنا شيئاً من الأمور الصغرى أو الكبرى رواية موحدة !

ومن يقرأ كتب الحديث تتقاذفه الروايات المتناقضة التي تعد كلها صحيحة ، فلا يدري أي ذلك هو الصحيح . والذي يحاول ادراك الحقيقة واليقين من هذه الروايات هو كالذي يروم التمييز بين أنساب ومصادر قطرات المحيطات . وليس الخلاف بين الأديان المتباعدة – بين التوحيد والوثنية – بأشد من الخلاف بين هذه الروايات ! والذين يدرسون هذه المتناقضات من الأحاديث لا بد ان ينتهوا إحدى نهايتين : اما ان ييأسوا منها لتناقضها وفقد الوحدة الفكرية بين آحادها ولما فيها من اعراض السخف والطفولة ، فيطرحوها كلها جانباً ، واما ان يتبلدوا ويفقدوا كل حصانة فكرية لطول ما يعتادون الايمان بها وبتناقضها وضعفها ، وحينئذ يستطيعون ان يؤمنوا ، لأنهم لا يستطيعون أن يفهموا . فالشرط الأول للايمان بالحديث فقد الحصانة الفكرية ! والفكر الذي يرتاض على الايمان بالمحالات يهبط من عليائه. وليس الجنون سوى فساد وظيفي في العقل !

والرواية ليست مصدراً من مصادر المعرفة عند المتحضرين. والذين يشيدون معارفهم من الروايات المحفوظة لن يشاركوا في بناء الحضارة . والأمم في بداوتها وتأخرها ، لا تجد غير الرواية تصوغ منها كل تاريخها ومعرفتها وايمانها وأشواقها الفكرية وتحولها الى اساطير ملتهبة تستهلك بها حماسها وشوقها الضائع. وسنبقى دائماً غير متحضرين ما دام تفكيرنا يسجد باحترام عظيم للرواية ! واذا كانت افكارنا ووجوهنا وحياتنا ساجدة فماذا يمكن ان ينهض فينا ليصنع لنا وجوداً يرتفع فوق المحاريب ؟ والسجود الفكري هو المبرر لكل انواع العبوديات الاخرى !

والحضارات العظيمة لم تنهض كلها الا على اطلال الروايات التي كانت دائماً

قيوداً على العقول واحتمالات الابداع . لقد كان الانسان يتمرد على فترات فيقذف بتلك القيود ويمضي في الطريق ، وكان هذا معنى الحضارة ! فالحضارة هي مجموع عمليات التمرد على النقل !

ولسنا وحدنا الذين ضللتهم الاحاديث المنسوبة الى الانبياء ! فأهل الاديان الاخرى الكبيرة والصغيرة كانوا كذلك يحدثون عن انبيائهم وفضلائهم الروحانيين، ويزعمون كما نزعم انهم رأوا وسمعوا وحفظوا . ولكن هل كان لحفظهم ونقلهم ومشاهدتهم قيمة ؟ واذا كانوا لم يدركوا العصمة في احاديثهم ومشاهداتهم فكيف ادركناها نحن ، وهل كتبت لنا وحدنا ؟ لقد قالوا انهم علموا ورأوا كل معجزات اولئك الانبياء والروحانيين وأبصرا بهم وهم يحكمون القوانين الكونية ويمزقونها كيف ارادوا ، وانهم حضروا المسيح مصلوبا . فهل لهـذه الروايات القائمة على الرؤية قيمة علمية ؟ اننا نجرب الخطأ القديم الذي جربه من كانوا قبلنا من غير ان نبدل في الوسائل والخطط !

ان الكثيرين من المحدثين كانوا اطفالا الى مدى بعيد ، وكانوا يغلقون انفسهم دون احتمالات الحياة ولا يريدون ان يروا إلا ما يشتهون. ولم يكونوا يستطيعون الصعود الى القمم ليشرفوا على مناورات الناس وألاعيبهم وزيفهم ، وهم لهـذا يرون الاشياء دائماً من وجه واحد، ولا مانع عندهم حينئذ ان يرووا عمن لم يروا وان يتلقفوا المعرفة والرواية من افواه الاطفال الطاهرة ومن مجالس العامة المؤمنة التي لا تكذب ، وان يصوغوا من كل ذلك احاديث يرويهـا البخاري ومسلم ويصلوا نسبها بالرسول عن جبريل عن الله سبحانه وتعالى ! وأي إثم حينئذ في ان يقول الرجل الصالح سمعت فلاناً او حدثني فلان او قال الرسول من غير ان يسمع او يلقى ما دام يعتقد ذلك صدقاً ؟ وأصدقاء الاشاعـة موجودون في كل زمان ومكان ، وأكثر الاكاذيب التي تملأ الدنيا بقوتها وضجيجها هي من هذه الاشاعات . وفي البشر شيء كأنه الغريزة يجعلهم يحبون الاشاعة . والمعنى الذي يؤديه سماع الاشاعة والترويج لها هو المعنى الذي يؤديه سماع الموسيقى والعزف بها ، فالاشاعة فن شعبي يستهلك الطاقات النفسية كما تستهلكها سائر الفنون العليا .

والناس يبتهجون بالاشاعات لانها نوع من الاجابة عن التساؤل المخزون في انفسهم والذي يبحث دائماً عن الانطلاق . والذين يملكون حماساً نفسياً متفوقاً هم اكثر الناس إصغاء الى الاشاعة وترحيباً بها ! وقيمة الاشاعة محسوبة بقيمة موضوعها وقيمة من تنسب اليه. ما اكثر ما يقتات الضعفاء والمتألمون بالاشاعات، انها غذاء لاحتياجاتهم المحرومة ونوع من العلاج لأحقادهم . وهل تحتمل الحياة بدونها ؟

وجامعو الأحاديث في تلك الازمان كانوا يؤلفون كتبهم ثم يدعونها بعد وفاتهم مخطوطة يتلقفها الناس بعد رحيلهم من ورثتهم او من الوراقين او ممن يعرضونها مسلمة لا جدال ولا ريب فيها ! ولم تكن هناك نسخ رسمية تعتمدها الحكومات او تعتمدها هيئات علمية محترمة او معروفة ، ولم يكن يوجد خبراء بالخطوط ينفون الزائف عن الصحيح . وإنما كان هناك ايمان فضفاض يتسع لكل ما في الحياة من اكاذيب وخرافات ولكل ما في حياة البشر من مكر وسوء وضعف ! ولو ان هيئة قانونية او قضائية اعتمدت اليوم على وثيقة شراء او بيع وجدت مع باعة الورق بدون اجراءات رسمية وفنية ، لكانت هيئة مجانين او لصوص !

*

ومع ذلك فان للمحدثين علماً آخر، فهم يروون احاديث في النهي عن الأحاديث.

قد سبق ان مسلماً روى في صحيحه ان الرسول قال « لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن . ومن كتب عني سوى القرآن فليمحه ». وروى ابو داود ان زيد ابن ثابت دخل على معاوية فسأله معاوية عن حديث فأخبره عنه فأمر معاوية بكتابته فقال زيد : « امرنا رسول الله ان لا نكتب شيئاً من حديثه » فمحاه ، وروى الترمذي عن ابي سعيد قال استأذنا رسول الله في الكتابة – أي كتابة الحديث – فلم يأذن لنا . وفي كتب الحديث روايات كثيرة جداً في الزجر عن التحديث . وقد جاء في هذه الروايات ان هلاك المسلمين سيكون بالحديث، وجاء في رواية اخرى ان كثرة الحديث من علامات الساعة، ذكرهما في مجمع الزوائد.

وقد ذكروا ان كبار الصحابة – ومنهم الخلفاء الاربعة – كانوا يتحاشون الرواية عن الرسول وينكرونها وينهون عنها . ولهذا نجـد أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً اقل الناس حديثاً ونجد الذين هم اقل شأناً اكثر حديثاً . وجاء في تذكرة الحفاظ للذهبي ان ابا بكر الصديق جمع الناس كلهم بعد وفاة الرسول عليه السلام وقال لهم انكم تحدثون عن الرسول احاديث تختلفون فيها وسيكون الناس بعدكم أشد اختلافاً، فلا تحدثوا عن الرسول شيئاً، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه ، وفي هذا الكتاب ايضاً قالت عائشة جمع ابي الأحاديث عن رسول الله وكانت خمسمائة حديث فبات ليله يتقلب كثيراً ولم ينم ، قالت فغمني ذلك فقلت له اتتقلب لشكوى او لشيء بلغك؟ فلما اصبح قال يا بنية هاتي الأحاديث التي عندك فجئته بها فدعا بنار فأحرقها فقلت له لماذا احرقتها ؟ قال خشيت ان اموت وهي عندي فيكون فيها احاديث عن رجل كنت حسبته اميناً ووثقت به ولم يكن كما حدثني فأكون قد نقلت ذاك ! والذهبي الذي ذكر هذه الاخبار هو من الحفاظ النقاد الكبار في علم الحديث ، فلما ينقله قيمـة لا يمكن ان تنكر .

وللخليفة عمر بن الخطاب موقف مشابه لموقف الخليفة الصديق او اشد .

قالوا كثرت الاحاديث في زمن عمر ، فطلب من الناس ان يأتوه بها فلما اتوه بها أمر بتحريقها وقال : أمثناة كمثناة اهل الكتاب ؟ وقال ابو هريرة لم نستطع ان نقول قال رسول الله الا بعد موت عمر . وسئل ابو هريرة : أكنت تحـدث باحاديثك هذه في زمن عمر ؟ قال لو حدثت بها لشج رأسي ! وقال عمر لأبي هريرة لتتركن الحديث عن رسول الله او لألحقنك بأرض دوس – يقصد نفيه الى بلاده ، وقال لكعب الاحبار لتتركن الحـديث عن الأوائل او لألحقنك بأرض القردة والخنازير ! وكان عمر ينهى الوفود التي يبعث بها الى البـلاد عن الحديث ويقول لهم اقلوا الحديث وأنا شريككم . وعن قرظة بن كعب قال لما سيرنا عمر ابن الخطاب الى العراق مشى معنا وقال أتدرون لم شيعتكم ؟ قالوا نعم مكرمـة لنا ، قال ومع ذلك انكم تأتون قوماً لهم دوي بالقرآن فلا تصدوهم بالأحاديث

فتشغلوهم ، جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله وأنا شريككم، فلما قدم قرظة بن كعب قالوا له حدثنا فقال نهانا عمر عن الحديث. وقال الحافظ ابن حجر صاحب فتح الباري في شرح صحيح البخاري : ان هذه رواية ثابتة وان رأي عمر كان هو هذا . وقد حبس عمر ثلاثة من كبار الصحابة على الحديث لأنه نهاهم فلم ينتهوا وهم ابن مسعود وأبو مسعود وأبو الدرداء ، قال ابن حجر : وهذا ثابت عن عمر . وعن ابي سعيد الخدري قال كنا قعوداً نكتب عن رسول الله ما نسمع منه فخرج علينا فقال ما هذا الذي تكتبون ؟ فقلنا ما نسمع منك ، فقال أكتاب مع كتاب الله ؟ امحضوا كتاب الله واخلصوه، قال فجمعنا ما كتبناه في صعيد واحد وأحرقناه بالنار، وفي آخر الحديث حدثوا عني ولا حرج وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ، رواه الامام احمد .

وقد فطن الرواة الى التناقض بين هذه الروايات وبين ما يفعلون فراحوا يحتالون للتوفيق بينها ، وقد زعموا أن النهي عن كتابة الحديث انما كان في زمن نزول الوحي خوفاً من التباس القرآن بالحديث ، فليس النهي عن نفس الحديث بل عن كتابته !

وهذا التخريج الذي ذهبوا اليه يدل على انهم لا يرون القرآن معجزاً وان إعجازه مفهوم ، وإلا فانه اذا كان كذلك فلن يختلط بغيره او يعجز عن تمييز هذا من هذا . وما رأيهم لو خلطت الأحاديث الآن بالقرآن او بغير القرآن من الكلام وقدم للناس على انه القرآن ولا شيء معه ؟ ان قالوا ان هذا سوف يفهم من هذا فلا احتمال اذن لخوف اللبس ، وان قالوا ان ذلك لن يفهم وانه سوف يظن غير القرآن قرآناً كان معنى هذا اتهام القرآن بأنه كلام عادي وانه غير معجز بذاته !

ومع هذا فانهم لو كتبوا الحديث وكتبوا عليه انه حديث ، وكتبوا القرآن وكتبوا عليه انه قرآن لكان هذا أقوى وأفضل طريقة للتمييز بينها ، فلماذا لم يفعلوا ذلك ؟ ان الاسلوب الذي حدث يجعل احتمالات اللبس أقوى وأقرب ان كان مبدأ اللبس محتملاً ، فكأنهم إذن قد فرطوا في أخذ الحيطة لحماية القرآن

من الاختلاط بغيره .

ان القرآن الآن مكتوب والحديث مكتوب فهل حدث ما خافوه من احتمال الالتباس ؟ كان يجب أن يكتبا في زمن الرسول كما هما الآن مكتوبان وان يوضع كل منهما وحده كما هما اليوم موضوعان ! ثم ان من المعروف أن القرآن كان في عهد الرسول يحفظ حفظاً والأقلون هم الذين كانوا يكتبونـه ، فاذا كان الحديث يحفظ أيضاً فما الذي يمنع الالتباس حينئذ على هذا الزعم ؟ وقد اضطروا في أحد عهودهم الى جمع القرآن مكتوباً حينما خشوا ضياعه او ضياع شيء منه لما كثر القتلى من حفاظه .

ومهما فرحوا بهذا التأويل فانه لن يكون صحيحاً لأن الكثير من الروايات السابقة انما قيلت بعد انقطاع الوحي وبعد وفـاة الرسول عليه السلام حيث لا خوف من اللبس كما في حديث زيد ومعاوية وكمـا في مناهي أبي بكر وعمر واحراقهما للاحاديث ، وكذلك يرد هذا التأويل تعليل النهي فقد علـل النهي بأشياء اخرى غير خوف الالتباس ! ولو كان الغرض هو فصل هذا عن هـذا لـكان من السهل أن يقول الرسول ويقول الذين نهوا عن الحديث اننا لا نقصد إلا حماية القرآن من أن يضيع في غيره او يضيع غيره فيه ، فاذا تحققت هذه الحماية فحدثوا ، او اكتبوا أحاديثكم كيف شئتم . وحينئذ لا يقع لبس لا في معاني هذه الأخبار ولا في فصل الكتاب عن السنة .

وأنا أزعم هنا أنه لو كان الحديث رسالة من الله الى البشر تحمـل التحليل والتحريم والإلزام القانوني والأخلاقي، لكان من المفروض كتابته ولكان له كتاب يلزمون الرسول ويكتبون عنه كل حديث ينطق به كما كان للقرآن كتاب يسمون كتاب الوحي ، ولا يمكن أن يصح في أي مذهب من مذاهب الاحتمالات أن يكون الحديث ديناً مثل القرآن يشرع ويأمر وينهى ويلزم ثم ينهى عن كتابته ويحرق ما كتب منه . انه لا بد من أحد أمرين : إما أن تكون كتابته مفروضة او ان يكون شيئاً خارجاً على الدين . وهل يصح أن يأمر الرسول وأصحابـه بتحريق أوامر الله ونواهيه ؟

هذه كلها دلالات على ان وضع الحديث في المكان الذي وضعه فيه المحدثون خروج على الدين نفسه !

وقد كان الرسول يكتب كتبه ويبعث بها الى الملوك وغيرهم ممن يدعوهم الى الاسلام ، وينهي اليهم أوامره مكتوبة ، ولم يخش ان تظن كتبه قرآناً وأن تتلى في المحاريب . فهذا الاحتمال اذن لم يكن في القصد .

واذا كان ما ذكره هؤلاء من خوف الالتباس صحيحاً ، فما الذي يدريهم حينئذ بأن هذا المحذور لم يقع ، اذ لعله وقع ، وأنهم هم وسواهم لم يشعروابوقوعه وان الخدعة قد انطلت على الجميع ، لأنه لا ضمان من حيث طبيعة القرآن ، ولا من حيث الاحتياطات التي اتخذت لإقرار هذا الضمان على حسب ما ذكروا. وقد كان يوجد كلام كثير في زمان نزول الوحي،وكان يكتب كما كان الوحي يكتب، ولا فرق بين مكتوب ومكتوب في رأي هؤلاء . فعليهم اذن ان يبحثوا عن اليقين لعقائدهم!

ومن المحاكاة التي لا يمكن ان توصف بالذكاء ولا بعمق الدين ، ذلك الهوس الاسنادي الذي جعل الكثيرين من عبيد الرواية يحاولون ان يمجدوا أنفسهم بوصلها بأصحاب كتب الحديث المشهورة ، فيروي احد هؤلاء عن شيخه ، وشيخه يروي عن شيخه ، وهكذا الى ان يتصل مثلاً بالبخاري ، والبخاري يروي عن آخر ، الى ان يقول الراوي سمعت أو رأيت الرسول ، ويظنون انهم بهذا قد أخذوا عن الرسول الذي أخذ عن جبريل الذي أخذ عن الله.وهذا نوع من التقليد الذي قد تطير له ألباب الأطفال فرحاً ، والطفل يرسل بالونه المملوء بالهواء ، فيرتفع فوق رأسه ، فينفجر بالسرور ويظن أن مجده قد صعد ، وانه قد اتصل بالشمس وبالكائنات العلوية .

*

لما عرض الرسول عليه السلام دعوته على قومه العرب ، رفضوا الدعوة ، وقالوا في اسباب رفضها انها أساطير الأولين، وهم يعنون ما في القرآن من قصص وتعاليم . وهذه الحجة لا بد أن ننكرها نحن لأننا مسلمون ، ولكنها مع هذا

حجة تثير فينا التأمل وأحياناً الإعجاب !

يرفض العرب القرآن قائلين انه اساطير الأولين ! اذن فالعرب لا يؤمنون بالأساطير القديمة المحفوظة ، بل يفاخرون برفضها. ومعلوم ان الشعوب المتأخرة تركع كلها بخشوع وغيبوبة أمام الاساطير الاولى وتمتصها بنهم وايمان ، وهي لدى هذه الشعوب اكبر من ان تناقش او يشك فيها . ولا يمكن ان يرتفع فوق المأثورات الاولى الا من لهم شمم فكري اصيل . لقد كان عند العرب هذا الشمم الذي أبى عليهم الانحناء للاساطير . ان افكارهم لم تروض على السجود للنصوص والقبور ! كانوا مشركين ، ولكن بالهوى والفن والتسامح لا بالفكر ، وكانوا مع هذا يؤمنون بحرية الفكر والدين لكل المخالفين. كانت لهم اصنام وآلهة عديدة، ولكنهم لا يضيقون بمن يعبد إلهاً واحداً ولا بمن ينكرون كل الأصنام والآلهة ! وكانوا يرون ان مما ينافي اخلاق القوة والرجولة والفروسية والذكاء والكرم ان يكرهوا انساناً او يطاردوه او يحاربوه لأنه يدين بدين غير دينهم ، انهم السخفاء والضعفاء والمجانين الذين يفعلون ذلك – هم الذين يجهلون حقوق الانسانية في استقلال معانيها وتعددها ، ويجهلون طبيعة الظروف التي تكون وتكيف عقائد البشر ، كما تكون وتكيف حياتهم واعمالهم – الذين يفعلون ذلك هم الذين لا يؤمنون بحرية الانسان ولا بحرية انفسهم ولا بأن البشر متعددون بخصائصهم وشخصياتهم وظروفهم وعقولهم وشهواتهم . وارادتنا الحرية لأنفسنا ، تعني إرادتنا الحرية للآخرين ! وإلا كيف تكون أنت أنت ، ولا أكون أنا أنا ؟ ان فرض حريتك على حريتي يساوي فرض ذاتك على ذاتي .

ومن الدلائل على عمق ايمانهم بالحرية الفكرية والدينية والإنسانية معايشتهم لليهود والمسيحيين والحنفاء المؤمنين بإله واحد على ملة ابراهيم أبي الأنبياء والموحدين ، لقد كانوا يعايشون هؤلاء وغيرهم من أهل المذاهب الاخرى وغيرهم ممن لا يؤمنون بأي دين وينكرون كل الآلهة والأديان معايشة ليس فيها أية بغضاء أو مضايقة ! كانوا يحالفونهم ويصادقونهم ويشاركونهم ويدخلون الى معابدهم ويصافحون أربابهم ويدخلونهم معهم معابدهم ويستمعون الى كتبهم

المقدسة ، بل ويقرأونها ، ومنهم من يدخل في دينهم ، ويفضلون دين اهل الكتاب على دين العرب . كان أهل الكتاب يهجون دين العرب الوثني ويبشرون بدينهم بينهم ، فيسمع العرب ولا ينكرون . وقد قام في العرب كثير من الحنفاء الموحدين الذين نبذوا الأوثان ودعوا الى نبذها وبشروا بعبادة الله الواحد ، فاتسعوا لهم ولم يضيقوا بهم ، بل لقد سالموهم وعاملوهم بتقدير واحترام ، ولم يحدث ان احداً من هؤلاء أوذي لدينه . كان اختلاف الدين في تقديرهم مثل اختلاف الأجسام والخصائص! كل يرى بعينه ويسمع باذنه ، إذن كل يتدين بدينه ويعتقد عقيدته .

والرسول وأصحابه عاشوا بينهم زمناً طويلاً، وكان الكثيرون منهم يدفعون عن المسلمين كل عدوان ، ومنهم من يعلن حمايته لهم وينتصر لحريتهم الدينية الكاملة انتصاراً مطلقاً . انهم في تسامحهم ووثنيتهم كانوا يشبهون اليابانيين اليوم، لقد كان التدين عندهم نوعاً من الشعر والجمال والفروسية ، وليس نوعاً من الآلهة الحاقدة المتقاتلة .

اما مقاومتهم أخيراً للمسلمين ومضايقتهم لهم حتى اضطروهم الى ان يهاجروا ويتركوا اوطانهم فلا يرجع ذلك الى تعصبهم الديني او الفكري بل يرجع الى طبيعة الوضع الجديد والى تخوفهم من هؤلاء المؤمنين على مصالحهم وتقاليدهم وأخلاقهم ونظمهم ومكانتهم وشرفهم المجروح ، انه نوع من النزاع السياسي او من التعصب ضد التعصب ، وقد يكون التنافس هو السبب ، فقد خاف زعماء قريش على زعامتهم من المنافسين الجدد الخطرين ، لقد خافوا هؤلاء المتدينين ولم يخافوا الدين نفسه ! ولعلهم أرادوا الدفاع عن حياتهم الحرة المتسامحة — لعلهم اعتقدوا ان انتصار الدين الجديد — أي انتصار اهل الدين الجديد قد يسلبهم الحرية والتسامح والبهجة النفسية ويفرض عليهم حياة عنيفة متعصبة مستبدة كئيبة ، فأرادوا ان يدافعوا لا ان يهاجموا !

والمتدينون دائماً ينشرون التعصب والاكتئاب ويحاربون السرور والحرية !

كان العرب يحيون لأربعة امور : للشعر والخمر والنساء والحياة التي لم تقيدها

التعاليم ، ويحيون خامساً للسرور . والذين يعيشون لهـــذه الأوثان الخمسة لن يكونوا الا متسامحين وأصدقاء للناس ولكل ما في الحيـــاة من فكر وجمال ، وهؤلاء لن يحاولوا ان يفرضوا عبودية فكرية او عاطفية على الآخرين او يقبلوا ان يفرضها عليهم الآخرون ، ان الذين يكرهـــون عقائد الآخرين وأفكارهم وسلوكهم هم المتألمون المحرومون المكتئبون ، والسعداء المطمئنون الواثقون لا يكرهون شيئاً ولا يحقدون على شيء . والحرمان – الحرمان المادي والنفسي هو الذي يخلق التعصب والبغضاء والقسوة والتدين الفظ ! والذين يكرهون غيرهم باسم الفضيلة او الدين لا يعرفون لماذا يفعلون ! والحقيقـــة انهم يكرهون لأنهم معذبون ومحرومون – محرومون من شيء ما !

فالعرب كانوا يؤمنون بحق الرغبة في الانطلاق وبتعدد ظروف الحيـــاة وبالمبررات الانسانية التي تجعل الناس يختلفون في افكارهم وعقائدهم وسلوكهم بدون ان يكونوا اشراراً او مخطئين ، ويؤمنون بتعدد الشخصيات واستقلالها كما يؤمنون بتعدد الاشخاص ، ويؤمنون بالحب - الحب للوجود كله وللإنسان الذي يخالف والذي يوافق وبالحب للخرافة ايضاً !

هذي هي المزية الكبرى لمن يحيون حياة الشعر !

انني افزع اشد الفزع حينما اتصور مجتمعاً كل افراده من اللاهوتيين من غـــير شعراء ومن غير قوم من المتسامحين الاحرار الذين يدعـــون بالفساق والضالين والمغضوب عليهم ! ان حياة مثل هؤلاء سوف تكون كآبة وضيقاً وتحريماً وبغضاً وعجزاً وتعصباً كالحاً . ولولا حياة الفن والشعر المتحللة من كآبة اللاهوتيين وضيقهم لما امكن ان يتحضر الانسان .

ان المتدينين قوم خائفون من الحياة والناس ومن انفسهم ، وهم لهذا لا بد ان يكونوا اعداء وغير اخلاقيين ، وفي الغالب هم عصبيون ومرضى متبلدون ومنحرفون . وليس التدين هو الذي يصنع ذلك ولكنه يدل على وجود سببه .

توجد ملامح ظاهرة من الشبه بين حياة العرب في الجاهلية وحياة الإغريق في عصر الشعراء الذي انبثق عنه عصر الفلاسفة ، كانوا يحيون في صور من الحيـــاة

تشبه صور تلك الحياة التي ألهمت هوميروس وغيره من شعراء اليونان تلك الملاحم الخرافية الخالدة ! ان حب الخرافة بلا تعصب نوع من الجمال والحرية والكينونة المقبـــلة .

ومن الأسباب التى جعلت العرب متسامحين انهم لم يكن لديهم علم لاهوتي ، فلم يقعوا في قبضة اللاهوتيين المذلة ، فلم تذل أفـــكارهم ولم يطبعوا على التسليم او التعصب الذي يفرض على صاحبه أن يخلق الناس على مقاسه الفكري والوجداني والأخلاقي وإلا أبغضهم وحاربهم . ولهذا فقد ارتفعت هاماتهم أمام صولة الأساطير التي تطامنت لها أعلى الهامات ، ولم ينكروا ديناً او مذهباً يؤمن به الآخرون لأنهم من الناحية الأولى لم يتعودوا الايمان بالتلقين ، ولأنهم من الناحية الثانية لم يحددوا بحدود اعتقادية تعجزهم عن استيعاب العقائد الاخرى . واللاهوتيون هم الذين يفرضون على البشر النكبتين : يذلون افكارهم بالايمان ويضعون لهم حدوداً تضيق بالانسان ، فيجيئون عبيداً في عقولهم وسيئين في أخلاقهم ! واذن فمـــن الحظوظ السعيدة أن حرم العرب من كابوس اللاهوتية ومن شرورها الكثيرة ، وان تركوا يحيون حياة شعرية نمت فيها أفكارهم وأخـــلاقهم وعواطفهم نمواً حراً ، فانطلقت منهم في وقت من الأوقات طاقة انسانية طبعت التاريخ طبعة جديدة ! وقد فسرت هذه التربية نفسها في صدر الاسلام ، فالذين تغذوا بأشواك الجاهلية كانوا أبطالاً في الاسلام اكثر من الذين تغذوا بأزاهـــير الاسلام فقط ! والذين وهبوا الاسلام انتصاراته الكبرى هم الذين ولدوا وعاشوا في الجاهلية !

ماذا لو ان العرب كانوا في غير الجاهلية – لو كانوا يحيون حياة لاهوتية كهذه الحيـــاة التي نلقنها ! أكان من الممكن حينئذ أن يؤمنوا بالدعوة الجديدة ، ولو آمنوا بها فهل كان من الممكن أن يمضوا بهـــا وأن ينصروها او يعرضوها عرضاً قوياً تهتز له الدنيا القديمة بأسرها ؟ ان روح التسامح والحرية التي انتقلت اليهم مع الجاهلية هي التي جعلتهم يستطيعون الايمان بالدين الجديد . ومن الصعب جداً أن يخرج أهـــل دين من دينهم ليؤمنوا بدين آخر جديد ، لأن الديانة القائمة على اللاهوتية تكون متعصبة ومصممة ومانعة من التفكير والاحترام للآراء الاخرى

وهذا يجعل أهلها غير قابلين للخروج منهـا بسهولة . الوثنيون يتغيرون أسرع وأيسر مما يتغير اللاهوتيون والمؤمنون بالأديان القوية الكبيرة ! واذا تغير أهـل الأديان فمعنى هذا أنهم بدأوا يفقدون احترامهم لدينهم !

يرى بعض الناس ان مجرد نزول القرآن وايمان العرب به هو الذي صنع منهم أُمة فاتحة قوية منطلقة متماسكة ! ولكن اذا كان هذا صحيحاً فلمـاذا لا تخلق المصاحف، وهي كثيرة ومطبوعة طبعات أنيقة، أُمة فاعـلة ما فعل العرب في انطلاقتهم الاولى الكبيرة ؟

أنا شديد الاعجاب بأهل الجاهلية ، وقد كان شاعر قبلي معجباً بهم أكثر من إعجابي حينما قال وهو يمدح قوماً ويصف أخلاقهم القوية :

في الجاهلية إلا أن أنفسهم   من طيبهن به في الأشهر الحرم

فالجاهلية تصنع إنسانية غير ملجومة ، واللجام لم تبتكره احتياجات الحياة بل الخوف منها . وكان المراد من اللجام ان يؤدي عملية إذلال وإضعاف خشية المقاومة او الهرب . واللجم لا تهب حامليها قوة او مجداً وإنما تهبهم سكينة وطاعة وورعاً ، وقمم الحياة لا تبلغ بالسكينة والوقار والطاعة ولكن بتسلق المرتفعات دون الاصغاء الى وعظ او تحذير ، ولهذا فان الحضارات العظيمة جميعاً ليست إلا خلق الجاهليات ، وأقوى هذه الجاهليـات الوثنية الغربية الحديثة ، وقبلها في الزمان الوثنية الاغريقية !

واعظم مزايا الجاهلية إعفاؤها الفكر والارادة من شريعة التحريم وتركها إياهما يتسلقان جميع المرتفعـات ، ويقتاتان بكل انواع الألم واللذات الخطرة . فالجاهلية تؤمن بحرية الحيـاة والتفكير والايمان والكفر ، وهـذه فضيلتها العظمى ، وتؤمن فوق ذلك بحرية الخطيئة ! أما اللاهوتية فهي تحريم ، كل ما تفعله اللاهوتية ان تحرم . والتحريم في جميع صوره ليس إلا مقاومة للحياة ! ان حياة الجاهلية تتعدد وتتسع وتبتهج بقدرما تضيق وتتوحد وتكتئب حياة اللاهوتية. والعرب الذين نبتوا على جوانب هذه الحرية لن يلعنوا حرية الآخرين ، ولن تعنو افكارهم ولا جباههم للصلاة في المعابد الشامخـة المشيدة من القيود ومن عضلات

العبيد ! واذا ابوا احترام الاسطورة فلأنهـا قد أصبحت تاريخاً ميتاً ، وحياتهم الحرة المتجددة لن تدخل في تصميمها شيئاً قد مات وفقد اللذة وحب النساء والخمر والشعر والاحساس العميق بالحياة !

*

لقد ظلم العرب ظلماً كبيراً ، والتعصب الديني هو أحـد أسباب هذا الظلم ، وكذلك فساد رأي الذين نصبوا أنفسهم حكاماً على تاريخ العرب ، وقد يكون للتعصب العنصري دخل في هذا الظلم ، فان هؤلاء المؤرخين والمفسرين — وكان اكثرهم من غير العرب وكانوا يخوضون معركة تنافسية عرقية ضدهم — فان هؤلاء المؤرخـين والمفسرين كانوا يعدون صفات القوة والانطلاق التي يحيا بها العرب نقائص وآثاماً لأنهم هم من السلبيين الذين يفضلون السجود والضعف والهرب . وما خلفوا من شعر ومحاورات يدل على ما بلغوا من إباء عقلي وخلقي وعاطفي ومن حرية في التفكير والقول والتصرف ، وكذلك من حرية في الحب ، وحرية الحب تشبه دائماً أن تكون هي المادة الخام التي تصنع منها كل الحريات .

ان اعظم ما نعرفه اليوم من فضائل العرب في الجـاهلية هو انهم لم يكونوا يؤمنون بعقيدة او بفكر او بنص ايمانـاً مطلقاً — انهم لم يكونوا يقدسون شيئاً تقديساً غيبياً — ليست لهم نصوص ولا مقدسات ولا اوثان عقائـدية ! وهذه الحرية الاعتقادية والنفسية والفكرية هي التي خلقت من العرب أُمة أضاءت في التاريخ ولكن كما يضيء الكوكب المتهاوي في الظلام — بالسرعة التي أضاء بهـا انطفأ ، لأنهم لم يلبثوا ان جردتهم اللاهوتية من خصائصهم القوية وان حولتهم الى رماد . هذا ما يبدو ، ولكن قد يكون الصحيح غير ما يبدو ، وان اللاهوتية لم تكن مسؤولة ، بل انها نتيجة لا سبب .

*

والغلطة الكبرى التي شاد عليها المحدثون اكثر اخطائهم هي اعتقادهم بأن الرسول كان إلهاً ، أقواله وأفعاله أقوال وأفعال إله ، وليس بشراً يفعل بقوة البشر وبحوافزهم واحتياجاتهم وضعفهم — لقد ألهوا معنـاه دون اسمه وذاته ،

ورأوا فيه - وإن لم يفطنوا مثل رأي المسيحيين في المسيح ، ولهذا فإن كل مايقوله ويفعله ويسكت عليه وحي ، له جميع خصائص الوحي والزامه وقوته وقداسته ، ومن هنا أمعن الرواة في الجمع والنقل حتى انتهوا الى ان حملوا على كاهل التاريخ أثقل حمل حمله البشر !

لقد كان الرسول انساناً له تفكير الانسان ورغبته وحبه وبغضه وألمه وكل خصائصه . وحينما اراد القرآن ان يصفه للمؤمنين امره ان يقول : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى اليّ » . وهذا لأنه كان يخشى ان يحسب إلهاً في قواه وتصرفاته كما حسبه المحدثون كذلك. وقدكان بعض المؤمنين يرونه أحياناً كذلك فيذهبون يتقبلون ما يقول وما يصنع ، كما يتقبلون الوحي فيردهم عن رأيهم ويقول لهم : أنا بشر مثلكم .

ويروي الرواة قصة لها دلالة في هذا الموضوع .

قالوا ان الرسول مر بقوم يلقحون نخيلهم فقال لهم ان ما تفعلون لا يفيد شيئاً ، فتركوه ، ففسد الثمر فأخبروه ، فقال اتركوا قولي واعملوا ما كنتم تعملون ، فأنتم أعلم بأمور دنياكم ، ولا تأخذوا عني إلا ما حدثتكم به عن الله ! وقد تصرف ذات مرة تصرفاً فسألوه ، قالوا هل ما فعلته وحي أم رأي ؟ فقال انه رأي ، فقالوا له ان الرأي غير هذا . فنزل عند رأيهم !

والمسألة تعرض على النحو التالي : الرسول إما أن يكون إلهاً أو بشراً، واذ انه بشر ، فمعانيه إما أن تكون معاني إله او معاني انسان . الأول لا يمكن القول به ، وإلا لكان إلهاً في صورة انسان ، والإله في الصورة الإنسانية ليس أقل من الإله في الصورة الإلهية . واذن لا بد من القول بأنه بشر في معان بشرية . واذا كان كذلك ، فكيف تعد تصرفاته وأقواله وأحاسيسه ديناً مفروضاً ؟ هذا يساوي الزعم انه إله !

لا يبقى هنا من الاحتمالات الا القول بأنه انسان يوحى اليه ، ثم يتوسعون في معنى الايحاء فيرون ان جميع افعاله واقواله ومشاعره وأفكاره وآلامه والتعبير عنها ، حتى الآهات والبكاء والضحك والحزن والاكتئاب صادرة عن وحي -

أي انه حينما يرى شيئاً فيشعر بالارتياح او بالاشمئزاز فيذم او يمدح ، وحينمايقدم له طعام فيأكل منه أو يعافه ، وحينما يحب لباساً فيلبسه ، أو يرى انساناً فيحبه او يكرهه ، او يتقدم اليه خصمان فيحكم بينهما بما يراه العـــدل ، او يسمع عن الأوائل فيحدث بما سمع – فلا بد أن يكون ذلك كله وحياً ملزماً للبشرية في جميع عصورها !

وهنا اما ان يكون ما قاله وما فعله بشعور ذاتي منه او بلا شعور ، فإن كان بلا شعور، فقد هبطوا به عن منازل الاحياء الشاعرين المنفعلين ، وان كانبشعور فهذا الشعور لا بد أيضاً ان يكون وحياً ليكون موافقاً للوحي الآمر بالفعـــل وبالقول ، لأنه لو كان شعوراً ذاتياً مستقلاً ، لأمكن ان يخالف الوحي النازل ، وحينئذ يكون الرسول قائلاً وفاعلاً ما يخالف شعوره النفسي واتجاهه الخاص !

وهل يتصور المحدثون صدق هذا الاحتمال ؟

وليس في طاقة الممكنات ان تتسع للرأي القائل بأن جميع هذه التصرفات انما صدرت عن وحي ، ولو كان ذلك كذلك لكان الوحي أرخص شيء في هذه الحياة ، ولكان النزول الى السوق أصعب من نزول الملائكة بالرسالات الى اهل الأرض . وهل يصدق خيال المؤمن ان الله يتنزل من عليائه ليكلف جبريـــل بالنزول الى الأرض ليوحي الى محمد عليه الصلاة والسلام ، بالأكل من ذلكالطعام او بلبس ذلك الثوب او بحب فلانوكره فلان او بالأكل على الارض وبالنوم على الجنب الأيمن او بشرب الماء على اربع جرعات او بوضع الخاتم في اليد اليمنى او بركوب الحمار؟ هل يصدق خيالالمؤمن ان الله يعلم الناس كيف يأكلونويشربون ويلبسون وينامون ويحبون ويمشون ويتكلمون ؟ واذا كان الله يفعـل كل ذلك فما قيمة الانسان وما قيمة ذكائه وعبقريته ؟ ان الحشرات حينئذ لأفضل وأعلم وأكثر حرية من هذا الانسان ! وهذا التدليل او التفضيل المزعوم للبشر أشنع من قتلهم ، والتعليم بهذا الاسلوب لو خضعوا له ، يجردهم من كل موهبة وذكاء، ولن يوجـد حينئذ ما يسلب البشر حريتهم مثـل النبوات والانبياء ! واننا لن نرضى لأطفالنا الصغار بوصاية كهـذه الوصاية ولا بإذلال لحريتهم مثل هـــذا

الإذلال !

ان الرسول كان يتصرف في مواقفه وشؤونه تصرفاً حراً وكإنسان ، وكان يواجه ويعالج ما يعرض له من مواقف بعقله وتجاربه ومشاعره معالجة انسان حر مفكر فرضت عليه التبعات فالتزمها ، ولم يعرف انـــه كان يتبلد او يتخلى او يهرب من طريق المشكلات منتظراً ان تعالجها السماء ليكون أقل شأناً واستقلالاً وتفكيراً من الحكام والزعماء والقادة والقضاة ، بل والأفراد الذين يواجهون الامور بكفاياتهم الخاصة وبذكائهم وقواهم ، فيزيدهم التمرس بالأحـــداث علماً وقوة أخلاقية . والذين لا يواجهون المواقف المختلفة بأنفسهم لا يمكن ان تتكون لهم صفات قوية ولا فضائل نفسية او فكرية . فالالتقاء بالأحـداث هو الذي يصنع جميع مزايانا ! والذين لا يفكرون ولا يتألمون ولا يخافون ، كيف يمكن أن يكونوا ؟ والانسان كله نتيجة معركة !

ان السوق التي تفسد أخلاقنا هي التي تقوم أخلاقنا !

ولو أننا لا نتعامل مع السوق ولا مع المجتمع لما أمكن أن تكون لنا فضائل ، ولكان محتوماً أن تكون لنا رذائل !

وقد عاتب القرآن الرسول في كثير مما قال وفعل ورأى ، ورده عن الكثير من اتجاهاته ونهـــاه عن الكثير من مشاعره وعواطفه ، وكذلك لقد استشار الآخرين وأخذ بمشورتهم وأمرهم بأشياء رأى فيها رأياً ثم رجع عن رأيه !

وقد قال هؤلاء المحدثون وقال معهم الفقهاء : إنه كان يجتهد أي يقول ويعمل برأيه ، ثم اختلفوا هل هو معصوم في اجتهاده أم انه قد يخطىء . والرأي الذي اختاروه ودللوا عليه بوقائع معينة معروفة انه غير معصوم .

ومما روى الرواة انه كان ينظر الى ما عند أهل الأديان والامم الاخرى فيأخذ عنها بعض ذلك ، وفي الأحاديث الصحيحة انه كان يعجبه ان يوافق اهل الكتاب اي اليهود والنصارى ويعمل كما يعملون إلا اذا نهي عن ذلك نهيـــاً ، وقد رآهم يفرقون شعورهم ويصففونها فصنع كما يصنعون . وفي حديث صحيح انه قال لقد هممت أن أنهى عن الاتصال الجنسي بالمرأة وهي مرضع فرأيت فارس يفعلون

هذا ولا يضير اولادهم شيئاً . فلم ينه .

وهذا كله يدل على انه كان يتصرف كإنسان لا كآلة ولا كجهاز!

ويعرض هذا الموضوع بالصورة التالية :

الرسول إما ان يكون له عقل يفكر وعواطف تتأثر وحرية تستجيب أم ليس له شيء من ذلك . القول الثاني لا يمكن ان يصدقه أي مؤمن ، أما القول بأن له كل هذا فهذه القوى فيه لا يصح ان تكون معطلة وإلا لما كان لوجودها فيه معنى ، ولكان أقل من الناس العاديين الذين يستجيبون لعقولهم وعواطفهم وحرياتهم وينتفعون بها ! واذا كانت له هذه القوى وكانت غير معطلة فهل هي التي تستقل بتوجيه تصرفاته ام ان معها الوحي ?

القول الأول يقضي بأنها تصرفات انسانية عادية غير ملزمة ، والقول الثاني يوجد احتمالاً ثانياً ، وهو ان تتعارض مع الوحي ، وعند التعارض بين عقله وعواطفه وبين الوحي ،فلن يستطيع الاستجابة لأحد المتعارضين ورفض الآخر. فلا بد اذن من القول باستقلالها !

وفي المسألة قول آخر يفترض انه لا يوحى اليه في تصرفاته ولكنه يلهم الصواب فيها إلهاماً !

غير أن ما ذكر من عتاب القرآن له ومن رجوعه عن كثير مما قال ورأى وظهور الصواب في الجانب الآخر واخذه بالشورى ثم ما سيأتي من ترك اقواله وأفعاله بلا تدوين – كل هذا يبعد احتمال صدق هذا الافتراض ! والقول بالإلهام المعصوم قول لبعض الطوائف المسيحية في كتابة الأناجيل وكتابة سيرة السيد المسيح وكتابة أقواله – فانهم زعموا ان الذين كتبوا الأناجيل قد اعتمدوا على إلهام الله لهم الصواب وعصمته لهم من الخطأ ، ولهذا فقد نقلوا الحقيقة كما ارادها الله بلا أي خطأ .

وهنا سؤالان لهما قيمة كبيرة ، ويظهر انهما قد خفيا على الرواة وغير الرواة!

الأول : لماذا لم ينزل الله الحديث قرآناً اذا كان وحياً من عند الله يراد به الإلزام ? ان انزاله كذلك يزيل اشكالات كثيرة ويضبطه ويعطيه التقدير المطلوب

له ويبعد عنه كل احتمال بالانتحال ، ويقربه الى ألسنة المؤمنين وقلوبهم .

يقولون هنا أن الحديث منزل المعاني دون الألفاظ ، وهذا له وجهان من المعاني :

أحدهما ان ألفاظه نزلت على الرسول فغيرها بألفاظ أخرى من عنده، وثانيهما أن ألفاظه لم تنزل وإنما فهم معانيها فهماً بطريق الإلهام. اما الأول فكيف يمكن التصديق ان وحياً قد نزل على رسول الله بكلمات الله يجرؤ على تغييرها أو يؤمر بتغيرها ، ولماذا ، وما الفائدة ؟ وأما القول بانه أفهم معاني الحديث بدون انزالها فهذا هو القول بالإلهام الآنف الذكر .

وأما السؤال الثاني فهو : لماذا لم يدون الحديث في زمن الرسول ولا في زمن خلفائه، بل ولماذا نهوا عن تدوينه ، وقد اجمعوا على انهم قد نهوا عن ذلك؟ وهل يتفق هذا والزعم انه من عند الله ؟

*

وبعد فلقد بدأ المحدثون بدعتهم كما يبدأ الليل من اطراف الأفق خطاً ضيقاً ضئيلاً فلم يزل ينمو ويمتد وينتشر حتى امسى ليلاً شاملاً !

ان سلسلة الأحاديث وحلقاتها ـ العنعنات ـ كأنها سلاسل من الحديد تربطنا بالأموات وتشدنا الى التاريخ فلا ننطلق احراراً كما نستطيع ، وإن هذه السلاسل لتطول وتتكاثر حلقاتها كلما طال الزمن ، وليس الذين يفصمون هذه السلسلة بأقل نضالاً في سبيل الانسانية من اولئك الذين يهدمون اضخم سجون الطغيان في التاريخ !

انه كلما عجزت العقول عن المعرفة استعاضت عنها بالروايات والأسانيد . والأساطير المروية في عقول الرواة والمؤمنين بها تشبه النقوش والكتابات فوق جدران المقابر !

في الصغار دائماً معاني العبيد ، فهم لهذا دائماً يبحثون عن الأرباب ، فاذا لم يجدوا رباً يمن عليهم بالمن والسلوى تذكرهم به نعمته، عبدوا رباً يضربهم بالجوع والمرض وسائر الآفات تذكرهم به قوته ، ثم لا يغني هذا ولا هذا حاجات

العبودية فيهم فيصرون على ان يتخذوا من القبور آلهة أخرى ! والحديث ضرب بشع من القبورية – من عبادة القبور !

والحديث موت يدعو الى موت ويتحدث الى اموات ! ان هؤلاء المحـدثين يروون عمن قال: « من كان منكم مقتدياً فليقتد بمن قد مات ، فان الحي لا تؤمن عليه الفتنة ». أفلم يعلم هؤلاء ان الأموات كانوا ايضاً احياء ، وكانوا عرضة للفتنة التي خافوها على الأحياء ، وان فتنتهم قـد اصبحت بعد موتهم حديثاً وشريعة وديناً – وان اولئك الموتى كانوا في حياتهم عرضة للجهل والعجز ، وان جهلهم وعجزهم قد فرضا بعد موتهم على المؤمنين ليؤمنوا بها ويعملوهما ؟ ان الحديث على النحو الذي دعا اليه المحدثون نوع من الوثنية – نوع من تأليه الانسان والموت ! فالمؤمنون بقدسية الرواية يعبدون أصناماً مهما فاخروا الدنيا بإيمانهم وتوحيدهم ورفضهم للشرك !

*

هنا حقيقة كبيرة لم يعرفها الرواة ، ذلك أن ثقتنا بالرواة لا سند لهـا غير ارادتنا أن نثق بهم !

لقد وجدنا الرواة يزكي بعضهم بعضاً ، إنهم فريقـان شهود ومشهود لهم . والمشهود له قبلناه واعتقدناه ثقة بشهادة الشاهد ، ولكن الشاهد بأي شهادة قبلنا شهادته وبأي شيء عرفنا أنه ثقة ! إذا شهد محمد لمحمود لم يكن لهذه الشهادة وزن إلا إذا كان معروفاً أن محمداً هذا عدل . ولا يقبل أن يشهد محمد لمحمود ليشهد محمود لمحمد ، لأن هذا هو شهادة المرء لنفسه !

فالمحدثون اذن طائفة من الناس نريد أن نعرف أعدول هم ، فكيف تأتي هذه هذه المعرفة ؟

إذا شهدوا كلهم لكلهم ردت الشهادة لأنهـا من شهادة الشيء لنفسه ، وإذا شهدوا كلهم أو بعضهم لبعضهم ، او شهد بعضهم لكلهم ردت الشهادة أيضاً لأن الشاهد نفسه لم يشهد له أحد ولم يزل مجهولاً . فلا بد إذن أن تكون الشهادة لهم من الخارج كما يجب ذلك في محاكمة الفرد إذا طلبت له او ضده الشهادة . فما هي

هذه الشهادة الخارجية التي عرفنا بها عدالة الرواة الذين زكوا الرواة الآخرين ، او التي قبلنا بها المحدثين شاهدين ومشهوداً لهم ،وصيرنا منهم حكاماً لا يرد حكمهم في قضية الدين والعقل الانساني كله ؟

في طبيعة الجماهير رغبة وحـــاجة الى ان تثق وتصدق ، فالتصديق والثقة لاتحيا المجتمعات بدونها ،لأنها يمنحانها الاستقرار والتوافق النفسي مع الظروف والبيئة والقدرة على مواجهة المستقبل المخيف المجهول ، والثقة والتصديق هما في حساب المجتمعات كالأرض لا بد منها وإلا فمحتوم أن نزول . وعن هذه الحاجة والرغبة انبثقت كل هذه البلاهات الكبرى التي جعلت من الانسان مصدقاً كاذباً ، وجعلته يثق بالآخرين مع أنه لا يفعل هو ما يوثق به ، بل مع أنـه لا يثق هو بنفسه ولا يصدقها ! فتوجد إذن تزكية اسمها تزكية السوق ، او تزكية الحاجة والضرورة ، او تزكية العجز عن النقد والخوف من النقد ،وهي أرخص وأشيع عملة مطروحة في الأسواق . وفي الجماهير شهوة طاغية الى الامراف إذا مـدحوا وذموا ، إذا آمنوا وكفروا . فالاعتدال عدوهم ، وهو ليس في طبعهم ، وانـه ليفسد عليهم حماسهم وجنونهم وتعبيراتهم المتوترة . والمبالغة في تصرف الجماهير نوع من الايمان والتدين بل نوع من العمليات الجنسية ! ومن هذا تخلقت الآلهـة والزعماء والعقائد والانفجارات !

والتهاويل والمبالغات هما صورتان من الفنون الشعبية التي تعبر بها الجماعات عن أزماتها ومخاوفها وحرمانها . وهي حينما تذم او تمدح في مبالغة وتهويل لا تقصد ذم ذلك الشيء او امتداحه، وإنما تقصد أن تعبر عن نفسها – عن أمانيها ، عن جراحها وآهاتها بصراخ ! والآلهة والشياطين والجنة والنار في لغة الجماعات هي التعبير السوقي عن الغيظ والاحتلام ! والتخويف بالشيطان قدرة خلقت أكبر الزعماء والدعاة . وأقوى الدعاة والزعماء تأثيراً في السوق هم المرجفون المهولون، أما المعتدلون فلا بد أن يسقطوا في حماس الجماهير الهائجة المتألمـــة . وقد حول المسيطرون الخبثاء هذه الطبيعة في البشر الى جنون عــام ، وأصاب ذلك أغلب زعماء العالم بأبشع العاهات الأخلاقية ، وصار الكذب والنفاق والتهريج والفسوق

الفكري أمراضاً مستعصية في حياة كل زعيم وحاكم وداعية ! وحماس الجماهير وصراخها ليس إيماناً بل توتر. إن الإرجاف عصا سحرية في يد كل طاغية ودجال !

وهذا الإسراف في الناحيتين — حين الذم وحين المدح — ناشىء عن تلك الحاجة وتلك الرغبة المذكورتين . أما في التزكية فكما ذكر ، وأما في التجريح فذلك لأنهم إذا بالغوا في ذم شيء ، فقد بالغوا في الايمان او في محاولة الايمان بايضاد ذلك الشيء ، فالمبالغة في ذم هذا مبالغة في امتداح ذاك . والنفي المطلق او الكفر المطلق أمر سلبي لا تطلبه النفوس ولا تتوجه اليه لأنه عدم ، وانما تطلبه إذا كان فيه إثبات لأمر آخر او ايمان بحقيقة اخرى تريدها النفوس . فنفي الفضيلة مثلاً عن انسان ما لن يكون غرضاً من أغراضنا ولا مرضياً لنا إلا إذا كان يوصل الى اثبات فضيلة او اثبات شيء آخر نهواه ويفيدنا اثباته ولو افادة شعورية او فكرية . فالغرض إذن من الكفر ومن الذم المدح والايمان ، فاذا ذممنا قوماً او مذهباً فنحن في الحقيقة نريد امتداح قوم آخرين ومذهب آخر ، اننا نمدح هذا بذم هذا .

فالجماهير اذن مجبولون على الاسراف في الثناء وفي التصديق استجابة لرغبتهم في أن يثقوا ولحاجتهم في أن يصدقوا . وانفعالات السوق لا تقبل الاعتدال ، والدعوة الى اعتدال المشاعر دعوة الى اعتقالها ! وهذه الطبيعة في السوق هي التي منحت المحدثين التزكية وجعلت منهم شهوداً فوق الاتهام على عقائد الناس وعقولهم ، ولكن ما قيمة شهادة السوق ؟ إن عواطف الجماهير كأفكار الجماهير هي أكذب الحاكمين وأظلمهم ، والجماهير هي دائماً الأوعية الواسعة لاضخم الخرافات والأكاذيب العالمية . والماكرون الدعاة الذين يصنعون الأوهام الكبرى إنما يصنعونها للجماهير ، ولولا استعدادها للغواية والايمان الغبي لما وجد في التاريخ المضللون الكبار والدعاة الزائفون والزعماء الذين لوثوا العقل الانساني بما ألقوا فيه من غباوات كبرى !

والحكم العام لم يكن اميناً قط ، وهو يؤمن لمن يكذبه ويخدعه وينافقه ، لا لمن يعلمه ويصدقه ويستنهض همه ، يؤمن بالذين يعدونه بأن يضعوا الشمس في فمه ،

لا بالذين يعلمونه الصعود اليها ، وبالذين يلعقون جراحه لا بالذين يعالجونها !

والتغييرات الكبرى التي تحدث في المجتمعات فتحسن أحوالها لا تحدث بتفكير الجماهير ولا برغبتها أو بشجاعتها، بل بتدبير أناس أفذاذ يفرضونها فرضاً، والجماهير تسير وراء هؤلاء الافذاذ او تخذلهم، وهي في الحالتين تابعة مخدوعة. والذي يسير وراء الرائد الراشد، كالذي يسير وراء الضال ، كلاهما لا يدري ! والرائد لا يقصد إسعاد هذه الجماهير، بل التعبير عن نفسه! واتباع الجماهير لأحد النوعين من القادة خاضع لأسباب اخرى غير الفهم والفضيلة والأصالة ، وتوجد دائماً انطباعات وظروف تجعلهم يختارون هذا او هذا. الجماهير دائماً فراغ ينتظر من يملؤه ، وأتباع يؤمنون بالنبي والدجال ، ويهتفون للبطل والمهرج !

وإذا وجدت قيادتان، جاهلة ورشيدة، فسوف تجد كل منهما لها اتباعاً يطيعونها على سبيل الانخداع والتبعية والخوف، لا على سبيل الوعي والاحترام للحرية! والقائد الراشد محتاج الى ان يكذب على الجماهير ويخدعها لكي تفهمه وتتبعه وتناصره ، فيدعو الى الحق بغير الحق ويسير في الطريق الصحيح باسلوب غير صحيح ، وهي تتبعه وتؤمن به لما يقول من الكذب لا لما يقول من الصدق . فالجماهير ضالة حتى في هداها – ضالة في هداها وضلالها . وأفكارها وعواطفها لا تستطيع ان تكون عاقلة ولا معتدلة حتى في احسن ظروف تقدمها ونهضتها! وهي تؤمن بالرجال الصارخين المتوترين ، لا بالأفكار ولا بالمبادىء . والناس لا يتبعون المبادىء او النظم او العقائد، وإنما يتبعون رجالا ينادون بها اويخضعون لهؤلاء الرجال .

والتنافس بين الزعماء والحكام والمتفوقين – او رغبتهم في المجد والقوة والانتصار ، او خوفهم ، او مزاياهم الذاتية – هي التي تغير المجتمعات ، لا فضيلة تلك المجتمعات . ولو ان القادرين والأفذاذ من المفكرين والمصلحين والعلماء استطاعوا ان يعقدوا بينهم اتفاقاً وان يعملوا بهذا الاتفاق بان يتخلوا عن الجماهير ويتركوها لذكائها فلا يعطوها شيئاً – لا يعلموها ولا يقودوها – او بأن يتآمروا على تضليلها وإضعافها ، لكان من المخيف جداً ان نتصور كيف يمكن ان يكون

الوضع ! ومع هذا، فالحياة تطور نفسها بقوانينها التتابعية، لا بإرادة الزعماء ولا ارادة الجماهير ، والمجتمعات تخطو ضد رغبتها وعلمها .

ان القائد والمعلم المثالي لدى الرأي العام هو في الغالب من لا يرتفع في تفكيره وأخلاقه الى المستوى العالي ، فالرأي العام لا يريد من يرهقه بالذكاء او بالاستقامة او بالنضال ضد ضعفه . انه جبان عاجز يخاف الحقيقة والمعرفة والحركة ، وهو يريد دائماً ان يبحث عن مثله العليا في غباء وهوان وضعف ، ولا يريد ان يسمو اليها على مصاعد من التفكير والتعب والتكاليف المرهقة !

والرأي العام لم يؤمن بآلهته وزعمائه ، إلا لأنهم يعدونه بأن يأخذ بإسراف دون ان يطالبوه بأن يعطي عطاء مماثلا او يفهموه الحقيقة الصعبة . وأكثر الآلهة والزعماء نجاحاً لدى الجماهير هم أقدرهم على اتقان الخديعة والكذب وعلى ازجاء الوعود التي لا تصدق والتي لا تكذب ايضاً لأنها لا شيء . وقد فطن الطامحون والمغامرون الى هـــذه الطبيعة فراحوا يطلقون الوعود التي لا تستطيع القوانين الطبيعية تحقيقها !

والحكم العام هو الذي قتل سقراط وصلب او حاول ان يصلب المسيح ! وإذا آمن بسقراط او المسيح فليس لأنه فاضل عارف، بل لأنه جاهل رديء !

وعفواً ، فلقد أكون هنا مخالفاً لمذهبي ، فليست الجماهير هي التي صلبت المفكرين والمصلحين والرواد والأنبياء ، وإنما الذين فعلوا ذلك هم الذين يحركون الجماهير ويحكمونها ويجعلون منها وقوداً لكل ما يصنعون من آثام ! فالجماهير دائما تابعة حتى في قتل الانبياء والملحدين ، وفي الإيمان بالحقيقة والإيمان بالخرافة .

يفترق اتجاه المفكرين واتجاه الجماهير ، فالجماهير تحكمها الرغبة وحدهـا — تريد وتريد أن تحقق ما تريد بلا أية شروط، لا يقبلون من يفكرون اويشترطون او يعلقون او يشكون او ينتقدون او يعتدلون في وعدهم او وعيدهم — أي انهم ارادة مطلقة بلا أي قيد من قيود الفكر . اما المفكرون فهم فوق هذا المستوى، فوقه بالقدرة والمزاج لا بالفضيلة! هم متعبون ومقلقون ومثيرون للحنق ومفسدون للرضا عن النفس ، انهم ينزعون الى التغيير والتشكيك في قيمة مـا هوموجود ،

وإلى الموازنة بين القدرة والارادة والى الربط بين الفكر والفعل ، وهم يدركون انه لا يوجد ما هو مطلق، كل الأشياء مقيدة ومشروطة . وبهذا يصدمون رغبات الجماهير وأفهامها وتقاليدها وعقائدها ويعذبونها بأفكارهم غير المفهومة وغير السارة بما فيها من اشتراط وتضييق واتزان ، ولهذا يصبحون غير مرضيين ولا صالحين في حكم الجماهير . فالاتزان عدو الجماهير ، وهي تكرهه بعمق ! لقد جاء خطب الانسانية عظيماً ، فإن هذه الشيمة الضعيفة في الانسان قد صنعت له اكذب وأفسد الارباب والقادة والدعاة الاشرار الذين أخرجوا تاريخه أسوأ إخراج . ولم يزل المفكرون والمصلحون منهزمين أمام هؤلاء الارباب الزائفين !

والحضارة كلها ليست الا ناتج الصراع بين الجماهير والمفكرين المصلحين — وعلى الأصح ليست إلا صراعاً بين قادة الجماهير المخادعين وبين المفكرين والمصلحين الذين لا يحسنون فنّ الخداع للجماهير . فالجماهير لا تقاوم الا بقيادة قوم من الأقوياء الماكرين ، فهم دائماً أتباع ويعملون لغيرهم ! وكثير من هؤلاء القادة — وهم القادة الروحيون الخالدون قد شدوا الانسان وقواه الروحية والفكرية الى ماض كئيب عاجز ، وربطوه بأقوى التعاليم الزائفة وبالوعود المتهوسة التي أصابت عقل التاريخ بالجنون ، وبالتهاويل والاشباح الكئيبة الرهيبة .

لو تصورنا البشر بلا قادة ولا مصلحين من هذا الطراز ، فكيف يمكن ان نتصورهم !

*

إن الضرورة هي أصدق هادٍ للانسان ، فهي تصنع العقل والقدرة وتوجههما. والعقل والقدرة هما الرسولان الصادقان المخلصان في هذه الحياة . ولكن رسالة أولئك القادة موجهة الى مخادعة هذين الرسولين وتضليلهما وتبديد قواهما أو صرفها في أغراض أخرى ضارة . والفرق بين الشعوب المتقدمة الواعية والمتأخرة الضالة يساوي الفرق بينها في الاستجابة للضرورة او تضليلها ، وتضليل الضرورة يجمع كل ضروب الضلال . وكل هدىً في هذا الوجود ، ليس الا معرفة لوجوه الضرورة واستجابة لمطالبها الحقيقية ! وافتراض البشر بلا مصلحين ولا

زعماء من هذا النوع يعني افتراضهم عارفين باتجاهات الضرورة ومستجيبين لها ، وهذا يعني تقدمهم من غير مضللين بكل طاقاتهم العقلية والعضلية !

والزعامات البشرية على النحو الذي حدث على طول امتداد التاريخ – تلك الزعامات التي قسمت الانسان وقسمت أفكاره وعقائده وأحقاده – هي أضخم قوة قد ضللت التاريخ !

انه لا يجب تحرير العقل فقط من الارباب ، بل وتحرير الضرورة والعاطفة. وكرم الانسان في توزيع النيات الطيبة ، هو خالق كل هذه الارباب ! وقدكانت ارباب الانسان في بدء تاريخه تفوق في تعدادها أفراده ، ثم أخذها النقصان والموت والأفول تباعاً . ولعله يأتي زمان لا يبقى منها فيه سوى الذكرى . وحينئذ يعلن في الدنيا كلها ان عهد الارباب قد زال ، وان انطلاق الحياة وانطلاق الانسان لن يقف في طريقه الآلهة الجاهلون الفاسقون !

وكم هو مخجل ان تكون البشرية كلها مسوقة بشهوات وأخطاء زعمائها – زعمائها من الاحياء ومن الموتى ايضاً !

والانسان يحمل في نفسه عبوديته وحريته ، فهما لا يأتيان من الخارج ، فالعبودية هي نبع الضعف او علامة العجز عن التكافؤ مع الطبيعة القوية المحاصرة لنا ، فيوم يضعف الانسان يقوى خصمه الذي هو الطبيعة ، وحينئذ يحاول ان يجد حماية لنفسه ، فيصنع الارباب والاساطير لئلا يكون مكشوفاً امام خصومه أو امام نفسه . وليس عجيباً منك حين عجزك وخوفك ان تخلق شيئاً كي تطلب منه ان يخلقك ويحميك . فإن العجز كما يعني ، فقدان التكافؤ بين قوتك وقوة الطبيعة ، فإنه يعني ايضاً فقدان التكافؤ بين منطقك ومنطق الطبيعة ! اما الحرية فإنها انعكاس القوة ، فالأقوياء يتكافأون مع ما حولهم ، فيقابلونه بلا خوف ولا اوهام ، فتكون المعركة بينهم وبينه معركة حرة سافرة ليس فيها اسرار ولا فرار ، اذ انهم يملكون استقلال الذات ، والذات المستقلة هي المتميزة بحقائقها التي لا تحتاج الى ان تجعلها تابعة لغيرها او متبوعة .

*

اذا رأى قوم اننا اذا لم نثق برواة الحديث فما الذي يجعلنا نثق برواة التاريخ والادب وغيرهم من رواة المعارف الانسانية .

قيل ان التاريخ وغيره مما يروى نوعان،نوع لا سبيل الى العلم به الا التحديث الشخصي ، أي بأن يحدث انسان او اكثر انساناً آخر أو اكثر من انسان، ونوع يعرف بغير ذلك من وسائل المعرفة ، ويمكن اختبار صدقه واختبار كذبه وكشف الحقيقة فيه بتلك الوسائل .

أما النوع الاول فمن الغباء العظيم الاطمئنان اليه ، وقد ثبت ان هذا النوع من أكذب ما عرف الناس ومن أبطل ما آمنوا به . ومن الافراط في الغباوةان نفترض الناس دائماً صادقين ! وما الذي يجعلهم كذلك ، مع انهم مسيرون دائماً بأغراض متعارضة ملحة لا ترحم ولا تعقل ، ومع ان هذه الاغراض لا تتحقق في اكثر الاحيان بالصدق بل بالكذب او بما هو شر من الكذب ! انه كلما عظمت مكانة الانسان في المجتمع اشتدت حاجته الى الكذب ، لأن حاجات الآخرين اليه وعلاقاتهم به ، بل وحاجاته هو اليهم تكون حينئذ اقوى وأشد تشابكاً ، وهذا يجعل الكذب ضرورة محتومة لأنه يجد الصدق يصدمه ويخذله، كلما اراد أن يكون صادقاً . فالصدق لا يتسع للارادة ، وأحوج الناس الى الكذب والنفاق هم أعظمهم وأفضلهم وأفعلهم للخير ! ولعل الكذب من افضل الابتكارات الانسانية ، وهو من خصائص الانسان ومزاياه البارعة التي فرضتها عليه محاولاته التكافؤ والتعامل مع الظروف ومع الطبيعة القاسية الجاهلة ، ولا بد ان يكون البشر أغبى وأقل وعياً وتحضراً لو لم يخترعوا الكذب . ولهذافإن الطبيعة والكائنات الاخرى التي هي أقل منهم تطوراً ، لا تستطيع ان تكذب بالأسلوب الذي يكذب به البشر ! الانسان وحده هو الذي يكذب لأنه هو الأذكى والاكثر تطوراً ! ان الكذب عمل من اعمال المقاومة السلبية لما في الطبيعة من تناقض وعجز ، وهو احتجاج يعلنه الانسان ضد نظامه ووجوده وأربابه التي أثقلته بالتعاليم التي لا يمكن التزامها لأنها ضده وضد الطبيعة . ان من يكذب كأنما يعلن تكذيبه للآلهة والمعلمين الذين قالوا له انك تستطيع ان

تكون فاضلاً بدون ان تكون الطبيعة فاضلة ، وان تحافظ على التعاليم التي هي ضدك والتي تخرقها قوانين الكون وشهوات العالم !

*

ما هو الصدق وما الكذب في فلسفة الدوافع الانسانية ؟

الصدق ليس محاولة للتعبير عن الواقع ، والكذب ليس كذلك محاولة لإخفاء هذا الواقع – الذين يصدقون لا يصدقون لأنهم يحترمون الصدق او يحتقرون الكذب ، والذين يكذبون لا يكذبون لأنهم يحترمون الكذب او يحتقرون الصدق ، بل الصدق والكذب محاولتان للتعبير عن الذات بالتعبير عن اتجاه الإرادة والمصلحة ، اننا لا نحترمهما ولا نحتقرهما ولكن نتعامل بهما .

فليس الذي يحرك الانسان هو حبه للواقع كيفما كان ذلك الواقع ، وإنما تحركه علاقته بذلك الواقع او فائدته منه ، فاذا تحدث وصدق فانه لم يفعل ارادة للحديث او للصدق ، ولكن لأن له مصلحة او هوى نفسياً في ذلك ، وهكذا حينما يتحدث فيكذب ، لم يصنع لأنه يحب الحديث او الكذب حباً انسانياً او عذرياً لا منفعة له فيه ، او لأنه يعادي الصدق عداوة خالصة لوجه الشيطان ، فالشيطان نفسه لا يعادي ولا يحب إلا بثمن ، وإنما يفعل لأن له غرضاً ذاتياً يريد بلوغه . ولو فقد الانسان الشعور الذاتي ، لما وجد ما يحفزه على الصدق او الكذب او على ان يقول او يفعل شيئاً ! فالفضيلة والرذيلة والله والشيطان وسائل في سلوك الانسان لا اهداف !

ان الناس لا يصدقون ولا يكذبون حين يصدقون ويكذبون ، ولكنهم يعبرون عن شيء يريدونه ! والفرق بين الصدق والكذب ، فرق في الوسيلة لا في النية ، وهما – اي الصدق والكذب – من وضع الناس وكذا الحكم عليهما ، وهم لم يضعوهما او يحكموا عليهما احكامهم الاجتماعية إلا وهم يطلبون من وراء ذلك ربحاً ما . فالفوائد هي اذن الدافعة والحاكمة ، وهي التي تتجه اليها الارادة والعمل ! وقد يكون الكذب في بعض حالاته عملية جنسية ، وقد يكون الصدق كذلك ! وليس الفرق بين الناس ان منهم من يكذب ومنهم من لا يكذب ! بل

الفرق بينهم ان منهم من يكذب كذباً مفضوحـاً وفي امور تافهة ، ومنهم من يكذب كذباً بارعاً محكم التدبير وفي شؤون جلّى ، وهؤلاء اخطر الكاذبين — او منهم من يحتاج الى الكذب دائماً ، ومنهم من يحتاج اليه احياناً — او منهم من كذبه في شؤون مكشوفة ، ومنهم من كذبه في شؤون تجعل اكتشافه صعبـاً ، بل ان اجتناب الكذب نوع من الكذب ، كما ان ترك النفاق اسلوب من اساليب النفاق ، لأن تاركهما إنما يعني في نفسه معنى هو كذب ونفـاق ، لأن قصده ان يعرض نفسه عرضاً خادعاً اي كاذباً منافقاً !

ان الله لم يخلق حتى اليوم انساناً لم يحتج الى الكذب في جميع مواقفه ، كما انه لم يخلق ايضاً انساناً واجه الحاجة الى الكذب ، ثم عصى هذه الحاجة في كل المواقف . ولو وجد مثل هذا الانسان لما كان انساناً ، او لكان في غاية الوقاحة والجنون . وقد قيل في مثل قديم : انه لا يصدق إلا الأبله والطفل ! وأشد من الأبله والطفل بلهاً هو الذي يصدق انه يوجد من يصدقون دائماً ! ويكون هذا القول سخيفاً جداً ، اذا كان يعني ان البله والاطفال لا يكذبون ابداً ، فهذا لا يقع ، والموتى وحدهم هم الذين لا يكذبون ! وإنما يراد بهذا القول ان الاذكياء والعقلاء اكثر الناس أخذاً بالكذب ، لأنهم اكثر احتياجاً اليه ، ولأنهم أعرف بطبائع الناس والمجتمعات ، ولأنهم اقوى حساً اخلاقياً وانسانياً ! اننا لا نؤمل ان نجد شرفاء وشجعاناً وكرماء في جميع تصرفاتهم ، وكذلك لا نؤمل ان نجد صادقين دائماً . والصادق جداً هو الذي يصدق احيانا !

يوجد مثل يقول: كل الرجال يشترون ولكن أسعارهم تختلف نوعاً ومقداراً ! وهذا لأن البشر مهما حاولوا أن يكونوا فوق النقائص فهم لا بـد ان يكونوا مريدين وطالبين ، والطالب المريد مستعد دائمـاً أن يعطي ليأخذ ، انه في حالة عرض دائم ، يعرض ذاته ولكن قد تكون له شروط ، وقـد تكون شروطه غالية . والمريد الطالب لا بد أن يكون تاجراً ، فاذا رفض أن يبيع ، فلأنه يرجو عرضاً أحسن ، او لأنه قد باع ما عنده ، باع ما يمكن ان يشترى منه ، إذ لا شيء في هذه الدنيا يرتفع عن البيع والمساومة . والذي لا يباع ولا يشرى هو

الميت وحده ، جميع الأحياء موضوعون تحت عمليات العرض والتثمين ! والنفوس الانسانية – وهي أجل ما في هذه الحياة – معروضة مبيعة دائماً لشيء ما ، وهي لا تكون إلا كذلك . غير أن هذا الشيء الذي تباع له النفوس قد يكون أدبياً – قد يكون مالاً وقد يكون مجداً ، وقد يكون شعوراً او فراراً من شعور ، وقد يكون الآخرة والجنة ! والنفوس التي لا تباع هي النفوس التي لا تشترى ، هي النفوس التافهة او نفوس الحمقى والمجانين والأوغاد جداً ، الذين لا يجدون من يشتري نفوسهم لأنها لا قيمة لها ، مثل السلع الرديئة جداً والتي لا ينتفع بها ، او النفيسة في أيدي الذين لا يعلمون ! وإذا كان كل الرجال يباعون مع اختلاف أثمانهم فكذلك كل الرجال يكذبون متى وجدوا الثمن الذي يغريهم ويساوي ما يفعلون فيما يظنون . وما من انسان وان صعد أعلى درجات التقوى والعظمة ، إلا ويقول أقوالاً تخالف الواقع الذي في نفسه ، إما حياءً وإما تأدباً وإما رغبة او رهبة ، والذي يجرؤ على الكذب في حديثه عن نفسه لا بد أن يجرؤ على الكذب في أحاديثه الاخرى ! والناس جميعاً يكذبون بأفعالهم ، والكذب في الفعل أبلغ من الكذب في القول . والحياة الاجتماعية لا سيما الراقية منها – ليست إلا مجموعات منظمة من الأكاذيب تتعلمها الأجيال الجديدة عن الأجيال القديمة ، والذين يحاولون أن يكونوا صادقين في علاقاتهم الاجتماعية بالآخرين ، انما يحاولون أن يرتدوا همجاً او متوقحين وان يقطعوا جميع المراحل الحضارية راجعين الى الوراء ! وأرقى الناس في المجتمعات المتحضرة هم أكذبهم أخلاقاً ، ولا يوجد من ينكرون هذا من حيث السلوك ، بل الجميع يفعلونه ويهذبون أنفسهم به ويدعون اليه عملياً ! واذا كان كل الناس يكذبون في أفعالهم بلا حرج ولا ملامة ، فكيف نرجو أن يصدقوا في أقوالهم ؟

أين يوجد هذا الكائن الغريب الذي يسمى صدقاً ؟

ان كل ما في الحياة ، بل والحياة نفسها أكذوبة ! انها لا تبدأ بصدق ولا تنتهي بصدق ولا تعلم ابناءها الصدق ولا تحملهم عليه ، هي المعلم الأول والأكبر للكذب ! حتى العبادات التي يشترط فيها ان تكون آية اخلاص وصدق لانها

معاملة لمن لا يستطاع خداعه ، مظهر فاضح من مظاهر الكذب ، فالمؤمن العابد يزعم وهكذا يعرض نفسه انه لا يعبد إلا الله مع انـه لا يعبد إلا نفسه – يعبد رغباته وفكرته ، ويعبر عن ذاته فقط ! وكذلك يدعي ويفترض انه لا يعبر إلا عن احترام ومحبة ، وهو كاذب في هذا لأنه إنما يتعبد عن خوف وطمع وحاجة .

ان الناس لم يضعوا في شرائعهم واخلاقهم قوانين العقاب والثواب للكاذبين والصادقين ، ولم يسرفوا في مدح هؤلاء وذم هؤلاء إلا بعد تجاربهم الطويلة الدالة على ان البشر كاذبون لا صادقون . ان قسوة الصدق هي التي علمت الفرار منه ، فالواقع أليم وبينه وبين أماني الانسان واحتياجاته هوة واسعة لا يملؤها شيء . والطبيعة لهذا تحاول ان تقرب بين هذين المتباعدين وتحض على التقريب بينهما ، وكل افعال الانسان وابداعه ومخترعاته صور مختلفة من هذه المحاولات ، والكذب إحدى هذه الصور ، وقد تفرق الانسان تحت تجاربـــه المريرة بين الضرورات الداعية الى الكذب والضرورات والأماني الاخرى الموجبة للصدق ، ولم يستطع ان يقف بينهما موقفاً محدداً فاصلاً ! ان اهتماماته مصروفة الى ان يلبي ضروراته وأمانيه ، فأين تقع هذه الأماني والضرورات ؟ لعله وجدها حيث يكذب أكثر مما وجدها حيث يصدق ! فجاء كاذباً أكثر مما جـاء صادقاً ! وقد شرع الصدق فضيلة والكذب رذيلة في قوانينه وتعاليمه لأن التشريـع لا بد ان يجيء على نحوما ضد الرغبات ، لأن القصد من التشريـع ان يحد من اندفاعات النفس ، والنهي عن الشيء وتحريمه إشارة الى شدة الرغبة فيه . ومع هذا فلا بد ان يجيء مؤيداً لنوع من هذه الرغبات ، لأن الشرائع ليست سوى رغبات ، ولا يوجد تشريـع بـلا رغبة ، فالتشريـع مع انه جاء مقاوماً للهوى ، فقد وجد بالهوى ولخدمة الهوى. فالمشرع والخارج على الشرائع كلاهما يحكمه الهوى ، والفرق في التوزيـع ! وفي احد فصول هذا الكتاب ان فكرة الفضيلة كالصدق مثلاً انما نبعت ولم تهبط – اي انما جاءت أملاً من آمال الضعفاء ولم تهبط وحياً على قوة الأقوياء ، فالقوي لا يحتاج الى حماية الشرائع والفضائل ، وانما يحتاج الى هذه الحماية الضعيف ! فهنا إذن توزيـع في الرغبات بين مشرعة ومقاومة للتشريـع ، ولو في السلوك والاتجاه لا

في القانون !

ومع هذا فإن الذين شرعوا الصدق فضيلة والكذب رذيلة لم يستطيعوا ان يمضوا في تشريعهم من غير استثناء ، فانهم قد رأوا ان الواقع يتحدى هذا التشريع ، فراحوا يستثنون ولكن بلا نظام ، قالوا ان فعل هذه الرذيلة واجب احياناً وان فعل هذه الفضيلة حرام احياناً . وهنا تداخلت الحدود فضاعت فلم تبق حدود معترف بها، فزال سلطان التشريع ولم يبق الا سلطان الرغبة والمصلحة ، فصارت هذه الفضيلة التي هي الصدق خرافة كالخرافات الكبرى التي يتحدث عنها كل الناس ويؤكدون وجودها ، وانهم جميعاً قد رأوها ، وهي لا وجود لها. ان ما نجده في الحياة هو اقل دائماً مما نريده ، وان ما نراه هو اقل دائماً مما نسمع عنه !

ليس هناك ابعد عن الحقائق من قوم يحرمون الحياة والفكر الانساني ويقيدون انفسهم بل ويقيدون الإله بروايات لا يعرفون عنها ولا عن رواتها إلا انهم وجدوها في مخازن الوارقين ، مفترضين ان كل الناس صادقون ! لقد اختلقوا لهؤلاء الرواة نسباً وصلوه بالله ! واني لأتصور هذه الأسانيد وكأنها حبال المشانق في رقاب الذين حكم عليهم بالموت ! ان الذين تعيش أبصارهم في السماء يرون الشموس والنجوم والمجرات الهائلة ، اما الذين يعيشون في ظلام الكهوف فستمتلىء تصوراتهم بالتهاويل والأشباح وجثث الحشرات ! وان آلهة الانسان ومخاوفه ترد اليه من نفسه اكثر مما ترد اليه من خارجها !

*

الصدق حاجة لا فكرة ، والحاجة متحركة لا ثبات لها ، والصدق ضرب من الانانية ، وليس فضيلة نفسية — انه كان حاجة خاصة في النفس لا رغبة مثالية في خدمة المجتمع . وامتداح الصدق مثل امتداح التواضع والإحسان والطاعة وأشباه ذلك ، وفكرة الامتداح لكل هذا ليست اكثر من فكرة الانتفاع به ، ولهذا فإن الحافز في نفس من يدعو الى الصدق ومن يلتزمه هو الحافز ذاته في نفس الكاذب ، ومعنى الخير في حساب الاثنين معنى ذاتي فردي لا غيري ولا جماعي . والناس حين يصدقون او يكذبون انما يسعون لتحقيق غرض معين لا

لتحقيق فضيلة معينة ، وهذا الغرض لا يتغير في حقيقته، انه هو المنفعة الخاصة. واختلاف الناس الى صادقين وكاذبين في التعبير عن اغراضهم هو كاختلافهم في سائر وجوه الحياة حينما يختلفون في وسائلهم وأساليبهم في تناولهم لها ، انهم كمن يتكلمون لغتين مختلفتين للتعبير عن حقائق واحدة . فالصدق والكذب هما دائماً في خدمة الناس وخـــدمة مصالحهم وأهوائهم ، وليس العكس . الفضيلة دائماً مستعبدة خادمة لأحقر ما في النفوس من شهوات ومطامع وأحقاد، ولهذا فليس للصادق ان يدعي الفضيلة أكثر مما يدعيها الكاذب ! ان الصدق والكذب اداتان من أدوات التعبير عن الذات المنفعلة المتقلبة ، وليسا حقيقتين جامدتين. والناس الصادقون والكاذبون يعلمون هذا أو على الأقل يعملون به ، ولهذا جاءوا كاذبين اكثر مما جاءوا صادقين ! والذين يرجون ان يجدوا قوماً لا يكذبون هم كالذين يرجون ان يجدوا قوماً لا ينفعلون ولا يحتاجون ولا يحبون او يبغضون. فالصدق وكذا الكذب صورتان من صور الانفعال والإرادة والحب والبغض وغير ذلك من الانفعالات الكثيرة ، والمنفعل لا بد ان يكذب كما لا بد ان يصدق . ولا يستغني عن الكذب الا من يستطيع ان يستغني عن الصدق او يستغني عن الحياة! والذي يصدق إذا اعتقد الصدق خيراً له كالذي يكذب إذا اعتقد الكذب خيراً له ، وهل يوجد من يصدق أو من يكذب وهو يعتقد انها شر له ؟ أو هل يوجد من لا يصدق ومن لا يكذب إذا اعتقد انهما خير له ؟ وإذن لا يوجد صدق ولا كذب وانما توجد ارادة لها أدواتها المختلفة التي منها الصدق ومنهـــا الكذب ! الصدق والكذب صورتان لوجه واحد اختلفت تعبيراته ! ان التعاليم المقدسة التي تشتد كثيراً جداً في تحريم الكذب تشتد نفس هذة الشدة في تحريم الصدق ! انها تحرم على من اعتقد في نفسه عقيدة ان يعبّر عنها بصدق اذا كانت تخالف ما تريد هذه التعاليم ، وتوجب على صاحب مثل هذه العقيدة ان يكذب وان يقول غير ما في نفسه وإلا أوقعت به العقاب وأجلت له عقاباً آخر. انها اذن تأمر بالكذب وتجعله إلزاماً ، والذي يلزم بالكذب هو كاذب مرتين .

*

والحقيقة الدائمة الأولى أنه لا مجتمع بدون كذب ونفاق ، والحقيقة الثانية ان الكذب والنفاق فضيلتان اجتماعيتان من فضائل الانسان التي هدته اليها تجاربه وضروراته ،لأن الفضيلة ضرورة لا مثالية ! والحقيقة الثالثة ان الكذب والنفاق ضرورتان في المجتمع لا ظاهرتان لآفات طارئة على المجتمع، ولهذا فانهما لا يزولان بتقدم المجتمع . ولو تصورنا حياة كلها صدق وصراحة لذعرنا من هذا التصور كما نذعر من تصور حياة لا حب فيها ولا ذكاء ولا ظلام ولا ملابس ولا سرور ! ومن المستحيل ان ندرك الحاجة الى الصدق والصراحة ما لم ندرك الحاجة الى الكذب والنفاق ! فالبواعث والأهداف في الحالتين واحدة ! وما الفرق بين الصدق والكذب اذا قصد بهما الخير أو الشر وأعطيا نتيجة واحدة ؟ أو ليس الكذب الفاضل أنبل من الصدق اللئيم ؟ ان اسباب كثير من الصدق والصراحة هي الوقاحة او التفاهة او الغباء او سوء الأدب او قصد الإهانة – لا حب الفضيلة ! ان الذي يشتمنا وهو صادق لا يقصد ان يقول الحقيقة او يرضي الآلهة والأنبياء ! انه يقصد ان يشتمنا فقط، والشاتم الصادق شاتم لا صادق. والكذب في كثير من الحالات يبدو كالملابس التي تستر العورة والتشويه وتقي من آلام الطبيعة ووقاحاتها الكثيرة ! وفي أخلاق الناس جميعاً انهم يذمون الكذب والنفاق ولكنهم لا يقبلون الصدق والصراحة ، ويريدون من الآخرين ان يعاملوهم بهذا الذي يذمون ، وقد يصلبون من يقولون الصدق والحقيقة ! وأعظم الناس حظاً في المجتمعات التي تلعن الكذب والنفاق هم المنافقون الكاذبون . ان القوانين والشرائع والأخلاق التي يضعها البشر ويحكمون بها لهي أعظم معلم للكذب والنفاق، وهل توجد حكومة او حاكم او عهد من العهود مهما كان ثورياً وصالحاً لا يعلم المجتمع والمتعاملين معه هاتين الفضيلتين ؟هل يوجد قانون او دين او نظام او زعيم فاضل لا يحرم الصدق ويعاقب عليه ؟ الكذب والنفاق نوع من التمني ، فالذي يكذب وينافق كأنه يقول أتمنى ان يكون الأمر كذا وكذا ولا أريد ان يكون كما هو كائن !

والذين هجوا الكذب والنفاق بصدق وحرارة لم يهجوهما كموضوعين مدروسين

ن موضوعات الحياة ولا كنقيصتين من نقائص المجتمع وإنما هجوهما لتجاربهم ومشاعرهم الخاصة ، فقد وجدوا أنهم أحيــاناً عاجزون عن التفوق في هاتين الرذيلتين المنتصرتين ،ووجدوا الآخرين قد انتصروا عليهم فيهما،فعالجوا هزيمتهم بذم النصر الذي ادركه الآخرون، ومن هذا الطريق جاءت كل الأخلاق والتعاليم الضعيفة التي تمجد الضعف . والناس ينتزعون حدود الخـير والشر وصفاتها من تجاربهم وانفعالاتهم الذاتية ! ودائماً المحرومون والعاجزون يجعلون من حرمانهم وعجزهم شرائع وأخلاقاً عامة يعلمونها الناس ويفرضونها عليهم ، امــا الأقوياء الظافرون فيعبرون عن ظفرهم وقوتهم تعبيراً آخر – تعبيراً قوياً يغني عن محاولة التشريع والتعميم . فالعاجز المحروم يعمم ويشرع ، أمـا القادر الظافر فيفعل ويخصص، لأن المتعب العاجز يجد عزاء في ان يجعل من تعبه وعجزه شريعة عامة، اما السعيد المنتصر فما اكبر اغتباطه باختصاصه وتفرده ! فهو إذن لن يحاول ان يجعل من فوائده الخاصة تشريعاً عاماً !

ولم تحاول الحياة ان تخفي حقيقتها هذه على أحد ، ولهذا جعلت من جميع البشر منافقين وكاذبين مهما أسرفوا في هجاء الكذب والنفاق .

❁

قد يرى هنا ان في هذا الذي أقوله دعوة الى الكذب والنفاق وترويجاً لها ! ولكن ، كيف ! فأنا أتحدث عن حقيقة موجودة وعن قانون ، والحـديث عن الحقائق والقوانين ليس دعوة ولا ترويجاً . ان الحديث عن الزلازل والبراكين والأوبئة والفيضانات ومناطق الجدب وأخلاق الناس ونقائصهم البدنية والعقلية وعن حقائق الحياة المؤلمة ليس دعوة ولا تبشيراً ، والبشر في سلوكهم ومشاعرهم نحو الأشياء لن يستأذنوني أو يستأذنوا أي كاتب او مفكر او مصلح، ولن يلتزموا ما يقال لهم ويدعون اليه . وهم لن يصدقوا اذا قيل لهم اصدقوا والصدق خير ، ولن يكذبوا اذا قيل لهم اكذبوا والكذب خير ، بل هم يصدقون ويكذبون بقوانين من طبيعتهم وطبيعة حياتهم وأوضاعهم وأعمالهم. وليت الطبيعة البشرية تخضع لما يقال لها وتتكون بالدعوة والتبشير ، إذن لصنع الإنسان نفسه على نحو

آخر عظيم جداً . لقد جاء الأنبياء والمبشرون والمصلحون في كل الأزمان يدعون الناس الى الصدق وكل الفضائل ، وينهونهم عن الكذب وكل الأعمال الرديئة ؟ فماذا كانت النتيجة ؟ هل ضعفت ارادتهم للعصيان، او ضعف خضوعهم لما يريدون ؟ واذا كان الناس طيبين يطيعون ما يقال لهم ، فهل يمكن ان يتركوا دعوات الانبياء وما تقوله لهم الكتب المنزلة ليستمعوا الى تفسيراتي انا لمنازع الانسان نحو الصدق والكذب ؟ هل يخشى ان انتصر على جميع رسالات السماء وتعاليم كل المعلمين ؟

اني اتمنى ان يبلغ البشر الطور الذي يجعلهم لا يحتاجون الى الكذب او لا يستطيعونه ، كما أتمنى ان تزول جميع الآلام والعيوب الموجودة في الارض ، وكما أتمنى ان تتحول الصحارى المجدبة الى مروج يانعة ، والبحار الى مياه عذبة والمناطق القطبية الى مناطق آهلة عامرة بالانسان والحياة . ولكن لقد تحدثت عما هو كائن لا عما اتمنى ان يكون !

ومع هذا فإن اكذب الناس هم الصادقون لأنهم حينما يصدقون لا يريدون ان يقولوا الصدق ، بل شيئاً آخر ، انه الصدق الذي يراد به غير الصدق ، وهذا أشنع اساليب الكذب . اكثرهم يصدقون ليعرضوا انفسهم عرضاً كاذباً ، انهم يصدقون ليفهموا فهماً غير صادق ، اي ليزوروا انفسهم ، وتوجد ايضاً اغراض اخرى ، كلها ليست صادقة حتى ولا حين تصدق !

✶

يقول الرواة انه يوجد حديث متواتر ، وان هذا النوع من الحديث مقطوع بثبوته ، ولا يمكن ان يشك فيه ، لا على احتمال الخطأ ولا احتمال الكذب ! ولما سئلوا ما هو الحديث المتواتر قالوا هو الذي يرويه قوم يستحيل ان يكذبوا أو يخطئوا ، عن قوم آخرين مثلهم ، وهكذا من بداية السند الى نهايته . وكم ينبغي او يشترط ان يكون عدد هؤلاء القوم! هذا شيء لا يستطاع تحديده ولايشترط. أيشترط ان يكونوا عدولا ! كلا ، بل ولا ان يكونوا مسلمين ، اذ لا يشترط غير العدد الذي لم يفهم ولم يحدد . نعم ، وكيف يشترط شرط يشترط فيه ألا يكون

معلوماً ؟ ان كان الأمر يرجع الى العدد ، فهو غير معروف ، وان كان يرجع الى اطمئنان النفس ، فهذا يختلف باختلاف الناس واختلاف حالاتهم وتقديراتهم ! ان كلمة « يستحيل » ان يكذبوا او يخطئوا ، ليست قانوناً من قوانين الطبيعة ، وإنما هي كلمة بشرية تقال وتعتقد تحت ظروف وتصورات بشرية ايضاً . فأنت حين تقول ان جماعة غير معينة من الناس لا تعلم عددها ، لا يمكن ان تجمع على نقل الخطأ لا كذباً ولا وهماً ، لا تكون معبراً إلا عن ظروفك النفسية وعقائدك تحت تأثير ظروفك الحسنة والسيئة ، القوية والضعيفة – اي معبراً عن حالة من حالات الاستجابة فيك ، وحالات الاستجابة ليست شيئاً متقرراً لا فيك ولا في الآخرين ، وإنما هي كسائر المشاعر المتلقية متبدلة دائماً . انها كقبولك للزكام والعدوى بأي مرض ونجاتك منه ، يحدث هذا وهذا بقدر استعدادك وتلقيك ، لا على حساب قاعدة ثابتة مضمونة الحكم . وهذا مثل استحسانك لوجه او مكان او قصيدة او فعل – هو تعبيرك انت لا تعبير ما ترى او تجد . وقد آمن هؤلاء بكل رواياتهم ولم يقبلوا فيها نقداً ولا شكاً لأنهم كانوا يعيشون في ظروف نفسية وذاتية تجعل استجابتهم للغباء وتصديق ما لا صدق فيه شيئاً محتوماً !

*

اذا اشترك قوم في امر كانوا اسرع وأجرأ عليه من الواحد ، وكلما كثروا زادت سرعتهم وجرأتهم . والناس مجتمعين يفعلون ويصدقون ما لا يستطيعون فعله وتصديقه فرادى ، فهم يجرؤون على قتـــل الملايين من البشر في الحروب وتدمير المدن الكبيرة الجميلة ، وعلى إتيان ابشع الفظائع وتصديق اضخم الخرافات والأكاذيب ، وعلى الاستمساك بالتقاليد السخيفة جداً بلا شعور مضاد ، ولكنهم قد يجبنون عن هذا أفراداً . فالوحدانية خطر ووقار وتفكير ، امـــا الاجتماع فطيش وجنون وغباء ! ان المرء قد يجبن عن ارتداء الملابس الشاذة وعن التجرد من ملابسه وعن ان يصدق او يحدث بأنه يرى الجن والملائكة والموتى يمشون على الارض ويخاطبون اهلها ، ولكنه يجرؤ على ذلك باعتزاز وزهو اذا شاركه فيه آخرون . ولولا هذه المشاركة لأحجم اكثر الناس عن اكثر ما يقولون ويعتقدون

ويصنعون ، بل ان هذه المشاركة قد جعلت الحد الفاصل بين الفضيلة والرذيلة والقانون والخروج على القانون ، فالخروج على هذه المشاركة هو المقصود بالخروج على النظام والشرائع والأخلاق . الذي يؤمن به الاكثرون ويشتركون في فعله او في تحسينه وقبوله ، هو الفضيلة والقانون ، والعكس صحيح كذلك ، ولا حجة لهذا او هذا غير المشاركة . ومن اقوى الاسباب في بقاء الاديان والتقاليد والنظم الكبرى في العالم اطول الازمان هو هـذا الاشتراك . والمخطئون المشتركون لا يشعرون بخطئهم ، لأنهم لا ينظرون الى انفسهم . وأعاظم المستبدين المجانين في التاريخ وفي عصرنا الحاضر لم يستطيعوا ، ولا يستطيعون الاقدام على مغامراتهم الحربية او غيرها ، إلا بعد أن يستشيروا وزراءهم وأعوانهم وقوادهم ، ويظفروا بمشاركتهم أو مشاركة فريق منهم لهم في الرأي . فالانسان جماعي في عقائده وتقاليده وانفعالاته وسلوكه،وهو يؤدي هذه الجماعية بلا صعوبة ولا تفكير ولا معاناة ، كما يؤدي طقوسه وصلواته ، بل انها لتكاد تعمل فيه كأنها الغريزة!واذا كان لا بد لهذا من اسباب، فلا بد أن نذكر من هذه الاسباب ان المشاركةتبطل المسؤولية او تخففها،بل ان الخروج على هذه المشاركة يوجب الاستنكاروالعقوبة، وهذا يجعل الخروج مغامرة تحتاج الى شجاعة كبرى . ومن جهة اخرى فإن الانفراد يقوم على التفكير والتوتر ، اما الاشتراك فإنه يعفي من ذلك تماماً . والتفكير يخلق التردد والتهيب والتقدير الطويل الذي ينتهي احياناً الى الجبن ! والذي يريد ان ينفرد باعتقاد شيء او بفعله او بقوله ، فلا بد أن يفكر فيه وفي عواقبه تفكيراً طويلاً — او على الأقل لا بد أن يفكر أطول من المشارك لغيره ! ان في الانسان طبيعة القطيع ، فهو في الجماعة يتحرك ويؤمن تلقائياً بدون أن يسأل عقله او قدميه لماذا فعل هذا !

وهذه الطبيعة في الانسان تحكم الرواية كذلك . فالناس اذا كانوا جماعة لم يبالوا بما يروون ولا يفكرون فيه ، ولا يسألون هل يمكن ان يكون صدقاً ، أليس ذلك مستحيلاً ، أليس به ما يجعل الناس يسخرون وينكرون ؟ وإنما يتتابعون في مروياتهم ، كأن روحاً شريرة تنفث في أرواحهم جميعاً الخرافة

والاكذوبة وحبها ، وكأن أبصارهم وأسماعهم ووجداناتهم المتعددة تتركز كلها في قوة واحدة خارقة فيرون ويسمعون ويجدون ما لا وجود له . ان الواحد من هؤلاء ليتخيل الشيء او يبتكره او يراه حلماً او يظنه ظناً ضعيفاً او يحدث به على أنه كذب او مزاح فيذهب يرويه او يروي بعضه رواية واهنة لا يخفي تشككه فيها او مزاحه او كذبه ، فتذهب هذه الرواية تكبر وتكبر وتنتشر وتنتشر واذا بها تطول وتطول ، واذا برواتها يكثرون ويكثرون ، واذا بهم يحققون معنى التواتر ، واذا بالخرافة الضعيفة تصبح حقيقة كبيرة ! بهذا الاسلوب جاءت الاعتقادات الكبرى وتأكدت .

حينما يجتمع الناس تختفي الحقائق وتظهر في استعلاء وتحد الخرافات والاشاعات والا كاذيب . فالاجتماع يوحي بالالهام الكاذب ، وروح الجماعة روح خرافية ، ان بعضهم يوحي الى بعض باشاراته وحركاته وابتساماته وصيحاته ، فينطلقون وكلهم يحدث بما رأى وبما سمع وهو لم ير ولم يسمع ، وان كان قد رأى او سمع شيئاً فقد اختلط بالضجيج وضاعت معالمه وحدوده في عديد المعالم والحدود ، وأصبحت محاولة تمييز ما قيل او ما سمع كمحاولة تمييز نغم يطلقه وتر بين حشود الأوتار المنطلقة في لحظة واحدة ! ثم ان المفروض في المجتمعين أن يروا ويسمعوا ويقولوا ويرووا ، فاذهانهم وحواسهم مهيأة للتلقي والايحاء . والتهيؤ النفسي ظرف صالح لاستنبات التهاويل والاشباح الفكرية ، ووعاء جيد لعملية التفريخ . فالمفروض اذن في أذهان المجتمعين وحواسهم ان ترى وتسمع لتحفظ وتحدث ، ومعنى هذا ان الاجتماعات تبتكر الروايات والاساطير حيثما وجدت ، والمفروض ايضاً ان اعصاب المجتمعين تكون مرهفة ومشدودة ، وهذا يجعلها سهلة الانقياد والانخداع والايمان بالكذب . والمستعدون لتلقي الوحي يوحى اليهم ، والمؤمنون بالنبوة يظهر فيهم الانبياء ، والمنتظرون للمهدي يظهر فيهم المهديون ، والباحثون عن الاشباح في الظلام يجدونها ! ان الخطأ والكذب تفسيران من تفاسير الاجتماعات العامة ، ومعنيان من معاني الرواة اذا كثروا . والمقدر في الرواية المتواترة انها هي التي تقال او ترى في اجتماع عام ، فيروحون يحدثون بها

تحديثاً واسعاً يعطيها معنى التواتر ، والمقدر على وجه آخر في الحديث المتواتر أن يراه القوم او يسمعونه آحاداً فيحدث كل منهم بما رأى وسمع الى أن يصبح حديثاً متواتراً ، ولكن هذا بعيد جداً لأن افتراضه يوجب افتراض ان الرواية تتكرر مرات كثيرة في مواطن كثيرة بمقدار يحقق معنى التواتر فيها . واذا كان هناك احتمال بان الراوة رووا ما رووا متفرقين فهناك احتمال آخر قد يكون اقرب الى الصدق وهو ان يفترض ان بعضهم قد روى عن بعضهم ثم وحدوا المصدر الذي رووا عنه إما لاطمئنانهم وإما لأسباب اخرى ، وهذا معروف في عمل المحدثين وتصرف جميع الناس في جميع الأزمان . وعلى هذا الافتراض لا يكون الخبر متواتراً . والذي يقول قال رسول الله او عمر مثلاً يجب عليه ان يطمئن الى ان الرسول او عمر قد قال ويجب أن يسمع منه ذلك سماعاً — او هذا هو الذي يعتقده الناس . فرواية الجماعة لا يصح اذن ان يرى بان لها قيمة ارفع من رواية الواحد إلا اذا فرض ان اخلاق الجماعة وافكارها يجب افتراضها أفضل من اخلاق الواحد وافكاره. ولكن الجماعة لم تكن يوماً ما ذكية ولا مفكرة ولا فاضلة ، وعنها تنطلق دائماً أقصى ضروب الوحشية والغباء ! واذا تصرفت بذكاء او فضيلة فذلك لأنها مسوقة الى ذلك سوقاً بدون ان تكون ذكية او نبيلة ! وجميع مزايا الجماعة هي منحة أفراد ممتازين !

ونحن نطمئن الى تصديق رواية يرويها انسان واحد ممتاز نعرفه اكثر من اطمئناننا الى تصديق مثل هذه الرواية إذا روتها جماهير لا نستطيع أن نحصي أعدادها ، واذا اختلف مثل هذا الانسان الممتاز وهذه الجماهير في حديثهم فلن نتردد كثيراً في اختيار من نصدق . وان رواية رجل كسقراط لأفضل وأقوى مما ترويه جميع جماهير أثينا لو شهدت بأنها قد رأت القمر يصلي في أحد المعابد . والرواية في وعي الجماهير ليست شيئاً غير الرأي اذا كان الموضوع موضوعاً دينياً. ويجب هنا أن يفرق بين الرواية المتصلة بالدين والرواية عن الأشياء العادية ، والحديث موضوع ديني ، اذن لا بد ان يختلط فيه الرأي بالرواية ! والأفراد وحدهم هم الذين جاءوا بجميع الحقائق والكشوف والابداعات الكبرى التي

صاغت الحضارة ووهبت الانسان كل ما يملك من قوة ومعرفة وفضيلة ،وهدمت متواترات الجماهير ، وليس في الدنيا حقيقة واحدة عظيمة ليست من عمل الآحاد المتازين . والمجتمع لا يمكن أن يخترع ويكتشف ويفكر إلا بواسطة أفراد ، والجماعة لا تستطيع أن تفعل ذلك مجتمعة ، لا تستطيع أن تفعل ذلك كما تشترك في رفع الحجر ممسكة بكل أطرافه .

وتاريخ الانسان وحياته في جميع مراحل وجوده تدليل على أن روايات الآحاد وآراءهم أصدق من روايات الجماهير وآرائها .

ولو كانت روايات الجماهير المتواترة تعني شيئاً لكان للأرواح والأشباح والجن المتسلقين على الهواء ممالك وجمهوريات وجيوش وعلماء ومخترعون وعبقريات أعظم مما عند جميع البشر ، ولزال هذا الانسان المغرور المسكين بضربة واحدة من ضربات هذه العوالم الخرافية المتواترة ! وكذلك لو كانت متواترات الجماهير تحمل معنىً من معاني الحقيقة لأصبحت كل الأديان وكتبها والخرافات والمعجزات من الحقائق المتواترة التي يجب على البشر في جميع عصورهم ان يؤمنوا بها . ان لكل أهل دين ومذهب وأمة متواترات لا يعرفها الآخرون بل ينكرونها ، ولو صدقت كل هذه المتواترات لكان من المفروض علينا أن نؤمن بالشيء وبما ينفيه ، ولكانت الحقائق خليطاً لا مثيل له من المتناقضات والأماني والأساطير -ولو صدق بعضها وكذب بعضها لفقد التواتر المكانة التي يزعمونها له ! ولو كذب المتواتر في بعض صوره لكان كاذباً كله في معناه ، ولكان صدقه حينما يصدق لا يرجع الى أنه متواتر بل الى أسباب اخرى !ان اغلب هذه المتواترات العالمية لم تكن في ميلادها سوى رغبة او حاجة او حلم او رؤية كاذبة ولدت في أعصاب أحد المرضى من ذوي الارادة والجيشان العاطفي والخيال المقفر المتوهج بالألم والضيق والحسرة ! ثم لم تزل تتكاثر كجرثومة المرض حتى أصبحت وباءً عاماً ! ونحن لم نزل نشاهد في عصرنا توالد المتواترات من الكذب والضعف والرغبة المحرومة والخوف ، ثم نشاهد نموها السريع وفرضها لنفسها على السوق حتى تصبح قوة لا تمكن معارضتها او الشك فيها !

ان تواتر الشيء دليل على أنه خرافة ، فالخرافات هي التي تتواتر في الغالب ، وهي أكثر تواتراً من الحقائق،لأن الخرافات احتياج للجماهير وهي لا تكلف شيئاً ولا تحتاج الى عبقرية او تعب ، ثم هي مرضية لأنها تعبير عن الأماني التي لم تحقق، اذن فالسوق محتاجة الى الخرافة ومحتاجة الى تحويل الخرافة الى تواتر. أما الحقيقة فهي لا تملك هذه المزايا، لهذا لا تلقى الترحيب الذي تلقاه عدوتها. ان التواتر هو المعنى الكبير للخرافة! انه احتلام جماعي ! والحضارة كلها مناقضة بمتواترات !

واذا رأى أنصار الرواية المتواترة أنه لا بد من الايمان بها لأنها هي الوسيلة التي عرفنا بها التاريخ وأحداثه وعرفنا بها الامم والرجال والمدن والمواقع – إذ لا وسيلة اخرى لمعرفة شيء من ذلك غير التواتر – إذا رأى أنصار الرواية المتواترة ذلك : قيل لهم إذا كانت أحداث الحياة والتاريخ لم تعرف إلا بروايات يرويها قوم بالأسانيد والعنعنات فما الذي يمنع حينئذ من الشك في كل هذه الأحداث او من انكارها ؟ اذا أنكرها منكر فهل نثبتها له بالرواية او بشيء آخر ؟ اذا كانت الرواية هي الوسيلة الوحيدة لاثباتها فان الذي ينكرها لن يجد ما يجعله منكراً لحقيقة محتومة ، واذا أمكن إنكار شيء كان الايمان به جنوناً او غباءً . والذي يمكن انكاره ليس حقيقة ، والذين يؤمنون بما يستطيعون ان ينكروه ليسوا عقلاء !

وليس ايماننا بوجود احدى الامم الخالية او بأحد رجال التاريخ المشهورين او بإحدى المدائن المشهودة مثل ايماننا بأن احد القديسين كان يبصق الشموس من فمه ويشير الى الكواكب لتسجد بين يديه وتتوضأ ببصاقه ، ويمد اصبعه الى المقابر فتخرج من فيها من الموتى ، ويأمر القوانين الطبيعية فتتوقف عن العمل . وإذا كان الايمان بهذا يساوي الايمان بذاك فمن الخير للإنسان وللتاريخ ألا نؤمن بشيء. وهذه الدعوى لو صحت لا تقوي الرواية وإنما تضعف التاريخ !

ان التواتر الذي هو موضوع كلامنا هنا يتعلق بأمور غير مرئية ولا موجودة او حاضرة بل ماضية لا تخضع للتجربة المادية ولا للامتحان ، انها كلمة تقال ولا تعاد، او معجزة لا تمكن رؤيتها ، وفعل ينقضي ولا يترك لنفسه صورة او بصمة،

او مصارعة فوق النجوم بين الآلهة ، فمن كذب او اخطأ فسيذهب بخطئه وكذبه. والتاريخ ليس كذلك ، واذا كان كذلك فلا أسف على جحوده او احتقاره ! والتواتر في الأحاديث يتصل بالضمير الديني ، والضمير الديني لم يكن حكماً صالحاً في أي عهد من العهود ولا لدى أي رجل من الرجال ! والفرق لا يخفى بين ان يشهد شعب حرباً او يبني مدينة او يسكنها ثم يأخذ يتحدث عنها ، وبين ان يتحدث المؤمنون عن شخص خرافي يعيش مع الملائكة او مع الجن او فوق السحاب ويعبث بالقوانين الكونية كما يشاء ! فذاك من عمل العين والأذن والحواس وينتهي بالادراك ، وهذا من عمل الرغبة والرهبة وينتهي بالاعتقاد ، والاعتقاد تعبير من تعبيرات النفس وليس موضوعاً من موضوعاتها ، والحقيقة هي التي نجدها ثم نعتقدها وليست التي نعتقدها ثم نجدها . والذي نجد رغبة نفسية في اعتقاده لا يكون في الغالب حقيقة لأن الحقائق بطبيعتها تصدم الرغبات لأنها تضادها وترهبها وتتعبها ولا تقنع طموحها . ان الشوق الى اعتقاد شيء ما قد يكون نوعاً من التشكيك فيه ! والتاريخ لا يمكن انكاره لأننا نحن امتداده وطرفه الأعلى ونحن طبعته الأخيرة الجديدة ، فلسنا نعرف التاريخ بأسانيده المتواترة بل بجسمه الضخم الممتد فينا وفوقنا والذي نعبر عليه كل حركاتنا ! وأي جزء يمكن اخراجه من حساب التاريخ بدون ان يتغير هيكله او مجراه فليس من الحتم ان يكون منه ، واذا بترنا من التاريخ أية قطعة من غير ان نتألم ونشعر اننا نحن الذين بترنا فتلك قطعة غير تاريخية !

اما الروايات فما هي الا آلام التاريخ وأمانيه العاجزة تفجرت آهات في اخلاق الضعفاء المتقدمين فصلى لها الضعفاء المتأخرون ووجدوا فيها الراحة والمبرر الأخلاقي للهرب من الحياة المكافحة الصعبة ، ونقلوا حظهم من عالم الأحياء المتعب الدنس الى عالم الأموات المريح الطاهر ! وقد استراحوا بهذا الحل الذي جمع لهم بين الرضا عن النفس والتخلي عن الأعمال الكبيرة مع الاحتفاظ بالأمل الذي لا بد ان يكون اما هنا واما هناك ! وما أسهل الاقتناع بالفكرة التي تجعلنا فضلاء امام انفسنا وأمام مجتمعنا ، وتجعلنا مع ذلك موعودين بأفضل

الفرص والحظوظ مع اعفائنا من تكاليف كينونتنا ! وقد ظل البشر في اكثر عصورهم يشترون الكذب بالحرية والراحة بالحقيقة !

*

في روح الجماعة اشواق حارة الى الحديث عن الموتى والاستماع اليه . ويظهر ان التحديد بالموتى هنا غير دقيق ، فالجماعات يبهرها الحديث عن الغائب كيفما كان ذلك الغائب بقـــدر ما يبهرها الاستماع الى الخوارق ، وهي تجد سروراً روحياً كبيراً في ان تتحدث وأن تسمع الحديث بالتهاويل والمعجزات عن الأموات والأشباح والآلهة والقديسين والأشرار ، عن الذين مضوا ، وعن الذين لم يوجدوا ! ولعلها تريد ان تخرج من حدودها الزمنية والوجودية والشعورية وان تندمج في المطلقات لانها لا تطيق التحدد في صورة من صور الكينونة او الزمان او من صور الشعور والتفكير . والتحدث عن الكائنات الخارقة يغازل هذه الأشواق . ورغبتها في الخروج على نفسها هي التي أنتجت لها الفنون والآداب والأديان بكل ما فيها من أساليب التعبير الصوتية والحركية والتصويرية والانفعاليـة ، وهي ايضاً التي علمتها العربدة والغيبوبة !

ان الانسان لا بد ان يكون محدثاً ومستمعاً ، واختراع اللغة ، وكذلك جميع وسائل التعبير ، سببه ان البشر محتوم عليهم ان يتحدثوا ويسمعوا ويحيا بعضهم في بعض . وكل وسيلة من وسائل التعبير سواء اللغات وغيرها ، انما أريد بها ان تكون أداة لكي يستطيع الانسان ان يوزع نفسه ويستقبل الآخرين – أي ان الانسان لا يستطيع إلا ان يكون جهاز ارسال وجهـــاز استقبال . ومع ان الاستماع عملية استقبال فقط فيما يبدو فانه ايضاً عملية ارسال ، فالذي يستمع الى الحديث لا يستقبل الآخرين فحسب بل ويتوزع عليهم . انك اذا استقبلت غيرك فقد توزعت عليه كذلك ، واذا واجهت مشاعر انسان وأفكاره فقد ألقيت عليه ايضاً مشاعرك وأفكارك ، وأنت تحيا في الآخرين بقدر ما تستقبلهم ليحيوا فيك ! والذي يتعامل مع الناس بعواطفه او عقله او فنه وآرائه بأية طريقـة من طرق المعاملة سواء أكانت كلمة أم حركة أم صورة أم صوتاً لا يعني بذلك ان

الخير او الاستقامة او السرور والحب ، وانما يقصد ان يتخلص من ذاته ويلقي بها عليهم ، ويقصد كذلك ان ينتقلوا اليه بهذه الوسيلة ، فهو يريد ان يحيا فيهم وأن يحيوا فيه ! والاستماع الى الرواية لا يعني ان سنداً او قوماً من الموتى يتدخلون في حياة قوم من الأحياء ليفرضوا عليهم كينونتهم ووجودهم التاريخي الذي قد مات او يفرضوا عليهم مزاياهم ورذائلهم ، ليس في المسألة غزو خارجي ! ولكن الاستماع الى الرواية يعني ان قوماً من الأحياء يريدون ان يهربوا من أنفسهم بما فيها من أشواق ومتاعب وأزمات وهموم ، ويهربوا من ظروفهم بما فيها من عجز ونقص وخوف ، ويخرجوا مما يجدون الى ما يتمنون ، فهي عملية تسليم من الداخل ! الذي يذهب الى السينما او يشاهد تمثيلية او يسمع الموسيقى ، ماذا يريد او ماذا يفعل ? اعتاد الناس ان يقولوا جواباً عن ذلك : انه يريد ان يجلب لنفسه سروراً او يتخلص من اكتئاب ، حسن . ولكن كيف يحدث ذلك ? انه بهذه الوسيلة التعبيرية البسيطة ينتقل الى الآخرين والآخرون ينتقلون اليه ، وبهذا تتغير انفعالاته وتتحرك تركيبته النفسية !

لماذا نريد ان نتحدث الى الآخرين ويتحدث الآخرون الينا ? ان الحديث والاستماع اليه عملية مرهقة ، ولكننا مع هذا نرتاح لهذه العملية ونبحث عنها ونلقي بها عن أنفسنا أعباء ثقالاً ! والتفسير لهذه الظاهرة المتناقضة اننا بالحديث والاستماع اليه نلقي بحالتنا النفسية على الآخرين ونختلط بهم شعورياً وفكرياً ، وهذا يريحنا على نحو ما من وضعنا النفسي الباهظ . ولهذا فليس في البشر من لا يريد ان يتحدث وان يسمع الحديث . وقيمة الحديث ليست في موضوعه او في جدواه بل في الحديث نفسه . والناس يتحدثون وهم يعلمون انه لا فائدة من حديثهم ، وهم لا يريدون ان يكون لحديثهم فائدة ، وإنما يريدون ان يتحدثوا فقط . ويبدو انهم لا يعنون ما يقولون في الغالب ، ولكنهم يتحدثون كما يحزنون ويحقدون ويشتمون بلا خطة موضوعة او هدف معلوم ! والحديث استجابة لحاجة المتحدث لا لحاجة السامع . والناس يؤدون عملية التحدث والاستماع اليه بالشهوة والحماس والأسلوب الذي يؤدون به العملية الجنسية ، وقد يستغنون عن

الأعمال الجنسية دون الاستغناء عن عمليات الحـديث ! ان الذين استغنوا عن الجنس ظلوا محتاجين بنهم اكثر الى الكلام ! ونوبات الحاجة الى ممارسة التحديث اكثر جداً من نوبات الحاجة الى ممارسة العمليات الجنسية !

واذا كان الرجل والمرأة كل منهما يبحث عن الآخر بحافز الجنس ، فإن الرجال ايضاً يبحثون عن الرجال، والنساء عن النساء بحوافز الحديث. والحديث غاية في ذاته وليس وسيلة دائماً ، انه كالرغبة الجنسية تؤدى بحثاً عن الراحـة واللذة ، وان كان لا يقصد بها الأولاد! ولو كان البشر لا يتحدثون إلا حين يكون الحديث يعني شيئاً او وسيلة الى شيء ، لظلوا اكثر اوقاتهم صامتين ، ولما وجد كل هذا التراث الهائـل من الكتب والتعاليم والاديان . ان من اشد العقوبات ان ان يمنع الناس من الحديث الذي لا يفيد – ان يمنعوا من الصراخ ومن الأنـين المسموع والمكتوب ، انهم خليقون حينئذ ان يتعذبوا ويمرضوا ويجنوا ، وانـه لجنون ان نحرم على الناس الثرثرة واللغو من القول . لقد وجدت أقسى الشرائع والقوانين وأغباها ، ومع هذا لم يوجد قانون أو شريعة تحرم الكلام الفـارغ او تحرم البكاء الذي يتحول الى حديث ، بل لقد أوجدت هذه القوانين والشرائـع الوسائل الكثيرة التي تجعل الجماهير تتحدث وتبكي وتصرخ عاليـاً وكثيراً باسم الايمان والعبادة او الوطنية او النضال ضد الأعداء والفساد . والهتاف باسم الإله والبطل تعبير عن الحاجة الى الصراخ ، لا عن الحاجة الى الايمان والاعجاب ! وهذه الصداقات بين البشر ، ليس الحافز عليها هو الحب ، بـل لأنها تعطيهم الفرصة لكي يتحدثوا ويتحدث اليهم الآخرون ، وهم اذا لم يجدوا من يتحدثون اليه او يتحدث اليهم ، ذهبوا يحدثون انفسهم او يحدثون الجمـادات والحيوانات والفراغ . وليست الكتابة والشعر والغناء والصلوات في حوافزها الكبرى ، إلا حديثاً الى النفس ، ولعل كل العبادات في كل صورها حديث نفسي! وقد اخترعوا الآ لهة ليتحدثوا اليها ، وقد تصوروا هذه الآ لهة متحدثة ، لأنهم يريدون ان تتحدث اليهم ، ولأنهم لا يتصورون عاقلاً مريداً بدون ان يتصوروه متحدثاً ! قيمة الآ لهة في اننا نتحدث اليها ، لا في انها تستمع الينا ! ان الناس يتحدثون الى

الارباب ، كما يتحدثون الى النجوم والاطلال ، هي حاجة الى الحديث لا الى السامع .

والقيمة النفسية للحديث هي في انه جهاز من اجهزة التصريف لانفعالاتنا الأليمة التي تتجمع في داخلنا بسبب التصادم المستمر بين ارادتنا وقدرتنا ، او بين قدرتنا وتعاليمنا ، ولهذا فإنه كلما اشتدت آلامنا وتناقضاتنا مع ظروفنا اصبحنا احوج الى الحديث . ومعروف ان المرضى والمتعبين والعصبيين هم اكثر الناس حديثاً لأنهم اكثرهم تناقضاً مع الحياة،واكثرهم كذلك اختزاناً للانفعالات الحادة ، ولهذا كان اصحاب الرسالات والمصلحون والكتاب والفلاسفة يخرجون في الغالب من بين انقاض هؤلاء المتألمين القلقين الذين يذهبون يبكون ويصرخون فيتحولون الى انبياء وإنسانيين خالدين ، مع انهم ليسوا سوى اطفال يبكون من الخوف او الحرمان! وحواسنا كلها وسائل جيدة للتخفيف من ضغط مشاعرنا علينا ، إننا برؤية الاشياء وممارستها بأسلوب اللمس والشم والتذوق وغير ذلك ، نخفف من حمولتنا الانفعالية . ولم يزل الناس يجدون في الاسفار وفي رؤيةالاشياء الجديدة والاماكن البعيدة ، وفي رؤية الآخرين الغرباء مسرة وتفريجاً نفسياً ، وسبب هذا هو تبديد مخزونهم من العواطف بتوزيعها على تلك الاشياء بالرؤية واللمس والاشارة والاعجاب والاتصال . فالسفر ليس انتقالاً ، بل توزيع ذات، وذوات البشر تنتشر على الاشياء وتتوزع كما يفعل الضوء والحرارة والهواء . ولا بد ان الحيوانات والطيور نفسها تعمل بوحي من الغريزة على تشتيت انفعالاتها بالحديث غير المفهوم الذي تطلقه بأصواتها وأغانيها المختلفة ، حتى كأنها تصلي او تخطب او تقرأ رسالة وصلتها من السماء ، او تكتب رسالة ودية الى السماء ، او كأنها تتلاعن او تتناقش في قيمة احد المذاهب او العقائد كما يفعل البشر! وهؤلاء الذين جاءوا الإنسانية بالكتب والأساطير الخالدة ، هل كانوا يريدون ان يعلموها او كانوا يعطفون عليها ، وهل كان هداها وضلالها ، وخيرها وشرها في حسابهم وتفكيرهم؟ أم هم إنما كانوا اناساً يبكون ويتحدثون مع أنفسهم بأصوات عالية!

إن الحديث عملية صراخ تعبر عن الضيق والألم والعصبية والهياج الجنسي!

والمحروم جنسياً يتحدث اكثر من المرتوي جنسياً ! وكم هي مأساة أن تحول انعكاسات النفس واحتشاداتها المريرة الى آلهة وأديان وثقافات يراد لها ان تفرض على جميع مستويات التاريخ ! والرجال الذين يبدون وكأنهم يريدون ان يقتلوا أنفسهم غيرة علينا وحباً لنا ومحاولة لإصلاحنا ، والذين يبكون او يتشنجون وهم يمطروننا بالمواعظ والتعاليم وعمليات التبشير الكبرى التي يرصدون لها حياتهم ويلطمون بها مشاعر المجتمع واخلاقه — هؤلاء الرجال ليسوا وفداً من السماء جاء ليخلص انفسنا من الذنوب والآلام والنقائص ، وإنما هم اناس معذبون هاربون يريدون ان يتخلصوا من ضيقهم وكآبتهم النفسية ويلقوا بها علينا ويتعالجوا بالسقوط فوقنا ! والمستمعون اليهم يفعلون الشيء نفسه ، فهم لا يستمعون اليهم لأنهم يحبونهم او يحبون الحقيقة ، ولكنهم لأنهم هاربون من حالتهم النفسية ! وما يفعله هؤلاء وهؤلاء ليس الا عملية استفراغ على الفريق الآخر يتبادلونها . فالأنبياء وأتباعهم لا يحب أي منهما الآخر ، وانما يغتسل كل منهما فوق الآخر . والعلاقة بين التابع والمتبوع هي دائماً نوع من المشاتمة وليست نوعاً من المصافحة ! واذا وجدت من يتحدث اليك بثورة وحماس ينصحك ويرشدك ويمنحك خالص نفسه فاعلم انه انسان محتاج الى ان يتحدث ليشفي نفسه من آلامها وضيقها ، وليس انساناً غيوراً او طيباً او محباً للآخرين ، وكذلك اذا وجدت من يستمع الى أحاديثك الطيبة الهادية بإيمان ولهفة ، فليس لك ان تراه انساناً حكيماً فاضلاً يتلقف الحكمة والفضيلة من فمك وقلبك ، ولكنه انسان ضائق بنفسه يبحث عن الفرار منها ويريد ان يهرب اليك ويعيش فيك ، ولهذا فإن المفروض عليك اخلاقياً أن تهب محدثك والمستمع اليك هذه الفرصة . ولكن وأسفاه ! فأنت لست فاضلاً الى المدى الذي تتطلبه حاجة الآخرين اليك . انك لن تمنحه هذه الفرصة الهينة عليك إلا اذا كنت انت ايضاً هارباً من نفسك وتريد أن تلقي بها على من تتحدث اليه ويتحدث اليك ! انك لا تتحدث ولا تستمع الا

بقدر ما تريد انت لا بقدر ما يريد من تتحدث اليهم ويتحدثون اليك . ولا يوجد انسان واحد في هذه الدنيا ليس مقيداً ومحكوماً بذاته الخاصة ، لا يوجد من يشعر شعوراً عاماً او يفكر تفكيراً عاماً او يملك اخلاقاً عامة . ان كل شيء في الانسان خاص ، ولا يمكن ان يكون غير خاص ، ولكن هذا الشيء الخاص يعرض عرضاً عاماً ويقع التعامل عليه كأنه عام . فاذا كنت زعيم أكبر دولة او قائدها او قائد الانسانية كلها ومعلمها ، وكنت تشعر وتفكر وتعمل وتتعامل من خلال ذاتك الخاصة فكم يكون ذلك سخيفاً ومخيفاً ! والبشر حتى اليوم لم يجدوا وسيلة يجعلون بها الانسان العام في عمله ، انساناً عاماً في حوافزه وتعبيراته !

والانسان في هذا العالم هو الكائن الفريد الذي لا يعيش وجوده فحسب - لا يعيش ذاته وظروفه فقط ، بل هو دائماً يعيش خارج وجوده - انه يعيش بعيداً بعيداً . وسبب هذا انه كائن هارب - كائن مفكر متخيل شاعر حالم حساس متألم بتفكيره ، وليس سوى الانسان من يتألم بالتفكير ، وكذلك ليس سواه من يخاف بالتفكير . وهو مصور متصور ، يتصور أشياء غير موجودة ويصورها . وانه لكائن يخاف اكثر من الكائنات التي هي دونه ، وخوفه الاكثر يجعله شيئاً اكثر واكبر ، وبقدر كينونتنا تكون مخاطرنا ، وتصرفنا ازاء الشيء متناسب مع شعورنا نحوه . والبشر هم وحدهم الذين يعيشون في التاريخ والمستقبل وفي المحال والكذب وفي الحقيقة ايضاً ، ويتحدثون عما كان من الموتى والآلهة وبدء الخليقة ، وعما لم يكن مما سوف يكون ومما لن يكون ، يتحدثون عن الاحلام والحضارات والغد المقبل القوي . هم دائماً يحيون ويتحركون في عمليات جذب متناقضة هائلة ، وهم لهذا يتجهون احياناً الى الخرافة والتاريخ ، يحاولون ان يعيشوا فيهما هاربين من انفسهم الى الوراء ، وحينئذ يتخلفون ويعجزون عن الكينونة الكبرى ، وأحياناً اخرى يتجهون الى الحقيقة هاربين من انفسهم الى

المستقبل، تعيش فيه اشواقهم وافكارهم وأحلامهم، وحينئذ يتقدمون ويبدعون ويصنعون الحضارات القوية . فالحوافز التي تجعلنا نهرب الى الوراء ونصنع الاحاديث والخرافات ونؤمن بها هي نفس الحوافز التي تجعلنا نهرب الى الامام ونصنع الحضارة والمستقبل الكبير !

اذن ليس الحديث الا محاولة للخروج من النفس والكينونة خارجها، والحضارة كذلك ليست إلا محاولة مماثلة ، ولكن اختلفت طرائق التعبير . والفرق بين هذا وهذا ، كالفرق بين من يحولون احتياجاتهم وآلامهم الى احلام وبكاء ، ومن يحولونها الى تفكير وإبداع . وقد ظل الحديث بمعناه العام ، أي الكلام، يستنفد اكبر الطاقات من حياة الانسان في جميع العصور .

ان المناضل والمخترع لا يريد الا ان يكون غير نفسه وان يتخطاها ويتفوق عليها ، وان المتحدث والمستمع للحديث لا يريد ايضاً الا ان يكون كذلك ، ولكن بطريقة فرارية ! والصانعون للأحاديث وللخرافات التاريخية والمؤمنون بها ليسوا فضلاء ولا باحثين عن الحق ولا محترمين لأنبيائهم وشيوخهم وأربابهم الذين يحدثون عنهم ويؤمنون بهم، وكذلك المخترعون والصانعون للحياة وللاعمال الكبيرة ليسوا فضلاء ! ان هؤلاء وهؤلاء يريدون ان يعيشوا خارج وجودهم وظروفهم ، ولكن شتان بين وسائلهم في التعبير عما يريدون . قوم يريدون فيعجزون فينامون لينسوا ارادتهم ، وآخرون يريدون فيواجهون ارادتهم بقوة وذكاء .

ولعل من اسباب الايمان بالأحاديث والأساطير ان المؤمنين بها يريدون ان يموتوا – تموت بعض أشواقهم وتحركاتهم وأفكارهم وحماسهم ومطالبهم ، لأنهم لا يطيقون ان يحيوا كل الحياة بكل معاني الحياة وشهواتها ، ان ذلك يرهقهم ويقتلهم . فالحديث والاسطورة عملية تمويت ممتازة ! ولا يوجد من لا يريدون ان يموتوا بعض حياتهم ، كما لا يوجد من يستطيعون ان يحيوا كل حياتهم ! كل الحياة لا يطاق ، اذن لا بد من بعض الموت ! الحياة بكل حوافزها ورغباتها لا تطاق، اذن لا بد من استرخاء الموت وفتوره على نحو ما ! والبشر محتاجون دائماً الى

إطفاء بعض الحرائق الكبرى التي تأكل ذواتهم ، وفي كل ذات وكل مجتمع حريق دائم ، وعمليات الاطفاء موجودة في جميـــع المجتمعات والذوات ، ولولا هذه الاطفائيات لاحترق البشر . ولم تكن التعاليم في كل صورها تعني عند الانسان الا انتؤدي عملية اطفاء منظمة ! ولهذا لا بد من التعاليم مع انه لا يمكن العمل بها . كل المجتمعات صنعت التعاليم ، وكلها عجزت عن اخضاع سلوكها او مشاعرها لها ، واعظم الدعاة من اصحاب الرسالات الكبرى الذين جاءوا بأقوى التعاليم واصرمها لم يكونوا أقدر ولا أكثر رغبة في احترام تعاليمهم من أفسق الفاسقين ! فالتعاليم مثل الآلهة : كل المؤمنين يهتفون باسمهـــا ، ولكنهم لا يستطيعون ان يعيشوا الا اذا شنقوها ! وقيمة الرسالة ، كل رسالة ، في ان نؤمن بها ونخرج عليها !

***

طبيعة التفكير العربي

نعني بالتفكير العربي تفكير كل من لسانهم القومي اللغة العربية . ومن الصعب الحكم بان نوعا من انواع التفكير قد اصبح طبيعة اذا كان المراد بالطبيعة الشيء الذاتي الذي يوجد مع الشيء وجوداً ذاتياً لاتعليمياً ثم لاينفك عنه بالتعليم ، وإذن ليس هذا هو المراد ، وإنمـــا المراد تلك الخصائص المكتسبة بوسائل خاصة من وسائل الاكتساب الفكري . ومن الصعب أيضاً الحكم بأن هنـــاك خصائص فكرية ولو مكتسبة ينفرد بها شعب أو طائفة ، فان افكار الامم وكذاوسائلها تتداخل وتتشابه في امور كثيرة ولو تداخلا وتشابها غير كاملـين ، فنحن إذن نعني بالخصائص هنا تلك السمات التي تتناول التفكير العربي وان تناولت غيره على وجه من الوجـــوه . والتفكير العربي مثل سواه من التفكير الانساني خاضع للظروف العامة التي تخلقه ثم تصبه في قنواتها وتصرفه لحسابها .

والشعوب العظيمة تجيء أقدر على التحكم في ظروفها وتسخيرها من الشعوب الاخرى — وكذا الافراد ، بل ان حياة هذه الشعوب كلها ليست سوى نضال عنيف دائم للظروف ، والحضارة كلها في كل معانيها ما هي الا مقاومة الظروف والدخول معها في معارك دائمة ، وتفوق الانسان على ماسواه لايعني إلا تفوقه في حربه ضد الظروف . أما الشعوب المتأخرة فانها عاجزة عن مقاومة الظروف بل

هي مستسلمة لها استسلاماً عقلياً ووجودياً ، ومزاياقدر الشعوب ليست فيحسن ظروفها ولكن في التغلب عليها ، بل ان سوء ظروف الامة قد يصنع مزاياها كما انّ لام الفرد وقسوة حياته قد يصنعان منه نبوغاً ومزية. فقسوة الظروف وكذا جودتها قد تصنع ضعفاً وقد تصنع قوة على حسب استجابتنا لهـا واستعدادنا لتلقيها: فقوم يحولون الظروف القاسية الى مزية ، وآخرون يحولون المزية الى هوان — قد يحطمنا الألم وقد يشيدنا . وجميع الاختلاف الذي نجده بين البشر يرجع الى اختلافهم في القدرة على تكييف ظروفهم . لا بد من المجال ولكن الانسان هو الذي يحول ذلك المجال الى وجود انساني ، والذين يعجزون وظروفهم رديئة لابد ان يعجزوا لو كانت ظروفهم جيدة ، والذين ينهضون وظروفهم جيدة لابد ان ينهضوا لو كانت ظروفهم رديئة . وموهبة الانسان متحركة، فاذا وجدت ظروفاً ملائمة عملت فيها ، واذا لم تجد احتالت على ان تجعـل غير الملائم ملائماً وأن توجد حالة اخرى ملائمة وأن تعوض عما لاتجد. ولهذا فقد تكون قسوة الظروف طريقاً الى الابتكار والتفوق والقوة ، وقد نتصور سكان الجحيم اذكى وأقوى وأعظم ابتكاراً وفضائل نفسية من سكان الجنة ! وقد نتصور سكان الجنة أغبياء وضعفاء مترهلين لانهم لايستعملون ذواتهم ، لان ظروفهم مواتية سهلة ، فالجنة هي اقسى عقاب تخيله الانسان لنفسه ! وكل أعمال الانسان هي ناتج التحدي بين موهبته وظروفه ! والموهبة لاتساوي نفس الموهبة ، ولا الموهبة مع استجابة الظروف لها ! فالتحدي للموهبة جزء من الموهبة ! ولا موهبة بلا ظروف متحدية !

وكفاح الظروف القاسية — وجميع الظروف قاسية بطبيعة وجودها — هو عمل الرجل المتفوق في هـذه الحياة ، وهذا لأن هناك دائماً منطقة فاصلة بـين حاجات الكائن الحي ورغباته وبين طبيعة الكون التي لا خيار فيها ، فلا يلتقيان التقاء كاملاً ، وكل ما يصنعه الانسان المتحضر ان يضيق من مساحة هذه المنطقة الفاصلة ، وقد يستطيع ازالتها في يوم من الايام . وليست الظروف كلها كونية بل منها الاجتماعية والنفسية وغير ذلك .

وظروف الامة العربية ليست خير الظروف ولا شرهـا ، فاذا اراد بعض

المفكرين ان يفسر تخلف الاوضاع العربية بقسوة الظروف او جودتها كان خطؤه لا يخفى ، واذا فسرنا تخلفنا بتخلف اوضاعنا الاجتماعية والثقافية والسياسية كنا كمن يفسرون الشيء بنفس الشيء، اذ البشر هم الذين يطورون اوضاعهم وهم الذين يتركونها متخلفة ، فنحن المسؤولون عن تخلف اوضاعنا وليست اوضاعنا مسؤولة عن تخلفنا ، فتخلف اوضاعنا هو معنى تخلفنا ! والذين يملكون ظروفاً جيدة هم الذين صنعوها - والعكس ايضاً صحيح .

*

واحدى خصائص التفكير العربي عجزه عن التفوق على ظروفه وتكييفها تكييفاً كبيراً ، فيوجد دائماً برزخ من الغموض والرهبة بينه وبينها يجعله دائماً عاجزاً عن الاقتحام فلا يكون فعالاً . فالظروف الطبيعية – بل والاجتماعية – في تصوره الاصيل كائن مقدس جبار أزلي أبدي– لا ينبغي كما لا يستطاع تغييرها فهو يراها قطعة من الألوهية، من ذات الإله، لقد خلط بين الطبيعة ونفسه ومجتمعه وبين الله . فالتقديس والقوة الواجبان للإله واجبان كذلك للكون لأن الإله هو واضع الكون وواضع فيه كل ما فيه من حكمة وبراعة وبقاء . فالايمان إذن بالله يوجب الايمان بالكون والاستسلام له والرضا بكل ما فيه وبأنه خير وعدل وفكرة وأبدية! فما يحدث حتى الأمراض والقحط والظلم والجوع هو حكمة وعدل ولطف من الله بعباده! وقد عدوا كل هذه الآلام طريقاً الى الجنة والى الله الرحيم الفاضل ! فالمرض شهادة ، والظلم حكمة، والألم ثواب. وقد كانت هذه الشرور في تقديرهم من أفضل ما خص به الأنبياء والصالحون ! وهذا التفسير للكون جعلهم يبررون كل ما يصيبهم تبريراً مستسلماً مهيناً فلا يقاومون مقاومة ناجحة ومنتصرة، واذا فعلوا او رأوا غير هذا فخارجون عن عقائدهم ومتناقضون ! لقد اضطرتهم الحياة الى ان يتناقضوا ويخرجوا على تعاليمهم ، ولم يكن ممكناً ان يلتزموها لأنها ضد الحياة ،فهي لحظة فرار من الحياة ، ان التعاليم موقف قد تجمد، والافكار هي أقوى أعداء الحياة لأنها تحديد والحياة اطلاق ، والافكار تكون قوية كلما كان المجتمع ضعيفاً ومغلقاً . وكل البشر في كل العصور يتناقضون مع أديانهم ومذاهبهم

وهذا التناقض مع أنه محرج فهو خير من التوافق . ولم يوجد من يستطيعون أن يتوافقوا معها دائماً ، وهذا ليس شراً ، ولولا التناقض لماتوا ! وقد عجز التفكير العربي عن الفصل بين الحوادث ومحدثها . ويرجع هذا المزج بينهما الى تصورهم لله، فقد تصوروه كما يتصورن أنفسهم ويتصورون حكامهم الطغاة !

تصوروا الله قوة مطلقة مباشرة لها الأخلاق والانفعالات والاغراض التي لهم ، فهو يفعل الشيء فعلاً مباشراً بلا أسباب ويضع القصد فيه كما يفعلون هم ، وكما يفعل حكامهم المتفردون المطلقون المنفعلون ، فكل ما في هذا الوجود جزء من الله ومن شعوره وتفكيره ، وهو محسوب عليه ومنسوب اليه مطلوب منه يضيفون اليه أصغر الاشياء وأكبرها حتى ليطلبون منه وينتظرون ان يشعل لهم عود الثقاب ويرفي لهم ثيابهم اذا اصابها التمزق ،ويرد الحبيب الغائب والهارب ، ويهدي الحاكم الضال الظالم واللص والمجرم والقاتل،ويلقون عليه تبعات كل ذلك. ولأنهم متناقضون لم يفهموا ان يسألوا : واذن فلماذا لا يفعل الله ما يريده اذا كان يفعل الاشياء فعلاً مباشراً ويستطيع ان يفعلها ؟

وهم لا يتصورون أنه يمكن الفصل بين الصانع وصنعته او انه يمكن ان تعيب العمل ثم تمدح العامل ، كما لا يتصورون ان يرضى العامل بتغيير ما عمل او تهذيبه من غير ان يشعر بالمهانة والنقد والتجريح ، بل ذلك في تصورهم قدح في مقدرته وفي أخلاقه ، ولهذا فانهم لا يعمدون الى التغيير بل الى السؤال . فاذا كانوا في بلاد لا يزورها المطر الا قليلاً لم يفكروا في محاولة تغيير هذه الحالة وانما يظلون يدعون ويستسقون وينتظرون دائماً الاستجابة حيث لا جواب ،وكذلك يفعلون اذا أصابهم الظلم ، انهم اذا استمسكوا بدينهم فلن يغيروا الظلم الذي ينزل بهم اقتداراً ولكن يرجعون الى من ظلمهم يلتمسون منه الرحمة والاحسان ، او يسألون له الهداية او الهلاك اذا لم تكن الهداية ممكنة ! ومن الصعب حقاً الجمع بين الايمان بان الله قد خلق هذا الكون وكل ما فيه من آلام وشرور بحكمته ورحمته وبين الايمان بأنه يجوز مع ذلك محاولة تغييره او الفرار منه او كراهته ، لأن مغزى هذه المحاولة ان ذلك الشيء الذي يراد تغييره او الفرار منه شر او ان فيه

شراً ، وحينئذ فالله حينما خلقه خلقاً مباشراً امـــا ان يكون مريداً للشر او عاجزاً عن دفعه ، وكلا الافتراضين قدح فيه ، فانتهوا من هـذا الى الرضا بكل ما هوحادث والى الايمان بأنه أعلى مستويات التدبير والحكمة . وهذه الانحدارات الفكرية نهاية محتومة للقول بالخلق المباشر ، الله فوق المخلوقات ، والله ايضاً هو المخلوقات ، الله فوق القوانين الارضية ، والله ايضاً هو نفس هذه القوانين ! ومع ذلك فالناس يزعمون انهم يعيشون ويؤمنون بالمنطق ، وان لهم منطقاً يتعاملون به . والشعوب التي يحكمها حكامها حكماً مباشراً تدرك بأن الاشمئزاز من حكمهم او الانـكار له هو اشمئزاز من الحاكم نفسه واتهام له ، والحكام أنفسهم يدركون هذا ايضاً ، فلم يقدر اولئك على الانكار ولم يسمح هؤلاء به ، فخرج من هذا عبودية اجتماعية وسياسية كاملة . لقد اجتمعت على هذه الشعوب عبوديتان عبودية الكون وعبودية الحكام . وبالعبودية الاولى ذلوا لكوارث الطبيعة ، لم يقاوموها او يفروا منها ، وبالعبودية الاخرى استسلموا لأظلم أساليب الحـــكم وأفسده بصبر ينافس صبر الأرباب ! اذا فعل الله او الحاكم شيئاً قالوا هذا غاية الحكمـة ، واذا فعلا نقيضه قالوا ايضاً نفس القول ! ونظرية وجود الله في أحداث الكون هي القاعدة لهذه الاخطاء ، فان الاعتقاد بان العالم لا يوجد ولا يتحرك إلا بتدبير الإله المباشر يؤدي الى الجنون الفكري او الى التناقض ، وبقدر مـــا يتناقض المؤمن ينجو من هذا الجنون ، لقد اصبح التناقض ذكاء واخلاقية لأنه يحمي من الجنون المحتوم .

ولم يتصور التفكير العربي المذهب الآخر المقابل القائـــل : بأنه لا صديق للانسان في هذا الكون ، وان جميع ما فيه يتحرك لحسابه هو ، لا لحساب الآلهة ولا لحساب الانسان ، وان الانسان هو وحده صديق الانسان ، وان حاجاتـه إنما تؤخذ من الطبيعة اغتصاباً ، وان البشر ليسوا الا حيوانات متفوقة ، ليست لهم قداسة ولا مركز ممتاز إلا ما يصنعونه لأنفسهم ، ليس الله في خدمتهم ، وليسوا هم في خدمته ! ان الشيء لا يقبل لأنه حدث وإنما يقبل لأنه حدث كما نريد ، وإذا قبلناه وقد حدث على غير ما نريد فذلك نقص في تفكيرنا او في قدرتنا . الكون يجب ان يكون إرادة لا وجوداً — أي كما نريده لا كما نجده ! ولكن كيف ! وهل

يمكن ان تكون الآلهة كما نريدها ام هي دائما كما نجدها !

*

والتفكير العربي لم يستطع ان يتصور السعادة او المثالية في هذه الحياة او في الانسان ، فهو لا يدرك كمال الانسان ولا كمال الاشياء ، وهو لايسعى لتحصيل هذا الكمال ولا ينتظره لأنه مستحيل – حتى الفضيلة الاخلاقية لا ينتظرها في هذا العالم – لاينتظرها من البشر لأنهم مخلوقون محكوم عليهم بالسقوط والعجز والدنس لكونهم عبيداً . وهم يبررون لحكامهم ولأنفسهم وللآخرين الاخطاء والخروج على القوانين والاديان بهذا المبرر ، فمهما فعلوا فمعهم عذرهم المقبول ، انهم بشر ! ان حقارة البشر وتلوثهم والحكم عليهم بالآلام الدائمة ، معنى من معاني كمال الإله وسعادته ، وكل شيء يقبل بنقائصه ، مع التسليم بأن النقص في الاشياء طبيعي ، والشيء له الوجود فقط ، وما زاد عن الوجود فهو فضل يقبل ولا يشترط. نعم توجد في اعتقادهم وتصورهم الديني مثالية واحدة تجب الدعوة الى تحصيلها والتحدث عنها وإن كانت مستحيلة في الواقع – تلك هي المثالية الدينية – المثالية الدينية كعبادة وعذاب في سبيل الإله ، لا كرقي إنساني ! وهم ينكرون وجود السعادة والمثالية لأنهم يرون الوجود هبة من خالق ، وهم يشعرون ان الهبة غير ممكن ان تكون كاملة، ولأنهم يعتقدون انهم وكل الكائنات قد أُوجدوا لغاية معينة – تلك هي ان يبتلوا بسائر ضروب العذاب ليجربوا ، يمتحنون بالطاعة وبالكف عن المعصية وبمقاومة الشيطان ومقاومة كل إغراء ، وبالمرض والجوع والظلم وجميع انواع الشقاء ، ويمتحنون ايضاً بالصبر على الله وعن الله ! وهذا الصبر على الله وعن الله هو معنى الايمان بلا فهم ولا احتجاج ! والامتحان في تصورهم لن يكون سعادة ولا مسرة، ولو لم يكن عذاباً ، لما كان امتحاناً ! لقد جاءوا ليتعذبوا هنا ، لكي يلقوا جزاءهم العظيم هناك ! والذين لا يتعذبون لا يأخذون شيئاً ، لأن الانسان ليس وحده في هذا الكون ، ولكنه اجير مغلوب عند القوة العظمى التي تملك كل الموجودات والتي لا تعطي الا المتعذبين . والذين يفقدون الايمان بانتصار الانسان وسعادته ، يفقدون مولداً

ذاتياً عظيماً – يفقدون توهج الشوق والرغبة والتطلع ، ويفقدون المحاولة الباسلة المتكررة الباحثة عن السعادة والمثالية ، ويرضون بأقل شيء في الحياة وبكل الآلام والتفاهات ، ولا يشترطون لوجودهم قدراً معيناً من الشروط !

*

والتفكير العربي ينزع الى التوحيد – توحيد القوى في قوة والتبعات كلها في واحد ، وينكر التعدد ويراه ضد الطبيعة والفضيلة .

انه كما وحد الإله وحد كذلك السلطان وجمع له الحقوق المفرقة وجعله مصدر كل الرغبات والمخاوف ، ولم يدع لنفسه شيئاً غير أن يدعو ويرجو ، انه يشعر بحاجته الى ان يظل عبداً او طفلاً يؤمر وينهى ويرعى ويبسط على ظهره السوط فيبكي ويتألم – هو دائماً في حالة فرار من نفسه . انه لا يريد ولا يستطيع ان يكون حراً ، الحرية صورة أخرى من صور العبودية والعذاب ! وحينما نطالب بالحرية إنما نعني المطالبة بنوع جديد من انواع العبودية ، ولهذا فإن جميع الحريات في العالم تتحول الى قيود وطقوس بعد أن تنتصر ، وليست كل التحركات التحررية الا تجديداً في العبودية ، والذين يحيون في النظام الديمقراطي هم مستعبدون لنظامهم تماماً ويهربون به من انفسهم وحريتهم . والفرق بين ما ندعوه حرية وما ندعوه عبودية هو فرق بين عبوديتين ، بين عبودية نختارها وعبودية تفرض علينا ! العبودية التي نختارها حرية ، والحرية في كل احتمالاتها هي محاولة الانتقال من عبودية قديمة الى عبودية جديدة، وحرية الانسان، هي حريته في اختيار عبوديته . وكل نضال البشر مقصود به هذه الحرية في اختيار العبودية– يقصد الناس بكل نضالهم ان يخرجوا من عبودية لا يريدونها الى عبودية يريدونها، وعملية الخروج هذه هي التي صنعت جميع الحضارات والافكار والابداع الانساني؟ والشعوب العظيمة هي التي تختار عبوديتها وتغيرها دائماً ، لانها في حركة دائمة سريعة ، اما الشعوب الذليلة فتفرض عليها عبوديتها ، إذ هي عاجزة عن الحركة والاختيار حتى اختيار القيود ! والانسان والمجتمع لا يستطيعان إلا ان يكونا حالة–حالة إيمان وتوافق ، والإيمان والتوافق يتحولان الى حالة–اي الى عبودية ،

ولهذا فإن كل المجتمعات تستعبدها نظمهـا وتجد شراً ومروقاً في محاولة التخلص منها ،لقد صنعت نظمها لتكون لها قيوداً . والانسان والمجتمع يريدان ان يخططا وجودهما ، وأن يكون لهما مكان وصورة،والمكان والصورة تقييد ، ولا يطيقان ان يكونا فراغاً غير متحدد او إطلاقاً ! والانسان والمجتمع ايضاً لا يمكن الا ان يكونا التزاماً !وقيمة أي نظام في نتائجه لا في اسلوبه او فيما يعطيه لا فيمايريده . والمطلوب هنا ان نكون نحن الذين نختـار عبوديتنا لا ان تفرض علينا ، وهذا الاختيار هو موضوع الحرية وتفسيرها ، وهو الفرق بـين الأحرار والمستعبدين !

*

لم يستطع التفكير العربي أن يقر معنى التعديد في السلطان والتبعات ولا في الافكار او الاديان او المذاهب او الاخلاق والضرورات . فالأمر والطاعـة والاخلاص — كل ذلك يجب ان يكون لواحد ، وكل من عدا هذا الواحد فما هم إلا اتباع او عبيد ، عليهم ان يؤمروا فلا يسألوا لماذا ولا الى اين ، وان كانت لهم حاجة فليلتمسوها سؤالاً ، فإن نالوها فهبة ، وإن حرموا فليس لهم ان ينكروا او يغضبوا ، اما الاخذ غلاباً فشيء ليس في الحساب ! وقد استدل المرحوم الملك عبدالله في مذكراته على وجوب تفرد الحاكم بالآية القرآنية القائلة : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » . وبعض الشعوب العربية تنسب الى حكامها ما تنسبه الى الله ، فالرخاء والنصر والقوة ، بل والمطر وجودة الاحوال الجوية من أولئـك الحكام ،وهم يتفردون في تقرير المصير وفي المساومات والمضاربات وفي البيع والشراء بهم من غير أن يعارضوا او يشاركوا.وإذا أعطى احد هؤلاء الحكام او أقر مشروعاً او وقع على الميزانية أو اعتمد الانفاق على مصنع أو وافق على تخفيض الاسعار او على قبول قرض من الخارج ، عد ذلك منحة وتفضلاً منه ، كأنه قد خلق أو كسب لرعاياه شيئاً من الجحيم بقوته وعبقريته المبدعة! ولا يدرك هؤلاء الطيبون ان جميع ما يصنعه هؤلاء الحكام ليس إلا توزيعاً لما ينتجون هم وتصرفاً فيه — تصرفاً ليس فيه إعطاء ولا عمل ، ولم يعرفوا مصدر قوة حكامهم ولا اسبـاب اختصاصهم بهـذه القوة — لم يعلموا انهم هم الذين خلقوا هؤلاء الحكام وخلقوا

قوتهم وفضائلهم الباهرة ، وانهم بدونهم فراغ وانهم لو كانوا أكبر او أصغر منهم لم يكونوا شيئاً ! ان في طبعهم ان يخضعوا فخلقوا من يخضعونهم بالحيلة والكذب والعصا .

اني افكر دائما في هذا الانسان العبقري الضال الذي يخاف ان يكون حراً فخلق الآلهة والاصنام والحكام الاقوياء الطغاة ليزعم انهم هم الذين خلقوه ! والتربية الدينية التي تشيد بقيمة الخضوع للوحدانية مسؤولة بعض الشيء عن هذا الانحراف الاليم ، وكذلك التربية التي صنعتها روح القبيلة المقدسة للطاعة – طاعة الكبار والاقوياء والآباء والرؤساء ، مع ان تلك التربية ليست الا تعبيراً عن حالة ! وكانت لتلك التربية ضرورات وفوائد في العصور السحيقة يوم كان الصغار يتبعون الكبار من الآباء وغيرهم ويعملون مثلهم ومعهم اعمالا تقليدية لافكر فيها اذا لم يكن الفكر قد ولد بعد ، كالذي يفعله صغار الحيوانات مع كبارها ، اما في عصر الفكر فان هذه تربية عقيمة تنأى بالانسان عن عصره الحاضر الى ماضيه السحيق .

ان التفكير العربي قد عجز عن ان يؤمن بالحزبية المتعددة الحرة لرسوخ الوحدانية فيه ، حتى في الحزب الواحد او في الاحزاب المتعددة التي اوجدتها شهوة التقليد للحضارة نجد الفردانية في سلطانها المطلق ، فرئيس الحزب هو الحزب كله ، له الرأي والامر والفضل جميعاً ، وما الحزب بكل مافيه الا رعية له ، انه صورة للقبيلة القديمة بشيخها المحتبي بردائه امام خيمته يوزع اوامره ونواهيه ويرتفع فوق الشك والنقد والمناقشة ! والاحزاب الاخرى الموجودة مع الحزب الذي يجب ان يكون له التفرد لابد ان تكون احزاباً مارقة وخائنة ، ويجب ان تقاوم بهذا الاعتقاد لان للحق دائماً صورة واحدة بمنظر واحد ، فالوحدانية هي المبدأ المطلق في كل الاشياء ! وما اكثر النكسات التي تصيب الشعوب العربية وترتد بها الى طغيان الوحدانية متفلتة بها من ملامح الديمقراطية الوافدة اليها من وراء حدودها الجغرافية والنفسية والتاريخية . والشعوب العربية تهتف دائماً من داخلها لكل نكسة فردية لان المسؤولية الجماعية ليست في طبعها ، فالجماعة يجب ان تكون دائمة مقودة تقودها الآلهة والطغاة ! وقد وجدناهم بأوسع

اساليب الدعاية والاعلان يشيدون بحكم الفرد ويحمدون الله على ان ردهم الى الحق ويستمطرون اللعنات على البدعة الاستعمارية الاجنبية الملعونة – بدعة الحزبية والديمقراطية ، ويبدعون وهم طربون في تبيان اضرار هذه البدعة وكيف لعنها الله في كل كتبه على السنة جميع الانبياء والمصلحين ! وقد كانت الديمقراطية في العالم العربي دائماً تمثيلا بلا فن ولا مسلاة يؤديه ممثلون زائفون امام نظارة من الاغبياء والنائمين ، وكانت القصة كلها تشبه اعمال الصبيان حينما يمثلون دور الكبار. ولم يكن الحكام يشعرون انهم في موقف حقيقي يلزمهم بشيء غير ما يريدون! وتوجد عقيدة قديمة قد صارت او كادت طبيعة في التفكير العربي ، معناها انه لا يمكن الظفر بالعدل ولا بالحكم الصالح ولا بالحياة الطيبة الا اذا حكم فرد سماوي عادل ، ويضربون الامثال لهذا بالانبياء والخلفاء وأمثالهم ممن حكموا متفردين فأعطوا الحياة والناس العدل والحب والقوة والكمال والفضيلة – اعطوهم اخلاق وحكمة السماء وبركات الارض !

وحكم الفرد معناه ان شعباً بأسره : بأفكاره وآماله وعواطفه وكل طاقاته يصب كله في ذلك الفرد ، ثم يتحرك جميع ما فيه ويعمل ويريد ويفكر داخل نفس ذلك الحاكم المتفرد ! وليس في الحياة كلها عبودية ولا مسخ اشنع من هذا ، انه ضرب من الاسترقاق الجماعي الذي هو شر جداً من الاسترقاق الفردي القديم . والحاكم الفرد مهما افترضناه عظيماً وشريفاً ومريداً للاصلاح وحب الانسانية ستفسده مخاوفه وطموحه – سيكون ولا بد خاضعاً لحساباته الخاصة : لمصالحه ومخاوفه وانفعالاته المتعددة المتقلبة ، ولطاقاته الفردية المتوزعة بمقدار توزع سلطانه المطلق ، ولشعوره انه واحد – واحد يحكم شعباً بالاكراه . ومثل هذا الانسان لا بد ان يكون ظالماً ومتقلباً وضالاً بل وعاجزاً مهما حاول ان يكون غير ذلك ! وشر ما في الحاكم المطلق انه يتركز حول نفسه . وقد يرضى الناس عن الخطأ الذي يختارونه لأنفسهم أكثر من رضاهم عن الصواب الذي يفرض عليهم ، وهذا يحمل أكبر معاني الخطر على الحكم المطلق وعلى المجتمع الذي يحكم بالوحدانية !

ويرى المرحبون بمثل هـذا النوع من السيطرة ان تجميع السلطان في واحد هو الضمان للوحدة الفكرية او للوحدة الشخصيـة في الأمة ، والوحدة الفكرية هي السبيل الى الوحدة في العمل والاتجـاه والشعور . ولكن كيف ! فالوحدة الظاهرة المفروضة لا تعني الوحـــدة الحقيقية ولا تمنع وجود الفرقة الفكرية والانشقاق المتواري خوفاً من الظهور ، بل انهـا تزيدها ، والوحدة الفكرية لا توجب وحدة في الاتجاه والعمل والشعور لأن الاختلاف حينئذ في الأغراض والمصالح والظروف سوف يقسم هذه الوحدة . ويبدو أن أشد الناس اتفاقاً هم أشدهم اختلافاً وتعادياً وتنافراً في الأغراض والنيات والمصالح ! انك اذا منعت الناس من ان يفكروا جعلتهم يختلفون ويتباغضون ويتنافرون أكثر، وهذا المنع يجعل احتمالات الخلاف المسلح أقوى . والوحدة الفكرية لا يمكن فرضها بالقوة ، بل ان القوة تنمي الخلاف الفكري. واذا خاف التفكير تحول الى بغض ومؤامرة واشاعة وخيانة أحياناً ! واذا لوح لنا التاريخ بحكام تفردوا فكانوا عظماء ومصلحين فالتفسير لهذا ان الحاكم المطلق يشبه النيزك الهاوي في الظلمة : بقدر مـا يكون مضيئاً يكون مدمراً ومنحدراً .

وما هو العدل؟ ليس صورة جامدة يراها الناظرون فيعرفونها او ينكرونها، ولكن العدل لن يكون مهما اختلف في تحديده شيئاً غير الاستجـــابة لأكثر ما يمكن من معاني الحياة ومشاعرها — العدل هو القوة على أوسع مدى . وهـذه الاستجابة لمعاني الحياة لن تكون ممكنة او كاملة تحت حكم القوة المستبدة المتفردة مهما كانت فضائل هذه القوة ، ان العدل فكر وارادة ، ولهذا فان معاملة الجمـاد لا تسمى عدلاً مهما كانت نبيـــلة . واذا كانت الطبيعة قد أخطأت في نزوة من نزواتها فوهبت البشر حكاماً مستبدين قد عدلوا وأصلحوا فان الحياة لم تنهض على الفلتات والأخطاء . ومع هذا فليست فضائل الحكام المتفردين التي تبهر أحيـاناً بعض الأبصار الزائغة إلا انعكاساً لفضائل الديمقراطية ، وهذه الفضـــائل هي استهلاك للرصيد الانساني الضخم المتجمع على مر القرون. ان جميع فضائل الحاكم الفرد هي ان يكون مدفوعاً بفضائل الديمقراطية ومقلداً منافساً لها .

وأبعد ما وصل اليه التفكير العربي من صور الحكم المثالي هو حكم الشورى ، ولكن ما هي الشورى ؟ ان المستشير ليس عليه ان يخضع للمشورة ، وإنما له ان يسمعها ثم له الرأي والأمر الأخيران الباتان ، أما المستشار نفسه فليس له إلا ان يعرض رأيه دون ان يلزم او يصر ، انه ناصح فقط . والمستشارون حول الطاغية يشبهون الحرس ، عمل كليهما المحافظة على الطاغية وتقويته وتوكيده ، وهم كالذين يذوقون الطعام أولاً خوفاً من ان يكون فيه ما يقتل ! انهم كالمحظيات ينتظرن شهوة الطاغية حول سريره ! مستشار الحاكم المطلق يشبه المرأة التي تعرض نفسها بضراعة وذلة ! والمستبد يطلب مستشاره بالاسلوب الذي يطلب به مثل هـذه المرأة ! والمفروض دائماً ان المستشارين عند الحاكمين بأمرهم يعينون تعييناً ، فهم اذن لن يكونوا إلا مدداً للطغيان او أفاعي صغيرة تنفث سمها في رأس الأفعى الكبرى ليكون فتكها أفعل ! فحكم الشورى اذن ليس حكماً ديمقراطياً لأنه لا يحمل معنى الإلزام ، والديمقراطية إلزام لا نصيحة . وكان القدماء يمتدحون الشورى بالنسبة للمستشير لأنها قوة له، فهي آراء الآخرين تلقى أمامه ومصابيحهم توقد في منزله ، والمعنى في هذا خدمته هو ومساعدته على الانتصار ليبقى ويزداد طغياناً واتقاء للأخطار. فالشورى للحاكم الواحد كأنها الجنود والأموال والرقاب الموضوعة تحت تصرفه ليستقوي ويفعل بها كيف يشاء وكيف يرى انه يستديم سلطانه وتفرده ! انها كعملية نقل الدم لمن نفدت دماؤه أو لمن يخشى ان تنفد دماؤه ! وليس في هذا ما يفيد المحكومين لأنه أخذ منهم وليس فيه أخذ لهم ، وهذا هو المشهود في البلاد التي يحكمها أفراد لهم مستشارون . ومستشار الطاغية لا بد ان يكون طاغية ، وكل قادر طاغية ، أما النبل فهو الحيلة الأخيرة من حيل العجز تتحول فضيلة إنسانية بعد ان تعجز عن ان تبقى فضيلة افتراسية .

واذا أعطى القادر عدلاً من نفسه او إيثاراً او نحو ذلك فمن المؤكد انه يخفي وراء ما فعل ضعفاً ما ولو ضعفاً نفسياً ، واذا كان من المقرر دائماً ان القادرين خير من العاجزين فإن خير الحاكمين هم العاجزون ! اننا نؤمن بالوحي الخارجي، بالرسالة الصادرة عن الواحد، نحن لا نزال نؤمر ونتلقى ونؤمن ـ نؤمن بالرسالات الكاملة

والرجال المتفوقين بمزاياهم الغيبية ، وبالحكام الأقوياء المستبدين ذوي المواهب الخارقة ، ونؤمن بأن علينا ان نظل أتباعاً يؤمرون فيطيعون ، ولا معنى للحرية ولا لحكم الشعب لدى من يرون ان الحياة وحي وأمر وطاعة ووحدانية ! وفكرة الوحدانية منبثقة من الاتكالية بقدر ما انبثقت هذه عن تلك ، فتفكيرنا ينقلنا من التوحيد الى الاتكال ، وإرادتنا تنقلنا من رغبتنا في الاتكال الى التوحيد ، فالوحدانية والاتكالية كلتاهما اذن نتيجة وسبب للأخرى ، وهما معاً متولدتان عن العجز والجهل ، فجهلنا بمصادر القوة في هذا الكون يجعلنا نخطىء في التقسيم والتخصيص ، وعجزنا المتولد عن الجهل وعن الضرورة معاً يجعلنا ننقاد بسهولة لهذا الخطأ لنصبح اتكاليين ! وأشد الشعوب اتكالية هي أشدها وحدانية ، وأشدها وحدانية هي أعجزها عن الانتصار على الظروف العقلية والمادية . وكلما تقدمت الانسانية في طريق المعرفة والقوة تخلت عن صديقيها القديمين، الوحدانية والاتكالية ، وهذان الصديقان او العدوان هما أبداً سبيل البشر الى عبودية الأخلاق وعبودية الفكر منذ كان التاريخ !

*

والتفكير العربي يترقب دائماً الموت وقيام الساعة وفناء هذا العالم ، وتحدثه بهذا يستغرقه استغراقاً فظيعاً كئيباً ! ان صاحب الصور مصيخ ينتظر الاذن ليصعق الدنيا بزئيره المدمر ، وان ملاك الموت لواضع يده الباطشة على الزناد لإطلاق رصاصاته القاتلة على القلوب . الأرض تهتز تحت الأقدام ، والكواكب والشموس تتهيأ للتهاوي فوق الرؤوس، والنفوس تتحرك ذعراً وانتظاراً ، ومن أصبح فليس له ان ينتظر المساء ، ومن أمسى لم يكن له ان ينتظر الصباح . ان الأمل الواسع الحي لغفلة ونسيان يعاقب عليها الله وتستنكرهما الفضائل الدينية !

لقد اختلف الشيوخ والمحدثون والفقهاء في عمر الدنيا مع اتفاقهم على أن زوالها يأتي فجأة ويمكن أن يحدث في أية لحظة ، وقد وضعوا مؤلفات كثيرة في هذه القضية . قدر قوم عمرها بخمسمائة سنة مبتدئة ببعثة الرسول عليه السلام واستدلوا بأحاديث وروايات منقولة عن الرسول واصحابه ، وآخرون كانوا

أسخى في حسابهم فقدروا لها ألف عـــام ، من هؤلاء الشيخ السيوطي وغيره ، واستدلوا أيضاً بنوع آخر من الأحاديث والأخبار . وقد وضع السيوطي كتاباً صغيراً أسماه « الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف » ذكر فيه أن أحد العلماء المعاصرين له قد أصدر فتوى حدد فيها عمر العالم بعد وفـاة الرسول بألف عام بل بأقل فأنكر هو هذه الفتوى واستقل الألف فوضع رسالته المذكورة يؤيد بها ان الدنيا سوف تتجاوز هذه المدة،وقد تبلغ ألفاً وأربعمائة عام ، وأورد هنا روايات حددت عمرها كله منذ كانت بسبعة آلاف سنة ، وان الرسول قد بعث في الألف السابع ، وهذا معناه أن ما بقي أقل من الألف . وقد جاء في أخبار رووها عن النبي ﷺ أن ما بقي لن يزيد عن المائة العام . وفي أحاديث كثيرة مروية في أكبر كتب الحديث أن الرسول وأصحابه كانوا يخشون قيام الساعة في أية لحظة ! وغيرهؤلاء وهؤلاء قدروا عمر العـالم بأقل او أكثر قليلاً من ذلك . وجميع الذين اختلفوا في تحديد الأعوام الباقية في حياة العالم متفقون على أنه قد ينقضي بغتة ، وهم من أجل هذا التفكير يخشون خفق الرياح وتراكم الغمام واغبرار السماء وحدوث الرعد والبرق ، ويجدون في كل هذا علامات ونذراً . والخسوف والكسوف من أكبر المروعات التي قد تكون ايذاناً بساعة الانفجار الكوني ، والأحداث العادية المتكررة تعد اشراطاً على قرب الفناء الكوني ، وأعمال الناس الرديئة وفسادهم وخروجهم على الفضائل الدينية والأخلاقية دلائل لا تنكر على أن اليوم الموعود قريب جـــداً ، كما أن الكوارث الطبيعية والمجاعات والأوبئة إشارات واضحة الى ذلك ! أما انتظار الموت فان الفلسفة التي وضعوها له تجمل في قولهم : « اذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، واذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وكن في الدنيا كأنك غريب او عابر سبيل » . وقد قالوا لا ينبغي للمؤمن أن يأوي الى فراشه إلا وقد كتب وصيته ووضعها تحت وسادته .

وفي الموت وانتظاره وكيف يكون الاستعداد له كتب شهيرة تدرس وتحفظ ويعرض ما فيها على الأسواق وتتلى كل يوم فوق المنابر وفي كل مجالس الصالحين ، ولهم وصية دائمة تقول : « اكثروا من ذكر هادم اللذات « يعنون الموت ! وهم حينما يرتبون فضائـــل المؤمن يضعون تذكر الموت والتهيؤ له فوق رأس هذه

الفضائل . ولن تستمع الى خطيب او واعظ ، ولن تقرأ كتاباً دينياً إلا وجدت تذكر الموت وانتظاره مما يأمر به الدين ، ويذكرون في تراجم السلف : ان من مناقب فلان او فلان ذكره الدائم للموت !

وقد ضربت هذه الثقافة ضباباً كثيفاً موحشاً على نفوس وافكار هؤلاء الذين يلقنونها ، وخلعت عليهم سمات رهيبة من الهلع والانكسار والتصدع ، انهم دائماً يتحسرون ويذلون وينعون الحياة ويحقرون اللذات والأعمال الكبيرة وينكرون فرص السعادة ، لقد أفسد عليهم تذكر الموت أنفسهم ، فهم يتحدثون عنه في كل حال ، يلطمون به وجه الربيع ومنظر الزهور ، ويعظون به ليلة العرس ، ومن حظوظك الحسنة النادرة أن تتحدث الى واحد من هؤلاء عن الحياة والأعمال الكبيرة والمغامرات الناجحة ، وعن الناجحين دون أن يفسد عليك ذلك الانسان حديثك وحماستك بذكر الموت والحديث عن النهاية المحتومة المتحدية لكل نجاح وقوة وجمال وانتصار .أية قيمة لكل هذا ما دام الموت هو المصير ؟ من هذا الذعر الدائم خرج قوم محطمون ، تخلعت قلوبهم ودقت أعصابهم وضاقت آمالهم وعجزوا عن صنع القوة وعن الاحساس بالجمال . والآمال الضيقة لا يمكن أن تزرع الأعمال الواسعة ، والخوف من الموت لن يبدع الحياة ، اننا لن نقيم المصانع العظيمة فوق البراكين ، ولا المدن الجميلة في عالم نتوقع زواله في كل لحظة .ليس من الصواب أن نوحي الى أنفسنا بالهزيمة والخوف والألم ، والابداع قائم على نسيان الحقائق المريرة التي لا يجدي تذكرها ، والذين يركزون مشاعرهم في المنغصات والهزائم ويعتقدون ويتذكرون دائماً انهم معرضون للمرض والسقوط والزوال وسائر الكوارث لن يكونوا إلا مرضى منهارين ، وهل يمكن أن يكون أمثال هؤلاء من البناة ؟ ولم يكن تذكر الموت وفناء العالم هو الذي شاد ناطحات السحاب او تلك المدائن الضخمة او ابدع الحضارات والفنون ! والبشر ليسوا محتاجين الى دروس في الخوف والكآبة !

*

والتفكير العربي يحسب ان التخويف بالموت وقيام الساعة ضروري لتقويم

لا خلاق ولكسر الطباع العدوانية في الانسان ، فتذكر الفناء لازم للمجتمع من الناحية الاخلاقية ، ولولا الخوف من هذا لما قام مجتمع ولافترس الناس بعضهم بعضا ، ولكن يبدو ان هذا خطأ شهير قد ضلل كل الدعاة والمصلحين . فالتهديد بالمخاوف الغيبية لم يكن اسلوباً من اساليب التهذيب ، كما ان تخويف الاطفال بالأرواح الشريرة والظلام وبغضب الارباب والقديسين لم يصنع منهم اطفالا مهذبين ، او مؤدين لواجباتهم المدرسية ، وتاركين للشغب والسلوك الرديء ، او كافين عن القاء الحجارة على عابري الطريق. وكلنا نرى الشعوب التي تزجر بهذه المزاجر لم تصلح او تصبح شاعرية الاخلاق ، بل ان هذه الشعوب هي من اضعف الشعوب اخلاقية وأبعدها عن فضائل الدين العملية . وكثير من الشعوب التي لاتؤمن بهذه التعاليم ولا تخوف بالنار والموت والحرمان من الجنة هي افضل سلوكاً من هؤلاء الذين يقتاتون بفضائل الخوف والموت ! بل ان الكافرين بالدين اقرب الى فضائله العملية والنفسية من المؤمنين الذين يراد لهم ان تهبهم النار والموت فضائلهم ! ثم اولئك الذين عملهم ان يعلموا الناس هذه المخاوف ويصعدوا فوق المنابر ليرموا وجوه الناس بها –هل صلحوا هم ؟ هل جاءوا اقوى فضائل نفسية وسلوكية من الذين يتعلمون منهم ؟ وإذا لم يفعل هؤلاء الوعاظ بعض الرذائل فليس السبب انهم قوم صالحون يخافون ما يعظون به ، ولكنهم لايفعلون هذه الرذائل لانهم لا يجرؤون على فعلها لان وضعهم الاجتماعي او النفسي لايسمح لهم بذلك ، ولهذا فانهم يفعلون اشنع وأفحش مما يتركون ! وحتى لو ثبت ان هذا التخويف اسلوب صحيح من اساليب التهذيب لم يصح الاخذ به في معالجة نفوس الناس لان ضرره حينئذ سوف يكون اكبر من نفعه ، وليست كل وسيلة يصح استعمالها اذ قد تكون خطرة او ضارة او ظالمة . وواضح ان اضرار هذا الترويع المستمر تفوق كثيراً فوائده ، كما ان الاضرار التي تصيب الطفل حينما يراد تأديبه بالتخويف بما اعتاد الناس ان يخوفوه به تفوق جداً استقامته المنتظرة بهذا الاسلوب.

والواعظون الذين يحاولون اصلاح شعوبهم بتخويفهم من القبر وأهواله يشبهون الامهات المتأخرات اللاتي يحاولن اصلاح اطفالهن بتخويفهم من الليل والظلام

والخرائب والاشباح ! بل توجد احتمالات قوية ان التربيــة بالخوف من الموت وفناء العالم تفسد الاخلاق ولا تقومها !

*

إذن ماهي الوسيلة لتقويم اخلاق المجتمــع والفرد مادام التخويف بالموت وزوال العالم ليس مقوماً اخلاقياً ؟ وهذا السؤال يبدو وكأنه بلا موضوع ،وهو سؤال يظل بلا جواب لان البشر منذ كانوا حتى اليوم لم يجدوا امثل هذه الوسيلة ، حتى ولا في الاوقات التي قيل ان السماء فيها قد تزوجت الارض ، فالانحرافات السلوكية والنفسية قد وجدت تحت كل الظروف والنظم والتعاليم والعصور .وقد ذهبت كل تضحيات السماء لمعاونة الارض على اصلاح نفسها بلاطائل ، ولو لم تأت جميع مواكب الانبياء المتلاحقة الطويلة لما كانت اخلاق الانسان وانفعالاته اردأ مما كانت ! ولو جاء هؤلاء الانبياء اكثر مما جاءوا لما تطهرت الارض من ذنوبها اكثر مما فعلت، ولما عانقت السماء الارض بحفاوة اعظم !والانسان يفعل ويريد وكأنه قانون طبيعي لا اخلاقي – يفعل ما يستطيع ويشتهي لا ما يمتدح او يتعلم ! ومهما عجز المفكرون والمصلحون عن ان يجدوا وسيلة لتهذيب سلوك الانسان وتهذيب نفسه فمن المؤكد ان هذا التخويف ليس وسيلة من وسائل التهذيب . ومــع هذا فقد تكون الاستقامة الاخلاقية ضد حياة الانسان !

قد يكون عجز الانسان عن ان يكون اخلاقياً نوعاً من دفاع الحيــاة عن نفسها . وإذا كانت الفضيلة هي قهر احتياجات الحياة فلا خير للانسان في ان يكون فاضلاً !

وليس ما نسميه رذيلة او فساداً إلا حاصل التناقض بين عدة ارادات او بين ارادة المجتمع وارادة الفرد ، أو بين الانسان والطبيعــة . ان الفساد هو صدم الحجر للحجر ، وان الرذيلة هي ان يفعل الآخرون ما يريدون ، أما الفضيلة فهي ان يفعلوا ما نريد ! فلا يمكن اذن ان توجد الحالة التي نسميها استقامة إلا بإزالة هذه التناقضات ، فالاستقامة قانون وليست تلقيناً ولا تخويفاً بغضب يختفي وراء النجوم ! وقد صنع البشر وسائل غير حاسمة لترويض سلوكهم ونياتهم ، إحدى

هذه الوسائل التعويد ، فان فعل الشيء والاستمرار عليه يجعله عادة ، والعادة التزام نفسي وفكري وحركي ، والخروج على العادة رهبة وخطر ونضال قد يكون شاقاً لأنه إعادة لترتيب النفس وترتيب مشاعرها وافكارها، وقد تكون المعصية السهلة اللذيذة بمعاناة نفسية شاقة اذا كانت خروجاً على الف النفس وعاداتها ، والفرق بين الطاعة والعصيان هو فرق العادة. وقد يكون من الملاحظ ان الذين يعيشون في بيئات معينة تعودهم على اصناف خاصة من الفضائل ازماناً طويلة وبأسلوب إيحائي قوي يصبحون فضلاء ، ويروحون يفعلون الفضيلة بدون معاناة كبيرة بل بلذة كأنما يمضغون العسل ، والذين يوضعون وضعاً آخر يفعلون العكس . فالناس يأخذون الخير والشر بالتعب كما يأخذون اللغة والتربية والتقاليد ، والمسألة لا تعدو أن تكون ترويضاً . يرى الصغير المروضين الكبار فيفعل ما يفعلون ويتحرك كما يتحركون فيكون خيراً او شريراً بالاسلوب الذي يتعلم به منهم الكلام والتحية والسباب وسائر تقاليد المجتمع. والفروق التي تشاهد بين أفراد أمة وأمة أخرى في السلوك العام إنما ترجع الى الفروق في التعويد ، أو هذا هو المظنون! ولكن هذه وسيلة تقويمية ضعيفة، إذ يوجد معلم آخر أقوى من التقاليد ومن كل شيء،فالحياة والظروف المتناقضة تعلمان خرق التعاليم،إذن نحن نتعلم الخروج على التعاليم أكثر مما نتعلم المحافظة عليها. الحياة تقول لنا شيئاً، والمجتمع يقول لنا شيئاً آخر مناقضاً ، فنطيع هذا وهذا ، فنتعلم التمرد والمحافظة على الشيء ونقيضه ، فتموت أو تضعف قيمة التعاليم والتقاليد والنصائح والفلسفات الاخلاقية . ومهما بالغ الناس في قيمة تعاليمهم الاخلاقية ، فقد هزمت في جميع العصور أمام ضغط الحياة !

ومن الوسائل الاخرى لإصلاح سلوك الانسان او التي يظن بأنها مصلحة له ، تربية الضمير ، والضمير هو ذلك الشعور الذاتي الذي يؤنبنا أو يملؤنا بهجة ورضا عند فعل شيء او ترك شيء معين . وهذا الشعور هو إحدى القوى الكبرى التي توجه الانسان وتتحكم في كثير من سلوكه وصوغ شخصيته .

ويبدو ان الضمير هو إحدى خصائص الانسان التي ينفرد بها دون كل الكائنات

الأخرى . وكثير من الباحثين لم يعرفوا حتى اليوم كيف يتكون الضمير وما مصادره الاولى . وقد يظن انه شيء غريزي لا تلقيني ولا تعليمي ، ينشأ مع الانسان بالاسلوب الذي تنشأ به غرائزه ، كما قد يظن انه قوة غيبية، وهذا رأي يحتاج الى توثيق . فالضمير فيما يظهر أمر يوجده التلقين والممارسة ، وهو على هذا نوع من العادة ، وهو ينشأ بالطريقة التي بها تنشأ العادة مع اختلاف يسير ، غير أن منابعه تتعدد وكذا العادة .

ورهبة المجتمع هي إحدى هذه الوسائل التهذيبية، فإن المجتمع المثيب المعاقب يكره الافراد على اجتناب ما يعد خروجاً عليه والتزام ما يرفع في تقديره .

ورقابة الشعوب – وليست رقابة القوانين – هي التي تجعلهم صالحين يضحون بشهواتهم وأنفسهم أحياناً في سبيل الشعب او سبيل المبدأ ، والبطولة البشرية لا صانع لها في الغالب سوى حافز التقدير او التحقير الذي يصوغه المجتمع ، وهذا لأن الناس جزائيون بالغريزة – أي يعملون رغبة في الجزاء ورهبة من العقاب مع ملاحظة ان الجزاء والعقاب قد يكونان شعورين : شعوراً بالرضا وشعوراً بالألم ، فالثواب ليس خبزاً دائماً فقد يكون فكرة أحياناً كثيرة ، وتفكيرنا في شعور الآخرين نحونا يصوغ سلوكنا وأفكارنا وعواطفنا . بل ان احتياجات الانسان المادية كلها انما يراد بها ان تحقق له حالة شعورية او فكرية ، فالمال والقوة والجاه والمرأة تتحول في حياة البشر الى شعور ، وهذا الشعور هو الذي يعطي الأشياء قيمها ، فالانسان مادة تتحول الى شعور ، او شعور يبحث عن المادة ويحيا بها . وجميع النظم والمذاهب والحضارات ليس لها من غاية إلا ان تمنح المجتمع حالة نفسية شعورية ، فالانسان مهما كان مادياً فهو روحاني لا يستطيع إلا ان يكون روحانياً ! والذين لا يبالون بمشاعر المجتمع ولا بآرائه ليس يعني فعلهم هذا انهم لا يرغبون في الجزاء او يرهبون العقاب ، بل يعني ان تقديرهم لقوة المجتمع ووعيه وقدرته على معاقبتهم او إثابتهم تقدير خاطىء او مختلف ، وقد يرجع هذا الى ان هؤلاء الذين لا يبالون بالمجتمع خاضعون لشعور آخر مضاد ، فهم لم يزهدوا في الجزاء وإنما استطابوا جزاء آخر بدا لهم أنه أقوى وأفضل !

فالنـــاس جميعاً لا بد ان يكون لهم سلوك ، وسلوكهم لا بد ان يكون مرتباً ترتيباً شعورياً وفكرياً ، وهـذا يحتم عليهم ان يكونوا أخلاقيين حتى في حالة خروجهم على الأخلاق . وعلى هذا فالمقوم الصحيح لأخلاق الزعيم والحـــاكم هو شخصية الشعب ، ولا ينتظر ان يتغير الزعيم او الحاكم ما لم تتغير هذه الشخصية ، ولاينتظر أيضاً ان تكون الأمة فيحقيقتها زائفة ثم تكونلها زعامات صحيحة ، ولا ان تكون هي صحيحة ثم تكون لها زعامات زائفة ، ولن تجـــد شراً من الزعماء والحكام الذين ينتصرون على سلطان هذه الرقابة ، كما انك لن تجد أفضل من هؤلاء الذين تقسو عليهم هذه الرقابة ، فخير الزعماء والحكام لا يوجدون إلا حيث يوجد أقسى الشعوب وأقواهــا ! اذن فحيث يوجد الشعب المثقف القوي الفعال يوجد الحكام والزعماء الصالحون ، واذا وجد العكس فالعكس أيضـاً . وإني أجد دائماً لذة في ان أسفه آراء اولئـك الذين يرجون وينتظرون ان تخلق الآلهة عبيداً كاملين أحراراً ، فالآلهة لا تجهل انهـا لو خلقت مثل هؤلاء العبيد لفقدت ربوبيتها لأن الربوبية إنما يخلقهـا ضعف العبيد وعبوديتهم ، لا قوتهم ولا حريتهم !

ان رهبة المجتمع لا رهبـــة الموت والقبر هي التي تقوم الأخلاق ، لهذا نجد الحكام والزعماء المؤمنين في الشعوب المؤمنة التي تتحدث كل أوقاتهـا عن الموت وعذاب القبر هم أفسد الحكام والزعماء وأجرؤهم على فعل المنكرات الموجبة لعذاب القبر وعذاب النار . والحكام والزعماء الكافرون في الشعوب الكافرة التي لا تخشى القبر ولا النار ولا تتحدث عن أهوالها لا يفعلون ما يفعــله حكامنا وزعماؤنا المؤمنون الذين تعيش في نفوسهم النار وأهوال القبر ويموتون فرقاً كلمـا ذكر الموت والقبر والحساب !

وهنا يجب ان ننظر ونعي ! ان الوعاظ والفقهـاء الذين يعلموننا الخوف من الموت ومن القبر لم يستطيعوا ان يحولوا وعظهم وتخويفهم الى فضيلة في أخلاقهم او في تركيبهم النفسي ، انهم يصدرون كل بضـاعتهم دون ان يستهلكوا منها شيئاً ، وقد أصبحوا كالطاهي الذي يرفض ان يذوق طعامه ! كيف ! لقد مات

الموت وانطفأت النيران في نفوس من يعظون بها ، لقد انتصروا على الآلهة وعلى ما صنعت من موت وجحيم وعذاب ، وعلى من أرسلت من مبشرين ومنذرين ! فاذا كان حامل الإله لا يخافه ولا يشفى به فكيف يخافه او يشفى به من يحدث عنه !

وهذه الاستقامة غير الكاملة الموجودة في كل المجتمعات على مستويات متفاوتة ما أسبابها ? هل هي الخوف من القبر والموت وقيـام الساعة ? لو رفعت القوانين وعقوباتها والحوافز الاجتماعية وأخمد الضمير الانساني، وتركت العظات وترهيباتها وحدها فمـاذا يمكن ان يكون الوضع ? لنتوقف قليلاً عن الكلام والقراءة والكتابة ولنفكر في المصير المحتوم الذي سيحدث حينذاك !

❋

ومن عوامل التهذيب الإيمان بالترابط الدائم بين الانسان والطبيعة، فالبشر جميعاً أصدقاء لأنفسهم ، وهم لا يتحركون إلا استجابة لهذه الصداقة . وكل أعمـال الانسان التي تبدو خيرة والتي تبـدو شريرة لا يمكن ان يريد بهـا غير نفسه والاستجابة لرغبتها ، وهو لا يستطيع ان يقصد الاضرار بها او تفويت الطيبات عليها، وجميع ما يحدث مما يبدو مخالفاً لهذه الحقيقة إنما الأمر فيه يرجع الى الخطأ في التوزيع والتقدير او الى العجز . فاذا آمن بالتلازم الأبدي بين العمل وطبيعته فإن هذا الإيمان سيصنع منه حذراً في تصرفاته ، متجنباً الأفعـال المسقطة والمهلكة . ان الأعمال التي تعطي ضرراً طبيعياً هي المحرمة ، اذن فالطبيعة هي المقومة للأخلاق .

❋

وتوجد رقابة أخرى غير رقابة المجتمع توجه سلوك الانسان، تلك هي الرقابة الذاتية . لقد عرف البشر والمعلمون منذ زمن بعيد أسلوب الترغيب والترهيب ، فالخوف من النـار والآلهة والقانون والطمع في الجنة والمكافأة ورضا الأرباب والمجتمع ـ كل ذلك يخيف الانسان ويطمعه فيصنع أخلاقه، او يظن انه يصنعها .

ومن هذا الطريق دخلت جميع الأشباح التاريخية الى عقائد الناس وتصوراتهم وآمنوا بالتهاويل الغيبية الفظيعة وبكل المنغصات الاعتقادية التي أرهقت فكر الانسان وشعوره عصوراً طويلة وفرضت عليه حالة من الارهاب والارهاق والبشاعة لا مثيل لها في كل ما وجد في الدنيا من عذاب وخوف ودمامة وجنون فكري !

وأحسب ان اقوى الاشياء لتقويم سلوك الانسان وخلق فضائله النفسية هو تنمية شعوره بذاته ، فاحساسه بنفسه وكرامته وشخصيته المتحددة المستقلة ، وبأن للكرامة والشخصية حدوداً انسانية اذا اجتازها أو قصَّر عنها كان انساناً قاصر الحدود او انساناً بلا حدود ، اي احساسه بأن له حقيقة ذاتية تحددها خصائصها كما تحدد الطبيعة قوانينها بلا انبياء ولا وعاظ ولا نار او موت — هذا الاحساس هو الذي يصنع الوجود الاخلاقي للانسان . وحينئذ تصبح مقاييس الشخصية التي تحدد انفعالاتها وتوجه افعالها وتضبط موازينها جزءاً منها وليست املاء خارجياً يختلف ويتعارض فيفقد ذاته او يؤدي الى نتيجة اخرى مضادة لاغراض التربية .

والنفس الانسانية يجب ان تكون متكاملة تكاملا ذاتياً ، وضوابط اي جهاز علمي يجب ان تكون فيه لا خارجة عنه ، وكذلك ضوابط النفس . وحينما يكون افراز أي عضو من اعضائنا ناقصاً ومحتاجاً الى التكميل من الخارج فلن يكون ذلك العضو بل ولا البدن صاحب ذلك العضو الامريضاً ناقصاً ، وهكذا الذات حينما تكون محتاجة الى التكميل الخارجي . والتكميل الداخلي — الذاتي — يجب ان يصبح هو الغاية في محاولة تكوين الانسان الاخلاقي ، عليه ان يعلم انه يفعل هذا ويترك ذاك لانه انسان له شعور وفكر وكرامة ، وأنه بشعوره وبفكره وكرامته يفعل اشياء ويترك اشياء ويثق به الآخرون ويعدونه انساناً راقياً جديراً بالمعاملة والصداقة والاحترام ، اي ان الحدود المعترف بها جزء من ذاته ، فاذا تعداها او ضيعها فقد تعدى ذاته وأضاعها ، ولكن ذاته لاتستطيع ان تضيع ذاته ، واذن لن يستطيع ان يضيع الحدود الاجتماعية — ان فيه مانعاً

ذاتياً . وتعلية الشعور بالقيمة الانسانية ترفع شعور البشر بأنفسهم، والتربية التي حكمت الانسان في كل عصوره كانت تربية تهبط بهذا الشعور ، لقد كانت تفهمه انه لايستقيم ولا يستطيع ان يستقيم الابالوخز والعقاب والوعدبالرشوة وبالتهاويل الكثيرة ، وكانت تعلمه ان كل الناس كذلك، وتبالغ في الربط بين الخنوع والثواب وبين التمرد والعقاب، حتى لتعلمه ان شيئاً من الاشياء لايمكن ان يحدث الا تحت حافز الخوف او حافز الطمع . وقد اجتنبت هذه التربية ان تمس الشعور الانساني او تخاطبه ، وبهذا هبطت به الى ادنى المستويات ، لقد علمته انه حيوان لايحركه الا العصا والحاجات البدنيـــة الرخيصة ، فهوى في الاوحال ، وصار سلوكه حيوانياً لايفعل هذا او هذا إلا في اقصى حالات الخوف او الاحتياج ، لقد وجد قوم حيوانيون ، لايحسون بحوافز النبل ، حوافز الانسان ، حتى ولا اولئك الذين يتساقطون عند ذكر الجنة او النار !

وقد جربت بعض الامم معاملة الشعور بالذاتية في الانسان ، وألقت على شعوره فقط التبعات ، وقيل ان النتائج قد جاءت جيدة ، وان هذا الشعور قد ارتفع في كثير من الشعوب والافراد ، كما قيل ايضاً ان العلماء والفلاسفة وكبار الرجال هم اعظم اخلاقاً من الناس العاديين، وأن السبب هو مستوى شعورهم بأنفسهم وبالقيم الانسانية المحكوم بها ذاتياً على الانسان لكونه انساناً . ويوم يستطيع الناس ان ينموا هذا الشعور تنمية كاملة فسوف يبلغون حينئذ المستوى الذي لابد ان يبلغوه في محاسبة النفس للنفس بل في توازن النفس مع النفس توازناً داخلياً ، واذا حدث ذلك سار البشر في طريقهم وحققوا انفسهم وتعاملوا مع ظروفهم بلا خروج ولا عدوان ولا تصادم كما تسير الشموس والكواكب والقوانين الطبيعية ، انها ضوابط ذاتية تضبط القوى والمشاعر الانسانية ضبطاً مستقلا عن الاوامر الخارجية . ولا يمكن الزعم ان ادراك هذه المرحلة سهل المنال او ان ماذكر قد يخلق لنا في الوقت القريب انساناً يتنفس الفضيلة بلا معاناة ، ولكن الذي يمكن زعمه هو ان هذه الوسائل النفسية هي اجدى في التهذيب من الوعيد بالنار والوعد بالجنة والتخويف بالموت وغير ذلك من وسائل الارهاب

والرشوة ، بل ان التربية بالخـــوف تسلبنا الفضيلة النفسية لأنها تسلبنا الفضيلة الفكرية ، والخوف الفكري يصوغنا صياغـــة شاذة منحرفة و لا يمكن لنفس عاشت بالخوف العقلي ان ينبثق عنها نبل او مثل انساني سام . والنفس الوجلى التي لاتذكر الا السوط والعذاب لن تنبت على جوانبها الفضيلة .والتأديب بالخوف يصنع طغاة معتدين اذا قدروا وارتفع السوط عن ظهورهم ، وعبيـــداً منافقين صغاراً إذا رأوا السوط مرفوعاً.ولايحتمل ان يوجدنماذج للبشرية اسوأ منهؤلاء!

وهؤلاء الذين ينصب فينفوسهم هذا الخوفالدائمالكئيب لن يكونوا شجعاناً او قادرين على ان يقاوموا ظلمـــاً او ان ينصروا مثلاً عظيماً محفوفاً بالأخطار والأوجاع ، وسوف تفترس هذه المخـاوف أعصابهم وتهوّن عليهم ويهوّن عليهم التفكير فيها وفي اتقائها كل مـــا يلاقون في هذه الحياة من ألم وهوان ، فالخوف الكبير الدائم ينسي الألم والهوان.ولن تصرف قوماً عن أعدائهم ومتاعبهم بوسيلة أقوى من أن تشغلهم بتذكر الموت والقبر والنار والخوف من غضب السماء . وكل شيء يهون في نفس تترقب قيام الساعة وزوال العالم ومجيء الموت وتفكر فيالجنة والنار ، فهذه الذكريات المؤلمـــة الحزينة هي أفضل الأصدقاء للظلم والفساد . وسارقو الشعوب وقاهروها يمنحون هؤلاء المخوفين رضاهم وهباتهم وتأييدهم ،وهم لا يفعلون إلا ما يعزز سلطانهم ولو فيما يظنون ! ان خوف النار والطمع في الجنة ليرخص كل هوان وطغيان وشقاء يقع في هذه الدنيا ! ولهذا فبقدر ما نخاف من الآلهة والنار والموت والآخرة نتراخى في مقاومة الاعداء واللصوص .

★

ان الانسان أفكار ومشاعر ورغبات وقدرة ، ومن هذه كلها يتألف مـــا ندعوه سلوكاً محترماً او فضائل أخلاقية . وهذه الفضائل الأخلاقية التي ما هي في كل صورها إلا حيلة من حيل الحياة لاجتذاب اللذة واجتناب الألم ، انما كانت قاعدتها التي نهضت عليها التناسق بين الأفكار والمشاعر والرغبات تناسقاً ليس فيه انتصار لواحدة منها على الاخرى . فافكارنا تعطينا القدرة على أن نفهم سلوكاً معيناً من صور السلوك المختلفة بأنه هو الامثولة العظيمة التي يتصورهـــا العقل

للانسان المثالي الذي نود كانا أن نكونه ، وهذه الصورة العقلية التي نتخيلها تخيلا عقلياً للانسان الراقي صورة نجد في داخلنا – لأننا نشعر ونرغب – ما يغرينابأن نحققها لأنفسنا ، وهذا هو الذي يجعلنا دائماً نحن الى أن نكون أناساً فضلاء ترضى عنهم أنفسهم وترضى عنهم مثلهم العقلية كما يرضى عنهم الآخرون . وبتفكيرنا أيضاً نفهم ما يريده الآخرون ونفهم أن للعدالة صورة عقلية ، ثم ندرك بهذا التفكير نفسه على وجه من وجوه الادراك بأننا ملزمون الزاماً ذاتياً وذهنياً بأن نخضع لهذه العدالة العقلية خضوعاً قانونياً – خضوع العقل لفكرته او خضوع الشيء لنفسه كما تخضع الطبيعة لقوانينها ولنفسها ، فالطبيعة في خضوعها لقوانينها انما تخضع لنفسها لأن قانونها جزء منها ، بل لأنها هي قانونها ! فالنفس العاقلة فاهمة مفهومة ، حاكمة محكومة ، أي إنها متعاملة مع الأشياء والآخرين حتماً ، ومعنى هذا انه لا محالة من ان نكون أخلاقيين على نحو ما وإن لم نؤمن بالالزام الخارجي ، إذ لا يمكن ان نكون من غير التزامات نفرضها نحن على أنفسنا ما دمنا كائنات مدركة متحسسة ، بل لو ان السماء بعثت الينا كل انبيائها تفرض علينا ان نكون بلا أخلاق ولا التزامات ، وتوعدنا بالنار وبالحرمان من الجنة اذا لم نتحلل من التزاماتنا النفسية نحو المجتمع والكون لما كان من الممكن ان نطيع ، ولو أردنا ان نطيع لما قدرنا . ونحن لم نكن اخلاقيين لأننا مأمورون بل لأننا لا نستطيع إلا ذلك ! فالأخلاقية – أعني الاخلاقية بلا قوالب ثابتة – انبثاق عقلي، فلا عقل بدونها ، ولهذا كان القانون الأدبي عند الشعوب المتحضرة حضارة عقلية أكثر نصوصاً وأصرم إلزاماً منه عند الشعوب المتأخرة . وكما أننا لا نستطيع ان نتصور العقل بلا أخلاق فإننا كذلك لا نستطيع ان نتصور الأخلاق بلا عقل ، انهما يوجدان معاً ويفقدان معاً !

ومهما حاول الانسان ان يرتفع بمصادر شرائعه الادبية فلن تكون لها مصادر غير تفكيرنا المتولد عن ضروراتنا الأرضية ، فشرائعنا كلها ليست إلا محاولات عقلية ، فالعقل إذن ، ولكن بمعناه العام ، هو مصدر كل التزام أدبي . وكما ان العقل هو الذي يصنع الجهاز العلمي والآلة الدقيقة ويحل المسألة الرياضية ، فانه

كذلك هو الذي ينظم ضروراتنا الاخلاقية ويشرف عليها ، انه هو الذى يدلنا على طريقة التوافق مع الطبيعة. ان الانسانية حقيقة متميزة في أعلاها وان كانت ليست كذلك في درجاتها الدنيا ، ولا يوجد انسان عاقل يريد ان ينزل بنفسه تحت مراتب الانسانية المتحققة بتحقق خصائصها المرتفعة بها عما دونها – كل انسان يريد ان يبقى انساناً ! وهذا المفهوم الكبير للانسانية الذي تتمشقه جميع الكائنات المفكرة هو النصب الشامخ الذي ترنو الى قمته كل الهمم حتى همم اولئك الذين يعيشون في القاع . وهذه الأشواق الصادقة الطبيعية في الانسان هي أحد الحوافز الادبية التي صاغت والتي سوف تصوغ سلوكنا صياغة أفضل. وخصائص الانسانية تنمو بالاعتماد عليها والثقة بها والاحتكام اليها ، وتموت اذا أنكرت او أهينت او أقيم عليها حاكم اجنبي . ومشاعرنا ورغباتنا هي التي تجعلنا نستجيب لحكم العقل ، نحن نرغب ونشعر ، إذن لا بد أن نكون مدركين لرغبات الآخرين ومشاعرهم ، منفعلين بانفعالاتهم . فاستجابة الانفعالات الانسانية بعضها لبعض تعبر عن حقيقة انسانية ، ان أحاسيس البشر متجاوبة بلا تلقين ، ولهذا كانت نفس الانسان تتفجر على مر التاريخ بكل ما يحمل تاريخه وعواطفه من اخلاق انسانية عامة امتزج فيها الوحي بالتلقي والتأثير بالتأثر ، وتلاقى فيها الحزن والسرور ، والمحبة والبغضاء . فالنفس الشاعرة تتأثر بالنفس الاخرى الشاعرة والحزينة بالحزينة بأسلوب اضطراري كما يتأثر النجم بالنجم والجسم بالجسم والأشياء بالجاذبية ! هذي هي المنابع التي تقاطرت منها آداب الانسان العامة قطرة قطرة، فآدابنا تنبع من اعصابنا وآلامنا ولذاتنا ومداركنا ، ولا تتنزل علينا في كتب يلقى بها من وراء السحاب ! وما من شيء في هذا الوجود إلا وتوجد قوانينه داخله لا خارجه ، والزلل الذي شذ بالانسان عن هذا القانون سببه ان الانسان كائن مفكر والأفكار أشياء متعدية تنتشر على ذاتها وعلى غيرها انتشاراً حراً ، وليست ذاتية فقط كسائر القوى. والذي حدث ان الأفكار في رحلاتها الخارجية الطويلة الجريئة خارج الذات المفكرة كانت تضل كما يحدث لكل مرتحل ، فتكرر ضلالها ثم تجمعت منه هذه الثقافة المارقة عن النواميس الطبيعية . وإذا

كانت شخصية الحيوان هي التي صنعت منه السلوك الحيواني فإن شخصية الانسان هي التي تصنع منه السلوك الانساني بدون برق ولا رعد ، وإذا كانت الضرورة هي التي علمت الكلب والقرد الطاعة والحب والوفاء فهذه الضرورة هي ايضاً التي تعلم الانسان الاخلاق !

ان البشر متشابهون في حاجاتهم وميولهم الطبيعية ، اذن لا بد ان يسلكوا سلوكاً موحداً في الإرادة والنفور العـــام ، فما تحبه انت حباً طبيعياً أكون أنا خليقاً بأن أحبه هذا الحب ، وما أكرهه أنا كراهة طبيعية أنت خليق بأن تكرهه هذه الكراهة، وما نريده أفراداً ونكرهه أفراداً لابد ان نريده جماعات وان نكرهه جماعات ، لا بد ان تكون هناك كراهة عامة لأشياء وإرادة عامة لأشياء ، والذي نكرهه في أنفسنا لا بد ان نكرهه في غيرنا ، والذي نحبــه في أنفسنا لا بد ان نحبه في غيرنا . وتعارض مصالحنا الخاصة الذي يجعلنا في أكثر الأوقات غير عادلين ولا انسانيين لا يمكن ان يمس هذه الحقيقة بالبطلان .

والمعنى الحقيقي في الشرائع والقوانين هو محاولة تحقيق وحدانية السلوك — أي ان النــاس يرون الاخلاقي من الأشياء ومن السلوك هو ما يتوحد مع الميول الاخرى ويلتئم بها ويستجيب لها ، والخروج على القوانين والشرائع يعني الخروج على أهواء الآخرين ومصالحهم وتقاليدهم وجهالاتهم ، ولا توجد صورة أخلاقية سابقة او منفصلة عن المجتمع . والأغراض التي تحمل قوماً على ان يجتمعوا ليشقوا قنـــاة او يعبدوا طريقاً هي نفس الأغراض التي تجعلهم يجتمعون من غير أمر خارجي وعلى غير اتفاق ليشقوا قنوات عامة ويعبدوا طرقاً تجري فيها أخلاقهم متشابهة بمقدار ما تتشابه قطرات النهر ! وقد كان التخطيط العقلي يقتضينا قبل ان نبحث عن الوسائل المؤدية الى تحصيل الأخلاق ان نعرف ما هي الأخلاق !

كانت المذاهب السلفية القديمة ترى دائماً ان الأخلاق ليست إلا تقويماً ، وكان يراد بالتقويم الانتظام في معايير معينة عامة قد تقررت سابقاً . وعلى هذا التفسير فالأخلاق نوع من الالتزام الخارجي ، والأخلاق بهذا ليست لنا بل نحن لهـا ، وهي ليست حرية ولا تجربة بل عقيدة ، والإيمان باعتقادية الأخلاق وخارجيتها

يؤدي الى نتائج خطيرة محتومة، من هذه النتائج العجز عن التطور الأخلاقي عند المؤمنين المعتقدين، ولا يمكن ان يتطور المجتمع اذا كانت أخلاقه لا تتطور ، وقد لوحظ دائماً أن أصحاب الأخلاق الموحى بها هم أعجز الناس عن التطور ، فالناس لا يتطورون إلا بقدر ما يخرجون على أخلاقهم ويخالفونها من الناحية العملية ، ومع هذا فالخروج والمخالفة محتومان في المجتمعات المؤمنة المترمتة لأنها لو لم تخالف أخلاقها لما كانت ولا عاشت ولا تلاءمت مع احتياجاتها وظروفها . وقد كان محتوماً ان يكون من أكبر نتائج هذا الاعتقاد انتشار الفساد الأخلاقي في كيان المجتمع المؤمن بأن الأخلاق اعتقـــاد ووحي ودوام ! وسبب هذا أن الأخلاق الاعتقادية – والمفروض فيها ان تكون مثالية – لا يمكن التزامها عمليـاً لأنها لا تعبر عن احتياجاتنا وطبائعنا المتحركة المتصادمة المتناقضة .

والحياة دائماً تصادم وهي لا تسير في طريق مستقيم ، بل ليس في الوجـود ماهو مستقيم ، ولم يوجد ولن يوجد من استطاع ان يكون اخلاقياً بالمعنى التعليمي، لم يحدث هذا لا في الآحاد ولا في المجتمعات ، واذا لم يستطع الناس ان يلتزموا اخلاقهم النظرية المثالية الخالدة ، ولم يكن لهم عوض عنها اصبحوا غير اخلاقيين من الناحية العملية مهما كانوا اخلاقيين من الجانب النظري . وهذا كثير ومشهود في المجتمعات التي تؤله سلوكها الأخلاقي ، اي التي تنسب اخلاقها وتعاليمها الى الآلهة ، فالذين يحاولون ان يعيشوا باخلاق السلف لايمكن ان يكونوا أخلاقيين. ويضاف الى هذا السبب سبب آخر ، هو ان الاخلاق التي تؤخذ بالوحي والتلقين المتتابع بدون ان تتغير او تقع في نطاق احاسيس الذات وضروراتها واكتسابها تفقد المقدرة على الاغراء وعلى ان تصنـع من المؤمنين بها قوماً مبدعين اومناضلين. فالأخلاق المثالية النظرية بعيدة جداً عن تحقيق الاخلاق العلمية الانسانية ! وإذا لم تكن الاخلاق تقويماً ولا انتظاماً في مقاييس معينة سابقة فماهي اذن ؟

إن الاخلاق هي تصرف ما ، لاكتساب شيء ما ، او لاتقاء ضرر ما ، اي انها ليست سوى محاولة توافق او تلاءم مع المحيـــط الخارجي الكائن حولنا ، فالأخلاق ضرب من المراوغة او المناورة بين الكائن العاقل وبين بيئته وأدواتها

الكثيرة ، وهي مناورة قائمة على الكر والفر والشجاعة والجبن ، ولهذا فهي ليست فضيلة دائماً ولا رذيلة دائماً لأن ظروفها المكيفة لها مختلفة في صورها وفي تصورها وفي الادراك لها والشعور نحوها والقدرة عليها . والذين جعلوا الاخلاق طردية اي عامة انما جعلوها كذلك تفكيراً فقط ، اما عملياً فقد يكفي للتدليل على انها ليست كذلك ان الحياة لم تظفر منذ كانت ولا يمكن ان تظفر بصادق دائماً ولا بشريف دائماً ولا بكريم دائماً ولا بعظيم دائماً – اعني ولا بخسيس او رديء دائماً ! بل ان الصادق جداً لايصدق اكثر مما يكذب ، والشجاع جداً لا يشجع أكثر مما يجبن ، والمحسن جداً لا يحسن أكثر مما يسيء ، والقديس جداً لايحب اكثر مما يبغض ، والفاضل جداً لايعف اكثر مما يطمع ويشتهي. فالأخلاقية صورة مستترة من صور المتاجرة والمساومة ينظر فيها على كل حال الى الربح والخسارة ، او الى الملائمة والمنافرة ! وإذن فالأخلاقية تنافي الأخلاقية –اعني من حيث الحوافز ، فالأخلاقيون يكونون اخلاقيين بحافز عدم الاخلاقية ، فهذا الانسان مثلاً فاضل لانه خاضع لحوافز غير فاضلة ! إن الاخلاق ليست سوى صراع بين شهواتنا لابين شهواتنا وفضائلنا ، انها صراع بين اشتهي وأشتهي، لابين اشتهي وأحترم ، ولو فقدنا شهواتنا لفقدنا اخلاقنا ، اي لو فقدنا رذائلنا لفقدنا فضائلنا ! وسلوك الحيوان نوع من الاخلاقية الدنيا ، والفرق بين اخلاقية الحيوان وأخلاقية الانسان فرق في المقدار لا في النوع . وإذا كانت الاخلاق محاولة من محاولات التكيف بالظروف فإن للنبات والجماد ايضاً اخلاقاً لأن لهما طبيعة التكيف، ولكنها اخلاق غير عاقلة وغير اجتماعية بل طبيعية ، فالأخلاق تولدها الضرورات لا التعاليم المجردة ، فالاخلاق الانسانية جبرية اجتماعية لافضيلة طبيعية او سماوية . والفرق بين الانسان الاخلاقي وغير الاخلاقي فرق في الضرورة او في ادراك الضرورة او في القدرة على التصرف ، لا في السمو الروحي ، فالانسان في سلوكه الاخلاقي يشبه النوتي في البحر ينشر شراعه حيث تهب الرياح!

ولا يمكن ان يكون موقفنا الاخلاقي العملي متوحداً وعاماً بالنسبة للنظرية الاخلاقية إلا اذا امكن ان نسير جميعاً ودائماً في طريق واحدة مدى الحياة كلها في اتجاه واحد مستقيم ، وأن نلبس دائماً ملابس واحدة ، وأن نأكل اطعمة دائمة

واحدة ، وأن نتصرف ونعمل تصرفات وأعمالا متشابهــة دائمة مهما اختلفت الظروف ، او أن نتخذ من الاحداث والمشاكل التي تواجهنا موقفاً واحداً لا يتغير — ثم امكن مع هذا ان نكون عقلاء وأخلاقيين او ان نكون ناجحين ! إذن لا يمكن ان نكون فضلاء دائماً كما لا يمكن ان تتشابه او تتوحد مواقفنا من الاحداث المختلفة !

فاذا قيل بعد هذا : وهل البشر حينئذ اخلاقيون ، كان الجواب :

ان كان المراد بالاخلاق مطلق التصرف المعلل فالبشر جميعاً اخلاقيون حتى من يعدون منهم في غاية الانحلال والظلم ، بل قد يكون هؤلاء اقوى وأفضل اخلاقاً ! واما ان كان المراد بالاخلاق تلك المثالية التي تعني السمو فوق الذات أو لا تلتفت اليها فليس بين البشر كلهم اخلاقي واحد ! لا توجد اخلاق إن اريد بالاخلاق فعل الشيء لذاته — لا يوجد من يضحون بشهوتهم او بارادتهم في سبيل الخير المطلق الذي لا يفيدهم او لا يتصل باغراضهم الخاصة ، فالأخلاق هي التعبير عن الذات الخاصة بتعبيرات اجتماعية !

ومع هذا فلا بد من القول بأن الامم بأخلاقها ، ونقصد بالاخلاق هنا السلوك الحر الذي لا يتقيد بتعاليم سابقة ويكون هدفه ومرماه النهوض بالحياة ، وهـذا كقولنا لابد من اعمال تجعل الارض تعطي ثمارها وتجعل المصانع تعطي انتاجها. ولكن هذه الاعمال المصروفة الى الارض والى المصانع لا يصح ان تتقيد باساليب معينة ثابتة وإنما هي تجارب متجددة مستمرة . فاذا سئلنا : وماهي إذن الاخلاق العلمية التي ترون انه لا حياة للجماعـة او للفرد بدونها ؟ قلنا انها هي التجارب الاجتماعية التي تؤدي الى القوة واللذة والسرور والتطور ، ويكون هدفها ذلك ! فالاخلاق ليست فضائل نفسية — ليست عطوراً ولا ازهاراً وإنما هي اعمـــال كحرث الارض وقطع الحجارة ونشر الخشب ، انهـــا ليست اغتسالا في النهر المقدس ولكنها تحويل لمجراه ، والقصة الـكاملة لمشاعر الانسان ومصالحه وقوته وضعفه هي القصة الكاملة لأخلاقه . ان الانانية الحادة زائد الذكاء تساوي الخلق الكريم ! اخلاقنا هي انعكاس رغباتنا وآلامنا على المجتمع !

أليس في المسألة رأي آخر ؟

اعتقد ان الاخلاق طاقة كأية طاقة انسانية ، فالفكر والعقل والسمع والبصر والعضل طاقات ، ومثلها الاخلاق . الذين يستطيعون ان يصدقوا ويحفظوا الامانة ويؤدوا العمل بقوة ويكونوا شجعاناً وكرماء ومهذبين ومخلصين ومحبين للاشياء وللناس بتفوق ، لماذا يكونون كذلك ؟ هل لانهم علموا ان يكونوا او لأنه قيل لهم كونوا ؟ ليت الامر كذلك ،ليت الناس يبدعون الاخلاق الفاضلة المطلوبة بالامر والتكليف ، إذن ما أعظم الانسان وأعظم اخلاقه وما أسهل الحياة وأرخص الفضيلة فيها ! كلنا نواجه ظروف الحياة ومشا كلها ، ولكن لسنا كلنا نفهمها او نصنعها او نواجهها بمستوى واحد . لماذا ؟ لاننا مختلفون ، ومختلفون في ماذا ؟ في طاقاتنا ، إن لكثير من الحيوانات كثيراً من الفضائل التي اثارت اعجاب الانسان والتفاته ، وقد حاول ان يتعلمها ، فكيف تعلمت الحيوانات هذه الاخلاق ؟ تعلمتها بالطبيعة ، اي بالقدرة والاحساس الذاتي ، ان الاخلاق احساس وتأدية ومواجهة وموقف ، وهذه كلها تصنعها القدرة ، والاوضاع والنظم والافكار والظروف الاجتماعية توزع هذه القدرة وتلونها ولكنها لاتوجدها . اما التعاليم المثالية فلا تأثير لها على سلوكنا ومشاعرنا ، وكل سلوك يقترن بهذه التعاليم فهو مجرد اقتران ليس فيه سبب ولا مسبب ، فالمؤمن المتدين الذي يصدق ويشجع ويفعل الخير ويحب الآخرين ويساعدهم ويعف عن الباطل والفحشاء ، هو لايفعل ذلك لانه مؤمن ومتدين ، انه سوف يفعله حتى ولو كان غير مؤمن ولا متدين ، وإيمانه وتدينه نتيجة لا سبب . وأفعالنا الرديئة والفاضلة تعبر عن حالتنا النفسية لا عن اديانا ومثلنا او مبادئنا ، ولهذا فإننا نجد رجال الدين يخافون من الصغائر التي لايحاسب عليها الدين بينما يبتلعون اكبر الموبقات الاجتماعية والانسانية حتى لكأنهم لايؤمنون بشيء ولايحترمون شيئاً ، فمثلا قد يتورعون عن لبس الحرير ولايذهبون الى الملاهي ولا يخالطون النساء ولايشربون الخمور ، بينما ينافقون بوقاحة ويتاجرون بالدين والاوطان ويرتكبون كل انواع الخيانات ، ويبيعون الله للطغاة والأجانب ، ويسجدون لكل الأصنام القوية السارقة ، وهم يتفوقون في هذا على جميع المنافسين ، وكذلك يفعل الحكام

المؤمنون المتدينون ، انهم قد يتورعون عن الصغائر ويــأتون كل أصناف الآثام الكبيرة المعروفة . قد يقتلون من يقول بسفور المرأة وهم يغتصبون شرفها ،وقد يصلون لله ببكاء وهم يصلبون الله كل يوم امام شهواتهم ! وأسباب هـذا الازدواج هي أسباب نفسية واجتماعية ولا دخل فيها للأديان ولا للتعاليم . فالشيخ مثلاً لا يستطيع أن يرقص احتراماً للدين والفضيلة ولكنه يستطيع أن يصدر بياناً يؤيد به أن يقتل الطاغية شعبه ويسرقه ويستبد به ويسلبه كل حرية وكرامة .

والشيخ الذي يقف هذا الموقف المتناقض لا يفعل ذلك نفاقاً فقط بل وخضوعاً لظروفه النفسية . وليست الأديان ولا التعاليم هي التي تصنع ظروفنا النفسية بل ان ظروفنا النفسية هي التي تتحكم في تفسيرنا للأديان والتعاليم وفي تصرفنا ازاءها واتخاذنا أحد المواقف منها !

*

ثم هذا الالتفات القوي الى التفكير في الموت وانقضاء العالم – ما هي بواعثه في طبيعة هؤلاء ؟ أهي قوة في دينهم أم ضعف في حياتهم – هل هي رهبة الله أم رهبة الحياة ؟ المحتمل جداً أن حنينهم الدائم الى تذكر الفناء والتحدث عنه سببه عجز الحياة فيهم ، فالحياة ليست بذاتها وكيفما كانت ربحاً ومسرة ، انها فن من الفنون وتبعة من التبعات ، فاذا لم يجد هذا الفن وسائله وتخفف هـذه التبعة عن حاملها أصبحت الحياة حملاً ثقيلاً رهيباً يطيب الفرار منه . ولكن التعبير عن عن الرغبة في الفرار جاء هنا غامضاً متوارياً ، لقد جاء كالتعبير بالأحلام ! وأشد الناس حنيناً الى الموت والعذاب هم أشدهم بؤساً وعذاباً مع أن هؤلاء يكونون أخوف وأجبن ، فهم يخافون الشقاء ويتحدثون عنه ثم يجبنون عن الفرار منه . أما الأقوياء السعداء في حياتهم فلا يذكرون المنغصات ، ولهذا فانهم لا يبالغون في خشيتها والفرار منها فلا يصبحون جبناء .

والذين جاءوا الانسانية بالآداب والأفكار والتعاليم الحزينة المريضة انما كانوا من المرضى والمحزونين والمتعبين ، اندفعوا يصبون آلامهم في صورهم الكئيبة المعذبة ، ولو أنهم كانوا سعداء وأقوياء لجاءت تعاليمهم مماثلة . ان اعصاب البشر

هي الجهـــاز المكيف لكل ما يعطون من أفكار وتعـــاليم ! والألم في الحياة يصنع الألم في التفكير !

*

والتفكير العربي تفكير لاهوتي – يفسر كل شيء سواء أكان ساراً أم فاجعاً تفسيراً لاهوتياً ثم يحاول أن يعالجه علاجاً لاهوتياً أيضاً ! كل الأحداث،أحداث الكون والانسان وأحداث المجتمع انمـــا تحدث باسلوب لاهوتي وتتغير باسلوب لاهوتي وتفهم فهماً لاهوتياً ، اذا هزمنـا او انتصرنا ، قوينا او ضعفنا ، رشدنا او ضللنا فلجميع ذلك تفسيرات لاهوتية ، لا يمكن فهم الحياة او الكون او الانسان او الاخـلاق او النظم الاجتماعية او فهم اي شيء مفصولاً عن الأسرار والقوى الخارجية الغيبية . حينما كانت النذر السيئة تنذرنا بان كارثة فلسطـــين توشك ان تقع كنا نتصايح في كل مكان وفوق كل منبر وعلى كل لسان بأنه قد حكم في هذه القضية حكماً لاهوتياً لن يتغير مهما كانت الظواهر الأليمة ، وبعد أن وقعت الكارثة رحنا نفسرها تفسيرات لاهوتية ! وهكذا نفعل في جميع تجاربنا المريرة والسعيدة أيضاً . والتفسير للأحداث بالتصورات اللاهوتية يعجز عن فهمها فهماً فكرياً ومادياً . واذا حللنا أي حدث من الأحداث فلن نجد فيه غير المادة والفكر ، فالذين يبحثون عن القوى الروحية في الأحـداث التي تناسبهم او التي تمزقهم انما يبحثون عن عالم غريب لا وجود له !

بين الاتجاهات الروحية والفكرية في طاقة الانسان تزاحم وتناقض ، فالذي يرى الروح في كل شيء ينتهي بـــه الأمر الى ألا يرى الفكر في شيء ، والذين يعتقدون أن القوى الروحية مسيطرة على قوى المادة ينتهون الى ألا يثقوا بشيء من المادة وقواها – او على الأقل يضعف ايمانهم بهـــا ، والشعوب التي تصعد في روحانيتها تهبط في منطقها وواقعها ، او هذا هو المفروض !

واللاهوتية هي مرحلة متوسطة في وجود الانسان ، فهي ليست بدايته ولا نهايته،ولهذا فان الاطفال والمتأخرين والنساء أقوى إحساساً لاهوتياً من الآخرين. كان الانسان غير لاهوتي ثم اصبح لاهوتياً وأخـيراً سوف يخرج من اللاهوتية !

وبين اللاهوتية والتفكير تناقض واختلاف اصيل في طبيعتيهما ، فطبيعة التفكير طبيعة منطقية قانونية متسلسلة لها مقدمات ونتائج ، اما طبيعة اللاهوتية فاستبدادية غاشمة ضاربة في كل اتجاه ، ليس لها منطق ولا قانون ولا اسباب او نتائج ، ان الاحداث ليس لها تفسير لأنها بلا قانون ، لأنها إرادة وإطلاق ! اللاهوتيون ينظرون الى الشيء التافه في أيديهم فينتظرون ان تضع فيه الارواح من النفع والبركة والقوة ما ليس في اضخم الاشياء ! والتاجر العاجز المفلس ينطوي احياناً على ثقة بالارواح تجعله يظن انها قد تغير وضعه كله بكلمة او بنظرة ، فيصبح بلا أسباب من ملوك المال والأعمال !

لقد خلقت اللاهوتية الفكرية اتجاهاً معادياً للعلوم البشرية ، هازئاً بها ، محتقراً لها ، كما أوجدت انصرافاً في فهم الاشياء نحو الغموض والكتب المقدسة والأساطير لتفسر بها الكون والحياة ، ولتجد فيها جميع المعارف والاحتياجات العقلية . ومن أروج الكتب في العالم العربي الكتب التي تفسر الدين على انه اكتشاف كامل لكل الحقائق في كل العصور ، واذا وجد بيننا كاتب مجنون او كذاب مضلل فزوّر كتاباً يدعي فيه انه قد وجد في نصوص الدين كل علوم البشر واكتشافاتهم وكل قوانين الكون ، فان مثل هذا الكاتب المخجل سيجد نفسه فجأة محسوداً بين كبار الكتاب ! وأفجع من هذا ان رجالنا الكبار الذين يملكون تصريف شؤوننا العامة يحاولون دائماً أن يجدوا حل كل مشاكل العصر الحديث الكبرى في التاريخ المأثور القائم على اللاهوتية ، إنهم يريدون أن يخضعوا عصر الأقمار الصناعية لعصر الجمل ! هم يفكرون وينادون هكذا مهما خالفوه في تصرفهم ! المؤمنون باللاهوتية يتأخرون جداً في الايمان بالحضارة وبالمزايا والابتكارات التي تصنعها الحضارة ، لا يؤمنون بالحضارة التي يصنعها الآخرون إلا بعد أن يصبح الكفر بها جنوناً عظيماً . وان البشرية المتحضرة لتحتاج الى قوى إضافية لكي تستطيع ان تسحب وراءها هؤلاء اللاهوتيين الذين يرفضون أن يؤمنوا بالحضارة ويعجزون عن ابتكارها ، لقد أدلّوا على العلم وعلى الله كثيراً يوم أن أعلنوا ايمانهم بأن السيارة والطيارة والتليفون والتلغراف صناعات

إنسانية وليست سحراً ولا كفراً ، وإن أصروا على الايمان بأنها من علامات الساعة ! وقد كان إدلالهم عظيماً حينما سمحوا مشكورين بدخول هذه الصناعات الى بلادهم ثم باركوها باستعمالهم لها ، وإن كان استعمالهم لها قد جاء تحدياً للحضارة واحتجاجاً عليها وتحقيراً لها ! إن الحضارة لو كانت كائناً عاقلاً يحترم كرامته ويحسن الاشمئزاز من الأشياء الدميمة لمات غيظاً وشعوراً بالهوان لاستهلاك كثير من الناس له !

وقد كانت خطوة تقدمية لا تنسى يوم ألف أحد أعلام مجتمع يعيش على اللاهوتية كتاباً كان عنوانه « القول الفاصل في الساعة ، أسحر هي أم صناعة » . وكان يعني بالساعة ساعة الوقت . وخلاصة هذا الكتاب انه يوجد في المسألة رأيان للعلماء والمؤمنين : رأي يقول إن الساعة حرام واستعمالها حرام لأنها سحر من عمل الشيطان ، والرأي الآخر التقدمي يقول انها صناعة وان استعمالها جائز وحلال مع الاستغفار والاستمساك بتقوى الله ! واختار المؤلف الرأي الأخير ، وقد جاء هذا الاختيار تحت ضرورات سياسية ، ولولا ذلك لما كانت حلالاً ! وقد كانت خطوة هذا الشيخ التقدمية حينما أحل الساعة تفوق في تقديره وتقدير المجتمع الذي كان يعيش فيه الصعود الى القمر ، بل تفوق نفس اختراع الساعة !

ودائماً يجيء اعتراف اللاهوتيين متأخراً جداً ، انهم يظلون مستمسكين بالجحود والتحريم حتى يصبح ذلك الشيء الذي يرفضون الاعتراف به قديماً ، قديماً . فالفكر اللاهوتي لا يكون مبدعاً ولا صديقاً للمبدعين ! وهم يتنادون بالانكار والاستفظاع كلما سمعوا الحديث عن مستقبل الانسان والعلم وعن احتمالاته الخطيرة ، والمثقفون أنفسهم يشتركون في حملة الانكار والاستبعاد . فاللاهوتية تعوق دائماً الفكر عن الحركة ! كم هي احتمالات العبقرية الذهنية التي أُنفقت على مر العصور في دراسة العلوم اللاهوتية ، وكم خسرنا بهذه الدراسات من طاقاتنا الفكرية الهائلة ! ماذا لو ان هذه الاحتمالات للعبقرية وجهت توجيهاً صحيحاً وصرفت في وجوه المعرفة الانسانية ؟ لو أحصينا أعداد الرجال الذين كان من المحتمل أن يكونوا عباقرة والذين وضعت جميع احتمالاتهم العقلية في

دراسة العلوم الغيبية ووضع الشروح والتفاسير والتأويلات لهـا ، ثم افترضنا انه كان من الممكن ان يتجهوا باحتمالاتهم نحو دراسات وموضوعات إنسانية — إننا لو فعلنا ذلك وتصورنا الموقف تماماً لصعقنا للشعور بالضياع والمسؤولية . إنهـا لمن أعظم الآثام في التاريخ الانساني ان يصرف المؤمن من حياته القصيرة التي لا يملك سواها عشرين عاماً أو أكثر في تعلم مبادىء اللاهوتية ، ثم بعد هذه العشرين العام يصرف باقي عمره في تعليم الآخرين الضائعين مثله لتلك المبادىء اللاهوتية نفسها، الى ان يتجمع من هؤلاء المتعلمين والمعلمين في كل البلدان العربية فيضان هائـــل ليزحف على القرى والمدن ليغرقهـــا بالموت والسكون والتعصب ضد الحضارة وضد الانسان . ثم ماهي هذه الثقافة اللاهوتية التي يجند لها كثير من شباب العرب بفدائية باهظة الثمن ؟ انها دراسات عقيمـــة لموضوعات عقيمة لاتلتقي بفكر الانسان ولا باحتياجاته ولابعواطفه ، لان الذين وضعوها كانوا قوماً متخلفين في ثقافتهم وحياتهم وأوضاعهم وأفكارهم وظروفهم ، وكانوا حينما وضعوها محكومين بظروف نفسية وفكرية ومادية متخلفة جداً ، ولهذا فان الذين يتخصصون في هذه الدراسات يتكيفون تكيفاً نفسياً وعقلياً خاصاً موحشاً منفصلا عن الحياة وعن العصر والمجتمع الذين يعيشون فيه ، ولا يستطيعون ان يتوافقوا مع عصرهم الا بقدر ما يتخلون عن هذه التعاليم ، بل انهم يصبحون خصوماً للبشر ولما لديهم من مباهج وابداع وقوة ، وكلما تنكروا لماتعلموا استطاعوا ان يعيشوا مع الآخرين ، واذا توافقوا مع تعاليمهم كان كل ما يصنعونه ويحسنونه ان يصعدوا فوق المنابر يلعنون الانسان وثقافاته ونظمه وقوانينه وآثامه الطيبة الجليلة التي لايستطيعون الاستمتاع بهـــا ، ولهذا فان خير هؤلاء هم المنـــافقون الذين لايصدقون ما يقولون . لست احمل حقداً على هؤلاء بل صداقة ورثاءً ، فلقد كانوا ضحايا بريئة ثم اصبحوا بدورهم يصنعون لنا ضحايا اخرى بريئة ، فهم مظلومون قبل ان يصيروا ظالمين ، وكما علموا يعلمون والذنب شركة بين الذاهبين والحاضرين — بين الامس واليوم . لقد كانوا مظلومين وعلموا ان يكونوا ظالمين ، وتعليم المرء

ان يكون ظالماً نوع خبيث من الظلم له !

*

الخيـال هو المرآة السحرية التي تعكس صور المستقبل الذي لم يوجد بعد ، وأقدر الشعوب على تخيل المستقبل هي أقدرها على إيجاده. والمفروض ان الخيال كرسوم وخطوط المهندس بقدر ما تكون هذه الخطوط والرسوم يكون العمل ، وهي لا بد ان تسبقه . والذين يفقدون الخيال كيف يمكن ان يبدعوا شيئاً ؟ ان الخيال هو المعنى الكبير في حضارة الانسان وقوته ، انه يعني الفكرة والحماس والشوق والتصميم ، الخيـال هو قوة الاغراء العظمى التي ألهمت الانسان كل اتجاهاته . والخيـال العربي خيال فقير ، يوشك ان تتلاقى حدوده ، بل لعله لا يوجد خيال عربي وإنما توجد هواجس ومخـاوف وتوترات نفسية وشعورية . فالعرب لم يصنعوا صوراً خيالية للمستقبل ، وإنما خافوا المستقبل وتوهموه آلاماً وفساداً وضعفاً وموتاً وخراباً ثم عذاباً وآلهة وشياطين ونيراناً ، كانوا يخـافون المستقبل ويعبدون الماضي ! لم يصنعوا صوراً خيـالية واضحة لحكم او لنظام او لحياة او لتفكير أفضل ،او لانسان أفضل في المستقبل ،لم يعطوا صورة ما لمستقبل سوف يكون . كانت أعلى صورة في خيـالهم للمستقبل هي الفناء للعالم ثم الحكم على الانسان بالجنة او النار ليعيش في كسل وفراغ وتفاهة لا حدود لهـا ، ولا توجد عقوبة للانسان أعظم من اعتقـاله في الجنة متخلصاً من جميع الاهتمامات الانسانية، أما اعتقاله في النار فهذا شيء فوق كل خيال ومنطق وتصور أخلاقي! ان الانسان ليحتاج في أحيان كثيرة الى الخروج من كل إطار انسان لكي يستطيع ان يقول او يعتقد او يفعل شيئاً !

وموضوع الخيال ثم الصورة الخيالية التي ترسمه لها دلالات كبيرة، فالشعوب المعافاة السوية التخيل تكون موضوعات خيالها موضوعات هدفها ومكانهـا الحياة ، تأخذ مادة صورتها وتأخذ ظلالها وأضواءها ومشاهدها من الوجود نفسه بعد التسامي به ، فالمتخيل السوي لا ينتزع نفسه من الكون الذي يعيش فيه ولا يصنع عجينة تماثله الذهني إلا من التربة التي يحيا فوقها ، أما الخيـال المريض فإنه

يهرب بنفسه وموضوعاته وتماثيله الى عالم آخر ليست له طبيعة كونيـة ، فيتيه ويحترق كما يحترق النجم اذا انحرف عن طريقه او خرج من فلكه .

وصعب التفريق بين الخيال والتفكير ، فالمفروض في الخيال ان تكون له مقدمات او شواهد ، وهذه هي طبيعة التفكير ، واذا لم تكن له مقدمات ولا شواهد كان اختلاجاً وضياعاً ولم يكن خيالا . فالخيـال الصحيح هو اذن الذي تصنعه المقدمات والشواهد، وهو بهذا قسم من التفكير -- من التفكير الذي تجيء نتائجه أوسع او أقوى من مقدماته -- أي ان المقدمات تعجز عن الاتساع للنتائج او تعجز عن ضبطها وتحديدها .

والتفكير العادي لا يجوز ان تكون نتائجه اكبر من مقدماته ! والعـادة ان الناس يستدلون بمقدمة ما على نتيجة ما ، أما الوصول الى نتيجة ما ثم البحث عن المقدمة التي تثبتها فهذا هو المثل الأعلى للخيـال الخلاق . وأحسن مثل لهذا هو تلك الانبثـاقة الغيبية التي تفجرت في الذهن اليوناني حينما أعلن عن وجود عالم الذرة، لقد كانت هذه الانطلاقة خيالاً لأن المقدمات التي كانت موجودة في ذلك الزمن أضيق من ان تتسع لها او تهدي اليها . ان الشعب كلما تقدم في ميادين العلم والحضارة ازداد خياله قوة واتساعا ، لأن العلم والحضارة يثيرانه ويعمقـانه ، وهما كالمقدمات له على ما وصف ، والعكس أيضاً صحيح ، فالعلم يصنع الخيال ، والخيال يقدم العلم . ولو كانت توجد حيلة او وسيلة لتوسيع الخيـال وتأجيجه وخلقه لكان هذا من أعظم واجبات الشعوب والعلم ، وليت البشر يستطيعون ان يقيموا معاهد ونوادي لتعلم الناس الخيال وطرق اكتسابه .

وللخيال العربي عيبان : عاجز في طاقته منحرف في موضوعه . فمن الناحية الاولى نجده عاجزاً عن تخطي واقعه الذاهب في أعماق التـاريخ المتأخر وعن اجتياز الأسوار التي تحده وتحاصره ، وبهذا العجز ظل مستكيناً تحت نقـائصه ومظالمه وتفاهاته المختلفة يتلقـاها بصبر مذهل ، انه لم يستطع ان يتخيل صوراً للحكومات ونظام الحكم ولا للمجتمعات ولا للحياة ولا للتفكير أفضل مما لديه ، فيرضى بكل المساوىء والآلام التي يحياها ، بل يذهب يقاتل من يحاولون ان

يفوّتوا عليه آلامه ومساوئه . انه ليرضى بأدنى صور الحيـــاة وبأفسد النظم وأشدها طغياناً وبأظلم الحكومات دون ان يتحرك في خيـاله أن من الممكن الظفر بخير مما هو فيه ، وتراه لهذا يستعظم الصغير ويعجب بما لديه من نقـائص ومبالغات ، فزعماؤه الزائفون الأغبياء وحكوماته الجاهلة المستبدة ، وكفاياته المفقودة ، وقواه السياسية والعسكرية المبتدئة ، وإنتـاجه وكل ما بين يديه من ضعف – كل ذلك يملأ نفسه غروراً وإعجاباً ساذجاً ، ويرى فيه ما لا يمكن ان يملك الآخرون مثله ! انه حينما يبصر قليلاً من الطائرات المستوردة تعبث بلا عظمة بسمائه ، او قليلاً من المدافع المصوبة اليه هو ، او شيئاً من الدبابات القديمة التي من المظنون ألا تستعمل إلا في الاستعراضات او في تخويف الشعب ، او مجموعات من الجنود المرضى يحملون البنادق المثقلة لكواهلهم المتعبة ، وفوق رؤوسهم الخوذات التي يحسبونها من سلالة المغفر والدرع التي كان يلبسها خالد بن الوليد – انه حينما يبصر ذلك يذهب يؤمن انه الأعز الأوحد في هذه الدنيا الواسعة ، وقـد يفاخر حينئذ الشمس لأنه اشترى سلاحاً لا يتكافأ معه في الذكاء او الجودة او الشجاعة ! حتى أنهاره وأمطاره وأرضه وجباله – حتى خرافاته وأكاذيبه ولغته وآلهته هي أجمل وأعظم ما خلق الله . ان اعجابه بما عنده ليذهب يريه انه الشمس التي تدور حولها عبقرية الكون وضمير السماء ، وتسجد تحتهـــا بتواضع كبير قوانين الطبيعة ! وأكثر الناس اعجاباً بأنفسهم هم الذين لا يرون سواها . والخيال المبدع هو عدو للغرور والاستسلام للهوان والألم .

وأما الناحية الاخرى في الخيال العربي وهي انحراف موضوعه فإن هذا النوع من الخيال يشبه تصورات المريض الخائف ، فهو يتصور أشباحاً ومخلوقات غريبة مركبة تركيباً عجيبـــاً ، ويتصور ملائكة وشياطين وآلهة يوزعون الاوامر ويزحفون على اهل الأرض وفوق مناكب النجوم ، ويتصور جحيمـاً وزمهريراً وأصفاداً وأغلالاً وأوهاماً متوحشة من الأمراض ومن القوى الغيبيـة المترصدة وغير ذلك ممـا يصنع الشخصية المعذبة القلقة وتصنعه ، وهذه التصورات ليست امتداداً ولا تسامياً بالطبيعة كما هو المفروض في الخيال المبدع . فالخيال العربي لا

يأخذ من الدنيا المحيطة به مادته ومشاهده ليخلق منها دنيا أسمى واكبر كما يفعل الرسام العظيم ، ولكن أمراضه النفسية والاجتماعية والاعتقادية والوراثية ومخاوفه هي التي تصنع خيالاته الأليمة المتوحشة الفاغرة فاها هولاً ونكراً ، فلا تكون إذن إلا رهبة من الحيـــاة وفراراً منها ، وكرهاً للمستقبل والانسان . فهي نار وصيحة وصاعقة وغضب ووباء وطوفان ونفاد في قوى الخير وضراوة في مصادر الشر ، وهكذا تتحاشد هذه التصورات الشريرة حتى توجد مجتمعات لا يومض في خيالها غير النـــار والدماء والانتقام السماوي ، ولا تتنفس سوى السخط واللعنات ، فتجد حينئذ في مطاردة الحياة كما تبادلها الحياة التحية بمثلها .

والخيال الشرير هو أصرم جزاء يتلقاه شعب اضطربت في يديه موازين نفسه ! وهل يتغير الخيال ما لم تتغير الحياة ، او تتغير الحياة قبل تغير الخيال ؟ والذين لم يروا النهار والأزهار هل يتخيلون كل ما فيهما من بهاء وروعة وكبرياء؟ وحياة الشعوب العربية ليس فيها القوة الملهمة للخيـــال العظيم ! عجباً ! كيف يستطيع هؤلاء الناس من صناع وزراع وعمال وجماهير — كيف يستطيعون ان يرضوا بحياتهم الجرذانية ، كيف لا يختنقون او ينتحرون في أحيـــائهم الأليمة المكتظة بالظلام والحشرات والبؤس والجهل ! ما هي الرقيـــة السحرية التي تلهمهم الصبر والاحتمال والعزاء ؟ انهم قوم لايتخيلون ، إذن لن يسخطوا او يثوروا او يحاولوا التغيير او الارتحال ، انهم لا يرون شيئاً هو أفضل مما هم فيه ـ لا يرون حتى ولا رؤية فكرية ، انهم لم يروا الشمس فكيف يبحثون عن النهار او يشعرون بموته ! ان العميـــان لا يستطيعون ان يكرهوا وجوههم ! منذ سنوات نشرت إحدى صحفنا الكبرى نصيحة موجهة من رجل كبير الى الحكومات العربيـة يطلب فيها ألا يسمح للعمال العرب بالسفر الى البلاد الأجنبية — قال : لئلا يروا الحيـــاة هناك فيطالبوا بمثلهـــا ! هل تصدق أن أحدا قال هذا ؟ صدق او احترم عقلك ولاتصدق ولكن لقد قيل هذا ونشر في صحيفة كبرى. ومع هذا فالرؤية وحدها لا تكفي دائماً لإيجاد الحوافز الفاعلة عند الرائي ، إذن قد تكون هناك موانع اعتقادية او فكرية او نفسية او تاريخية .

وقد اجتمع للشعوب العربية الأمران : دمامة الأوضاع الاجتماعية التي تهبط بالخيال الى الحضيض ، والموانع الاعتقادية والنفسية والفكرية والتاريخية التي تعوق هذا الخيال عن التحليق . فالثقافة التي تغذي خيال هذه الشعوب ثقافة قبور وأشباح ، تطفىء كل خيال مضيء ، وتضرب في تيه الخيالات السوداء ، وتحصر المؤمنين بهذه الثقافة في مساحة حدودها الوباء والقحط والخوف والموت والجحيم والأبالسة والأرباب الغضبى !

ومع انه من الصعب ان نعرف كيف تكون خيالات قوم امتداداً للحياة وصعوداً بها ، وخيالات آخرين ارتداداً الى الموت والهدم وتجسيماً للالم ، فانمن الممكن ان نعرف ان الخائفين والمتعبين والمرضى هم في الغالب ذوو خيالات مرتدة هادمة أليمة ، وان الخيال السليم هو نبع الحياة السليمة ! والقصةالكاملة للحضارة هي القصة الكاملة للخيال المتجاوز لواقعه !

*

والقدرة على النقد هي الموهبة اللازمة لكي يستطيع الفرد والجماعة انيتكيفا ويكيفا الاحداث الواقعة والمنتظرة تكييفاً يمنع من الاصطدام بها ويهب السلامة الممكنة والرغبة في التغيير والقدرةعليه . والنقدهو تصور الامور تصوراً فكرياً واعياً يمكن من الحكم عليها حكماً سليماً وسريعاً من حيث الامكان والاستحالة والخطر والامان والنفع والضرر ، او من حيث الدوافع والغايات ، والذين لا يملكون هذة المزية يصبحون طعاماً سهلا للأخطاء والمضللين ولأنفسهم ايضاً ، ويعجزون عن رؤية الاحداث في دروب الماضي والحاضر والغد ، بل يعجزون عن رؤية انفسهم في هذه الدروب المتداخلة . ولا يوجد ما هو ألزم لسلامة الفرد والجماعة من موهبة النقد ، وهي لازمة للجماهير بقدر ما هي لازمة للقادة . فالتاجر الذي يمنح حسه المرهف لانفعالات السوق وتوتراتها محتاج اليها مثل احتياج الزعيم او القائد او الحاكم الذي عليه ان تدرك حاسته الناقدة اين يكمن الخطر وتوجد السلامة ، والذي عليه ان يكون كمقياس الحرارة يتغير دائماً ويسجل حالات الطقس وينخفض ويرتفع باستمرار . ما اسرع ماتخدع هذه

الجماهير التي ترزق فيضاً عظيماً من الغرارة الفكرية ، وما اعظم ماتيسر على المستغلين والمضللين والطامعين اعمالهم الخادعة ، ان اعظم الآلاء التي تهديها الحياة الى السادة القادرين هي ضعف ملكة النقد في المجتمع الذي يحكمون . ان تشييد مدارس خاصة تعلم صحة الحكم على الاشياء وتنمي موهبة النقد لافضل جداً من كل المدارس التي تعلم القراءة والكتابة والكتب ،وتعلم ايضاً التصديق بغباء ! ان التعليم بجميع درجاته لا قيمة له اذا كانت كل غايته ان يعلم فهم النصوص دون ان يمنح عقلا ناقداً محارباً — ان اخطر ما في التعليم انه احياناً يعلم عبادة الحرف وعادة التسليم بلا مقاومة .

المفروض ان يكون الغرض من التعليم ان يعطي فكراً مناضلاً ، يستطيع ان يفهم وينقد ويوازن ويخلق — المفروض ان نقرأ لنفكر وننقد ، لا لنؤمن ونختزن ، ليست القراءة تسليماً ولكنها مفاوضة ، لقد ظلت رسالة التعليم أن تقدم قارئين لا مفكرين ولا ناقدين أو مثقفين ! ما الفرق بين من يحمل أرقى شهادة وبين من لا يعرف مكان اسمه من الوثيقة التي يبصمها إذا كان الرجلان لا يختلفان في العجز عن الحكم على الأشياء ، واذا كانت حقائق كلا الرجلين إنما تؤخذ من المحاريب ، وكان وعي كل منهما وعياً تاريخياً لا يتغير بالقراءة ولا بالتعليم. إن المتعلم الذي يسجد للأصنام التي يسجد لها الجاهل لهو جاهل فقد احتمالاته الطيبة .

الشعوب العربية لا تعترف بقيمة النقد بل لا تعرفه ، وهي لذلك تتغذى بكل الجيف العقلية التي تقدم اليها ، لا تسأم التصديق ولا تمل طول الانتظار . انها لا تدرك فساد ما تسمع او تقرأ كما لا تدرك تناقضه وزيفه ، ولا تحاول ان تدرك بل لا تريد أن تدرك وتفر ممن يحاولون ان يجعلوها تدرك ، إن أسوأ الأعداء في تقديرها هم الذين يحاولون ان يصححوا أفكارها وعقائدها او يحموها من لصوص العقول ومزيفي الأرباب !

إن تكرار الأكاذيب والأخطاء والتضحيات لا يوقظ فيها شهامة الإباء أو الشك او الاحتجاج ، لقد جاءت مثلاً أليماً في الوفاء والصبر والانتظار لكل

مهدي لا ينتظر خروجه ، إن الأكذوبة الواحدة الضخمة لتظل تسمعها كل حياتها من فوق المنبر الواحد وبالتأكيد الحار نفسه الذي لا يفتر، ثم تظل هذه الأكذوبة نفسها تلقى التسليم الإجماعي بنفس الحرارة والقوة والايمان ! قوم يعيشون — تعيش أرواحهم وأخلاقهم وعقائدهم وآمالهم أطول العصور على التفاهات المكررة دون أن يتمردوا أو يغضبوا أو يملوا ! ما الذي دهى هذه الشعوب فجعلها تفقد موهبة النقد وتلقي بنفسها تحت أقدام الآلهة والأوهام الغبية المتعصبة بلا ذكاء أو كرامة او كبرياء ؟ إنها عوامل كثيرة تعاونت في عصور طويلة على خنق هذه الموهبة ، إن قلت انها دينية او انها نفسية ، او انها اجتماعية ، او انها سياسية ، أو انها كل ذلك وغير ذلك فأنت صادق ، ويجمع هذا كله شيء واحد ، هو احتقار النفس . ومن أبشع وأسخف خرافات الانسان تدينه باستصغاره لنفسه ، وأغلب الأديان والعبادات قائمة على الاذلال والاستصغار للذات !

وسوق الفكر العربي أعجب سوق ، يوجد فيها كل الناس يروحون ويجيئون ويصرخون ويتساومون ويتعاملون ويبدون كأي قوم في أية سوق ، ولكن جميع البضائع التي يتعاملون عليها زائفة ! اساطير وأوهام ومبالغات وغرور وتعصب وسباب وحرارة بلا حب ، ثم لا شيء يفيد او يقبض ! أحاديث الزعماء والحكام وتعليقات المعلقين من كتاب ومفكرين في الاذاعة والصحافة والكتب ، وكل ما يقال ويسمع صراخ وأصوات بلا كلام ، لا تفسير لموقف ، ولا وعي لقضية ، ولا احترام لحقيقة ، ولا تواضع مع تسامح ! نحن ، نحن ! اما الأعداء ، أما الآخرون ! نحن أفضل وأقوى وأشرف وأعلم — هكذا نحن دائماً ، هكذا كنا ، وهكذا كان جدنا وحدنا — جدنا العظيم آدم عليه السلام ! أما الأعداء — أما الآخرون فهم تراب في تراب ! لم يتغير الطريق ولا السائرون فيه . نقرأ ما كتب يوم كان آباؤنا الأمجاد يضربون هامات النجوم بسيوفهم البتارة ، ونقرأ ما يكتب اليوم فلا نجد إلا توائم متشابهة ، والخلاف الوحيد هو كثرة التعريب وقلته ، في هذا العصر كثر التعريب وكان في الماضي قليلاً ، ولهذا نجد فيما يقال اليوم لغة العصر وشعاراته ولا نجد فكره او روحه او عمقه ! نعجب كيف يوجد

القارئون والناشرون — كيف يوجد فينا حتى اليوم من يقرأون مـا ينشر ومن ينشرون ما يكتب ! والمأساة انهم يقرأون ولا ينفعلون ، لقد فقدوا خصائص القارىء كما فقد الكتاب خصائص الكاتب ، إذن نحن نقرأ ونكتب ولكن ليس فينا كاتبون ولا قارئون. والقراءة والكتابة عندنا ليست عملاً فكرياً ولا معاناة، وإنما هي حركات وانفعالات عصبية ونفسية كحركات العبادة والصلاة وانفعالاتها وكقراءة الاذكار !

لقد فقدت الكلمة والقراءة شرفها في المجتمع العربي ! فقائل الكلمة وقارئها او سامعهـا لا يتقيدان بأي قيد . المفروض ان للاذن والفكر شرفاً كشرف الضمير والأخلاق ، ومع ان الكذب والخرافة في كل المجتمعات يفترض فيهما ان يكونا فناً لكي يصدقا ويخدعا فإنهما في المجتمع العربي لا يحتـاجان الى ان يكونا كذلك ، بل هما كذب وخرافة فقط بلا فن ، وهذا لأن سوق العرب الفكرية لم تلزمها بأن يكونا كذلك . ان موهبة النقد هي الآلة الحـاسبة التي يفرض عليها ان تعطي نتائج صحيحة عن الأحداث والناس والحياة وتعصم من الضلال والانتحار العقلي ، وكل مجتمع وانسان محتاج الى هذه الموهبة ليكشف بهـا على المواقف والظروف المختلفة كاحتياج الطبيب الى أدواته ليكشف بها على أجسام المرضى ! وفقد القدرة على النقد هو الذي صنع هذا الضعف الفكري في العالم العربي ! كيف نعيش اذن ونحن فاقدون لجهاز الأمان ضد التصـادم والغباء . هذه هي المعجزة التي لا فضل لنا فيها .

*

ان أفكارنا أفكار تاريخية ثابتة ليست متحركة بالسرعة التي تتناسب مع الحياة والظروف والوجود الذي نعيش فيه ، فالأحكام الفكرية التي انتهينا اليهـا منذ أبعد الأزمان في فهم الناس والأشياء والمواقف هي نفس الأحكام التي نحيا عليها اليوم ونحيا عليها أيضاً غداً . لقد شددنا جميع وحدات هذا الكون والحقـائق الى افهام وتفسيرات نهائية لا نتحول عنها ، وصرنا نتتابع على هذه الأفهـام والتفسيرات كما نتتابع على العقائد والطقوس الدينية ! ونحن لا نتصور التـاريخ

والأمم والحقائق حركة مستمرة بل تفسيراً، ولهذا نظل متخلفين عن فهم الظروف والمواقف التي تفرض نفسها علينا بلا مجاملة ، ونظل غير مفهومين كما اننــا غير فاهمين . وقد عجزنا دائماً عن التوافق مع قوى الحيـاة وأساليبها الجديدة وعن التصرف بنجاح مع الشعوب التي نتعامل معها ، او ان نفهم احتياجاتها ونيـاتها ونفسر مواقفها تفسيراً ذكياً ونثق بها ونجعلها تثق بنا . ان النـاس لا ينقسمون الى أخيار وأشرار ، لا يختلفون في نياتهم ولا في طبائعهم العامة ، وإنما يختلفون في مواقفهم، ولا يوجد أصدقاء ولا أعداء، ولكن يوجد بشر يتعاملون ويبحثون عن أفضل الفرص . والحكم على اتجـــاه شعب من الشعوب او على أخلاق قوم معينين حكماً مطلقاً عاماً ،او تخصيص قوم بأخلاق ثابتة وخاصة بهم جمود تاريخي بليد ! اذا كنا قد اعتقدنا في وقت من الأوقات ان أحد الشعوب عدو لنـا وان مصالحه متعارضة دائماً مع مصالحنا ، او انه متصف بصفات رديئة معينة ، او انه يريد تحقيق أمور يضر بنا تحقيقها ، فستظل عقـائدنا في هذا الشعب هكذا دائماً مهما تغيرت المواقف والظروف والأسباب ــ وكذلك يكون الأمر لو اعتقدنا عقيدة مضادة في شعب آخر، لقد رأينا في الشعبين رأياً نهائياً كرأينا في العبادات والأديان ، وقد جاءت علاقاتنا الدولية دائماً علاقات سخيفة ولم نستطع ان نتوافق توافقاً دولياً . لقد وضعنا أمام كل شيء فهماً جاهزاً خالداً ، وكان هــذا الفهم مخيفاً لنا وخاطئاً أيضاً ،ففررنا من كل الأشياء وخفناها ولم نفهمها ، وخفنا كذلك من كل الناس وعاديناهم. ولو أننا كنا قادرين على تجديد أفكارنا وتفسيراتنا السابقة لاستطعنا ان نتحرك مع هذه الدنيا وان نفقه مواقفها وأهدافها ونتكافأ معها بالسرعة التي تجعلنا نفهم وننتصر .

وهذه الأبدية في الأحكام راجعة الى الأبدية في طبائع الأشياء ، فالأشياء ــ سواء أكانت مادية أم معنوية ــ أبدية الطبيعة، فالأخلاق والضرورات والخصائص والأحكام عليها لا تتغير . والشيء ليس جيداً او رديئاً تحت ظروفه المناسبة او غير المناسبة ، والمناسبة لا تحدث لحدوث ظروفها ، والظروف لا قدرة لها أمام طبائع الأشياء ، والتقاليد والقوانين ليست حاجة او ضرورة بل خلود وأوامر.

وافهام الخالدين وتفسيراتهم يجب ان تكون خالدة ، ومقاييس ما لا يتغير ثابتة .

★

ونحن لا نؤمن بقيمة التفكير ، وليس للفكر تاريخ في تاريخنا ، ولم نعهد تلك الثورات الفكرية التي وجدت في كل المجتمعات المتحضرة وأثارت طقساً عنيفاً بين المؤيدين والمنكرين ، وذهب لها ضحايا وشهداء . وكل ما حدث ان شموعاً ضئيلة خافتةأُضيئت في أزمان متباعدة فأطفأتها الأنفاس قبل أن تقابل الرياح! وتاريخ أية أمة هو تاريخ فكرها ، فالتي ليس لها فكر ليس لها تاريخ ، ولهذا فإننا لو عمدنا الى شريط التاريخ الإنساني العام وقصصنا منه مكاننا لما شعر النظارة بأنه ناقص ! نحن لا نؤمن بالفكر لأننا لا نؤمن بالخلق والابتداع ، إذ نحن قوم متبعون وندعو الى فضيلة الاتباع ، وأعظم أعمال الفكر أن يخلق ويبتدع ، بل اننا نكره الفكر ونخافه لأننا نكره ونخاف التجديد في الحياة ، والمفروض فينا ان يكون كل منا متبعاً لا مبتدعاً . واذا كان التجديد في المذاهب والتقاليد والأخلاق والنظم والقوانين منكراً ومروقاً فكيف إذن يكون التفكير جائزاً أو فضيلة ؟ ان التفكير هو الذي يجعل التغيير محتوماً ، فإذا كان حراماً ان نتغير كان حراماً أن نفكر . إذن نحن لا نؤمن بالتفكير لأننا لا نؤمن بالتجديد، ولكن لماذا نهاب التجديد ؟ هذي هي المسألة .

لم توجد كتب في لغتنا عن الفكر وحريته ومعاركه وانتصاراته او عن بناته ، بل ان كلمة فكر لم توجد في تاريخنا مقصوداً بها معناها المعروف عند الشعوب المتحضرة ، وإنما جاءت مادة التفكير مراداً بها غير هذه المعاني بل ما ينافي هذه المعاني كالتفكير في ضعف الانسان ونهايته ونهاية العالم وبطلان ما فيه، وكذلك التفكير في دلالته الدينية – اي انه تفكير سلبي ينتهي الى العجز عن التفكير والى الرغبة والاستغناء عنه ! والتفكير الديني القائم على ان الدنيا لا بقاء لها وان كل ما فيها لغو وغرور ، وان الانسان نفسه وكل ما له من فكر وتاريخ ومجد وقوة هباء ، وان جميع ما هنا يهيب بالعاقل ان يمضي عنه ويلعنه ، وان الوجود كله إنما وجد ليدل على العبادة – مثل هذا التفكير يهدم الانسان ويهدم

احتمالاته الحضارية . فالمفكر الديني يفكر ليهرب ويحرم ويخشع ويؤمن، أمـــا المفكر بالمعنى الحضاري فإنه يفكر ليغـير ويقتحم ويخلق ويفهم . واذا كانت الثقافة العربية لم تذكر التفكير على المستوى الحضاري فقد ذكرت شيئاً آخر قد يظن مرادفاً للفكر – ذلك هو العقل ، لقد ذكر العقل وامتدح كثيراً في الآثار والتعاليم العربية . فلماذا مدحوا العقل اكثر مما مدحوا التفكير والذكاء – بل لقد خافوا وحاربوا التفكير والذكاء كما ذكر آنفاً !

إن أظلم الطغاة والحكام وأغبى المجتمعات لترحب بالعقلاء أو على الأقـل لا تخشاهم ، بينما تضيق أبشع الضيق بالمفكرين والأذكياء . فكيف حدث هذا وما تفسيره ؟ إن العقل بطبيعته أو بتصور أولئك المتصورين له شيء غـــير التفكير والذكاء ، بل ومناف لهما في سلوكه !

فالعقلاء محافظون يحاولون التلاؤم مع ماهو موجود والاستفادة منه مهما كان فاسداً ورديئاً - العقلاء ليسوا قوى مناضلة ، بل قوى مستغلة تبحث عن الربح والتوافق مع ما هو موجود مهما كان هذا الشيء الموجود ، وهـذا السلوك يرضي الطغاة ويتوافق مع تدبيرهم كما يتوافق مع سلوك المجتمع ويرضيه .

اما الاذكياءوالمفكرون فقديكون من طبيعتهمالثورة ومحاولة التغيير ،اوعلى الاقل الشك او التشكيك في قيمة ماهو موجود وشرعيته ، وهذا شيء يخيف المجتمع والمسيطرين عليه . فامتداح العقلاء يعني امتداح النفاق والجمود والفساد. ولا يوجد اخطر من العقلاء في المجتمعات المتخلفة الفاسدة ، انهم فيها ادوات تخريبية ، ولهذا فان الحكام المستبدين يتخذون اعوانهم ومستشاريهم من العقلاء لامن المفكرين ! بل من المحتمل جداً ان يكون العقلاء قوة مانعة من التطور والاصلاح دائماً وشعوبنا لاتقيم اي وزن للفكر،وهم لايشترطونه في اي عملمن اعمالهم ولا في اي رجل من رجالهم ، فا كبر الرجال الذين يتولون اكبرالشؤون لايشترط فيهم ان يكون لهم فكر ، بـل لايشترط فيهم ان يعرفوا دلالة الكلمة اللغوية . وجميـع الذين يقضون الآن في شؤوننا القضاء المطلق – يقضون فيها

محلياً ودولياً ليست لهم اية علاقات صداقة او فهم بالتفكير .

*

والتفكير العربي ليس تصميماً عقلياً ، بمعنى ان احكامه على الاشياء ليست نتيجة دراسة مباشرة ، بل هي أحكام فقط ، أحكام بلا دراسة ، انها قصاصات متناثرة من الروايات الدينية والتاريخية والفلسفية ومن الأشعار والحكم والأمثال الشائعة في السوق ، ليس لها تصميم كامل . لم يكن في طبع التفكير العربي او حوله الصبر على الدراسة المباشرة الشاملة ، فهو حينما يريد ان يدرس الانسان مثلاً فانه لن يدرسه في الانسان كما يصنع الاسلوب العلمي - أي لا يعمد الى الانسان نفسه فيدرس خصائصه وغرائزه وكل ما يتفاعل في ذاته الجسمية والشعورية والفكرية وما يصدر عنها باستقراء تام واع ، ويميز ما هو انساني عام يشترك فيه جميع آحاد هذا المخلوق ، وما هو خاص لظروف خاصة ببعض الآحاد او بعض الشعوب ، ثم يحكم الملاحظة والاحصاء ويطيلهما الى ان يخرج بدراسة حقيقية خصبة متميزة ، انه لا يعرف هذا النوع من الدراسة ولا يطيقه . واسلوبه في دراسة هذا الكائن مثلا ان يعمد الى نفسه وما فيها من أوهام ومخاوف ومحفوظات ورواسب مختلفة الأنساب ، وقد يكون ذلك بيتاً من الشعر كما قد يكون حكمة قديمة او نصاً من كتاب مقدس او رواية عن أحد الأنبياء او أحد الصالحين او الواعظين او الفقهاء ، او ملاحظة ناقصة جداً ، او استنتاجاً عقيماً ليس له مقومات الاستنتاج ، او قد يكون انفعالاً عاطفياً خاصاً . وحينئذ يصدر حكماً نهائياً على الانسان ، وقد يضع حكمه في كتاب كبير يخرج به على الناس مع شيء كثير من الغرور . وهكذا هو في جميع أحكامه على حقائق الوجود المحيطة به - يحكم ولا يدرس ، انه يهرب من مواجهة الأشياء اذا اراد دراستها !

ولعل دراسته للتاريخ من أعجب هذه الدراسات ! فالتاريخ كله - الطبيعي والاجتماعي والسياسي والديني وغيره ليس سوى مجموعات هائلة متكررة مترادفة او متناقضة متلاعنة من المحفوظات والكلمات الرنانة المطلقة والتأملات الخائفة والنصوص المكتوبة على أبواب المقابر ! انه يقدم دراسة مذهلة عن هذه الكائنات

الكبيرة التي تحيط به ، فالشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب وقوس قزح، وما كان وما سوف يكون او ما لن يكون — كل ذلك يدرسه ويعطيك عنه نتائج نهائية بدون ان يعلم عنه شيئاً ، فهو يدرسه في نفسه وفي المعابد والنصوص والحكم المأثورة لا في ذات ذلك الشيء ! ولو أردنا ان نفهم تاريخ أمة او فرد من هذه الدراسات المكتوبة التي أخرجها تفكيرنا العجيب فلن نستطيع ان نفهم من ذلك إلا بقدر ما نفهم عن قوس قزح حينما تزعم لنا هذه الدراسات انه سيف الشرطي السماوي الحارس للسحاب مسلولاً يحمي به السحاب من اللصوص ويسوق به السحاب الى البلد البعيد المحظوظ . والفكر الذي يعجز عن دراسة الكائنات الكبيرة المحيطة دراسة مباشرة كيف يستطيع دراسة الكائنات الدقيقة الخفية كجراثيم الأمراض وأمراض النفس والفكر والشعور والمجتمعات !

والتفكير العربي ضيق الصدر متتابع الأنفاس ، لا يملك الطاقة التي تجعله يحيط ويحلق فوق وحدات الموضوع حتى يهتدي الى الوحدة العامة في ذلك الموضوع والى الفكرة المشتركة فيه . والدراسات العليا لطبيعة التفكير الانساني تدل على ان الشعوب المتأخرة في تفكيرها لا تستطيع التفكير الشامل ، وإنما تفكر دائماً تفكيراً جزئياً ، فالانسان المتخلف لا يقدر ان يدرك في ذهنه معنى عاماً للحقائق الكبرى كالانسان والحياة والفكر والعلم والحضارة والثقافة والعدل والحرية وغير ذلك ، لأن إدراك هذا المعنى العام يحتاج الى فكر واسع وثاب متحرك ليستطيع الاحاطة بالمعنى المشترك بين جميع الوحدات ، واذا لم يكن الفكر بهذا الاتساع وهذه الإحاطة فإنه اذا اتجه الى فهم وحدة من وحدات الموضوع غابت عنه الوحدات الاخرى فلم يقدر على إخضاعها كلها لمعنى مشترك، وحينئذ يكون جزئياً لا كلياً . وهذا الانسان البدائي الذي يعجز عن الفهم الشامل يرى الفرد من الإنسان او الحيوان او من المعاني فيدرك أحياناً بعض خصائص هذا الفرد الظاهرة ولكنه يعجز عن الإدراك الكلي ، فيعجز ان يلاحظ انه يوجد شيء او أشياء عامة يشترك فيها كل انسان وحيوان ، وانه توجد آحاد معنوية وعلمية ومنطقية يشملها كلها قانون واحد وتتساوى أمام هذا القانون ،

وان العلم بواحد منها يساوي العلم بها كلها . ولهذا فإن الانسان البدائي لا يعرف الكليات التي تعرفها الشعوب المتحضرة كالانسانية وكالثقافة او المدنية او المعرفة او القوانين العلمية والرياضية ، ولهذا فإنه لا يستطيع ان يدرس شيئاً ما دراسة علمية او فلسفية ، وإنما تكون له مشاهدات فردية كمشاهدات الأطفال، والطفل لا يعقل كلية الأشياء ، انه يعقل ان هذا الفرد يسمى إنساناً او حيواناً اذا رأى أحد أفراد الحيوان او الانسان ، ولكنه لا يعقل المعنى الكلي لذلك ، وقد عد عصر المنطق عصر تقدم كبير لأنه نقل البشر الى عصر الكليات بعد ان كانوا يعيشون في عصر الجزئيات . ولم يستطع الانسان ان يخطو بالحضارة خطواتها الكبرى إلا بعد ان تخطى عهد المعرفة الجزئية !

وقد عجزنا عن تصور الأشياء تصوراً صحيحاً وعن الحكم عليها حكماً صحيحاً لأننا لم نستطع ان ان ندرسها دراسة كلية لنخرج منها بمعرفة كلية ، لم ندرس الحضارة او الحياة او الانسان او التاريخ او الشعوب هذه الدراسة، بل درسناها – وعلى الأصح لاحظناها – ملاحظة جزئية لا يمكن ان تعطي إدراكاً شاملاً فأصدرنا أحكاماً غير صائبة، ولم نستطع ان نقدم دراسات حقيقية عن أي شيء، بل ولم نتمكن من معرفة كليات الوجود والحياة ، ثم لم نتمكن من التصرف إزاءها تصرفاً حكيماً لأن التصرف الحكيم لا يكون قبل التصور الصحيح . حينما نرى ظاهرة من ظواهر الحضارة لا نستطيع ان نتكافأ معها او ان نفهمها نسرع الى الحكم بأن هذه الظاهرة هي الحضارة ، وان الحضارة جريمة – وكذلك نفعل حينما نجد أحد أفراد الانسان يعمل عملاً يسوؤنا لأننا لا نستطيع ان نعمل مثله، او لأن غيرنا هو الذي عمله ، وحينئذ نزعم ان هذا العمل الذي ساءنا عمل رديء، وان الانسانية معناها الرداءة والسوء بمعناها الكلي . نحن لا ندرك الحضارة والانسانية بمعناهما العام ، ولا ندرك معاني الخير والشر والجريمة والسوء إدراكاً كلياً ، ومعنى هذا ان نعادي كل إبداع انساني ونتخوف منه لأنه لا يعني في تصورنا غير الفساد والاثم والكبرياء والخروج على السماء .

أما الوحدة القانونية فنحن كما هو واضح أبعد عن إدراكها والإيمان بها، وهذه

الوحدة القانونية هي القاعدة التي نهضت عليها حضارة الانسان ، وجميع معارفه والعلم في آحاده لا يخرج عن العلم بهذه الوحدة . والمتخلفون في تطورهم الفكري والعلمي لا يجدون ما يرفعهم الى هذه القمة، وتعاليمنا بكل صورها تناوىء هذه الوحدة القانونية لأن جميع هذه التعاليم تلقننا ان كل جزء من هذا العالم إنما وجد ويبقى بإرادة خاصة لا بقانون عام ، ولهذا فإننا لا نحترم الطبيعة والمادة ولا نحترم قوانينها . والقول بالإرادة الخاصة لكل موجود يعني القول بأنه لا قانونية في الوجود ، ووحدة الوجود — مقصوداً بها هذا المعنى — لا يمكن ان تقوم معرفة بدونها !

*

والتفكير العربي تفكير اتكالي ، هارب من نفسه ، وقد كان دائماً يعبر عن هربه بشوقه الأصيل وحماسه المتوتر في بحثه عن الأرباب والخرافات والأكاذيب والعقائدالجاهزة والقياصرة المتألهين ليحكموه ويذلوه ويرهبوه، دون ان يتسامحوا معه او يحترموا عقله وكرامته ، انه يريد ان يؤمن لا ان يفكر ! وهو يهاب الحقيقة ، لا يبحث عنها اذا بعدت عنه ، ولا يرحب بها اذا واجهته ، وأشنع أعدائه هم الذين يبحثون عن الحقيقة او يحترمونها او يحاولون ان يدلوه عليها ، انهم هدامون خصوم زنادقة ! والعرب يرحبون دائماً بمن يبرر لهم أنفسهم وجميع ما لديهم من عقائد وأفكار وأشياء ، والخصم البغيض هو الذي ينقدهم او ينقد شيئاً مما يفعلون او يعتقدون او يملكون !

اكثر الشعوب المتحضرة تنقد نفسها واشياءها ، أما الشعوب العربية فانها لا ترى فرقاً بين النقد والخيانة، فالعربي الذي ينقد شيئاً عربياً يعد خائناً — حتى الأرض والطقس والجبال والأنهار والأمطار العربية من المخاطرة نقدها او الشك في أنها أفضل من مثيلاتها ، ولهذا فان العرب في كل تاريخهم لم يعطوا فلاسفة ولا مفكرين ولا واضعي مذاهب او نظريات، حتى الإله لا يغضبون له ضد من ينكرونه او ينقدونه إلا على تقدير أنهم يملكونه ويتعاملون معه ، فهم يغضبون لمن يملكون لا لمن يحترمون. انهم يغضبون للإله المملوك لهم، لا للإله العالمي الطيب. ولهذا فانهم

يغضبون لسيدنا محمد ﷺ أكثر من غضبهم للأنبياء الآخرين. وليس تحريم النقد هو الذي حرم العرب من هذه الموهبة ولكن خضوعهم لهذا التحريم دليل على فقدان الموهبة! والذين يطيعون الأوامر لا يطيعونها إلا لأنهم لا يستطيعون الخروج عليها، فالانسان لا يؤمن إلا بما يستطيع ويريد، فاذا آمن بما لا يستطيع ولا يريد فسر ايمانه بما يريد وبما يستطيع!

*

والتفكير العربي يرفض أن يكون مسؤولاً عن نفسه، وهو يوزع المسؤوليات توزيعاً خارجياً. كان الله والشيطان يخلقان خطأه وصوابه، وحين فقد الله والشيطان او ضعف ايمانه بهما ذهب يبحث عن خالقين او أعداء آخرين ليجعلهم مسؤولين عن مسؤوليته. ويوم أن كان في أوج ايمانه لم يكتف بالآلهة والأرواح الشريرة ليؤمن بها ويجعلها مسؤولة عنه وعن ضعفه وأوزاره، بل كان محتاجاً ايضاً الى أرواح اخرى شريرة ظاهرة ليلقي عليها هذا الضعف والأوزار. فالعرب يهوون دائماً أن يفترضوا أنفسهم مقصودين بالشر الخارجي، ومحاطين بالأبالسة والخصوم الأشرار يكيدون لهم ويفسدون ضمائرهم وعقولهم وأخلاقهم! وقد كان هذا نوعاً من الاحتياج الى البكاء، والاحتياج الى البكاء حالة نفسية، وأكثر من يحتاج الى التعبير عن هذه الحالة بالبكاء هم الأطفال، ان الأطفال هم دائماً أغزر دموعاً من الكبار وأكثر اتهاماً للآخرين والقاءً عليهم!

كان الاسلام فيما نقول ونعتقد أكبر انطلاقة عربية – بل وأول انطلاقة. وجميع من درسوا الاسلام لا يجعلون العرب الذين جاءوا به مسؤولين عما أصابهم او اصابه، ولا يجعلون الفكر العربي مسؤولاً عن أخطائه فيه، فاليهود والدخلاء هم المسؤولون عن أخطاء العرب وهزائمهم، وعما أُدخل على دينهم من انحراف وكذب وضعف وخرافة وتفسيرات سخيفة! كان هؤلاء الاسرائيليون والأجانب الآخرون يكذبون ويكيدون ويلقون بكل سمومهم في المياه العربية، ولم يكن العرب يصنعون شيئاً من ذلك ولكنهم كانوا يقبلونه في أنفسهم – لا يصنعون الشر غير أنهم لا يقاومونه، فهم طيبون او اذكياء الى المدى الذي يجعلهم يمكنون لمكايد أعدائهم من الانتصار عليهم! وكل المؤامرات والحروب والانقسامات

التي واجهها الرسول وأصحابه والخلفاء وحكام العرب في جميع عصورهم ، من سببها ومدبرها ؟ انهم ايضاً اولئك الغرباء المتآمرون ! وفي اليوم الذي كنت اكتب فيه هذه الكلمات نشرت واحدة من اكبر الصحف العربية حديثاً لزعيم وقائد عربي كبير ومشهور جداً ، وقد جاء في حديثه ان اليهود هم سبب جميع الشرور الموجودة في العالم وانه لولاهم لما فسد العرب ولا غيرهم . انه يرى ان اليهود هم القوة الشريرة الخالقة في العالم كله ! وأي ترويع للعقل العربي أكبر من هذا، وأي إسقاط للأوهام المدمرة في الخيال العربي يتفوق على هذا الاسقاط الفاقد للذكاء ؟ ويوجد حديث مشهور يعزوه الرواة الى الرسول وهو مذكور في أفضل وأشهر كتب الحديث .

يقول هذا الحديث : « لولا بنو اسرائيل لم يخنز اللحم » أي لم يصب بالتعفن والفساد ! عجباً ! حتى القوانين الطبيعية انما سببها اليهود ، حتى البكتريا وأعمالها في الطعام لم تكن إلا يهودية !

وجاء في كتاب صدر حديثاً لمؤلف عده بعض المحافظين ملحداً لشدة تحرره: « ان جميع الفتن السياسية وأكاذيب الرواة في صدر الاسلام ترجع الى جمعيات اليهود والفرس السرية » . وقد كان من المفروض المقرر دائماً ان الخلفاء والحكام والولاة العرب لم يكونوا ليجدوا الشيطان في أنفسهم او يعرفوا أن للرذيلة اغراء كحد السيف لولا أعوانهم ومستشاروهم من الفرس والأتراك وسائر الأعاجم ! حتى الجواري الخليعات والشعراء والكتاب المجان والزنادقة ، حتى هؤلاء كانوا فرساً وروماً ويهوداً، ولا يمكن ان يكونوا عرباً، فالعرب لا يضلون او يفسدون ابتداعاً بل اتباعاً اذا فعلوا ، وهم لا يكونون أبالسة ولكن الأبالسة يخدعونهم وينتصرون عليهم ويعيشون فيهم . والتراجع الحضاري والانساني الذي حل بهم إنما جاءهم مع الغزاة الأجانب، فالدولة العثمانية وغيرها من دول الأعاجم وغزواتهم هي التي أخمدت او سحقت كل فضيلة وقوة في عقل العربي وأخلاقه ، ووقفت عوامل النمو والتطور فيه !

ثم أخيراً ! لقد جاء المسؤول الأعظم عن أفظع مرحلة متخلفة حلت بالوجود

العربي وبالحضـارة العربية المتفوقة ، لقد جاءت اوربا ، فأوربا هي التي علمت العرب الجهل والفقر والظلم والاستبداد والتأخر والانشقاق،وأهدت اليهم الإيمان بالشهوة والشيطان ، وعلمتهم ان يكشفوا ما في أنفسهم من ضعف وانحدار! واذا قيل لهم ان الشيطان كان موجوداً وجيد الحظ في العـالم العربي قبل ان يجيء الاستعمار الغربي وقبل ان يخلق ، وانه أي الشيطان الموجود في العالم العربي هو الذي فتح الطريق للاستعمار ورحب بمقدمه،وانه يقتات بنفوس العرب وشهواتهم كما يقتات بالأطعمة الاخرى ـ او قيل لهم ان البلاد العربية التي بقيت تقتات بفضائلها ورذائلها وحدهـا بدون تدخل خارجي جاءت أبشع صورة للتأخر والفساد واكثر تحالفاً مع الشيطان وصداقة للغواية: اذا قيل لهم ذلك أصروا على أن العرب لم يضلوا أنفسهم او يؤخروها ، وانما جاءهم الضلال والتأخر من خارج طباعهم ! انهم يريدون ان يمجدوا العرب بجعلهم مفعولين لا فاعلين ، كأن الذين يفعل بهم الفساد أفضل من الذين يفعلونه ، وان الذين يستوردون الرذيـلة هم الصالحون الأقوياء دون الذين يصدرونها ! وقد ظل حكامنا وزعماؤنا يجدون في الغرب المحتل او الذي كان محتلاً وفي التحدث عنه مبرراً وطنياً وأخلاقيـاً لعجزهم وجهلهم وسرقاتهم يخدعون به جماهيرهم ، وكانت الجماهير ترحب بهذا المبرر لأنه يريحهـا من ان تفهم وتقلق وتغضب وتحاول! وسوف يظل الحكام والزعماء، بل والأدباء والعلماء والمفكرون لدينا يصرون على التحدث عن هذا المبرر بعد زواله ليثبتوا انه هو سبب كل تقصير او عجز او جهل او اعوجـاج فيهم ، ومن المؤلم والمحرج لهم جداً ان يفقدوا هذا المبرر او تفقد الجمـاعات اقتناعها به ! انه حيلة سهلة يغطون بها كل وجوه ضعفهم، وهدية طيبة يقدمها لهم التاريخ! ولهذا فمن الملاحظ ان هؤلاء يلجون ويصرون على التحدث عن الاستعمار الغربي وعن نشاطه وألاعيبه القوية وعن سحره وطول بقائه واتساع نفوذه كلما زال او أوشك على الزوال ، لأنهم يشعرون حينئذ بأنهم مهددون بفقدان هذه اللعبة وبأن تتخلى شعوبهم عن إيمانها بالشيطان وبالقدر الذي يحملونه أخطاءهم ويمسحون به كل أدرانهم المتراكمة، ومعنى هذا أن ينكشفوا وان يروا في العراء الواسع بعد سقوط القنـاع الساتر .

وقد كانت دائماً الأكاذيب والأوهام الساترة هي الملابس الرسمية التي يبدو بها الحكام والزعماء أمام شعوبهم في أبهى صورهم !

اذن لا بد من الحديث عن الأعداء والأخطار الخارجية ، ومن اختلاق ذلك لو كان غير موجود لأنه جزء من قوة الحكام والزعماء وعبقريتهم ! ولعلهم يذهبون يشيدون للأخطار وللأعداء الأجانب النصب والتماثيل في الميادين او على الأقل في النفوس والكتب والخطب ليظلوا دائماً مذكورين مرهوبين ، ولعلهم أيضاً يظلون دائماً يذكرون بهم عمداً فيقيمون لهم الاحتفالات الرسمية الدورية التي تجدد ذكراهم وتشير اليهم وتتحدث عنهم وعن آثارهم وتهديداتهم الدائمة ! وهذه اللعبة تشبه لعبة الوعاظ وزعماء الروحانية في قصة الشيطان وتهديده للبشر وهزيمته للإله في صراعها على الانسان ! ان قصة الشيطان وقوته هي المفسر لقيمة هؤلاء الوعاظ والروحانيين والمعنى لوجودهم ! وحينما يزول كل أمل في قبول الجماهير للحديث عن الاستعمار الأجنبي كمبرر مقبول لعجز الحكام والزعماء وضلالهم فسوف يبحثون عن عدو أجنبي آخر يكفي للقيام بعملية التبرير السخيفة . والظروف الكثيرة المتناقضة لا بد ان تهيىء لهم هذا العدو الأجنبي ، وان تجعل منه مبرراً صالحاً ومقبولا في السوق التي تبحث بكل أشواقها عن مبررات الإيمان بالغباء ! ولهذا فكم يكون من الصواب الاعتقاد بأن حكام العرب وزعماءهم فرحون جداً بوجود اسرائيل مع لعنهم الدائم العصبي لها ، وان كان فرحهم هذا يشوبه شيء، تشوبه اعتبارات خاصة ، فهم مبتهجون بهذه الفرصة مع شعورهم بالحرج والاذلال لكبريائهم . ان زعامتهم وبطولتهم ستظلان جريحتين ما دامت هذه الدولة البغيضة موجودة ولكن وجودها احتياج من احتياجاتهم ، من احتياجات هذه البطولة والزعامة ، ففي وجود اسرائيل أضخم فرصة لهم لكي يشغلوا ويصرفوا مشاعر جماهيرهم ، ولكي يبرروا أخطاءهم وطغيانهم وكل أساليبهم العاجزة الغبية، اذا قصروا وعجزوا وطغوا وسرقوا قالوا : عذرنا أننا مشغولون بمقاومة خطر هذه الدولة ، واذا اتخذوا اجراءات غير قانونية ولا ديمقراطية وحتى ولا انسانية برروا ذلك بالخوف منها والاستعداد لها ! ويصبح أعظم تعويض يدفعونه

لشعوبهم ثمناً لما يصنعون من ذنوب وكبرياء ولما ينزلونه بها من آلام وحرمان ان يتصنعوا الحماس في لعن اليهود وفي التحدث عن نيـاتهم العدوانية ومؤامراتهم ونفوذهم الدولي العظيم ، وتصبح الخطب الرنانة اللاعنـة للدولة اليهودية بطولة ووطنية وغذاء مقوياً للشعب الضعيف وتسويغاً لكل هوان او فقر داخلي !

ولم يزل البشر يحولون جراحهم ومشاكلهم الخـاصة الى تعبيرات دينية او وطنية او أخلاقية ، والمتألم في نفسه يجد راحة وعزاء في اتهام الآخرين وسبهم ! ان في السباب لراحة وغذاء للجـائعين المتعبين ! وبقدر ما نكون متألمين نكون أصدقاء للفضيلة وأعداء للنـاس ! وكان الأفضل ان نكون العكس ، أصدقاء للناس أعداء لادعاء الفضيلة . لقد كان وجود اسرائيل منحة من الشيطان لحكام هذه المنطقة وزعمائها ، ولعلهم اذا سرقوا وفجروا يذهبون يزعمون يوماً ما ان اسرائيل هي التي تغريهم بذلك ، او انهم يسرقون أموال شعوبهم وأعراضهـا منافسة لاسرائيل لئلا تسرقها قبلهم ! ولعلهم كذلك اذا أنفقوا كل شيء في الدعاية لأنفسهم وفي شراء الأسلحة التي لا يريدون بها إلا تزيين أنفسهم وحمايتها من القوى الداخلية عللوا عملهم هذا بالاستعداد لهذه الدولة !

ولو زالت هذه الدولة العدوانية — ونرجو لها ذلك سريعاً — لذهبوا يسألون الشيطان ان يهيىءلهم اسرائيل اخرى مثلها او شراً منها،او ان يهيىء لهم شيطاناً او أي شيء آخر يخوفون به ، ويخطبون ضده ويصرفون اليه خطبهم وحمـاسهم وسبابهم ويملؤون به قلوب أتباعهم خوفـاً وتعصباً ،ويجعلونه هو المسؤول عن اتساخ ملابسهم الرسمية ! والحقد الموجه الى الخارج كان دائماً اسلوباً مرعيـاً من أساليب الحكام والزعماء والدعاة الكاذبين الماكرين، ووجود العدو الخارجي او التخويف به جزء من الخطة الموضوعة للسيطرة الداخلية ! ان الآلهـة نفسها وجدت انها محتاجة الى ان تتحدث دائماً عن عدو خارجي خطير ، موجهة اليه الأنظار ، مخوفة بفتكه وتربصه الدائمين !

نحن دائماً اسقاطيون ، نسقط أنفسنا وذنوبنا على الآخرين ! الشيطان يوسوس للانسان ، ولكن من يوسوس للشيطان ؟ والآخرون يصنعون ضلالنا ، ولكن

من يصنع ضلال الآخرين ؟ لم نستطع ان نفهم ان الانسان يضل نفسه كما يضل الشيطان نفسه ، واننا نصنع ضلال أنفسنا بالاسلوب الذي يصنع به الآخرون ضلال أنفسهم ! اذا كنا نحتاج دائماً الى من يفسدنا من الخارج فهل يحتاج مفسدنا الى من يفسده ؟ واذا كان يفسد من داخله فلماذا لا نفسد نحن من داخلنا ؟ الآخرون هم الذين يضعون فينا الشهوة والحقد والشقاق والاختلاف في الرأي او في الهوى والمصلحة ، وهم الذين يقسمون بلادنا الى دول وامارات ويؤخرونها وينشرون فيها الجهل والضعف والفسق والظلم ، ويعلمون حكامنا وزعماءنا الخيانة والغدر والشبق المحرم ومخاصمة الحرية والعجز عن المعرفة ، ويشنقون الله في أنفسنا ، ويدلوننا على طريق الجحيم ، ويجعلون منا خصوماً يتراشقون بأبذأ التهم والشتائم ويتربص كل منهم بصاحبه في مرارة وحقد مميت !

والمذاهب والفلسفات والآراء الخطيرة والضالة ليست من حاصلات المجتمعات العربية ، ليس في طبيعة العرب ان يصنعوا أية فلسفة او أي مذهب ، ولا ينبغي ذلك ، فهذا ابتداع ، وهم ليسوا مبتدعين ، وإنما هم دائماً متبعون لتقاليدهم الفكرية والثقافية المتقررة الموروثة ، وهم دائماً يفعلون كما كان آباؤهم يفعلون ، وهذا أعظم صور الفخر والفضيلة في تقديرهم . وابتداع النظريات والآراء غرور وفتنة وفقر تاريخي ، والفقراء في تاريخهم هم الذين يصنعون المذاهب والفلسفات والنظم الجديدة او يتقبلونها ، وتقبل الأشياء الجديدة وابتداعها إهانة للآباء وللسلف الصالح ! وأولئك الذين يبتدعون الحضارات ويجددون في أساليب حياتهم وتفكيرهم هم قوم لا يملكون ماضياً عظيما او يحتقرون ماضيهم ! إن الأغنياء في تاريخهم لا يحتاجون الى ابتداع شيء ، كما لا تجوز البراءة من الآباء العظام !

※

ان الشعوب تموت من داخلها لا من الخارج ، فهي لا تقتل ولكنها تنتحر ، هذه نظرية قد قيلت وأنا اؤمن بها ! ولم يحدث ان شعباً مات او تأخر لأن عدواً خارجياً فعل به ذلك او أراده له ، ولكنه يموت ويتأخر بظروفه وإرادته الداخلية ، وحتى الهزيمة في الحرب لا يمكن ان تعوق او تضعف أي شعب ما لم

يرد هو ذلك ويفعله بنفسه . والاحتلال الاجنبي لا يستطيع ان يقتل ، فالأعداء المحتلون هم اسلوب واحد من أساليب التحدي الكثيرة التي تواجه الانسان منذ يوجد ، والانسان يولد في خضم لا نهاية له من التحديات ، والذين يستطيعون الانتصار على تحديات الطبيعة يستطيعون الانتصار على تحـديات الأعداء ، أي يستطيعون الانتصار على تحدي الاحتلال ، والذين لا ينتصرون على الطبيعة لا يمكن ان ينتصروا على أي عدو ، ولو انهم كانوا بلا أعداء لبقوا ايضاً مهزومين وضعفاء ! وأي انتصار في هذه الحياة لا يعني شيئاً الا انتصار واحد هو الانتصار على الطبيعة ، وانهزامنا امام اعدائنا انما يعني انهزامنا امام الطبيعة ، وهذه هي القيمة الحقيقية لأية هزيمة في أية حرب او معركة . واحتلال أي جيش لأي بلد هو تعبير عن عجز ذلك البلد في نضاله ضد الطبيعة !

إذن فالاحتلال الأجنبي لا يعني شيئاً ولكنه يرمز الى شيء – أعني ان الذين يدافعون عن تخلفهم وهوانهم ومساوئهم الكثيرة بالأعداء الأجانب وبالمؤامرات والغزوات الخارجية هم مخطئون ، وما يزعمونه ليس الا عملية تبرير سخيفة !

توجد اليوم نداءات خطيرة وقوية تنادي بالتخلص من كل ما وفـد الى العالم العربي مع الغزوة الأوروبية الكبرى من فلسفات ومذاهب وأفكار وديمقراطية ومعارضة للحاكم او للعقائد القديمة المأثورة ! ويخشى ان تكون القوى الحاكمة والمعبرة في العالم العربي مصممة اليوم وسوف تزداد تصميما على ان تنفض عن العرب كل دخيل على اخلاقهم وتاريخهم من اعراض الحضارة الغربية الوافدة ، ويخشى ان يكون في هذا الاتجاه ما يرضي الجماهير او يخدعها. فالتفكير والتعبير الحران ومعارضة الحكام ، واختلاف الآراء ، والأحزاب ، والصحافة ، والانتخابات ، والمجالس النيابيـة ، والنقابات العمالية ، والإضراب ، والاحتجاج ، كل ذلك دخيل على الطبيعة العربية ، ضار بالعرب مفسد لهم ، وقد جاء الى البلاد العربية في غفلة من العرب ، متسللاً مع الغزو الأوروبي ليدمر القيم الأصيلة الفـاضلة ، وليكون نوعاً من الاستعمار الفكري والثقافي والأخلاقي والحضاري الدائم، وهذا

بطبيعته يساعد أنواع الاستعمار الأخرى . ولهذا فإن من واجب الوطنية محاربة جميع هذه الشرور وإجلاءها عن الوطن العربي الكبير بقـــدر ما تجب محاربة الجيوش الغازية ، وهم يتحدثون ويؤكدون ان الغزو العقلي هو أفظع انواع الغزو وأقواه ، وانه هو السبيل الى الغزو العسكري والسياسي . ولا يخفي هؤلاء انهم مصممون بكل فخر وابتهاج على تطهير الوطن العربي من جميع الديمقراطيات والحريات التي تسللت بخبث الى البلاد مع التسلل الأجنبي الغادر الشامل ، لقـد فرضت الحرية والديمقراطية الضالتان على العرب كما فرض عليهم الاحتلال !

وقد لوحظ ان العرب يفقدون حرياتهم في الداخل بقدر مـا يتحررون من الخارج – أي إنهم يفقدون تعبيرات الحضارة والايمان بها بقدر ما يكونون سادة في بلادهم ! وهذا يعني أن ملامح الديمقراطية التي تغشت العالم العربي في المدة الاخيرة انما كانت غزواً خارجياً ، ولم تكن مزاجاً او ايماناً او خلقاً او نضجاً في العرب ، إنها بالنسبة لهم تعد نوعاً من المرض والانحراف والفساد الاخلاقي والفكري ، والزعماء والحكام العرب يدللون بتصرفاتهم الخرقاء عـــلى هذه الحقيقة ، وهم يدركون ان الحرية خصمهم ، ولهذا يلتمسون المبررات المختلفة للقضاء عليها ، وانهم ليحاربون الديمقراطية وكل انواع التسامح بالحوافز التي يحاربون بها الاحتـــلال والنفوذ الاجنبي ! ولماذا يحاربون النفوذ الاجنبي ؟ هل لأنهم أحرار او أصدقاء للحرية ، هل لأنهم يريدون إنقاذ شعوبهم وإعطاءها أفضل او اكثر مما كان يعطيها الأجانب ؟ انهم إذن لأبطال وخيرون جـــداً ، ولكن كلا . فهؤلاء يطردون النفوذ والاحتلال الأجنبي لأنهم يريدون ان يكون الاحتـــلال والنفوذ لهم هم وحدهم ، انهم منافسون للعدو الأجنبي لا مناقضون له ، وغرضهم ان يجيئوا مكانه ويخلفوه في جبروته ، لا ان يصلحوا ما افسد او يفعلوا خيراً منه . ولهذا فإن آلام هذه الشعوب لا تزول بزوال الأجنبي ، ولا يجيء الخـير ولا الحرية مع مجيء هؤلاء الحكام والزعماء المحررين ! إذن هم يمكنون لأنفسهم لا يحررون بلادهم ، لقد أرادت منهم شعوبهم ان يكونوا لها رسلاً ، فأصبحوا فيها غزاة ! وهم يحاربون الحريات لأنهم يخشونهـــا على استبدادهم وهيبتهم وتفردهم ، ولا

يحاربونها لأنهم فضلاء يخشون الفساد والفوضى على بلادهم .

وقد يذكرون في التدليل على بغضهم للحريات ان تجربتها في العالم العربي قد جاءت ضد نفسها ! وقد يكون هذا التدليل محتمل الصدق لو كانت تجربة الحكم المطلق : حكم الشيخ والخليفة والبطل والقيصر قد جاءت الى العرب بأي خير ! فإذا كانت تجربة الديمقراطية لم ترض تماماً فماذا فعلت التجربة المضادة ؟ انهؤلاء القياصرة المعادين للحرية والتسامح لو فعلوا أي شيء طيب فليس إلا تقليداً أو استعارة او عوناً من بلاد أبدعتها الحريات ! ومع هذا فلا يمكن القولبأن العرب قد جربوا الحرية او الديمقراطية ليكون ممكناً الزعم ان تجربتها قد هزمت ، فالعرب لم يعيشوا الحرية بمعناها الحضاري في أي عصر من عصورهم ، وإنما عاشوا جميع عهودهم في قبضة حشود متزايدة من الآلهة والطغاة والسلاطين والخلفاء والشيوخ والأنبياء والعقائد والمخاوف الكبيرة المستبدة.لقد رأوا صوراً تعرض على الشاشة ولكنهم لم يروا أقواماً أحراراً يعيشون الحرية ويؤمنون بها ويفهمون دلالاتها .

إن حكام العرب يحاولون اليوم إحياء عصر الخلافة والامامة ، فهم يعتقدون ان جميع نظم الحكم والحياة الموجودة اليومعند المتحضرين هيخروج علىالعروبة وإلحاد بها ، ليس في هذه النظم وأنواع الحياة التي تحكم العالم ما يمكن ان يكون صالحاً للعرب ، كل ذلك كفر وفساد وتدمير للقيمالعربية الفاضلة! وإذنفالواجب الرجوع الى التاريخ العربي والطبيعة العربية ، واجب الرجوع الى عهود امراء المؤمنين ! مع التجديد في شيء واحد وهو اقتباس الوسائل الحديثة الحضارية المختلفة التي تجعل الحكم البوليسي الدكتاتوري حكماً شديد الإغواء والبطش !

ويخشىان يرجع العرب الى عهود العمامة والجبة واللحية والمسبحة والطيلسان مثلما كان في أزهى عصور الأمجاد العربية ، واذا لم يستطيعوا او يجرؤوا على وضع هذه التيجانالعربية فوق أجسامهم فهم واضعوها حتماً علىأخلاقهم وقلوبهم وأفكارهم . وقد يخشى ان يبالغوا في تعصبهم للعروبة وتمردهم على الحضارة المجلوبة ، وتذهب بهم المبالغة الى ان يحرموا المطبعة والكتاب، ومع أني لا أشك

في أنهم لن يذهبوا الى هذا المدى في فضيلتهم العربيـــة فأنا أعتقد انهم سوف يذهبون اليه في الفكرة والنتيجة ، انهم لن يحرموا الكتاب ولا المطبعة ولكنهم سوف يحرمون رسالتها ، فرسالة المطبعة والكتاب هي حرية التفكير والتأليف والثقـافة والنشر ، ولكنهم مستعدون لصلب الإله نفسه لو انه نزل من سمواته ليجعل هذه المحرمات الخطيرة سلوكاً في المجتمع وقانوناً منفذاً من قوانينه. وإذن فلا بد ان يحرموا الكتاب والمطبعة، بل هم لم يزالوا محرمين لهما ، واذا استخدموهما فمن أجل تحريمها ، انهم يجعلون من المطبعة والكتاب عوناً على تحريم الآراء والحرية التي تجيء مع المطبعة والكتاب ! ولو أن حاكماً منع المطابع والكتب من الدخول الى الوطن الذي يحكم لكان أفضل او أقل خطراً وعداوة لهما من الحـــاكم الذي يستعملها في مقاومة الحرية والثقافة والأفكار الجديدة !

وسادة العرب ينظرون اليوم بحنق وغيظ الى ما خلفـه الغزاة وراءهم من بقايا صحف وكتب ومطابع وأشياء اخرى مشابهة، انهم يمقتون الحرف ويلعنون مخترعه ، ولقد ذهبوا يصبون غضبهم على الصحافة والكتب والأقلام ويضعون اشرافاً عليها فيه كل معاني التحقير والاذلال والانتقام . ولعل كثيرين منهم يكرهون إعطاء الاذن باستيراد المطابع ، وهم يضعون عليها رقابة هي القتل ، وهي في معناها أشد من التحريم ! مع ان هذا العدو لهم ـ أعني المطبعة والكلمة ـ قد تحول تحت التعذيب وعمليات الاذلال الى صديق منافق لهم ـ تحول الى عميل لا شرف له ولا شجـــاعة ! ان هؤلاء الحكام يسحقون كل صور الديمقراطية ثم يملؤون الدنيا زعماً أنهم يبتكرون ديمقراطية جديدة . والديمقراطية الجديدة التي يبتكرون هي نوع من ديمقراطيات المعابد ! فهم يكتلون الجماعات المغلوبة على أمرها بعد ان يقتلوها خوفاً وهواناً ويسحقوا فيها كل معاني الشجاعة، ويأمرونها بأن تعبر عن هزائمها وأحزانها بجميع أساليب العبادة والهتاف والانهيار دون ان تجرؤ على رفع طرفها الى السماء أو الشك في حكمة أربابها ، وقد يتركونها تتمنى وتبكي وتقرر وتقترح وتتحدث عن نفسها وعن مطالبها ، بل وقد يلزمونها بذلك إلزاماً ، فهذا نوع من العبادة . وكم يرضي الآلهة كما يرضي الطغاة ان تجد جماهيرها

الذليلة الخائفة تناديها وترجوها وتطلب منها ببكاء وإيمان ، ولكن كل ذلك يجب ان يكون بأسلوب الضراعة والدعاء والاستسلام كما يفعل المؤمنون حينما يتقدمون باحتياجاتهم وصلواتهم الى الآلهة . وهذه الجماعات ليس مفروضاً عليها ان تطيع فحسب بل وان تريد طاعتها !

وفي مثل هذه الديمقراطية الجديدة يصبح الإيمان بالشيطان ضرورة ليكون مسؤولاً عن أخطاء القائد وطغيانه ، لأن القائد لا يمكن ان يكون مسؤولاً ولا مخطئاً ، وكل ما يشكوه المجتمع حينئذ من آلام هو من عمل القوى الخارجية المتآمرة التي تعادي القائد وتدس له لتفسد خططه العبقرية المنزهة وحبه الأصيل لشعبه وللانسانية كلها . والمؤمن يؤمن بالشيطان ليلصق به أخطاء الآلهة ، والعائش في مثل هذ الديمقراطية يؤمن بالأعداء الخارجيين المخربين وبمؤامراتهم ليلصق بهم جهل حاكمه وفساده ، وفي عهود الإيمان بالأديان وعهود ديمقراطية الطغاة تشتد الحاجة الى الإيمان بالشيطان وبالعدو الخارجي والى الحديث عنهما بجنون وإرهاق وطفولة . والفرق بين هذه الديمقراطية والديمقراطية المتحضرة كالفرق بين الصلاة والعبقرية .

*

والعقوبات التي يضعونها على وسائل النشر والتفكير هي التعبير الأعلى عن كراهتهم للمطبعة والكتاب وتناقضهم مع الديمقراطية والحضارة . وهم لا يريدون من الحضارة إلا ما يؤكدون به استبدادهم ويضربون به كل ما يمكن ان يؤدي الى الحرية او الى إضعاف قبضتهم القوية ، فالحضارة عندهم وسيلة لمقاومة الحضارة . واذا أخذوا بشيء من مزايا العصر الحديث فليس لأنهم يحترمونه او يؤمنون بقيمته ، ولا لأنهم يحبون الآخرين او يريدون الخير لهم ، ورفع مستوياتهم ، وانما يفعلون لأنه لا خيار لهم في ألا يفعلوا ، او لأنهم يريدون مجاراة الآخرين ومنافستهم ؛ او يريدون أن يكونوا عظماء مشهوداً لهم بالذكاء والمقدرة وحب الاصلاح والتطور ،وقد يقصدون بذلك حماية عهدهم ! فالأخذ بمزايا الحضارة نوع من الحماية للطغيان في تقدير الطغاة الجهال .

وحتى العظماء جداً ، الذين قادوا البشرية الى أعظم انتصاراتها لم يكونوا فضلاء ، ولم يكن حب الناس او الايمان بالخير هو الحافز لهم ، ولكنهم كانوا يسعون لارضاء أنفسهم . وليس الذين صنعوا السلام والرخاء والحرية باكثرصداقة او حباً للانسان ممن صنعوا الحروب والعبودية والفقر ، ان هؤلاء وهؤلاء ليسوا أصدقاء ولا أعداء،وانما هم قوم يستجيبون لحوافزهم. وهؤلاء الاعداء للديمقراطية كلما خضعوا لالتزامات الحضارة ، بأن أخذوا بالتصنيع والمشروعات الانشائية الاخرى،اشتدت حملتهم ضد الحرية لأنهم يدركون حينئذ أن أي تغيير في المجتمع قد يؤدي الى الحرية التي يخشون أن تؤدي الى اسقاط تسلطهم او اضعافه .

*

ويحمل المستقبل للعرب صورة غير سارة ، فهم يسيرون في اتجاهين مختلفين ، يأخذون تحت ضغط الظروف باشياء مما يفرضه العصر الذي يعيشون فيه ، ثم يرفضون بل ويعادون لروح هذا العصر وخصائصه الفكرية والثقافية .

وهذا يعني أن يظلوا دائماً يخلقون من الخارج،معتمدين على الخبرة والقروض والمنح الأجنبية ،لأن ملكاتهم مخمدة ومعزولة،وحكامهم وزعماؤهم يخشون انطلاق هذه الملكات ويقاومونها ويحاولون الاستغناء عنها بالاعتماد على الاجانب الذين يملكون الاستعداد والرغبة بلا أخلاقية في ان يضعوا انفسهم وكل ما عندهم من براعات في خدمة هؤلاء المتسلطين الأغبياء بلا شروط او بأرخص الشروط مع تقديم فروض الطاعة والولاء اللازمة لكبريائهم ورضاهم عن أنفسهم . ومن أبشع ما تفعله اليوم الدول الكبرى الغنية المتحضرة نفاقها الذليل غير الإنساني لهؤلاء الحكام الطغاة الصغار على حساب شعوبهم . والحضارة عند هؤلاء الحكام والزعماء ليست تطويراً او تنمية للمواهب الوطنية ولكنها هي الاتفاقات الخارجية للمساعدة الاقتصادية والفنية ولبيع الاسلحة. والطغاة يريدون من الناس أن يكبروا كرعايا ويصغروا كبشر ،ويريدون من شعوبهم أن تكون قوية في مجموعها ضعيفة في أفرادها. ولا تكون الشعوب خطراً على المستبدين إلا إذا قويت فيها الفردية، والخضوع للروح الجماعية

هي الفرصة المثالية لتمكن الطاغية. وهم حينما يرفضون كل الحضارات والفلسفات والمذاهب بحجة أن العروبة لا تستعير نفسها من الخارج، وان لها وجوداً وخصائص لا تشبه غيرها – حينما يفعلون ذلك يسقطون أنفسهم ويحكمون على عهودهم بالاعدام ، لأن الطريقة الغبية الاستبدادية التي يحكمون بها ليست ابتداعاً من عبقريتهم ، فلقد كان الطغاة والجاهلون قبلهم يحكمون كذلك ولا يزالون يفعلون، كانوا يتألهون ويعادون الحريات والتطور ، ويصنعون الظلم والكذب والفقر ويتحدثون عن الشيطان كما يصنع هؤلاء الصائنون للعروبة عن الشبيه والمثيل والتقليد . فاذا كانت العروبة ابتداعاً لا شبيه له وجب أن يموت هؤلاء وتموت عهودهم ، بل وجب أن تموت العروبة نفسها لأنها لا تستطيع أن تعيش إلا باسلوب عاشه الآخرون ويعيشونه الآن . أما إذا كانت العروبة تقليداً وتشبهاً فالواجب أن تقلد وتتشبه بالنظم والمذاهب الحرة المتحضرة ، لا الغبية المستبدة .

وهؤلاء الذين يصرون في دعوى عريضة على ان استيراد المذاهب والفلسفات عملية خيانة للعرب قد يجهلون ان جميع ما لديهم مستورد حتى الكلمات والأسماء نفسها ، وانهم لو تخلوا عن عمليات الاستيراد والتشبه بالآخرين في مذاهبهم ونظمهم وأخلاقهم لماتوا وتخلوا عن كل شيء حتى عن فلسفة الطغيان والغرور والجهل التي يباشرون وعن جميع ما عندهم من ملامح نظام وقوة ودولة ، ان أساليبهم ضد الحرية والتفكير والتسامح مستوردة. فالدكتاتورية البوليسية بكل أجهزتها وتنظيماتها وشرطتها وجيشها ومخابراتها وقدرتها على القمع والتخويف والانتشار والإغراء – هذه الدكتاتورية الرهيبة التي يفاخر بها أفضل وأقوى حكامنا ليست ابتداعاً عربياً ولا ملكاً للعرب وحدهم . ان العرب الآن يستوردون كل شيء حتى الدكتاتورية المنظمة القاتلة . لقد كانت لديهم منذ وجدوا دكتاتورية ولكنها كانت ضعيفة غير منظمة ، أما اليوم فما أعظم وأخطر ! انهم يملكون دكتاتورية تحرسها وتعلن عنها وتبررها جميع قوى الحضارة !

*

أنا أشعر ان شيئاً ما ، شيئاً كبيراً ليس في التفكير العربي ، وان هذا الشيء

الكبير المفقود هو سبب جميع الظواهر المذكورة ، فالعيوب التي تحدثت عنها في التفكير العربي هي تعبير عن هذا الشيء الكبير المفقود وظواهر له ولكنها ليست إياه . وأشعر أنني لم أستطع ان أحدد المعنى الذي أريده تحديداً يجعله مفهوماً مع جميع ما ذكرت هنا من سمات وظواهر .

وهنا أجدني كمن يرى مريضاً او يرى نفسه مريضاً ويقتنع بوجود المرض وقسوته ويعجز عن معرفته .

فلعلي تحدثت عن أعراض المرض لا عن المرض نفسه .

●

الروحانية والحرب

وضع زعيم كبير من زعماء العرب منذ سنوات كتاباً يعالج به جميع مشاكل العالم ولا سيما مشاكل الحرب والسلام والاخلاق . وقد كان المؤلف طيباً وسخياً جداً في تقديره للأمور وتهوينه للمشاكل الصعبة حتى ليكاد المرء يحسده على طيبته وكرمه في تصوره البسيط بلاذكاء. وقد تصور الدعوة التي دعا اليها في كتابه رسالة خالدة ، وأهاب بالعالم كله أن يؤمن برسالته لكي ينجو من اخطار نفسه واخطار حضارته المادية ، زاعماً ان هذا هو الطريق الذي لا طريق سواه امام البشر جميعاً اذا أرادوا الخلاص من ويلات الحروب ومن كل الشرور التي يواجهون! وقد سخر من كل علاج آخر غير العلاج الذي قدمه في كتابه . وكانت فكرته أو دعوته قائمة على ان مشاكل الحروب والخلافات والعداوات قد حلت نهائياً ! ولكن ما هي هذه الطريقة التي حلت بها مشاكل لم تستطع جميع عبقريات البشر وفلسفاتهم ونياتهم الطيبة ان تجد لها حلاً ؟ انها طريقة سهلة جداً ، متواضعة جداً ، وهي في الارض لا في السماء ، وفي اذهان الجماهير لا في عقول العباقرة ، وفي الجوامع لا في المجامع ! لقد وجد الكاتب آية في القرآن تنهى عن الحرب والخلاف وتدعو الى السلام ، فالوسيلة اذن ان يؤمن الناس كلهم بالدين الذي هذه الآية في كتابه ، حينئذ يصبحون ملزمين بالعمل بها ، وحينئذ لا حروب ولا

خلافات ولا فساد . سذاجة مذهلة ! وأكثر قادتنا ومفكرينا ووعاظنا يرون هذا الرأي ويدعون اليه . ويوجد في مجتمعات أخرى راقية من يقولون مثل هذا القول أو قريباً منه .

ولكن هل كان يمكن ان تبقى مشكلة واحدة من غير حل لو كانت المشاكل تحل بالأوامر والنواهي والإيمان؟ ما أسعد الانسان لو كان الأمر كذلك — ما أطيب حظوظ البشر لو كانت العلاقات بينهم وبين أنفسهم وبينهم وبين الشمس والقمر تعالج بالمصاحف ! لو كانت المشاكل بين النجوم تحل بالآيات ! من اليسير جداً أن يبعث الله أنبياء لا عداد لهم يدعون الناس الى ان يكونوا كما تريد وتتمنى لهم السماء ، أن يكونوا آلهة وملائكة في مستوياتهم العقلية والأخلاقية ! ان الدنيا حينئذ لجميلة وسعيدة لو كانت الأوامر تحول البشر الى ما يريدون !

أمران يحركان الانسان ويجعلان منه محارباً مخالفاً عدواً تارة ، ومسالماً موافقاً مصادقاً تارة أخرى ، والأمران هما الارادة والفكر ، الفكر ولو كان وهماً أو باطلاً . فالارادة تجعله يرفض الأوامر أو ينساها ويفعل مراداته ، والفكر يجعله يبرر ذلك ويسوغ له أن يخالف ثم يقتنع انه لم يفعل إلا الحق ولم يخرج على ما أمر به . يحارب ويظلم ثم يذهب يزكي حربه ومظالمه ، زاعماً انها الحرب المقدسة المأمور بها للدفاع عن النفس والحق ، وان الظلم الذي يفعله هو العدالة الخالدة . والذي نفعله نريده ، والذي نريده نسوغه فكرياً !

ولهذا فإن كبار المؤمنين الاتقياء الذين كانوا يتلقون رسالات السماء بأيديهم وقلوبهم كانوا يحاربون الآخرين ويخالفونهم وينحونهم أعنف العداوات والأحقاد ، وكانوا كأنما ينزهون الله ويعبدونه بذلك — بل لم يستطع هؤلاء الأتقياء المؤمنون ان يتجنبوا محاربة أمثالهم من الاتقياء المؤمنين ومخالفتهم وبغضهم والحقد عليهم وحمل الحسد لهم في صدورهم المملوءة بالآيات والأحاديث وبالوصايا العشر ! وهذا لأنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من الارادة والتفكير ، وإذا وجدت الإرادة والفكر فمن ذا يستطيع أن يمنع وجود نتائجهما ! ومن الضلال تلك المزاعم

الذاهبة الى ان الحروب ما هي إلا إحدى سلالات الحضارة المادية ، وانها – أي الحروب – لن تعالج أو توقف إلا بالروحانية والدين أو بالأخلاق والنيات الطيبة كما يقول كبار القادة والكتاب في العالم ، وهذه أوهام صغيرة يقولها ويعتقدها رجال كبار . لقد تقاتل أصحاب الأديان والأخلاق والنيات الصالحة وتخالفوا وتعادوا ، لأنهم كما سبق كانوا خاضعين للإرادة والفكر ، وتقاتل الضعفاء والجهال ومن لا حضارة لهم كما اختلفوا . فالحروب والخلافات لا توجد في الظروف الحضارية وحدها بل في جميع الظروف ، لأنهما من مشاكل الانسان والحياة لا من مشاكل الحضارة فقط .

وقد وجد المتعبون والعاجزون عن الحضارة وغير المتكافئين معها نفسياً وفكرياً ومادياً ، والشاعرون بالهزيمة امام المتحضرين – وجد هؤلاء في خلافات الأمم المتحضرة ومشاكلها المستعصية وتقاتلها فرصة ملائمة ليذيبوا مشاعرهم المهزومة الخائفة في لعنات وتحذيرات سدّدوها الى حضارة الأقوياء . وكان هذا يخفف من إحساسهم بالهزيمة والعجز ويخليهم من التبعة المفروضة عليهم ، كما يضعف فيهم حوافز الاقتداء بالمتفوقين !

ان الحروب والخلافات لا تعالج بحب الفضيلة ، ولكن بالعلم والتقدم المادي والانساني كما تعالج الأمراض وكل مشاكل الحياة ، فالمدنية إن كانت تحمل تناقضات وآلاماً ، فإنها كذلك هي التي تحمل علاج نفسها وشفاءها ، والحرب هي إحدى هذه المشاكل التي لا علاج لها إلا بالعلم والعقل والتقدم المادي ! وبالطريقة التي عولج بها السلام بين الافراد سيعالج بها السلام بين الشعوب ، وقد كان الأفراد في أزمان قديمة يتقاتلون كما تتقاتل الأمم – أي انه لم يكن هنالك سلام فردي ، والآن قد وجد السلام الفردي على نحو ما ولم يوجد السلام الدولي وإن كان المفروض أن يوجد يوماً ما ! والمشاكل تعالج بأسبابها الطبيعية لا بالاخلاق ولا بالروحانيات ولا بالنيات الصالحة . ولا علاج للحروب والخلافات غير الوسائل الطبيعية المادية العقلية ، والذي يصنع الخطر هو الذي يصنع الامان وكما نمرض مادياً فاننا نتعالج كذلك مادياً . وفي طبيعة الحياة ان تعمل ذاتياً

لتتوازن مع نفسها وظروفها وأخطارها ، وفي نفس المشكلة حل المشكلة ،ومن الحركة الخطيرة تجيء الحركة الناجحة ، وفي نفس الخطأ يتولد الصواب ! وإذا كان الإنسان هو الذي يشب الحروب فانه هو الذي يمنع الحروب ، والشيء الذي تقدر ان تفعله تقدر ألا تفعله ، والذي يجعلك توازن وتجيد الموازنة وتقدر عليها وتضع لها وسائل العلاج هو التقدم الحضاري والعلمي والمادي .

ان الإنسان يبارز نفسه اليوم ويواجهها باسلوب لم يحدث له مثيل في كل تاريخه ، انه يتحدى وجوده ، وان حيـــاته وارادته لتقفان من علمـه موقفاً فيه كل احتمالات الموت . ولكن كم هي المواقف القاتـــلة التي اجتازتها حياة هذا الكائن وحولتها الى مزية ! والعلم والحياة والإرادة إذا اجتمعت عملت على ان تتعادل فيما بينها حتى تستطيع السير في اتجاه واحد ، لا أن تتصادم وتتحطم تحت عملياتها المتناقضة ، وهذه الرغبة التي توجه عمل الإرادة والحياة والعلم وتوحدها في الفرد والامة ستكون ايضاً موحدة وموجهة لها في الامم حتى تصنع منها اتجاهاً واحداً لا يتصادم ولا يتحارب . واتساع معارف الإنسان وعلومه المـادية من أسباب بقائه وسعادته لا من أسباب هلاكه وشقائه ، فالاحتمالات الطيبة في تقدم العلوم والصناعات اكبر جداً من الاحتمالات الرديئة . والعلم لن يخيفنا على حياتنا اكثر مما يخيفنا الجهل ، ولن نخشى على الآلهة من نفسها لانهـا قوية وقادرة وعليمة ، ولكننا نخشى على الضعفاء والجهال من ضعفهم وجهلهم . واصوات التحذير التي ترتفع دائماً فوق كآبة الخطر دليل عـلى ان الإنسان يعرف كيف ينقذ نفسه مهما ساء موقفه ! واذا كنا لا نخاف على الاسد من قوته فكذلك لن نخاف على الإنسان من تقدمه العلمي ! ان الاسود لم تنتحر او يأكل بعضها بعضاً لانها قوية .

وهل خفي على هذا الزعيم العربي الكبير الذي رأى انه قد وجد حلاً لجميع المشاكل العظمى لانه وجد نصوصاً تأمر وتنهى وتحلل وتحرم وتدعو الى المثالية والسلام والحب — هل خفي على هذا الزعيم أن جميع الفلسفات والاخلاق تفعل ذلك ، ولكن المشاكل لم تحل والفلسفات لم تحكم الارض، مع ان كل البشر يحملون أفضل وأصدق النيات والرغبات لانفسهم، لان الرغبات والنيات ليست علاجاً !

وإذا أُصيب هذا القلم بخلل فكيف أُعالجه؟ هل أُعالجه بالنية الصالحة او بالأخلاق والروحانية ؟ انه بالاسلوب الذي يعالج به القلم يجب أن تعالج جميع القضايا حتى قضية الحرب والسلام .

*

ما هي الحرب ؟ انها واحدة من ثلاث : خطـــأ او مرض او ضرورة ولو نسبية، ولماذا تقع؟ إنهاتعبيرمتوحش عن حالة ما من حالاتنا الفردية او الجماعية، فهي استجابة لا تلقائية . وحيث تتهيأ أسباب هذه الحـالة فلن يوجد ما يجعلنا نطمئن الى انها لن تعبر عن ذاتها ! فانقسام البشر الى وحدات منفصل بعضها عن بعض في حدودها المادية والمذهبية والنفسية والتاريخية يؤدي بهم لا محالة الى انقسام مماثل في طاقاتهم الفاعلة ، وفي هذا الانقسام البشري قد يوجد بل لا بد أن يوجد قائد مغامر يطمع الى المجد المحارب، اوقائد مريض متعب ينطلق الى ساحة الحرب انطلاقاً كأنه سقوط الحجر لأنه لا يستطيع إلا أن يفعل ، كما يرتعش المريض او يهذي، دون أن يستطيع منع نفسه او تدبر امره . وفي هـذا الانقسام لا بد أن تفرض الحرب فرضاً على إحدى الجماعات او أحـد الشعوب ، او يرى على الأقل انها فرضت عليه ، فيحارب وهولا يريد الحرب او وهو لا يرى أنه قد أتى إثماً، بل وهو يرى أنه مأمور بها أمراً ، وفي هـذا الانقسام أيضاً لا بد أن ترى بعض الجماعات او الشعوب ان الحرب ضرورة من ضروراتها كاحـــتراف التجارة او الزراعة او الصناعة بالنسبة للآحاد والأمم .

وهذه الأسباب التي تجعل قوى الانسانية المنقسمة يقاتل بعضها بعضاً هي من حيث حدوثها وتصـــادمها وصيرورتها ملزمة تشبه الأسباب التي تجعل الأفراد يختلفون ويتنافسون ويعملون أعمـالهم المشروعة في النظام الفردي ، وكأنهم يتصارعون او يتقاتلون، سواء في ذلك الصالحون والطالحون. ولهذا فقد تساوى الرجل القديس والرجل الشيطان في الاستجابة لداعي الحرب ، ولعل الاسباب التي تجعل القديس راغباً في الحرب أكثر من الاسباب التي تجعل الفـــاسد راغباً

فيها ! فلقد يرى القديس أحياناً أن الحرب مفروضة فرضاً للدفاع عن الاخلاق او العدل او عن الآلهة والتعاليم المنزلة .

والكتاب المنزل الذي وجد فيه ذلك الكاتب الزعيم آية تدعو الى السلم قد ذكر الحروب والقتال وضرب الرقاب اكثر جداً مما ذكر السلم ، بل لقد جعل القتال قانوناً مكتوباً على البشر في قوله : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » . وفي آية اخرى استنكر الدعوة الى السلام ونهى عنها إذ قال : « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم » . والمواعظ والنواهي لا تزيل الرغبات والحاجات ولكنها قد تنحرف بها وتغير مجراها وموضوعها . والأمراض لا تزول إلا بأسبابها ، وكذا الحروب ، لا بالآيات والتعاليم الروحية او الطيبة النفسية .

والحرب محاولة غير مجدية ولا مهذبة لحل مشاكل نفسية ومادية حقيقية أقامتها أسباب صحيحة او باطلة ! والحرب عجز لا قدرة ، او هي قدرة قد وضعها العجز . وكل خطوة تخطوها الانسانية نحو القوة والتكامل المادي تبعد بقدرها عن شرور الحروب .

*

الحرب حالة بدوية لاحضارية ، وهي نهاية اعمال التاريخ في مشاعرنا ووجودنا ، واذا تحارب المتحضرون فانما يعبرون عما بقي فيهم من بداوة لا عما وصلوا اليه من حضارة ! كانت تقاليد الانسان وعقائده وكل أفكاره تمجد الحرب وتراها عملاً نبيلاً ومقياساً صحيحاً لفضيلته وبطولته ، وكانت آدابه وفنونه هتافاً حربياً عالياً وصلوات متواصلة لإله الحروب البطل الشرير ! وكانت الحياة طريقاً طويلاً من الدماء سار فيه الانسان ثملاً ومن حوله الحداة والطبول والشعراء ، يتغنون بمجد الدم ومجد السيوف ! لقد كانت كل تعاليم البشر قصيدة طويلة في تمجيد القتل والقتال ، وكان الانسان كلما عجز عن حل مشاكله مع الطبيعة ذهب يقاتل بعضه بعضاً وذهب يعاقب نفسه ، وكان كلما حل مشكلة من مشاكله استغنى

بقدر ذلك عن الحرب وأفكارها . ولو ان البشر استطاعوا ان ينتصروا انتصاراً كاملاً على الطبيعة لما احتاجوا الى ان يصنعوا حرباً! وجميع أحقـاد الانسان على الانسان واختلافه معه واعتدائه عليه وبغضه له إنما هو نوع من العجز عن الطبيعة والغضب عليها والاحتجـاج على ما تصنع به ، كان الانسان يعتدي على نفسه ليعاقب الطبيعة ! وكان العجز يصنع توتراً عصبيـاً ، وكان التوتر العصبي يتحول الى شغب وحقد وخصومة وسباب وحرب! ان العجز عن الانتصار على الأمراض والمجاعات والفيضانات وعن معرفة أسرار الكون واخضاع قوانينه ليصنع منا رغبة في الشقاق والعدوان وإلقاء السخط على الآخرين ! فالانسان اذا عجز عن ان يكون كما يريد راح يفعل ما لا يريد ! اذا عجز عن الانتصـار ذهب يصنع الهزيمة ، والبغض بديل رديء عن المحبة ، والحرب بديل رديء عن الانتصار في الحياة ! والحرب في كل صورها وظروفها ليست إلا تفسيراً لانتصار الطبيعة على البشر ، والسلام هو التفسير المقابل لانتصار البشر على الطبيعة . ان العـالم الذي ينتصر في محاولاته العلمية لأبعد عن مخاصمة نفسه ومخاصمة الآخرين من العـالم العاجز ، وغزو الطبيعة هو أحسن مستهلك لانفعالات البشر ولطاقاتهم. ولو ان الدول الكبرى استطاعت ان تسير في انتصـاراتها الكونية على مستوى ترضاه هي لكان ذلك أفضل صارف لها عن البغض والعداوة والحرب. وقد كان الطغاة الكبار يثيرون الحرب او الخصومات كلما عجزوا عن حل مشا كلهم مع انفسهم، ولهذا فحيث يوجد الطاغية الكبير توجد احتمالات الخطر الكبير ويوجد التهديد الدائم للسلام ! فالحرب والخصومة هما دائماً مشكلة وانفعـال لم يجدا لهما حلاً ، والحرب مشكلة طبيعية لا انسانية ولا اخلاقية ! الحرب هي عمل التـاريخ في الانسان !

فالبداوة اذن تصنع بتقاليدها وعقائدها وكل سلوكها شعوراً حربياً ـ شعوراً يجعل الحرب حالة نفسية دائمة ! وكل شيء لا بد ان يكون حالة نفسية وفكرية لكي يكون وجوداً .

اما الحضارة فانها تصنع شعوراً مضاداً للحرب ، وسوف يظل هذا الشعور

يتراكم ويتراكم حتى تصبح الحرب شيئاً لا يستساغ في أي مجتمع متحضر ، واذا خرجت الحرب من خيال البشر وتفكيرهم بخرجت من سلوكهم ! ان البشرية التي كأنما أشواق خفية تدفعها في فترات متقاربة الى ان تغتسل بدمائها قد يأتي عليها يوم تتجمد فيه الدماء داخل شرايينها فلا تسيل منها قطرة واحـدة تحت قدمي إله او جبار او دجال ! وان الطغاة والزعماء المجانين الذين تطير ألبابهم دائماً وراء الامجاد الحمراء قد يخلو مكانهم من هذه الدنيا في يوم قريب او بعيد ، لأنهم لن يجدوا العبيد او الجنود المغفلين ، ولأن النظم والظروف والأوضاع السخيفة التي يتلصصون من خلالها الى غباء الجماهير وخديعتهم سوف تزول وتتهدم ! وقد يكون هذا القول أمنية من الأماني السعيدة ، ولا طريق لهذا الامل سوى التقدم الحضاري والمادي ! أما التعاليم الروحية فقد تعلمنا كيف نصبر على الآلام وكيف نتقبل المشاكل بهوان وغباء ، غير أنها لا تعلمنا كيف نعالج هـــذه الآلام والمشاكل . والانسان لا يفقد احساسه بالألم اذا قيل له اصبر على ألمك ، أو قيل له لا تتألم او انك غير متألم !

والحرب والسلم ليسا من عمل الفضيلة والرذيلة بل من عمــــل الضرورة ولو كاذبة — وكذلك الاختلاف والاتفاق والحب والبغض! ولهذا فقد يدخل الحرب الطيبون والاشرار ، ومن يريدونها ومن يلعنونها ، وحينما توجد ظروف الشيء يوجد ذلك الشيء ! ان جميع الناس يكرهون الحروب ويخافونها ، ومع هــذا فجميعهم يمكن ان يخوضوها بل ويبدأوها . ومن اللغو ان يقال : ان قوماً من انصار السلام وقوماً من انصار الحرب ، فالبشر كلهم من انصار الحرب او كلهم من انصار السلام ، بل كلهم من انصار السلام وكلهم كذلك من انصار الحرب ! والحرب ليست قانوناً من قوانين الحياة ولا احتياجاً او ضرورة فيها ،قد تكون حالة كحالات الجهل والفقر والمرض التي تصيب الانسان ويحاول الانتصار عليها بالانتصار على مسبباتها كما يحاول الانتصار على الصحارى والفيضانات وعلى جميع وقاحات الطبيعة !

العقيدة ليست قوة ، وهي لا تصنع نشاطنا ولا تحركه ، وعلاقتنــــا المادية

بالاشياء وشعورنا نحوها هما اللذان يصنعان نشاطنا ويحركانه ، وليست العقيدة نفسها سوى تعبير عن هذه العلاقة وهذه المشاعر وظاهرة من ظاهراتها ، وقوة العقيدة ليست في نفس العقيدة بل في الرغبة التي تصوغ العقيدة. واعتقادنا للشيء لا يجعلنا نعمل ذلك الشيء او نتحمس له ، ولكن مدى ارتباطنا النفسي او الحركي او الاجتماعي به هو الذي يجعلنا نعمل ونتحمس . العقيدة موات والحياة للأسباب التي توجد وراء العقيدة ! والانسان لا يستجيب لعقائده ،وانما يستجيب للانفعالات والظروف التي أوحت بتلك العقائد . الانسان قدرة وارادة فقط ، وما سواهما ليس له من قيمة الا بمقدار ما يحرك تلك الارادة وتلك القدرة . وقد يظن ان العقيدة تحرك الارادة والقدرة وتجمعها وتحرضها ، فالارادة والقدرة هما الاسباب الفاعلة ولكن العقيدة هي التي تحكم تلك الاسباب . ويبدو ان هذا غير صحيح، وان العقيدة سلبية تماماً وان كل النشاطات المقترنة بها انما هي نشاطات لغيرها ، ولهذا فإن العقائد كثيراً ما تموت وتفقد نشاطها وقدرتها على التحريك، وذلك حينما تفقد الحوافز التي تخلقها وتهبها الحركة ! وليست العلاقة بين الانسان وعمله او بين الانسان والكون هي العقيدة بل القدرة والارادة والملاءمة ، ونحن قد نعمل بلا عقيدة ، فالاعتقاد ليس شرطاً في ان نحيا ونعمل ونبدع ، وانما العقيدة محاولة لتفسير وجودنا وحياتنا وابداعنا ، وتفسير الشيء ليس جزءاً من الشيء ولا شرطاً فيه ! العقائد تجميد او تخطيط لانفعالات الانسان،والانفعالات صور متحركة ، والعقائد تحولها الى صور جامدة! والذين يعملون بحماس واصرار اكثر لا يعني هذا منهم انهم يملكون عقائد اقوى او اكثر او افضل ، وانما يعني انهم يتلاءمون مع ارادتهم ووجودهم وأوضاعهم وقدرتهم اكثر . وقد يظن ان شدة شكيمة الشيوعيين وقوتهم في المقاومة والمضي راجعة الى قوة عقيدتهم وايمانهم الفكري ، والذين يظنون هذا الظن يرون ان الايمان والعقائد القوية هي التي تصنع جميع الانتصارات والتحديات الضخمة الخلاقة ! ولا يبدو هذا الرأي صواباً.

ان شدة الشكيمة التي عرفت عن الشيوعيين وغيرهم من ذوي المذاهب الجديدة الفعالة إنما ترجع الى قوة انفعالاتهم وتأججها وقوة تلاؤمهم مع أنفسهم وظروفهم !

والفرق بين المتحمسين الفعالين وبين الخامدين فرق في الانفعالات والحماس النفسي لا في العقائد ، والعقيدة الشيوعية لم تصنع شعوراً قوياً ولكن الشعور القوي ظهر في صورة عقيدة قوية . ولهذا فقد وجد دائماً أن أصحاب الحساسية والانفعاليين والمتألمين والمتوترين هم اكثر الناس ميلا الى اعتناق الشيوعية والتعبير عنها بأقسى واقصى ما يكون التعبير ، وهكذا الشأن في جميع المذاهب العنيفة الجديدة . وليس ما تشكوه الآن الشعوب الغربية التي يقال انها قد عجزت عن مباراة الشيوعيين والتكافؤ مع تحدياتهم الخطيرة — ليس ما تشكوه الشعوب الغربية هو انها فقدت ايمانها ، بل انها فقدت حماسها ! ولم تفقد حماسها لفقدها ايمانها ، فالحماس يوجد نفسه ، والايمان لا يوجد شيئاً حتى ولا نفسه ، بل قد يكون الايمان هرباً من الحماس ، فقد يؤمن الناس ليتخلصوا من الانفعالات العنيفة. الانفعالات العنيفة تصنع الايمان ، والايمان يحاول ان يضعف الانفعالات ، ان المتحمسين جداً ، اولئك الذين يحققون انفسهم تحقيقاً صارخاً هم قوم قد فقدوا الايمان — انهم انفعاليون فقط ، إذ المتحمس جداً لا يمكن ان يكون مؤمناً حقيقة . ولكن الناس يخطئون في فهم ذواتهم وفي التعبير عنها . الايمان تحديد ، والتحديد ينافي الحماس ، إذا آمنا بمذهب او عقيدة او إله فقد فقدنا الحماس للآلهة والمذاهب والعقائد الاخرى ، وفقدنا كذلك حماسنا للأشياء والاحتمالات الجديدة التي لا نؤمن بها او التي تنافي ايماننا ، بل ومع تكرار ايماننا سنفقد حماسنا لما نؤمن به ، ولهذا كان الايمان دائماً منافياً للحماس ، وكان هادماً للايمان او خطراً عليه !

*

الروحانية تعبير عن المشكلة لا حل لها ! ان معنى الروحانية ان تواجه موقفاً لا تستطيع ولا تعرف كيف تعالجه ، فتلجأ الى الفرار منه والى تجميده . فمن وراء كل تعبير روحي مشاكل غير محلولة ، مشاكل مجمدة ، ومن وراء كل ظاهرة روحية مشكلة غير روحية . اذا كانت المشكلة وجوداً مادياً فكيف تعالج

بالروحانية وهي لا تعطي قدرة على العلاج ولا معرفة به ؟

الروحانية تقول لنا كونوا طيبين ومحبين للخـــير والحق والفضيلة ، ولكن كيف نستطيع ان نكون كذلك ؟ واذا كنا كذلك فكيف تزول المشكلة وهي مادية تحتاج الى علاج مادي ؟ ان كوننا طيبين ومحبين للخير والفضيلة قد يجعلنا نشتبك مع الآخرين المخالفين لنا والذين نظنهم أعداءً للخير والحق والفضيلة اكثر من احتمال اشتباكنا بهم لو كنا اشراراً ومخطئين مثلهم ! وقد تكون الحرب واعمال العدوان والرذيلة نوعاً من الدفاع عن الحق والخير والروحانية والفضيلة في حساب من يفعلون ذلك ! وكلما كنا اكثر روحانية كنا اكثر احتياجاً الى علاج غـــير روحي لأن الروحانية القوية دليل على قوة المشكلة التي عـبرت عن نفسها تعبيراً روحانياً ! والروحانية تزيد المشكلة وتعقدها بدل ان تزيلها او تضعفها ان كانت الروحانية تفعل شيئاً !

الجهل والمرض والجوع والحرب مشاكل مادية فلا يمكن ان تعالج إلا باعمال مادية ، كما ان الأحجار والأشجار التي تسد الطريق لا يمكن ان تزال إلا بعمليات مادية ! ونفس الآلهة إذا كانت لهم مشاكل فلن يجدوا أية وسيلة لعلاجهـا وحلها غير الاعمال المادية والعلمية ، ولن يحلوها او يعالجوها بفضائلهم النفسية او الاخلاقية . الإله دائماً يعالج مشاكله بالعمل المادي لا بالاخلاق ! لقد عاشت الشمس والكواكب والكائنات الاخرى وتوافقت او تصادمت بقوانـــين مادية لا بقوانين روحانية او اخلاقية .

★

وللحرب تفسير آخر ، إن أي مجتمع او انسان هو نهاية تاريخ وبداية حياة ، فالحياة والتاريخ يجتمعان دائماً في كل انسان وكل مجتمع ، ولا يوجد من يحيون في التاريخ وحده او في الحياة وحدها ، ومحتوم في الحياة ان تناقض التـاريخ ! الحياة تريد ان تهزم التاريخ — تهزم كل مخلفاته الأدبية والمادية ، والتاريخ يحاول

ان يقاوم مدافعاً عن نفسه بجميع أساليب المقاومة والدفاع . وما من مجتمع او فرد إلا ويواجه داخل ذاته هذه الحالة المتناقضة ، فبقايا التاريخ الذي يحيا فيه المجتمع والفرد والذي يريد ان يزحم ما سواه تناقض الحياة وتريد الانتصار عليها ! والمفروض في هذا التناقض بين الحياة والتاريخ في المجتمعات والافراد ان يكون تناقضاً سلمياً وان ينتصر كل منهما على الآخر بقوة خصائصه وما يعطيه للمجتمع والانسان ، والحياة دائماً تأخذ من التاريخ وتحتل مواقعه ، وهذا معنى التطور الدائم . والتاريخ نفسه كان في وقت من الأوقات حياة انتصرت على التاريخ ! ولكن هذا التناقض بين طبيعة الحياة وطبيعة التاريخ قد يتحول الى اسلوب عنيف ، وهذا معنى الحرب ! والحرب بين البشر هي في الواقع ليست حرباً بين الانسان والانسان بل حرب بين التاريخ والحياة !

ولننظر الى أية حرب عامة او محلية او الى أية ثورة ، فستبدو لنا وكأنها حرب او ثورة بين حالة تاريخية بما فيها من أفكار وتقاليد ونظم وأوضاع وفساد وظلم وناس ، وبين حياة مقبلة جديدة بكل أساليبها ومزاياها واحتياجاتها وقوتها . ولهذا فقد بدت كثير من الحروب والثورات وكأنها احدى قوى السماء الخيرة التي تصنع الحياة وتمنحها فرص الانتصار ، او كأنها عملية تهديم لمرحلة فاسدة متبلدة مستعصية من مراحل التاريخ ! ومع هذا فالحرب والثورة لا تعطيان شيئاً بل تحتجان على شيء . وخصائص الحياة والتاريخ تجتمعان في الانسان الواحد فتصنعان منه انساناً متحارباً داخل نفسه ، وهذا الاجتماع بين حالة التاريخ وحالة الحياة في انسان واحد قوي قد يحوله الى صانع حروب ، والطغاة الصانعون للحروب والاخطار هم اجتماع ركيك مخيف بين هاتين الحالتين ، والانتحار نفسه ما هو إلا حالة اجتماع بينهما ! وكلما تطور المجتمع والفرد كان أقدر على حل الخلاف بين حياته وتاريخه وحل مشاكل اجتماعهما حلاً علمياً سلمياً بلا حروب ولا ثورات ، فالحياة القوية الواعية تستطيع ان تنتصر على بقايا التاريخ ومخلفاته من غير قتال ، أما الحياة العاجزة المتخلفة في وعيها وتطورها فلا تجد إلا ان تدخل

الحرب ضد التاريخ ، وقد تعجز عن الانتصار وتظل الحرب بينهما سجالاً وكأنها لا تنتهي ، وقد يبدو ان التاريخ ينتصر أحياناً !

واذا كان محتوماً ان المجتمع يتطور فمحتوم ان ظروف الحرب والظروف المسببة لها والاحساس بها ونحوها وطرق علاجها والقدرة على هذا العلاج، سوف تتطور أيضاً !

●

الإرادة والمعرفة

لا تسير الارادة والمعرفة دائماً في طريق واحد ، فقد نعرف مثلا ان هـــذا الأمر صالح ولكننا لا نريده فنذهب نحاربه ونزعم انه فاسد او نحاول تضليل معرفتنا به وبمزاياه ، وهذا لأن أهدافنا الخاصة لا تنال به او لأنه ينكر علينـا هذه الأهداف ! وكذلك قد نعرف أن أمراً من الأمور او مذهباً من المذاهب او عهداً من العهود او رجلاً من الرجال فاسد وشرير ولكننا نظل نتـاصره ونحافظ عليه ونكذب له ونزعم انه صالح وقد نراه صالحاً بالتعويد، لأننا نريده، ونحن نريده لأنه طريقنا الى أغراضنا ولو توهماً وخطأ . وليس هذا فقط، بل ان معرفتنا نفسها خاضعة لإرادتنا ، فقد نعرف الشيء لأننـا نريد معرفته ، ونريد معرفته لأننا نكسب من هذه المعرفة شيئاً ، او لأنه يتلاءم مع حالتنـا النفسية او مع أفكارنا وعقائدنا الخاصة — وقد نجهل الشيء لأننا نريد جهله، لأن في جهله فائدة او راحة لنا ! وتتناقض معرفتنا وإرادتنا لأنه يوجد دائماً تناقض بيننـا وبين الكون والآخرين وأنفسنـا ، فالمعرفة تتحدى الأشياء ، والاشياء تتحدى المعرفة ! والمعرفة كما سبق في مواضع من هذا الكتـاب ليست هي المحرك الاول في حوافزنا بل الارادة — أي الفائدة الخاصة التي تتعلق بها الارادة ، غير ان الارادة — على أحد الوجوه — مسيرة بالمعرفة، فالارادة تتعلق بالاشياء التي تناسبها تعلقاً عشوائياً فيما يبدو ، والمعرفة أحياناً هي التي تدلها أين يوجد ما ينـاسبها .

وهذا هو سبب اختلاف الناس في اتجاهاتهم ومغامراتهم وأديانهم ومذاهبهم ، إذ كل يسعى الى ما يريد ولكن أين يوجد هذا الذي يريد ؟ وما هو ؟

ولا يختلف البشر في أنهم جميعاً يريدون اللذة ويطلبونها او على الأقل يريدون الاستجـــابة لذواتهم ، واختلافهم يرجع الى اختلافهم في الطرق التي تؤدي الى اللذة ، وأشد الناس كسلا مثل أشدهم مغامرة كلاهمـــا ينشد هذه الغاية . فالمعرفة خاضعة للارادة والارادة موجهة بالمعرفة ، فكيف كان ذلك ؟

ان قصد الانسان في جميع حالاته هو تلبية ارادته لأنها غاية في ذاتهـــا ، أما المعرفة فهي خادم ووسيط للارادة ، وجميع معارف البشر المكسوبة ما دفع الى شيء منها سوى ارادتها ، ولهذا فإن كل المعارف مسخرة للارادة .

ومع هذا فقد تركت تصرفات الانسان هذا السؤال حائراً : هل الانسان يريد لأنه يعرف أم يعرف لأنه يريد ! والجواب بهذا او بهذا على وجه التوكيد ودائماً لا يكون صواباً ، والصواب الإجابة على الشطرين معاً بالموافقة ، والناس انمـــا يطلبون المعرفة والحق يوم يريدونها ، وحين تكون المعرفة ضد الارادة فلن تجد حينئذ من يطلبها او يعشقها . والشعوب والجماعات التي تطلب المعرفـــة والحق والعدالة انما تفعل ذلك لأنها قد أرادتها لا لأنها قد احترمتها او عرفت منفعتها ! فالتدليل على الشيء بأنه حق او عدل بالبراهين والمنطق لا يمكن ان يكفي لاتباعه او الموت في سبيله ، بل ولا للاقتناع به ، بل لا بد من خلق الظروف التي تجعل إرادته أمراً محتوماً ! ومعنى هذا ان جميع الحقائق الموجودة في الدنيا لا تستطيع ان تجعل منا أصدقاء لها ما لم توجد فينا ارادتها ! انه من العبث ان نرجو من انسان يجني من انحطاط قومه وجهلهم أضخم المغانم ان يؤيد او يبارك الدعوة الى التغيير الشامل او حتى يهادن ذلك – كما ان من العبث محاولة اخراج قوم من وضعهم الاجتماعي او الاعتقادي او الفكري او النفسي الذي طالمـــا تشبثت به ارادتهم واعتادته بدون ايجـــاد حافز قوي من الرغبة يحرك فيهم ارادة الوضع الآخر الذي يراد نقلهم اليه ! وهذه الحضارة بكل اغرائها وقوتها لم تقدر على ان تجعل من بعض الشعوب المتأخرة فاعلين لها او مؤمنين بها لأن الحوافز التي كانت

لدى هذه الشعوب حوافز مخالفة لا موافقة ، أي ان هذه الشعوب لم ترد هـذه الحضارة فلم تؤمن بها ، وسوف تظل غير مؤمنة بها ما لم تردها — أي ما لم تر فيها فوائدها وتلاؤمها وقدرتها عليها ، لأن العجز عن الشيء يخلق الارادة المضادة له أحياناً ! ويوجد هنا قول قـــديم قاله سقراط وناقضه آخرون ولا تزال وجوه الخلاف فية قائمة !

قال : « إن المعرفة هي الفضيلة » . ولكن كيف قال ذلك وما تفسير هذا الذي قال ؟ انه يعني ان المعرفة بالشيء توجب العمل بمقتضاها ، والعمل بمقتضى المعرفة هو الفضيلة لأن الفضيلة هي تحقيق أقصى ما يمكن من اللذة ودفع اكبر ما يمكن من الألم من بين اللذات والآلام ، وليس من الممكن ان يعلم انسان ان عملاً من الأعمال يجلب له اكبر اللذات ويرد عنه اكبر الآلام ثم يتركه مختاراً ، وإذا تركه فلا بد ان يكون قد اعتقد في الترك لذة اكبر من لذة الفعل — كما لا يمكن ان يعلم ان عملا معيناً يجلب عليه اكبر الآلام ويحرمه من أعظم اللذات ثم يفعله اذا استطاع ان يتركه ، واذا فعله فلا بد ان يكون قد اعتقد ان في الفعل دفعاً للألم اكثر مما في الترك . وأنا أعني هنا باللذة الارادة وبالألم الخروج على الارادة . والذين يعارضون هذا التفسير يعارضونه لأنهم يرون الناس يسرقون ويقتلون ويخونون ويفعلون أموراً كثيرة هم يعلمون انها محرمة ورديئـة وتقود الى الخطر والشقاء ، كما انهم يتركون اشياء أخرى يعرفون انها واجبة وان تركها يسبب الألم والخسران ويحرم من اللذات ، إذن لقد انفكت المعرفة عن الفضيلة ! ولكن هذه المعارضة لا تكون صحيحة إلا متى وجد انسان يعلم علماً متأكداً ان الزنى او الكذب او الغش يصيبه بألم أكبر من ألم العفة والصدق والنزاهة والأمانة ويحرمه من لذة أكبر ثم يزني او يكذب او يغش — وإلا متى وجد انسان يعرف معرفة متأكدة ان في ترك الذهاب الى المعبد او في ترك الاحسان الى الآخرين من الآلام وفقدان اللذائذ أعظم مما في قصد المعبد وفعل الاحسان ثم يدع المعابد والاحسان، ولكن هل يحدث شيء من هذا ؟

والذي يبدو ان الاقوام الذين يفعلون ما يعد محرماً ويتركون ما يعد واجباً

إنما لبوا — فاعلين وتاركين — أوامر الإله الاكبر الذي لا تعصى أوامره — أعني أوامر الإرادة التي هي المركز لمجموعة أعمال الانسان ، غير أن الإرادة هنا موزعة ، فالناس يعلمون أن في فعل ما يعد محرماً لذات ودفعاً للألم ، ويعرفون او يعتقدون او يظنون او يقال لهم : ان في هذا الفعل آلاماً وحرماناً من اللذات — وعكسه في الواجبات مفعولة ومتروكة ، فانقسمت اراداتهم لانقسام معارفهم ، فظفر بالمعركة الأقوى من الارادات والمعارف . ولهذا فان البشر يتفاوتون كثيراً في التفضيل بين هذا وهذا فاعلين وتاركين ، لأنهم متوزعون بين اتجاهات الارادة المختلفة لاختلاف توجيه المعرفة لها ، وكل الفضائل والرذائل والبطولات والمغامرات والجبن والاستقامة والفسوق خاضع لهذه المفاضلة ! ان القاتل الشرير والفاضل الوديع — ان النبي وقاتل النبي ليدينان لحافز واحد هو الارادة التي ليس فيها خير ولا شرير من حيث الذات والطبيعة ، وكل ما بين القاتل والفاضل المسالم من فروق هو ان اتجاه ارادتيهما اتخذ مسلكين مختلفين .

لماذا لا يجسر الناس على مخالفة القوانين جهرة — لماذا يهابون اغتصاب الاعراض والأموال والقتل حينما يعرفون أن سلطان القانون محيط بهم ، ولكنهم يغامرون في الخروج على التعاليم الدينية والأخلاقية وعلى القوانين الموضوعة حينما يظنون أنهم قادرون على الافلات منها ؟ انهم في الحالة الاولى يعلمون أن الألم الذي سوف يصيبهم أكبر من اللذة التي ينتظرون الظفر بها ، فاختاروا ارادة الاحجام على ارادة الاقدام ، والارادة كما سبق تهتدي بالمعرفة . أما الحالة الثانية فانهم أحياناً كثيرة يقدرون تقديراً فكرياً هدت اليه المعرفة ان اللذة التي سوف يجنون من الاقدام أعظم من اللذة التي ينتظرونها في الاحجام وحينئذ يقدمون ، وأحياناً أخرى يقدرون العكس ، وحينئذ يحجمون ! ولو أن أي عاقل علم باليقين أن عملاً معيناً من الأعمال سيذهب به الى نار الأنبياء الخالدة ليكون خالداً فيها لكان من المستحيل أن يقارف ذلك العمل ، ولكان في ارادته النجاة ما يزجره عن التردد بين أن يفعل وأن يترك ، ولكنه يقارف ذلك العمل وغيره من الأعمال لأنه لم يعلم أن ألماً سوف ينزل به لا محالة ، وان سعادة كبرى سوف تفوته كذلك

ولهذا فان خفقة حذاء الشرطي الذي يحمي الأمن والبنوك والمتاجر لأقوى من طلعة ألف نبي في أيديهم ألف كتاب منزل ! ولا ينبغي أن تصدق تلك الخرافة الطيبة القائلة : بأن مخالفيك في الدين يعتقدون أن دينك هو الحق ومع هذا يصرون على الاستمساك بدينهم ، متحدين لما في الجنة والنار والسماء من عذاب ونعيم واحتمالات كثيرة كبيرة .

والحقيقة النفسية الخطيرة هي أن الناس لا يؤمنون بأديانهم ولا بالإله الذي يتحدثون عنه كثيراً ، انهم يتحدثون عنه كما يتحدثون عن الأشباح الغريبة وعن الأحلام والحظوظ والمصادفات الشاذة، ولكنهم لا يؤمنون به ، ولو كانوا يؤمنون به كما يؤمنون بلغم تحت أقدامهم ، وكما يؤمنون بأن الارتماء تحت القاطرة او في النهر يقتلهم لكان تصرفهم في الحياة شيئاً آخر، شيئاً مغايراً جداً لتصرفهم الذي يحيون ويتعاملون به في كل حياتهم ، بل لو كان البشر يؤمنون بالله لكان إيمانهم خطراً على عقولهم وعلى العلم والحضارة والقوة بل على الحياة نفسها ! إذ ليس من المحتمل أن تؤمن بالله على النحو الذي تذكره الأديان والذي يذكره المؤمنون أنفسهم – ليس من المحتمل في علم النفس أن تؤمن مثل هذا الإيمان ثم تستطيع أن ترى الشمس او القمر او ان تفعل او تحب شيئاً ، انك حينئذ لن ترى غير الله ولن تفكر في شيء سواه وفي لقائه والخوف منه وفي جنته وناره وقوته العظيمة الرهيبة ، انك حتماً ستموت من الذهول والخوف والحب ! وما يظنونه إيماناً بالله ما هو إلا عملية شعورية !

فالانسان يعيش في مجموعة هائلة من المشاعر الضائعة والعنيفة المتناقضة ، ولابد من ترتيب هذه المشاعر وتحديدها في صورة من الصور – في صورة خارجية ، وقد تصورت على مر التاريخ في شتى الصور ، وقد جاءت إحدى هذه الصور التي أخرجها الانسان لمشاعره في صورة إله عظيم جداً – إله قد جمع في صفاته كل أماني البشر وتاريخهم وخيالاتهم ! وإيمان الانسان بهذه الصورة الكبيرة التي أبدع في إخراجها لم يكن يعني إيمانه بقوة خارجية ، لقد كان يعلم أنه يؤمن بنفسه وانه هو الذي صنع هذه الصورة ، ولكنه كان محتاجاً الى التزييف كما يحتاج الى الإيمان باشياء كثيرة زائفة ، لقد وجدت كلمة الله في لغة الإنسان كما وجدت لفظة

آه ! كان يعلم ان الله ليس إلا مشاعر إنسانية قد تحولت الى لغة كبيرة من الشعر – الى صورة هائلة إطارها الكون كله ، ومع هذا يعلقها على جدار مكتبه وفي غرفة نومه ثم يتوجه اليها بالهتاف والإيمان والأمل البعيد كأنها كائن خارجي بعيد جداً يعيش من وراء هذا الكون كله . فالله بمعناه الديني لم يكن موجوداً في حياة الإنسان او سلوكه او تفكيره ، وانما كان يتحدث عنه ويناجيه ويخاطبه كما يحدث ويناجي شياطين الشعر وجنيات البحر وبنات النجوم ، بل كما يناجي نفسه ويدعوها ويهتف بها ! كان يدعو نفسه ويعبدها ويؤمن بها حينما كان يرى انه يدعو الله ويعبده ويؤمن به !

والذين يستبشعون انكار الله ويثورون على من ينكرونه او يقاتلونهم لا يعني عملهم هذا انهم يؤمنون بوجود الله حقيقة ، وانما يعني انهم يدافعون عن انفسهم ، فالله في تقديرهم هو حالتهم النفسية والشعورية التي قد تحولت الى صورة خارجية ! فالثورة على من ينكرون الله انما تعني الثورة على من يحاربون مشاعرنا وظروفنا المختارة او يحتقرونها او ينافسونها ! ان انكار الله لا يعني في تصور المؤمن به الذي لا يبالي بتعاليمه إلا الانكار لحقه في ان يصور مشاعره كيف شاء وان يختار لنفسه أفكاره واتجاهاته ! فالذي يهاجم عقائدنا إنما يهاجمنا نحن ، لهذا نغضب ونثور وندافع ، ان رأينا هو نحن أنفسنا ، وهذا هو سبب دفاع الناس عن آرائهم ، هم لا يريدون الدفاع عن الآراء والعقائد والمذاهب ولكن الدفاع عن انفسهم ، انهم ليسوا نبلاء الى المستوى الذي يجعلهم يقاتلون الآخرين دفاعاً عن فكرة او عن وضع ، وليس في قدرتهم او نيتهم ان يدافعوا عن غير انفسهم او يغضبوا لشيء سواها ! وهم كذلك لا يؤمنون بالله ولا يدافعون عنه ، وإنما يؤمنون بذواتهم وبما تختاره او تؤمن به او تعمله من عقائد وأفكار وصور ومشاعر ، ويدافعون عن ذلك . ولا يوجد من يدافع عن الله كذات مجردة خارجة عنه ، انه لا وجود لله بمعناه الديني في سلوك او تفكير أي انسان في أي عصر من العصور .

ان أقوى وأعصى ضمير لو تعامل مع الله وآمن بشخصيته المذكورة في الكتب

المقدسة وعلى ألسنة الأنبياء والمفسرين له لحظة واحدة لذاب ذلك الضمير احتراقاً في جحيم الرهبة والدهشة والاحترام والحياء والعبادة والاخلاص والتفكير . ان الكون كله لا يطيق الايمان بالله دون ان يحترق ، فالايمان بالله معناه الجنون والموت او ان تصبح أخلاق المؤمن به وسلوكه في مناعة جسم الشمس ضد جراثيم المرض ! ان الصخر لو آمن بالله لذاب وتفتت ، ولكننا نجد الذين يرون انهم مؤمنون جداً يحيون مثل الناس ويتناسلون ويضحكون ويستمتعون بكل لذات الحياة ، بل ويظلمون ويتشاتمون ويفعلون كل أنواع العبث والفسوق دون ان يحترقوا او يذوبوا ، بل وانهم ليباشرون النساء بشراهة وينسون في صولتهم الجنسية كل الآلهة والتعاليم !وهل يمكن ان تحيا الشمس داخل شمعة او ان تحيا شمعة داخل الشمس ثم لا تحترق وتموت او تصاب بالجنون العظيم ؟ ان الفساد الخلقي والنفسي والاجتماعي في البلاد التي تتصافح بالآيات والأحاديث في أسواقها ومجالسها أضعاف الفساد في بلاد اخرى لا تعرف إلا الشيطان والمصانع والمعامل والنظريات ! والارادة هي وحدها التي خلقت الآلهة والشياطين وجميع المذاهب والنظم والفلسفات ، وهي أيضاً التي أخضعتها وحددت تأثيرها !

ان المعرفة هي الفضيلة لأنك اذا عرفت الشيء فسوف تريده او لا تريده فتفعل ما تريد ، واذا لم تفعله فلأنك أردت شيئاً آخر غلبت ارادته ارادة الفعل — وتترك ما لا تريده ، واذا لم تتركه فلأن ارادة اخرى فيك انتصرت على ارادة الترك ! فالطاعة كلها للإرادة ، والمعرفة تكون أحياناً دليلها. والبينات المنطقية لا تجدي شيئاً لدى من يراد نقلهم من وضع الى وضع ان لم توجد إرادة الانتقال فيهم ، وهذه الارادة لن توجد فيهم الا اذا علموا او وجدوا ان مصالحهم توجد في الوضع الجديد اكثر مما توجد في القديم او انها لن توجد الا في الجديد! وليس العداء الذي يبديه مقاومو التغيير ضد التغيير راجعاً الى الخوف على العقيدة والرأي بل الى الخوف على الوضع المتقرر والمغنم المكسوب . والأشقياء والسعداء يقاومون للدفاع عن ارادتهم ، وقد يدافع الأشقياء عن شقائهم الطويل الذي ألفوا ورتبوا مشاعرهم عليه حتى أصبح ارادة فيهم ، وقد يرضى البائسون أحياناً عن بؤسهم اكثر من

رضى السعداء عن سعادتهم ، وإلف العذاب قد يتحول عادة مكينة وتجربة فيها متعة! وهؤلاء وهؤلاء قد يقاومون كل تغيير ذوداً عن شهوتين مختلفتين، او ذوداً عن شهوة حقيقية وشهوة وهمية !

ومع أن الانسان يعمل لتحقيق ارادته فان هذه الارادة ليست متحددةوهو لا يعرف ماذا يريد !

هل يريد أن يكون حراً ؟ اننا نجده يهرب من الحرية !

هل يريد السلام ؟ اننا نجده يحارب ويصنع أسباب الحروب !

هل يريد الصداقة ؟ اننا نجده يبحث عن العداوة وينمي ظروفها !

هل يريد القوة ؟ اننا نجده يضعف نفسه بكل الوسائل !

هل يريد الهدوء والاستقرار ؟ لكنه يعشق القلق والصخب والجيشان !

هل يريد الأمن والسرور ؟ أليس أيضاً يريد الخوف والاكتئاب ؟

هل يريد ان يعرف ؟ انه اكثر من ذلك يريد ان يجهل !

هل يريد البقاء ؟ هل يريد الفناء ؟

هل يريد ان يصنع الآلهة والمذاهب والعقائد ؟ انه دائماً يكفر بها ويحطمها .

هل يسعى لشيء أم يسعى فقط ؟

هل له طريق يعرفه أم له أشواط تبدده ؟

هل هو جسر أم نهر ؟

هل ينتقل من مذهب وعقيدة الى مذهب وعقيدة لأنه يبحث عن الأفضل ، أم لأنه لا بد أن يتغيّر ؟

هل يتحرك لأنه يريد أم يريد لأنه لا بد ان يتحرك ؟ ولكن لماذا يتحرك ؟ ان الحركة مفسرة دائماً بالحركة ! الانسان يتحرك بالضرورة ، وكل حركة توجد ظروف حركة أخرى وتؤدي الى حركة أخرى ، وهكذا يظل دائماً يتحرك دون هدف وتفسير ودون ان يعرف لماذا . ان الحافز والهدف والسبب والنتيجة وأول الطريق وآخره شيء واحد ، وحل العقدة هو تعقيدها ! والذين يحلون اللغز هم الذين يعقدونه ! والانسان يسير ويسير وأبداً يسير ولكنه لا ينتقل ،

انه يظل دائماً في نفسه – يظل يسير في دائرة مغلقة ، والمثل والعقائد والنظريات والحوافز ليست أسباباً للحركة ولكنها تفسير لها ، الحركة تتحول الى مبادىء اخلاقية وعقلية ، والمبادىء لا تتحول الى حركة ! والذين يظنون أنهم يعملون لحساب المبادىء هم لم يستطيعوا او يجرؤوا على رؤية أنفسهم !

ان الكون كشيء متعدد ذي وحدات قد يفسر ويعلل بعضه ببعض ويدور بعضه حول بعض ، ولكنه كوحدة لا تفسير له وليس علة ولا معلولاً ولا مركزاً لشيء ولا تابعاً لشيء ، وإنما هو كتلة هائلة صماء متوحشة تدور في فراغ رهيب متوحش لا حدود ولا معنى له !

والانسان كذلك ، اذا نظرنا اليه كوحدات من الأفراد والمشاعر والأفكار والضرورات ، وكواحد في هذا الكون فقد يبدو مفسراً ، وقد يبدو أسباباً ونتائج وأفكاراً وأهدافاً ! اما اذا نظرنا اليه كمجموعة من الوحدات والضرورات والأفكار والمشاعر والأفعال والعقائد – أما اذا نظرنا اليه كذلك باعتباره كلاً فلا يعني شيئاً ، وليس له تفسير ولا هدف ، وليس عللاً ولا معلولات !

انه يذهب الى المدرسة ليتعلم ، ليعرف ، ليتخرج ، ليعمل ، ليعيش – انه يذهب الى المصنع لينتج ، ليأخذ اجراً ، ليأكل ، ليلبس ، ليعيش – انه يتزوج ليشيد بيتاً ، ليعطي أولاداً ، ليتعبوا ، ليتعب ، ليصنعوا ويصنع مشاكل ، ليعيشوا ويعيش – انه يفكر ويبتكر ويخترع ، ليقوى ، ليعيش – انه يغني ويرقص ويلهو ويلعب لينسى ويفرح ويطرب ويعيش !

إذن هو دائماً يفعل ليعيش ، ولكن لماذا يريد ان يعيش ؟ وهو يبحث عن السرور لأنه يعيش ، ولا يعيش ليبحث عن السرور !

والانسان يشتهي ويحتاج لأنه يعيش ، وهل يعيش لأنه يشتهي ويحتاج؟ ولماذا يشتهي ويحتاج ؟ واذا كانت الحركة تفسر بالشهوة والحاجة فبماذا تفسر الشهوة والحاجة ؟ ان الانسان وجميع الاشياء لا تفسير لها في مبدأ وجودها ومبدأ بقائها ! كل عضو من أعضاء الجسم من أجل الجسم ولكن الجسم من أجل ماذا ؟

لا يسير الانسان في طريق بل يتحرك الى كل الجهات بلا خطة ! ولهذا فإنه

لا يوجد سلوك انساني متحدد بل سلوك متهافت متناقض، يفعل الشيء ونقيضه، يشيد المستشفيات لعلاج الجرحى، ويصنع الأسلحة بالملايين لقتل الملايين، ويخترع الآلهة ويكفر بالآلهة، ويهتف للطاغية ويعدم الطاغية! وهو لا يبحث عن حالة اجتماعية او اخلاقية معينة حينما يتغير او يثور، وانه لمستعد دائماً ان يهدم ويبني أي وضع من الأوضاع وأي مذهب من المذاهب وأي اعتقاد من الاعتقادات، وهو في هدمه وبنائه ليس مضبوطاً بقانون فكري او اخلاقي! وحينما يهب إيمانه وحماسه لمذهب او نظام او دين إنما يعبر بذلك عن شوقه الى الركوع لصنم جديد او آلة جديدة او طغيان جديد! ولهذا فإنه يضع اخلاصه وركوعه تحت أقدام كل الأصنام والأرباب والطغاة والمذاهب والنظم المتحاربة والمتناقضة والمختلفة في مزاياها ورذائلها! انه يؤمن بكل شيء ويعبد كل شيء ويتعصب لكل شيء، لأنه لا يبحث عن شيء، وإنما يتصرف تصرفاً عشوائياً تلقائياً كما تهب الرياح وتسقط النيازك. ولهذا فلن تكون للانسان أفكار ولا نظم ولا آلهة نهائية! انه دائماً هدم وبناء وتقدم وتراجع، وإيمانه بهذا وهذا ليس منطقاً ولا فضيلة بل حالة! وما نسميه تطوراً انسانياً ليس إلا عملية تراكم، تراكم فكر وشعور وعمل وذات كما تتراكم الانهار والأتربة! وتراكم الطبيعة لا يغير خصائصها، وكذلك تراكم الانسان. والتطور بمعنى تغير الخصائص لا وجود له!

ان حضارة الانسان وعلومه ونظمه وأفكاره وحياته في حركة دائمة — حركة متعاظمة، ولكن لا تغير في الطبيعة، يتغير التفكير ولكن لا تتغير طبيعة التفكير، وتتغير الصور الاخلاقية والاجتماعية والانتاجية والحكومية بدون ان يتغير معنى ذلك او تتغير أهدافه وحوافزه. وتراكم أي شيء يعطيه مظهراً وحدوداً وقيماً جديدة من غير ان يعطيه معنىً جديداً او فكرة جديدة!

والبشر يتطورون بمعنى يتراكمون — تتراكم حضارتهم ومعارفهم وتجاربهم وأحاسيسهم، ولكن لا يتطورون بمعنى يتغيرون! انهم سيظلون يفكرون ويشعرون ويحيون ويصوغون أخلاقهم ونظمهم بقانون واحد لا يتغير. ويوم

يغزون السموات وكل فجاج الفضاء ويمتلكون المشيئة المطلقة التي كانت آلهة القدماء تملكها، ويقضون على كل ألم وعوز وضعف سوف يبقون أيضاً بطبيعتهم الخالدة كما تبقى طبيعة الشمعة في الشمعة حتى ولو أصبحت شمساً تملأ الكون، وكما تبقى طبيعة قطرة الماء في قطرة الماء حتى عندما تصبح ذرات ضائعة في أحد المحيطات. والانسان بعد ان أصبح انساناً لايزال يحمل كل خصائص أسلافه من الكائنات الدنيا لأنه لا يتطور وإنما يتراكم، ففيه خصائص السمك والقرود والكلاب وكل الموجودات الحية التي هي أصله.

والمشكلة ان الكون لا يستطيع ان يكون غيرالكون — لا أفضل ولا أقل، والقانون الذي كان يحكمه حينما كان سديماً هو القانون الذي يحكمه اليوم في صيغته الأخيرة الحاضرة! وكل ما يحدث في الطبيعة هو تراكم لا تطور.

ومثله الانسان، لا يكون غير الانسان — لا يكون أفضل ولا أردأ مهما اختلفت تعبيراته الفكرية او الاخلاقية او الحضارية او الاجتماعية. ان أعظم عبقري ليس إلا أحط انسان بدائي، كما ان أضخم شجرة عملاقة ليست إلا أضعف شجرة من النوع نفسه، والفرق بينهما في الصيغة والتعبير والتراكم! وطبائع الاشياء لن تتغير مهما تراكمت!

وبالاسلوب الذي تفعل به الطبيعة نفسها وتفرض عليها احتمالاتها بلا حكمة ولا فضيلة يفعل الانسان نفسه وتفرض عليه احتمالاته كذلك من غير حكمة ولا فضيلة، وبقدر ما تكرر الطبيعة أخطاءها وآلامها وعبثها، يكرر الانسان ذلك لنفسه في نفسه، وفي مجتمعه!

ومحتمل دائماً ان يصنع الانسان اليوم وغداً ما كان يفعله منذ وجد وحينما كان متخلفاً جداً، محتمل دائماً ان يفعل الطغيان والجهل والغباء، ويشيد الأصنام والالوهيات ويبحث عن الفقر والألم والهوان ويدمر نفسه ونظمه ويسترجع أسوأ ما كان لديه — يسترجع أسوأ فترات تاريخه!

وذلك لأنه يتحرك فقط — يتحرك بلا ضمير ولا هاد، وجميع ما لديه من ضمير وعقل وتدبير ليس إلا تعبيراً عن هذه الحركة العشوائية التي تفسر بها

الاشياء ولا تفسر هي بالاشياء ، حتى الارادة نفسها خاضعة لهذه القوة العمياء — للحركة المفروضة الاضطرارية !

لقد قلنا : ان الانسان يفعل بالارادة، والصحيح انه يفعل بالحركة ، كما تفعل الحياة في النبات والحيوان ، وكما تفعل الطبيعة في الجمادات ، والارادة مظهر للحركة فقط !

اذن لن ننتظر من الانسان ان يكون فاضلا او حكيماً مهما بلغ من القوة والعلم والعبقرية ، ولن ننتظر منه ان يسير في طريق ، بل سوف يظل يتحرك على كل الجهات كما تتحرك الطبيعة نفسها بلا رسالة ولا رسول ، وبلا هدف او طريق !

*

وإدراكنا لعبث الوجود او الحياة لن يقلل من اصرارنا على البقاء ، فنحن لا نبقى ولا نريد البقاء لأننا نعلم شرعية الوجود ، بل نبقى بالضرورة كما تبقى النجوم والكوارث ، ونحيا بلا حكمة ولا منطق كما نموت كذلك ، « لماذا نحيا » يساوي « لماذا نموت » ! نحن نحيا حيث لا نستطيع ان نموت ، ونموت حيث لا نستطيع ان نحيا - إننا نحيا بالجاذبية كما نموت بالجاذبية — هكذا قلنا ، وهكذا نعيد ما قلناه !

ولو ان جميع الشرائع والأديان والتعاليم الاخلاقية فرضت علينا ان نتوقف عن فعل أسباب البقاء او فرضت علينا الانتحار الجماعي — فرضته دينياً او وطنياً — لما نقص تعلقنا بالبقاء عما نفعله اليوم . المسألة هي أننا لا نستطيع التخلص من أنفسنا ، ان وجودنا مفروض علينا بلا تدبير منا وبلا تدبير خارجي ، انه قضاء لا تدبير فيه ، لا لمن قضاه ولا لمن قضي عليه . فالذين يخشون على الحياة من كشف عبث الحياة ويظنون ان ذلك قد يضعف من رغبة الانسان فيها او يضعف ابداعه وعبقريته وتضحيته للصعود بها ، هم كالذين يخشون على حياة الذباب لو اكتشف انه ذباب !

والانسان مصاب بالغرور ، ومهما اكتشف من تفاهة شأنه ومصيره ومطالبه

فسوف يبقى أيضاً مغروراً مغالياً في تقويم نفسه !

انه في حالة ايمانه يعتقد ان الآلهة لم توجد الا لكي تهيء له مضجعه وتخلق له السموات والأرض وتزرع له الحقول وتجري له الأنهار والسحاب وتزين له النساء ليكون أكثر عشقاً ، ثم تظل بلهفة تنتظر منه ان يرد عليها التحية ويعترف لها بالشكر والمنة ويمنحها ايمانه وعبادته لكي يخفق قلبها بالسرور والاعجاب وترضى عن نفسها !

أما في حالة كفره فيعتقد انه قد تحول هو إلهاً !

والاتقياء الذين يتركون بعد كفرهم التحدث عن أمجاد السماء ينتقلون الى التحدث عن أمجاد الانسان بنفس اللهفة والورع والحماس ، وبنفس الرهبة ومشاعر اللاهوتية !

فالمؤمنون والكافرون معاً لا يمجدون ولا يعبدون ، بل يكونون ! فالايمان والجحود كلاهما غرور وعبادة لغير الآلهة !

والذي يبالغ في تمجيد الانسان او الإله لا يقصد تمجيد هذا ولا هذا وإنما هو انسان عاشق لذاته عشقاً غير عادي !

لقد كانت الآلهة في التصور المؤمن عمالاً عند المؤمنين اكثر مما كان المؤمنون عمالاً عند الآلهة ! وقد قالت الاديان : ان البشر قد وجدوا ليعبدوا الله !

اما المؤمن فيرى ان الله قد وجد ليعبد البشر !

وهذا هو تفسير سلبية المؤمن وتعصبه وغروره !

صلاة

حزين بعاطفته وتفكيره وسلوكه ، حزين لأنه يعاني ويرى ويحتج ، ويعاني ويرى ويحتج لأنه حزين ! ليس الحزن في حياته منطقاً ولكنه صلاة ، عبادة للإله والانسان ! يحزن بأعصاب الكون والآلهة والناس والاشياء ، لا يحزن بأعصابه فقط كما يحزن الجراد والنمل ! حزنه نوع من الحب والصلاة والاحتجاج ضد الألم والعبث وفقدان الاخلاقية في الاشياء ! انه حزين بالتاريخ والموهبة والتدين ! لا يعرف لماذا هو ، لهذا هو حزين ، لا يعرف لماذا هو حزين ، كما لا يعرف لماذا هو !

لماذا يموت الناس بعد ان يجربوا الحياة ويحبوها ويصادقوا أبناءهم والآخرين والكون — لماذا يفارقونهم بهذه القسوة البسيطة بلا أمل في العودة ؟ ان خلق الانسان لقتله ليفوق كل الجرائم والعبث ! لماذا يحزنون ويتعذبون ويمرضون ويشيخون ويسيرون في طريق مغلقة بالموت والأوحال ، وكل طريق في الحياة مسدودة بالموت ! ولماذا يعجزون عن الفهم والرؤية والنزاهة ؟ لماذا يحقدون ويتباغضون ويتحاربون ويتشاتمون بالآلهة والمذاهب والأديان ؟ ولماذا يثنون كلهم على الحقيقة والحب والصدق ثم لا يستطيعون ان يفعلوا او يحبوا ما يمتدحون؟ لماذا ينادون جميعاً بالمثل والنظريات التي لا حياة لهم إلا بالخروج عليها ، ولماذا

يتلوثون وهم يهتفون بالنظافة ويسجدون للأرض وهم يغازلون النجوم ؟

لماذا يموت الصباح وتنتحر الشموع وتكتئب الزهور ؟

لماذا تكون الدموع والأحزان والأخطاء والحقارات ؟ هل هي عقاب على بعض ما في الحياة أحياناً من ابتسام وسرور وذكاء وشجاعة ؟ ان كل ما في الكون من شموس وأقمار وأزهار ومحيطات لا يساوي دمعة واحدة تتحدر من قلب يعتصره الحزن او الشعور بالحقارة او الظلم او التفاهة او الضياع!

لماذا تسخر الآلهة العظيمة من الانسان ؟ لماذا تأمره بالعدل والحب والرحمة والذكاء وبكل الاخلاق ثم تفعل هي غير ما تقول ، بل ثم تصنعه على غير ما ما تأمره به ، فلا يعرف هل هي تريد ما تأمره به أم تنهاه عنه، هل الأفضل ما تأمر به أم ما تفعله ؟ انه ضائع ضال بين تعاليم الآلهة وسلوكها ، بين ارادتها وشرائعها ، بين قدرتها وشعاراتها ! خلقت فيه عقلاً ناقداً سائلاً وأحاطته بكل ما يوحي بالتساؤل والنقد ثم حرمت عليه ان يسأل او ينقد ، لقد أعطته حتمية التفكير ثم عاقبته عليه، أعطته السؤال عن كل شيء ولم تعطه الجواب عن شيء ، لم تخلقه بلا عقل ولم تقدم اليه ما يمكن ان يعقل ، جعلته عاجزاً عن الاقتناع وفرضت عليه الاقتناع ، طالبته بأن يكون اكبر وأفضل منها ثم حرمته من القدرة على ان يكون ، بل ثم هددته بالعقاب لو كان !

انه حزين للآلهة بقدر ما هو حزين للكون وللناس ولنفسه ، انه لا يستطيع ألا يحزن ، لأنه لا يستطيع ألا يحتج ، لأنه لا يستطيع ألا يرى ويعاني ، لأنه لا يستطيع ان يجد ما يتوافق مع منطقه ونظرياته الاخلاقية ومع احترامه للآلهة والكون والآخرين ! لا يستطيع ان يكون بلا تفكير ، ولايستطيع ان يعيش او تعيش الاشياء حوله بالتفكير ! إن عقله يشترط له ويشترط عليه ولكن كل شيء حتى وجوده يرفض هذا الاشتراط ، يلغيه !

إنه غريب في الكون وفي الناس وفي نفسه ومع الآلهة ، لهذا تحول الحزن فيه الى عبادة . لا يستطيع ان يفهم او يبرر ما يرى ويحدث ، لا يستطيع ان يفهم او يبرر لماذا تعيش الآلهة او تحب نفسها او تفعل ارادتها او تريد أفعالها —

إنه لا يستطيع ان يفهم او يسوغ ذلك لا بالأخلاق او التفكير ، لا بالضرورة او العبث ! ان الآلهة في حياتها أقل منها في صورها وتاريخها المكتوب والمحفوظ ، انه في حدوده الانسانية أكبر وأفضل منها في جميع المستويات ! لهذا هو حزين، حزين من أجلها ، وحزين لأنه لا يمكن ان يتفاهم معها ، وحزين لأنه محكوم بها، وحزين لأنه اكبر منها ، وحزين لأنها لا يمكن ان تكون مفهومة ولا مستساغة !

لا يستطيع ان يفهم او يبرر الكون ! هل هو إله ؟ إذن لماذا يقبل نفسه ؟ ولماذا يتعذب ويفسق ؟ هل هو مخلوق لإله اكبر منه يفرض عليه ان يكون موجوداً كما هو بكل تفاهاته ونقائصه وآلامه بدون ان يكون له هو مصلحة او رغبة او خيار في وجوده ، وبدون ان يستطيع التمرد او الفناء او تغيير نفسه او الغضب لها او عليها ؟ إذن ما ذنبه ؟ أم هو ضرورة ذاتية ؟ ان هذا شيء لا يمكن فهمه إلا بالجنون ، او مع الصبر الجميل ، لا يمكن فهمه إلا بأعمق مستويات الحزن ! ما أعظم الهوان والمأساة اذا كان محتوماً عليك ان تكون ، وان تكون كما أنت كائن ، ان تكون نفسك فقط حتماً . ان فرض الشيء على نفسه هو أقبح طغيان وأقسى عقـــاب – ليس لك حرية او قدرة على ان تفـارق ذاتك او تبدلها ! كم هذا فظيع ! كم هو موحش !

والناس كيف يمكن فهمهم وتبريرهم ؟ انهم لا يدرون لماذا جاءوا ، لمـــاذا يبقون ، لماذا يذهبون ، لماذا يريدون انفسهم ! ان أسوأ المعاصي ان يكره الشيء على ارادة نفسه ! ولا يدرون من أين جاءوا ولا أين يذهبون ولا لمـاذا يستمرون بهذا الهوان والعبودية يدفعون الثمن الباهظ الأليم لكي يستمروا بنفس الهوان والعبودية يدفعون هذا الثمن الباهظ الأليم ، كما لا يدرون لماذا وجدوا في هـذا المكان دون كل الأماكن الاخرى ، بهذه الصورة دون كل الصور الاخرى ، بهذا الضعف والتلوث دون جميع الاحتمالات الاخرى ، ولا لماذا جـــاءوا محكومين بالارباب القاسية يمزقهم الخوف والانتظار ، ولم يكونوا هم أرباباً ؟

هل هم وسيلة ، أم غاية ، أم وسيلة وغاية ، أم لا وسيلة ولا غاية ! انه حزين بهم ومعهم لأنهم فيه يتعذبون ولأنه فيهم يتعذب !

ثم هو ، لماذا هو ؟ ماذا يعني وماذا يريد ؟ ماذا يفهم من كونه هو دون كونه هم ، وكونه هنا دون كونه هناك ، وكونه كان دون كونه لم يكن ؟ ماذا يفهم من ارادته لنفسه ، من دفاعه عنها ، من خوفه عليها ، ومن منافسته للآخرين ، من كراهته لهم ، من حقده عليهم ، من مصادقتهم ، من النفاق لهم ، من الاختلاف معهم ؟ كيف يستطيع ان يعيش نفسه ، كيف يستطيع ان يواجهها ، يراها ، كيف لا تقتله او يقتلها ؟

*

لا تسيئوا فهمه ، لا تنكروا عليه ان ينقد او يتهم او يعارض او يتمرد او يبالغ او يقسو . انه ليس شريراً ولا عنيفاً ولا عدواً ولا ملحداً ولكنه متألم حزين ، يبذل الحزن والألم بلا تدبير او تخطيط كما تبذل الزهرة أريجها او الشمعة نورها ! لقد تناهى في حزنه وضعفه حتى بدا عنيفاً .

ان كل ما كتبه نوع من الصلاة والبكاء بلغة حزينة صادقة ، إنه يصلي ولكن بأسلوب الانسان المدفون في أعماق نفسه ، انه بتمرده وتحديه ليصلي لله صلاة هي أصدق من صلاة جميع المشرعين ، وانه بقسوته على الانسان ليحترمه ويتعذب له أكثر مما يفعل جميع الشعراء المادحين ! انه يصلي لله وللكون وللانسان ولكن بلغة هي أقوى من كل لغات المعابد ، فلا تخطئوا في فهمه ، لا تحقدوا عليه ، لا تظلموه ، انه باكٍ وليس لاعناً ، انه من ضعفه أمام حبه ليرثي لكل الاشياء ، حتى ليرثي للآلهة ، انه ليرثي للآلهة ويخجل لها من نفسها ! وهذا قمة الضعف او الحب او الايمان ، بل قمة العذاب ! ليس نقده إلا رثاء للعالم ورثاء لنفسه ، بل ليس نقده إلا تمزقاً ذاتياً . ما أشقى الانسان الذي يرثي للآلهة ! ان الرثاء للآلهة معناه ان تصطدم عقلياً بكل شيء وان تحمل ضميرك مسؤولية التعذب والتكفير عن كل أخطاء الكون ومظالمه وعيوبه ! ان الانسان هو أعمق الكائنات حزناً ، بل لعله الكائن الوحيد الذي يمارس الحزن كفضيلة اخلاقية وسلوك اجتماعي عام مشروع ، بل كتدين . وان الكبار وذوي المستويات الحضارية العالية لهم أعظم وأدوم أحزاناً من الاطفال والمتخلفين حضارياً ، ولهذا فان الانسان وحده ،

لأنه الحزين وحده ، هو الذي يبكي وينقــد ويتدين ، ان الحزن رقي انساني . ليست الدعوات الاصلاحية ولا النبوات او الافكار او النقد او الفلسفـات إلا أسمى أساليب التعبير عن الحزن ! فالمفكر العنيف او النـــاقد العنيف او النبي العنيف إنما هو الحزين العنيف ، إنما هو العـاطفي العنيف في عاطفته ، الصديق الرحيم أحياناً ! وأقسى الناس في نقدهم قد يكونون أرق الناس قلوباً ! لقد كان الأنبياء أعنف من نقدوا ، لأنهم كانوا أعنف احساساً بالآلام العالمية ، لأنهم كانوا أعنف من تألموا .

ليس في ضروب القسوة والبلادة كلها ما هو اكبر من ان تكون انساناً لا ينقد ، أي لا يحزن ولا يغضب ولا يحب او ينفعـل ! ان الذين لا ينقدون هم الذين لا يرون الآلهة او لا يقرأونها او لا يتعاملون معها نفسياً وأخلاقياً ، ان رؤية الآلهة وادراك ما تفعل ليهب الموت او الجنون او الاحتجاج الناقد ، وهذا الأخير هو الذي يحدث دائماً !

اذا غضبتم عليه فقولوا انه حزين، ضعيف ، رقيق، رحيم – ولكن لا تقولوا شيئاً آخر ، انكم حينئذ تهبطون الى أردأ مستويات الخطأ والظلم والذكاء ! ان الحزين لا يستحق غضبنا بل احترامنا وحبنا ، انه صلاة انسانية، صلاة للانسانية مهما جـــاء تعبيراً قاسياً ، انه أصفى دموع تتساقط من مآقي الشموس والغيوم احتجاجاً على التفاهات والآلام التي لا يجد لها تفسيراً في حكمة الارباب او مصلحة الكون ! انه الاحزان الكونية التي لم تجد لها قلبـاً وعيوناً سوى قلبه وعيونه ! انه الاعتذار الأليم عن بلادة نوعه ازاء مأساته !

فهرست فصول الكتاب

طبع على مطابع دار الغد